نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي

مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الثالث

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.



ISBN: 978-9938-14-190-0

I.R.A

مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

انقلبتم : رجعتم من الغزو.

رجس : خبث.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرر المنافقون تقديم أعذارهم عند رجوع المؤمنين من غزوة تبوك، أسكتهم بمصارحتهم بالنهي عن معاودة الاعتذار وأنك لا تصدقهم، قائلين : إن الله قد أطلعنا على جلية أمركم. والله يعلم حقيقة ما أنتم عليه في الحاضر والمستقبل، فمن الخير لكم أن تتوبوا، بإقلاعكم عن النفاق الذي أنتم عليه .إنكم سوف ترجعون إلى ربكم فيوقفكم على ما فعلتم ثم يجازيكم عن أعمالكم.

أعلم الله المؤمنين أن المنافقين سيعملون على إعراضكم عن لومهم وتقريعهم، فحققوا لهم الإعراض. لكنه إعراض قاطع للصلات بهم. إن دناءة نفوسهم جعلتهم كالخبث الذي يبتعد الناس عنه. ونهايتهم ستكون في جهنم جزاء بما اكتسبوه .

يقابلونكم بالأيمان ليتمكنوا من خداعكم فترضون عنهم. وهم فسقة، والله لا يرضى عن الفسقة، والمؤمن لا يرضى بما لا يرضى الله عنه .

بيان المعنى العام :

93- إنما السبيل ...فهم لا يعلمون.

ثم قابل القرآن بين الأصناف الذين عذرهم لصدقهم وإخلاصهم، قابل ذلك بالذين يطلبون منك الإذن ليبقوا في المدينة حتى لا يشاركوا في الغزو، ولا عذر لهم

يمنعهم، فهم أغنياء يملكون الرواحل والسلاح والـزاد، وليست بهم علة تقعدهم عن الغزو، ولكن فقدوا الشهامة وتأملوا وقلبوا أوجه النظر، فانتهوا إلى الرضا بأن يبقوا مع النساء والعجزة .وتبع اختيارهم هذا أن طبع الله على قلوبهم فهي مقفلة كالرسالة التي أغلقت، ثم أضيف الطبع عليها بطابع على الشمع يبقى أثره فلا تفتح إلا بإفساده، والطبع من الله فلا تتصور إزالته . واختيارهم للإعراض وخَتْمُ الله على قلوبهم انتهى بهم إلى جهل ظلامي لا يخرجون منه .

94- يعتذرون إليكم...بما كنتم تعملون.

الذي فهمته أن شأن المنافقين شأن المعتذرين الكاذبين الذين يحسون في باطنهم أن الناس لا يصدقونهم، وهم لذلك يعيدون على أسماع الناس أعذارهم لعلهم ينتهون إلى إقناعهم. فكان المنافقون بعد رجوع المؤمنين من غزوة تبوك يعيدون ما قدموه من كاذب المعاذير. ويقمعهم القرآن بإرشاد المؤمنين إلى ما يجيبونهم به؛ قل، الخطاب للنبي وللمؤمنين: لن نصدقكم أبدا، ولو كررتم إلى ما لانهاية. ملكنا حقيقة أمركم، فقد أعلمنا الله بما أنتم عليه وأخبرنا به. وأنتم مفضوحون عند الله ورسوله. ويحتمل معناه: دعوتهم إلى التوبة التي سيطلع علها الله ورسوله فيقبل تحولكم إن صدقتم.

ثم حذرتهم الآية بانكشاف أمرهم، يوم يرجعون إلى الله يوم القيامة، فلا يستطيعون ستر كذبهم بالمعاذير. وفي ذلك تحذير من تماديهم على النفاق وترغيب في التوبة فإن الله يعلم ما غاب عن البشر ومنه ما تنطوي عليه الضمائر، كما يعلم ما يصدر من أفعال لكل إنسان.

95- سيحلفون لكم ...عن القوم الفاسقين .

أعلم الله المؤمنين أن المنافقين سيلقونهم على طريقتهم في الكذب والخداع والاستخفاف بالأيمان عند رجوعهم من تَبُوك، يهدفون إلى قبول ما برروا به تخلفهم فتُعْرِضُوا عن لومهم وتقريعهم .فأُمروا أن يقاطعوهم مرة واحدة فيحققوا الإعراض لكن لا على النحو الذي يريده المنافقون من بقاء التعامل والصلات على النحو الذي كان قبل الخروج إلى الغزو، بل يهملونهم فيعتبرونهم كأنهم غير موجودين في المجتمع نكاية بهم واحتقارا لهم .إنهم لكذبهم ولأيمانهم الفاجرة تدنست نفوسهم فهم كالخبث الذي يبتعد الإنسان عنه ويتحاشى أن يتلطخ به. وحقق الله ما ذكره من قبل: أن مآلهم الخزي يوم القيامة في جهنم. وذلك جزاء لما عقدوا عزمهم عليه وأنجزوه.

إنهم يريدون أن يخدعوكم بالأيمان الفـاجرة فترضـون عـنهم ويسـتلون نقمـتكم علـيهم. اعلموا أن الله لا يرضى عن القـوم الفاسـقين. والمؤمنـون لا يرضـون بمـا لا يرضـى الله عنه. وذلك لفسقهم المتضمن كما قدمنا الجمع بين فساد العقيدة وسوء السلوك.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

بيان معنى الألفاظ :

أجدر : أحق وأولى .

الحدود : الفواصل المميزة.

المغرم : ما يدفع من المال ظلما وقهرا.

يتربص : ينتظر.

الدوائر : المصائب التي لا مخلص منها.

دائرة السوء : مصيبة السوء.

قربات : جمع قربة ما يتقرب به إلى الله .

السابقون الأولون : الأولون الذين سبقوا إلى الإيمان .

الأنصار : جمع نصـير وهـم الأوس والخـزرج الـذين آمنـون برسـول الله صـلى الله عليهم وسلم، كما يطلق على ذرياتهم من بعدهم.

أعد : هيأ .

بيان المعنى الإجمالي :

عني القرآن بتفصيل ملامح الفئات التي يتركب منها المجتمـع، فزيـادة عمـا قدمـه فـي الآيات السابقة، تعرض لصنف آخـر ممـن يتعامـل معهـم المسـلمون، فنـبههم إلـى أن الأعراب سكان البادية تأثروا بقسـوة الطبيعـة التـي يعيشـون فيهـا، فـأورثتهم غلظـة

وجفاء، لذا كان كفرهم أشد وكذلك نفاقهم، وهم أحرى بأن لا يميزوا بين حدود ما أنزل الله على رسوله . أعلمكم الله بخصائصهم لأنه هو العليم، وأرشدكم بحكمته لأنه هو الحكيم.

ونمط آخر من الأعراب ينافق، فيقصد من النفقات التي يقدمها التفصي على أنها إتاوة. ثم ينطوي على بغض لكم ينتظر حلول كارثة بكم . دعا القرآن عليهم أن تحل بهم الكارثة، على معنى أنها ستحل بهم قطعا . والله يسمع ويعلم ما يتحدثون به سرا في مجالسهم وما تنطوي عليه صدورهم لأنه هو السميع العليم.

ونمط آخر من الأعراب، يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر، يقصد من نفقاته أن تكون له قربة إلى منازل مدخرة عند الله، يقصد أن يدعو لهم الرسول. بشرهم الله بأنه حقق لهم ما يقصدون وكتبها قربات لهم، وسيدخلهم في واسع رحمته ويعفو عن زلاتهم . إن الله غفور لعباده الصالحين رحيم بهم .

والقسم الممتاز هم الذين سبقوا للدخول في الإسلام، من المهاجرين أهل مكة والأنصار أهل المدينة، ويلتحق بهم من الذين ساروا على منهجهم وكانوا محسنين في عقيدتهم وسلوكهم. أولئك جزاؤهم تحقيق أن الله راض عنهم، وأنه سيجازيهم بما يبلغ بهم درجة الرضا عما هم فيه فلا يطمحون لنيل أي شيء آخر، وقد هيأ لهم جنات تتخللها الأنهار. لقد فازوا الفوز الأعظم الذي ليس فوقه فوز.

بيان المعنى العام :

97←99: الأعراب أشد كفرا...إن الله غفور رحيم .

الأعراب سكان البادية غلظت طباعهم تبعا للبيئة التي يعشون فيها. ولزمتهم الشدة في حياتهم متأثرين بقسوة الطبيعة المحيطة بهم. فنبهت الآية سكان المدينة عن طبائعهم، لقلة الاختلاط بهم حتى لا يظنوا بجميعهم خيرا. بينت أن كفارهم أشد كفرا من كفار المدينة يتمسكون بالكفر أشد التمسك، وكذلك نفاق المنافقين منهم. سكان المدينة تُلزمهم الحضارة على التنازل عن بعض الأمور ليتمكنوا من العيش مع الآخرين، أما البدوي الأعرابي فهم عصيٌّ عن التراجع عما ارتسم في ذهنه. كما أن الفرص التي يتحاور فيها الحضري مع من هو أسمى منه معرفة وأعمق تفكيرا متكررة في المدينة، فتتفتح مداركه وتسمو، بينما اقتباس البدوي من غيره لا يتأتى إلا في أحوال قليلة. وفوق ذلك، إن سكان المدينة على صلة دائمة برسول الله الأسوة الحسنة في كل شيء، يتلقون منه ما يصقل عقولهم ويهذب أرواحهم، وما يزالون يرتقون من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى استنارت عقولهم ومشاعرهم

بما لم يحصل لغيرهم على مر التاريخ. ولذا كـان أهـل المدينـة أطـوع لتقبـل الأحكـام والتأدب بالأدب الإسلامي، علـى عكـس أهـل البادية فهـم أحـق أن لا يميـزوا بـين المتشابهات، وقد لا يدركون الفواصل بـين الأشـياء. والله علـيم حكـيم لا يفوتـه شـيء وقدر كل شيء تقديرا على أتم وجه وأكمله.

ثم ثنى القرآن بالكشف عن نفاق المنافقين مـن الأعـراب الـذين يجعلـون مـا ينفقونـه من زكاة أو من إسهامات في المصـالح العامـة، القصـد منـه التفصـي مـن المطالبـة على أنه إتاوة من الإتـاوات، أي ضـريبة ظلـم، يضـمرون انتظـار الـتخلص منهـا . وامتنعوا من أداء الزكاة، بمجرد ما انتقل الرسـول إلـى الرفيـق الأعلـى، لخليفتـه أبـي بكر ﷺ، فحاربهم وغلبهم. ومن ناحية أخرى هم لا يُقَـدِّرُون لكـم فـي المسـتقبل إلا أنـه ستحيق بكم كارثة، هـم ينتظـرون حلولهـا علـيكم. وعلـق الله علـى أمـانيهم بالـدعاء عليهم أن تحل كارثة السوء علـيهم. والـدعاء مـن الله لا يقصـد منـه تمنـي الحصـول ولكن تحقيق ما تضمنته صيغة الـدعاء. سـتحل بهـم كارثـة الهـلاك. والله يسـمع مـا يتناجون به عليم بمقاصدهم ونياتهم.

من شأن القرآن الإنصاف كما أشرنا إليـه فـي مناسـبات عديـدة. وقـد أنصـف القـرآن الأعراب فإنه إن كـان قـد شـنع علـى الفـريقين اللـذين كشـف عنهمـا فـي الآيتـين السابقتين، فإنه في هذه الآية أثنى علـى بعـض الأعـراب بـأنهم يؤمنـون بـالله إيمانـا صادقا يعطيهم تصورا للكون ونظامه وعلاقـة كـل مـا يحويـه بخالقـه، ويؤمنـون بمـا أنزله الله على محمد ﷺ، ويؤمنون بصفة خاصـة بيـوم الآخـر فهـم يراقبـون أعمـالهم مراقبة من يعلم أنه محاسب على ما قدم بـين يـدي ربـه. وانبنـى علـى ذلكـم الإيمـان أنهم يقصدون بما ينفقون التقرب إلى الله ليـدخره لهـم عنـده ويجـزيهم بـه، ويقصـدون أن يدعو لهم الرسول، إذ من عـادة رسـول الله أن يصـلي علـى المتصـدقين المسـهمين في بناء الدولة الإسلامية، كما سـيأتينا فـي الآيـة 103 مـن هـذه السـورة:(خـذ مـن أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم)

وبشرتهم الآية بأن ما يتقربون بـه مـدخر عنـد الله، متأكـد ذلـك بصـلوات الرسـول، سيدخلهم به في رحمته، ورحمـة الله إذا حلـت تبعهـا كـل خيـر وانتفـى عنـدها كـل مكروه. مما يدل على أنهم سيلقون جزاءهم في الجنـة. ومـن المؤكـد أن الله غفـور فمـا سبق تـوبتهم ودخـولهم للإسـلام سـيمحوه، وسـيرحمهم كـأنهم لـم يفعلـوا إلا الخيـر الخالص.

100- والسابقون الأولون...ذلك الفوز العظيم .

أتم القرآن تفصيل وضع المجموعات التي تُكَـوّنُ المجتمـع العربـي فـي عهـد الرسـالة وموقفهم من الدعوة، ومآل كل نوع مـنهم، بالتنويـه بأكملهـا وأفضـلها علـى الإطـلاق، وهم الذين سبقوا إلى الإيمان برسـول الله وفتحـوا قلـوبهم وعقـولهم للـدعوة وأسـهموا بأموالهم وأنفسهم في سبيل نشـر الإسـلام: أعظـم سـعادتهم أن يكونـوا المبشـرين بـه الرافعين للوائه على ما يصيبهم من ضر. واللفظ لـم يضـبط مـن هـم السـابقون، وقـد اختلف المفسرون تبعـا لاخـتلاف الروايـات ولتحمـل الـنص التـأويلات فـي تعيـين السابقين الأولين . فرأى بعضهم أنهم الـذين آمنـوا برسـول الله قبـل فـتح مكـة مـن المهاجرين، ومن الأنصار. وقيل من آمن قبل بدر، وقيـل مـن صـلى إلـى القبلتـين أي بعد بدر بشهرين . وغير ذلـك مـن الاحتمـالات والـذي يتـرجح عنـدي هـو التأويـل الأول لأن لقب المهاجر لا يطلق على من هاجر بعـد الفـتح لقولـه ﷺ : لا هجـرة بعـد الفتح ولكن جهاد ونية. ولقوله تعالى: (لا يسـتوي مـنكم مـن أنفـق مـن قبـل الفـتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا)[1] .

وعطف عليهم في رقيهم إلى المنزلـة الرفيعـة الـذين سـاروا علـى هـديهم، والتزمـوا طريقتهم، وبلغوا درجة الإحسان في حيـاتهم الباطنيـة والسـلوكية. هيـأ الله لهـم جميعـا جنات تتخللها الأنهار، وحل عليهم رضـا ربهـم، فبلغـوا بمـا تجمـع لـديهم مـن نعـيم نفسي وروحي وبدني مرتبة الرضا التي لا يسأل صـاحبها شـيئا آخـر بعـد مـا أوتيـه من فضل إلهي .وذلك هو النجاح الـذي لـيس بعـد نجـاح، والفـوز الـذي لا يمكـن أن يوصف بوصف أبلغ من كونه عظيما .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى

[1] سورة الحديد آية10

ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

مردوا على النفاق :تدربوا وتمرنوا عليه حتى حذقوه.

اعترفوا : أقروا بذنوبهم وأعلنوا التوبة منها.

تزكيهم بها: تنمي خيراتهم.

السكن : الاطمئنان والراحة.

بيان المعنى الإجمالي:

حذر القرآن المؤمنين من الأعراب المنافقين المتخفين حول المدينة الذين لم يشعروا بهم، وكذلك من المنافقين في المدينة المبالغين في التستر الذين تدربوا على النفاق، حتى إنك يا محمد لا تعلمهم بأعيانهم، ولكن الله يعلمهم لا يخفون عليه سيعذبهم مرتين في الدنيا، ثم يكون عذابهم يوم القيامة عذابا عظيما.

ونوع آخر هم من المؤمنين الذين يعيشون معك في المدينة خلطوا بين العمل الصالح، وبين القعود عن الغزو بدون عذر. إنه يرجى أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم بعباده.

اقبل من التائبين ما يقدمونه من الصدقات، فالصدقات تطهر النفس من الإثم، وتنمي الفضائل والخيرات، وزدهم فصل عليهم بمعنى ادع لهم، فإن دعاءك لهم يحل به في قلوبهم الطمأنينة وصلاح المعتقد . يؤكد القرآن قبول التوبة وقبول الصدقات لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده وهو الذي يقبل الصدقات والله تواب فيعظم الرجاء عند التائب وكذلك يعظم قبول الصدقة بالنسبة للمتصدق .

وقل لهم يا محمد اجتهدوا في العمل الصالح، لتعوضوا ما فاتكم وتلتحقوا بالسابقين. واحرصوا أن يكون عملكم خالصا نقيا مرضيا، فأنتم مراقبون من الله، ومطلوبون أن تعملوا وفق ما سنه رسوله، وأن تتحروا ما يرضي الجماعة. وفوق كل ذلك فستعرض عليكم أعمالكم وتحاسبون عليها يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

101- وممن حولكم من الأعراب ...إلى عذاب عظيم.

أسلمت قبائل بدوية كانت مستقرة حول المدينة، وأظهروا الطاعة الكاملة، منهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية . ولم يستقر الإيمان في قلوب

جميع أعضاء تلك القبائل، بل بقي منهم من كان يظهـر الإيمـان ويـبطن الكفـر. وكـذلك بعض سكان المدينة تدربوا أيضا على النفـاق ومرنـوا عليـه حتـى حـذقوه، يظهـرون انتسابهم للإسلام والمسلمين حتى ليخـالهم مـن لا يعـرف حقيقـتهم أنهـم مـن فضـلاء هذه الأمة، وهم إذا أمنوا من الأعين التـي تـرقبهم ظهـروا علـى حقيقـتهم مـن الكيـد للإسلام. إن هذه المجموعة بلغت مـن التخفـي أنـك لا تعلمهـم ولكـن علـم الله محـيط بهم، يترصدهم لينزل عليهم عذابه الذي وصـفه بأنـه مـرتين. واختلـف المفسـرون فـي تعيين المرتين فحملوه على نوعين مـن العـذاب، وحملـه الشـيخ محمـد الطـاهر ابـن عاشور على أن العذاب يضاعف ويتكـرر علـيهم، وهـو أولـى مـا حمـل عليـه لفـظ التكرر، ولكنه جعل المضاعفة لا تقف عنـد حـد .والـذي تـرجح عنـدي والله أعلـم: أن الله كما أخفى أسماءهم، أخفى كذلك نوع عذابهم، واقتصـرت الآيـة علـى تأكيـد أن كـل واحد منهم سيعذب في الـدنيا مـرتين، لا نخصصـهما بنـوعين مـن العـذاب ينسـحبان على الجميع، بل كل واحد منهم يعذب، ثم يعاد تعذيبـه .ثـم يـردون إلـى عـذاب واحـد يوم القيامة هو عذاب جهنم.

102- وآخرون اعترفوا...غفور رحيم.

وفريق آخر تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين المبـرئين مـن النفـاق، ولكـن ضـعفوا في لحظة خروج الجيش واعتذروا، فهم قد خلطوا مـا سـبق أن فعلـوه مـن الصـالحات، خلطوا بين تلك الأعمال الصـالحة والأعمـال السـيئة؛ ثـم اسـتيقظوا فتـابوا. يقـول الله تعالى: يرجى أن يقبل الله توبتهم فيتـوب علـيهم. إن الله غفـور رحـيم ترشـيح لقبـول توبتهم التي صيغت في قالب الرجاء للإشارة إلـى عظـم الـذنب مـن ناحيـة، ولأن الله غير ملزم بقبول توبة التائب المُخلصة له من العـذاب، ولأن التوبـة تقـع فـي وقـت مـا يزال فيه التائب يباشـر الحيـاة، وربمـا يمـتحن مـن نـوع المعصـية التـي عصـاها فيضعف مرة أخرى .

103-خذ من أموالهم ...والله سميع عليم .

الآية تحتمل أن يكون المراد بها لا ترد مـا قـدموه لـك مـن الصـدقات، وتحتمـل أنـه مأمور بأن يرشدهم إلى ما يمكن توبتهم من القبـول وهـو الصـدقة. فالآيـة تـدل علـى أن مما يساعد المذنب على الخروج مـن تبعـات ذنبـه أن يقـرن التوبـة بالصـدقة مـن ماله، وليس كل ماله، لما تدل عليه كلمـة (مـن أمـوالهم- مـن إفـادة التبعـيض) هـذه الصدقة التـي تطهـرهم بهـا مـن دنـس الإثـم. وتنمـي خيـراتهم النفسـية بالفضـائل والحسنات، وصل عليهم؛ والصلاة مـن الرسـول ﷺ للمـؤمنين دعـاء لهـم، يعمـر بهـا

قلب المصلى عليهم بالرحمـــة والطمأنينـــة والأنـــس وصـــلاح المعتقـد؛ ويـذهب عـنهم القلق والاضطراب والحيرة.

والله يسمع دعاءك ويجيبك، أرشدك للدعاء لهم وهو العليم بما يصلحهم.

104- ألم يعلموا...هو التواب الرحيم.

ثم حثهم على التوبة والصدقات بصيغة التعجب كـأن الكـلام علـى معنـى مـالهم لـم يعلموا حقيقةً مـا كـان ينبغـي أن تخفـى علـيهم؛ أن الله يقبـل .....ذلـك أن الآيتـين السابقتين تضمنتا الرجاء فـي قبـول التوبـة وأمـر الرسـول بأخـذ الصـدقات وأن لا يردها عليهم. فكان الحث في هـذه الآيـة بتقريـر أن الـذي يقبـل التوبـة هـو الله، وأن الذي يقبل الصدقات هو الله. والله موصوف بأنـه التـواب الـرحيم . وذلـك مـا يشـجع على الإسراع بالتوبة وعلى التقـدم بالصـدقات، ممـا يـرجح عنـد التائـب أن الله يقبـل توبته لأن الله هو التواب، وكـذلك عنـد المتصـدق أن الله يقبـل صـدقته لأن الله رحـيم بعباده لا يردهم خائبين عن بابه.

105-وقل اعملوا...بما كنتم تعملون.

هذا أمر من الله لنبيه أن يطلب من المؤمنين الـذين تـابوا وقـدموا الصـدقات، أمـر لهـم بأن يجتهدوا في العمل. ذلك أن الله وقد تفضل عليهم فوعـدهم بقبـول تـوبتهم بمـا يمحـو ما كان منهم من تقصير وخاصة قعودهم عن الغـزو، حتـى يجبـروا مـا فـاتهم ويرقـوا بصالح الأعمال إلى مرتبة السابقين.

وحرضهم أن يكون عملهم صالحا خالصـا لله، وأن يجتنبـوا مـا نهـى الله عنـه، وذلـك لأن الله مطلع على مقاصدهم وما ظهر وما خفي مـن أعمـالهم، ويرقبـوا رضـا رسـول الله عنهم، فميزان الصلاح مأخوذ من سـنته التـي بينـت الطريـق الراشـد. وأن يقـدروا أنهم منتسبون إلى المجتمع الإسلامي يعيشون معهـم ويتبـادلون معهـم المنـافع فيجتهـدوا ليكون عملهم يُمكّن للـتلاحم الاجتمـاعي، فـلا يعملـون عمـلا يسـيء إلـى الجماعـة وترفضه . وفوق ذلك أن يكونوا مستحضرين دومـا أنهـم سـيعودون إلـى ربهـم الـذي دفع بهم إلى الوجود، سيعودون إليه يوم القيامـة وسيحاسـبهم عمـا عملـوا مـن خيـر أو شر، فيُكْشَفُ يوم القيامة كل ما قدموه.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

بيان معنى الألفاظ :

مرجون : مؤخرون ينتظرون.

ضرارا : مبالغة في الضر .

الإرصاد : التهيئة .

لا تقم فيه : لا تصل فيه .

الشفا: الحاشية والطرف للهوة.

جرف : الحفير من واد أو مهواة.

هار : متهدم .

أسس: بني أساسه وهو قاعدة الجدار .

بيان المعنى الإجمالي :

تحدثت الآية 107 عن ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، ولا نفاق، ولكنهم تباطؤوا حتى فاتهم الجيش .سأل عنهم النبي ﷺ في تبوك . ولما رجع أتوه وصدقوه، فلم يكلمهم وأمر المؤمنين بمقاطعتهم، أخبرت الآية أنه سينزل فيهم حكمه إما بتعذيبهم وإما بقبول توبتهم. والله عليم بأمرهم حكيم فيما سيسلطه عليهم.

ثم عرضت سورة التوبة أمرا آخر من شأن المنافقين حول المدينة. فشنعت بالمنافقين الذين بنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء وطلبوا من رسول الله أن يصلي فيه، وكان قصدهم أن يفرقوا كلمة المسلمين لينفردوا بالصلاة فيه بناء على ما طلب منهم عبد بن عمرو الراهب المتنصر والمقيم في بلاد الروم، ليقبلوه فيه عندما يأتي بجيش من الروم يقضي به على الإسلام من المدينة. وحلفوا ليستحثوا الرسول على الصلاة فيه بأن قصدهم أحسن القصد، يساعدون من يشق عليه الصلاة في مسجد قباء، على حضور صلاة الجماعة. ونزلت هذه الآية تنهى الرسول ﷺ من الصلاة فيه وتفضح نواياهم، مبينة أن المسجد الذي أقيم من أول يوم بقصد الإخلاص

والتقوى أحق أن تعبد الله فيه، خاصة وهذا المسجد يعمره رجال يحبون الطهارة حتى أصبحت خلقا لهم، فأحبهم الله لذلك، والله يحب المتطهرين في سلوكهم والمواظبين على التطهر المادي.

يعلو المسجد الذي بني مع قصد التقوى وتحصيل رضوان الله، ويكون جامعا للخير كله في الحاضر والمآل، وينزل إلى أسفل الدركات من صاحب تأسيس بنيانه القصد الخبيث، فهو كالبنيان على طرف حفير متصدع، فما إن يعلو قليلا حتى يتلاشى في القاع ركاما ينتهي إلى نار جهنم. والله يمنع هدايته عن القوم الظالمين.

إنه وإن بعث النبي ﷺ من هدم البناء وأحرقه، وتحول إلى مجمع للقاذورات والفضلات، إلا أن قلوب بناته سيصحبها التلوث بما صنعوه إلا إذا تمزقت وتلاشت، على معنى أن التلوث مرتبط بهم دائما . إن الله عليم بدقائق الأمور وخفاياها، يقرر في كل أمر ما يدل على كمال حكمته.

بيان المعنى العام:

106- وآخرون مرجون ...عليم حكيم .

تتابع هذه السورة ما يتعلق بغزو تبوك . فتذكر هذه الآية أن بعضا من المطالَبين بالخروج للجهاد تخلفوا عنه، وهم ليسوا من ذوي الأعذار ولا من المنافقين ولا من الكارهين للجهاد. ولكن اشتغلوا بدواعي خاصة في حياتهم حتى خرج الجيش، وأيسوا من اللحاق به . فبقوا في المدينة آسفين . وسأل عنهم النبي ﷺ وهو في تبوك. وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع. ولما رجع إلى المدينة، أتوه وصَدَقُوه، فلم يكلمهم، ونهى المسلمين عن كلامهم، وأمرهم أن لا يقربوا نساءهم حتى يحكم الله فيهم. فهم ينتظرون نزول حكم الله فيهم؛ هذا الحكم المنتظر، إما رفض توبتهم وتعذيبهم، وإما توبته عليهم وغفران ذنبهم. والله يتصرف تصرفا يمثل العلم الكامل، والحكمة. فهو العليم بصدق توبتهم، وهو الحكيم في الحكم الذي سيظهره.

107-108: الذين اتخذوا مسجدا...المطهرين.

تعرض هذه الآيات نوعا آخر من مخازي المنافقين حصل قرب الخروج لغزوة تبوك. ذلك أن جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف بتدبير من عبد عمرو الراهب الذي كان قلبه يغلي حقدا على الإسلام، فقد أعان الأحزاب عند غزوهم للمدينة، ثم فر إلى مكة، فلما فتحها المسلون احتمى بثقيف، فلما دخل أهلها في الإسلام فر إلى أرض الروم. وقد أمرهم أن يبنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء،

ينفردون بالصلاة فيه عـن الجماعـة. فبنـوا مسـجدهم وطلبـوا مـن رسـول الله أيـام استعداده للخروج إلى تبوك أن يأتيهم ويصـلي فيـه تمويهـا وتغريـرا، فـأنزل الله هـذه الآيات التي سنتابعها بالبيان .

يعرفهم القرآن بالصفة الغالبة عليهم التـي فضـحتهم: أنهـم بنـوا مسـجدا قصـدهم منـه إدخال الضر على المؤمنين من أهل قبـاء، ليفرقـوا كلمـة المسـلمين، وينعـزل أتبـاعهم المنافقون عن جماعة المؤمنين، ولتحدث الفرقـة بيـنهم بعـد مـا وحـد الإسـلام بيـنهم. وكان مما كاتبهم به الراهب أن يتهيأوا بالمبنى، ليكـون إمـامهم فيـه حـين يقـدم علـيهم في جيش من الروم للقضاء على الإسلام في المدينة.

ثم كان شأنهم كشأن المنافقين، في الإسـراع للحلـف بالأيمـان الفـاجرة، حلفـوا لرسـول الله: أنهم ما أرادوا بمسجدهم الـذي بنـوه إلا النيـة الحسـنى، إذ يـتمكن الضـعيف وذو الحاجة الذي يعسر عليه الذهاب إلـى مسـجد قبـاء، أن يصـلي فيـه ولا تفوتـه صـلاة الجماعة. ويعلق الله العليم بما في الصدور، أنهم كـذبوا فـي يمينـهم، فمـا كـان قصـدهم ما عرضوه ولكن ما سجلته الآية من الضرار والتفريق .

وإذ تبين القصد الخبيث، صرح القرآن بنهيه ﷺ أن يصلي فيه .

فنزلت الآية عند رجوعه ﷺ من تبـوك، ودعـوة المنـافقين لـه للصـلاة فيـه . وعنـدها أمر ﷺ بعضا من الصحابة أن يذهبوا إليه ليهدموه ويحرقـوا عمـده وأبوابـه. وتـم ذلـك وانقلب مجمعا للفضلات والزبل .ثم بين القرآن البـون الشاسـع بـين مسـجد الضـرار، وبين المسجد الذي أسس على التقوى، (لمسجد أسّس علـى التقـوى مـن أول يـوم) قيـل :هو مسجد المدينة. وهذا ما يؤيده الحديث الذي أخرجه مسـلم وغيـره عـن أبـي سـعيد الخدري أن رجلين من الصحابة اختلفـا فـي تعيـين أول مسـجد أهـو مسـجد قبـاء أم مسجد الرسول ﷺ ؟ فأتيا ﷺ فسألاه فقال: (هو مسجدي هـذا، وفـي الآخـر خيـر كثيـر) وقيل هو مسجد قباء . ولولا الحديث لكان نسق الآية يرجح أنه مسجد قباء.

ثم أضافت الآية مزية أخرى لمسجد قبـاء زيـادة علـى كونـه المسـجد الـذي صـحب الإخلاص بناءه، أن الـذين يقيمـون الصـلاة فيـه، وهـم الأنصـار، يجـدون لـذة فـي الطهارة جعلتهم يحبونها فأكرمهم الله بإعلانه عن محبـتهم لهـذه المزيـة التـي اختصـوا بها. فالطهارة وإن كانت فرضـا واجبـا، إلا أن الأنصـار اختصـوا بحـبهم لهـا حتـى صارت خلقا لازما لهم، فكانوا جديرين بثناء الله عليهم.

ثم أكد وفصل ما ذكرته الآية (108) إن المسجد الـذي يشـهد الله بأنـه أسـس مـن يـوم تخطيطه الأول والشروع في بنائه، وقد تحققـت إرادة التقـوى مـن إقامتـه، يكـون أحـق

الأمكنة بأن تقـوم فيـه بالعبـادة. وتنطبـق هـذه الشـهادة علـى مسـجد رسـول الله ﷺ بالمدينة، ومسجد قباء. فكلاهما أسس من أول يوم على التقوى والإخلاص لله.

ملحظ نفيس:

ذكر السهيلي في شـرحه لسـيرة ابـن هشـام، أن هـذه الآيـة حجـة لـرأي الصـحابة رضوان الله عليهم في اتخاذ عام الهجـرة مبـدأ للتـاريخ الإسـلامي،إذ بنـاء المسـجدين قباء ومسجد المدينة كانا إثر الهجرة، وقد عبر القرآن عـن ذلـك التـاريخ بقولـه : مـن أول يوم .

109-110: أفمن أسس بنيانه على تقوى...والله عليم حكيم .

ثم جسمت الآيـة، مـع المقارنـة بـين مسـجد الضـرار والمسـجد الأول . فـذكرت أن المسجد الأول صاحب إقامة أساسه الذي ارتفـع عليـه البنـاء قصـد رفيـع مـن التقـوى والتقرب إلى الله، فكأن القصد الصالح اخـتلط بالبنـاء فقـوّى تماسـكه، وجـرى بـه فـي المنهج الذي أريد به. وأن مسـجد الضـرار لسـوء قصـد أصـحابه، كأنـه فقـد القـوة والالتحام والثبات بما خالط بناءه من القصـد الخبيـث، فهـو كإقامـة بنـاء علـى طـرف حفرة متصدعة، فلا يتصور منه إلا أن ينهار سـريعا ليبتلعـه القـاع وقـد تلاشـى إلـى ركام .وتكون النهاية القرار في قاع نار جهنم للبناة عذابا علـى مـا حـاولوه مـن تفريـق الكلمة، وكذل للمبنى الذي أقاموه إهانة لهم . والله يحجـب هدايتـه عـن القـوم الظـالمين فلا يفتح لهم منها بوارق تضيء لهم معالم الطريق .

الآية -111- إن مسجد الضرار وإن بينا أنه قد هدم وأحرق ولـم يبـق لـه أثـر مـادي، ولكن الآية أثبتت أن أثره العقدي لم يذهب بذهابـه، فقـد قـدر الله تقـديرا لا انفكـاك لـه أن البناء الذي بنوه سيبقى مزعزعا لقلـوبهم تقـيم بـه الحيـرة والتـردد فـي عقـولهم، سيصحبهم الخوف من المصـير الـذي سيصـيرون إليـه، لا ينفـك ذلـك عـنهم إلا إذا تمزقت قلوبهم وفارقوا الحياة . والله علـيم لا تخفـى عليـه خافيـة مـن نوايـاهم، وهـو الحكيم في تناوله لأمرهم وإحلال النهاية التي أحلها بهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ

ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

اشترى : وعد وعدا مؤكدا .

استبشروا: أبشروا.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكرت الآية أن الله، وهو الذي مكن كل إنسان من حياته ورزقه، ميز المؤمنين بأنه اشترى منهم ما مكنهم منه، وأن الثمن الذي يبذله لهم: الجنة . ووضح طريقة بلوغهم إياها :أنهم يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة عالمين مقدما، أنهم إما أن يقتلوا أعداءهم، أو يقتلهم أعداؤهم. تأكد هذا الوعد من الخالق في الكتب السماوية السابقة التوراة والإنجيل .كما يؤكده أنه لا يتصور واعد يفي بوعده كما يفي الله بوعده.

ونوه بالمؤمنين الذين جمعوا بين ثمانية مزايا: الإسراع للتوبة، الإقبال على العبادة، الحامدون لله على نعمه التي تفوق الحصر، السياحة في أرض الله للقيام بدورهم في عمارتها، المقيمون للصلاة بأداء أركانها من ركوع وسجود، الذين يعملون على صلاح المجتمع، ونظافته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنفذون لكل ما ورد عليهم من تشريع أمرا كان أو نهيا. ويحق لهم أن يتقبلوا البشارة من ربهم بسب صدقهم في الإيمان .

بيان المعنى العام :

111-112: إن الله اشترى من المؤمنين ..وبشر المؤمنين.

هذا وعد من الله موثق ومثبت ومؤكد صيغ في صيغة عقد بيع تمت جميع مقوماته واكتملت أركانه الأربعة: المشتري، والبائع، والثمن، والمثمن. ثابت في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يأتيه ما ينقضه، ولا يلحقه ما يبطله. فلنتأمل في هذه الأركان حسب الصياغة البليغة في الآية:

المشتري : هو الله رب العالمين، وفي البداية بإسناد الشراء إلى الله ما يؤكد ثبات العقد لأنه عبر عنه بالفعل الماضي (اشترى) واستمراره لأن ما هو ملك له لا يأخذه منه أحد.

البائع :المؤمنون. يتناول المؤمنين من هذه الأمة تناولا أوليا من كان في حاضرا وقت نزولها ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، كما يتناول المؤمنين في تاريخ البشرية الطويل الذي تحقق فيهم ما حددته الآية.

الثمن : هو الجنـــة .ولا أنفـــس ولا أجـــل ثمـــن ولا غايـــة وراء الجنـــة، يقـــول تعـــالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)[1] .

المبيع المثمن : الحياة والأموال. وهبهم الحياة، ووهبهم المـــال، فكلاهمـــا ملـــك لـــه، ومـــع ذلك فإن حيازتهما من طرف المؤمنين حيازة لا ينفصل عنهـــا أنهـــم يبـــذلون مـــا وهـــبهم في مرضاته . فهم يخرجون لنصر دينه ونشر الحـــق فـــي العـــالم، وهـــم يعلمـــون مقـــدما أنهم لا يخرجون عن احتمالين:

1) المقدم عندهم أن ينصروا الدين ويهزموا الأعداء فيقتلـــونهم بســـبب مـــا منعـــوهم مـــن حرية نشر الحق.

2) أن يثبتوا ثباتا يصحبهم إلى آخر لحظة من حيـــاتهم فيموتـــون فـــي ســـاحة الشـــرف، ساحة الجهاد.

ثم يؤكد القرآن ما تضمنه المقطع الأول من الآية، بأن هـــذا وعـــد مـــن الله حـــق ثابـــت، وثقه في كتبه التي أنزلها على رسله، ذكـــر منهـــا الكتـــب التـــي بقيـــت البشـــرية تحـــتفظ بشيء منها، وهي التوراة والإنجيل، والكتاب الباقي المحفوظ أبد الدهر : القرآن.

ثم يستفهم استفهاما تقريريـــا مثبتـــا، أنـــه لا يمكـــن أن يتصـــور أن يبلـــغ أي عهـــد مـــن التحقيق ما يبلغه الوعد من الله. لأن كل واعد سوى الله، قـــد يحـــول بينـــه وبـــين تحقيـــق وعده معوقات تخرج عن ســـلطانه، والله مالـــك الأمـــور لا يخـــرج عـــن ســـلطانه شـــيء ولا ينقص من ملكه شيء.

ثم يكرم المؤمنين الذين عقدوا هذه الصفقة، فيتوجـــه إلـــيهم رب العـــزة بالخطـــاب بقولـــه: أبشروا بربح الصفقة التي نفذتموها. ولا صاحب صـــفقة يبلـــغ مـــن الفـــوز والنجـــاح مـــا بلغتم. يروي ابن عطية عن والده أنه سمع الـــواعظ أبـــا الفضـــل ابـــن الجـــوهري يقـــول على المنبر بمصر : ناهيك من صفقة ، البائع فيهـــا رب العـــلا، والـــثمن جنـــة المـــأوى، والواسطة محمد المصطفى . هكذا هو مثبت فـــي النســـخة، ولعـــل: المشـــتري فيهـــا رب العلا، لا البائع. والله أعلم.

ثم أخرج القرآن المؤمنين في إطار ينوه بمزايـــاهم ويتابعهـــا فـــي تسلســـل بـــديع فأثبـــت لهم ما يأتي:

التائبون : التوبة تنطلق بالنسبة للمـــؤمنين الأولـــين ، مـــن التوبـــة مـــن الكفـــر واطـــراح الشرك، ثم تسمو في يقظة رابطة بين المؤمن وربه، فكلمـــا مســـه طـــائف مـــن الشـــيطان

---

[1] سورة آل عمران 185

تذكر، فإذا بصيرته تجذبه جذبا قويا إلى طريق الهدى طريق الله .وكلما قارف ذنبا أسرع إلى التوبة .

العابدون : العبادة رشح شعور مرهف، بصلة الإنسان بربه، يجد طمأنينته ورضاه النفسي عندما يتصل به عابدا حسب ما تلقاه منه، ثم هو يرتبط بالكون كله في موكب سائر إليه فيجد في كل نشاط عبادة للخالق سبحانه .

الحامدون : هي النعم تتابع على الإنسان، وقد يكون لتتابعها ذاك ما يغفل به الإنسان عن قيمتها، فإذا توقد الإيمان في القلب استيقظ إلى تلكم النعم فانطلق لسانه وقلبه بالحمد للواهب الكريم. خذ لذلك مثلا: أنفاسك التي تجري فيك بيسر نعمة من أجل النعم، لو ضاق تنفسك قليلا لوجدت الدنيا كلها لا تعدل تلك النعمة.

السائحون: الذين يشعرون بوظيفتهم في عمارة الكون، بما يقترن بالسياحة من نشر للفضيلة، والمعرفة التي هي أول خطوة في الفعل الصالح، وتأكيد العلاقة مع البشرية. إننا إذا تذكرنا أن الصحابة رضوان الله عليهم بلغوا الحدود الغربية لإفريقيا، وأن المسلمين وصلوا إلى أراضي الشرق الأقصى فنشروا الإسلام في جزر أندونيسيا وماليزيا وتايلندا، ينكشف لك قيمة السياحة الإيجابية التي وصف الله بها المؤمنين .

الراكعون الساجدون : هو تعبير عن إقامة الصلاة عمود الدين وأعظم صلة بين المؤمنين وربهم، وبإقامتها يجتمعون ويتعارفون في الحي والمدينة . وبها يكون الإيمان حيا نابضا في أرواحهم، نافذا إلى سلوكهم قال تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[1] .

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر: هذا الوصف يمثل الحرص العام على أن تشيع الفضيلة في المجتمع، فالمؤمنون المنوه بهم لا يقنعون بصلاحهم، لكنهم يعملون بصفة مستمرة على نشر الخير، كما يحرصون على نظافة المجتمع من كل انحراف، واستنكار أي نابتة تظهر، والعمل على اجتثاها.

الحافظون لحدود الله: هذا وصف جامع يمثل الالتزام بكل ما شرعه الله، فهم يحافظون على تطبيق الأوامر، وعلى اجتناب ما نهى عنه.

وتؤكد خاتمة الآية خاتمة الآية السابقة، وذلك الفوز العظيم، بأن الله يبشرهم بأنهم سيحظون بذلك الفوز العظيم .

---

[1] سورة العنكبوت آية45

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ
مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ
إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ
﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

الموعدة : الوعد .

تبرأ : تنزه بقطع صلته .

أواه: المكثر من قول : أوه . وله معان ترجع إلى رقة القلب والرأفة والتضرع.

ملك : التصرف والتدبير.

بيان المعنى الإجمالي :

لما كان الكفر والإيمان اتجاهين متعاكسين، فلا يتصور حسب المنطق السليم أن يتقدم النبي والذين آمنوا بطلب المغفرة للمشركين ولو كانت تربطهم بهم رابطة القرابة، إذا ما تبين لهم أنهم هالكون آئلون إلى النار . ولا تظنوا أن إبراهيم عليه السلام خرج عن هذا المنهج لما استغفر لأبيه المشرك، لأن أبا إبراهيم وعده بأنه سيتدبر أمره في الإيمان بالله، ففهم منه أنه أخذ في الطريق الصحيح، فاستغفر له طلبا من الله أن يسعده بعونه، فلما تبين له أنه مصر على الكفر قطع ما بينه وبينه. وإبراهيم عليه السلام رؤوف رقيق القلب متضرع، رزق عقلا راجحا .

واعلموا أن الله لا يعذب المؤمن بعد أن هداه، إذا ما أقدم على أمر منهي عنه قبل أن ينزل الحكم واضحا، فلا تنزعجوا من استغفاركم لبعض من تحبونهم قبل النهي. إن الله عليم بكل شيء. كيف لا وهو المدبر للسموات والأرض، المتصرف في الحياة والموت. فاعتمدوا على ربكم فليس لكم ولي ولا ناصر سواه.

بيان المعنى العام :

113-ما كان للنبي...أصحاب الجحيم.

العلاقة التي يعتبرها الإسلام ويرتب عليها حقوقها تقوم أولا على الإيمان، فإذا لم يجمع الإيمان لم تبق إلا علاقة إنسانية يتبعها عدم الظلم، أو التعاون فيما يتصل

بالحياة الدنيا. ذلك أن التصور الإيماني والتصور الكافر يذهب كل واحد منهما في اتجاه معاكس للآخر. يقوم الإيمان على ربط الإنسان عقله وروحه ومشاعره وانتظامه في الكون، على أن الكل موكب واحد صدر عن الله وهو سائر إليه حسبما قدره. ويقوم الكفر على قطع العلاقة بين الخالق والمخلوق، بين الإنسان وربه، وبين الكون والله. ويتبع ذلك أن النهاية متعاكسة طبعا. فالمؤمنون يعتقدون ويسعون إلى الفوز بالجنة، والكافرون لا ينظرون إلى اليوم الآخر، فهم إلى النار. وهذا أمر مقطوع به ثبت بالنصوص القرآنية العديدة وبالسنة حتى أصبح ضروريا من ضروريات الدين.

إن ضعف الإنسان قد يحجب على بريق إيمانه حجاب، فيذهل في لحظة من لحظات حياته ويقع في الخطيئة، ومِّن رحمة الله أن فتح لعباده المؤمنين باب التوبة والالتجاء إلى الله بطلب المغفرةِ ليمحو الذنب ويعفو قال تعالى : (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما.)[1] وأذن لنبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات فقال تعالى : واستغفر لهم [2]- واستغفر لهم الله [3]. فبايعهن واستغفر لهن الله [4]. وأخبرنا القرآن أن حملة عرشه يستغفرون للذين آمنوا[5]. فاستغفار المؤمنين واستغفار الرسول لهم واستغفار حملة العرش ؛ كل ذلك محقق لما خص به رب العزة المؤمنين من جزاء الجنة. وأما طلب المغفرة لمن كفر فإنه يسير في اتجاه معاكس لما كتبه الله لهم من دخول النار. فحري بالرسول وبالمؤمنين أن لا يقدموا على طلب المغفرة للمشركين، وقد تبين لهم أن مآلهم الجحيم . وحذرهم أن يضعفوا لعوامل الرحمة أو القرابة .

114- وما كان استغفار...لأواه حليم.

ولما ورد في القرآن أن إبراهيم استغفر لأبيه وكان كافرا، قال تعالى: (قال سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا)[6] . وما شرحنا به الآية لا يعطي لإبراهيم العذر في الاستغفار؛ فأزال القرآن موجب هذا التوقف، بأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه مع كفره لأنه فهم من كلامه، وعدا منه بالإيمان، فكان دعاؤه طلبا من الله أن

---

1 سورة النساء، آية110
2 آل عمران159
3 سورة النور آية62
، سورة المتحنةآية12
، سورة غافر آية7
، سورة مريم آية 47

يسعده بتأييده ليتم ما وعد به. ولذا فإنه بمجرد ما تحقق أنه مصر على الكفر قطع صلته به وانقطع عن الاستغفار. ثم أثنى على إبراهيم عليه السلام بأنه رؤوف رقيق القلب متضرع إلى الله، ذكي الفؤاد راجح العقل .

115- وما كان الله ليضل ...بكل شيء عليم.

ثم طمأن القرآن المؤمنين الذين حملتهم رقة عاطفتهم، ونبل مشاعرهم، فاستغفروا للمشركين قبل نزول الآية القاطعة في هذا بتسجيل قاعدة هي من الثوابت في معاملة الله للناس: أنه لا يكتب الضلال (المعصية) على أحد بعد أن اهتدى إلى الإيمان والعمل به، حتى يبين ما ينهى عنه ويحرمه ويلزم بالابتعاد عنه فيؤاخذهم بعد ذلك. إن الله عليم بكل شيء ومنه ما يصلح البشر وحقيقة ما يصدر عنهم.

116- إن الله له ملك...ولا نصير.

ثم أكد مفصلا ما يدل عليه قوله : إن الله بكل شيء عليم، بلفت الأنظار إلى التصرف في السماوات والأرض وتسييرها بدقة ونظام لا اختلال فيه مما يقوم شاهدا على علمه الكامل، وبتصرفه في الحياة والموت، وكلاهما أقرب شيء للإنسان ؛ومع ذلك لا يعلم أحد متى تبعث فيه الروح ولا متى تنزع منه.

توكلوا على ربكم وثقوا أنكم لا تجدون من يرعاكم ويتولى أموركم وينصركم على أعدائكم غيره.

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ

نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معنى الألفاظ :

التوبة : رجوع الله بعبده من حالة إلى حالة أرفع منها.

اتبعوه : أطاعوه.

العسرة : الشدة وضيق الحال.

الزيغ : الميل عن الطريق المقصود .

خلفوا: تأخر قبول عذرهم.

ضاقت عليهم الأرض : أحسوا كأن الأرض ضاقت عليهم.

بما رحبت : على سعتها.

ضاقت عليهم أنفسهم : ثقل عليهم الغم والحزن.

يقطعون واديا : يجتازون واديا.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه القرآن بالمهاجرين والأنصار الذين أسرعوا بتلبية الدعوة إلى الخروج للجهاد في غزوة تبوك. وأعلمهم أنه قد تاب عليهم توبة تتمثل في رفع درجاتهم عنده. نوه بهم لأنهم اتبعوه في وقت فيه ضيق وعسر. وألحق بهم الذين رجحوا الخروج بعد تردد قليل وتاب عليهم، إن الله رؤوف بعباده يرعى ضعفهم، رحيم بهم .

وتاب الله على الثلاثة المعلومين عند الصحابة وقت نزول الآية وهم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، الذي تخلفوا عن المشاركة في الغزو، ولما سألهم الرسول عند عودته من تبوك، صدقوا رسول الله أنه لا عذر لهم، وعرضوا توبتهم. فلم يكلمهم النبي ﷺ ونهى الصحابة عن الاختلاط بهم، ونهاهم عن قربان زوجاتهم، فكان حصار اجتماعيا خانقا، حتى أصبحت الأرض الواسعة في نظرهم تضيق بهم، وغمهم الكمد والحزن فضاقت عليهم أنفسهم، لم يبق لهم أي رجاء إلا أن يشملهم الله بعفوه فهو الملجأ الوحيد . وبعد خمسين يوما تاب الله عليهم لأنه التواب الرحيم .

وبعد تبين مآل الصدق في غزوة تبوك، حرض القرآن المؤمنين أن يلتزموا تقوى الله وأن يكون مجتمعهم مجتمع الصدق .

إن الذين تلقوا أنوار النبوة مباشرة من سكان المدينة لا يتصور منهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم للجهاد، ولا يتصور منهم أن يحموا أنفسهم مقدمين لها على

نفس رسول الله. ووعدهم الله مقابل هذا السبق لنصرة رسوله أنـه يوثـق لهـم جميـع مـا يقومون به في الجهاد ما قصدوه ومـا لـم يقصـدوه. قلـيلا كـان أو عظيمـا، فعطشـهم، وتعبهم، وجوعهم، ودخولهم في أرض الأعـداء بخيـولهم أو رواحلهـم أو أقـدامهم ممـا يذل الكفر ويغيظه، ولا يستحوذون على شيء من الكفـار ولـو قـل؛ الكـل موثـق لهـم عند الله على أنه عمل صـالح. وهـم محسـنون فـي ميـزان الله . والله لا يهمـل أجـر المحسنين. وكذلك جميع نفقاتهم ما قل منهـا ومـا كثـر، ومـا يقطعونـه مـن المسـافات يُوثَّق في ميزان حسناتهم، ويجزيهم الله عن كـل ذلـك باعتبـار أن كـل مـا قـاموا فـي الجهاد هو من أحسن أعمالهم، فيجزون عنه بناء على ذلكم الاعتبار.

بيان المعنى العام :

117-لقد تاب الله ...رؤوف رحيم.

تهيئ هذه الآية لما سيأتي بعدها. ومضمونها أن مـا كـان مـن المـؤمنين بعـد دعـوتهم إلى التهيؤ لغزو الروم قد اختلف اختلافا غير جذري .

نجد في قمة المواقف الشريفة النبيلة موقف النبي ﷺ وموقف المهاجرين والأنصار، الذين أطاعوه بمجرد ما دعاهم، فتهيأوا للقتال وسمحوا بالعون السخي من أموالهم في وقت ما كان فيه أهل المدينة في سعة من الرزق بل كانوا في ضيق وعسر. يروى أن سيدنا عثمان ﷺ أعطى ألف جمل وألف دينار وتسابق كثير منهم للبذل. هؤلاء تاب الله عليهم توبة رفعتهم من الوضع الذي كانوا فيه قبل الغزو إلى مرتبة أعلى وأسمى. كما أن فريقا آخر تجاذبه عاملان: عامل مثبط من شدة الحر وطيب الثمار وبعد الشقة للبلاد المقصودة، وعامل الاستجابة لدعاء الرسول ﷺ، وأخيرا تغلب نداء الطاعة وخرجوا مع الجيش، وأخبر الله أنه تاب عليهم من النقص الذي علق بهم وعفا عنهم .هذه الآية بما أكدته من التوبة المبنية على ما اتصف به الله من الرأفة والرحمة، كانت فاتحة لتسجيل ما تم في قضية ثلاثة من الأنصار كانوا معروفين بصدق إيمانهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. تخلف هؤلاء الثلاثة عن الانضمام إلى الجيش القاصد تبوك. توجه إليهم الطلب مع بقية سكان المدينة، وما اعتذروا لرسول الله بأي عذر، ولم يأذن لهم النبي ﷺ في البقاء بها.

ولما رجع رسول الله إلى المدينة منتصرا من تبـوك، سـألهم فمـا اعتـذروا عـن كـذب، لكنهم اعترفوا بذنبهم وبدا عليهم الحزن لتثاقلهم عن الخروج .

أعرض عنهم رسول الله، وأمرهم أن يعتزلـوا نسـاءهم، ونهـى الصـحابة عـن التعامـل معهم، فضرب عليهم حصارا اجتماعيا ذاقوا منه الأمـرين مـدة خمسـين يومـا، وصـفته الآية أنه خيل إليهم أنهم يعيشون فـي سـجن مضـيق، فـالأرض التـي لا يجـدون فيهـا

تجاوبا لا من زوجاتهم ولا من أصدقائهم وإخوانهم، بدت لهم على سعتها ضيقة كأشد ما يكون الضيق .بل إن أنفسهم ضغط عليها الكمد والحزن حتى كادت تنفجر من ثقل ما تحس به من الذنب ومن الوحدة .وبقي مع ذلك لهم خيط من الرجاء هو الوحيد الذي أبقى عليهم، هو اعتقادهم أنه لا ملجأ يحميهم من غضب الله ومقته إلا العفو الذي لا يملكه أحد غيره.

ثم بعد الخمسين يوما نزل على رسول الله ﷺ ما يقرر أن الله قبل توبتهم وعفا عنهم، ليكون هذا الفضل الإلهي دافعا لهم للثبات على العمل الصالح فيما يستقبل ويحصنوا أنفسهم من المعاصي. وهو معنى: تاب عليهم ليتوبوا، ليدوموا على وضعهم الذي من الله به عليهم بعد توبتهم فلا يدنسوا أنفسهم بالآثام بعد أن طهرها فضل الله عليهم.

ملحظ جيد :

يقول ابن عطية في هذا ما يقتضي أن الرجل العالِم والمقتدى به أقل عذرا في السقوط من سواه. وكتب الأوزاعي إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة: (واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد عليك حق الله إلا عظما، ولا طاعته إلا وجوبا، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا)[1] .

120- ما كان لأهل....لا يضيع أجر المحسنين.

هذه الآية تمثل ما ينبغي أن يستقر في عقول المؤمنين، بعد ما قررته الآيات السابقة من أن الله رضي على المؤمنين الصادقين، ورضي عن الذين ترددوا ثم صدقوا، ورضي عن الذين تخلفوا وصدقوا معترفين بالذنب. فتنويها بالصدق وحثا عليه، أمر الله المؤمنين أن يثبتوا على التقوى، وأن يمثلوا في المجتمع الإنساني المجتمع الذي يشيع الصدق فيه في كل مظاهر الحياة الروحية والاجتماعية.

تلقينا أنوار الهداية الإسلامية من القرآن ومن السنة المطهرة، ووصلتنا بواسطة النقل الصحيح، وما يتلو المؤمن القرآن بفكر وتأمل إلا ويجد نفسه تسمو وتشف، وتحل في روحه الطمأنينة الراضية . وإذا قارنا هذا بالإشعاع الرباني الذي كان ينفذ إلى أرواح الصحابة رضوان الله عليهم مباشرة، وهم يرقبون ويستمعون ويجلسون إلى رسول الله ﷺ ،نجد منازل من الفيوض التي تعجز عن تصويرها الكلمات، تجعلهم فوق بقية المؤمنين الذي لم يحضروا مجالس الوحي والتذكير

---

[1] المحرر الوجيز ج7 ص74/73

النبوي . فوجب أن يكون حبهم للرسول أعظم من حبهم لأنفسهم وذرياتهم والدنيا وما فيها .

لذا كان من غير المتصور من سكان المدينة، ومن الأعراب الذين ضربوا خيامهم حولها، أن يدعوهم الرسول للخروج معه للجهاد، ولا يخرجون معه ويرضون بالبقاء بعده في المدينة. كما لا يتصور منهم أن يقدموا سلامة أنفسهم على سلامة الرسول، فيتركوه معرضا وحده للأعداء. إذ أنه بمقدار ما يقل عدد الجيش يكون تعرضه للأذى أقرب وقوعا.

إن انتفاء ذلك التصور مبناه يقينهم أن الأجر الذي يكتب لهم بالوقوف معه في الجهاد أجر عظيم. ثم فصل هذا الأجر: هو يتمثل في كل ما يلحقهم من أذى ولو كان ضئيلا، حتى العطش، والتعب والإرهاق، و الجوع، مما يلقونه في سبيل إعلاء كلمة الله بالجهاد، وكذلك وطأهم أرض العدو بسنابك خيولهم أو بأخفاف رواحلهم أو بأقدامهم، بما يذل الكفار ويوقد في نفوسهم الغيظ، وكذلك ما يرزؤون به الأعداء في أنفسهم أو في أموالهم بالسبي والقتل والغنيمة، كل ذلك يحصيه الله ويكتب لهم أجر العمل الصالح. إنه إحصاء من لا يغيب عن علمه شيء وإن غفل عنه صاحبه، أو ذهل عما فيه من نكاية بالأعداء. وختمت الآية بما يشير إلى أنهم من المحسنين في سلوكهم، والله لا يهمل أي شيء من أجر المحسنين .

121-ولا ينفقون ...ما كانوا يعملون.

تواصل هذه الآية تفصيل الأجر العظيم المكتوب للمجاهدين مع رسول الله ﷺ. فكل ما ينفقونه عظمت قيمته أو قلت حتى خطام الناقة وشراك النعل، وسيرهم وهم يجتازون الأودية، كل ذلك موثق لهم عند الله، وذلك ليجزيهم عن تلك الأعمال التي هي أحسن الأعمال قيمة عند الله .

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ
صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

الفرقة : الجماعة من الناس الذين تربطهم رابطة توحد بينهم .

الطائفة : جماعة غير محصورة بعدد.

التفقه : بذل الجهد لتحصيل الفقه الذي هو فهم دقائق العلم.

الإنذار : الإخبار بما يتوقع شرمنه.

الغلظة: الشدة . بالجمع بين الجرأة والصبر على القتال، والعنف في القتل والأسر.

الاستبشار :أثر البشرى في النفس .

بيان المعنى الإجمالي :

كما حرض القرآن المؤمنين على الجهاد، حرضهم على التعمق في الدين بإدراك أسراره ومعرفة أحكامه من الحلال والحرام، تتخصص في كل فرقة طائفة ممن لهم استعداد لذلك، يتلون إنذار قومهم ليحذروا الخروج عن حدود الدين من الأوامر والنواهي .

وكما ينتشر الإسلام بالعلم فكذلك ينتشر بالجهاد، فالمؤمنون مأمورون بأن يوسعوا في أرض الإسلام في الأراضي المجاورة لهم، وليتدربوا على القتال ما يُفْرِغُ في قلوبهم الشجاعة والثبات، ومواجهة الكفار بحزم وثبات يرهب العدو .وليتقووا بتقوى الله فالله يساعد المتقين وينصرهم.

ومما فضحته هذه السورة من أمر المنافقين، أنه إذا أنزلت سورة، التفت بعضهم إلى بعض متوجها في سخرية : هل زادت هذه السورة في إيمانكم كما يتحدث القرآن عن ازدياد الإيمان بما ينزل من سوره ؟

رد القرآن عليهم بأن كل سورة من سور القرآن تنزل تتبعها زيادة، لكن الزيادة بالنسبة للمؤمنين تعميق لإيمانهم وزيادة في الوحي الذي آمنوا به، وتنشر في قلوبهم البشر، والزيادة بالنسبة للذين فسدت عقيدتهم ومرضت قلوبهم بالنفاق تضاعف كفرهم وانحرافهم وتضم إلى ما امتلأت به نفوسهم من خبث خبثا جديدا.

ما لهم لا يتعظون بما يلحقهم كل عام من نكال؟ ومن عنادهم أنهم لا يتدبرون بما يسلط عليهم.

وإذا أنزلت سورة تفضح ما تحدثوا به في سر، رأيت بعضهم ينظر إلى البعض الآخر، مستفسرا هل رآكم أحد ليس منكم فنقل أخباركم ؟ ثم انصرفوا حائرين. صرف الله قلوبهم عن الحق ولم يسعفهم بالعون للاهتداء إليه، وذلك لأن عقولهم واقفة عند الظواهر القريبة لا تتأمل في بواطن الأمور .

بيان المعنى العام :

122- وما كان المؤمنون...لعلهم يحذرون.

حرض القرآن فيما سبق من الآيات المؤمنين على القتال، وكَشَفَ المنافقين وأوعدهم، ونعى على المتخلفين تخلفهم وإن كانوا مؤمنين . وكانت تلكم الآيات تتوجه إلى الذين دعوا للخروج للغزو مع رسول الله ﷺ. والحكمة في تربية الأمة أن تكون الطاعة أساسا في تنظيمها وفي علاقة الأفراد بالدولة. كما أن الحكمة تقتضي أن تتحصن الأمة بالعلم كما تتحصن بالقوة العسكرية.

وإذا كان دور الجند في الدولة الإسلامية الدفاع عن الأمة وعن الدين، وتمكين دعاته من نشره في العالمين، فإن التعمق في معرفة الدين وإدراك أسراره وفهمه الفهم الصحيح، هو الذي يوحد الأمة ويفتح بصيرتها على الحق، ويعطي للجيش التصور الصحيح للمفاهيم التي يجاهد في سبيلها، مما يجعل ثباته وشجاعته أتم وأكمل . فهما أساسان لبقاء الدولة: الجهاد، والعلم .و كلما انخرم أحدهما ضعفت الدولة وأسرع إليها الزوال.

وجمعا بين هذين الركنين بينت الآية : أنه لا يعقل أن يتمحض المؤمنون للجهاد جميعا . فتحرض الآية كل فريق من المؤمنين أن تنصرف جماعة منهم ليدرسوا الدين دراسة تمكنهم من الاطلاع على مراميه البعيدة وعلى مقاصده، وعلى تنظيماته وأحكامه. ليتولوا نشر المعرفة الإسلامية في أقوامهم عندما يعودون إليها، ويتولون القيام على تعليمهم وتثقيفهم. ويكشفوا لهم عن الحرام والحلال، وينذرونهم عاقبة إثم ارتكاب المحرمات. رجاء أن يحذروا ملابسة ما حرمه الله، وأن يهتموا بالقيام بما أوجبه عليهم.

إن تخصص طائفة في العلوم الإسلامية، ثم قيامهم بتبصير إخوانهم بعد بلوغهم مستوى القدرة على الإفادة والتعليم، كلاهما فرض كفائي تأثم الأمة إذا فرطت في ذلك. لقد زرت ولاية سيان في الصين وحضرت صلاة الجمعة في مسجدها الجامع، وهو مسجد كبير يبلغ مع ساحاته أكثر من عشرة آلاف متر مربع، وتقدم الإمام ليصلي بالناس فكان ما قام به تمثيلية ليس فيها شيء من صلاة الجمعة ولا حتى من الصلاة . نتيجة للجهل، لما حالت الأنظمة بين الشعب وبين تخصص جماعة

منه للتفقه في الدين، فنسوا كل شيء، ولم يبـق فـي قلـوبهم وفـي معـارفهم إلا انتسـاب يحرصون عليه.

123- يا أيها الذين آمنوا...مع المتقين.

لما كان الإسلام في جوهره دينا عالميا، ولمـا كانـت الحكمـة فـي انتشـاره تقتضـي أن يتوسع شيئا فشيئا، إذ تتمكن قوته ويتسع سـلطانه كلمـا اقتربـت أقطـاره. ولـذلك اهـتم النبي ﷺ أولا بتخليص الجزيرة العربية من الشـرك. ثـم كانـت غـزوة تبـوك امتـدادا للإسلام إلى أطراف الجزيرة من ناحية الشـام. وصـرحت الآيـة بهـذه السياسـة التـي توخاها النبي ﷺ، وحَمّلَ المـؤمنين أن يقـاتلوا الأطـراف القريبـة مـنهم، وهكـذا كلمـا نشروا الدين في طرف، توجه الأمر لنشـر الإسـلام فيمـا يتلـوه مـن الأرض. وبجانـب هذه السياسة في أولوية الانتشار، دعاهم إلـى التـدرب علـى القتـال تـدربا يبلغـوا بـه درجة القوة على الأعداء، ينفي عنهم الخوف والضـعف ويمكـن فـيهم الجـرأة والصـبر والشدة في حملاتهم، شدة ترهب أعـداءهم .ثـم هـزهم ليتلقـوا الوصـية التاليـة بعقـول متفتحة، بقوله: واعلموا: أن الله يساعد المتقين، ويفـتح لهـم أبـواب النصـر، ويؤيـدهم في جهادهم، ولا يتركهم لقدراتهم فقط . فليحرصوا على التمسك بالتقوى.

124-125: وإذا ما أنزلت سورة...وهم كافرون.

تتابع هذه السورة كشف أحوال المنافقين، وفساد دخيلـتهم، ذلـك أنهـم إذا أنزلـت علـى رسول الله ﷺ سورة من القرآن، رأيت أعـين المنـافقين ينظـر بعضـها إلـى بعـض ؛ وبعضهم يهمس إلى من كان فـي جـواره قـائلا: أيكـم زادتـه هـذه السـورة إيمانـا ؟ استهزاء منهم بما أثبتـه القـرآن أن المـؤمنين يـزداد إيمـانهم وضـوحا، كمـا يـزداد بالوحدات التي يؤمنون بها، كما يزداد تـيقظهم بآيـات الله المتلـوة علـيهم، قـال تعـالى: (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)[1] .

ثم تولى القرآن الرد عليهم مبرزا جهلهم .نعم، إن السـور تزيـد فـي قلـوب البشـر مـا يتناسب مع ما استعدوا إليـه زيـادة متعاكسـة. أمـا الـذين تفتحـت أرواحهـم بالإيمـان فتزيدهم إيمانا على حسب ما أوضحناه، ويصحب هذه الزيادة أن يعم البشر كيانهم.

وأما الذين انحرفت عقولهم وساءت دخيلـتهم وفقـدوا الصـحة العقليـة وتمكـن مـنهم المرض الروحي، فزادتهم كفرا إلى كفـرهم وتراكمـت القـذارة فـي كيـانهم، وصـحبهم ذلك الفساد والكفر إلى آخر لحظة من حياتهم .

---

[1] سورة الأنفال أية 2

126- أولا يرون ...يذكرون.

ما لهم عموا ولم يتعظوا، فقد توالت النذر عليهم، فالله يسلط عليهم كل عام الفتن في الأنفس والأموال. مصائب من الأمراض والجوائح ونقص الذرية، وانكشاف أمرهم بما يظهره القرآن مما يبالغون في كتمه والظهور بخلافه، وكل ذلك يوجب اليقظة ثم التوبة، لو كانوا يذكرون وتفيدهم المواعظ.

127- وإذا ما أنزلت سورة...لا يفقهون.

هذه آخر آية في سورة التوبة تفضح المنافقين وتهتك ما ستروه، وتقمعهم بأن الله مطلع عليهم. فإذا أنزل الله سورة تكشفهم وتعلن شيئا مما تحدثوا به في خلواتهم ودبروه فيما بينهم، وأطلع القرآن عليه الرسول والمؤمنين . تحيروا وأخذ بعضهم ينظر إلى بعض مما تنبئ عنه خائنة الأعين من العجب، كيف انكشف سرهم، من الذي كشفه، وأخذ كل فرد يسال المنافق الآخر هل يراكم أي شخص ليس منكم فبلغ عنكم ؟ ثم انصرفوا عن المجلس وحيرتهم مصاحبة لهم .لقد صرف الله قلوبهم فلم يعنها بالتوفيق ولا بمنع ما يحول بينها وبين الاهتداء، وذلك لكون عقولهم محدودة النظر، قصيرة التأمل، لا تنفذ إلى ما وراء الظواهر، فاقدة للفقه.

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

جاءكم :توجهت إليكم الدعوة.

من أنفسكم : تعرفون نسبه فيكم، ليس غريبا عنكم ولا لصيقا.

عزيز عليه: يجد شدة على نفسه وثقلا.

ما عنتم :وقوعكم في الشدة والتعب.

حريص : شديد الرغبة في إيمانكم.

رؤوف : رقة في القلب

رحيم : يحسن للمرحوم.

التولي : الإعراض.

حسبي الله : الله يكفيني شركم .

بيان المعنى الإجمالي :

ثناء من الله على نبيه وتنويه به، وإيقاظ للبشرية للمنة ببعثته، فهو رسوله معروف نسبه، جربتموه فما رأيتم إلا كمالا. قلبه الكبير يسعكم جميعا، ويأسف لكل ما يلحقكم من تعب وأذى .لا يألو جهدا لهدايتكم، يرأف بكم ويشارككم أساكم، ويحمل قلبه الرحيم حب الخير لكم .

فإن أعرضوا عنك وثبتوا على ما كانوا عليه من الشرك، وأخذوا يدبرون لك المكائد، فقل لهم : الله يكفيني أمري ويكفيني مكائدكم، فأنا متوكل عليه، ومن يتوكل عليه لا يضره مكركم، فهو رب العرش العظيم، ولا يوجد في الكون مما حوته السماوات والأرض ما يقارن بالعرش العظيم .

بيان المعنى العام :

128-129: لقد جاءكم رسول...وهو رب العرش العظيم .

ختمت سورة براءة بهاتين الآيتين. وتضمنتا :

أولا: شهادة من الله بما جمعه رسوله ﷺ من صفات الكمال الإنساني، يحق على تاليها أن يقف متأملا في كل صفة من صفاته، ليرى مثالا من السمو الإنساني اجتمع فيه ما تفرق في غيره ولم يبلغ أي بشر مبلغه .

1) منة الله على العرب، ثم على البشرية جميعها، أنه بلغتهم دعوته التي بينت الحق وهدت الناس، ورفعت الحيرة، وأخرجت الناس من الظلمات إلى النور. وصلتهم فضلا من الله دون أن يبذلوا فيها جهدا .

2) من أنفسكم : ليس غريبا عنكم تتوقفون في مقامه وفي أخلاقه وفي سلوكه، عرفتموه فانكشف لكم عن صدق وعن فضل وعن أمانة، وعن استقامة، وعن ترفع عن السفاسف. فهو من خياركم نسبا. ويساير هذا المعنى قراءة (أَنْفُسِكُمْ)

3) عزيز عليه ما عنتم : يؤلمه ويثقل عليه، أن تحل بكم مشقة أو يلحقكم تعب، فهو لا يدعوكم إلى ما فيه مشقة وعسر، بل كل ما جاءكم به ودعاكم إليه ميسر تحقيقه يزيد حياتكم رخاء وفضلا .

4) حريص عليكم: هو لا يكتفي بأن يبلغكم ما أوحي إليه ثم يتركككم، ولكنه يتابع بالتوضيح والبيان، وتكرار الدعوة ليوقظكم إلى ملازمة الهدى، ويتابع أحوالكم المعيشية وينال من كرمه وسخائه المحاويج، ويرعى ضعفاءكم .

5) رؤوف : يرق قلبه لأي ألم يحل بكم، فيجد كل من يتصل به من معالي أخلاقه ورقة قلبه تلطيفا لما حل به. وفي الرأفة شعور الطرف الآخر بمشاركة وجدانية.

6) رحيم :وصف أعم من الرأفة، فالرحمة تشمل القريب والبعيد، وتدل على اشمئزاز من العنف ورفض له.

ثانيا : إعلان التأييد الكامل لرسوله : إنه بعد هذا الثناء من الله العليم، وتبعا لما يستقر في النفس وهو يتابع الأوصاف النبيلة تترى، فإنه يحق ويجب على كل من شاهد هذا المثل الأعلى مجسما في محمد، أن يؤمن به وأن يدخل في الدين الذي يدعو له وأن ينصره.

وتوجه القرآن إلى النبي ﷺ : لا يضرك أمرهم إن تولوا وتمادوا على الكفر، وكن واثقا من رفيع مقامك وصدق ما جئت به، وقل لهم كلمة فاصلة: حسبي الله . هو ربي يكفيني كيدكم وما يدفعكم إليه الحسد، لا أتوكل إلا عليه فهو الذي يسعدني بالتوفيق لنشر الدعوة، ودحر الشرك والنجاح في مهمتي، مما يعبر عن سعة أمَلِكَ، وذلك يزيد في كمدهم ويشد أزرك، فإنك تستند إلى الله المتفرد بالألوهية، رب العرش العظيم، وفي التذكير بكونه رب العرش العظيم ما يفيد الاستهانة بما يدبرون، فما هم إلا شيء تافه أمام العرش العظيم الذي هو أعظم مخلوق.

22جمادى 1432-2011/4/26

سـورة يـونس

اتفقت المصاحف وكتب السنة على تسمية هذه السورة بسورة (يونس) الرسول ا لذي كذبه قومه ثم آمنوا قبل أن يعاجلهم الله بالعقوبة فعفا عنهم كما سنتبينه عند قوله تعالى:(إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي) آية98

وهي سورة مكية في مجموعها واختلف في بعض الآي فروي ما يفيد أنها نزلت بالمدينة وعـدد آياتها : 109 آية. رتبتها في النزول الحادية والخمسون. نزلت بعد سورة بني إسـرائيل وقبـل سورة هود. وهي العاشرة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

الكتاب : القرآن.

عجبا : خارجا عن المألوف يثير الذهن بحثا عن حقيقته.

صدق : أصل الصدق موافقة الشيء للواقع، ويراد منه مصادفته المأمول منه المرضي.

السحر : تخيل ما هو غير واقع واقعا.

يدبر : التدبير هو النظر في عواقب الأمور وما يحف بها من مؤيدات أو معوقات.

التذكر : التأمل في الحاصل الذهني سابقا ليرتقي به إلى ما يلزم عنه.

القسط : العدل.

حميم : شديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت بثلاثة أحرف – ألف – لام – ر : تنبهوا إلى آيات الكتاب الذي يغرس في قلوبكم الحكمة. لقد عجب المشركون أن يتخير الله من بين البشر رسولا أوحى إليه لينبه الضالين من سوء العاقبة، وليبشر المؤمنين الصالحين أن الله كتب لهم في اللوح المحفوظ مكانة رفيعة ثابتة عند ربهم الذي اعتنى بهم فوفقهم. تحير الكافرون من اختصاص الرسول، البشرِ بتبليغ وحي الله، فرموه بالسحر .

ا علموا أن الله ربكم لا إله غيره، هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش متصرفا في خلقه، يدبر شؤون العالم كبيره وصغيره. لا يستطيع أن يتقدم أحد بين يديه بالشفاعة في مقصِّر إلا بعد أن يصدر له الإذن بالشفاعة. المتعالي العظيم هو ربكم لا إله غيره خصوه بالعبادة التي هو حقيق بها. ما لكم لا تتعمقون فيما تناديكم به فطرتكم من حقائق كامنة في بنائكم العقلي.

إنكم ستعودون إليه جميعا لا يفلت أحد من هذا المصير. هو وعده الحق الذي لا يتخلف. من حكمته أنه بدأ الخلق وأظهره للوجود، ثم يعيده إليه كما خلقه. إن ذلك هو مقتضى الحكمة حتى لا يكون الخلق عبثا لا يسير إلى غاية. بل هو يجزي الذين تطهرت بواطنهم بالإيمان وعملوا بما يقتضيه إيمانهم من تطبيق لأحكام الله، سيوفيهم أجورهم بالعدل. وأما الذين كفروا فقد أعد لهم شرابا يغلي كأشد ما تكون الحرارة، ويصحبه عذاب نفسي وجسمي يبلغ غاية حدود الألم.

بيان المعنى العام :

-1-الر تلك آيات الكتاب الحكيم.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة كما افتتحت سورة البقرة. وما ذكر هناك ينطبق هنا. وتُنْطَقُ هكذا: أَلِفْ – لامْ- رَ- مفتوحة بدون مد.

تتابُع هذه الحروف فيه إشارة دالة على كون القرآن المركب من هذه الحروف معجز. هي الحروف التي تتصرفون فيها، وأنتم الأمة التي من أعظم مزاياها قدرتها على البيان، ونسج الكلام الفصيح الممتع. إنه إذا رفعتم عنكم العناد تذعنون ولا شك بأن هذا الكتاب من عند الله، وقد تحداكم، ولم تستطيعوا أن تأتوا بسورة من الطراز الرفيع الذي جاء عليه. كما يدل قوله: تلك آيات الكتاب الحكيم -مع أن القرآن تضمن من المعاني والحكم والتشريع ومن الحقائق ما يدل على أنه من عند الله، إذ لا يتأتى لرجل أمي أن يأتي بذلك من عنده. وهو كتاب حكيم بالنظر إلى أنه حاكم على ما سبقه من الكتب يقر ما أراد الله إقراره بواسطته، ويصحح ما دخل

فيها من تحريف، وينسخ ما أراد الله توقيف العمل به. كما أنه يُكْسِب من تدبره وتأمل في مضامينه، حكمةً وسدادا في النظر.

2-أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ...إن هذا لسحر مبين.

لماذا تمكن العجب من المشركين؟ ألأنهم وجدوا أن الله القادر على كل شيء، قد أوحى إلى رجل غير غريب عنهم يعرفونه معرفة تامة، خبروه فرضوا أخلاقه واستقامته ؟ وما الذي أوحى به رب العزة لهذا الرجل ؟ أوحى إليه أمرين

1) أوحى إليه ما يدل على عناية الله بالبشرية بما يشمل إنذارهم بتنبيههم إلى ما بترصدهم من خسارة وسوء منقلب، إن هم سلكوا طريق الضلال.

2) وأوحى إليه أن بَشِّرْ الذين آمنوا بك وصدقوك واتبعوا النور الذي أنزل معك، أن الله قد كتب لهم عنده، فتحقق ما قدم لهم في سابق علمه من الخير والسعادة، في اللوح المحفوظ.

بلغ بالكافرين العجب فتحيروا في إدراك سر الوحي، ونظروا من زاوية الرفض والعناد فقالوا: إن ما جاء به سحر بين لا شك فيه. وذلك أنهم قد عاينوا أن هذا الوحي الذي أوتيه قد نفذ إلى العقول فأقامها على طريقة جديدة، وحولها من منهج الأسطورة إلى منهج يرفض الأسطورة، ونفذ إلى العواطف والميول فربطها بقيم خلقية جعلها تتنكر لما كانت تقيم عليه حياتها وتعودت عليه من قبل. إن هذا الوحي الذي خلق من الإنسان الجاهلي إنسانا مختلفا عما كان عليه من قبل، لا يكون إلا سحرا. زعما منهم أن السحر يؤثر في عقل المسحور ويقلب ما كان ثابتا في نفسه قبل تدخله. ومن ضلالهم: أن السحر يهدف إلى الإفساد وتمزيق الأواصر الجامعة، وهذا الدين يدعوهم إلى الخير والاستقامة، وإلى ما يوحد بينهم، ويحميهم من عاديات الاختلاف الممزق.

3- إن ربكم الله الذي خلق....أفلا تذكرون.

تأكدوا أن الذي تولّاكم بالإيجاد والإمداد، هو الله لا إله غيره المتفرد بالخلق. خلق السماوات والأرض وهذه حقيقة لا يستطيع المشركون أن يجعلوا لآلهتهم دخلا فيها. وما عقب خلق السماوات والأرض: **(في ستة أيام ثم استوى على العرش)** تقدم بيانه في تفسير الآية -54- من سورة الأعراف.

أثبت القرآن عقب خلق السماوات والأرض والأكوان أنه هو المتولي لتسييرها وتدبير ما حوته وما بث فيها من دابة. وهو ما يبطل ويرد على الذين يزعمون أن

الله خلق الكون، وأعطاه نواميس سيره، ثم تركه يسير ويتقلب في أحواله منفصلا عن التأثير المباشر لعزته.

كما أبطلت الآية أيضا ما يعتقده المشركون: أنهم لا يخشون العاقبة لأن آلهتهم سيتولون الدفاع عنهم ويشفعون لهم في تقصيرهم عند الله فَيَسْلَمُونَ، فنفت الآية أن يتقدم أيٌّ كان للشفاعة بين يدي الله، واستثنت ما أخبر به الله من الشفاعة لمن يأذن له في الشفاعة، وقد اختص محمد ﷺ بالشفاعة العظمى في أهل المحشر، والشفاعة الخاصة لأمته.

إن الله الذي هو ربكم، وتولاكم فخلقكم، ويسر لكم الهداية على لسان رسوله، ورزقكم، هو الحقيق بأن تفردوه بالعبادة، فاعبدوه. انظروا في الحقائق الكامنة في نفوسكم وتأملوا فيها، فسوف تهديكم إلى إفراده بالعبادة سبحانه. ففطرتكم تنادي بأن الله هو المستحق أن يتقرب إليه وأن يعبد.

4- إليه مرجعكم جميعا..وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

إن الكمال الإلهي يقتضي أنه ما خلق السماوات والأرض وما فيها عبثا وباطلا، ولكن هذا الخلق سينتهي إلى أمده الذي قدره له فتظهر حكمته. وصرح في هذه الآية بهذا المعنى .ستعودون إلى الله وحده، لا شريك له، فكما أنشأ كل فرد منكم ومكنه من مقومات الحياة الجسمية والعقلية والروحية، ثم سلب ما أعطاكم عند ما أراد، فكذلك سيرجعكم إليه لا يفلت من هذا التقدير أي كائن. تأكدوا من هذا المصير فإنه وعد الله الحق الذي لا يتخلف.

من مقتضيات حكمته في الخلق، عندما أحدثه أنه سيعود إليه. هذه الحكمة التي أفصحت عنها الآية تضمنت جزاء البشر المخلوقين وسيكون الجزاء على قسمين:

أولا: الذين جمعوا بين صفاء العقيدة، فآمنوا بالحقائق التي يقتضيها قانون العقل في الخلق والتصرف وما يقتضيه ذلك من صفات الكمال، ومن بعثة الرسل وما أخبروا به من المغيبات التي لا تناقض العقل ولكن لا يستطيع أن يصل إليها بإمكاناته .وبين التطبيق العملي الصالح لما تلقوه عن رسل الله من السلوك الرضي. إن الله سيجزيهم بإيمانهم وبصالح أعمالهم جزاء عادلا لا يهمل أي خير صدر عنهم صغيرا كان أو كبيرا. وفي الإشارة بالقسط: العدل، زيادة تكريم للمؤمنين الصالحين، إذ الشعور بالنعمة تكون أتم عندما يجد المجزي أنه كان في حياته محفوفا بعناية ربه الذي يحسب له كل أعماله ويجزيه عنها يوم القيامة، وأن حظه في الجزاء مع الكرم الإلهي موفور.

ثانيا: الذين كفروا بربهم ولم يذعنوا لما مكنهم من الآيات الظاهرة في الكون ومن الهداية عن طريق رسله، جزاؤهم شراب يغلي في بطونهم. وقد تقدم نظيره في الآية (70) من سورة الأنعام. ويصحب ذلكم الشراب عذاب خاصته: أنه يؤلم أشد الألم وأقساه بما يشمل الألم النفسي والحسي . ذلك جزاؤهم بما استمروا عليه من الكفر كامل حياتهم.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الضياء : النور الساطع القوي.

المنازل : مواقع القمر التي يبدو فيها كل ليلة من كونه هلالا إلى المحاق.

لا يرجون : لا يتوقعون.

اطمأنوا بها : سكنت نفوسهم لها فلا تتطلب شيئا وراءها.

مأواهم : المأوى مكان الرجوع، المصير.

يهديهم : يخلق فيهم ميلا إلى الخير.

الدعوى : الدعاء.

بيان المعنى الإجمالي :

من تدبير الله لأمر الكون، أن خص الشمس بجعلها ضياء تنفذ أشعتها ساطعة في الأرض وما حوته، مما يبعث على النشاط، وجعل القمر ضياء لا يزعج الإنسان عندما يميل إلى السكون. وقد سيره في منازل ثابتة لا تتغير بمضي الآماد. وألهم البشرية الاستفادة من هذا الضبط المحكم، فهداهم بذلك إلى استنباط معرفة التاريخ

في علاقاتهم. وتمكنوا من معرفة الحساب بواسطة هذا المرجع الدقيق. وكل ذلك يدل على أن الله هو الخالق المحكم لما صنع. صنعُهما ملتبسٌ بالحق الذي لا يدخله الباطل ولا العبث. مما ينبه المتقين إلى ما أودع من آيات في هذا التسيير.

إن الكفرة الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلى ربهم ليحاسبهم، وجعلوا كل همهم في الحياة الدنيا وقصروا نظرهم عليها فلا يبغون شيئا وراءها، وأضافوا إلى ذلك أنهم غفلوا ولم يتأملوا في الآيات المثبتة للخلق، إن مصيرهم إلى النار جزاء بما تواصل منهم من عقيدة فاسدة وعمل خبيث.

وفي المقابل فإن الله يمن على المؤمنين الذين عملوا بما يرضى الله عنه، فجعل في عقولهم حبا للخير والعمل الصالح، ينصرفوا إليه تلقائيا. ويجزيهم جنات تتخللها الأنهار. جمعت كل ما يطمحون إليه، فلم يبق لهم إلا التنعم بدعاء ربهم مسبحين. يشيع السلام بينهم، ويختمون بالثناء على فضل ربّ العالمين وعلى جلاله.

بيان المعنى العام :

5-هو الذي جعل الشمس ضياء .....نفصل الآيات لقوم يعلمون.

لفت القرآن في الآية الثالثة من هذه السورة إلى حقيقة: هي أن الله يدبر الأمر في هذا الكون الذي خلقه. وصرحت هذه الآية بمظاهر التدبير المحكم في الكون الذي خلقه يتمثل ذلك في تقديره أن جعل الشمس ضياء، وجعل القمر نورا، يتعاقبان على الكون بدقة تامة. وهما ظاهرتان متكررتان على الناس في تتابع تكاد رتابته تجعل الإنسان غافلا عما في ذلك من دلالة على الخالق وعلى إحكامه.

ترتبط بضياء الشمس الحياة كلها من الحرارة المناسبة للتكوين والنشاط الإنساني، إلى ما تنتجه الأرض، إلى تعقيم المحيط من التلوث، إلى ما يرقبه العالم من الانتفاع بهذه الطاقة المتجددة النظيفة المنبعثة من الشمس. وتجد في المقابل القمر فيه ضياء متغير لا يزعج الإنسان فيحرمه الهدوء والراحة. وظاهرة أخرى، أن الله قدر سير القمر منتظما في منازل، يبدو كل ليلة من ليالي الشهر في منزلة ثم ينتقل منها إلى منزلة أخرى إلى أن يبلغ تمام مسيرته، ليعود للظهور من جديد، وبذلك يتم الشهر القمري. وتحل الشمس في بداية كل شهر من السنة في برج، تنبه لها الإنسان فوجدها لا تتغير، وعلم منها بداية السنة الشمسية ونهايتها والفصول وما يرتبط بها، وخاصة في النواحي الفلاحية. وكان لهذه الحركة في كوكبي الشمس والقمر تأثير على الفكر الإنساني وعلى الحضارة كلها، إذ ضبط بتلك الحركة حياته وعلاقاته في عقوده وفي نشاطه في الأرض، وضبط التاريخ الماضي والمستقبل. وكان ذلك ملهما له لضبط تقديره الذهني والمعرفي بالحساب.

هاتان الظاهرتان تمران بالإنسان في رتابة جعلته قد يغفل عما في ذلك من التدبير والحكمة. ولذلك أيقظت الآية الإنسان ليتدبر في الحكمة الإلهية في الخلق، وأن يتأمل ولا يمر في غفلته سادرا، وأن الباطل والزيف والمصادفة لا مدخل لها في هذا النظام. وبهذا اللفت فَصَّلَ وبَيَّنَ ما في ذلك من الآيات الدالة على أن كل أمر قدَّره تقديرا في سابق علمه، ونفَّذه على ما اقتضته تلكم الحكمة، وهو ما يؤكد الأمر السابق: [فاعبدوه] وهذا التفصيل لا يستفيد منه إلا الذين رفعوا عن بصائرهم حجاب الغفلة فساروا في الحياة متأملين في كل مظهر من مظاهرها، متعمقين في الأسباب ومسبباها؛ وبذلك يتجدد لهم العلم وينمو، ويتعمق الإيمان ويزكو.

6-إن في اختلاف الليل والنهار.....لقوم يتقون.

يتعاقب الليل والنهار على الكون، ويتكرر ذلك كل أربع وعشرين ساعة في انتظام لا يختل، الليل والنهار. ويمر الإنسان بهما غافلا عما في ذلك من التقدير والإحكام البالغ الغاية. فأدق ساعة صنعها الإنسان وكانت نتيجة مجهود علماء كبار، وفنيين مهرة، لا تنتظم بصفة دائمة بل يلحقها التعطل، وتفقد الضبط. والليل والنهار مضبوطان بأربع وعشرين ساعة لا ينقص أمدها ولا يزداد حتى أقل ما يتصور من أجزاء الثانية. ملايين السنين في الماضي والمستقبل إلى أن يقدر الله زوالهما. وفي ذلك آية من آيات الخلق الإلهي والتصرف الحكيم. وبجانب هاتين الظاهرتين مخلوقات لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، تتأثر بالليل والنهار وتنفعل بما يحيط بها وتسير في طريقها المرسوم لها حسب السُّنَن التي أعطاها. عرف الإنسان بعضًا منها وما هو محجوب عنه كثير. وهو مُمَكَّن من ضبط ما أجراها عليه خالقها من قوانين. والتقوى تجعل الإدراك لهذه الآيات يتعمق بالشعور الموصول باستحضار أن يد القدرة الإلهية تخلق وترتب وتنظم.

7←8: إن الذين لا يرجون لقاءنا....بما كانوا يكسبون.

صرحت الآية بالنتيجة التي تعقب موقف المعرضين عن التدبر في الآيات المنتشرة في كون الله القريبة من كل ناظر، والكامنة في أجزائه. أبرزتهم وقد التصقت بهم خصائصهم التي دمروا بها أنفسهم وهي تشمل:

1)أنهم لا يتوقعون أن يعيدهم الله بعد موتهم ليلقوا جزاءهم عنده، فهم لذلك لا يلتفتون إلى ما وراء الظواهر الكونية من تدبير حكيم، وخالق عظيم.

2) أنهم رضوا بالحياة الدنيا فكانت آخر همهم ومنتهى غرضهم، فوقفوا نظرهم عليها، وحسبوا أنها البداية والنهاية. فسكنوا لها. وقصُر تفكيرهم وعملهم عما وراءها فلم يقرؤوا له

حسابا. إذا أصابتهم حسنة طاروا لها طربا، وإذا أصابتهم سيئة قادهم حزنهم إلى اليأس، إذ لا وراء حياتهم حياة أخرى. أرواحهم قاحلة فلا تتسامى إلى ما وراء المادة. ومن العجيب أنهم رغم انغماسهم في الحياة الدنيا وقصرِ تفكيرهم عليها هم غافلون عما فيها من آيات تنادي بوجود الخالق وبنعمه وفضله.

إنه إذ تحقق فيهم هذا الفساد، وساروا عليه إلى النهايـة، فـإن مصـيرهم الـذي يعـودون إليه، هو النار جزاءً بما عملوا عن إرادة وإصرار.

9←10: إن الذين وعملوا الصالحات....أن الحمد لله رب العالمين.

في المقابل لأولئك الكفرة الغافلين، مَـنَّ الله علـى الـذين آمنـوا إيمانـا صـادقا وقرنـوا إيمانهم بفعل الخير، مَنَّ عليهم بأن جعل ما كسبوه مـن صـلاح فـي العقيـدة والعمـل، يشعُّ في عقولهم بما يميل بهم إلى الطريـق السـليم فـي عواقبـه، حتـى يـبلغهم ربهـم المتولي لأمرهم، بتلك الهدايـة والإيمـان إلـى المصـير السـعيد. هـو جنـات تتخللهـا الأنهار الجارية. وإذ يصل بهم النعيم إلى تحقيـق كـل طموحـاتهم فـلا يشـعرون بـأي حاجة يسألونها، لا يبقى لهم إلا أن يكرروا بألسنتهم المناجـاة الروحيـة التـي هـي أكمـل أنوا ع الكرامة عندهم فيدعون ربهم: سبحانك يـا الله. ويحيـي بعضـهم بعضـا بالسـلام الذي ألفوه في حياتهم الدنيا. ويختمـون لقـاءاتهم بالتوجـه إلـى الله حامـدين كمالاتـه، مستشعرين الغبطة بما استقر في قلوبهم من كونه رب العالمين.

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

استعجالهم : تعجلهم الشديد.

الأجل : المدة المقررة للبقاء.

العمه : الخبط في ضلال.

كشفنا : أزلنا.

مر: مضى في طريقه غير ملتفت إلى ما سبق منه.

الإسراف : الإكثار في شيء غير محمود.

الإهلاك: الإفناء.

القرون : جمع قرن القوم المقترنون في زمن واحد.

البينات : جمع بينة وهي الحجة الواضحة على الصدق.

لننظر : لنعلم علما يتطابق فيه العلم الأزلي بالعلم التنجيزي.

بيان المعنى الإجمالي :

أمهل الله الكافرين ولم يعاجلهم بالعقوبة، فصرحوا: (بأنه لو كان الإسلام من عند الله، ونحن قد كفرنا به) لعجل لنا العقوبة. فعدم تعجيل العقوبة دليل على أنه ليس من عند الله حسب زعمهم. كما أن المؤمنين استبطأوا إمهال الكافرين وعدم معاجلتهم بالاستئصال .فكان الجواب في الآية واضحا: إن الله قد رتب أمر الخليقة على نظام أحكمه في سابق علمه، ولم يبن أمر الحياة الدنيا على المبادلة السريعة، بل على ألطافه وفضله وإمهال المسرف للتوبة والرجوع إلى الحق. وهذا ما تشاهدونه، فلو كأن الأمر على ما تتصورون لخرب الكون. ولكن حكمته تعالى اقتضت إمهال الذين لا يتوقعون البعث فتركهم يسيرون في طغيانهم متحيرين.

ومن شأن الإنسان أن يشعر بالحاجة إلى العون الإلهي بمجرد ما يمسه ضر بدني أو نفسي، فيدعو ربه سواء أكان الضر ثقيلا ألزمه الفراش، أو خفيفا بقي معه جالسا أو منتصبا قائما، فإذا لطف الله به وشفاه نسي ضعفه السابق. وعلى هذا النحو يزين الشيطان للكافرين أعمالهم.

والله قد استأصل شعوبا من قبلكم، بسبب ظلمهم، بلغتكم أخبارهم. وبعد أن أرسلت إليهم رسلي مؤيدين بالآيات البينات الواضحة على صدقهم، لم يؤمنوا. وعلى ذلكم النحو نجزي القوم الذين تأصل الإجرام في نفوسهم. وانتبهوا فقد مننّا عليكم بأن مكناكم فجعلناكم خلفاء لهم في الأراضي التي كانوا يعمرونها، وسنُقَوِّم ما تقومون به لتجزون عنه جزاء عادلا، لا يستوي فيه الخبيث والطيب.

بيان المعنى العام :

11 ولو يعجل الله للناس الشر....في طغيانهم يعمهون.

دعوة بينة ربطت الإنسان والكون بالله، نادى بها رسول الله ﷺ في فم الدنيا، وما تزال تتردد أصداؤها تسير مع الحق ويسير الحق.معها. ولو رفع البشر عن عقولهم الكبر والعناد، لما بقي فرد يعادي ذلكم النداء المستجيب للفطرة، الفاتح للبشرية

منافذ الرقي والسلام. قابل المشركون تلكم الدعوة بالرفض والتحدي، وحجبهم عن الحق تصور ساذج: أنه لو كان الدين الإسلامي حقا من عند الله، وهم قد كفروا به، لعجل الله عليهم عذابه واستأصلهم. كما جاء في قوله تعالى :(**وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ...**)[1].

كما أن المؤمنين لاحظوا أن كثيرا من الكافرين ينعمون مترفهين في الحياة الدنيا، سلمت لهم أبدانهم وذرياتهم وأموالهم، فاستبطأوا نزول العذاب عليهم. فعرفت هذه الآية الفريقين بقانون الله في الكون: أن الله لم يبن الكون على تقابل سريع بين الشر والعذاب، وأن رحمته وألطافه هي الظاهرة الغالبة في الكون، وأن ما سبق لتصور الفريقين مناقض لتدبير الله في الخلق. فسجل القرآن، أنه لو يعجل الله للناس الشر الذي طلبوه تعجلهم الشديد لتحقيق الخير الكثير في تقدير الله، لانتهوا من الوجود، أي بمجرد ما يرتكبون الشر. ولكن الله قدر أن يبقى الكون والبشر إلى آجالهم المقدَّرة لهم. وبناء على أنه لا يتحقق في الكون إلا ما قدرته في سابق علمي، فإني أنا الله أبقي الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلينا لحسابهم على ما قدموه، أبقيهم في ضلالهم وكفرهم سادرين يتخبطون لا يتبينون طريقا ينجيهم.

12-وإذا مس الإنسان الضر دعانا....ما كانوا يعملون.

كشفت الآية عن طبيعة من طبائع الإنسان إذا أطبق عليه الكفر. إن الإنسان الكافر إذا مسه ضر مما يؤلمه نفسيا أو جسديا، أسرع بدعاء الله ليتقوى على الحدث المؤلم، كيفما كان حاله عند نزول البلاء، سواء أكان على جنبه، أو جالسا، أو منتصبا قائما. هذا ما فهمه معظم المفسرين .

والذي ترجح عندي أن قوله تعالى: دعانا لجنبه يشمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى قريبا منه، دعانا لنكون عنده نمده بالعون والرعاية والتلطيف. وثانيهما أن يكون القصد منه وهو على جنبه الحالة التي هي إحدى حالات الإنسان الثلاث.

ثم إن هذا الإنسان الكافر، إذا تعلقت إرادتنا وقدرتنا بإزالة ما به من ضر، وعوفي بعد ما كان يشعر بالضعف، يتحول كأنه ما لقي ضرا ولا ألما، وكأنه ما كان محتاجا ضارعا. وعلى هذا النحو من التسلط الشيطاني على النفوس التي بعدت عن الاعتدال ومالت إلى الإسراف، يتسلط عليها بإضلالها وإغوائها وطمس الحقيقة عنها، فيفقدون سلم القيم، وينقلب القبيح حسنا تألفه نفوسهم، والحسن قبيحا تنفر منه .

---

[1] سورة الأنفال آية32

13- ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ...نجزي القوم المجرمين.

سنة من سنن الله في تنكيله بالقوم الظالمين، تقوم شاهدا على ما ذكرته الآية السابقة: (ولو يعجل الله للناس....) إذ من الأخبار التي كانت شائعة عند المشركين من أهل مكة: أن الله أهلك أمما في فترات سابقة، تقدمت في تاريخ الإنسانية، وأن استئصالهم وإفناءهم كان بسبب ظلمهم، والشرك ظلم عظيم. وما سلط عليهم عقوبته إلا بعد أن بعث لهم رسلا من عنده، قَوَّى جانبهم ورفع المعاذير عن قومهم، بما أيدهم به من حجج واضحة بينة قامت شاهدة على صدقهم. ومع ذلك كابروا عنادا ولم يؤمنوا، فكان استئصالهم جاريا على سنن الله في إهلاك القوم المجرمين. وفي ذلك إنذار للمشركين أنه سيحل بهم من العذاب ما حل بالمكذبين الذين سبقوهم.

14-ثم جعلناكم خلائف ....كيف تعملون.

ثم بعد استئصال القوم المجرمين من الأمم التي أهلكت في جزيرة العرب، مكناكم من أن تخلفوهم في ديارهم ومساكنهم، ليكون ما تقومون به من أعمال مفضيا بكم إلى النتيجة العادلة. إن علمه سبحانه لا يتغير، فمن كان منكم فاضلا في علمه الأزلي، وعمل صالحا إذ لا يقع إلا ما تقرر في علمه القديم، يجزى حسب ما قدم من الخير كما هو في سابق علمه، ومن ضل ولم ينظر في مآل القوم الكافرين من قبله، وسار على طريقهم الضال، فإنه يعاقب عقوبة عادلة.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

بيان معنى الألفاظ :

بدله : غيره.

من تلقاء نفسي: من جهة نفسي.

أتبع : لا أتصرف فيه بأي تغيير.

التلاوة : قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ.

أدراكم : عرفكم.

أتنبؤون : أتعلمون .

بيان المعنى الإجمالي :

صورة من صور معاناة الرسول ﷺ من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث، إنهم إذا يتلى عليهم القرآن، يكون ردهم ائت بقرآن آخر غير هذا الذي نسمعه منك، يقص علينا مثل ما هو موجود في كتب الفرس، أو بدل ما تواجهنا به من إبطال آلهتنا، ومن إنذارنا سوء المصير. قل لهم إن القرآن الذي أبلغكم هدايته ليس لي أن أغير منه شيئا، فأنا لا أتصرف فيه وإنما أتابع ما أتلقاه من وحي ربي. إني مستحضر عظمة الخالق، فمن يكذب عليه ويعصيه لا يفلت من عقابه العظيم يوم القيامة. ثم أضف إلى ذلك إن التصرف بيد الله، فلو شاء الله أن يحرمني وحيه ما تلوت عليكم القرآن، ولو شاء الله أن يحرمكم لحرمكم معارفه.

ثم إنكم قد عرفتموني أربعين سنة، فما كنت أباري الفصحاء، وتعلمون أني أمي لا علم لي بتفاصيل الماضين، ولا بحقائق الكون. وهذا القرآن أمامكم معجز في لفظه وفي مضامينه، أليس لكم عقل يهديكم! إنه لا يوجد ظلم أسوأ من ظلم الذين يكذبون على الله، أو الذين تصلهم آياته البينة فيرفضونها، إن هؤلاء مجرمون. ومآل المجرمين الخسارة الكاملة في الدنيا والآخرة.

إنه من فساد ملكاتهم، وسوء تفكيرهم أنهم يعبدون من دون الله أصناما عاجزة لا تضر ولا تنفع، تبعا لما أوهمهم به سدنتها أنها تشفع لهم يوم القيامة، فلا يلحقهم بشفاعتها عذاب. فاعترَفوا بأن بيد الله أمر الآخرة وعبدوا الأصنام. إن أوهامهم لا حقيقة لها ولا أصل، وعلم الله الذي يضبط كل شيء ضبطا محكما، ولا يغيب عن علمه شيء في السماوات ولا في الأرض يشهد بأن ما أثبتموه من شفاعة آلهتهم لا أصل له. تنزه ربنا وتعالى عن شركهم.

بيان المعنى العام :

15-وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات. ..عذاب يوم عظيم.

تعرض هذه الآية تلدد المشركين، ونماذج مما عاناه النبي ﷺ منهم. فكانوا إذا عرض عليهم ما أوحى الله له من آيات القرآن البينة الواضحة، اللافتة للعقول

المحيية للأرواح، قال الكافرون الذين لا يتوقعون حياة أخرى غير الحياة الدنيا، وينكرون البعث، قالوا: إذا كنت ترغب أن نستمع إليك فائت بقرآن غير هذا القرآن الذي تتلوه على مسامعنا، تكون مضامينه مغايرة له، يُومِئُونَ إلى أن يكون شبيها بما يسمعونه من قصص الفرس وملاحمهم. أو بدل ما تقرع به أسماعنا من ترك ما نعبده ونقدسه، فتُثني عليهم. ومن تحذيرنا سوء المصير بالبشارة وفتح الآمال. وفي كلامهم إنكار واضح لكون القرآن من عند الله.

كان الجواب قاطعا رافعا لتوهمهم الذي بنوا عليه سؤالهم. مضمونه: إن هذا القرآن هو كلام الله وليس لي أي دخل فيه. فأنا غير مخول أن أتصرف فيه أي تصرف. أتلقاه من ربي، وأبلغه كما أوحي إلي، دون أن أزيد فيه أو أنقص منه، أو أحول لفظا من ألفاظه أو معنى من معانيه. فأنا متَّبِع أمين على ما أوحي إلي. ارفعوا عنكم هذه الأوهام، ذلك أني أخاف إن تجاوزت ما أنا مكلف به من التبليغ الصادق، أن يسلط علي عذابه يوم القيامة الذي يكون عذابُ الكَذَبَةِ على الله فيه عظيما يفوق الوصف. إنه لايفلت الكاذب على الله من العقوبة.

16-قل لوشاء الله ما تلوته.....أفلا تعقلون.

أردفت الآية حجة أخرى تدفع شبهات الكافرين المعاندين. مضمونها: أن الله المتصرف في الكون هو الذي يسر لي المَقامَ الذي انتخبني له، ومكنني من تلاوة آيات كتابه عليكم. ولو تعلقت إرادته ومشيئته أن لا أتلو عليكم هذا القرآن لاستحال علي تلاوته، ولو تعلقت مشيئته بإبقائكم على ضلالكم لما أوحى إلي ما فتح به العقول ولا عرفكم به (ولا أدراكم به) بل لما أرسلني وواصلت حياتي على النحو الذي تعرفونه مني طيلة عمري الذي أقمته بينكم وأنتم ترقبونني. فما كنت يوما في الأربعين سنة التي قضيتها بينكم من المتبارين في القول والبيان، ولا من دعاة الإصلاح وعرض الدعوة إلى الله. ما لكم لا تتدبرون ولا تتأملون بما يفتح عقولكم فتحا يوجب عليكم أن تصدقوني، لأن ما أيدني به كلام معجز، في مضامينه الكاشفة عن الحقائق التي لا تتأتى لرجل أمي، ومعجز في صياغته، ما كان لي سابقة بهذا المستوى قبل الوحي الذي تلقيته من ربي.

17- فمن أظلم ممن افترى على الله ...لا يفلح المجرمون.

يواصل القرآن الاحتجاج على المشركين ودحض شبهاتهم بطرق متنوعة، تقمعهم وتكشف أنهم ما رفضوا الإسلام إلا بناء على العناد . فذكرتهم الآية في طالعتها بأنه لا يتصور أن يبلغ الظلم بالإنسان مبلغا يساوي ظُلْمَ من اختلق من عنده ما

نسبه إلى الله كذبا وبهتانا. فالنبي ﷺ شاعر بمقام ربه مقدر لعاقبة ذلك الظلم، فلا يتصور منه أن يقدم عليه وشعوره بالغ هذا الحد. وفي المقابل تلقي على المشركين عباءة هذا الظلم الفاحش بسبب أنهم كذبوا بالآيات البينة الواضحة. وتختم الآية بالتهديد بأن هؤلاء الظلمة، بالشرك والتكذيب، هم مجرمون مآلهم الخيبة في الدارين.

18- ويعبدون من دون الله .....وتعالى عما يشركون.

ثم إن القرآن يشهر بالمشركين، ويكشف فساد تفكيرهم وعقيدتهم، إذ أنهم يعرضون عن عبادة الله خالق الكون، ويتقربون إلى أصنام لا تضر ولا تنفع، تمثل العجز الكامل، متأولين بأنها تنفعهم عند الله وتشفع لهم. فما أشد غباءهم يعبدون الأصنام، ويعترفون بأنها وسائل تشفع لهم عند الله. فقد اعترفوا بالله وأعرضوا عن عبادته.

إن هذه الأصنام لا تأثير ولا قيمة لها. ومن تطاولكم أيها الكافرون على الحق، أنكم تريدون أن تعرفوا الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وأحاط بكل شيء علما، تريدون أن تعرفوه بوجود ما لا وجود له في السماوات ولا في الأرض. تنزه ربنا وتعالى عن سفالة الشرك.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

بيان معنى الألفاظ :

آية من ربه :علامة على صدقه حسبما يقترحونه.

الغيب : ما غاب عن الحواس . والمراد به الآيات المقترحة منهم.

أذاق : مكن من الإدراك.

الرحمة : نعمة.

المكر : الاستهزاء والطعن فيها لتوهين شأنها.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الناس كـانوا موحـدين لا خـلاف بيـنهم فـي ذلـك. ثـم إن الشـياطين أغوتهم، والشهوات أضلتهم. ولو كان الله يؤاخذ الخارج عـن الإيمـان بمجـرد مـا يبـدر منه الكفر، لعجل العقوبة وأبان الحق ناصعا، فينتهـي التكليـف تبعـا لـذلك. ولكـن إرادة الله كانت غير ذلك.

ومن شغَب المشـركين أنهـم يقترحـون ملحـين، أن ينـزل الله علـى رسـوله معجـزة تصدقه، على المقياس الذي يتصورونه. قل لهم إن ما سـيأتي بـه المسـتقبل هـو غيـب، والغيب بيد الله يظهر منه ما يشاء حسب حكمتـه لا حسـب مقترحـاتكم. فـانتظروا مـا سيأتي من عنده.

عجبٌ أمر البشر، فإذا أدركتهم نعمة من النعم بعد أن مسـهم الضـر، قـابلوا الفـرج مـن الكرب بإنكار الفضل الإلهي وشككوا. هددهم القرآن بأن مـا يمكـرون بـه ومـا يقلبـون به الأوضاع، سينالون جزاءه من الله المالك الـذي سـينتقم مـنهم ويقلـب أوضـاعهم. ولا يَضيع شيء من مقاصدهم السيئة وأعمالهم الخبيثة، فـإن الله أوكـل بهـم ملائكتـه الـذين أرسلهم لإحصاء أعمالهم فلا يفلتون من العقاب.

بيان المعنى العام :

19-وما كان الناس إلا أمة واحدة ....فيما فيه يختلفون.

هذه الآية هي قرينة الآيـة "213" مـن سـورة البقـرة. وإن كـان لكـل واحـدة منهمـا خصائص تركيبية تتناسب مع مـا سـبق كلامهمـا، إلا أن المعنـى الأسـاس لهمـا يكـاد يكون واحدا.

تؤكد الآية على أن الإسلام دين الفطرة، على معنـى أن العقـل البشـري إذا لـم ينحـرف بمعطيات دخيلة عليه، فإنه لا يكون إلا مؤمنا بـالله الواحـد الأحـد لا شـريك لـه. إذ أن الاستقامة في التفكير لا يمكن أن تصل إلا لهـذه النتيجـة الصـادقة. وقـد فصـلنا القـول في ذلك عند تفسيرنا للآية " 213" من سـورة البقـرة. وبنـاء علـى ذلـك فإنـه مضـى زمن من عمر البشرية وهم متفقون فـي التصـور: أن الله خـالق العـالم وأنـه متصـف بصفات الكمال. اهتدوا إلى ذلك فطريا ولم يحـدث بيـنهم خـلاف فيـه. ثـم حـدث بعـد ذلك أن تدخَّل الشيطان بوسوسته، والغرائـز بعنفهـا، والأنانيـة بطغيانهـا، ففرقـت بـين البشر، فمنهم من حماه الله فبقي مؤمنا، ومنهم مـن اتبـع هـواه وغـرَّه الشـيطان فكفـر. ويبعث الله تفضلا منه أنبياءه ليبينوا الحق وليقيموا الدين كلما انتشر الكفر.

وإنه من سنن الله في الخليقة أنه لا يعجِّـل نقمتـه فيستأصـل الكـافرين، ويظهـر الحـق منتصرا وحده في العالم. ولكنه سبحانه يمهلهم لينجو المهتدي، ويخسر المبطل.

20-و يقولون لولا أنزل عليه آية....من المنتظرين.

من الشغب المتتابع من المشركين ما تضمنته الآيـة: أن المشـركين اقترحـوا نظيـر مـا تقدم في الآية "15" وفي غيرها مـن سـور القـرآن، أن ينـزل الله علـى رسـوله دلـيلا ماديا يشهد بصدقه حسبما اقترحوه. وبنوا على ذلـك أنـه إذا لـم يـأتهم بمقتـرحهم فـذلك دليل على عدم صـدقه وأن الله لا يؤيـده. وهـو مـن باطـل أوهـامهم إذ قـدَّروا أن الله ينتظر ما يقترحونه فيسرع بتنفيذه ليلجئهم إلى الإيمان. بـل إن مـا تأيـد بـه رسـول الله كاف لهداية من تدبر ولم يعاند.

أمر الله رسوله أن يرد عليهم، بأن كل أمر لم يقع بعـد فـي الوجـود، هـو مـن الغيـب الذي يتصرف فيـه الله وحـده، فيتحقـق فـي الوجـود إذا تعلقـت الإرادة بـإبرازه، ولا يظهر إذا أراد الله عدم حدوثه. وإني منتظـر مـا يـأتي بـه الله المتصـرف وحـده فـي الكون حسب حكمته لا حسب رغبـتكم ومقترحـاتكم. وبمـا أنكـم لا تملكـون أي تـأثير على اختيارات الله فانتظروا، وليس لكم إلا الانتظـار الـذي يبقـي علـيكم فـي حيـرتكم. ففرق بين انتظار الرسول لما يأتيـه مـن ربـه فيـؤمن بـه، وبـين انتظـارهم الـذي لا يستجاب له فيسـتمرون علـى ضـلالهم، ولا يترقبـون إلا شـرا علـيهم فـي الحاضـر والمعاد.

21- وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء.....تمكرون.

هذه الآية تسجل على الكافرين وتوبخهم في آن واحد. ذلك أن الله يتفضل عليهم فيغدق عليهم نعمه، التي هي رحمته التي تعم العالمين، ويفرج كروبهم ويبدل ما يصيبهم من ضر إلى شفاء بعد السقم، وخصب بعد الجدب، وأمن بعد الخوف. فإذا أدركوا هذه النعم قابلوها بنكران أن تكون لله يد في ذلك، وإذا ذُكِّروا بها استهزأوا وهَوَّنوا من شأنها. يقصدون من وراء ذلك أن لا يجعلوا لتلك النعم أثرا يؤكد الإيمان . تهددهم الآية بأن رسل الله يكتبون ما يمكرون به ويُحْصُونَهُ عليهم، ليسلط عليهم، عندما يريد، في سرعة خاطفة، ما ينتقم به منهم انتقاما لا يجدون له مردًّا.

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا

أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

الفلك: السفينة.

الجري : السير السريع.

طيبة: ملائمة.

عاصفة : شديدة السرعة.

من كل مكان : من جميع جهات السفينة.

أحيط بهم : أهلكوا.

البغي : الاعتداء.

المتاع : ما ينتفع به الإنسان انتفاعا غير دائم.

بيان المعنى الإجمالي :

الله الذي بنى الكون على نظام مكن به الإنسان من التنقل في البر والبحر. ويعطي القرآن صورة لإبراز أن التصرف لله وحده: مسافرون في سفينة خرجت من المرفأ والبحر هادئ جميل، والريح مواتية تسير بهم في الاتجاه المناسب. وفي لحظة تكفهر السماء وتشتد الرياح عاصفة، وتعلو الأمواج من كل الجوانب، أشفقوا على أنفسهم وعلا الموج حتى إن كل واحدة ستطغى فتسحب السفينة إلى القاع. وابتهلوا إلى الله أن ينجيهم معترفين بتقصيرهم معلنين عزمهم على الطاعة والشكر له إذا هو أنجاهم.

ويتفضل الله عليهم فيبلغهم ساحل النجاة. فارتد المفسدون إلى ما كانوا عليه مشركين بالله، سادرين في التمتع بما تقدمه لهم الحياة، لا يحترمون قيمة ولا أمرا، ولا يقفون عن اقتحام منكر. إنه إذا قطع الإنسان صلته بالله ضل في سلوكه وظلم غير ملتزم بالحق. وما يحصل عليه لا يعدو ما يتمتع به الإنسان في الحياة الدنيا المتاع القصير، ثم يكون مصيره إلى الله فيكشف له ما كان عليه من ظلم.

بيان المعنى العام:

22-هو الذي يسيركم في البر والبحر.....لنكونن من الشاكرين.

تضمنت الآية دليلا على تفرد الله بالتقدير في تقلبات الكون، وعجز الإنسان عن التأثير، ومقابلة المشركين نعمته بالكفران .

بُني العالم على قوانين لا دخل للإنسان فيها، رغم أن حياته لا تنتظم إلا بها، فتنقل الإنسان في البر والبحر، ما كان ليتيسر لولا تلكم القوانين التي بني عليها أمر الخليقة. فلو كانت جاذبية الأرض أقوى مما هي عليها لتسمر الإنسان في مكانه، ولولا أن الماء يدفع الفلك إلى السطح لغرقت السفن وهي على الشاطئ قبل أن تبحر. فالتسيير في البر والبحر هو بتقدير إلهي عجيب؛ اختص به ربنا سبحانه.

ثم إن القرآن اقتطع صورة من صور السير في البحر فعرضها بما لابسها من معطيات. جماعة ركبوا سفينة وسارت بهم في بحر هادئ جميل، رقت نسماته، وامتد فيه النظر إلى آفاق بعيدة، وتعكس صفحته زرقة السماء، والمبحرون فرحون بما توفر لهم من حظ. وفي لحظة تعصف الريح فتعلو أمواج البحر، وتحيط بالسفينة من كل جهاتها، ويخيل للراكبين أن كل موجة ستطغى على السفينة لتأخذها إلى قاع البحر. لا تسأل عن القلوب وقد اضطربت، وعن الخوف وقد استبد بالنفوس، وعن الشعور بالضعف الذي عقبه الاستسلام إلى القدر.

إن الإنسان حتى من كان إيمانه واهيا، يثور في باطنه شعور بأنه في ساعات الحرج الكبرى لا ملاذ له إلا رحمة إلهية تنقذه من براثن الهلاك. ولذا توجه راكبوها مؤمنهم وكافرهم إلى الله مبتهلين: أنه إن عطف عليهم فأنجاهم من الكرْب الذي هم فيه، فإنهم يقابلون نعمته بالشكران والثبات على الإيمان.

23- فلما أنجاهم إذا هم يبغون ...بما كنتم تعملون.

استجاب الله دعاءهم، ونجوًا من العاصفة، وبلغوا شاطئ السلامة. كان من الواجب عليهم أن يوفوا بعهدهم، وأن يستقيموا في حياتهم، وأن يتذكروا ضعفهم وأن ما يحسون به من قوة إن هو إلا خيال يتبدد عند مباشرة الواقع بما يحمله من مفاجآت. ولكن طائفة منهم تنكرت لما عاهدت عليه، وأعلنت في وقاحة عن ظلمها، وأعظم ظلم هو الشرك بالله. فقوله تعالى(**إذا هم يبغون**) لا يشمل كل ركاب السفينة وإنما ينسحب على المشركين منهم المواصلين للشرك. رجعوا إلى عبادة آلهتهم، وما تنطبع به قلوبهم تبعا لذلك من غلظة واستبداد.

يخاطبهم القرآن مهددا: إن استبدادهم وظلمهم يعود عليهم بالوبال في الدنيا والآخرة. إنهم إن استمتعوا بما يجنونه من ظلمهم، وبتحررهم من القيم الخلقية وانغمسوا في الرذيلة، وأشبعوا شهواتهم، فإن ذلك متاع وقتي في الحياة الدنيا. هم خاسرون للذة الشعور بالسمو، وخاسرون لسلامة أبدانهم وملكاتهم. والعجب أن المستبدين لا يتعظون بما جرت عليه سنن الله في الكون. إذ كل مستبد ظالم جبار يتوهم أنه

أذكى ممن سبقه، وأن سنة الله لا تجري عليه. ويمهله الله لأجل قدَّره في علمه حتى إذا حل عليه، ذاب ما بناه كما يذوب الجليد تحت وهج الشمس. ولعذاب الآخرة أخزى .وسوف يعرض عليه يوم القيامة جميع ما كان يعمله من سوء، وظلمه وإفساده في الكون، ليكون ذلك مقدمة للعذاب الأكبر.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

الزخرف : ما يتزين به.

ازينت : ظهرت زينتها.

أمرنا: ما يسلطه من الجوائح كالريح الشديدة البرودة أو الحرارة(السموم).

حصيدا : تالفة . أصله الزرع المقطوع من منابته.

لم تغن : لم تعمّر.

التفكر : التأمل المتعمق.

يدعو: يطلب بما حَتَّمَهُ من التكليف بالفعل أو بالترك.

دار السلام: الجنة.

يهدي : يمكن بألطافه من الاهتداء.

الحسنى : الجنة.

يرهق : يغشى.

قتر : لون فيه ظلمة وكآبة من البؤس والشقاء.

عاصم : مانع.

أغشيت : غُطِّيت.

بيان المعنى الإجمالي :

قرَّب الله للناس حقيقة الحياة الدنيا، بالمقارنة بينها وبين ما يحصل في الأرض عقب نزول الغيث، من جمال وخضرة وثمار. ومالكوها يتوقعون إنتاجا طيبا وافرا. ثم يسلط عليها الجوائح الماحقة في لحظة لا يتوقعها أحد، فإذا الأرض جرداء كأن لم تنبت نباتا ولا امتلأت أشجارها بثمار. وهكذا الدنيا بعد أن تغري الناس بمباهجها يفنيها خالقها في لحظة لا يعلم أحد زمن وقوعها. وفي هذا المثل موعظة لمن يُعمل فكره ويتأمل.

والله يدعو البشر جميعا لامتثال شرعه حتى يدخلوا الجنة، ويجود بألطافه وعونه فيمكن من أراد له الخير من اتباع طريق الهدى.

وعلى العكس، فإن الذين محضوا خيارتهم للشر والرذيلة، فإنهم يجزون جزاء يعادل سيئاتهم، وتغشاهم ذلة اليائس الذي لا يجد من يمنعه من عقاب الله. تنظر إلى وجوههم مسودة، كأن قطعا من ظلام الليل متراكمة عليها. هم ملازمون للنار لا يخرجون منها أبدا.

بيان المعنى العام :

24-إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه....لقوم يتفكرون.

تشبيه يجسم مقربا حالة الحياة الدنيا في سرعة زوالها بعد البهجة المغرية بجمالها، بحال النبات الذي يكون خضرًا نضرًا في شبابه بعد نزول الغيث، ثم ييبس ويصير حطاما.

تعلَّق البشر بالدنيا تعلقا كبيرا ذُهلوا معه عن التأمل في نعيمها، حتى بلغ بهم الأمر أن غفلوا عن سرعة زوال ما تغري به من نعيم. نبههم القرآن بهذا المثل الذي ضربه حتى لا تخدعهم مباهجها ولذاتها. هو مثل ملحوظ لا يستدعي قدْح الفكر لإدراكه، ولكن الكافرين يغفلون عنه. يقدِّر الباري سبحانه إنزال الماء من السماء، فيسري في باطن الأرض ويختلط هذا الماء بمقومات النمو المخزونة فيها، لينفذ إلى عروق النبات، فيمتص كل نبات ما هو في حاجة إليه مما حمله الماء معه. ويتنوع إلى ما يتحول إلى قوت للناس، وإلى ما يتحول إلى قوت للأنعام. وتنظر إلى المزارع والأشجار فإذا هي تملأ العين إعجابا بجمالها: بساط مزركش الألوان، وأشجار تحمل من الغلال المختلفة الأشكال والأحجام والمناظر. وأصحاب المزارع يترقبون عطاء وافرا، ومضاعفة لثرواتهم، وتعظم آمالهم كلما اقترب موعد الحصاد

للزروع والقطاف للثمار. وهي في هذه الحال كحال الحياة الدنيا بما تغري به من مباهج الحياة. تَعْرِضها على البشر فينعمون بها وتغريهم لذائذها ليعظم تعلقهم بها، وتنطلق آمالهم إلى المستقبل لا يتوقعون انقطاعا لما هم فيه من خير ونعيم.

ويتحول المشهد في لحظة لا يتوقعها أحد ولا هي محددة بزمن، تأتي في الليل والناس نيام، أو في وضح النهار والناس في يقظة وجد. في هذه اللحظة يفجأ البشرية نوعٌ من أنواع الجوائح المهلكة، التي تدمر كل ما كان بهجة للأنظار، ومحطا للآمال. تسحقه حتى كأنه ما عمَّر سطح الأرض ولا كان له وجود. وكذلك الحياة الدنيا، يأتيها في لحظة غير متوقعة ولا معروفة ما ينهيها، يستوي في ذلك الأفراد، والحياة الدنيا وما تحويه بصفة عامة وشاملة.

وعلى هذا النحو من البيان يعرض القرآن بصفة مفصلة لا مجملة، ما يغيب عن الإنسان، فيوقظ من كان له فكر ليحركه، فتتبين له الحقائق التي كانت خافية، فيجد في اختلاطه بالقرآن نورا يكشف له ما استتر، ويقدم له الموعظة الحسنة.

25-والله يدعو إلى دار السلام....إلى صراط مستقيم.

هذا شأن من شؤون الخالق كشفت عنه الآية جمع بين أمرين:

أولهما: أن الله يدعو البشر المكلفين جميعا إلى اتباع طريق الصلاح بتطبيق أوامره واجتناب ما نهى عنه.

ثانيهما: أنه يختص بالمساعدة، من يشاء على الاستجابة والقيام فعلا بما تضمنته الدعوة العامة.

فالدعوة إلى الخير واجتناب الشر تشمل كل فرد من الناس، وبيان طريق الصلاح وطريق الفساد قام عليه دليلان من الوحي والعقل. وأما الاهتداء فِعْلًا فذلك يحققه فضل الله، بعون من يشاء فيشرح له قلبَهُ الخير، ويزيح عنه المعوقات.

26- للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...هم فيها خالدون.

إن الذين تأملوا في آيات الله، وتفكروا فيها، ثم اهتدوا إلى فعل الخير فأحسنوا في نواياهم، وضبطوا أفعالهم على الوجه الذي هدت إليه الشريعة، وكانوا محسنين في سلوكهم وفي علاقاتهم بإخوانهم في الإنسانية، أعد الله الجنة جزاء لهم، ويكرمهم إكراما فوق ذلك. يحتمل أن الله يتجلى لهم فيشعرون أنهم في حضرته بدون حجاب، ولا توجد نعمة تفوق تلكم النعمة. ويحتمل أن تكون الزيادة شعورهم برضوان الله عليهم.

وحقق القرآن انشراح وجوههم وصفاءها، فلا تعلوها كآبة ولا ظلمة، وميزهم بأنه ملكوا الجنة ملكا لا يزول أبدا.

27-والذين كسبوا السيئات جزا سيئة....هم فيها خالدون.

ذكر القرآن في المقابل الذين اختاروا طريق الضلال، ومحضوا نشاطهم لفعل السيئات، بترك المأمور به، وفعل المنهي عنه، وتفضيلهم المنكرات على المعروف. يظهر العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدا في مقابلة ما كسبوا، فيجازي كل سيئة بجزاء يناسبها. ويشرح هذا التماثل بأن تغشاهم ذلة وصغار، هي الكآبة التي تراها على وجوه المكروبين في حال اليأس. رؤوسهم منكسة وهم في ذهول، إذ لا يمنعهم مانع من عذاب الله ومقته. ثم جسمت الآية الهوان البادي على الوجوه، بتشبيه وجوههم، كأنها ألبست قطعا متراكمة من الليل الشديد الظلام، لم ينفذ لها أي نور. والخاتمة أنهم يميزون بتملكهم لجهنم تملكا يصحبهم أبد الآبدين.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

نحشرهم : نجمعهم.

مكانكم : قفوا حيث أنتم.

شركاؤكم : الأصنام التي كانوا يعبدونها.

زيلنا: فرقنا بينهم تفريقا قويا.

كفى: أجزأ وأغنى عن غيره.

تبلو : تختبر كل نفس ثمرة ما قدمت.

ضل عنهم : ضاع عنهم فلم يجدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يجمع الله البشر جميعا يوم القيامة، ويجمع مع المشركين الأصنام التي كانوا يعبدونها. ويفرض على المشركين وعلى أصنامهم أن لا يتحركوا من أمكنتهم، ويقطع الجامع الذي كان بينهما. ويواجه الأصنام بقوة يخلقها الله فيهم المشركين بقولهم: ما كنتم تعبدوننا، ويشهد الله عالم كل شيء أننا ما رضينا عبادتكم لنا، وما كنا عالمين بها. وفي هذا اليوم تعلم كل نفس حقيقة ما قدمته من خير أو شر وما

ستلقاه من الجزاء، وقد رجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق، وضـاع فـلا أثـر لـه مـا كانوا يعبدونه، مما كان كذبا مولدا من خيالاتهم.

بيان المعنى العام :

28←30 ويوم نحشرهم جميعا....على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون.

مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة فصلته الآيات الثلاث نتتبعه فيما يلي:

أولا: يوم القيامة يجمع الله البشر جميعا مـن مـواقعهم المختلفـة، وتصـوَّرْ البشـر مـن لدن آدم إلى يوم انتهاء الحياة على الأرض، وقد أقبل كل واحـد مـنهم مـن مكانـه الـذي استودع فيه، ليتم جمعهم بقدرة الخالق العظيم.

ثانيا: ثم بعد اجتماعهم يصدر الأمر الذي يخضـع لـه كـل المحشـورين، يصـدر الأمـر للمشركين ولأصنامهم: أن يلزموا مكـانهم ولا يتحركـوا. ويشـير الأمـر بـالتوقف عـن الحركة، يشير إلى أنهم مسؤولون عن جريمة اشتركوا فيها.

ثالثا: تنفذ القدرة الإلهية فتفرق بـين المشـركين وأصـنامهم تفرقـة كاملـة، فيظهـر مـن هنا أن الرابطة التي كانت تجمعهم في الدنيا قد تمزقت ولم يبق لها أثر.

رابعا: ينطق الله الأصنام التي ادعـى الكـافرون أنهـم شـركاء لله، فيواجهـون عابـديهم المحشورين في صعيد واحد معهم بقولهم قولا صـريحا: مـا كنـتم تعبـدوننا فـي الـدنيا. وهذا التبرؤ الكامل منهم يوضحه ما يرد بعد. إذ الواقع أنهم كانوا يعبدونهم.

خامسا: لا يقصدون من نفـي عبـادتهم نفيهـا أصـلا، فـإنهم عبـدوهم وتقربـوا إلـيهم وذبحوا لهم القرابين، وادعوا أنهم يشفعون لهـم عنـد الله. ولـذلك أكـدوا نفـي العبـادة بالقسم عليها وقالوا: كفانا دليلا على ذلـك أنـا نشـهد الله العلـيم بكـل مـا يجـري فـي الكون كبيره وصغيره، أنا ما كنا راضـين عـن عبـادتكم لنـا، ولا أمرنـاكم بـذلك، ولا كنا شاعرين بأنكم تتوجهون إلينـا بالعبـادة. فـأنتم تتحملـون وزركـم وجـراءتكم علـى الله.

سادسا: في هذا المشهد تتكشف لكل نفـس انكشـافا تامـا مـا قدمتـه فـي الـدنيا، كأنهـا تختبره فيصل بها الاختبار إلى إدراك يقيني لنتائج مـا قدمتـه فـي الـدنيا، ينكشـف لهـا الخير الذي هديت إليه، أو الشر الذي اقتحمته، وآثار ذلك من الكرامة أو المهانة.

سابعا: ينطق المشهد معلنا الحقيقة التي كـانوا يجحـدونها فـي الـدنيا ويكـابرون فيهـا: لقد رجعوا إلى الله متولي أمـورهم وهـو الحـق، لا الزائـف الـذي تولـد مـن خيـالهم الباطل. وذهبت ضياعا كل أكاذيبهم وصدع الحق وخابوا فواجهوا جزاءهم.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

فسقوا : خرجوا عن طريق الهدى والحق.

تؤفكون : تصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل .

يهدي : يبين طرق الصواب ويدعو إلى العدل.

لا يتبعون إلا الظن : اقتصروا على الأخذ بالظن الواهي الذي لا أساس له.

الحق : الثابت، وهو معرفة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه أسئلة ملجئة لكل من انصرف عن الاعتقاد في الله، تبرز تفرده بخصائص الألوهية، وعجْزَ كل ما تصوره البشر من القوى التي عبدوها.

السؤال الأول: يلفت فيه القرآن النظر إلى أن الرزق الذي يأتي من السماء أو من الأرض هو من فضل الله، ولا أحد غيره يمكن الإنسان من رزقه. وكذلك حواس الإنسان هي ملكه سبحانه. وهو الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي بقدرة عجيبة. ومن يرعى أمر العوالم فيسيِّرُها على نظامها المحكم؟ لا أحد غيره. ألْق عليهم هذه الأسئلة فإنهم لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله فاعل كل ذلك. فقل لهم إذن ما لكم لا تتَّقون ربكم وتدعون أن له شركاء.

ذلكم هو الله الحق الذي خلقكم وأحاطكم بألطافه؛ وهو الحق وحده، وإذا ثبت أنه هو الحق فكل تصور لرب سواه باطل، فإلى أي جهة تتجهون ولا تكون إلا ضياعا؟

ومن سنن الله أن الإنسان إذا ألِفَ ارتكاب المعاصي فإنه يحجب قلبه عن الإيمان.

قل لهم يا محمد: هل يمكن لأحد من شركائكم أن يخلـق الكـون ثـم يعيـده بعـد فنائـه؟ ولا جـواب لهـم. فعـاجلهم بـالجواب الصـحيح الواحـد: إن الله هـو المتفـرد بالبـدء والإعادة، فإلى أي جهة تتصرفون عن الحق فتتيهون في الباطل.

أقِم عليهم الحجة وأسألهم، هل لأي واحد من شركائهم التمكّن من هداية غيره ليسمو به إلى إدراك الحق والتزامه، وعجّل إليهم الجواب. هم أصنام لا يعقلون، والله هو المتفرد بالهداية. وعجب كيف يعرضون عن اتباع المتفرد بالهداية ويتبعون من لا يملك اهتداء، إلا أن ينقل من مكان إلى مكان آخر، ما كان يدري مقدما إلى أين يسير.

عجب لكم كيف تحكمون بهواكم، على ما هو صحيح عقديا وما هو فاسد.

ولكن أكثرهم إنما يعتمدون علـى ظنـون لا أسـاس لهـا، والـبعض الآخـر وإن عـرف ضلاله إلا أنه لم يرفضه تغليبا لحظوظ ماديـة عاجلـة. والظـن الزائـف لا يقـوم بـديلا عن الحق الثابت. وسيجزون يوم القيامة جزاء عادلا تابعا لما علمه الله منهم.

بيان المعنى العام :

31- قل من يرزقكم من السماء والأرض ...أفلا تتقون.

يثير القرآن العقل الإنساني للتأمل فيما حولـه. فيعـرض فـي هـذه الآيـة ومـا يتلوهـا توجيه الرسول الله ﷺ لإثارة أسئلة متلاحقة للمشـركين. ممـا يجـري حـولهم، بـل فـي ذواتهم وهم يقفون عند ظواهرها ولا يتعمقون فيما وراء ذلك.

السؤال الأول: من يرزقكم من السماء والأرض؟

الرزق النازل من السماء ينال كل إنسان حظه منه، ويغفل معظم البشر عن أهميته، فلنتأمل فيه قليلا ليبدو لنا عظمته. ولنقف أولا أمام كوكب الشمس، والأرض واحدة من المجموعة الشمسية، نجد أن النبات ما كان لينمو لولا الشمس ولولاها لتجمد كل شيء على سطح الأرض، ومنها تستمد الطبقة الظاهرة منها القوة المتجددة، وتقوم الأشجار بالتفاعل مع أشعتها بتصفية الهواء، وتتبخر مياه البحار بواسطة حرارتها لتتكون منها السحب وتنزل الأمطار، وهي خزان لا يحد من الطاقة، تنتظر من الإنسان أن يسمو في معارفه ليستمد منها ما هو في حاجة إليه من الطاقة النظيفة. وبضيائها عرف الإنسان الكون وما يحويه من إنسان وحيوان وجماد، ولكل فرد حظه من نعمة الشمس، ولا يمكن له أن يحيا على وجه الأرض بدون رزقه وأخذ حظه من الشمس.

و من السماء تنزل الأمطار التي تقوم عليهـا الحيـاة، وبـدونها تكـون الأرض قاحلـة لا تنبت زرعا ولا ثمارا ولا كلأ، ولا تعيش ماشـية ولا حيـوان. وكـل فـرد ينالـه رزقـه المقدر له من السماء.

و تفاعلُ الأرض مع السماء، كما أشرنا إليه قريبا، مقـوِّم حيـاة كـل إنسـان فـي قوتـه وسكنه ولباسه، وكل ما يساعده على الاستخلاف في الأرض.

السؤال الثاني: أم من يملك السمع والأبصار؟

ينتقل القرآن من العالم الخارجي إلى الإنسـان ذاتـه، فينصـب السـؤال علـى الحـواس الظاهرة التي يظن الإنسان أنـه ينفـرد بملكهـا، ويخـص منهـا السـمع والبصـر لقـوة ظهورهما. والحاستان لا يملكهما إلا الله، فهـو الـذي يوجـدهما ويحفظهمـا إلـى الأمـد الذي قدَّره. ومن يحرمه السمع يولد أصم، ومن يحرمه البصـر يولـد أعمـى. بـل أبلـغ من هذا فكثيرا ما يصطدم شخص بغيره أو يسقط في حفـرة أمامـه، ويخبـر عـن نفسـه أنه لم ير ذلك مع سلامة بصره وتـوفر الضـياء. وكـذلك كثيـرا مـا تختـرق تموجـات الهواء المحيط، وبعض الحاضرين لا يسمع الصوت رغم عنفه، فإذا نبه أدرك.

السؤال الثالث: من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟

الظاهرة المحيرة التي تفعل فـي كـل إنسـان وحيـوان ونبـات، هـي ظـاهرة المـوت والحياة، تتعاقبان عليها جميعا. يطعم الإنسان ممـا تنبتـه الأرض ومـن اللحـوم والألبـان بعد طهيها، فتدخل في جهازه الهضمي ولا حياة فيها، فينمـو بهـا، وتـدخل فـي تركيـب كل خلية من خلاياه فيتوالد من كل نوع منها خلايـا حيـة. ثـم يفـرز مـا لا حيـاة فيـه من الإفرازات والخلايا الميتة، وفـي كـل لحظـة مـن لحظـات حياتنـا يجـري علينـا الموت والحياة فتموت خلايا وتنشأ أخرى إلى الأجل المقدر.

السؤال الرابع : من يدبر الأمر ؟

يَسير الكون على نظام دقيق محكم. فـي مكوِّنـاتـه العظمـى كالكواكـب، وفـي جزئياتـه الصغرى التي لا ترى إلا بالمجاهر الإلكترونية، فمن يدبر أمـر هـذا الكـون فـلا يحيـد عن مساره لحظة ؟

اسألهم يا محمد عن هذه الظـواهر الأربعـة، وألجـئهم إلـى الجـواب عنهـا. إنهـم لا يملكون إلا أن يقولـوا هـي مـن خلـق الله. ثـم عقِّـب تلـك الأسـئلة بسـؤال تعجـب واستغراب، إنه إذا كانت لا مندوحة لكم عـن الاعتـراف بـأن الله هـو الـذي يـرزقكم من السماء والأرض، وهو المتصرف في أنفسكم، وفـي المـوت والحيـاة، وهـو المـدبر للكون كله، فما لكم لا تتقونه بتنزيهه عن الشرك !

والعلمانيون في عصرنا يجيبون هـي الطبيعـة، ولـو سـألتهم مـا هـي هـذه الطبيعـة المختارة الفاعلة التي تنتظم العالم كلَّه، وتعجـز عقـولكم وعقـول البشـرية جميعـا مـن أول تاريخها إلى الآن أن تجيب عن تلكم الأسئلة؟ يرددون الطبيعة ببغائيا.

32- فذلكم الله ربكم ....فأنى تصرفون.

ذلكم الجامع للقدرة التي لا تحد، المتصرف التصـرف الحكـيم العـام، الـذي لا يسـتغني عنه أحد منكم، هو الله، هو الذي تـولاكم فأنشـأكم ويسـر لكـم أسـباب النمـو والحفـظ حتى بلغتم ما بلغتم وما يزال يحيطكم بعنايته (ربكـم) وهـو ربكـم الحـق لا مـا تقيمـه أخيلتكم من آلهة زائفة وباطلة. ويتقابـل حسـب القسـمة العقليـة الحاصـرة، إمـا الحـق وإما الضلال، فثبوت أن الله هو الرب الحق، فيكـون كـل إلـه عبـد مـن دونـه بـاطلا. ويتبع ذلك أن الحق لما كان واحـدا، فمـن انصـرف عـن طريـق الحـق لا يكـون إلا ضالا. ذلك أن الحق واحد، والباطل متعدد. فمن كـان مـثلا فـي مفتـرق طـرق قاصـدا جهة معينة، فالطريق السالك به إلى قصده واحـد، وكـل الطـرق الأخـرى تشـترك فـي أنها ضلال كلما أوغل فيها السائر ازداد بعدا عن القصد.

33-كذلك حقت كلمة ربك ....أنهم لا يؤمنون.

هذه سنة من سنن الله في مآل البشر المرتبط باسـتمرارهم علـى الخـروج عـن الطاعـة وإيثارهم هواهم. يتأكـد لكـم بالمشـاهدة ومتابعـة أحـوال المجـرمين، أن الـذين ألفـوا المعاصـي، والخـروج عـن حـدود الله، أن قلـوبهم تحجـب بالمعاصـي، ومـا تـزال المعاصي تتراكم على بصائرهم وعقـولهم حتـى يضـرب بينهـا وبـين أنـوار الهدايـة بحجاب صفيق، تنفصل به انفصالا كاملا عن الحق، فـلا ينفـذ مـن الإيمـان أي شـعاع من نور إلى قلوبهم. وهذه سنة الله التي لا تتبـدل ولا تتغيـر: فـي إتّبـاعِ الإقامـة علـى المعاصي بالصرف الكامل عن الإيمان.

34-قل هل من شركائكم من يبدأ ...فأنى تؤفكون.

يواصل القرآن تلقـين النبـي ﷺ بـالحجج الملجئـة للمشـركين إلـى الاعتـراف بفسـاد عقيدتهم، وإبراز تناقضهم. فيؤمر أن يسألهم سؤال إنكار مـع تقريـر، هـل يوجـد واحـد من شركائكم الذين تعبدونهم وتعتمدون عليهم، من يـدعي أنـه بـدأ خلـق الكـون، وأنـه سيعيده بعد فنائه إلى ما كان عليه ؟وهذا سؤال ليس لـه إلا جـواب واحـد، فلـذا عـاجلهم بالجواب: وهو أنه لا أحد منهم يـدعي هـذه القـدرة، وإنمـا هـي لله وحـده. ويعـاجلهم بالاستغراب والإنكار: إلى أي جهة تنصرفون فإنكم تنغمسون في الباطل.

35-قل هل من شركائكم من يهدي ...فما لكم كيف تحكمون.

يتابع القرآن الاحتجاج على المشركين، وكشـف قصـر نظـرهم، فيوجـه النبـي ﷺ إلـى تبكيتهم بسؤالهم: هل يوجد واحد من الشركاء الذين تعبـدونهم، لـه قـدرة علـى تـوجيهكم إلى طريق الصلاح والخير ؟ فبعد أن أثبـت عجـز شـركائهم عـن التصـرف بالإيجـاد

والخلق المادي لأي شيء في الكون، أعقبه بعجزهم عما هـو أعلـى منزلـة وأكمـل فـي العلم والحكمة، وهو التفضل بهداية البشـر إلـى طريـق الهـدى والصـلاح، الـذي بـه يتمكن الإنسان من احتلال المكانة التـي تليـق بـه مـن الخلافـة فـي الأرض. ويتـولى القرآن الجواب لأنه لا جواب غيره، فيثبت هـذا الفضـل لله وحـده وينفيـه نفيـا قاطعـا عن الشركاء.

ثم يرتب على هذه الحقيقة، أن ما يجب على العقـلاء أن يتمسـكوا بـه هـو عبـادة مـن يهديهم إلى الحق وطاعته فيسمو بمداركهم، ويهـذب أرواحهـم. وهـو وحـده العلـيم بمـا يصلح أمرهم في العاجل والمآل.

أما الأصنام فإنها لا عقل لها تهتدي به، وليس لها جانـب روحـاني تسـمو بـه عـن دَرَكِ المادة. وغاية ما يتحقق لها أن يأخذها المتحكم فيها فينقلها مـن مكـان إلـى مكـان آخـر، (إلا أن يهدى) وذلك الدرك السافل من العجز والبعد عن الهداية الروحانية.

ويتبع هذا البيان بالتعجب من مسـتواهم الفكـري والعقـدي، مـالكم ؟ أي شـيء تملكونـه من العقل حتى تنحـدروا لهـذا المسـتوى السـافل مـن التفكيـر الـذي هـداكم لعبـادة الأصنام! ثم أضاف إلى ذلك التعجب تعجبـا آخـر يؤكـده، كيـف تصـدرون الأحكـام التي تقتنعون بها، مع وضوح عجز وتبعية الذين اتخذتموهم آلهة.

36-وما يتبع أكثرهم إلا ظنا...عليم بما يفعلون.

و بعد أن أبرز التعجب من ضلالهم، أبان سبب ذلـك، أن أكثـرهم إنمـا يعتمـدون علـى أوهام لا أساس لها وخيالات لا تمت إلـى الواقـع والحـق بسـبب. وأثبـت القـرآن هـذا السلوك لأكثرهم، على طريقة القرآن في الإنصاف والضـبط فـي تسـجيل الواقـع، فـإن بعض المشركين متميزون بعقول راجحة وذكاء وفطنـة، لكـنهم عبـدوا الأصـنام لا عـن اعتقاد بألوهيتها، ولكن حرصا منهم على استبقاء مكـانتهم فـي القيـادة والزعامـة. وفـي ذلك إيقاظ للأتباع حتى لا يواصلوا الاغترار بهم.

وتختم الآية بقاعدة في التفكير: إن الظن الذي يسـتند إلـى الأوهـام والخيـالات لا يكـون بديلا عن الحق وعوضا عنه لا في قليل ولا في كثير.

ويهددهم القرآن بأن الله عليم بمن أشـرك عـن عمايـة وتقليـد، ومـن أشـرك لحظـوظ مادية وزعامة، تغليبا لذلك على إظهار الحـق والإيمـان بـه. والله يجـزي كـل واحـد منهم جزاء عادلا حسب ما أحاط به علمه سبحانه.

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ
يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ
وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الافتراء : الكذب.

بين يديه : الكتب التي نزلت قبله.

التفصيل : التبيين بمختلف أنواعه.

لم يحيطوا بعلمه : لم يعلموه علما دقيقا.

التأويل : يطلق ويراد منه تفسير المعنى، ويطلق على اتضاح ما خفي من المعاني البعيدة أو الإشارة.

أنا بريء : لا تبعة علي، ولا مؤاخذة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن هذا القرآن المعجز في نصه وفي مضمونه، لا يمكن أن يصدر عن بشر، فيكذب مدعيا أنه من إنشائه وينفيه عن الله. ولكن هذا القرآن متصل بالكتب السابقة، يصدق ما فيها من حقائق ويحقق البشارة التي وردت فيها بمجيء محمد ﷺ ويبقي ما الحقُّ إبقاؤه وينسخ ما الحقّ نسخه. لا شك في أنه من عند الله.

إن الكفرة يقولون: إن محمدا افترى القرآن. قل لهم: إذا كان هذا الكتاب من طوق البشر فأتوا بسورة تساوي سورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من الفصحاء والأذكياء، ولكنكم عاجزون فأنتم كاذبون فيما تدعون .

هم رفضوا قبول القرآن قبل أن يتجمع لديهم ما يمكنهم من علم ما جاء فيه، وكذبوه قبل أن يتابعوا ما نزل في شرحه والكشف عن فلسفته، شأنهم في ذلك شأن الذين كذبوا من الأمم السابقة؛ فانظر حقيقة مآلهم بسبب ظلمهم.

ومن هؤلاء الكفرة من وصل في باطنه إلى الاقتناع بالقرآن، ولكن العناد حرمه اتباعه. ومنهم من أعرض عنه من البداية. وكلاهما مفسد في عقيدته وسلوكه، وربك لا يخفى عليه شيء من فسادهم وسيجازيهم بما قدموا.

وإن واصلوا تكذيبك فقل لهم: إني ماض في سبيلي سألقى جزاء ما عملته، وستلقون جزاء عملكم. وأنا غير مؤاخذ بما تعملونه من شر، وأنتم لا تحصلون على شيء مما أعمل من خير.

ثم إن الكفرة يستمعون إلى ما تبلغهم إياه من الوحي، ولكنهم لعنادهم لم ينتفعوا به شأنهم شأن من كان أصم لا يسمع، ومع ذلك فقد العقل فلا تنفتح ملكاته ليدرك بنباهته ما تقوله له. ومنهم من ينظر في مسيرتك في الحياة البالغة درجة الكمال، ولكنه لم يحس بشيء فهو قد جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة.

وسيجازيهم الله بما قدموا، وهو ما يؤكد أن الله لا يظلمهم، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم إذ أغلقوا عقولهم وحواسهم وقدموا شهواتهم، فخسروا الطمأنينة في الدنيا والعاقبة الحسنة يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

37-وما كان هذا القرآن أن يفترى...لاريب فيه من رب العالمين.

يواصل القرآن الرد على المشركين المشككين في القرآن. وقد تضمنت الآيات السابقة في هذه السورة تفنيد مزاعمهم، والكشف عن الشبهات التي أضلتهم وحرمتهم توجيه العقل إلى طريق الهدى. وجاءت هذه الآية مؤكدة لتلكم المضامين بطريقة جديدة. فأثبتت مستحضرة القرآن أمام الناظر بالإشارة إليه (هذا) أنه إذا تأمل فيه المتأمل وتعمق فيما تضمنه، وتتبع أحكامه وآدابه، وما قصَّه من أخبار الماضين وما أدمج فيها من حكم وعبر، وما تأسَّس به من منهج فكري متكامل، وطريقة صياغة ذلك كله صياغة تميزت بأنها معجزة :

أولا: بأن جعلته صادقا في زمن نزوله حسب المستوى الذهني للبشر وقت نزوله، وصادقا كلما تقدمت المعرفة الإنسانية ليتجدد الفهم تبعا لذلك.

وثانيا: من حيث المستوى التعبيري السامي إلى مرتبة معجزة، لا يستطيع أحد لا في زمن الوحي ولا فيما تلاه من أزمان أن يأتي بكلام يساويه أو يدانيه في الدقة والفصاحة والجمال.

إن ما جمعه القرآن يقوم شاهدا من ذاته، على أنه منزل من عند الله، ولا يعقل أن يؤلفه أحد سواه، أو أن يدعي كاذب أنه كلام أحد غير الله .

وإذ انتفى أن يكون مفترى من دون الله فما هو إذن هذا الكتاب؟

هو أولا: يصدق الكتب السابقة التي أوحى الله بها إلى رسله، فيثبت ما هو حق منها، وينفي ما أضافه الناس من أساطير، وما حرفوا من أحكامه أو عقائده. ويصدق ما أخبرت به من البشارة به، ويُنبِّهُ الأتباع على وجوب الإيمان به.

وثانيا: هو يفصل ما تضمنته الكتب السابقة تفصيلا يثبت ما أراد الله بقاءه، ونسخ ما أراد الله نسخه، ويبين ما أجمل فيها، ويهدي للفهم السليم فيما كان متشابها فيها.

كما قال تعالى: **(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)**[1] -

وإذ وضحت طبيعة هذا الكتاب وخصائصه، فالنتيجة الحتمية لذلك أنه لاشك في أنه منزل من عند الله رب العالمين، القادر على كل شيء، لا يرتاب في ذلك من كان سليم العقل والإدراك.

38- أم يقولون افتراه .....إن كنتم صادقين.

ارتقى القرآن في إبطال ما يدعيه الكافرون .وكانت طريقته في ذلك:

أولا: أن كشف عن دعواهم الباطلة دالا على انتفاء أن يكون لها أي نصيب من الواقع، متعجبا من مستواهم الفكري الذي انحط بهم إلى ادعاء أن النبيﷺ افتراه من عنده ناسبا له إلى الله.

وثانيا: بتحدِّيهم أن يأتوا بسورة مثل سور القرآن، وأن يتأيدوا بمن شاؤوا لتحقيق ذلك، ولهم أن يستعينوا بالبلغاء والفصحاء، والأذكياء والحكماء من كل القبائل والمقدمين في البيان، ليأتوا بسورة تساوي نظمه ومحتواه، إن كانوا صادقين فيما زعموه أنه مفترى. فعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله يقوم حجة مفحمة على أنه من عند الله لا دخل لمحمد فيه، وهو معجزته المثبتة لصدقه.

39 -بل كذبوا بما لم يحيطوا...عاقبة الظالمين.

ترقت الآية مشنِّعة على الكافرين، بالكشف عن جهلهم وعجلتهم وتنظيرهم.

أولا: بادروا بالتكذيب دون تبين وإعمال نظر، وتعمق فيما جاءهم به رسول الله ﷺ، فإن ما أنزل عليه يتضمن صلاح الدنيا والآخرة، ويقتضي تغيير سلم القيم الذي

---

[1] سورة المائدة آية 48

كان قدرا مشتركا بينهم إلى سلم قيم جديد تبني الحياة عليه. وهذا أمر ليس بسيطا، ولكنهم لعنادهم بادروا بالتكذيب قبل أن يعلموا بدقة مضامين القرآن.

ثانيا: استعجلوا فلم ينتظروا ما يرد من بيان لمتشابهه، وكشف عن الأغوار البعيدة لفلسفته، وتوضيح لما أشكل عليهم فهمه.

ثالثا: هم بهاتين الصفتين كغيرهم من الأمم السابقة الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، فسلَّط الله عليهم عقابه. وفي ذلك وعيد بالعذاب للمكذبين، وأنه سيحل بهم ما حل بالأمم السابقة، إمضاء لسنته سبحانه في جزاء المكذبين. وفي ذلك أيضا تسلية للنبي ﷺ بأن ما يلقاه قد لقيه إخوانه المرسلون من أممهم. وبناء على ذلك فانظر يا محمد في آثار المكذبين الذين خلت ديارهم وتشتَّتَ شملهم وساءت عاقبتهم .

40- ومنهم من يؤمن به...بالمفسدين.

وحقَّقَ القرآن أن المكذبين ليسوا نمطا واحدا، فمنهم الدهماء الذين رفضوه بمجرد ما سمعوه، ومنهم من غلب ما في القرآن من حق عقله فصدَّقه في الباطن، لكنه لتغليبه حظوظ نفسه العاجلة، وإيثاره لشهواته على الاستقامة التي يدعو إليها القرآن انحاز إلى المكذبين، فكلا الفريقين مفسد بتكثيره للكافرين، مفسد لعدم انضباطه في سلوكه بالفضيلة. والله يعلم كفرهم كما يعلم ما قاموا به من فساد في الكون، وسوف يجزيهم، فكان ختام الآية يُبْطِنُ تهديدا.

41- وإن كذبوك فقل لي عملي...مما تعملون.

بعد هذا البيان والإلجاء والكشف عن دخائل نفوسهم فإن واصلوا تكذيبك فأعلن مفاصلتك عنهم مفاصلة يتحمل بها كل فريق نتائج أعماله. إنها مصارحة بأنه ﷺ مطمئن إلى نتائج أعماله وجزاء ما قدم. وأنذرهم بأنهم سيلقون أيضا نتائج أعمالهم. وأنكم لا تؤاخذون بما أعمل، وكذلك من الإنصاف أنه لا تبعة علي من أعمالكم، فأنا بريء من كل مفاسدكم لا يؤاخذني ربي بما تفعلون.

42←43: ومنهم من يستمعون إليك...لا يبصرون.

تتبعت الآيتان أحوال الكافرين في مقابلة ما يأتيهم من الوحي فقسمتهم إلى قسمين:

أولا: الذين يقبلون عليك فيستمعون ما أنزل من القرآن والهدى، ولكنهم لعزمهم على الرفض لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينفذ شيء من كلامك إلى قلوبهم التي قصدوا إلى إقفالها، فهم بذلك قد استووا مع من كان أصم لا يسمع، وعجب منهم إذ أعماهم التعصب إلى هذا الحد. وبالغ على عدم انتفاعهم، بأنه وإن كانوا بإعراضهم

كفاقدي السمع، فإنه أيضا ليست لهم عقول، ذلك أن الأصم إذا كان ذا فطنة فإنه كثيرا ما يفهم من قرائن الكلام ما يتأثر به فيعلق بذهنه مراد المتكلم.

ثانيا: الذين يعيشون معك ويشاهدون سمو أخلاقك، وكمال أدبك، وحسن معاملتك، وبصفة عامة طريقتك في الحياة، ينظرون إلى كل ذلك ولكنه لا يفضي بهم إلى الإيمان بك، والاهتداء بهديك والتأسي بك، وبذلك فهم ومن فقد بصره سواء، بل هم مغرقون في الضلالة، لأن بصيرتهم بسبب عنادهم قد غلفت بحجاب فلا ينفذ إليها نور الحق.

44- إن الله لا يظلم الناس ...أنفسهم يظلمون.

ما قدَّره الله للناس الذين أعرضوا عن الهدى وكذبوا الرسل، وأقفلوا عقولهم وأسماعهم، ولم يستفيدوا مما نقتله إليهم أبصارهم، فتراكم على بصائرهم من العناد والفساد حجابا صفيقا، أولئك سينالهم نصيبهم من العذاب. وما ظلمهم الله إذ قدر لهم المصير الخاسر في جهنم. ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، إذ رزقوا العقول التي بها يدركون الحقيقة ورزقوا الحواس التي بها يهتدون، ولكنهم آثروا متاع الحياة الدنيا من الرئاسة أو التقليد والشهوات فعطلوها، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتعارفون بينهم : يعرف كل واحد الآخر.

شهيد : عالم علم تحقيق.

لا أملك : لا أستطيع تحصيل نفع أو إبعاد ضر.

بيان المعنى الإجمالي :

عرف القرآن أن مما يشعر به الكافرون يوم البعث، ظنهم أنهم ما مكثوا في قبورهم إلا وقتا قصيرا، وأنه يعرف بعضهم البعض فيرون سوء حالهم جميعا. ويوقنون بأنهم خسروا آخرتهم بتكذيبهم بالوحي، وأنهم ساروا في حياتهم على غير هدى.

و سيحل بهم العذاب، إما في حياتك في الدنيا كما حرمهم الغيث سبع سنوات متوالية، وكما انهزموا في بدر؛ وإن الله لا يفلتهم. فإذا توفاك الله، فإنهم لا ينفلتون من قبضة الله. وهم راجعون إليه جميعا يوم القيامة، ليوفيهم حسابهم؛ والله لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

و سنة الله أن يبعث في كل أمة أراد هدايتها رسولا؛ فإذا جاء الرسول، كان حسابهم على موقفهم من هدايته حسابا عادلا، يُجزَى فيه الصالحون الجزاء الحسن ويهان فيه الكافرون بسوء ما قدموا، دون أن يُظلم أي فرد من المبعوث إليهم.

ويتوجه المشركون بسؤال يردِّدُونه بين الفينة والأخرى يقولون: متى هذا الوعد الذي تهددنا فيه ؟ويُعَلم الله رسوله الجواب: أن الله قدر الكون وما يجري فيه. وهذه العقيدة مستقرة في نفسي، فأنا موقن بأني لا استطيع جلب مصلحة لنفسي ولا دفع ضر عنها، وأنا لا أعلم إلا ما علمني ويسره لي، فمن باب أولى وأحرى أن لا أعلم متى ستحل عليكم نقمه. وكل أمة لها أجلها الذي سيظهر فيه ما قُدِّر لها، ولا تستطيع أن تؤخر الأجل عن موعده ولا أن تقدمه.

بيان المعنى العام :

45- ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا....وما كانوا مهتدين.

من أهم ما هدد به القرآن الكافرين أنهم سيبعثون يوم القيامة بعد الموت. فكانوا تارة ينكرونه مستبعدين أن تعود الأجسام بعد تحللها إلى الحياة، وتارة يسألون عن ميعاده. وهذا التهديد يترك أثرا في نفوسهم ويدخل عليها الحيرة. وفصل القرآن كثيرا مما سيجري يوم القيامة. ومن ذلك ما جا في هذه الآية التي أثبتت أن الله سيحشر المكذبين يوم القيامة، وأنهم يشعرون كأنه لم يمض على مقامهم في قبورهم سوى ساعة من النهار، وأنه يعرف بعضهم بعضا، ويذكر كل واحد منهم مخازيه ومخازيَ قرينه. وتعلق الآية على مآل الذين كذبوا بيوم البعث بأنه خسارة تامة إذ لم يستعدوا له، وأنهم انحرفوا عن الهدى وسلكوا مسالك الضلال.

46- وإما نرينّك ...على ما يفعلون.

توجه القرآن بالخطاب للرسول ليؤكد له أن الله لا يفلت الذين أعرضوا عن الإسلام، وأن هذا الوعيد بالانتقام له حالتان:

الحالة الأولى: أن الله يسلط عليهم أنواعا من العذاب في الدنيا، فيرى النبي ﷺ ما يحل بهم من المقت والتنكيل، كما سلط عليهم القحط سبع سنين متوالية، وكما

هزمهم شر هزيمة يوم بدر، وقتل صناديدهم وسبى منهم من سبى وغنم ما غنم، وشاع انكسارهم في القبائل العربية.

الحالة الثانية: أن يواصل التنكيل بهم بعد أن يتوفاه الله، فلا يشهد ما يحل بهم، فالآية تطمئنه على أن ملاحقة العذاب بهم موصولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأن الدين برعاية الله محميٌّ من أعدائه. وأنهم إن أفلتوا من العذاب في الدنيا فإنهم صائرون إلى العرض على الله يوم القيامة، والله عليم العلم الدقيق الشامل بما كانوا يفعلون في الدنيا، وهو وعيد بأنه سيسلط عليهم الجزاء العادل.

47-ولكل أمة رسول...وهم لا يظلمون.

جرت سنته سبحانه أن يبعث في الوقت الذي يريد، في الأمة التي تتعلق إرادته بهدايتها، أن يبعث فيها رسولا، فيتحولون من عدم المؤاخذة على أعمالهم، إلى حالة الرشد الإنساني بمعرفة الحق من لسان الرسول، والمحاسبة على العمل حسب الأحكام التي يبينها ويفصلها. ويتبع ذلك أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

قسم: يؤمن بالرسول ويتبع ما جاء به فتكتب له النجاة والفوز برضوان الله والكرامة.

وقسم: يرفض ما جاء به الرسول ويكابر في الحق فيخسر دنياه وآخرته.

وهذا هو القضاء بالعدل بين الرسول وبين الأمة التي يبعث فيها. وقد تحقق انتفاء الظلم عن المبعوث إليهم؛ فالمؤمنون حسْنُ جزائهم على صالح أعمالهم ونقاء عقيدتهم موفور، وما يلقاه الكافرون من العذاب لا ظلم فيه، لأنهم لم يؤاخذوا إلا بعد البيان وإقامة الحجة.

48←49، ويقولون متى ..ولا يستقدمون.

يسجل القرآن بعض ما كان يدور بين الكفرة وبين الرسول ﷺ، فيعرض شبهاتهم وحاصل ما كذبوا به. يقولون لرسول الله ﷺ: متى سيحصل ما تعدنا به من العذاب في الدنيا ؟ ومتى يكون عذاب يوم القيامة، أي متى يأتي هذا الميعاد ؟ ويقرنون سؤالهم بإنكار حقيقة ذلك الوعد المذكور في الآية السابقة بإلحاقهم: إن كنتم صادقين فيما سيحل بنا. ويلقن الله رسوله الجواب المعبر عن النظرة الشاملة للكون، وما استقر في قلبه تبعا لذلك، فيأمره أن يقول لهم: إني لا أستطيع أن أدفع ضرا عن نفسي، ولا أن أجلب لها نفعا، إلا إذا شاء الله وتعلقت إرادته بمساعدتي على ذلك. ففي الحقيقة الجالب هو الله والمانع هو الله. وإذا كنت عاجزا عن الاستعداد بما ينفي عني يقينا الضر في المستقبل، أو أن يجلب لي النفع والرفاه ؛ فإن الحقيقة النابعة من ذلك أن الأمر كله بيده. وأنه هو وحده العليم بما سيحل بكم ومتى سيحل بكم. وإذا كان سبحانه لم يطلعني عليه، فجواب سؤالكم افتيات على الله، وسوء أدب منكم بسؤالكم عنه.

ويتبع هذه الحقيقة أن الله قدر لكل أمة أجلا، سيأتيها في هذا الأجل ما قدره لها من نفع أوضر. وأنه إذا حان الأجل المكتوب في علمه تحقق ما قدره وسطره. وإنه كما لا يمكن للإنسان أن يؤخر ما قدر له عن أجله، فكذلك لا يستطيع أن يقدمه عن أجله، سواء أكان تكريما أم عقابا. إذ كل ذلك هو مقتضى الحكمة الكاملة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

بياتا: باغتهم بالليل .

الذوق : الإحساس.

أحق هو : هل هو ثابت لا شك فيه.

إي : حرف جواب لتحقيق ما تضمنه سؤال سائل.

المعجزون : الغالبون.

افتدت : تكلفت فداء نفسها.

بيان المعنى الإجمالي :

ما ذا تظنون إذا وقع عليكم عذاب الله الموعود به بغتة بالليل أو النهار؟ ما ذا يفيدكم استعجالكم؟ وفوق هذا عند وقوعه فعلا يقال لكم أتؤمنون به الآن وقد كنتم به تكذبون، لأن استعجالهم للعذاب مظهر تكذيب.

ثم يواجه الذين ظلموا بالشرك والعناد يوم القيامة بهذا الخطاب الدال على التنكيل بهم: ليكن إحساسكم بالعذاب على أشد ما يكون الإحساس، هو العذاب الذي لا تخرجون منه. وهو جزاء عدل لما كسبتم في حياتكم الدنيا من الفساد.

ويسألونك مظهرين البَلَهَ، هل إن وقوع عذاب الخلد ثابت؟ أجبهم إي! نعم. هو ثابت ولا تستطيعون الانفلات منه.

ويوم القيامة تكون الحالة النفسية حالة اليـأس، يـودُّ كـل مشـرك لـو أمكنـه أن يفـدي نفسه من العذاب بتقديم مـا حوتـه الأرض مـن خيـرات، وإن ذلـك لا يفيـده لـو كـان يملكها. ويصحب حالة اليأس هذه كبـت لأحاسيسـه، فيأكلـه النـدم الـذي لا يسـتطيع أن يصرح به. ويصدر الحكم العادل على كل مشرك بدون ظلم.

ويؤكد القرآن ما اهتم به أعظم اهتمـام، فيـذكّر البشـر بأنـه وحـده مالـك مـا تحويـه السماوات والأرض. وملكه العظيم هذا يحقق أن مـا وعـد بـه مـن الحشـر والجـزاء لا ريب فيه. ولكن الذي أعمى بصائر المشركين هـو الجهـل. إن مـن علـم بالتأمـل فـي هذه الأكوان، النظام الدقيق الذي بنيت عليـه، لا يمكنـه أن ينسـب لله شـريكا أو يكـذب بما أخبر به. وأقرب شيء من الإنسان هو حياتـه وموتـه، فـلا أحـد يـدعي التصـرف فيهما، إذ هما له وحده سبحانه.

بيان المعنى العام :

50←51- قل أرأيتم... كنتم به تستعجلون.

سأل الكافرون عن موعد العذاب في الآيـة (49) وهـو سـؤال يتضـمن أنهـم سـيؤمنون يوم تحقق العذاب الموعود بـه. وبنـاء علـى ذلـك فهـم يسـتعجلون حصـول العـذاب ليؤمنوا. وتنبههم هذه الآية إلى شدة غبـائهم، فإنـه إذا وقـع العـذاب فإنـه لا يكـون إلا عذابا ماحقا يستأصلهم ولا يمهلهم حتى يؤمنوا. وأدمـج فـي الجـواب مـا يفيـد تحقـق وقوع العذاب بغتة إذ أنه سيأتيهم إما بالليل وإمـا بالنهـار. ومعنـى مـا ذا يسـتعجل منـه المجرمون ؟ أي إنه لا شيء يصـلح لاسـتعجال المجـرمين للعـذاب، لأن مثـل هـذا لا يستعجل بل يطلب تأخيره، وفي التعبير عـنهم بـالمجرمين مـا يفيـد اسـتحقاقهم للعـذاب لإجرامهم بالشرك.

ثم إنه فوق ذلك إذا وقع العذاب أتؤمنون به ؟ ويبرز مـن المشـهد مخاطـب يقـول لهـم سؤال إنكار عليهم: أتؤمنون به الآن، وقد كنـتم بـه مكـذبين تسـتعجلونه؟ فيجمـع بـين العذاب وبين التقريع على العناد والمكابرة.

52- ثم قيل للذين ظلموا...تكسبون.

وعذاب آخر أشد؛ يوم يواجه الـذين ظلمـوا بالشـرك والمكـابرة والعنـاد، وهـذا مشـهد من مشاهد يوم القيامة، ولعذاب الآخرة أشد، فيقـال لهـم تنكـيلا بهـم: لـيكن إحساسـكم بالعذاب إحساسا بليغا، وإنكم لا تجزون إلا جزاء وفاقا لمـا كسـبتم مـن الفسـاد، فكـرتم فيه ونفذتموه فأقمتم على الباطل بإرادة وإصرار.

53 - ويستنبؤونك أحق...وما أنتم بمعجزين.

تسجل هذه الآية صورة أخرى من مواقف المشركين. حاصلها أنهم تقدموا لرسول الله ﷺ سائلين ليعرفهم: هل إن وقوع عذاب الخلد الوارد في الآية السابقة حق لاشك فيه؟

عرف القرآن الرسول بالجواب الذي يرد عليهم ما تظاهروا به من الْبَلَهِ، قل لهم: إي ! نعم – إنه حق لا شك فيه، وأُقسِمُ على هذا بربي سبحانه الذي لا يقسم به بار إلا على ما كان حقا .وردا على مظهر بلههم : إنكم مقهورون مغلوبون لا تستطيعون إعجاز القدرة الإلهية عن تنفيذ ما تعلقت به الإرادة القديمة.

54- ولو أن لكل نفس ظلمت...وهم لا يظلمون.

هذا تحذير يحذر به القرآن المشركين، لعلهم يحذرون المآل الصعب الذي ينتظرهم. إنه لو ملكت كل نفس، رفضت الإيمان واختارت الشرك، لو ملكت ما في الأرض جميعا من خيرات وثروات، لو تحقق لها ذلك فإنها تودُّ أن تقدمه لتفدي نفسها من العذاب، وهذا وإن كان فرضا كما يفرض المحال، إلا أنه لا يقبل منها ولا يخفف من عذابها شيء. وفوق ذلك هم لا يستطيعون الجهر بما يحصل في نفوسهم من الندم عندما يرون العذاب، هم مكبوتون عاجزون عن التنفيس عما يحسون به من الأسى عندما يشاهدون الأهوال. ويصدر الحكم البات الذي لا مثنوية فيه على كل منهم، الحكم العادل الذي لا ظلم فيه.

55←56: ألا إن لله ...وإليه ترجعون.

هاتان الآيتان تثبتان وتؤكدان كل ما جاء في الآيات السابقة. فما سبق من وعيد للمشركين، وبعثهم يوم القيامة وحسابهم، وكشف ما أراد كشفه مما سيقع في ذلك اليوم، يقوم دليلا على ذلك مبعدا كل شك فيه: أن الله مالك السماوات والأرض، فمن تصرف في هذا الكون العظيم الذي يظهر الإنسان فيه ضئيلا ضعيفا، يكون قادرا على تنفيذ كل ما ورد في الآيات السابقة. وأن ما أخبر به هو حق ثابت غير قابل للنفي. وما ارتياب أكثر المشركين في صدقه إلا أثر من آثار الجهل بحقائق الأمور. وتعلق الحكم بالأكثر لأن بعض المشركين في الظاهر، المندمجين مع بقية المشركين، يعلمون الحقيقة ولكن لا يظهرون بمظهر التصديق تغليبا لحظوظ الدنيا التي يخشون ذهابها لو أعلنوا إيمانهم.

و أكد ما سيلقاه المشركون باستفتاح الجملة ب (ألا) المنبهة: إن وعده بحشرهم ثم بعذابهم حق لا شك فيه. ويدخل البشر تحت سلطانه بتفرده بالإحياء والإماتة، يجريهما بإرادته وقدرته على كل إنسان، ولا يستطيع أي كائن أن يتدخل في بعثه للوجود ولا في بقاء وجوده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

جاءتكم : بلغتكم.

الموعظة : النصح والتحذير مما يضر.

الصدور : جمع صدر والمراد به النفس.

الفرح : السرور الشديد.

يجمعون : يحصلون من المال.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ الله البشر جميعا ليقدروا ما أنزل عليهم، المحرك لقلوبهم فكشف لها عن الخير ليفعلوه وعن الشر ليبتعدوا منه. والمحصِّن لعقولهم وملكاتهم من الزيغ والضلال، والمعرِّف بطريق السلامة في الدارين، والمساعد على السير فيه.

إن جميع ذلك هو من فضل الله ورحمته بكم، فكونوا مسرورين أتم السرور بما جاءكم. وإن ذلك أفضل مما يجمعه المشركون من الأموال.

إن تحكم المشركين في ما يجمعونه من الأموال، التي أنزلها الله وحده عليهم، ولا دخل لآلهتهم ولا لقدراتهم في قليل ولا كثير فيما حصلوا عليه من الرزق، قابلوه بالتحكم التعسفي فحرَّموا ماشاؤوا وأحلُّوا ماشاؤوا. قل لهم ملجئا هل اعتمدتم في التحليل والتحريم على إذن وصل إليكم من الله، أم أنتم تكذبون على الله! وإذا كان الله لم يأذن لهم، فهم كذبة مفترون.

وما هو المصير الذي يظن الكاذبون أنهم مقبلون عليه يوم القيامة ؟ إن الله هو المتفضل على العباد وفضله لا يحد، ولكن أكثر الناس ينكرون فضله ولا يشكرون نعمه، والمؤمنون يقدرون نعم الله عليهم فيشكرونها معترفين بالفضل.

بيان المعنى العام :

57- يا أيها الناس ...ورحمة للمؤمنين.

هذا نداء للبشرية في جميع الأعصار ومتتابع الأزمان، يلفت فيه أنظارهم إلى النعمة التي أنعم بها عليهم بإنزال القرآن الذي بلَّغهم إياه رسول الله ﷺ. وفصَّل هذه النعمة في المقومات التالية التي اختص بها:

أولا: هو موعظة، والموعظة تقوم على النصح العام والخاص لمن يتوجه المخاطِب بها. وبذلك فهي تشمل بيان ما يُمكِّنُ من النجاة والفوز والطريق السالك لبلوغ ذلك، وتشمل أيضا التنبيه على ما يعترض السالك من المهالك التي تنحرف به عن بلوغ قصده. فهي بذلك بيان للحقائق وأوامر ونواه. وهذه الموعظة متميزة بأن الذي يعظ بها هو من يعلم عواقب الأمور كعلمه بحاضرها، فأمن المستجيب لها على تحقيق غايته أمر لا شك فيه. مسديها هو الذي أحاطكم بألطافه بما تشير إليه كلمة الرب من معاني الألطاف والعناية.

ثانيا: شفاء لما في الصدور. والمراد بالصدور الملكات التي تسيِّر الإنسان في حياته من روح وعقل وعواطف وغرائز. وكل واحدة من هذه الأربعة معرضة للسقام والانحراف. والعلاقة بينها على التغالب الذي يحرم النفس السكينة. فالعواطف والغرائز تدفع بقوة إلى الأثرة والضلال والشر، والعقل قد تبرق له مسالك الخير فيستقيم في تفكيره، وقد تحجبه العوائد المنحرفة والمجتمع وغواية الشيطان فيضل، والروح تصفو بمقدار ما ينغمس صاحبها في الخير والطهر، وتظلم في عكس ذلك.

إن هذه الأسقام التي تتعرض لها الملكات الإنسانية تجد شفاءها فيما جاء به القرآن، فهو حصانة من الاختلال المهدد لنظام تلكم القوى وتوازنها. ومن ناحية أخرى فهو الذي ينبه إلى المرض، ويصف الدواء الشافي، ويصف للمريض ما يجب عليه فعله وما يجب أن يمتنع منه حتى يشفى.

ثالثا: هو هدى .والإنسان في الحياة كسائر بلغ مفترق طرق متساوية في الظاهر، كلها تضله إلا اتجاه واحد يبلغ به قصده إن هو اتبعه. ولما كانت الغاية التي ينشدها السائر في حياته هي السعادة، وحصولها أو ضياعها أمر لا يعلمه إلا من تمكن من معرفة الغيب، ومعرفة الغيب لله وحده، فليطمئن الإنسان إلى أنه إن طبق في حياته المنهج القرآني أنه سيحقق سعادته.

رابعا: هو رحمة. وقد بينا في سورة الفاتحة هذه الرحمة العامة الشاملة. ولكن لا يعيش في ظلالها الوارفة وفي أمنها إلا المؤمنون.

58-قل بفضل الله...مما يجمعون.

اهتم القرآن بمضمون هذه الآية اهتماما خاصا، فافتتحها بأمر النبي ﷺ أن يقول ما ورد فيها ويبلغه. والنبي ﷺ لا يكتم شيئا مما يأتيه من الوحي، فكان الأمر بالقول

مبرزا للاهتمام بما جاء فيها. فما الـذي أمـر بـه ؟ قـل للمـؤمنين: إن مـا لفـتُ إليـه الأنظار في الآية السابقة: موعظـة مـن ربكـم، وشـفاء لمـا فـي الصـدور، وهـدى، ورحمة؛ العناصر الأربعة التي بيناها هي جمـاع الخيـر، وبهـا تكمـل سـعادة المـؤمن. فعلى المؤمنين أن يـدركوا هـذه النعمـة التـي خصـهم بهـا رب العـالمين، ولتنشـرح قلوبهم لنزول القرآن عليهم بما يحويـه، وليعلمـوا أن مـا خصـهم بـه هـو بفضـل الله ورحمته، وأن عليهم أن يشـعروا بالغبطـة والسـرور للخيـر الـذي وصـلهم. وأنَّ هـذا الفضل بما أنزله عليهم في القـرآن مـن الهدايـة، والرحمـة التـي حلـت فـي قلـوبهم فاتبعوا ذلكم الهدى، هو لا يقـاس بمـا يجمعـه البشـر مـن متـاع الحيـاة الـدنيا. إذ أن هداية القرآن والتوفيق لاتِّباع ما جـاء فيـه، يجعـل قلـوبهم مطمئنـة راضـية، وهممهـم عالية، وعقيدتهم واضحة صحيحة، وحبهم للخيـر والفضـيلة يرفـع مكـانتهم الاجتماعيـة في الدنيا، ويمتّن الروابط بينهم. فما حرموه فـي أول أمـر البعثـة، ومـا عليـه بعضـهم من الفقر خاصة بعد استيلاء المشركين علـى أمـوالهم، سـيعقب ذلـك فـيض الأمـوال عليهم في الدنيا، ويصل بهم إلى جنات النعيم في الآخرة.

59-قل أرأيتم ...على الله تفترون.

هذه الآية نظير الآية السابقة افتتحت بكلمة (قل) والموجه له الخطاب بهاهم المشركون. قل لهم يا محمد، إظهارا لخلل تفكيرهم، وتحكيمهم لأهوائهم، وإلجاء لهم ليذعنوا: ما هو رأيكم وما هي عقيدتكم فيما أنزل الله لكم من الرزق، فحكَّمتم فيه أهواءكم، بجعل بعضه حلالا وبعضه حراما. تقرر الآية ما لا يستطيعون نكرانه، أن ما وصلهم من رزق مما تنبته الأرض، أو من الأنعام الراعية، هو من عند الله بما أنزله من بركات السماء المنبتة للأعشاب والمرعى، والزروع والثمار. إنه لا مدخل لهم ولا لأحد من آلهتهم في بلوغ ذلك إليهم، وإذا كان المالك المعطي هو الله، فكيف حكموا فيما لا يملكون ؟ حكموا فيه حكما تعسفيا. حكموا على بعضه فجعلوه حلالا، وحكموا على البعض الآخر بالحرمة. كما تقدم لنا في سورة الأنعام الآيات (119/121/136/138←144) وألجأهم القرآن بسؤالهم عن سندهم في أحكامهم تلك، فقسم ما يفترض من السند إلى قسمين لا ثالث لهما، إذا انتفى أحد الشقين ثبت الآخر.

هل إن مستندكم في التحريم والتحليل إذن صـدر عـن الله، إذ هـو المالـك وبالتـالي هـو المحلل أو المحرم ؟ أم أنتم تكذبون علـى الله فتـوليتم التحليـل والتحـريم ولـيس ذلـك لكم، فاتبعتم دينا لا أساس له، فما اعتراضكم ونكـرانكم للـدين الثابـت بالأدلـة اليقينيـة؟ وإذ انتفى أن يكون الله أذن لكم، فلم يبق إلا أنكم مفترون كاذبون.

60- وما ظن الذي يفترون...أكثرهم لا يشكرون.

عجب لأولئك الكذبة المفترين، ما يظنون أنهم سيلقونه، ما ذا ستكون مكانتهم وما هو حالهم !هم سيقدمون مجردين من كل حول وقوة يوم القيامة، وقد كانوا ثابتين مواصلين للكذب على الله، فيصحبهم خزي الكذب وكآبة المنظر. إنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران المبين. ذلك أن الله تفضل على البشر جميعا ببيان طريق الهداية والنجاة، ومنحهم العقل المميز بين الحق والباطل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة ربهم، فعطلوا عقولهم عن النظر، وقابلوا النعم بكفرانها. وقابل المؤمنون نعم الله عليهم بالاعتراف بها والشكر لله على ما تفضل به عليهم، والاجتهاد في القيام بما يرضيه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشأن: العمل، والحال الهام.

شهودا : جمع شاهد، بمعنى العالم علم المشاهدة.

تفيضون : الإفاضة في العمل الاندفاع فيه.

يعزب : يخفى.

مثقال : معيار يعرف به الوزن.

الذرة : أصغر الأجسام حجما ووزنا. وتطلق ويراد منها النملة الصغيرة التي هي أصغر حيوان مدرك وقت نزول الآية.

كتاب : علم الله.

أولياء الله : المقربون منه باستحضارهم القرب منه والأنس به، وهم الذين يقربهم إليه برعايته لهم الرعاية الخاصة، ويوفقهم لما يرضيه.

لا تبديل : لا إبطال.

يخرصون : يقولون قولا يستندون فيه إلى التخمين معرضين عن المعطيات الهادية.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرم الله نبيه بإعلامه بأنه يرعاه في كل أمر هام يقوم به، وكلما تلا على البشر ما أنزل عليه من قرآن، وأنه يرعى كذلك المؤمنين وهم يكافحون في الحياة ويندفعون. وعلم الله شامل للكون كله، فلا يحجب عنه أي كائن مهما ضؤل وزنه كالنملة الصغيرة ولا ما عظم كالمجرات. سواء أكان حالا في الأرض أم في السماء. كل ما يجري على الحوادث مثبت في سابق علمه، موثَّق في اللوح المحفوظ.

ويتميز من بين المرضيِّ عنهم أولياء الله المقربون منه، الذين يرعاهم رعاية الرضا، وهم الذي صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أفعالهم، فبينهم وبين الخير سبب قوي ونسب. يلتزمون بالطاعة ويحضر في عقولهم صلتهم بربهم على جميع الأحوال. جزاؤهم أن الله كتب لهم البشارة بالخير في الدنيا والآخرة ووكل ملائكته بتنفيذ ذلك، وما قرره سبحانه ثابت لا يتغير. وما نالوه هو الفوز الأكبر الذي ليس وراءه مرتبة.

ولا تأبهْ يا محمد لقبيح أقوالهم، ولا تتأثر لها تأثرا يدخل الحزن على قلبك، فهي أقوال لا قيمة لها. والله أعلى وأجل من أن يتأثر بأقوالهم. إن الله متفرد بالعزة ولا عزة لغيره؛ إنه يسمع أقوالهم ويعلم نواياهم، وسيجازيهم عنها.

ومن مظاهر عزته، أن كل من يحل في السماوات ومن يسكن في الأرض، مملوك لله. والذين يعتقدون في قدرة الأصنام فيدعونهم من دون الله، على أنهم شركاء له، هم قد حجبوا عقولهم عن النظر واتبعوا ظنونا لا أساس لها وتمسكوا بخيالات كاذبة.

بيان المعنى العام :

61 -وما تكون في شأن...في كتاب مبين.

الذي فهمته من هذه الآية أنها حققت غرضين:

الغرض الأول: أن الله يرعى رسوله ويرعى أمته في جميع الأحوال، ويشير ذلك إلى ما لرسوله بين البشر من المكانة والعزة، وما لأمته من الكرامة عند ربها.

الغرض الثاني: التنبيه التفصيلي على شمول علم الله لكل ما يحدث في الكون. ولنتتبع بعد ذلك نسق الآية في تفاصيلها.

1) يخاطب الله نبيه معلِمًا له أنه لا يكون في حال من أحواله التي يقوم فيها بأداء مهمات الرسالة، بما يشمل التبليغ والقيام على تدبير أمور المؤمنين، وتنظيم

علاقاتهم، ورفع معنوياتهم، وبما يشمل إقباله على العبادة وقيام الليل؛ لايكون في حال من هذه الأحوال إلا والله شهيد عليه يرقبه ويؤيده، ويوفقه لما يرضيه. وفي ذلك إشاعة للطمأنينة في قلبه بعناية الله به، وفيه تسلية عما يلقاه من الكفرة من الإذاية لأن الله معه في جميع أحواله.

2) ما تتلو: من الأمر الهام الذي أنت قائم به خير قيام، من نشر القرآن وإذاعته بين البشر، القرآن الذي يوضح المنهج ويبين القصد، ويؤمن الطريق، كن واثقا أن الله شهيد عليك، يوفقك لتثبيت الصالح، ويقمع الجاحد.

3) ولا تعملون عملا أيها المؤمنون مما توجهون له جهدكم، وتندفعون لإنجازه، إلا والله معكم يرعاكم ويسدد خطاكم. وعبر سبحانه عن ذاته العلية بضمير الجمع (كنا) إظهارا لعظمته سبحانه.

يستند كل ذلك إلى أن علم الله هو علم شامل لكل ما يجري في الكون، فلا يغيب عن علمه أي كائن مهما ضؤل وزنه، ولو كان نملة صغيرة أو هباءة، مما لا يدركه البصر إلا في الحزمة الضوئية في محيط قليل ضوؤه. وكذلك مهما عظم، إذ عظمه لا يحجب علم الله عن الإحاطة به وبتقلباته. وسواء أكان مستقره في الأرض فوق أديمها، أو في محيطها، أو في باطنها، أو في السماء في مترامي أبعادها الهائلة. كل ما يجري على الكائنات هو مثبت في علم الله المعبر عنه باللوح المحفوظ. فعلمه لا يتغير بحدوث الحادث إذ هو سابق على الحدوث.

62←63: ألا إن أولياء الله...يتقون.

هذه الآية مفتتحة بما يدل على الاهتمام بمضمونها وتحققه، وذلك مأخوذ من كلمة (ألا) مضمونها: أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأولياء الله هم الموفقون من عباده توفيقا بلغ درجات من السمو والنقاء، أهّلتهم ليحملوا هذه الصفة المرتبطة برب العزة ارتباطا من الجهتين، من الله ومنهم.

فولي الله هو من جمع بين أمرين:

1)الإيمان الذي لا يداخله شرك ولاشك، والذي يجد به المؤمن نفسه في كل لحظة من لحظات حياته، قريبا من ربه، يخشى أن يطلع عليه في موقف أو مكان لا يرضاه، كما يخشى أن يغيب عن موقف يتحتم وجوده فيه. فهو ليس المؤمن إيمانا منوَّمًا في ساعات كثيرة ومغفولا عنه. ولكنه الإيمان المتيقظُ صاحبُه إلى ما يحمله من عقيدة فاعلة في وجوده.

2) المتقي لله .تقوى الله تفتح بصيرة المؤمن على الخير فتحببه إليه، وتردعه عن الشر فيكرهه ويمقته. وتكون التقوى ملازمة له، فكلما حضره اختيار لعمل ما، قادته تقواه إلى الخير وأبعدته عن الشر.

64 – لهم البشرى في الحياة...الفوز العظيم.

تذكر الآية ما خص الله به أولياءه من تكريم في الدنيا والآخرة، ذكرا يعطي للتصور أن يذهب فيه كل مذهب، إن لهم وحدهم البشرى، بما يفيد الثقة الكاملة والرضا بما خصوا به من فضل. وإذا أخذت النفس حظها بمستوى لا تطلب بعده المزيد فتلك هي السعادة الكاملة. إذ المبشَّرون واثقون في المستقبل آملون في أنهم بمنزلة من رعاية الله وحبه.

وبعض العامة والدهماء يخصون أولياء الله، بأفراد ضعفت مداركهم العقلية، وربما سال لعابهم على أذقانهم، لا يعتنون بلباسهم ولا بنظافة أجسادهم، ويكادون يكونون عالة على غيرهم في جميع شؤونهم. وهذا الفهم باطل وغير صحيح. ذلك أن أفضل المؤمنين في هذه الأمة محمد رسول الله ﷺ، وصحابته الذين أكرمهم الله بالسبق للإيمان به، وبالجلوس إليه والأخذ المباشر من هديه، هم كانوا حملة الدين إلى من أتى من بعدهم، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده، وكانوا مع رسول الله في غزواته، وبذلوا أنفسهم وأموالهم لتكون كلمة الله هي العليا. وكانوا على حظ عظيم من رجاحة العقل وحسن السمت والأخذ من الدنيا في غير سرف، لبسوا الجيد من الثياب وأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وما أعرضوا عن الدنيا ولكن أخذوها على أنها مطية للآخرة. وقد فتح الله لهم أبواب الرزق، وما حفظته كتب السيرة من بذل سخي لأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم يقوم شاهدا على أن التقوى محلها القلب، وليس بينها وبين الإعراض عن الدنيا الإعراض الكامل أي صلة.

وقال معظم المفسرين إن هذه البشرى هي الفوز بالجنة يوم القيامة، وأما في الدنيا فروي أنها هي الرؤيا الصالحة، وقيل هي المنزلة التي يبشر بها المؤمن عند موته.

والذي أرجحه هو ما ذكرته من ثقتهم بالمستقبل الذي تأكد بقوله تعالى: **لا تبديل لكلمات الله.** فقد كتب الله هذه العناية بهم ووكل بها من يرعاها من ملائكته. ثم ختم كل ذلك بإبراز التنويه بما أوتوه: أنهم حازوا الفضل العظيم، وكفى بذلك تقديرا إذ هي شهادة الله العظيم سلطانه الذي لا يحد ملكه، فهو يشهد بأنهم أوتوا الفوز العظيم. وهذا يناسب ما رجحناه من أن البشرى لا تختص بأمر واحد، وما ذكر هو عرض لبعض ما يصح أن يتناوله النص.

65- ولا يحزنك قولهم...وهو السميع العليم.

وإذ انتفى الحزن عن أولياء الله، فإن الرسول ﷺ كان يشتد عليه ما يسمعه من المشركين من تمجيدٍ لآلهتهم، ومن التطاول على مقام الجلالة سبحانه، وما يصحب ذلك من إذاية المؤمنين، وتفننهم في الاستهزاء والسخرية بالمقدسات . فلذلك أمر رسوله أن لا يتأثر بما يقولونه، ولا لتطاولهم بما استدرجوا به من قوة وأموال وعصبية؛ إيماء إلى أنها جميعها أعراض زائلة، وقوة يعقبها ضعف وانحلال. والعاقبة للمؤمنين. فإن الله سينصر دينه ويمحق الشرك ويظهرك على أعدائك. فالقوة التي لا تغلب، والإرادة التي لا تقهر هي لله وحده. ويحسن بقارئ القرآن أن يسكت سكتة خفيفة عند تلاوته الآية عند إتمام كلمة (قولهم) ثم يستأنف: إن القوة لله جميعا.

ثم يؤكد القرآن النهاية الظافرة : أن العزة والغلبة لله وحده. فهم آيلون إلى ذلة ونكال. يثْبِتُ هذا: أن الله سميع لما يقولونه في الجهر فيعذبهم بمقدار ما أجرموا، ويسمع همساتهم فيما بينهم وما يعدونه من مكر، وهو يعلم ما تنطوي عليه ضمائرهم من بغض للحق، وإعداد للمكر بالدين. وهذا الإعلان باطلاعه الدقيق على خبثهم الباطن والظاهر، هو وعيد لهم.

66-ألا إن لله ...وإن هم إلا يخرصون.

ويقوم شاهدا على أن العزة لله جميعا، هو أن ما تحويه السماوات والأرض مما يعقل ومما لا يعقل ملك لله. والعزة الحقيقية هي للمالك الواحد. وما يتبع الذين انحرفت عقولهم وفسدت فطرهم، فادعوا آلهة من دون الله وأشركوهم معه سبحانه في الملك، هم لا يتبعون إلا ظنونا كاذبة لا سند لها؛ فهم في الحقيقة يغلقون عقولهم عن كل المعطيات التي تساعد الإنسان على المعرفة، ويستندون إلى تخمينات من الأوهام الباطلة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

اتخذ : الاتخاذ أخذ شيء موجود للاستئثار به. أو إيجاد شيء للاختصاص به.

السلطان : البرهان والحجة.

الفلاح : حصول المبتغى من العمل مع سلامة العاقبة.

المتاع : المنفعة الآئلة إلى الزوال في الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بجعل الليل للناس في هذه الحياة وقتا يسكنون فيه، يجددون نشاطهم ويريحون أبدانهم وعقولهم من عناء العمل اليومي. وجعل النهار ضياء يبصرون فيه ما حولهم فتتعمق معارفهم فيما يحويه الكون، ويعقدون صلاتهم ببعضهم. إن في سماع القرآن ما يوقظ العقل ليدرك ما في هذا التنظيم من الدلائل على تفرد الله بالتنظيم المُحْكَم.

قال الكفرة إن الله اتخذ ولدا. والله منزه أن يكون له ولد. وكلامهم باطل. وذلك لأنه هو الغني الذي لا يتصور أن يكون محتاجا لاتخاذ ولد. وهو مالك ما في السماوات وما في الأرض، ومن التناقض أن يكون له ولد وهو مملوك له. ولما أطلقوا كلاما غير مستند إلى دليل يصدقه، كان كلاما باطلا. واستحقوا أن يوبخوا لتطاولهم بالقول على الله بغير علم.

إن الذين تبلغ بهم وقاحتهم أن يكذبوا على الله هم خاسرون في الدنيا، فلا يحقق لهم كذبهم أي نفع. وما يحصلون عليه من مظاهر تلفت النظر في الحياة الدنيا من رئاسة أو مال، هو مما لا قيمة له لسرعة زواله، ثم يسلط الله عليهم عذابه الشديد الذي يحسونه أشد الإحساس بسبب كفرهم.

بيان المعنى العام :

67 –هو الذي جعل لكم...لقوم يسمعون.

من مزايا القرآن أنه يجعل الإنسان يقظا لما يجري حوله، لا تَسْحَبُ منه الرتابة ولا التكرار ما وراءهما من حقائق عميقة. فهذه الآية ترفع الغفلة عما يتتابع بصفة منتظمة على الإنسان من تبادل بين الليل والنهار. وتجاوزت الآية الظاهرة إلى ما وراءها من ارتباط الإنسان بهذا التحول، الذي يعطيه ما تتم به حياته. فالليل والنهار يتعاقبان بصفة منتظمة. يأتي الليل فيسكن الإنسان إلى الراحة ليجدد ما فقد من طاقات، ولينعم في سكون الليل بعلاقات محببة للنفس ممتعة وصلات عائلية بها تتمكن الرابطة الأسرية. والظلام يساعد على تحقق ذلك. ويأتي النهار مضيئا فينفذ

إشراقه إلى الكائنات بما يُمكّن الإنسان من التعرف عليها، ثم النشاط وعقد صلات بها فيتكون المجتمع ويتقدم العلم، ويستطيع القيام بما أوكل إليه من الخلافة في الأرض لتعميرها.

إن في هذا التنظيم الدقيق ما يقوم شاهدا ودليلا على تفرد الله بالقدرة الشاملة والحكمة البالغة. إن من يسمع كلام الله سماع المقبل عليه ينتفع من عرض القرآن، فيستيقظ إلى ما في نظام الكون من دلالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، فيتعمق إيمانه.

68-قالوا اتخذ الله ولدا ...ما لا تعلمون.

من أقوال المشركين الفاسدة والباطلة، قولهم إن الله قد اصطفى من خلقه من اتخذه ولدا، فنسبوا له سبحانه بعض الملائكة أولادا، وقال آخرون إنه تولد من الله ما هو ولد له، وهذا غير ما تعتقده النصارى من بنوة عيسى.

نفى القرآن أن يكون لله ولد بأمور:

1) أن هذا مخالف لتنزيه الله عن النقص، وهو معنى: سبحانه، إذ يتناقض القول بألوهيته مع نسبة ولد له.

2) أنه الغني لكماله فلا يتصور أن يكون محتاجا لما يكمل به ذاته. وطلب الولد إنما هو لنقص في الأصل يتمثل في أن الأصل مدرك لفنائه، فهو يرغب في الولد ليكون امتدادَه في الوجود، أو يرغب في الولد ليساعده عند الحاجة. فاعتقاد كمال الله بغناه، ونسبة الولد له تناقض مرفوض.

3) يدخل تحت ملك الله كل ما تحويه السماوات والأرض، بما يشمل جميع المخلوقات، والملك والبنوة متنافيان، ولذا كان من أحكام الشريعة أن الولد إذا دخل في ملك أصله خرج حرا في الحال.

4) إن كل قول لا قيمة له إذا لم يستند إلى دليل يثبت صحته، والدعاوى الفاقدة لسند، لا يحتج بها، وليس لهم دليل على ما ادعوه من اتخاذ الله ولدا، فتكون دعواهم أن لله ولدا دعوى مرفوضة من أساسها.

ثم وبخهم على التجني على الله، منكرا عليهم أن يقولوا على الله ما لا علم لهم به ولا سند من عقل أو كتاب.

69←70: قل إن الذين يفترون...بما كانوا يكفرون.

واجِهْهُمْ يا محمد بالحقيقة التي لا مفر لهم منها: قل لهم: إن الذين ينشئون من خيالهم مما لا أصل له، فيكذبون على الله وينسبون له الباطل مآلهم الخسران المبين

في الدنيا، ولا يجنون من افترائهم على الله أي نفع دائم. ومظاهر النعمة التي نمكنهم منها، ما هي إلا نعمة زائلة مؤقتة. ثم نسلط عليهم العذاب الشديد يوم القيامة، فيحسون ألمه أشد الإحساس، وما ذلك إلا بسبب استمرارهم على الكفر.

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

كبر عليكم : شق عليكم وأوقعكم في الحرج.

مقامي : حالي وشأني.

توكلت : عولت.

أجمعوا أمركم: اعزموا على الفعل بعد التردد.

لا يكن أمركم عليكم غمة : لا يكن ما تقصدون فعله غير واضح.

اقضوا إلي : نفذوا ما عزمتم عليه.

الأجر : العوض الذي يأخذه العامل.

نطبع: نختم ختما لا يحصل بعده الفتح.

بيان المعنى الإجمالي :

اتل يا محمد الخبر الذي فصله القرآن عن نوح. حاصل هذا الخبر الهام: أن نوحا بعد أن والى دعوة قومه انتهى إلى اليأس من استجابتهم؛ فقال لهم يا قومي إن وصل بكم الحد إلى استثقال وجودي بينكم وتحرجكم من تذكيري لكم بالآيات البينات والنعم التي تنعمون بها، فاعلموا أني معول على ما يسندني به ربي من العون. وهذا يجعلني لا أخاف شيئا، فاتفقوا مع شركائكم على الأمر الذي ترونه، وليكن ما تجمعون عليه واضحا بينا، ثم نفذوه ولا تتراخوا. فإن واصلتم الإعراض

وتوليتم مستمسكين بالكفر، فإني أذكركم أني ما طلبت منكم أجـرا علـى مـا بلغـتكم إيـاه من الحق؛ وذلك لأن أجـري علـى الله الـذي أمرنـي أن أكـون موحـدا لـه، مخلصـا لجلاله في جميع شؤون حياتي. فواصَـلوا تكذيبـه ولـم يقلعـوا عـن الكفـر، فنجـاه الله ومن كان مؤمنا معه في الفلك، وأهلك المكـذبين بآيـات الله بـإغراقهم، وكانـت عـاقبتهم واضحة هي الاستئصال لأنهم أنذروا فلم يفد فيهم الإنذار.

ثم إن الله تولى البَشَرَ بألطافه فأرسل إلـى الأقـوام الـذين حـادوا عـن طريـق الهدايـة رسلا، فكذبوهم رغم ما كانوا مؤيـدين بـه مـن المعجـزات، وواصـلوا التكـذيب. لقـد طبع الله على قلوبهم فلا ينفذ إليها مـن نـور الرسـالة شـيء بسـبب عـدوانهم بالشـرك ورفض النظر في الحق.

بيان المعنى العام :

71-واتل عليهم نبأ نوح...ولا تنظرون.

بعد أن أقام القرآن الحجة على المشـركين، وبعـد أن ذكـرهم بنعمـه، وبعـد أن هـددهم ليقلعوا عن الكفر والعناد، تولى تذكيرهم بما حصل لقوم نـوح الـذين كـان مـوقفهم مـن رسولهم نوح عليه السلام كموقفهم من محمد ﷺ.

اتْلُ على المشركين خبر نوح عليه السلام مع قومـه ليعتبـروا بمـا سـلط علـيهم مـن عـذاب فيقلعوا عن العناد. فيكون هذا النبأ نوعا آخر من أنواع التأثير الداعي إلى الإيمان.

خاطب نوح المرسَل إليهم متحببا إليهم متلطفا معهـم، نـاداهم بقولـه يـا قـومي، وشـأن الإنسان أن يكون محبا لقومه ناصحا لهم يسـعى لمـا فيـه خيـرهم. وهـذا هـو شـأن المرسلين، وما ينبغي أن يكون عليه الـدعاة إلـى الخيـر والصـلاح، مـن اللطـف فـي الخطاب، وإثارة الروابط المحركة لنبيل العواطف، حتى يقتـرن مـا يقتضـيه العقـل بمـا تدعو إليه العاطفة. وعرض عليهم أنهم إن شـق علـيهم مقامـه بيـنهم وسـئموا طريقتـه التي يدعوهم بها، التـي هـي التـذكير بالأدلـة البينـة علـى التصـور الحـق والعقيـدة الصحيحة في خالق الكون وكمالاته، وما أفاضـه علـيهم مـن خيـرات، فـاعزموا علـى تنفيذ ما دبرتموه، وأشركوا معكم شـركاءكم الـذين تعتقـدون بـأن لهـم قـدرات تفـوق قدراتكم. إني لا أبالي بما استعددتم له مـن الإضـرار بـي ولا أخشـاكم. اجتهـدوا فـي تدبير أمركم حتى يكون ما تقصدون إيقاعه واضـحا بينـا لا تـردد فيـه ولا غـبش .ثـم قوموا بتنفيذ ما صممتم عليه، ولا تتأخروا بي لإيقاع ما عزمتم عليه.

72-فإن توليتم...أن أكون من المسلمين.

فإن أعرضتم عما دعوتكم إليه، فتذكروا أني ما سألتكم من جـزاء علـى مـا قدمتـه لكـم من هداية، وما بينته لكم من الحق. لا أنتظر أجرا على مـا قمـت بـه إلا مـن الله، الـذي أمرنـي، وأمـره واجـب الطاعـة والتطبيـق، أن أكـون مـن المسـلمين الموحـدين لله المخلصين له في العبادة.

73 -فكذبوه فنجيناه....كان عاقبة المنذرين.

قابل قوم نوح رسولهم في النهاية بالتمادي على التكـذيب. وترتـب علـى هـذا الموقـف الرافض المتمسك بالتكذيب، ويأس نـوح مـن إيمـان أي واحـد مـن المصـممين علـى الكفر، أن نجاه الله والذين آمنوا معـه فـي السـفينة، وأن بـارك فـيهم فجعـل أعقـابهم خلفاء في الأرض بعد إغراق المكذبين واستئصالهم .

وإذ تمت الصورة حتى كأنها حاضـرة، ورد الأمـر بـالنظر إليهـا تحقيقـا للنبـأ الـذي افتتحت به القصة .شاهد الوضعية التي كانـت عليهـا عاقبـة المكـذبين، ومـا كانـت إلا جثثا طافية على سطح المياه تتقاذفها الأمواج. وفـي ذلـك تهديـد لمشـركي مكـة إن هـم واصلوا رفضهم وعنادهم.

74 -ثم بعثنا من بعده...على قلوب المعتدين.

عناية الله بالبشرية مسترسلة، فبعد أن أغرق المكذبين مـن قـوم نـوح، توالـت رسـالاته للبشر، كلما حادوا عن الطريق الصحيح في الإيمان. ولـم تعـين الآيـة المرسـلين كمـا وقع في مناسبات قرآنيـة أخـرى، وهـي معلومـة مـن مواقعهـا فـي القـرآن. ومـن الألطاف الإلهية أن كل رسول يبعث في قومـه معـروف عنـدهم غيـر غريـب عـنهم، جربوا صدقه وأمانته قبل تحمله مهمة التبليغ والهدايـة. فكـان كـل رسـول يقـدم لقومـه المعجزات التي تأيد بهـا ليـتمكن مـن هـدايتهم. وقـابلوا تلكـم البـراهين والمعجـزات بالتكذيب، وواصل الرسـل الـدعوة وطـرد الأوهـام والكشـف عـن المـنهج المعقـول، واستمر المكذبون على التكذيب الذي أعلنوه من قبـل. وعلـى هـذا النحـو مـن إغـلاق منافذ الحق إلى عقولهم يـتم الطبـع علـى قلـوب المعتـدين بالشـرك والعنـاد. والطبـع أصله ختم ينقش بالشمع على الرسالة حتى لا تفتح.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟

أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملأ: خاصة الناس، وسادتهم.

الاستكبار : المبالغة في التكبر.

مجرمين : مرتكبين لعظيم الذنوب.

لتلفتنا: لتلوينا وتصرفنا.

الكبرياء : التفوق على الناس.

الإلقاء : رمي الشيء إلى الأرض.

جئتم به : أظهرتموه.

سيبطله : يظهر عدم تأثيره في عيون الناس.

لا يصلح عمل المفسدين : لا يؤيد عمل المفسدين .

يحق الحق : يثبت الحق.

بكلماته: بواسطة أمره الذي يقول فيه للشيء كن فيكون .

بيان المعنى الإجمالي :

بعد موكب المرسلين الذين تتابعوا لهداية البشرية، بعث الله سيدنا موسى وهارون إلى فرعون وأصحاب الجاه والتقدم من قومه. ودهماء ذلك العصر كانوا تبعا لهم ليس لهم رأي. وقد أيدهما بالمعجزات الواضحة، فحملهم الكبر المتمكن منهم وما ألفوه من العصيان والإجرام على رفض الدعوة. بل تجاوزوا ذلك إلى رمي الحق الذي جاءهم بأنه سحر واضح لا شك فيه.

رد عليهم موسى منكرا: أتقولون للحق إنه سحر، مع أن مآل السحرة الفشل ؟

ردوا عليه قائلين: أنت تعرض علينا ما يقطع بيننا وبين ما التزمه آباؤنا في حياتهم، بل إن قصدك أن يكون لك المقام المقدم في أرض مصر لتحكم أهلها. ولذا فإنا لا نؤمن بك.

قال فرعون: رادا دعوتهما: علينا أن نبين للناس أن ما جاؤوا به، هو سحر لا حق. ولذا أمر حاشيته أن يجمعوا له من أقاليم مصر النابهين من السحرة. وفعلا حضر السحرة ومعهم آلاتهم، وحضر موسى.

قال موسى للسحرة قوموا بعرض ما عندكم. فلما ألقوا ما هيأوه قال لهم موسى: إن ما قدمتموه هو سحر وإن الله سيمحو آثاره، لأن الله لا يؤيد عمل المجرمين. وهم مجرمون لأن غرضهم صد الناس عن الإيمان بموسى. وأن الله يثبت الحق أحب المجرمون الآثمون أو كرهوا.

بيان المعنى العام :

75- ثم بعثنا من بعدهم...مجرمين.

بعد موكب المرسلين المذكورين في الآية السابقة، ذكر القرآن بعثة سيدنا موسى مؤيدا بأخيه هارون. بعثه الله لحاكم مصر فرعون، وللأعيان والوجهاء من حاشيته. وقد أيدهم الله بالمعجزات التي هي أولا، غير خارقة لقضايا العقل، وثانيا هي خارقة للعادة لكونها تفوق طاقة البشر. فظهورها على أيديهم مصاحبة لدعوة الناس لاتباعهم تقوم الدليل على صدقهم.

فرعون كان طاغية مستبدا يذل شعب مصر ويعتدي عليهم ويسلبهم حقوقهم الإنسانية، ويعتقد أنه مخول بأن يجري على سلوكه هذا. فمقاييس الحق مفقودة من حسابه، يرى نفسه أكبر من أن يراعيها ويخضع لها. وعلى نهجه كان المقربون من حاشيته. ويتبع الانتفاخ بالكبر التعدي على الناس، والاستيلاء الظالم على حقوقهم، والاستهانة بالقيم الخلقية. ولذا عبر القرآن عن وضعهم بأنهم كانوا قوما مجرمين، تأصل فيهم الإجرام، إذ لا يحسون عند اقتحام الآثام بفساد ارتكاب الإثم، ولا تتحرك أرواحهم فتهتز لارتكاب الخطيئة. ومضى التاريخ على ظهور مستبدين يقربون كثيرا أو قليلا من الفراعنة الذين بعث فيهم موسى، لا ينتصحون ولا يخشون عاقبة. ومعظمهم حصدوا ما قدموا في الدنيا من ذل وصغار. ولعذاب الآخرة أكبر.

76- فلما جاءهم الحق ...سحر مبين.

بعد أن عرض عليهم موسى عليه السلام دعوته، وأظهر لهم المعجزات الدالة على صدقه وأنه مرسل من عند الله، أخذت المحاورة تجري بينه وبينهم: كذبوه ورفضوا ما جاء به، ورموه بأن ما قدمه دليلا على صدقه في أنه مبعوث من خالق الكون، لا يعدو أن يكون سحرا يخيل للناس ما يموه به أنه حق، وهو في الواقع تخيلات من مهرة في اللعب بحواس الناس.

77 -قال موسى أتقولون...لا يفلح الساحرون.

رد عليهم موسى منكرا: عجب لكم كيف تطلقون على الحق الذي عاينتموه، أنه سحر، مع أنكم رأيتم رأي العين أنه حق لا باطل ولا تمويه فيه. وكيف آتيكم بسحر وأنا أعلم أن السحرة مآلهم افتضاح أمرهم وخسرانهم.

دفعهم الاستكبار إلى المضي في دفع ماجاء به بإظهار أنهم من الذكاء والتجربة بمحل لا يروج عليهم ما خفي من قصده. اتهموه بأنه يرمي بما جاءهم به إلى تحويلهم عن المنهج الذي تمت تجربته، وسار عليه آباؤهم من قبلهم. وشأن كبراء القوم أن يتمسكوا بعادات أصولهم لما فيها من تأكيد لمقامهم الاجتماعي. وبصرفهم عن عادات وتقاليد آبائهم تنزل مقاماتهم، ويضعف تأثيرهم في المجتمع، فيتخذ موسى وهارون ذلك سبيلا ليظهرا تفوقهما وعظمتهما في عقول الناس، فتكون لهما بذلك الرئاسة ويستوليان عليهم ويقودانهم. فما دعوتهما إلا طمع في الرئاسة والاستيلاء على أرض مصر وشعبها.

وإنه نتيجة لذلك، بتفطننا إلى ما ترميان إليه، فنحن مصممون على رفض الإيمان بما قدمتماه لنا.

79←82: وقال فرعون ائتوني...كره المجرمون.

بعد انطلاق المحاورة كما جاء في آية 75 تحول الأمر إلى مقارنة تطبيقية بين ما عرضه موسى على أنه حق، وبين ما رمي به من السحر. فكان المشهد يتمثل في تسجيل الوقائع الآتية :

أولا : فرعون وقد انتفخت أوداجه، يأمر الملأ من حوله أمرا جازما، أن يجمعوا له مهرة السحرة من جميع أنحاء ممالكه.

ثانيا: تنفيذا لهذا الأمر انطلقوا في أنحاء مصر يبحثون عن المتميزين في علم السحر، وأتوا بهم لفرعون.

ثالثا: حضر موسى المقابلة بينه وبينه السحرة وبادرهم بقوله: ألقوا إلى الأرض ما هو معكم من الآلات التي أعددتموها، وحركوها وأظهروا ما عندكم من السحر.

رابعا: قدم السحرة أمام الجمع ما استطاعوا أن يخدعوا به عيون المشاهدين، وكان مشهدا يجذب الأنظار، أبهر جميع المشاهدين إلا موسى عليه السلام، فإنه توجه إليهم وهم معتزون بما قدموه قائلا: إن هذا المشهد لا يعدو أن يكون خيالات لا حقيقة لها، وسيظهر ربي بطلانها ويفضح أسرارها. والله لا يؤيد عمل المفسدين، الذين يقصدون تضليل الناس واللعب بعقولهم حتى يستولوا على مداركهم وينقادوا إليهم .

وفسادهم في هذه المقابلة أوضح، لأنهم كانوا يرمـون مـن وراء مـا قـدموه أن يصـرفوا الناس عما جاء به موسى وأخوه من الحق. ويثبت الله الحـق الـذي أتيـت بـه، ويظهـر زيف ما أتيتم به مـن الباطـل بكلماتـه التـي تعبـر عمـا تعلقـت بـه الإرادة والقـدرة النافذتان. قال تعالى: (إنما أمره إذا أراد شـيئا أن يقـول لـه كـن فيكـون) [1]-وألحـق بكلامه ما يفيد عجزهم وأن إرادتهم غيـر مـؤثرة، وأن الفعـل لله وحـده، الـذي ينجـز في الوجود ما تعلقت به إرادته ولا أثر لحب المجرمين أو بغضهم.

فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

يفتنهم: التسلط على الملكات العقلية بالقهر حتى تنصاع .

عال: مستبد.

الإسراف : تجاوز حد الاعتدال.

بيان المعنى الإجمالي :

انهزم السحرة وتبين للحاضرين أن موسى لـيس بسـاحر، وأنـه رسـول وأن مـا قدمـه ليس من عمل البشر، ولكن رغم ذلك لم يؤمن برسالته إلا قليـل مـن الشـباب مـن قـوم فرعون، كانوا حذرين مـن أن يعـذبهم مـع ملئـه ليرتـدوا. وذلـك لأن فرعـون حـاكم مستبد متعال، مسرف في غضبه كإسرافه في ملذاته .

ثم توجه موسى لقومه يحضهم علـى الثبـات، وأن يحسـنوا التوكـل علـى الله إن كـانوا حقا مؤمنين مسلمين. والإيمان محله القلب، والإسـلام تصـديق لمـا اسـتقر فـي القلـب بالعمل الظاهر بالجوارح.

أجابه قومه بأنهم متوكلون على الله، ثم توجهوا مظهـرين لحسـن تـوكلهم، مبتهلـين إلـى الله أن لا يجعلهم سببا لافتتـان المـؤمنين الآخـرين، بمـا يسـلط علـيهم مـن عـذاب وتنكيل، حذرا منهم أن يكون عذاب فرعون وملئـه سـببا لارتـداد المـؤمنين الـذين لـم

---

[1] سورة يـس آية 82

يكن إيمانهم بالقوة التي يصمدون بها عندما يشاهدون تعذيب المؤمنين. وأن ينجيهم برحمته الواسعة من القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83 –فما آمن لموسى إلا ذرية...وإنه لمن المسرفين.

المشهد التالي الذي أظهرت الآية وجها منه، هو الوضع الجديد بعد أن ظهر موسى على السحرة الذين أعلنوا في الحين إيمانهم بموسى، متحدين فرعون كما هو مفصل في قصة موسى في غير هذه السورة.

الذي يتصور من القصة كما جاء في قوله تعالى: **(وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين)**[1] – أن الناس توافدوا على الساحة التي جرت فيها المقابلة، تبعا للدعوة العامة، ولما في المشهد من غرابة تدعو إلى الحضور. وأنه بعد ظهور الحق ظهورا اعترف به السحرة أنفسهم، وتغلغل في قلوب المشاهدين أثره، اندفع شباب من قوم فرعون، وإن كان عددهم قليلا، إلى الإعلان عن إيمانهم ملتحقين بالسحرة؛ وهذا هو شأن الشباب في اندفاعهم، وتحديهم للتسلط، لكون قواهم بقيت سليمة من الذل.

وإبرازا للعلاقة التسلطية من فرعون على قومه، كان هؤلاء الشباب خائفين من الفتنة التي من عادة الجبارين العتاة إنزالها بمن لا يخضع لهم، فيخرج عن إرادتهم، والتي يتسابق المتملقون من الحاشية لإيقاعها على من لا ينقاد انقياد الذليل الأعمى للتعسف؛ وذلك بالتعذيب النفسي والجسدي الذي يتجاوز حد التحمل. وأبانت الآية عذرهم في هذا الخوف بكشف طبيعة فرعون: إنه مستبد قاس يحتقر من هم تحت نظره، وهو مسرف متجاوز للحدود في التنكيل، وفي مباشرته للحياة، وأقل مظاهره الإسراف في الملذات الذي يطبع على النفس ويغشيها بظلام المادة الهابطة. وهذا من طبائع الاستبداد.

84←86: وقال موسى يا قوم...ونجنا برحمتك من القوم الكافرين.

يتحول بعد ذلك موسى لقومه، ليثبتهم بعد انتصاره على السحرة، بما يشحن عزائمهم حتى يكونوا أقدر على تحمل الأذى والثبات. يدعوهم أن يحسنوا التوكل على الله في مجابهة ما يوجبه الكفاح للانتصار على ظلم فرعون. وأن هذا التوكل هو من موجبات الإيمان، لا خيرة لهم فيه. إذ الإيمان الصادق هو الذي يكون به

---

[1] سورة الشعراء آية 40

المؤمن مستشعرا دائما اعتماده على عون الله الذي ملأ قلبه وحسه وتغلغل في أعماقه، وبدون هذا الشعور لا يكون الإنسان مؤمنا. ثم أكد هذا الارتباط بينهم الذي يلزمهم بالتوكل بشرط آخر، وهو قوله: إن كنتم مسلمين. وإذا كان الإيمان محله القلب والمشاعر، فإن الإسلام مظهره في العمل والتطبيق. فهما شرطان متكاملان الإيمان بالعقيدة الصالحة، والإسلام بالثبات على العمل حسبما يقرره الدين. إن الإيمان نور يحل بالقلب، والإسلام هو ظهور أثر ذلك النور في السلوك العملي. والتوكل شعور بالاستناد إلى العون الإلهي ومحله القلب، والسير العملي في الحياة على وفق العقيدة هو الإسلام. ولا قيمة لأحدهما دون الآخر وأكد عليهم موسى حسن التوكل بجمعه في التعليق بين الإيمان والإسلام: توكلوا على الله إن كنتم مؤمنين إن كنتم مسلمين.

و استجاب قومه لندائه، وأعلنوا ذلك بقولهم: على الله توكلنا واستندنا إليه وحده، نستمد منه القوة لمواجهة بطش فرعون وفتنته. فالإيمان طاقة تدفعهم إلى الصبر والطمأنينة، والرضا بالمقدور، وعدم التردد، والإسلام طاقة يرتبط فيها العمل بالعقيدة، فيحسنون الاستعداد، ويتضامنون فيما بينهم للتغلب على مكر فرعون وملئه.

ثم تسجل الآية أنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام في ابتهالهم إلى الله أن يحميهم من أن يتغلب عليهم فرعون فيفتتن بقية الناس بما أصابهم ويكفرون. وأن يدخلهم في رحمته، الرحمة التي تنجيهم من بطش القوم الذين تمالأوا على الظلم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

تبوأ : اتخذ مكانا لسكناه.

قبلة : يحتمل أن يكون المراد إلى جهة القبلة كما يحتمل أن تكون البيوت متقابلة.

الزينة : ما يُحَسّن به الناس مظاهرهم أو محيطهم.

الطمس : المحو والإزالة.

اشدد :من الشدة بمعنى العسر والحرج .

الاستقامة : مفهوم جامع لخصال الخير والصلاح.

بيان المعنى الإجمالي :

أوحى الله إلى موسى وأخيه بعد أن ظهرا على السحرة، وآمن بهما من آمن، أمرهما أن يرشدا المؤمنين إلى طريقة بنائهم الحضاري، وذلك بأن يجتمعوا في حي يبنون فيه مساكنهم على هيئة هندسية واحدة، مشرعة أبوابها إلى القبلة، وهو الاتجاه نحو الكعبة، التي هي ما بين المشرق والمغرب بالنسبة لأرض مصر. كما أمرهم أن يؤدوا الصلاة على أكمل الوجوه لتكون أرواحهم نقية متآلفة. وأعلمهم بأن الله يبشرهم بالتأييد والعاقبة الطيبة.

كان موسى عليه السلام يجد في نفسه الحرج الشديد، لأن فرعون والمقدمين من قومه ثبتوا على الكفر، ورأى أن سبب ذلك هو السعة والنعمة التي توفرت لهم من زينة الحياة ومباهجها، ومن كثرة الأموال التي آتاهم الله، فتوجه إلى الله أن يسلب الخيرات التي مكنهم منها، وأن يسلط عليهم من الكروب والدواهي ما يجعل قلوبهم في حرج شديد حتى يرتدعوا عن غيهم ويشعروا بضعفهم فيؤمنوا؛ إنهم لتمردهم بسبب النعم التي يعيشون فيها لا يؤمنون حتى يذوقوا العذاب الأليم الذي يفتح بصائرهم التي حجبها الترف.

قال الله: قد استجبت لدعائكما. وَلِيَتَوَاصل تنفيذ استجابتي لكما، عليكما بالاستقامة على الطريق الصالح عقيدة وعبادة وسلوكا، وإياكم أن تتبعوا سبيل الجهلة الذين ضلوا عن الحق.

بيان المعنى العام :

87- وأوحينا إلى موسى وأخيه...وبشر المؤمنين.

بتبليغ موسى الرسالة، وإظهار المعجزات المؤيدة، وإيمان قومه مع جماعة من القبط معظمهم من الشباب، تحقق عامل الوحدة العقدية المكونة للأمة. وحسب سنن الله في الكون لا غنى للوحدة العقدية عن جوامع مادية تحفظ تلكم الوحدة، وتمكن لها من التواصل والاستمرار.

أوحى الله لموسى ولأخيه عليهما السلام ليقوما بما يحقق ذلكم التوحد للمؤمنين في الحياة لبناء حضارة مقامة على توحيد الله وعبادته. وإن شرط البناء الحضاري الذي كان الدين المقوم الأول فيه، هو الاستقرار الممكن لمتابعة التكوين الفكري

والعقدي، وتمتين الامتزاج بين أعضاء الأمة. لذلك أوحى الله لهما أن يوجها المؤمنين لبناء أحياء سكنية خاصة بهم، وأن لا يبقوا على حالة التشتت التي كانوا عليها. وأن تكون أحياؤهم مطبوعة بطابع مميز إبرازا للاستقلال الحضاري. فأمروا أن تكون هندسة بناء مساكنهم على نمط واحد متجهة إلى القبلة. وهل القبلة هي جهة مكة الجنوبية، أو أن تكون البيوت متقابلة ؟ ونرجح الاحتمال الأول، لأن ما بين المشرق والمغرب هو جهة القبلة (الكعبة) وهو ما يجعل الدور معرضة لدخول أشعة الشمس غالبا، فتكون أنقى هواء وأكثر ملاءمة للإقامة فيها. وينتظم شكل البناء الظاهري الذي هو مظهر توحد.

ومع ذلك يبرز التأكيد على العناية بالمقوم الديني، فأمرهم بالمواظبة على أداء الصلاة على أتم وجه وأكمله، لتكون أرواحهم صافية متعهدة بالصقل مستحضرة بواسطة الصلاة ارتباطها بالله وارتباط بعضهم ببعض.

إنه بالتكامل بين النواحي المادية الموحدة، وبين النواحي الروحية المقومة، تتحقق أسباب النجاح، تلكم الأسباب التي لا تفعل فعلها إلا بتيسير من العزيز الحكيم، فلذلك أمرهما، أن يبشرا الأمة برعاية الله لها وأنها بذلك سيكتب لها الفوز.

88- وقال موسى ربنا...العذاب الأليم.

لاقى موسى من فرعون ما لاقاه من العناد والإصرار والمكر، وفي حالة من حالات تأملاته في الوضع الذي عليه قومه، وما يرجو لهم من الهداية والمنعَة، توجه مع أخيه إلى الله بهذا الدعاء المؤذن بأنه نتيجة تأملات في وضع فرعون وطريقته في الحياة. مضمون هذا التوجه: افتتحه بإبراز الصلة الضارعة بينهما وبين الله، فهو ربهما الذي والى عنايته بهما؛ إنهما يواجهان كافرا عنيدا، يتقوى مع حاشيته وأتباعه ووجهاء قومه بما آتاهم الله من السعة في الرزق، تبعا للتقدم الحضاري الذي كان عليه أهل مصر في زمن موسى، وبذلك تمكنوا به من التفنن في مظاهر الزينة في لباسهم وأجسامهم ومحيطهم، فألهى ذلك الناس عن النظر إلى ما ينطوون عليه من شر وفساد، وتملكهم الإعجاب بذلك وطوعهم للانقياد لهم.

رزقتهم ربنا سعة في المال، إذ أن الحضارة يتبعها الرخاء المادي، وكثرة الأموال تطوع الدهماء للانقياد والتبعية، فاستعملوا ذلك للإضلال وانحرفوا بهم عن الطريق المستقيم طريق الله.

هذا كان حاصل تأملات موسى، وما توصل إليه من الأسباب التي جعلت شعب مصر على الحالة التي هو عليها. وإنه ليرغب رغبة أكيدة، كشأن كل المرسلين، أن

يتحولوا عن طريق الضلال إلى طريق الهداية. فأعاد ضراعته بقوله: (ربنا) أخذ في الدعاء الذي يظن أنه باستجابته ينتصر الإيمان على الكفر.

طلبا من ربهما أن يزيل ما يتقوّون به من الأموال، وأن يخرجهم من حالة الرفاه والأمن والراحة، إلى حالة من الشدة والعسر فتتوالى عليه الأنكاد، وتتابع القوارع والأحزان، فتضيق قلوبهم عن تحمل المصائب، حتى يفيقوا إلى ضعفهم وعجزهم فيؤمنوا .إنهم ربنا لغلظ أكبادهم وما استدرجوا به من أنواع النعيم، لا يؤمنون إلا إذا نفذ فيهم العذاب الشديد الإيلام وأحسوا به بالغ الإحساس.

89- قال قد أجيبت ...لا يعلمون.

أظهرت هذه الآية سنة من سنن الله في استبقاء الخير، واستدامة النعمة. على المؤمنين أن يواصلوا ما هم عليه من التقوى والالتزام بشرع ربهم.

أعلم الله موسى وأخاه أنه حقق لهما ما طلباه، واستجاب لدعائهما في فرعون وملئه. وأمرهما أن يواصلا السير على الطريق المستقيم بتطبيق ما شرعه الله لهما من الأحكام في المعاملات والنظافة في الأخلاق والسلوك لينفذ الوعيد في فرعون وقومه ويتواصل. وتأكيدا لهذا الأمر صرح بالنهي عن ضده، وهو إتباع طريق الجهلة الذين حجبهم جهلهم عن معرفة الحق فاتبعوا طريق الضلال.

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

أتبعهم : لحقهم.

بغيا: ظلما.

العدو : الظلم الشديد.

الإدراك : اللحاق.

خلفك : الذين يأتون من بعدك.

بوأناهم : أسكناهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يسر الله لبني إسرائيل أن يخرجوا من أرض مصـر دون أن يـتفطن لهـم فرعـون فـي أول الأمر. فاتبع أثرهم يريد أن يبطش بهم على عادته فـي الظلـم والقسـوة. فلحـق بهـم وهم قريبون من البحر، فسلكوه علـى مـرأى منـه، فـاتبع طـريقهم فيـه مـع جنـوده، فأطبق عليه البحر وأخذ يهبط ويطفو حتى إذا خـارت قـواه أعلـن قـائلا: آمنـت بالـذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين. ويدخل سـمعه هـاتف الحـق منكـرا أن يفيـده إقراره في ذلك الظرف شيئا. ثم يؤنبـه بمـا كـان عليـه طيلـة حياتـه مـن العصـيان والتمرد، من الفساد بالظلم ومنـع النـاس مـن حقـوقهم والكفـر والإسـراف. وأن مـا رجاه من النجاة قد تحقق، لكن لجثتـه فقـط. وفعـلا قـذفها البحـر سـليمة مـن نهـش الأسماك، ليكون على وضعه وهو ملقى على الشـاطئ ميتـا لا حـراك بـه، آيـة ودلـيلا للذين يأتون من بعده، من الفراعنة ومـن الحاشـية ومـن النـاس، علـى أن قـدرة الله لا تغالب. إن ما يقيمه الله من الآيات يهدي لمعرفة الحـق، ولكـن غفلـة النـاس عمـا فـي الآيات من دلالات هو الذي يجعلهم لا يتعظون. أنعـم الله علـى بنـي إسـرائيل فأسـكنهم في أرض مباركة بعد أن اجتازوا البحر، كمـا أنعـم علـيهم بتوسـعة الـرزق الطيـب. ومضوا على تلك الحال إلـى أن أنـزل الله علـيهم التكـاليف، فـاختلفوا اختلافـا فـرق كلمتهم، وسيحكم الله بين المتخالفين فيظهر الحـق ويجـازي كـلا حسـب قصـده عنـد الاختلاف.

بيان المعنى العام :

90-وجاوزنا ببني إسرائيل...وأنا من المسلمين.

ينتقل القرآن متحدثا عن بني إسرائيل، طاويـا الفتـرة بـين مفـاد الآيـة السـابقة وهـذه الآية. إن ما قدمه موسى من جمع قومه في حـي واحـد مميـز سـهّل الاتصـال بيـنهم، كان لحكمـة أظهرهـا الله فـي الوقـت المناسـب، الـذي أذن فيـه لموسـى وقومـه أن يغادروا أرض مصر، مجتازين اليابسة والبحـر إلـى الضـفة الأخـرى، دون أن يـتفطن فرعون وزبانيته لخروجهم. والظلمة المسـتبدون يعتبـرون هـذا تحـديا غيـر مقبـول. ولذلك جمع جنـوده مصـمما علـى اقتفـاء أثـرهم واللحـاق بهـم وتطـويقهم ليـردهم صاغرين، لينفذ فيهم ما هو شأنه مـن الظلـم والتعـذيب. إذن كـان يدفعـه لـذلك ظلمـه واستبداده (بغيا وعدوا). إنـه مـن حقهـم الإنسـاني أن يقيمـوا فـي أرض مصـر أو أن

يخرجوا منها؛ فاقتفاء آثارهم لردهم قسرا تعد على الحرية الإنسانية وهو ظلم، بل هو من أشد الظلم.

إذن تفطن فرعون مؤخرا لخروج بني إسرائيل بدون استئذان، أسرع في اللحاق بهم، ووجدهم قد دخلوا في البحر يقطعون ما بين الضفتين، فأخذ الطريق الذي سلكوه، فلما كان في وسطه أطبقت عليه أمواج البحر هادرة فغرق.

أيقن بالهلاك وهو يهوي ويطفو، فأعلن إيمانه بالذي آمنت به بنو إسرائيل. وتفيد الآية أنه لعناده ما كان يتأمل، وهو في سلطانه وعتوه، الهداية التي جاء بها موسى، والتي تقوم على أن خالق الكون واحد أحد هو إله الكون كله. فلذلك عرف الإله بأنه إله بني إسرائيل. مع أن الله سبحانه هو إله السماوات والأرض وبينهما، وإله البشر جميعا.

91←92: ءالآن وقد عصيت...عن آياتنا لغافلون.

تفصل الآية مآل فرعون بعد أن أخذ البحر يبتلعه، وهو في آخر لحظة ينادي: إني آمنت بإله بني إسرائيل وأنا من المسلمين. وعندها يتوجه لفرعون نداء صادق كان آخر ما طرق سمعه. استفهام إنكاري عما صرح به. أفي هذا الظرف الحاضر تعلن إيمانك ؟ إنكار أن يكون ما صرح به ينقذه من الغرق، أو يكتب له به النجاة. ذلك أن الإيمان لا تترتب عليه آثاره ولا ينفع صاحبه، إلا إذا كان عن اختيار. بل إن كل ما يصدر عن الإنسان في الحياة من أفعال لا ترقى إلى درجة القبول إلا إذا صدرت عن صاحبها وهو مختار لا مضطر. وبالجملة فالاضطرار وسلب الاختيار هو خروج بالإنسان عن دائرة التكليف في الخير أو في الشر، وتَنَكُّر إذا كان بالقوة القاهرة، لما أراده الله من استخلاف الإنسان في الأرض. وأضاف الصوت الذي بلغ دخائل سمعه، وما بقي من وعيه، مؤنبا له عما قدم يوم كان بيده الحكم، لقد سرت على العصيان قبل هذه اللحظة، وأضفت إلى عصيانك أنك كنت تمكن للفساد بالسيطرة مع الملأ الذين كانوا حولك. ظلمت الناس، وحلت بينهم وبين الإيمان، وقويت السحر والتمويه بما أفسد عقول شعبك. إنك إن كنت تهدف من إقرارك هذا النجاة، فقدتم لك ذلك، ولكن ننجيك ببدنك، ونحتفظ بجثتك،و نسلمها من نهش الأسماك، وندفعها إلى الشاطئ لتكون لمن يأتي من بعدك من الفراعنة والأتباع وكل من يعلم بمصيرك، دليلا على أن قدرة الله لا تغلب، وأن مآل الجبابرة إلى الهلاك والخزي، وأن ما يدعيه الناس لفرعون من كونه من نسل الآلهة وأنه مخلد، وأن روحه تعود إلى جسمه لتستمتع بما كان يفضله في حياته، مما تدل عليه الآثار

الفرعونية في الأهرام التي بنوها على هذا التصور؛ كل ذلك أوهام يقوم إلقاء البحر لجثتك، على زيفها. إن آيات الله الداعية للتأمل فيها والاتعاظ بها محققة للمراد منها، إذا نظر فيها الإنسان وتعمق فيما تدل عليه، ولكن التقصير من كثير من الناس بالغفلة عنها، هو الذي حجبهم عن الإفادة منها.

93-ولقد بوأنا بني إسرائيل...فيه يختلفون.

بكل تأكيد أنعم الله على بني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، ونجوا من فرعون وملئه، فأسكنهم في مساكن آمنة بعيدة عن الاضطراب والخوف. وزادهم نعمة بتوسيع الأرزاق، ومكنهم من طيبات الأطعمة، فهم لم يخشوا جوعا ولم يضطروا إلى شظف العيش والمنكر من الغذاء.

ثم مضوا على هذا الحال مدة، كلمتُهم واحدة وحياتهم رخية آمنة. إلى أن توالت عليهم التكاليف التي حددت لهم ما يقبلون عليه، وما ينصرفون عنه. فجاءهم التشريع المفصل لعلاقة الإنسان بمتنوع مظاهر الحياة المدنية، وعندها اختلفوا. لم يفصل القرآن ما اختلفوا فيه وما تفرقت عليه كلمتهم، ولكنه نبه المؤمنين أن عليهم أن يتخذوا من التشريع ما يوحد الكلمة ويقوي أواصر الاتصال بين المخاطبين به. كما نبه إلى أن الاختلاف إذا تمكن فإنه سيستمر، ومن الاختلاف البسيط يدخل الشيطان ليفرق ويقوي التحزب، ويصرف عن إتباع الحق والرضوخ له إلى محاولة الغلبة والانغماس في التأويل. وقرر القرآن أن الله سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه يوم القيامة، فيجازي من كان همه إتباع ما يظنه الطريق الذي يرضي الله جزاء مضاعفا إن هو وصل إلى الحق، ويجزيه عن اجتهاده إن هو صدق في اجتهاده ولم يوفق إلى الحق المقرر عند الله. ويعاقب من عرف الحق وكتمه وحاد عنه، أو من كان جاهلا معاندا متظاهرا بالعلم.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

الامتراء : هو الشك فيما لا شبهة تبرر الشك فيه.

حقت: ثبتت.

كل آية : آيات كثيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا كنت تعجبت من اتباع فرعون وجنوده لموسى حتى دخلوا الطريق الذي سلكه وسط البحر، وأخذت تتساءل كيف يصل به الغباء إلى هذا الحد، فاسأل الذين يقرأون التوراة، فإن القصة معلومة عندهم. فاهنأ بما يسره الله لك من معرفة الحق. ثم توجه الخطاب لكل فرد ممن يبلغه كلام الله أن لا يكون من الواقفين عن تقبل حقائق الوحي. وثنى بالنهي عن التكذيب بالأدلة الآتية من ربك، فإن من كذب بها يكون من الخاسرين الذين ذهب كل ما عملوا من خير هباء.

إن الذين علم الله تصميمهم على الكفر وأنهم لا ينظرون في الآيات التي تبلغهم، ويعرضون عن كل تعليم أو تذكير، هم الذين ثبت ما سبق في علم الله، أنهم لا ينفتحون للإيمان، ولو توالت عليهم الآيات المتتابعة الكثيرة. ولا يؤثر فيهم ذلك، ولا ينقادون للحق إلا بعد أن يذيقهم الله العذاب الأليم.

بيان المعنى العام :

94←95: فإن كنت في شك...فلا تكونن من الممترين.

هذه الآية إن فهمت على ما يقتضيه ظاهرها كانت مشكلة.

أولا: لأنه ثبت يقينا بأدلة العقل والنقل أن النبي ﷺ بلغ إيمانه درجة من الوضوح واليقين والحضور في الروح والمشاعر بصفة دائمة، ما لم يصل إلى مستواه أي فرد من البشر. وهذا أمر لازمه ولم يفارقه لا في يقظة ولا في منام. وفي آخر لحظة من حياته كما روته عائشة رضي الله عنها قال: مع الرفيق الأعلى.

ثانيا: صياغة الآية جاءت بشكل الخطاب للنبي ﷺ **إن كنت في شك، مما أنزلنا إليك، فاسأل**، من قبلك، جاءك. مما يقتضي ظاهره أنه خوطب بتعريفه بالطريقة التي يزيل بها شكه إن وقع.

وبناء على ذلك فزع المفسرون إلى الخروج بالكلام عن ظاهره، دفعا للتناقض الذي يقتضيه ذلكم الظاهر. وقد اعتنى الإمام الرازي فخرجه على طريقتين:

الطريقة الأولى: أن الضمائر موجهة إلى النبي ﷺ والمقصود غيره. وهذا نظير قوله تعالى لمحمد: لئن أشركت ليحبطن عملك، وقوله لعيسى: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين. ومن الأمثلة المشهورة: إياكِ أعني واسمعي يا جارة. وهذا من باب التعريض.

ووجه الخروج عن الأصل إلى الخطاب بسبعة أوجه. في كثير منها مظاهر ذكاء وتمحل. وفي تتبعها ما يخرجنا عن المنهج الذي التزمناه.

الطريقة الثانية: الخطاب ليس مع الرسول، ولكن مع الشاكين: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلناه إليك.[1]

و خرج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على احتمالين:

الأول: أطلق الشك وأريد به أصحاب الشك، أي فإن كنت في قوم أهل شك مما أنزلناه إليك، فاسأل اليهود يخبروك عما عندهم وهو عين ما أخبرتهم به. فتكون الآية ملجئة للمشركين ليعترفوا بصدق الرسول. باعتبار أن التوافق بين ما أنزل عليك وما هو موجود في التوراة بشهادة أهل الكتاب قاطع لمعذرتهم. إذ لا يشهد اليهود بما يصدقك وهم لا يؤمنون بك.

الثاني: أن يكون الكلام صيغ صياغة التعريض، فالمقصود هم المشركون في الحقيقة، وظاهر الكلام موجه إلى النبي ﷺ.

والذي فهمته من الآية أن الآية السابقة أثبتت أن فرعون وجنده اتبعوا موسى وقومه، ودخلوا من المسلك الذي سلكه بنو إسرائيل، وهو مسلك يعرف فرعون ومن معه أنه في وسط البحر المتلاطم الأمواج. وكيف أن فرعون الذي كان يدبر ملك مصر بدهاء واستبداد، كيف يسلك هذا المسلك الذي لا يرمي بنفسه فيه حتى أشد الناس غباء ؟ أخذ النبي ﷺ يتدبر فيما أنزل إليه، ويعجب من الحادثة، إذ أن الذين سحقوا بالعذاب العاجل من المشركين في تاريخ البشرية، من الذين قص علينا القرآن مآلاتهم، كان العذاب مسلطا عليهم بقوة قاهرة، أما فرعون وقومه فقد هلكوا باختيارهم ما لا يختاره من له مسكة من العقل، ففي هذا التدبر الذي يفرض الفروض لتصور الحادثة، والذي يرقى به الإيمان ببحثه عما يزيل العجب، جاءه الوحي ينير له ما ينفي تعجبه، باعتبار أن ذلك أمر معروف عند الذين يقرأون التوراة. ويثبت أن ما نزل عليه في هذه القصة من الحق الذي بلغه من ربه، وأنه حق لا شك فيه. فالمقصود والله أعلم أن هذه الآية متعلقة فقط بقصة غرق فرعون، لا بكل ما أنزله الله عليه من القرآن.

وعلى هذا النسق من الحق الثابت في كل ما أوتيه النبي ﷺ من الوحي، يترتب عليه أن على كل مخاطب أن لا يكون شاكا في أي مما عرضه. وثنى بالنهي نهيا عاما

---

[1] التفسير الكبير ج 5 ص 28/26

عن التكذيب بآيات الله، ذلك أن المكذب بآيات الله ليس له إلا مآل واحد وهو أنه سيكون مقرونا لزمرة القوم المفلسين من الخير الذين خسروا كل شيء، فلا ينتفعون بأي عمل من أعمالهم ولو ترتب عليه نفع في الظاهر، إذ هو عمل محبط.

96←97 : إن الذين حقت عليهم ...العذاب الأليم.

من الناس من إذا جاءه أمر جديد تأمل فيه ووزنه بميزان عقله وتجاربه، ومنهم من يقوم في عقله سد يمنعه من النظر، ويحجبه عن التدبر. إن النوع الثاني هم الذين تمسكوا بالرفض لكل ما جاء به النبي ﷺ، ولو تكاثر ورود الآيات الواضحة الدلالة على عقولهم ما انتفعوا. لقد سبق في علم الله اختيار هؤلاء لهذا المنهج في حياتهم ؛ فهم لا يؤمنون حتى يسلط الله عليهم عذابه الأليم كما وقع لفرعون عند غرقه.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

كشفنا عنهم : رفعنا عنهم فلم نصبهم.

الخزي : المهانة والذل.

الإكراه :الإلجاء وفرض إرادة الشخص على غيره.

الرجس : الخبث والفساد، وهو الكفر في الآية.

الأيام : ما يقع فيها من الأحداث العظيمة القاهرة.

بيان المعنى الإجمالي :

تسجل الآية اللوم والتخطئة لكل قرية من القرى السابقة التي دعاها رسولها إلى طريق الله، لتنتفع بإيمانها، وواصلت العناد إلى أن حل عليها العذاب، إلا قوم

يونس من الذين تابوا وآمنوا قبل أن تحل عليهم النقمة. فرفع الله عنهم العذاب بعد أن تهيأوا له، ومتعهم بنوافل فضله في الحياة الدنيا.

هذا قانون الله الذي أجرى عليه خلق البشر، أن كل فرد ممكن من الخير والشر والإيمان والكفر، ولو شاء الله أن يؤمنوا كلهم لآمنوا ولما وجدتَ كافرا. فهون عليك فإنك لا تستطيع أن تجعل الناس كلهم مؤمنين.

إنه لا يستطيع أي فرد أن ينفتح للإيمان إلا بإذن الله، فيطوع عقله للإيمان تبعا لما يحيطه به من العون ويصرفه عنه من الصوارف. ويسلب الله العون عن الذين اختاروا الكفر فأقفلوا عقولهم حتى استووا مع غير العقلاء.

كتاب الكون أمامكم فانظروا ما تحويه السماوات والأرض من دلائل تنادي بأنها مخلوقة لله، وأن الله هو المتصرف فيها. ولكن الأدلة الناطقة لا تفيد من أطبق الكفر على عقله، كما لا تفيدهم الزواجر ولا الوعيد.

بعد هذا الإيقاظ لما يقتضيه العقل، ولما تقوم عليه شواهد النظام في الكون، ما الذي ينتظره الكافرون ؟ هل ينتظرون أن يحل عليهم العذاب الذي سلط على من كان قبلهم؟ قل لهم انتظروا ما سيتحقق في المستقبل؛ فإني منتظر تحققه معكم. أنتم تنتظرون أن يحل عليكم غضب من ربكم وذلة، وأنا أنتظر أن ينصرني ربي. ويعلن الله أنه ينجي رسله والمؤمنين من العذاب الذي سيأتيهم. فإنه على هذا النحو من قصر العذاب عليهم، وحماية المؤمنين جرى قدره.

بيان المعنى العام :

98-فلولا كانت قرية ...إلى حين.

صيغت هذه الآية صياغة خاصة، تدعو المتطلب لفهمها أن لا يعجل، وأن يتتبع الطريقة التي صيغت بها بتأمل، وبتدقيق للاستعمال العربي في الأدوات التي دخلت في تركيبها.

افتتحت الآية بقوله تعالى (فلولا) وهذه أداة، الأصل فيها أن تفتتح بها الجمل لتكشف عن قصد المتكلم حث المخاطب على الاستجابة لمضمون كلامه، وهي قريبة من (هَلّا).وذلك عندما يكون الكلام للزمن المستقبل كأن تقول للتلميذ: لولا تجتهد أكثر لتتفوق في الامتحان. أما إذا كان مدخولها ماضيا فالحث منتف، وتكون عندها للدلالة على أن المخاطب وقع في خطأ يلام عليه ويوبخ. كأن تقول لمن سُرِقَتْ داره: لولا أحكمت قفل بابك ما تمكن السارق من الدخول إلى منزلك. والآية متمحضة للمضي، إذ مضمونها: التشهير بالغلط الذي وقعت فيه القرى الماضية

التي جاءها المرسلون وعرفوهم بهداية ربهم فصـمموا علـى الإعـراض، ولـو آمنـوا لانتفعوا بإيمـانهم ولـم يسـلط علـيهم العـذاب. فهـو تـوبيخ لجميـع القـرى السـابقة المعرضة عن قبول الهداية إلى أن حل عليهم العذاب. وقـد سـبقت قصصـهم فـي هـذه السورة وآخرها قصة فرعون.

واستثنت الآية من القرى التي واصلت رفضـها إلـى أن انـتقم الله منهـا، اسـتثنت قـوم يونس ؛ الذين أنذرهم نبيهم عاقبة التمادي على الكفر، وهـددهم بمـا أخبـره الله بـه مـن العذاب الذي سيحل بهـم إن لـم يؤمنـوا ويصـلحوا أمـورهم ويتبعـوا شـريعة ربهـم. ووصل الأمر بيونس إلى أن عاجله اليـأس مـن صـلاحهم وغـادرهم. وتفطنـوا عنـدما لم يجدوه بين أظهرهم أنه ما خرج من قـريتهم، نَيْنَـوَى بـالعراق علـى ضـفاف دجلـة، إلا أن العذاب يوشك أن ينزل بهم، فأنابوا إلـى ربهـم، وآمنـوا وطبقـوا مـا شـرعه الله لهم، فرفع الله عنهم العذاب ؛ ويسر لهم معيشتهم فلـم يؤاخـذهم، كرمـا منـه، بمـا سـبق منهم من التكذيب والعصيان. يسر لهم من متـاع الـدنيا الـذي ينقضـي بانقضـاء أجـل كل واحد منهم. وأما وضـعهم يـوم القيامـة فإنـه يجـري علـى العـدل الإلهـي الـذي سيقضى به على جميع البشر.

وسيتعرض القرآن في سورة الإسراء إلى تفاصيل أوْفَى عن يونس عليه السلام.

وهذه الآية تحريض لمشركي مكـة كـي ينقـذوا أنفسـهم ويؤمنـوا، كمـا فعـل أهـل نينوى، قبل أن يتحقق فيهم الوعيد.

99-ولو شاء ربك ...يكونوا مؤمنين.

تنتظم هذه الآية مع أخواتها في القرآن الكريم لتؤكـد: أن الله فطـر النـاس ممكنـين مـن الاختيار، وأنه أعطى لكل فرد القوى العقلية التي بهـا يميـز بـين الخيـر والشـر. هـذه مشيئته وما شاء وقـع ولا يمكـن أن يقـع غيـره. فلـو شـاء أن يجعـل النـاس كلهـم منصرفين إلى الخير وإلى الإيمـان لكـانوا مـؤمنين، ولا تجـد تبعـا لـذلك أي رافـض للحق، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر نمطا واحدا.

وتخفف هذه الآية وتسلي رسـول الله ﷺ، إذ شـديد حرصـه علـى إنقـاذ البشـرية مـن الكفر، وغرس الإيمان في قلوبهم، جعله يحمل هـذا الهـم ويـود لـو وجـد السـبيل إلـى النجاح في انتشالهم من الكفر، فكأنـه لشـدة حرصـه يعمـل علـى حمـل النـاس علـى الإيمان حملا ولو بالقوة. وفي هذا تنويه بالنبي ﷺ، بما يحملـه فـي نفسـه الكريمـة مـن حب الخير للبشرية جميعا.

100-وما كان لنفس ...الذين لا يعقلون.

تعمق هذه الآية مضمون سابقتها بتقرير أن أي نفس لا تستطيع أن تحقق إيمانها في الوجود إلا إذا أذن لها الله بأن تؤمن . ومعنى ذلك، أنها لا تستطيع أن تؤمن إلا إذا أيدها الله بالألطاف التي تأخذ بعقلها إلى طريق الإيمان، وأن يصرف عنها المعوقات التي تحول بينها وبينه. مع بقاء الاختيار للإنسان في الإيمان أو الكفر، وفعل الخير أو فعل الشر. فإذا أذن الله في إيمانها انساقت لها الظروف الداخلية والخارجية للإيمان فيحصل الإيمان دون أن يتعطل العقل أو يحجب عن الاختيار. وفي المقابل فإن الله يمنع ألطافه وتأييده للذين فسدت عقولهم فيتركهم إلى نفوسهم فيختارون الكفر المسؤولون عنه. خذ لذلك مثلا: كون الإنسان يولد في بيئة مؤمنة، وييسر له الاتصال بأهل الخير والفضل الذين يؤثرون فيه التأثير الصالح، وينشأ عقله على تغذيته بما يعينه على الاستقامة في النظر، ويكون عقله محصنا من الزيغ أو من تقبل التشكيك. هذه أمور لا تسلبه الاختيار الذي هو مسؤول عنه وهي بإذن الله، وهي التي يتبعها الثبات على الإيمان.

فإذا انحرف العقل انساق إلى الضلال والفساد وبالتالي إلى الكفر، إذ تعطلت ملكاتهم العاقلة، فهم لا يعقلون، ولو استقامت عقولهم ما كفروا.

101-قل انظروا ...قوم لا يؤمنون.

قل لهم: افتحوا أبصاركم، وافتحوا بصائركم للتأمل العقلي فيما حوته السماوات، وما استقر في الأرض. إن ما ينقله لكم البصر مما تحويه السماء من كواكب ومن سحب وأمطار إلى آخر ما يقع تحت المشاهدة، وإن ما تثيره تلكم المشاهد في العقل من دعوة للتأمل في القوانين المسيرة والتنسيق المحكم والنظام الدقيق. وكذلك ما تتلقونه من مشاهد الأرض، التي تسيرون في مناكبها، بأبصاركم أو عقولكم، هو كتاب الكون الذي يقوم دليلا وشاهدا يوصلكم إلى الإيمان. إن الظلاميين من الذين ينكرون الخالق، الذين وسموا أنفسهم بالعلمانيين، ووهموا وأوهموا أنهم لا يحكمون إلا العقل، لو سألتهم فقلت لهم :إن النظام كمال، والفوضى نقص، ونحن جميعا نشاهد هذا النظام فمن أحكمه؟ قالوا: الطبيعة. وإذا سألتهم ما هي هذه الطبيعة الفاعلة التي يسندون إليها التأثير؟ لا يزيدون عن ترداد: الطبيعة. فهم خرجوا من نور العقل والإيمان إلى ظلام الطبيعة والكفر. إنهم لم يفيدوا من هذه الآيات المبثوثة في الكون ما تنطق به من الدلائل. كما لم يستفيدوا من تنبيه المرسلين والمصلحين إلى ما يترصدهم من خسارة مآلهم تبعا لكفرهم بالله.

102←103: فهل ينظرون ...ننج المؤمنين.

إنه بعد التـذكير، ولفـت الأنظـار إلـى مشـاهد الكـون الناطقـة بمـا وراء نظامهـا، وإحكام خلقها من القدرة الإلهيـة، يثـور سـؤال: أي شـيء ينتظـرون قدومـه ليؤمنـوا ويقلعوا عن الكفر ؟ويأتي الجواب مضمنا فـي السـؤال، ينتظـرون أن يحـل بهـم مثـل الأحداث العظيمة التي حلت بمن سبقهم من المعانـدين؟ ثـم توجـه الخطـاب لرسـول الله ليقول لهم: ترقبوا مثل تلكم الأيام، فإني مترقب مثلكم مـا يقضـي بـه الله. علـى معنـى: إنكم تترقبون حلول العذاب بكم، وأنا أترقب التأييد من الله.

وتصرح الآية بأن حلـول العقـاب بهـم ونـزول العـذاب علـيهم، يقصـره الله علـيهم وينفردون بخزيه؛ ويتولى الله إنجاء الرسل والمـؤمنين كقاعـدة سـبقت وتسـتمر، إن مـا أوجبه الله على نفسه أنه يحفظ المـؤمنين مـن مواقـع الإذلال والعـذاب والمهانـة التـي يسلطها على الكافرين.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

يمسك : يصبك.

الضر : كل ما يكره الإنسان حصوله لنفسه أو لمن يحب.

بيان المعنى الإجمالي

أمر لرسوله أن يعلم كل إنسان وجد عند نزول الآيـة أو سـيأتي مـن بعـد، يعلمـه بأنـه إن كان قد احتواه الشك في ديـن الإسـلام، فـإني رافـض لمـا تعبـدون مـن دون الله، سواء أكان صنما أو هوى. ولكني أفرد الله بالعبـادة الـذي يتصـرف فـيكم فيميـتكم فـي الوقت الذي حدده لوفاتكم. وإني مأمور بأن أكون في موكب المؤمنين.

كما أمرت أن أخلص جميع كياني للدين، منصـرفا عـن كـل التصـورات المخالفـة لمـا قرره، وأن أبتعد عن مجموعة المشركين بالله، فكل صلة بهم مقطوعة.

هذا الإخلاص في التوحيد يقتضي مني أن لا أسـتعين بالعـاجزين عـن نفعـي كعجـزهم عن الإضرار بي، فأنا لا أتقرب ولا أتوسل إلـيهم، لأن مـن يفعـل هـذا ويـربط آمالـه بغير الله يكون ظالما لنفسـه، إذ علـق التحصـيل علـى النفـع أو دفـع الضـر بمـن لا يستطيع عونه ولا التأثير في الواقع.

إنه إن يصبك الله المتصرف وحده في الكـون، بمـا يضـرك فـلا تسـتطيع أي قـوة أن ترد قضاءه، وإن تعلقت إرادته بأن يمنحك مـا ترغـب فيـه مـن الخيـر، فـإن فضـله سيأتيك ولا تستطيع أي قوة رده. إن فضله يُمكِّـن منـه مـن يشـاء مـن عبـاده، وهـو فضل منه، يتجاوز ربنا عن تقصيرنا وقصورنا، لأنه هو الغفور الرحيم.

قل للناس جميعا مقالا يتردد ما بقي الزمن: لقـد بلغكـم القـرآن وشـرع الله، فمـن أخـذ بما جاءه، وأذعن له، فإنما نفع نفسه لما يرجوه مـن رحمـة الله، والوقايـة مـن عذابـه. ومن حاد عن طريق الحق، فكفر بالله ورفض شريعته فإنمـا أوقـع الضـر علـى نفسـه. وإني مبلغ عن ربي وقد بلغت، ولست ملزما أحدا بما بلغته قهرا.

و بعد هذا: واصـل اتبـاع الطريـق المسـتقيم الـذي أنـت عليـه، واصـبر علـى أذى المشركين، حتى يحكم الله بينـك وبيـنهم بنصـرك علـيهم وظهـور الإسـلام. والله هـو الحاكم القوي الذي لا يرد حكمه ولا يجور فيه.

بيان المعنى العام :

104-قل يا أيها الناس...من المؤمنين.

أمر من الله لرسوله أن يقول لمن لم يبلغ درجـة اليقـين مـن صـدق مـا أتـى بـه: إن كنتم لم تطمئنوا إلى أحقية ما أتيت به من ديني الذي أنا واثـق مـن كونـه مـن عنـد الله، برأني الله من الشك فيه، وقد خالط قلبي ومشـاعري حتـى صـار جـزءا منـي. فلـذلك نسبه القرآن لنفس محمد (ديني). وإذا كان الشك ينخـر عقـولكم، فـإني علـى يقـين مـن صدق ما أتيت به، وأن ما تدينون بـه باطـل فاسـد وغيـر صـادق، فأنـا لا أتبعـه ولا أعبد ما تعبـدون. ولكنـي أعبـد الله الواحـد الأحـد الـذي يتصـرف فـيكم تصـرفا لا تستطيعون الانفلات منه. فهو الذي يميـتكم فـي اللحظـة التـي قـدر أن يتوفـاكم فيهـا. ومن حكمة القرآن أن اختار للتدليل على تفـرد الله بالتصـرف تقـديره وتنفيـذ مـا قـدره في أجل كل نفس؛ فإن الحياة أقرب ما يملكـه الإنسـان ظـاهرا، فالتنصـيص علـى أنـه واهم غير مالك لها في الحقيقة، لأن الله يقبضها إليـه متـى شـاء، لأظهـر دليـل علـى

فساد معتقداتهم. والعقيدة الواضحة الصحيحة: هي ما أمرني به ربي أن أكون سائرا في موكب الإيمان المهتدي في الكون.

105 ←106: وأن أقم وجهك...من الظالمين.

و أمرت بتخصيص عقلي ومشاعري ومداركي للتمسك بالدين الإسلامي المتفرد بمنهجه وغايته عن غيره، وأن أجعله وجهتي الوحيدة، في العقيدة والسلوك، فلا أتبع في قليل أو كثير غير ما جاء فيه. ولتحقيق هذا المعنى عطف عليه النهي المؤكد عن اتباع الشرك وجماعته.

ثم إن كل إنسان يشعر بضعفه عندما يريد تحصيل المرغوب فيه ويخشى أن يفوته، أو يخشى ضرا يصيبه ولا يستطيع أن يكون لنفسه مناعة منه، فتجده يطلب من يسعده بالعون، فيتوجه بالدعاء للقوة القادرة التي بيدها ذلك. ولا يوجد من يملك الأمر كله إلا الله . فَلاَ تَدْعُ أحدا غيره لعونك على الفوز بما ترغب فيه، أو لحمايتك مما تخشاه. إنك إن استعنت بغيره تكون فردا من القوم الظالمين السائرين في عماية من الذين ظلموا أنفسهم فخرجوا بها عن الطريق المبلغ للمقصود إلى الطريق المسدود في نفق مظلم لا نور فيه.

و مما يحقق ذلك أنك إذا أصبت بضر في نفسك أو في مالك أو فيما يحزنك ضره، فإنه لا يكشف ذلك ويزيله إلا الله. وفي المقابل إذا أراد الله لك الخير مما ترغب فيه لنفسك أو لمن تحبه.

وفي هذه الآية تحذير شديد من الاستعانة بغير الله، فإنه إذا فرض كما يفرض المحال أن الرسول ﷺ على جلالته قدره عند ربه، فعل ذلك يكون من الظالمين.

107-وإن يمسسك الله بضر...الغفور الرحيم.

ومما يحقق ما ورد في الآية السابقة أنك إذا أصبت بما تكره في نفسك أو في مالك أو فيما يحزنك ضره، فإنه لا يكشف ذلك ويزيله إلا الله. وفي المقابل إذا أراد الله لك الخير مما ترغب فيه لنفسك أو لمن تحبه له، فإنه لا تستطيع أي قوة أن تحجب عنك ما أراده الله لك منه. فإذا تعلقت الإرادة الإلهية بإنجاز أمر في الوجود عجزت كل القدرات أن تعطل ما تعلقت به الإرادة قبل حصوله فضلا عن تعطيله بعد. إنه لا راد للخير الذي يحصل لك والذي هو من فضله وليس كفاء لعملك. هذا الفضل الذي يمكن منه من يشاء تبعا لحكمته. وربنا سبحانه لا يحاسب الناس على تقصيرهم، فيحرمهم فضله ولكنه غفور رحيم، رحمته وسعت كل شيء ومنها ذنوب

المـذنبين وتقصـير المقصـرين. فهـو راحمهـم وإن تفاوتـت مـراتبهم فـي الكمـال، ماداموا لم يشركوا به ولم يبدلوا شريعته.

108-قل يا أيها الناس ...وما أنا عليكم بوكيل .

تكرر الأمر بكلمة (قـل) أربعـا وعشـرين مـرة فـي هـذه السـورة، وختمـت بهـذا الإعلان المفتتح بها. فكانت جامعة في عميق مدلولها كـل مـا جـاء مـن بيـان ومحاجـة ودعوة، وكانت وجهة للناس جميعا مضمونها: أن الله الـرؤوف بكـم الـذي يبغـي لكـم الهدى والرشاد (ربكم) قد اعتنى بكـم فـبلغكم عـن طريـق رسـوله، الحـقّ الـذي لا يشوبه باطل، فأخرجكم به مـن الحيـرة والضـلال. ثـم إنكـم مختـارون لا مجبـرون، فمن أعمل عقله ونظره ووصل إلى الالتزام بمـا جـاءه مـن ربـه، فـإن اهتـداءه ومـا يترتب عليه من خير في الحاضر والمآل هـو غـنم لنفسـه، بمعنـى أن عليـه أن يحمـد الله على مـا هـداه؛ وتعـالى الله أن يعـود لـه نفـع مـن إيمـان المـؤمنين وصـلاح الصالحين. كما أنه في المقابل، من ضل الطريق فكفـر بـالله ورفـض مـا جـاءه علـى لسان رسوله، فإن جريرة ضلاله لا تقع إلا علـى نفسـه. إنـه بعنـاده وإعراضـه أهلـك نفسه في الحاضر والمآل، ولن يضـر كفـره النبـي ﷺ. وقـل لهـم إنـي لسـت مـوكلا بهدايتكم ولا أتحمل ضلالكم.

109- واتبع ما يوحى...وهو خير الحاكمين.

إنك على الهدى الكامل، وعلى الصراط المستقيم المأمون عاقبتـه. هـو طريـق بينـه لـك ربك بما أوحاه إليك، فاتَّبِعْهُ وواصلْ مسـيرتك فـي الحيـاة عليـه مـع الوثـوق الكامـل والطمأنينة التامـة، واصـبر علـى أذى المشـركين والمعانـدين ولا تضـجر إن تـأخر النصر، وثابر على ذلك حتى يحكـم الله بينـك وبـين الكـافرين بحكمـه العـادل، فهـو ناصرك، والله في عظمته لا يـرد حكمـه. فهـو الحـاكم الكامـل، وكـل حـاكم سـواه ناقص، فهو بذلك سبحانه خير الحاكمين.

2011/06/05

سـورة هـود

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وقد تكرر ذكر اسم سيدنا هود فيها خمس مرات. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. رتبتها الثانية والخمسون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وهي السورة الحادية عشرة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

أحكمت : الإحكام الإتقان.

الاستغفار : طلب المغفرة والصفح عن الذنوب.

التوبة : الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العود.

يمتعكم : يمكنكم مما تنتفعون به وتجدون فيه متعة.

متاعا حسنا : حياة طيبة.

الفضل : الأول: العمل الصالح، والثاني فضله، ثوابه في الآخرة.

الاستخفاء : الاختفاء البليغ.

الاستغشاء : التستر .

ذات الصدور : ما استقر في عقولهم.

الدابة : ما يتحرك من الحيوانات الأرضية.

الرزق : ما به قوام حياة الدواب.

بيان المعنى الإجمالي :

ينوه الله في فاتحة السورة بالقرآن، أخبر عن آياته، بأنها محكمة بلغت الغاية من الدقة، وأنها بينة واضحة لا يدخلها التردد. الذي أنزلها هو الموصوف بالحكمة، فلا بد أن يكون كلامه حكيما، وهو الذي بلغ علمه دقائق الأمور فلا تكون آيات كتابه إلا مستوفية للمعاني المقصودة بوضوح.

أفردوا الله بالعبادة، تفضل بإرسالي إليكم أُبَشِّر المؤمنين وأنذر المعاندين ليقلعوا. فاطلبوا من ربكم المغفرة لما سلف منكم من كفر ولتكن توبتكم تامة بإقلاعكم عما كنتم عليه، عازمين على عدم العودة إليه. إنه بذلك يمكِّنكُم ربكم من حياة آمنة طيبة، ويوفر لكم يوم القيامة من فضله ما تنعمون به في آخرتكم. واحذروا؛ إنه إن أعرضتم فإني أخاف عليكم أن يسلط الله عليكم عذابه في يوم كبيرٌ عقابُه. واعلموا أنكم لا تفلتون من العودة إلى ربكم فالله قدير على كل شيء.

من غباء الكافرين أنهم يظنون أن الله لا يعلم ما يجري في عقولهم إذا هم انثنوا فأخفوا صدورهم. لينتبهوا أنه سبحانه يعلم كل ما يعلنونه وما يظهرونه، وإن غلفوا أنفسهم بثيابهم، فإن الله عليم بما تكنه العقول ما جهرت به أو ما أخفته.

إن علم الله الواسع وقدرته العظيمة، لا يخرج عنهما أمر البشر ولا أمر الدواب، فكل ما يتحرك في الأرض يمكنه الله من رزقه، يعلم المكان الذي هو فيه، ويعلم تكاثره، فيوفر له في كل حال ما يبقي على استمرار الأنواع. وكل ذلك مسطور في علمه لا يتبدل، شأنَ الأمور الموثقة بالكتابة.

بيان المعنى العام :

1 -ألر كتاب أحكمت آيته ....من لدن حكيم خبير.

ما ذكرنا في فاتحة سورة البقرة وفي السور المفتتحة بحروف غير متواصلة يجري فيما افتتحت به هذه السورة (ألر).

والكتاب هو القرآن، أخبر الله عنه بأنه قد أحكمت آياته؛ أي إن آيات القرآن بلغت الغاية في الإتقان، سواء من ناحية المضمون لا يخطئها الصدق والمطابقة للحق والواقع، أو من ناحية الصياغة، لكل كلمة فيها وقعُها الخاص، لا تقبل غير ما نطقت به إلا على ضرب من النقص في البيان. وفوق ذلك تناولت بالتفصيل الموضّح ما ينفي الإبهام وحيرة المخاطب لفهم المقصود منها.

إن ما اختص به القرآن، لا غرابة في أن يكون على هذه الحال، لأنه صادر من نبع الحكمة، إذ هو كلام الله الحكيم، ولا يصدر عن الحكيم كلام إلا وهو موصوف بالحكمة. وهو العليم بخفايا الأمور لا يغيب عن علمه شيء، فلذا كان كلامه مفصلا كاشفا عن المقصود بلا التواء ولا تعمية.

2-ألاتعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير.

وجماع الإحكام والتفصيل يرجع إلى القاعدة الأساسية التي بُنِيَ عليها الدين. وهي إخلاص العبادة لله .بإيجاب عبادة الله وحده والنهي عن عبادة غيره. والإخلاصُ في العبادة ليس متروكا للإنسان يطبقه حسب تصوره وإلهامه، ولكنه هو المنهج الذي جاء به رسوله، يبشر المستقيمين على الطريقة التي بينها برضوان من الله بما يتبعه من الفوز في الدنيا والآخرة، وينذر المعرضين عنه بما يترصد هم من سخط الله وعذابه .

3-وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه...فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير.

من التفصيل في آيات القرآن، ما ورد في هذه الآية: وهو أمره للبشر أن يطلبوا من الله مغفرة ما سلف منهم من الكفر قبل إسلامهم. وأن يقرنوا بين طلب المغفرة والتوبة بالندم على ما فات منهم، على معنى أن تستيقظ في بواطنهم نوازع الخير فيجدون اشمئزازا مما فرط منهم من كفر أو من ذنب.

إن طريق التوبة والاستغفار يتبعه قبول الله لعبده المستغفِر التائبِ، فينعم عليه بأن يمكنه مما يجد فيه متعة في حياته الدنيا، تتواصل ولا تنقطع إلى أن يبلغ الأجل الذي قدر له في الحياة. وإنها لمتعة خالصة من المكدرات، فتكون الحياة الدنيا للتائبين المستغفرين حياة طيبة. كما أنه سيمكن كل من عمل صالحا، وهو صاحب الفضل، من فضل الله وهو الجزاء الأخروي.

وفي المقابل فأخبرُهُم أنهم إن أعرضوا ولم يؤمنوا، بأنك تخاف عليهم أن يسلط الله عليهم عذابا شديدا في يوم تكون النقمة فيه عظيمة، في الدنيا بتفريق كلمتهم وقهرهم بالقتل والتنكيل، وفي الآخرة بالعذاب الشديد. فكما كانت البشارة شاملة للدنيا والآخرة بالنسبة للمؤمنين، فكذلك الإنذار للمعرضين الكافرين.

4 -إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير.

إنكم لا تنفلتون من قبضة الله وتصرفه فيكم، سواء في حياتكم الدنيا أو بعد موتكم أمركم بيده. وتأكدوا أنكم لا تستطيعون حماية أنفسكم لا بشفيع ولا بقوة لأنه سبحانه هو القادر، العظيمةُ قدرته على كل شيء .

5 – ألا إنهم يثنون صدورهم ...بذات الصدور.

هذه الآية تفضح غباء الكافرين، فتعرض تصورهم الساذج: إنهم يثنون قامتهم فتختفي صدورهم وهم ينثنون، ظنا منهم أنهم أخفوا على الله ما يجري فيها من الكفر والشر. وهم يظنون أيضا أنهم إن استتروا بثيابهم فتغطوا بها إلى رؤوسهم أن الله لا يعلم ما يفعلون وما يمكرون.

وتبين الآية ضلالهم وسخافتهم، لأن الله يستوي علمه بما يعلنونه وما يخفونه. وتؤكد الآية الحقيقة التالية: إن الله عليم بما احتوته العقول وما استقر فيها من أمور، وإذا كان الله يبلغ علمه التفصيلي لما تخفيه عقولهم مما لم تتحدث به ألسنتهم، فمن باب أول وأحرى أن لا يخفى عنه ما يعملون.

6- وما من دابة إلا على الله رزقها...في كتاب مبين.

مظهر من مظاهر عظيم قدرته وواسع علمه وتصرفه أثبتته هذه الآية: ذلك أن علم الله وقدرته يتعلقان بالدواب تعلقهما بالبشر.من ذلك أن كل دابة تسكن الأرض على سطحها أو في جوفها في اليابسة أو في الماء، تكفل الله برزقها فلا يضيعها، ويبدو ذلك في بقاء الأجناس وتوالدها، رغم تفاوت قواها وتعرض بعضها للافتراس من غيرها. إنه الرزق الذي أخبر أنه سيمكن منه كل نوع من أنواع الدواب. إنه يعلم مكانها التي هي فيه فيمكنها من الرزق المقدر لها. وهو يعلم وضعها قبل أن تتكاثر بمختلف أنواع التكاثر من الانقسام وغيره، فيحيطها برعايته ويمكنها من رزقها لتستمر سلسلة الحياة في الأنواع. كل ذلك لا يأتي عن طريق الصدفة، وإنما هو مرتب موثق في علم الله شأن ما هو مكتوب لا يزيد ولا ينقص.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

ليبلوكم: ليختبركم.

أمة معدودة: فترة قليلة.

يحبسه: يمنعه.

حاق: أحاط.

أذقنا: مكناه من إدراك الرحمة.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكّر القرآن بالقدرة العظيمة والإحكام لله في خلقه للسماوات والأرض في ستة أيام. وأضاف على ما سبق في الآيات الأخرى أن عرشه كان على الماء. وتصوُّرُ كيفية ذلك حسب مقاييس الحياة الدنيا وعقل الإنسان وحواسه الحادثة مضللٌ، فنؤمن بذلك ونكل الكيفية إلى الله سبحانه. إن حظ الإنسان من هذا الخلق العجيب أنه مختبر لتظهر استقامته وحسن عمله فيجازَى تبعا لذلك. وإذا نبهت الناس إلى أنهم سيبعثون بعد الموت للجزاء، لكان رد المعاندين إن عودة الحياة للإنسان بعد موته ضرب من السحر الواضح لا حقيقة له.

و الله يسلط عذابه على الكافرين في الأجل الذي حدده، فإذا تأخر عنهم العذاب بعد إنذارهم به، كان قولهم: ما الذي منع العذاب ؟ قل لهم: إن كل أمر هو مقدر عند الله ففي الزمن المحدد المقدر يأتيهم ولا منجَى لهم منه، سيحيط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه.

ومن طبع الإنسان أنه إذا شملته النعمة من الله، ثم صرفها عنه، يُطْبِقُ عليه اليأس ويستحوذ عليه الكفر برحمة الله. وإذا من عليه بالنعمة بعد الضر يفتخر بما تحقق، ويبالغ في الانغماس في اللذة ناسيا كل خير لنفسه كافرا بنعمة الله عليه. ولا يخلص من هذا الانحراف إلا الذين صبروا على النعمة وعلى الضر، ففي حال النعمة هم شاكرون، وفي حال الضر هم متضرعون آملون. إنهم في رعاية ربهم الذي وعدهم بالمغفرة إذا قصروا، وبالثواب غير المحدود.

بيان المعنى العام :

7 – وهو الذي خلق السماوات والأرض ...إن هذا إلا سحر مبين.

أكدت هذه الآية في الجزء الأول منها ما أثبته القرآن من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقد بسطنا القول في شرح هذا المضمون في الآية الرابعة والخمسين من سورة الأعراف. وأضافت أن عرشه كان على الماء. والذي نؤمن به أن اللغة تقصر عن التعبير عن الأمور الغيبية المتعلقة بالذات الإلهية، كما تقصر مداركنا عن تصور ذلك تصورا حقيقيا. ولذا فالأسلم في تناول هذه الآية وأمثالها الطريقة التالية:

نجزم بأن عرش الله لا نحده ولا نكيفه، وننفي عنه كل تصور بشري مجسم أو مجرد. ومقارنته بالعروش الدنيوية خطأ وضلال. أطلق القرآن عليه العرش فنثبته كما أثبته القرآن، ونَكِلُ المراد منه لله. إنه تجري فينا الروح فنثبتها لأنفسنا ولغيرنا، وننفيها عن الأموات. والروح التي به قوام وجودنا وإدراكنا، تسمو عن إدراكنا لكنهها. وعجزُنا عن إدراك كنهها لا ينفي وجودَها.

وكذلك كون هذا العرش على الماء، نؤمن بصدقه ومن السخافة أن نتصوره شيئا يطفو على سطح الماء. فالحق أن نثبت ما أثبته القرآن والله أعلم بمراده. ولا يضيرنا عجزُنا عن إدراكه حسب القدرات البشرية في الإدراك. والله يقول : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[1]

ليبلوكم ليختبركم بمعنى ليظهر في الواقع ما سبق في العلم، فيتبين المحسنون من غيرهم الأحسن عملا: الأحسن عملا عقليا بالتدبر في ذلكم الخلق العجيب؛ كما أشرنا إلى بعض ما يدل عليه في الآيتين [190/191] من سورة آل عمران.

والأحسن عملا في الاستخلاف في الأرض، حتى تكون عمارة الكون أتم وأكمل بالعمل الجاد المراعي للقيم الدينية والخلقية. والأحسن عملا في العلاقات الإنسانية حتى ترتقي الحياة الإنسانية بنشر الخير والفضيلة واجتثاث الشر والرذيلة. وفي هذه الميادين الثلاثة يتفاوت البشر. صلاحهم بمقدار استحضارهم ومراعاتهم للمآل الذي سيصيرون إليه يوم القيامة.

وهذا الملحظ هو الذي يعمل الكافرون على نسيانه وعلى إنكاره، فإنك إذا نبهتهم إلى أنهم سيبعثون من قبورهم للحساب والجزاء، يعبرون عن إنكارهم، بأن ما تهددهم به من عودة الأرواح إلى الأجسام، أمر لا حقيقة له، هو سحر واضح، تخييل لا أساس له.

---

[1] سورة الإسراء آية 85

8 -ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة...ما كانوا به يستهزئون.

وإذا هددتهم بالعذاب الذي سيتعرضون لـه بكفرهم، وتـأخر تسـلطه علـيهم وسـيأتيهم عند أجله المضبوط في علم الله ضبطا محسوبا، لقالوا بعنـادهم، لـو كنـت صـادقا فيمـا تهددنا به، لوقع علينا العذاب، على معنى أنك تهددنا بالعـذاب القريـب تبعـا لـرفض مـا جئت به، ولو كنت صادقا في تهديـدك لوقـع العـذاب، فعـدم وقوعـه ينبـئ بـأن مـا تدعيه غير صادق.

أجابهم القرآن بتأكيد أحقية المضـمون بتقـديم أداة الاسـتفتاح: ألا- وتقـديم الوقـت فـي أول الكلام (يوم) للدلالة على أن ما قدر لهم مـن العـذاب مضـبوط أجلـه تبعـا لحكمـة التقدير في هذا الوقت المحـدد مقـدما. وتـأخيره لا يترتـب عنـه انفلاتهـم منـه، فإنـه سيحيط بهم إحاطة لا مخرج لهـم منـه، وكـان إطباقـه علـيهم بسـبب اسـتهزائهم بمـا أخبرهم به الرسول من انتقام الله منهم.

9 -ولئن أذقنا الإنسان منا .....ليؤوس كفور.

تبرز هذه الآية طبيعة الإنسان إذا لـم تتهـذب بالتربيـة الدينيـة. فالإنسـان إذا مكنـه الله من الاستمتاع برحمة من رحماته في بدنه فعافاه، أو فـي مالـه فـوفره، أو فـيمن يحـب فأجرى عليه نعمته، واستمر هذا الفضـل إلـى الأجـل المقـدر لـه دون أن يشـعر بـأن حظه فيما أوتيه ليس كل شيء، وأن الذي يسَّر له ما يسـر هـو الله المالـك الحـق ؛فـإذا سلبه ما مكنه منه من نعم، أسرع إليه اليأس والتبـرم مـن وضـعه، ولا يصـدر منـه إلا ما ينبئ عن كفر بما سبق أن ناله من نعم، وإنكار لفضـل الله عليـه، فهـو منقطـع عـن الماضي، ومنقطع عن المستقبل غير آمـل، وهـي التعاسـة التـي يعـيش فيهـا الكفـرة الملحدون.

10←11: ولئن أذقناه نعماء...وأجر كبير.

وتلك الصورة للإنسان في حالتي النعمة والسلب بعـد العطـاء، يكمّلهـا القـرآن بصـورة أخرى كاشفة عن وضعه إذا أوصل الله إليه النعمة فاسـتمتع بهـا بعـد مـا أصـابه مـن ضر. هو في هذا الوضع أيضا كافر بنعمـة الله عليـه، يـدعي أن ذهـاب السـوء عنـه، وعودة الخير إليه، كان نتيجة لما أوتيه مـن ذكـاء وفطنـة وقـدرة علـى الخـروج مـن الأزمات والمغالق. فينغمس في الاستمتاع بما أُوتِيَهُ من اليسـر بعـد العسـر، ويبـالغ فـي الانتشاء بوضعه الجديد المساعد، ويفتخر بمكتسـباته، غيـر ذاكـر لنعمـة الله عليـه ولا مقدر لما يتحتم عليه من الشكر ومن الاستقامة.

إن هذه الطبيعة للإنسان التي صورها القرآن في الآيتين، في حالة يسره ثم عسره، وفي حالة يسره بعد عسره؛ صوره على أنه مُنْبَتٌّ عن الله غير سعيد السعادة الحقة في جميع أوضاعه ؛ فلذلك استثنى القرآن الذين صبروا الصبر الإيجابي، الذين إذا مستهم السراء لم تشغلهم عن صلتهم بربهم وبإخوانهم وبالكون كله؛ كما أنهم إذا مستهم البأساء لا تضعف ثقتهم في ربهم فهم آملون في رحمته وعونه. بشَّرتْهم الآية تبعا لهذه الصلة الرفيعة بينهم وبين الله بالوعد الكريم الجامع بين المغفرة لتقصيرهم، والثواب الكبير غير المحدود، إنه عطاء من وسعه ملكه السماوات والأرض.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

بيان معانى الألفاظ :

ضائق به صدرك : الغم والأسف.

الافتراء : الكذب المفضوح الذي لا شبهة للكاذب فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤيد القرآن النبي ﷺ في مواجهة إصرار المشركين وعنادهم، فيقول له: لا تحزن ولا تهتم ولا تأسف، وواصل الدعوة بجد دون أن تفتُر .نعم إن مقترحاتهم المتعنتة قد تترك في نفسك حرجا، إذ هم يطلبون مثلا أن ينزل عليك ذهب وفضة من السماء، أو أن يصحبك ملك يؤيدك. إن مقترحاتهم لو تحققت لخرجت بالإنسان من دائرة الاختيار والتكليف إلى دائرة الإلجاء على الخير، وما خلق الإنسان إلا ليختبر ويثاب أو يعاقب على اختياراته. فَدَوْرُكَ هو إنذارهم سوء العاقبة إن هم لم يؤمنوا . أما الذي بيده التحكم في البشر فهو الله الواحد الأحد.

ونوع آخر من العناد يتمثل في رميهم النبي ﷺ أنه افترى القرآن ولم يتلق الوحي به عن الله. ورد القرآن عليهم: إنكم فوارس البيان وأئمة الفصاحة، فقدموا كلاما يساوي القرآن في عشر سور من سوره، واستعينوا بمن شئتم من البشر ؛ فإذا تبين

عجزكم وهو فعلا ما استمر مع الأعصار، فقد قامت عليكم الحجة أنه منزل بعلم الله، وعليكم أن تعلنوا إسلامكم، فهل أنتم مسلمون بعد هذا التحدي ؟

بيان المعنى العام :

12-فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك...والله على كل شيء وكيل.

هذه الآية تصور إصرار مشركي مكة على رفض الدعوة الإسلامية، وعمق عنادهم، فجاءت الآية في صورة تحذير النبي ﷺ أن يبلغ به الأمر إلى اليأس من استجابتهم لدين الله فيترك تكرار عرض ما يوحى به إليه عليهم. إن هذا التوقع يقصد منه ما وراءه، وهو تقوية الرسول ﷺ على متابعة التبشير بالقرآن دون أن يفل في عزيمته إصرارهم على الرفض، أو استهزاؤهم به أو اقتراحهم تأييده بمعجزات على مقاييسهم. يقوّي القرآن عزيمته حتى لا يغتم ولا يأسف؛ وإن كانت مقترحاتهم وعروضهم عليه هابطة عن المستوى الذي طبعت عليه الدعوة الإسلامية. قالوا: لولا أنزل عليه من السماء كنز، يعنون ذهبا وفضة مما شأنه أن يخفى فلا يطلع عليه غير صاحبه الذي يدخره ويعمّي على مكانه. كما اقترحوا أن يصحبه ملك ينادي: هذا رسول الله صادق فيما يقوله. ويردُّ القرآن عليهم مقترحاتهم: بأن مهمة محمد أن ينذرهم حلول العذاب بهم إن هم لم يتبعوا هداية الله التي يبلغها لهم. والإنذار غير الإلجاء والقهر ولكنه تعريف الإنسان بالعاقبة التي يختارها بعقله ومواهبه. وما اقترحوه ينفي الاختيار الذي هو مناط الثواب والعقاب. وأن المتفرد بالقدرة التامة والتصرف في المخلوقات هو الله، فهو الوكيل على البشر قادر على أن يصرفهم للخير بإحاطتهم بالمساعدات، أو أن يصرفهم عنه إلى الشر بحجبه العون وترك الإنسان لنفسه.

13←14: أم يقولون افتراه ...فهل أنتم مسلمون.

وصورة أخرى من عنادهم: أنهم يواجهون الحق الذي لا يستطيعون رفضه بالمنطق السليم، فيرمونك بالافتراء ونسبة القرآن إلى الله مع أنه من عندك. ويتولى القرآن تلقين الرسول ما يهدّم به مواجهتهم: إذا كان هذا القرآن مما يمكن أن يفترى فإني أتحداكم أن تأتوا بعشر سور مماثلة للقرآن في بيانه ومضامينه. ثم يبالغ في تحديهم أن لهم أن يستعينوا بمن شاؤوا من البشر، ولهم أن يؤلفوا فريقا من أصحاب الاختصاصات المختلفة لتحقيق ذلك.

وهذا التحدي للمنكرين أن القرآن من عند الله، قد تكرر في القرآن، فقد وقع تحديهم بأن يأتوا بسورة مِثْلِهِ كما هو نص سورة البقرة وسورة يونس، أو بعشر سوركما هو في هذه السورة،

أو بالقرآن كله كما في سورة الطور. وما استطاعوا ولن يستطيعوا. وفصل القرطبي رحمه وجوه إعجاز القرآن التي تحدى بها المشركين في مقدمة تفسيره ص78/73 فأجاد. ثم أعلن القرآن أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، لا في سورة ولا في عشر سور ولا بما يساوي جميعه، ويقوم عجزهم مع أنهم معروفون بالإجادة في القول، والقدرة على حسن النظم، وجمال الأسلوب والتوفيق في البيان. فإذا كان هذا معلوما عنهم وعجزوا واستمر عجزهم، فإن ذلك يقوم مناديا بأنه منزّل من معين العلم الإلهي الفائق للقدرات البشرية. وأن الله واحد لا شريك له، وكلامه واحد لا يتأتى لأي فرد ولا جماعة من البشر النسج على منواله بما يساويه.

وإذ تبين العجز بعد التحدي ناداهم القرآن: ارتفع عذركم وموجبات الشك في صدقه، وما بقيت لكم أي تعلة، فهل أنتم مسلمون؟

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

التوفية : إعطاء الشيء كاملا غير منقوص.

لا يبخسون : لا يظلمون بالتنقيص من حظوظهم.

الحبط: البطلان والانعدام، وحرمان الثواب .

صنعوا : عملوا.

الباطل : ما يذهب ضياعا وخسرانا.

البينة : الحجة الواضحة.

الأحزاب : جمع حزب، القوم الذين يجمعهم تصور واحد.

موعده: مصيره .

المرية : الشك.

بيان المعنى الإجمالي :

منهجان في هذه الحياة الدنيا لا ثالث لهما: منهج المؤمنين الذين تعلقوا بهداية ربهم وأملوا في رضاه فهم يزنون أعمالهم بميزان الشرع. ومنهج الذين انحصر همهم في

اغتنام متاع الحياة الدنيا ومباهجها والتعلق بزينتها. وهذا القسم الثاني مع ضلالهم لا يحرمهم الله من الحظوظ الدنيوية التي عملوا على تحصيلها، ولا يَنْقُصُهم شيء منها بسب كفرهم. ولكن مآلهم في الآخرة العذاب المهين في النار، ولا يجدون أي ثواب عن أعمالهم الحسنة، لأنها انهارت آثارها بانقطاعها عن الله. وخلاصة الأمر تتضح بهذه المقارنة؛ بين من كان متمكنا من هدي ربه، متأيدا بالقرآن الذي يشهد لذلكم الهدي وهو منه، كما يشهد له من قبل القرآن التوراة كتاب موسى الجامع بين كونه مرجعا كما أوصى به عيسى عليه السلام، وكونه رحمة بما تضمنه من صحيح العقيدة وقَيِّم التشريع، وبين من ضل وأعرض عنها. ونهى البشر جميعا نهيا مؤكدا عن الشك في صدق القرآن. بكل تأكيد هو الحق من عند الحق نزل بالحق، ولكن أكثر الناس رغم نور الحق المتلبس به اتبعوا شهواتهم وأعرضوا عن الإيمان به.

بيان المعنى العام :

15 -من كان يريد الحياة وزيتنها ....لا يبخسون.

تؤكد هذه الآية مبدأ الاختيار الذي خلق الله عليه الإنسان وجعله به مكلفا. فهو سبحانه لا يلجئه، ولكن يمكنه من الاختيار في حياته الدنيا ليسلك الطريق الذي ينتهي به إما إلى السعادة، وإما إلى الشقاء. فمن كان همه ما تُقَدِّمه له الحياة الدنيا مما يشبع غرائزه ويلبي شهواته، وتأخذه مسحة جمالها فيحتضنها وتحتضنه، ويوغل في العَبِّ من المتعة، دون أن يعكر عليه صفو ذلك مراعاة الحدود التي حددها له الخالق أو تذكره، فإن الله لا يجازيه في الدنيا بحرمانه مما سعى إليه وسلك إليه السبيل الموصل؛ وإن فاته شيء من ذلك فمرده إلى عدم توفقه في اختياراته لتحقيق ما يسعى إليه. فأكدت الآية أن الله لا يحول بينه وبين شهواته من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يختلط بتمتعهم تكاليف الإيمان، فإن تلكم التكاليف واستحضار المحاسبة ينقص من استمتاعهم بما يقترفونه من آثام.

والآية تشير من ناحية ثانية إلى من يعمل عملا حسن في ظاهره لا يصحبه منه القصد الصالح والامتثال إلى الله، فهو وإن كانت له قيمة دنيوية، إلا أنه والحالة تلك لا يرقى ليكون عملا صالحا مجزيا عنه من الله، إذ أن فاعله لم يقصد بعمله وجه الله، وقطعه عن مفيض العون؛ فلا يرجو أن يناله جزاء منه.

16- أولئك الذين ليس لهم....وباطل ما كانوا يعملون.

أولئك : الذين وصفوا في الآية السابقة بالإقبال على متع الحياة صالحها وطالحها دون مراعاة أعمالهم لما قرره ربهم من أحكام، لا ينتظرون بعد ما نعموا بجزائهم في الدنيا، لا

ينتظرون إلا شيئا واحدا، وهو أن يعذبوا بالنار؛ ولا يجدون في مدخراتهم شيئا من الأعمال التي فيها جانب من الخير، لأنها قد بطلت فلا ثواب لها، لما انفصلت عن الله، ولم يقصد أصحابها جزاء منه. فمن العدل أن يحرموا الجزاء الصالح.

17-أفمن كان على بينة من ربه ....ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

هذه الآية تتضمن معادلة ذُكِر أحد طرفيها ويقدر الآخر. فيكون المعنى: أفمن كان على بينة من ربه.....كمن ضل عنها فكفر باللهو برسوله.

و بعدُ فإن هذه الآية قد كثرت فيها الضمائر واختلفت معاداتها مما تبعه إشكال في تدقيق المراد منها، وقد أحس بذلك معظم المفسرين، واختلفوا تبعا لذلك في ضبط المراد من تفاصيلها. والذي فهمته منها والله أعلم.

افتتحت الآية بهمزة استفهام سبقت الفاء لكونها مستحقة للتصدير في الكلام (أ) مع أن الآية معطوفة على ما سبق من مجادلة الكافرين، واعتراضاتهم وتحدي القرآن إياهم. فقابلت الصورة السابقة من الكفر والعناد، بهذه الصورة الوضيئة، صورة من التزم التزما قويا وتمكن من البينة التي جاءته من ربه، والبينة هي الهداية التي جاء بها محمد ﷺ. والتعبير بها هو نظير قوله تعالى (**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة**)[1]

المقطع الأول: (**أفمن كان على بينة من ربه**) أفاد أنهم كانوا متمكنين من الهداية الربانية التي وصلتهم من رسول الله ﷺ (**ويتلوه شاهد منه**) ويتبع الهدي المحمدي شاهد هو القرآن من نفس الهدي، ومُؤيّد بما نزل قبل القرآن على موسى عليه السلام، (**ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة**) وهي التوراة التي نزلت فيها البشارة بالنبي ﷺ ونوه القرآن بالتوراة بأنها مأمور بإتباعها فهي بذلك إمام، جعلها عيسى عليه السلام المرجع لأتباعه، ورحمة من الله لعباده بما بينته من تشريع هاد ومن تفصيل للعقيدة الحق.

أولئك ممن كان على دين اليهودية أو النصرانية أو المشركين من العرب، الذين يؤمنون بالقرآن، هم أهل للتنويه بهم وجعلهم في مقابل الرافضين.

و من يكفر بالقرآن من مختلف الفرق فجزاؤه: أن مصيره إلى النار. وهو ما يحتم اعتقاد كونه حقا منزلا من عند الله لم يدخله تحريف بنقص ولا بزيادة. وأيقظ المنزل لهم تبعا لذلك أن يبتعدوا عن الشك في مضامينه وعن الشك في كونه حقا

---

[1] سورة البينة آية 2/1

وصل إلى البشر محميا من كل تغيير عن الوجه الذي أنزله ملك الوحي جبريل عليه السلام على قلب محمد ﷺ. والقرآن هو الحق نزل من الحق سبحانه، بالحق الهادي للبشرية إلى الطريق المستقيم من عناية ربك بخلقه. ورغما عن ذلك فإن أكثر الناس يتمادون على كفرهم ولا يؤمنون، يتبعون شهواتهم، ويخشون إن دخلوا في الإيمان أن يفطرهم الالتزام الديني عنها، ويحولهم عن اتباع غرائزهم إلى الاستقامة في سلوكهم، وإلى المنهج العقلي في عقائدهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللعنة : الإبعاد.

يصدون : يمنعون.

سبيل الله : شريعته.

يبغونها: يطلبون لها.

عوجا : انحرافا يؤدي إلى الفساد.

معجزين : منفلتين فلا يقدر عليهم.

الأرض : الدنيا.

خسروا أنفسهم : لم ينتفعوا بها.

الضلال : تبعوا طريقا غير موصل، فلم يحصلوا على ما أمّلوه.

لا جرم :لا محالة، جزما مؤكدا.

الإخبات : الخضوع والتواضع.

مثل : حالة.

الفريق : الجماعة التي يخالف حالها حال جماعة أخرى.

بيان المعنى الإجمالي:

أقبح الظالمين من اختلق تصورات من عنده ونسبها إلى الله كذبا، كعبادة الأصنام وتحليل المحرم وتحريم الحلال. عاقبتُهم أنهم يوقفون أمام ربهم فيشهد عليهم ملائكته: أنهم هم الكاذبون على ربهم، ولعنة الله عليهم وعلى من كان على نهجهم من الظالمين. من ظلمهم أنهم يحولون بين الناس وبين الدخول في الإسلام، ويحبون أن يكون طريق الضلال غالبا، يكفرون بالآخرة فيقصرون تصورهم على أيام الدنيا. إن الله قادر على إنزال العذاب بهم في الدنيا عقابا لهم. لا يجدون من ينصرهم أو يشفع لهم إذا تعلقت إرادته سبحانه. سيكون عذابهم عذابا مضاعفا، لأنهم أصموا آذانهم عن الاستماع للوحي ولم ينظروا في ما تدل عليه مشاهد الكون من حكمة. فهم بما جمعوه من فساد قد خسروا خسارة أهلكت ذواتهم، ولم يجدوا ما توهموه نصيرا. إنها حقيقة ثابتة أنهم هم الأشد خسارة يوم القيامة .

وفي المقابل، فإن الذين آمنوا وعملوا حسب ما يقتضيه إيمانهم فطبقوا شرع الله وأخلصوا له، تميزوا بأنهم سيُخلَّدون في جنات النعيم. ثم ضرب القرآن مثلا يقرب به الحقائق التي بسطها، فقال إن مثل جماعة الكفر كمثل الأعمى الأصم يلفه الظلام وفقدان الإحساس بما حوله، ومثل فريق الإيمان كمثل السليم البصر السليم الحواس يتفاعل مع ما حوله ويدركه. فإذا كان الفريق الأول لا يدري مكانه ولا إلى أين يسير، فإنه على العكس من ذلك يتميز المؤمنون بوضوح الرؤية وإدراك منزلتهم في الكون. مالكم أيها الكافرون لا تتأملون ولا تتدبرون!

بيان المعنى العام :

18- ومن أظلم ممن افترى على الله...الا لعنة الله على الظالمين.

سؤال لا يستدعي جوابا افتتحت به الآية، إذ المقصود نفي تصور وجوده والباحث عنه يائس منه. فمعنى الآية: إنك لو بحثت عن ظَلَمَةٍ بلغوا من الظلم أقصاه، ما وجدت أشنع ظلما ممن بلغت بهم الجراءة أن نسبوا لله دينا زائفا، وتشريعا من خيالهم، كقولهم عن أصنامهم إنهم شفعاء، وكتحريمهم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله. وإذ تحقق فسادهم العظيم، فالجزاء الذي يستحقونه : أنه يتم إحضارهم أمام ربهم الذي توالت عليهم مننه وجحدوها. ولذا ناسب أن يبكّتُوا فيقوم الشهداء عليهم

من ملائكة الرحمن فيعلنون في الملأ: هؤلاء الظلمة الواقفون للحساب هم الذين بلغت بهم الوقاحة أن كذبوا على ربهم، فتحقق منهم الكفر عقيدة وعملا، ولا أشد ظلما من الكفر بآيات الله والافتراء عليه، لعنهم الله لعنة مجلجلة بسبب ظلمهم .

19- الذين يصدون عن سبيل الله ...هم كافرون.

فضحت الآية صورة من ظلمهم: إنهم كانوا يقفون حاجزا مانعين الناس من الاهتداء إلى الطريق السالك الآمن الذي بينه الله على لسان رسوله، بل تجاوزوا منع الناس من الاهتداء، ففسدت نفوسهم حتى أصبح العمل على انحرافهم عن الطريق المستقيم طريق الحق (ويبغونها عوجا) مقصدا أساسيا لهم. وتجذَّر في أعماقهم الكفر بيوم القيامة.

20- أولئك لم يكونوا معجزين...و ماكانوا يبصرون.

إن تأجيل حسابهم إلى يوم القيامة لا يُحْمَلُ على أن لهم قوة تمنعهم من تسليط المهانة والعذاب عليهم في الدنيا، فالله لا يعجزه شيء ولا يحول بينه وبين تنفيذ مراده معوّق. فلا مكان يحميهم يلجؤون إليه ولا قوة يستندون إليها تقيهم من عذابه. فما اتخذوه من الأصنام على أنها أولياء يستندون إليها ويتقربون، لا يحصل لهم منه أي نفع.

ثم أعلنت الآية عما يحل بهم يوم القيامة: أنهم يعذبون عذابا يتضاعف في شدته وفي أثره جسميا ونفسيا. كما أعلنت عن تعمُّدهم الضلال وقوَّة عنادهم. فهم وإن مكنهم الله من حاسة السمع التي تنقل إلى أدمغتهم آيات القرآن ومواعظ الرسول ﷺ، إلا أن عنادهم قوَّى إرادتهم في الانصراف عن الوحي، فتعطل سماعهم له بالإعراض عنه والاشتغال بغيره. كما أنهم لم يتأملوا فيما تنقله لهم أبصارهم من آيات الله في الكون التي تنادي بتفرد الله بالخلق والتدبير. فكأن تلكم المشاهد العجيبة لا تنقلها أبصارهم، فهم يستوون مع العُمْيِ .

21←22: أولئك الذين خسروا... أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

أبرزهم ليلقي عليهم الحكم غير مختلطين بغيرهم (أولئك) إنهم خسروا أعظم خسارة، خسروا أنفسهم، فَشَلُهُم أشد أنواع الفشل، فالتاجر يرجو من تجارته ربحا فإذا فاته الربح فقد خسر، وهؤلاء الكفرة الذين حددت ملامحهم الآيات السابقة، خسروا أنفسهم فأردوها في المهانة والعذاب، كما أنهم لم يجدوا ما كانوا يأملونه من أصنامهم فذهبت آمالهم فيها ضياعا.

إنه من المؤكد أبلغ تأكيد، أن خسارتهم كانت أعظم خسارة، يوم القيامة، إذ يواجهون العذاب، وقد تحولت أعمالهم التي فيها ظواهر من الحسن إلى هباء، وآلهتهم التي يعتزون بها إلى ذلة وصغار، ولا يجدون ملجأ يلجؤون إليه ولا قوة تشفع لهم فتخفف عنهم مما قدر لهم من العذاب في جهنم.

23-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات....فيها خالدون.

بعد أن توسع القرآن في تتبع ملامح المعاندين وجزائهم، ذكر مقابلهم، وهم الذين تحقق منهم صفاء العقيدة وقوتها، وضموا إليها صلاح أعمالهم بمطابقتها للضوابط والأحكام الشرعية المنزلة، وبمصاحبتها للقصد الصالح الذي سما إلى حالة الخضوع والطاعة لربهم. فتميزوا بأنهم الملازمون للجنة، الذين لا يفارقونها، وهم خالدون فيها أبدا.

24-مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير و السميع...أفلا تذكرون.

بعد أن استوفت الآيات السابقة خصائص الكفرة وعاقبتهم، وخصائص المؤمنين وعاقبتهم، انثنت بتقريب تمايز أحوال الفريقين بضرب مثل مجسم لما تضمنته.

إن مثل الكافرين: مثل الذين يسيرون في الحياة وقد فقدوا حاسة البصر فهم لا يعرفون الطريق المبلغ، تستوي عندهم الضلالة والهدى، والخطأ والصواب، إذ المسالك يغشيها الظلام، وهم مع ذلك صم لا يسمعون فلا يهتدون بالأصوات التي يمكن أن تدعوهم للتحول عن الطريق الذي يسيرون فيه. فلا مشاهد الكون تهديهم لمعرفة طريق الله، ولا الوحي المنزل يقرع أسماعهم ليوقظهم إلى ما هم عليه من ضلال.

وفي المقابل فمثل المؤمنين مثل الذين سلمت أبصارهم فنقلت لهم من مشاهد الكون وعجائب الخلق، والجزئيات الصغيرة والكليات الحاوية العظيمة، ما يوقفهم على القدرة المبدعة للخلاق العظيم فتعمّق إيمانهم واطمأنوا. ومع ذلك سلمت أسماعهم فبلغت إلى عقولهم كلمات الوحي الهادي والمعجز . فاقتنعوا بصدقه وسلكوا ما أمرهم به.

هما صورتان يبعد كل البعد أن تكون إحداهما مساوية للأخرى. صورة الكفر بظلامه وفقدان الحس، وصورة الإيمان البصير المتفتح على مشاهد الكون وآيات الصدق. ثم تهزهم الآية هزًّا عنيفا ليتذكروا ما في هذا المثل من الصدق، ومن التجسيم للحق.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا

بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النذير : الموقظ من الغفلة التي يتبعها شر.

الملأ: سادة القوم .

الأراذل : جمع أرذل، وهم سفلة الناس.

بادي الرأي : في ظاهر الرأي.

فضل: قدر زائد من الكمال.

البينة : الحجة الواضحة.

الرحمة : نعمة النبوة.

الطرد : الإبعاد عن مكان الحضور تحقيرا، أو زجرا.

الخزائن : جمع خزانة وهو ما يحفظ في المال ويقفل عليه بباب.

الازدراء : الاحتقار.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا نوحا إلى قومه فأعلمهم: أنه يحذرهم ببيان لا غموض فيه، يحذرهم من الشرك وأن يخلصوا لله في العبادة، وأنه يود لهم الخير ويخشى أن يعاجلهم الله بالعذاب إذا هم لم يقلعوا عن الإشراك بالله.

تقدم له الكافرون من قومه معلنين أعراضهم عما جاء به، معتلين بأنه في نظرهم لا يعدو أن يكون بشرا مثلهم، والبشر لا يصلح لتحمل الرسالة. وأن الذين اتبعوه لا وزن لهم في المجتمع، فهم في نظرهم من السفلة، وقد انتفى أن يكون لك فضل أو لمن اتبعك، حتى تكون أهلا لاتباعك؛ والخلاصة أنا لا نصدقكم ونجزم بأنكم كاذبون.

أجابهم سيدنا نوح: ما ذا ترون من فائدة لاعتراضكم ؟ فإني واثق الوثوق كله أني متمكن من الحجة البينة التي جاءتني من ربي، وأنه أكرمني بالنبوة الرحمة التي عمرت فكري وقلبي، وأنه لا ينقص من قيمتها خفاؤها عليكم. وإننا لا نقهركم على اتباعها مع كراهتكم لها. وإني لا أكلفكم يا قومي أن تدفعوا لي مالا على هدايتي لكم، إن أجري تكفل به الله الذي أرسلني .وما عرضتموه من طرد المؤمنين برسالتي مرفوض، إذ أنهم قوم قويت صلتهم بربهم وأنهم سيعودون إليه وينصفهم ممن يظلمهم. ولكن الذي سوغ لكم مثل هذا الطلب هو جهلكم بكونهم على الحق. انتبهوا فإنني لا أجد من ينصرني بين يدي ربي لو طردتهم وهم على الحق؛ مالكم لا تنتبهون إلى العواقب !

ومن ناحية أخرى فإني واضح في رسالتي لا أدعي ما ليس بحق: فلا أقول لكم إني أتحكم فيما عند الله من خزائن ملكه الذي يتصرف فيها وحده حسب حكمته، وكذلك لا أعلم إلا ما علمني ربي، فلا أخبركم إلا بالحق الثابت، وكذلك لا أقول للمؤمنين الذين تحتقرونهم أن جزاءهم سيكون حرمانا لهم من الخيرات حسبما ما تقدرونه بضلالكم. إن الذي يتولى جزاءهم هو ربهم وهو العليم بما تنطوي عليهم نفوسهم. ولو تجاوزت حدودي فإني أكون من القوم الظالمين، وقد طهر ربي أخلاقي من الظلم.

بيان المعنى العام :

25←26: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه....عذاب يوم أليم.

من القصص اليقينية وإن تباعد زمنها قصة سيدنا نوح مع قومه التي أكد القرآن أنه أرسل نوحا إلى قومه. فلنتابع هذه القصة.

المشهد الأول: يخاطب نوح قومه مقدما لهم محتوى رسالته والحامل له على متابعة تبليغها رغم العراقيل المثبطة. فقال: إن مهمتي أن أحذركم ببيان واضح بعيد عن الاحتمال والشبه. خصوا ربكم بالعبادة ولا تعبدوا أحدا غيره واطرحوا كل معبود سواه. وذلك أني أخاف عليكم إن واصلتم الإشراك بالله، أن يسلط عليكم عذابه الأليم في الدنيا بما يردعكم عن الشرك. فأنقذوا أنفسكم قبل أن يأتيكم العذاب. وربط العذاب بيوم لينبههم إلى أن العذاب يشتد حتى ينقلب الزمن في نفسه إلى عذاب.

27- **المشهد الثاني:** أسرع كبراء قومه الكافرون به الرافضون لدعوته وقالوا مقدمين لما تخيلوه سندا لرفضهم:

أ) إنك بشر مثلنا، لا تختلف عنا في شيء من الخصائص الجسمية الإنسانية. ظنوا أن الرسول لا بد أن يكون من غير جنس البشر، أو أن يكون له من الكمالات الجسمية الظاهرة ما يتفرد به عن بقية أفراد الجنس.

ب) إن تأثيرك ضعيف فلم يتبعك إلا ضعفاء القوم الذين لا مال لهم ولا منزلة اجتماعية مرموقة، واعتبروهم لذلك من السفلة الذين لا شأن لهم في المجتمع. وبالغوا في احتقارهم بأن منزلتهم الاجتماعية المنحطة معروفة بداهةً دون نظر وبحث في سيرتهم. وهذا خطأ ثان منهم إذ جعلوا القيمة التي بها يتمايز البشر، ثراؤهم ومكانتهم الاجتماعية. وأهملوا من سلم القيمِ القيمَ الحقيقية، رجاحة العقل، وطهارة النفس وجمال الخلق.

جـ) إنه لا فضل لكم يوجب اتباعكم والانتماء إليكم. تأملنا في كل ما يحيط بكم وما أنتم عليه، فلم نجد لكم أي ظاهرة تفضلون بها علينا فلماذا نتبعكم.

د) إنه تبعا لذلك، لا نطمئن إلى أنكم صادقون، لا في ادعائك الرسالة، ولا في ادعاء أتباعك اقتناعهم بما جئتهم به.

28←31: قال يا قوم أرأيتم إن كنت...إني إذا لمن الظالمين.

المشهد الثالث: تصور الآيات نوحا عليه السلام هادئ الطبع رفيقا بهم، رغم ما أسمعوه من غليظ الرد. افتتح خطابه بقوله يا قوم، فهم منه بالمنزلة التي لا يبغي لهم إلا الخير، وصلته بهم حاضرة في ضميره تؤكد سعيه إلى ما يجلب لهم النفع ويحميهم من الضر. يقول لهم: فكروا في الملابسات المحيطة بدعوتي إليكم. أولا: إني واثق تمام الوثوق من أني سائر على طريق واضح تمام الوضوح، وبرهان لا شك فيه ما اخترعته وإنما هداني إليه ربي، الذي مكنني من رحمته بالرسالة التي حمّلني إياها التي تجدون شواهد صدقها في مضامينها، ولكنها خفيت عليكم وخفاؤها لا يبرر رفضكم السريع لها، ولكن يحتم عليكم أن تتأملوا فيها. إنه لا يقبل أن نخضعكم أنا وأتباعي لقبولها في الوقت الذي أنتم لها رافضون كارهون. فالدين لا يكون بالإكراه. وما أذن لي ربي بإرغام أحد على الإيمان بي. فأعيدوا نظركم فيما دعوتكم إليه.

إن ما يؤكد إرادة الخير لكم ولا شيء وراء ذلك: أني لا أطلب منكم أن تعطوني شيئا من أموالكم، فأثقل عليكم بذلك، فأنا لا أسألكم أجرا على الهداية ولكني أسأل ربي أن يتولى ثوابي بقبول ما محضت له كل جهدي من فتح بصائركم على الحق. وإن ما نجحت فيه بهداية الذين آمنوا بما بعثني الله به، مما أنتظر ثوابه منه على ذلك، لا يتصور أن أطردهم عن مجالسي أو أبعدهم عني. ألا تعلمون أنهم يجدون

في مجالسي ما يزيدهم قربا من ربهم بما يتلقَّوْنه من الوحي المتواصل، كما أنهم سيلقَوْن ربهم يوم الحساب فيسألهم عن علاقاتهم وينصفهم ممن ظلمهم. ولكن غلبة الجهل عليكم جعلكم لا تدركون تبعة طردهم.

ثم أعاد استمالتهم إليه بأنه ذاكر دائما صلته بهم وأنهم قومه، ناداهم يا قوم :إن ما اقترحتموه علي من طرد المؤمنين بي خطير جدا، سيكونون خصمائي عند ربي، ومن ينصرني من الله إن أقدمت على طردهم بدون موجب، على معنى الإنكار أن يوجد له نصير على ذلك، مالكم لا تتأملون تأملا يبصركم بالعواقب.

ثم عرض عليهم حقيقة أمره مما ينفي كل الخيالات التي عشَّشَت في عقولهم فانحرفوا بها عن إدراك الواقع. اعترف بحدوده البشرية التي لا تنزل به عن التكليف بالرسالة، خلافا لما يتوهمه قومه من أن الرسالة تقتضي أن يكون له طاقات تفوق البشر تجعله يتحكم في كل شيء. إن ملك الله بيده لا يتصرف فيه رسول ولا أي كائن خارج ما يأذن به. فخزائن الله التي يمكِّن منها البشر بقدرٍ حسب حكمته، أو يرسل ما يرسله ليمحق به من يشاء ؛ كالريح العاتية والماء المغرق والحركة المزلزلة، كل ذلك بيده سبحانه، وبوصفي رسولا لا أملك التصرف لا في قليل ولا في كثير من خزائن الله. كما أن علمي لا يتجاوز ما يعلمني ربي. فما غاب عن إحساسي وعن إدراكي مما لم يعرفني به ربي (الغيب) لا أعلمه. وطبيعتي طبيعة البشر لست مَلَكًا. وكأنهم سألوه كما سألت قريش النبي ﷺ ما نفاه نوح عليه السلام عن نفسه. كما نفى عن نفسه نفيا يقطع كل أمل لهم في طرد المؤمنين به من الضعفاء، ولا أن يدخل اليأس في قلوبهم بأن يصرح لهم بما يظنون أن الله لما لم يَجُدْ عليهم من واسع رزقه في الدنيا أنه لن يمكنهم من الخير يوم القيامة. ذلك أن نوال الحظوظ الأخروية والنعيم والكرامة يوم القيامة مرتبط بصلاح الباطن، والله هو وحده الذي يتولى السرائر . تنبهوا فإني مدرك لما يترتب عن مواقفي وعن أعمالي، فلو تجاوزت حدودي أكون إذن من الظالمين الذين يحق عليهم جزاء الظلمة.

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

المجادلة : المخاصمة بالقول مع الاحتجاج .

بمعجزين : منفلتين من العقوبة.

يغويكم : يضلكم عن الحق.

الإجرام : ارتكاب الجرم، الإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

سئمنا يا نوح من الاستماع لما تقيمه علينا من الحجج المتوالية لدحض كل ما نتأيد به. فأنزلْ علينا العذاب الذي كنت توعَّدْتنا به وكفى. قال نوح: العذاب يأتيكم به الله لا أنا، متى شاء وعلى المستوى الذي يريد، ولكن المؤكد أنكم لا تفلتون من العذاب. أنتم لا تنتفعون بنصحي لأن إصراركم على العناد حرمكم كل تأييد من الله فأوكلكم إلى نفوسكم فاتبعتم شهواتكم وخيالاتكم فوقعتم في الغواية والضلال، وابتعدتم عن منهج ربكم الذي ستعودون إليه ليحاسبكم.

وتوجه القرآن إثر هذه المقاطع من قصة نوح ليرد على المشركين ما يرمون به النبي ﷺ من نسبة القرآن لله باطلا، فقال لهم: إني مدرك تمام الإدراك لمقام الألوهية، فلا يتصور مني أن أكذب على الله، وإثم ذلك أتحمله وحدي، كما أنكم تتحملون إثم تكذيبي ولا أتحمل شيئا منه.

بيان المعنى العام :

32←34 : قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت...وإليه ترجعون .

المشهد الرابع: يبرز في هذا المشهد طرفان تقابلا فبلغا النهاية؛ نوح عليه السلام من ناحية، وقومه من ناحية أخرى.

أما نوح فالظاهر أنه واصل دعوته لقومه، وتابع الرد على شبهاتهم، كما قال تعالى **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما**، على النسق الذي فصلته الآيات السابقة، يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وكلما قدموا له حجة، بين لهم زيفها وأنها باطل لا تقبل عقلا.

تمكن منهم العناد والرفض لما جاء به نوح؛ وسئموا من مواصلة الحجاج معه، إذ كلما قدموا ما يخالونه حجة أجهز نوح عليها ونقضها وظهر عليهم بالمنطق والوضوح زيف ما عرضوه. فقالوا كفى! ائتنا بالعذاب الذي كنت وعدتنا به؛ فأدمغتنا توقفت عن المتابعة، إن كنت صادقا فيما أخبرتنا به من أول الأمر.

رد عليهم نوح بتصويب ما وقعوا فيه من أخطاء في صيغة سؤالهم.

أولا: أن إنزال العذاب عليهم ليس من شأنه، وإنما الأمر بيد الله وحده (إنما يأتيكم به الله)
ثانيا: أن إنزال العذاب عليهم مرتبط بمشيئة الله إنزاله عليهم في الوقت وبالمقدار (إن شاء)
ثالثا: أنه لا يستطيع أي فرد منهم أن يفلت من العذاب أو يجد ملجأ يلجأ إليه فيحميه فلا نجاة لكم (وما أنتم بمعجزين)

ثم علق على طلبهم قطع الحوار معه، أنه اختيار غير صائب، إنكم لم تنتفعوا بنصحي لكم وأقفلتم عقولكم عن التأمل فيما دعوتكم إليه. إن ما دعوتكم له بلغ من الوضوح والمعقولية ما يوجب الأخذ به؛ ولكن الله حرمكم تبعا لعنادكم تأييده، وأوكلكم إلى غرائزكم وشهواتكم التي تقودكم إلى الضلالة والهلاك.

واعلموا أن الله ربكم، يشير إلى أنه لطيف بعباده الذين يهيئون أنفسهم لقبول الرشاد لا الذين يغلقون عقولهم وقُوَى إدراكهم عن النظر. ثم إنكم تحشرون إليه يوم القيامة فيجازيكم عن تقصيركم، وغلق منافذ المعرفة حتى لا تصل إليكم.

التعليق :

لا يقصد القرآن من القصص التي تتخلل بيانه تلهية البشر بسرد ما وقع في التاريخ، وخاصة البعيد منه. ولكن يقيم من تلك القصص حجة على أن الرسول صادق. فتفاصيل ما وقع لنوح مما سبق من الآيات وما سيتلو بعد هذا التذكير، ما كان له أن يخبر به اعتمادا على ذكائه، فهي أمور طواها التاريخ.وتفاصيلها ودقائقها لم ترو في المجتمع العربي، بل حتى ما بقي من التوراة والإنجيل لا يبلغ في الصحة والدقة ما سجله القرآن. ومع هذا فإن المشركين يتهمونه بأنه نسبه إلى الله كذبا (افتراه) لقن القرآن الحجة لمحمد ﷺ، قل لهم: إن كذبت على الله فأنا أتحمل وحدي إثم الجريمة العظمى ولا تتحملون شيئا من إثم جريمة الافتراء الذي رميتموني به كذبا وبهتانا. كما أني لا أتحمل شيئا من إثم تكذيبكم لي بالباطل واتهامي بما ليس بحق . فأقحم في الجواب قاعدة المسؤولية في دين الإسلام .

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن

كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تبتئس : لا تهتم ولا تحزن.

بأعيننا : بمراقبتنا بما ينفي الخلل والخطأ في الصنع.

السخرية :استهزاء بِعَدِّ المستهزئ به أحمق.

يخزيه : يهينه.

مقيم : لا ينقطع.

جاء أمرنا: تم أمرنا بالطوفان.

فار: انبعث بقوة.

التنور : موقد النار لإنضاج الخبز .

أهلك : قرابتك .

سبق عليه القول : سبق الحكم عليه بالكفر.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم الله نوحا أنه قد انتهى ما كلف به من دعوة الناس إلى الإيمان، لأنه لا مطمع له في هداية من بقي على كفره. ومواساة له طُلِب منه أن لا يحزن فإن ذلك كان نتيجة أعمالهم.

و أمره أن يصنع سفينة يسعده ربه في إنجازها بالرعاية والتسديد، ويوحي إليه طريقة صنعها لتكون صالحة للقيام بوظيفتها.

شرع في العمل وكان عمله لافتا للأنظار، فكلما مر عليه كبار قومه، وهو يجهد نفسه في القيام بما أمر به، يسخرون منه، ولا يَرْعَوُونَ عن الإفصاح بما تفيض به أنفسهم المريضة من الاستهزاء. وكان رد نوح عليهم إنكم إن استهزأتم بعملنا فإنا نسخر منكم يوم يسلط عليكم عذاب ربكم كما سخرتم منا . وهددهم بأنه سوف يظهر من تكون عاقبته سليمة، ومن يسلط عليه عذاب يهينه ويجب له عذاب دائم لا يرفع ولا ينقطع.

ثم أمره أن عليه أن يلاحظ الأمارات الدالة على الوقت الذي اختاره الله لإنزال عذابه (الغرق) بهم .وذلك إذا تدفق الماء من التنور.

وعندها هو مأمور بأن يحمل معه في السفينة، من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى، وأن يحمل معه قرابته الذين آمنوا به، وأن يترك من كان كافرا منهم، وأن يحمل فيها كذلك الذين آمنوا به وثبتوا على إيمانهم. وما كان عددهم كثيرا.

بيان المعنى العام :

36←37: وأوحي إلى نوح أنه....إنهم مغرقون.

تبع القطيعة التي سألها الكفرة من قوم نوح، إعلامُ الله له بأن الباقين من قومه الذين لم يؤمنوا سيستمرون على كفرهم ولا مطمع في هدايتهم. وفي ذلك أمران هامان:

الأمر الأول: أن نوحا قد انتهت مهمته فلم يبق مطالبا بدعوة قومه للإيمان.

الأمر الثاني: أن إعلامه بأن كل من لم يؤمن به لحد اليوم الذي خاطبه الله بهذا الخطاب لا رجاء في إيمانهم، كان هذا الإعلام شديدا على نفسه. إذ شأن المرسلين أنهم يوالون الدعوة ويتحملون في سبيلها ما يتحملون من المكاره، ويجدون في ذلك رضا، شعورًا منهم بشرف الأمانة الموكلة لهم.

ولذا قواه ربه فقال له: لا تحزن عليهم فإن ما سيلقونه هو بسبب إصرارهم على الكفر.

ثم أمره أن يصنع سفينة، وهي أول سفينة صنعت في العالم. فهو ينجزها على غير مثال سبق. ولذا قرن الأمر بأن الله سيكون ملهما له ومساعدا حتى لا يقع منه خطأ في الصنع، كما أنه سيؤيده بوحيه لطريقة العمل حتى تقوم السفينة بوظيفتها التي من أجلها هو مأمور بصنعها. وأعلمه أن الحكم بنوع العذاب الذي سيسلط على قومه قد اتخذ، فلا يتقدم بالشفاعة فيهم أو تخفيف العذاب عليهم، حكم الله سينفذ فيهم (إنهم مغرقون)

38←40: ويصنع الفلك وكلما ....وما آمن معه إلا قليل.

المشهد الخامس: يتحول الرسول من داع إلى منهج الله الذي أوحاه له ليبلغه، يتحول إلى صانع ماهر، هداية الله تسوقه، ووحيه يحدد له الطريقة والأدوات التي تساعده على إنجاز السفينة. هو في محل عمله المفتوح يقوم بأعمال لا عهد للناس بها.

يمر عليه أكابر القوم وهو منكب على عمله بجد، ينجز ما لا يدرون له فائدة ولا أنه يحقق غاية. فكانت أرجاعهم أنهم يسخرون من نوح ويستهزئون من سخافته: أمامه ركام من الألواح ومسامير، وهو لا يصنع بابا ولا كرسيا ولا ما شأنه أن ينتفع به صانعه .وتفيد الآية أن من المؤمنين به من كان معه يساعده ويعينه، أفهم هذا من قوله تعالى :إن تسخروا منا، ولم يقل مني.

تهكموا عليه ووجهوا له من سخف الخطاب ما لا يصدر إلا من فاقد التربية عديم الأدب. فرد عليهم إني لا أبادئكم بالسخرية ولكني أقول لكم: إنكم إن تسخروا منا

لما نعمله والذي ندرك الغاية منه، فإنا نقابل سخريتكم منا بسخريتنا منكم، من سفه عقولكم وإعراضكم عن خالقكم. مما يومئ إلى أن استهزاءهم بعمله سيعلمون فائدته له ولمن آمن به، فيتضاعف أساهم. وأعاد تهديدهم بأنهم سوف يتيقنون من هو الناجي ومن هو الخاسر، ومن يتسلط عليه العذاب المهين الملازم الذي لا ينقطع في العاقبة يوم القيامة.

40- واصلْ عملك في إعداد السفينة إلى أن يحصل أمرنا بحدوث الطوفان، وجعل الله لنوح أمارة على تعلق القدرة بإحداث الطوفان تبعا للإرادة والعلم. هذه الأمارة هي فوران التنور. وهي أن ينبع الماء من موقد إنضاج الخبز.

و حكى القرآن أن الله أمره أن يحمل في سفينته من كل أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى، بما يحفظ استمرار النوع بعد ذلك بواسطة التوالد. وأن يحمل معه قرابته المؤمنين، إلا الذين سبق أن قدر الله عذابهم ممن آثروا البقاء على الكفر، كإحدى امرأتيه التي خانته فلم تؤمن المذكورة في سورة التحريم، (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانت تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين)[1] - وابنه الذي سيأتينا خبره بعد. وأن يحمل معه كذلك من آمن به من قومه الذين كان عددهم قليلا.

۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

مجراها ومرساها: عند سيرها السريع، وعند وقوفها على الشاطئ.

معزل : مكان منفرد به عن أهله.

سآوي : سألجأ.

---

[1] التحريم آية10

يعصمني : يحميني.

ابلعي : البلع أصله دخول الطعام من الفم إلى الجوف، والمراد هنا دخول الماء في جوف الأرض.

غيض الماء: نضب وذهب.

قضي الأمر: تم وانتهى.

الجودي : مكان نزول السفينة.

بيان المعنى الإجمالي :

كان نوح يرفق بالذين حملهم معه في السفينة، وقف عليهم ودعاهم أن يستصحبوا بركة الله وعنايته عند سيرهم وعند نزولهم، وأن الله غفور لتقصيرهم رحيم بهم. ولاحظ نوح ابنه منعزلا عن أهله فناداه ليلتحق بهم ويخلص إيمانه لله. ولكن الابن، وقد غلب عليه الشقاء، صَدَّ عن الاستجابة لدعاء والده، وأظهر عدم خوفه مما توعد به نوح قومه، وقال: لا أخشى الطوفان فإني سألجأ إلى جبل عال لا يبلغ الماء قمته. قال له أبوه: إنه لا منجى اليوم إلاَّ لمن قدر الله له رحمته من المؤمنين. وما إن تم الحوار بينهما حتى أخذته الأمواج فأغرقته. وأخذت السفينة طريقها بين أمواج تتدفق كالجبال. وتم ما أراده الله من إهلاك القوم الكافرين فصدر الإذن الإلهي للأرض بأن تفتح أفواهها لابتلاع الماء وللسماء بأن تتوقف عن إنزال الأمطار. وبسرعة ذهب الماء وتطهرت الأرض من الكافرين واستقرت السفينة في المكان المقدر لرسوها. ونودي في الكون: بُعْدًا وهلاكا ولا رجعة للقوم الظالمين.

بيان المعنى العام :

41←43: وقال اركبوا فيها ....فكان من المغرقين.

المشهد السادس: نوح عليه السلام، وقد ظهرت العلامة التي أعلمه الله بأنه سيليها تنفيذ الوعيد، يأمر من سيأخذه معه في السفينة بالركوب، ويرشدهم أن يذكروا اسم الله مستعينين بألطافه في حالة جري السفينة وفي حالة وقوفها. يطمئنهم بقوله: إن ربي غفور لتقصيركم السابق، رحيم بكم رحمة تظهر فيما مكنكم من النجاة، وفيما سيتلو ذلك من متتابع فضله عليكم .

ساء نوح بما تحمله روحه الكريمة من ود وحب وعطف، أن لا يكون ابنه معه ناجيا من الطوفان، ومن غضب الله . ناداه يا بني تعال ! اركب معنا وأسلم وجهك لله ولا تكن مع الكافرين. ولكن ابنه كان شقيا لم يفد فيه رفق والده، ولا تأكيده عليه بمحركات رابطة الأبوة والبنوة (يا بني) بما توحيه كلمة بني بالتصغير من

التذكير بالرعاية والحنان اللذين كانا يلقاهما في حجر الوالد الكريم من أول يوم من حياته. وتسمع رد الولدِ الشقي: لا أخشى الطوفان وارتفاع المياه، فإني سألجأ إلى جبل عال يحميني من الماء. وتنتهي المحاورة سريعا فيأخذه الموج إلى قاع البحر ويلتحق بالغرقى الكافرين.

أخذت السفينة تجري في بحر هادر تعلو أمواجه كأنها الجبال؛ فقد انشقت الأرض عن منابعها، وتدفقت العيون، وأمطرت السماء المطر المتدارك كأشد ما يكون التدفق، وتحركت البحار بما ورد عليها من تيارات متلاحقة. وإنه لمظهر عجيب رهيب؛ علت المياه الأرض كلها فغطتها، وانفردت سفينة نوح تمخر البحر بقدرة الله وألطافه وركاب السفينة يغمرهم روح من السعادة بعناية الله بهم.

44-وقيل يا أرض ابلعي ماءك ....وقيل بعدا للقوم الظالمين.

المشهد السابع: بهذا المشهد تبلغ القصة نهايتها، بغرق الكافرين المكذبين من قوم نوح، وصدور الأمر التكويني الإلهي ليعود الكون كما كان عليه قبل الطوفان.

فصدر الأمر الإلهي:

أوّلاً للأرض لتنفتح، فامتصت تجاويفها ما كان فوقها من الماء.

ثانيا للسماء لتتوقف سحبها عن إنزال المياه.

وبسرعة تم الإذعان للقادر الواحد الأحد، ذهب الماء وعادت الأرض كما كانت، وتم ما أراده الله من إهلاك الكفرة المكذبين. فاستقرت السفينة على الجودي وقد أكملت مهمتها، وفي ضبط المراد من الجودي ومكانه أقوال كثيرة ليس لأحدها سند صحيح يُطمأن إليه. وبما أن تعيينه لا يتعلق به كبير اهتمام، ولا يزيد تأثيرا للقصة معرفته ولا ينقص جهله، فلنُفوِّضْ حقيقته إلى الله. وينتهي المشهد بصوت مُدَوٍّ يعقله كل السامعين: بعدًا للقوم الظالمين: هلاكًا وعدم عودة. وهذا تعبير عن تفاهة القوم الظالمين الهالكين، لا يرغب أحد في عودتهم، وليس لهم ذكر في نفوس الباقين.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

بيان معانى الألفاظ :

اهبط : انزل.

بركات: خيرات نامية.

أنباء الغيب: الأخبار المغيبة عن الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

رست السفينة سالمة بعد رحلتها بين الأمواج المتلاطمة. وثارت العاطفة الأبوية في نفس نوح عليه السلام، وقد بقي ابنه مع الكافرين فغرق وسيكون مع الغرقى يوم القيامة، فتوجه بالدعاء إلى ربه مقدما بين يدي ابتهالاته ما يقربه من الاستجابة لدعائه: رب إن ابني جزء مني، وفرد من عائلتي،وواحد من أسرتي، وإن وعدك محقق حصوله، وأنت وحدك ربي الحكَم الذي لا تنقض أحكامه. إن هذا الاستعطاف النابع من قلب والد رحيم ما كان ليغير الحق الذي يسيِّر الله به الكون. فنبه الله نوحا: أن صلة الأبوة تنقطع إذا اختلفت العقيدة، فهو ليس من أهلك لذلك، لأنه فاسد في عقيدته، وعمله القلبي وأعماله الأخرى. فلذا لا تطلب مني شيئا لا تتحقق أنه منسجم مع العدل الذي أحكم به الكون، وإياك أن تكون مع الجاهلين.

وقع التحذير من قلب نوح الموقع المؤثر فابتهل إلى ربه تائبا قائلا: ربي إني أحتمي بك من أسألك ما لا أعلمه. إني موقن أنه إن لم أفز بغفرانك لتقصيري، وحرمت من رضاك؛ فإني أكون مع القوم الخاسرين.

وتقبَّل الله من نوح ابتهالاته، وأذِنَه أن ينزل من السفينة مصحوبا بسلامٍ تكريمٍ من الله ووعد بمضاعفة الخيرات له ولمن معه ولمن سيتناسل منهم من الأمم التي تُواصل السير على منهج الله. وأما الأمم التي ترفض طريق الهدى فإن الله لا يعاجلهم بالعقوبة ولا يحرمهم متاع الحياة الدنيا، ولكن سيسلط عليه العذاب الأليم يوم القيامة.

ثم توجه الخطاب لرسول الله ﷺ ممتنًّا عليه بما أعلمه به من تفاصيل قصة نوح، التي ما كان يعلمها هو ولا قومه ولا أهل الكتاب. إذ هي بتفاصيلها الواردة في القرآن من الأمور المغيبة عن علم البشر في وقته. وهي تعطيه صورة لعاقبة الصبر الذي تدرع به نوح والمؤمنون معه، فاصبر يا محمد ؛ بالتأكيد النهاية الطيبة تكون للمتقين .

بيان المعنى العام :

45←47: ونادى نوح ربه...وترحمني أكن من الخاسرين.

المشهد الثامن: برزت الأرض لنوح خالية بعد أن رست السفينة، وثار في نفسه ما يعتلج في قلب الوالد، حينما يتيقن هلاك ابنه وأنه غير ناج من غضب الله وعقابه يوم القيامة. ولا تسل عن حزنه وقد خسر ابنه حياته وخسر آخرته. وفي هذا الظرف الأليم لم يبق له من أمل إلا في الابتهال إلى ربه أن يعفو عن ابنه فتوجه إليه داعيا، مقدما بين يدي دعائه بالتعبير عن شدة ألمه للخاتمة التي ختم بها ابنه حياته فقال: يا ربي إن ابني جزء مني وفرد من أسرتي وواحد من أهلي الأقربين، إن ما يؤلمه يؤلمني، يا رب إني أعلم أن ما تَعِدُ بِهِ واقع لا ينقض، وأعلم أن حكمك ماض لا يرفع، ولا راد لما حكمت به وقضيته.

لم يرد في النص ما دعا به نوح، بل لا تدل الآية على أنه دعا، والاحتمال وارد: هل إنه دعا بالمغفرة لابنه وطوي دعاؤه لفهمه من المقام، أو إنه قدم ما قدم استعطافا واستئذانا؟ وعلى الوجهين فإن نوحا عليه السلام يود أن لو من الله على ابنه فغفر له ذنب الكفر الذي ختم به حياته.

أجاب الله نوحا بتصحيح ما وقع في نفسه من خطأ: إن قوله: إن ابني من أهلي كلام غير دقيق. ذلك أن الترابط بين البشر يجب أن يقوم على أساس التوافق في العقيدة لا على أساس القرب الدموي. وإذا اختلفت العقيدة انهدمت كل الصلات التي يمكن أن تكون معتبرة، وبين سبب انحلال الرابطة: أنه كافر لا يعمل عمل الصالحين، فسدت عقيدته وفسد تبعا لذلك كل ما يصدر عنه من فِعال.

ثم عاتب الله نوحا لجريان تفكيره بسؤال ربه المغفرة لمن مات على الكفر. فهو لم يتدبر فيما يترتب على استجابة دعائه من اختلاط بين الخير والشر والإيمان والكفر. ولو تأمل فعلم ما فكّر في السؤال. وأضاف عنايةً بنوح: أن الله تولى وعظه وإيقاظ عقله حتى لا يسلك مسلكا يوقعه فيما يقع فيه الجهلة الذين يخلطون بين ما ينبغي وما لا ينبغي.

وقعت تلك الموعظة من نوح موقعا هزّته إلى الاعتذار مع الالتجاء إلى ربه ليحميه من الوقوع فيما لا يرضيه. وصرح بأن كل همه أن يكون في حصن ربه يحوطه بالتوفيق، وأن يحميه من سؤاله ما لا يعلم مقدما رضا الله بالسؤال عنه. ثم أعلن عن ضراعته بسؤال ربه أن يغفر له ولا يؤاخذه بتقصيره، وأن يوالي عليه رحمته. معترفا أنه إن لم يتفضل عليه بالمغفرة والصفح، والرحمة والرضا، فإن يلتحق بالقوم الخاسرين للعاقبة.

48- قيل يا نوح اهبط بسلام...منا عذاب أليم.

المشهد التاسع: استجاب الله لضراعة نوح، فأذن له في النزول من السفينة مكرما بسلام من الله عليه، مصحوبا ببركات تبشر بمزيد من الخيرات نامية. وهل تجد ما يدل على رضا رب العالمين عنه أبلغ من هذا الخطاب لنبيه ولقومه الذي رعاهم في لجج البحر الهائج حتى وصل بهم إلى مستقر السلامة.

وشمل سلام التكريم الإلهي من كان معه من المؤمنين في السفينة، وعبر عنهم بأمم بالنظر إلى ما سيؤول أمر نسلهم من التكاثر فيتكون منهم أمم وشعوب. فالتكريم والبركات تشمل الأمم التي تتناسل من نوح، ومن المؤمنين المحمولين معه في السفينة، وهم الذين يلتزمون التوحيد لله وتطبيق شريعته. ولكن الأمم الذين يضلون ويكفرون بالله ورسله، فقد أعلم الله أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولكن يمهلهم فمن أصر على الكفر إلى خاتمة حياته الدنيوية سيسلط عليه عذابه الأليم يوم القيامة.

49-تلك من أنباء الغيب نوحيها....إن العاقبة للمتقين.

قصة نوح كما وقع تفصيلها في الآيات السابقة، من الوقائع التي طواها الزمن فعمي خبرها عن الناس. فما كان النبي ﷺ يعلمها قبل نزولها عليه، ولا كان قومه يعلمونها، ولا كان المخالطون لأهل الكتاب من قومه ولا أهل الكتاب يحيطون بجميع التفصيلات التي وردت فيها. وبذا فهي من الأخبار التي فقد من يرويها فانقطع سندها ولفها الجهل. فإعلام الله نبيه بها ينادي بأنه يتلقى الوحي من عالم الغيب الله رب العالمين.

ولتكن هذه القصة محققة لهدفها .فإن نوحا ومن آمن معه صبروا على التكذيب من قومهم وتمالأ الكافرون واستهزأوا بهم. وواصل نوح دعاءهم إلى النهاية التي أعلمه الله فيها أنه لا يؤمن أحد منهم بعد اليوم. فليكن نوح مثالا تقتدي به في الصبر على المواصلة. كما جاء في قوله تعالى (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[1] – ومما يساعدك على الصبر ويفتح لك أبواب الأمل مشرعة: أن النهاية الصالحة تكون نصرا للمتقين الذين يخلصون لربهم.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا

---

[1] الأنعام آية 90

تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا
نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا
ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ
﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ
مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ
أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ
رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

بيان معانى الألفاظ

يرسل السماء : ينزل المطر.

مدرارا : غزيرا.

لا تتولوا مشركين : لا تعودوا إلى الشرك.

اعتراك: أصابك.

آخذ بناصيتها: الناصية شعر مقدم الرأس، والأخذ بناصية الدابة معناه التحكم فيها.

التولي : الإعراض.

يستبدل : يزيلكم.

حفيظ : قادر قاهر.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا هودا إلى قومه، فهو واحد منهم يعرفونه ويعرفهم.

مضمون رسالته: دعوته لعبادة الله وحده فلا إله غيره. وما هم عليه من عبادة الأوثان والشرك كذب على الله وعلى الحقيقة. وقرَّبهم لاتباعه بأنه لا يطلب منهم أجرا على هدايتهم. فالله الذي خلقه من لا شيء ثم أفاض عليه ما أفاضه هو الذي سيتولى تمكينه من أجره. فما لكم لا تنظرون بعقولكم فيما دعوتكم إليه. ثم ثَنَّى بدعوتهم إلى الاستغفار مما سبق لهم من الشرك بالله، وأن يتوبوا إليه من ذلك الإثم العظيم. يقول لهم: إنكم إن صدَّقتم برسالتي وقمتم بما أوحاه الله لي وبلغتكم إياه، فإن الله سيرسل لكم الغيث النافع من السماء، ويضاعف قُواكم. وإياكم أن تعرضوا وتنقلبوا إلى التمادي على الإجرام بالشرك.

أجابوه : بأنا لم نجد فيما أتيتنا به أمرا بينا واضحا يرجح صدقك، ولا يتصور أن نترك آلهتنا لمجرد قولك، ولذا فنصارحك بأننا لا نؤمن بك. ونحن نقدر أنك تجرأت على أحد آلهتنا فانتقم منك بأن مسك في مداركك، فخرجت علينا بهذا الكلام.

أجابهم هود: إني أشهد الله الذي لا يغيب عن علمه شيء من عملي ومن عنادكم، واشهدوا أني لا أتحمل شيئا من ضلال شرككم، وإني أتحداكم أن تتحدوا مع أصنامكم للكيد بي، بل إني أقول لكم عجّلوا بما تدبرون من الإضرار بي ولا تنتظروا. إن قوتي مستمدة من الله الذي أعتمد عليه وحده، وهو ربي وربكم، وكل ما يدب على الأرض هو في قبضته لا يخرج عن سلطانه. وإنه سبحانه عادل أتم العدل لا يُسلِمُني إليكم.

إنكم إن تتولوا وتثبتوا على كفركم فإني قد قمت بمهمتي وأبْلَغْتُكُمْ ما حملني ربي، وإن الله قادر على محقكم وإنشاء قوم آخرين يحلون محلكم يعبدونه ولا يشركون به أحدا. والله حافظ لجميع الكائنات لا يستطيع أحد أن يصل إلى محفوظات ربي إلا بإذن منه سبحانه .

بيان المعنى العام :

50←52: وإلى عاد أخاهم هودا....ولا تتولوا مجرمين.

أعقب القرآن قصة نوح بقصة هود عليهما السلام. كما تقدم لنا في سورة الأعراف من الآية 64 إلى الآية71.

حمّل الله هودا أمانة الرسالة، وأرسله إلى قومه، وهو واحد منهم يشاركهم في نسبهم، يعلمون سيرته وصلاحه ونبل خلقه، عبر القرآن عن ذلك بقوله (أخاهم هودا)

- كيف عرض هود رسالته على قومه المبعوث هو إليهم؟

- قال: يا قومي ؛ ناداهم بما يجمعهم به من صلة النسب التي من شأنها أن تجعله لا يسعى إلا لما ينفعهم، ليؤكد الثقة التي تلِين بها نفوسهم لاتباعه، وترفع صدمة المواجهة بما يناقض مألوفهم. وأيد الحقيقة التي يدعوهم إليها، بأنهم إذا تأملوا، فإنهم لا يجدون من يستحق وصف الربوبية غير الله .وإذا كان هو حده المستحق لذلك فما عظمتم وعبدتم ونسبتم إليه الألوهية، هو كذب محض وتزييف للحقيقة.

-ثم أزال ما يمكن أن يدخل في نفوسهم من عوارض الشك في دعوته، من تصورهم أنه يبغي منها أن يحصل على أجر منهم مقابل عنايته بهم وصرفهم عما كانوا يعبدونه، وتعليمهم المنهج الذي ينبغي أن يسلكوه في حياتهم؛ فصرح بوضوح كامل: أنه ما ينتظر الأجر إلا من الذي أنشأه بعد عدم، وأفاض عليه من العناية ما

سما به إلى مرتبة النبوة. مالكم لا تحركون مداركم، ولا تنظرون بقوة عقولكم التي تخرق حجب اللبس، وتكشف الحق واضحا. على معنى أن ما قدمه من كونه واحدا منهم، لا يبغي منهم مقابلا، وأنه لا يتصور العقل أن يكون إله غير الله، وأن ما عبدوه من دون الله ليست له حقيقة وكذب محض.

-ثم أضاف إلى إفراد الله بالعبادة المرتبة التالية لذلك: وهي أن يتوجهوا إلى الله طالبين منه أن يغفر لهم ذنوبهم، بأن يمحو ما تلوثت به نفوسهم من الشرك بالله، وأن يصمموا على عدم العود إلى ما كانوا عليه، فلا يكون استغفارهم حالة عارضة، بل عزيمة صارمة تنفر مما كانت عليه. ثم أنبأهم بأنهم يجمعون بذلك بين صلاح بواطنهم، ورضا الله عنهم فيسعدهم بألطافه بهم؛ التي منها أنه يضاعف محصولهم الفلاحي، بما يرسله لهم من الأمطار المتتابعة، التي يزكو بها الزرع، وتصلح الثمار؛ والتي منها أن يزيد إلى قوتهم قوة في صحة الأجسام، والحماية من الأوبئة، ووفرة النسل، وسعة الرزق. ثم ختم دعوتهم بنهيهم عن الرجوع إلى ما كانوا عليه من الشرك، الذي هو أعظم ما يمكن أن يقترفه الإنسان من الإجرام.

فيما عرضه هود على قومه، ما يشير إلى أنهم كانوا أصحاب مزارع، تتميز أراضيهم بالخصب ووفرة المحصول، مما لا يتحقق إلا بغيث السماء، وأن بنيتهم كانت قوية تبعا لذلك. وأنهم كانوا يخشون انحباس الأمطار المدمر لحياتهم.

53←56: قالوا يا هود ما جئتنا ببينة...إن ربي على كل شيء حفيظ.

بعد أن بسط هود عليه السلام عرض ما يدعوهم إليه، وما يستند إليه، سجل القرآن الحوار الذي دار بينه وبين قومه.

رفضوا ما دعاهم إليه وقدموا مبررا لرفضهم: أنهم نظروا فيما أيَّد به رسالته، فما وجدوا أمرا بينا واضحا يفرض قبوله على سامعه لنصاعة الحق الذي يتضمنه. وإذ تجردت دعوته عما يؤيدها، في زعمهم، فلا يتصور منهم أن يتخلوا عن آلهتهم التي يقدسونها بسبب قول مجرد صادر منه، ومن الطبيعي تبعا لذلك أن لا تتوقع أن نؤمن برسالتك.

وتأييدا لكفرهم ورفضهم قدموا تأويلا، جعلوه السبب، في ظنهم، الذي حمل هودا على عرض ما عرضه عليهم. هو أنه يمكن أن يكون هودا قد تجرأ على بعض آلهتهم فسلبوه عقله حتى أصبح يقول ما يقوله من حصل له مسٌّ في مداركه.

رد هود على ما قدموه ردا مبناه: أنه شديد الاتصال بربه مستحضر أنه معه لا يغيب عنه شيء من أفعاله. فهو يشهد الله سبحانه على ما بذله من جهد لإقناعهم بما

أوحاه إليه، وعلى عنادهم ورفضهم وعلى تأويلاتهم الباطلة. وثنى بإشهادهم على تبريه مما يعبدونه من الأصنام التي يعتقدون أنها شركاء لله. وثنّى بتحديهم تحديا يظهر عجزهم وعجز آلهتهم معهم أن يصلوا إليه أو يتمكنوا من تحقيق ما يدبرون له من سوء. وبالغ في التحدي بأن ينفذوا مكرهم وكيدهم سريعا إن كانت لهم قدرة على الإضرار به.

أعلن هود أن هذه الثقة الكبيرة في سلامته وعجزهم عن الوصول إليه بسوء، مؤسسة على صادق توكله على الله الذي تولاني كما تولاكم بألطافه، فما كان لي أن أبلغ المستوى الذي أنا عليه، وما كان لكم أن تصلوا إلى المستوى الفكري والقوة والسعة في الأموال إلا بألطافه. كما أنه سبحانه هو القادر وحده على كل الخلائق قدرة مثّلها بالأخذ بالناصية، وهي المسك بشعر مقدم الرأس إمساكا يشل الحركة ويتبعه الخضوع. فهو سبحانه مالك لكل واحد من الدواب، من البشر والحيوان مهما بلغت قوته، لا يعجزه أي منها ولا ينفلت من تصرفه .

إن تصرفه سبحانه يجري حسب الحكمة البالغة والعدل، فربنا لا يظلم أحدا ولا يهمل أولياءه، وبهذا يشير هود إلى سر ثقته في توكله على الله، فهو لقدرته وحكمته سيحميه من كيدهم .

-و إن تولوا. أصله وإن تتولوا، وحذفت إحدى التاءين شأن ما بدئ بتاءين. يقول ابن مالك:

وما بتاءين ابتدي قد يقتصر *** فيه على تا كتبين العبر

وهذا خطاب من هود عليه السلام لقومه في النهاية يقول لهم، إنكم إن تنقلبوا معرضين فإني أسجل عليكم: أني قد أبلغتكم ما أنزل علي من ربي ولا تبعة علي من كفركم؛ ثم يهددهم بأن الله قادر على إفنائكم جميعا، ويخلق غيركم يعبدونه ويطيعونه. وإنه يمحقكم دون أن تستطيعوا أن تضروه بشيء.

و حمله بعض المفسرين على أن هذا الخطاب من رسول الله ﷺ لقريش. فبعد أن قص عليهم قصة هود التي من شأنها أن تَعِظَهم فلا يسيروا على خطاهم، ويهددهم بمحقهم واستبدالهم بقوم غيرهم.

والتخريج الأول أوفق، لأن القصة لما تنته بعد، لأن عذاب قوم هود سيأتي في الآية التالية.

و تختم الموعظة بأن الله حافظ لكل شيء، وشأن الحفظ التام أن لا يتمكن أحد من الوصول إلى المحفوظ. فالله ممسك لكل الكائنات، له وحده القدرة عليها ولا يستطيع غيره أن يشاركه في تصرفه فيها.

وَلَمَّا جَآ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمرنا: أثر أمرنا، وهو العذاب.

الغليظ : الخشن، بمعنى الشديد

الجحد : الإنكار الشديد.

الجبار : المتكبر.

العنيد : المكابر الذي يرفض المعقول.

اللعنة : الطرد المصحوب بالإهانة.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه عندما قارب نزول العذاب بقوم عاد تبعا لتصميمهم على الشرك، يسر الله لهود وللذين آمنوا معه النجاة من الريح المهلكة، كما أنجاهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

هذه عاد التي أنكرت أشد الإنكار الآيات التي تأيد بها هود، وعصوا رسل الله جميعا وتمسكوا بالشرك، وقلدوا أمورهم كل ظالم متغطرس يرفض الحق الواضح، ويكابر. جزاؤهم أن لعنة الله تتابعهم في حياتهم الدنيا ولا تنفك عنهم يوم القيامة. ألا إن عادا عصوا ربهم. أبعدهم الله ممقوتين.

بيان المعنى العام :

58- ولما جا أمرنا نجينا....ونجيناهم من عذاب غليظ.

إنه عندما قرب تحقق إنزال العذاب بقوم هود لاستمرارهم على الشرك وتكذيب هود، نجى الله هودا ومن آمن معه قبل نزول العذاب الماحق لقومه. وذلك الإنجاء كان بسبب رحمة من الله. فبفضله تمت نجاتهم من الاستئصال بالريح التي أهلكت كل شيء كما جاء وصفها في سورة الذاريات: (**وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم**)[1] وفي سورة الحاقة: (**وأما**

---

[1] سورة الذاريات آية41

عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)[1] - وكما نجى الله هودا ومن آمن معه من ذلك العذاب قدر إنجاءهم من العذاب الغليظ الشديد يوم القيامة .

59←60: وتلك عاد جحدوا بآيات...ألا بعدا لعاد قوم هود.

حصرت الآية عادا في إطار يميزها بما سيلحقها من ذم وتشنيع. فذكرت أول ذم لها: أنها أنكرت إنكارا شديدا مبنيا على العناد، دعوة هود وما قارنها من المؤيدات الواضحة، حتى رفضت الحق البين الذي جاء به وهَوَّنتْ من قيمة المعجزات المؤيدة له. وثانيا أنها عصت رسل الله. وعاد وإن كانت في الظاهر لم تعص إلا هودا، إلا أنها لما تعلقت بالأصنام وتمسكت بالشرك فقد كان موقفها موقفا مضادا لهدايات الرسل أجمعين، لأنهم جاؤوا جميعا بالتوحيد. وثالثا لأن قوم هود أطاعوا كل جبار عنيد، متكبر مغلق عقله عن الحجة، لا ينصاع للحق الواضح بل يعاكسه بكل غباوة. ومن لازم خلقه أنه لا يأمر بخير ولا يدعو إلا إلى باطل. فهم قد قدموا لقيادة مجتمعهم الظلمة المستبدين المعاندين الذين لا تفيدهم الحجة ولا ينفذ إلى عقولهم الحق وإن كان واضحا كأشد ما يكون الوضوح.

وعقبت ذلك، بأن عادا تبعتها لعنة الله في هذه الدنيا، بحرمانها من رحمته، مع إهانتها في وضعها السيء التي اختارته لنفسها. وسيصحبها هذا الطرد المهين يوم القيامة.

وختمت الآية والقصة بخاتمة تقريرية موجزة جامعة .ألا إن عادا عصوا ربهم وكفروا به .أبعدهم الله مكروهين ممقوتين تلازمهم المهانة والحقارة.

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ

[1] سورة الحاقة آية 7/6

ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإنشاء : الإيجاد والإحداث.

استعمركم : جعلكم معمرين للأرض بالزرع والغرس والبناء.

مجيب : إعطاء السائل ما سأل .

تمتعوا : انتفعوا بمتع قريب زوالها.

داركم : بلدكم .

وعد غير مكذوب : صادق غير مختلق.

الخزي : الذل.

الصيحة : الصاعقة.

كأن لم يغنوا فيها : كأنهم لم يقيموا فيها.

جاثمين : باركين على ركبهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله لقبيلة ثمود صالحا رسولا منهم يعرفون كمالاته ؛فدعاهم إلى ما يدعو إليه جميع المرسلين :أن يفردوا الله بالعبادة، وأنه لا إله غيره. وأن دليل وحدانيته يجدونه في نفوسهم فقد أنشأهم من الأرض، ومكّنهم من تطويرها. ولذا فالواجب عليهم أن يطلبوا من ربهم مغفرة تقصيرهم، وأن يتوبوا إليه مما وقعوا فيه من أخطاء، والله قريب من عباده يجيب سؤالهم.

كان جوابهم عن تلكم الدعوة البينة الرفيقة: خيبت آمالنا فيك. كنا نتوقع أن تبلغ الزعامة فينا، فكيف تنهانا عن عبادة ما عبده آباؤنا وسرنا عليه قرونا. ولذا فإنا نشك في صدقك شكا يجعلنا نرتاب فيما أتيتنا به.

أجابهم: تأملوا إني كنت واثقا أشد الوثوق مما أوحى به إلي ربي، ورحمني بالرسالة الهادية إلى طريقه المستقيم، فكيف يكون حالي إن عصيته. إنكم ما تزيدون بكلامكم وعنادكم إلا خسرانا.

ثم عرض عليهم معجزته: ناقة تخلق لا من أم، شاهَدُوا خروجها تامة الخلق، فهي من خلق الله لم تتوسط رحم في إيجادها. فاتركوها ترعي في أرض الله وأنهاكم عن إذايتها بسوء. إنكم تعرضون أنفسكم، إذا اعتديتم عليها إلى عذاب عاجل لا يبطئ.

تحدَّوْا نهيه وعقروا الناقة. فحق عليهم العذاب وقال لهم صالح: أنتم مؤجلون ثلاثة أيام لا تستطيعون الخروج من دياركم؛ هذا وعيد صادق تَحَقُّقُهُ.

أنجى الله صالحا ومن آمن معه برحمته تعالى من العذاب وما صحبه من ذل. إن ربك يا محمد هو القوي الذي لا يثقل عليه أي شيء، العزيز الذي ينصاع له كل شيء.

أهلك الظالمين بالشرك والتكذيب بصحية قوية تركتْهُم باركين في أماكنهم. امحت آثارهم كأنهم لم يعمِّروا تلك الأماكن. ألا إن ثمودا عصوا ربهم وكفروا به. فليذهبوا خزايا ممقوتين.

بيان المعنى العام :

61-وإلى ثمود أخاهم صالحا....إن ربي قريب مجيب.

عطف القرآن قصة ثمود مع قومه على قصة هود مع قومه. وكانت بداية دعوتهما واحدة: بالتأكيد على المقوم للصلاح والنجاح: ترك الشرك وإفراد الله بالعبادة، وأنه لا إله لهم يدبر شؤونهم غيره.

ثم لفت أنظارهم إلى حقيقة لا يستطيعون أن يجادلوا فيها أو أن ينكروها. هي ما يقتضيه التأمل في إيجاد البشر وتكوينهم بتحولات عجيبة، فهم من الأرض خلقوا سواء أنظرت إلى خلق أبيهم آدم، أم نظرت إلى ما يدخل في تركيب الذكر والأنثى (الزوجين) من عناصر أرضية بها توجد الخلية الأولى منهما، وتنمو بما تتغذى به من الأرض عن طريق الوريد السري الذي يمر منه إلى الجنين ما تبلغ به الخلية في كل مرحلة من مراحل وجودها المستوى الذي تكون به خلقا آخر . وملحظ آخر لفت إليه الأنظار، أن كل إنسان وإن كان قد خلق من الأرض، فإنه بعد أن يولد ويشتد عوده، هو ممكن من التأثير فيها بما يحققه من منجزات في الزراعة والغراسة والبناء، بما يكون به معمِّرا للأرض محصلا للخيرات منها.

وإذ اتضح أن المدبِّر لخلق الإنسان، والممكن له في الأرض هو الله، وأن سعيه في أرض الله قد يقارنه تقصير أو تجاوز للحدود، وتعد من المستخلف في الأرض على ما سطره خالقهما من حدود التصرف التي يرضى عنها، دعاهم صالح عليه السلام أن يغسلوا ما تلوثوا به في نشاطهم من الآثام، أن يغسلوها بطلب المغفرة، لستر

آثامهم،وأن يقرنوا دعاءهم بيقظة باطنية تتمثل في النـدم علـى مـا ارتكبـوه مـن آثـام، والعزم البصير على عدم العودة للشر.(فاستغفروه ثم توبوا إليه).

إن الذي يحرض الإنسان المتجاوز على الاستغفار والتوبـة، هـو مـا تحقـق مـن أن الله رحيم بعباده يقربهم إليه كلما ابتعدوا عن صراطه فـأقلعوا وتوجهـوا إليـه، وهـو بفضـله يجيب دعاء الداعين المخلصين التوابين، ويحقق لهم مطالبهم.

62 ←68، قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا...ألا بعدا لثمود.

يصل القرآن هذا العرض الواضح الجميل، بالحوار الذي دار بين صالح وقومه.

أولا: أنكروا عليه ما دعاهم إليه،وعبروا عن ذلـك بخيبـة آمـالهم فيـه فقـالوا :قـد كنـا نرى فيك الشاب النابه الـذكي الجـامع لخصـال النباهـة،و نأمـل أن تبلـغ فينـا مكانـة السيادة ؛ وثنَّوْا بلومه والإنكار عليه أن يـدعوهم لمـا دعـاهم إليـه، تلـك الـدعوة التـي تقطعهم عما استقر عليه أمـر آبـائهم مـن عبـادة الأصـنام .يشـيرون إلـى الاعتـزاز بسلوكهم في عقيدتهم مسلك آبائهم. ثم حققوا مصـرحين بمـا يترتـب علـى ذلـك: أنهـم شاكون في صدقه شكا قويا يمكن للريبة في قلوبهم.

ثانيا: رد عليهم صالح بتذكيرهم بالرابطة التي تربطه بهـم (يـا قـومي)، والتـي تقتضـي لمن كان في مقامه الخلقـي الرفيـع أن لا يكـون إلا ناصـحا لهـم سـاعيا فيمـا يصـلح أمرهم. تأملوا بما يرفع عـنكم اللـبس: إنّـي كنـت علـى يقـين بـالغ أعلـى درجـات الوضوح مما أُوحي إلي من ربي، وآتاني النبوة الرحمة المهـداة مـن فضـله، أيُـؤثِّرُ فـي شككم أو يضرني تكـذيبكم، أو يحمينـي مـن عذابـه إن اتبعـتكم . لا أحـد يسـتطيع أن ينصرني أو يدافع عني إن عصـيته وقصَّـرت فـي تبلـيغكم مـا أمـرت بتبليغـه. فمـا تعرضونه علي وتدعونني إليه لا يحصل منه إلا خسراني.

ثالثا: أيقظهم بالنداء: يا قومي، ليكونوا واعين لمـا يقولـه لهـم وليحـذروا مـن التهـاون بمضمونه ؛ فقال لهم: هذه الناقة هي ناقة الله، أنشأها إنشـاء علـى غيـر مـا عهـد فـي غيرها من النوق، لم تلدها أم. هي معجزة لتأييدي ولتُـرِيَكُم قـدرة الخـلاق العظـيم. مـا تناسلت مما يملكه أحد، بل خلقها الله خلقا بـدون واسـطة فهـي ملـك خـالص لـه، لـذا نسبها إليه (هذه ناقة الله) لا تكلفكـم شـيئا إلا أن تمكنوهـا مـن الرعـي فـي أرض الله، ولا تعتدوا عليها، إنكم إن تهاونتم بحقها في الحريـة وفـي السـلامة يسـلط علـيكم عـذابا سريعا، لا إمهال فيه.

رابعا : قابَلوا تحذيرهم من الاعتداء عليهـا، بعقرهـا، فأصـابوها فـي المنحـر وسـقطت جثة هامدة .وعندها أعلن لهم أنه بقي لهم ثلاثة أيام يتمتعـون فيهـا بالحيـاة فـي بلـدهم

لايتمكنون من الخروج منه، وقال لهم :إن هـذا وعيـد صـادق لا تتوقعـوا أن يخلـف أو أن يقع التراجع فيه.

خامسا : تحقق الوعيد الماحق، ولكن قُبَيْل حلوله أنجـى الله صـالحا والـذين آمنـوا معـه كما أنجى هودا ونوحـا، بـأن أدخلهـم فـي رحمتـه التـي تحصّـن مـن كـل مكـروه ويصحبها التكريم. ولذا أكد تكريمه لهم بأنـه أنجـاهم أيضـا مـن الـذل الـذي صـحب عذاب ثمود . والتفت القرآن إلى خطاب النبـي ﷺ بالتـذكير بـأن سـحق شـعب كامـل في لحظة هو أمر هين في جانب القدرة الإلهية فإن الله هـو القـوي الـذي ينفـذ مـراده مع سلب الهالكين أي قدرة على المقاومـة. وهـو العزيـز الـذي لا يغلـب. وفـي ذلـك إيماء بالوعيد لكفار قريش أن مصيرهم قد يكون نفـس مصـير ثمـود لاشـتراكهم معهـم في العناد والمكابرة.

ثم عرض القرآن صورة تنفيذ الوعيـد: أخـذتهم مـن مكـامنهم صـيحة قويـة مفزعـة كأشد ما يكون القوة والفزع، تجاوزت حدود طاقـاتهم، عقبهـا أنهـم انقلبـوا فـي ديـارهم جثثا هامدة جاثمين علـى ركـبهم مغروسـة رؤوسـهم فـي الأرض، لـم يسـتطيعوا أن يفروا ولا أن يتحركوا؛ كأنهم لم ينعموا في حياتهم السـابقة بمـا نعمـوا بـه مـن خفـض العيش ووفرة الأرزاق.

ويعلق القرآن على القصة بأكملها: إن ثمودا عصـوا ربهـم وعانـدوا وواصـلوا الثبـات على الكفر. أبعدهم الله مذمومين مخذولين .

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

رسلنا : ملائكتنا الموكلون بأمر منا.

البشرى : البشارة .

السلام : التحية.

فما لبث : عَجّلَ ولم يُبطئ.

حنيذ : مشوي بطريقة خاصة أن يغطى بحجارة أو رمل محمي أو بحائل بينه وبين النار.

أوجس منهم خيفة : أحس بالخوف منهم.

يا ويلتا : صيغة تستعمل في مقام التعجب.

البعل : الزوج.

بيان المعنى الإجمالي :

جاءت ملائكة الله لإبراهيم حاملين البشارة، فسلموا عليه ورد عليهم السلام بما هو أحسن. وعجل باستضافتهم فهيأ لهم عجلا مشويا قدمه لهم. واستوحش إبراهيم منهم، لأنه لاحظ أنهم لم يتناولوا شيئا من الطعام الذي أكرمهم به .وإذْ بدا عليه الحيرة من أمرهم، أعلموه بأنهم رسل من الله لإنزال العذاب على قوم لوط الفجرة.

كانت امرأة إبراهيم حاضرة مستبشرة، وضحكت مما رأت وسمعت. فبشرها الملائكة أنها ستحمل من إبراهيم بنبي الله إسحاق، وأنها ستبقى إلى أن ترى ولده يعقوب. تعجبت أشد العجب مما سمعت وقالت: كيف أحمل وقد أصبحت عجوزا جاوزت بكثير السن الذي تحمل فيه النساء عادة، وكذلك زوجي كما هو أمامكم شيخ كبير السن، إن ما أخبرتموني به يدعو للعجب !

طمأنها الملائكة وبددوا حيرتها لما قالوا لها: كيف تعجبين من نفاذ قدرة الله، فهو القادر على خرق العادات كقدرته على إمضاء سنن الكون. ولا تعجبين من تخصيصكم بهذا الفضل فإنكم أهل بيت عمتكم رحمة الله وظهرت عنايته بكم، إن الله بما يتوالى من فضله وبما اختص به من كمال حقيق بأن يحمد، وهو المجيد سبحانه الموصوف بأسمى الصفات وأنبلها.

بيان المعنى العام :

هذه قصة أدمجت فيها قصة رسولين عاشا في زمن واحد سيدنا إبراهيم وابن أخيه سيدنا لوط. فلنتابع القصة كما عرضها علينا القرآن:

69 ←70، ولقد جاءت رسلنا إبراهيم ...ومن وراء إسحق يعقوب.

قَدِمَتْ على سيدنا إبراهيم رسل من ملائكة الله يحملون البشارة. يحتمل أن تكون البشارة ما ستعرف به الآية التالية: إعلامه بأنه سيولد له من زوجه سارة بعد كبر سنهما نبي يخلفه نبي، ويحتمل أن تكون البشارة إهلاك قوم لوط الفاسدين وتبشيره بإنجاء لوط. وكلا الأمرين مما يبتهج به إبراهيم.

قدِم الملائكة المبعوثون من الله على إبراهيم في صورة لا تدل إلا على أنهم بشر قد يكونون في تصوره من المسافرين الذين يقطعون الأرض متنقلين. افتتحوا لقاءه بتحيته، بالسلام عليه، ورد عليهم بأحسن مما سمع منهم .

كان إبراهيم ﷺ كريما، وتوقع أن ضيوفه قد يكونون في حاجة إلى الطعام، فأسرع إلى بقره، وأخذ عجلا سمينا أنضجه بين نارين من أسفله ومن أعلاه، وأقبل به يقطر دهنه وقدمه إليهم.

كان يتوقع أن يتناوله الضيوف بشراهة، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إليه. فأدخل موقفهم هذا حيرة في نفسه، بعد الاستئناس بهم ضيوفا في بيته، وقد وجد لذة نفسية في إكرامهم. وسرى الخوف منهم إلى قلبه وظهرت ملامحه على وجهه. ذلك أن العادة جرت أن المشاركة في الطعام يتبعها أمنُ كل واحد إلى صاحبه فإعراضهم عن الأكل قد يكون نذير شر.

وهنا يرتفع الغموض : طمأنوه وقالوا له: لا تخف منا. إنا لسنا بشرا ولكننا ملائكة أرسلنا الله، بمهمة ننفذها، إلى قوم لوط.

71-وامرأته قائمة فضحكت ...ومن وراء إسحق يعقوب.

تدخل في المشهد امرأة إبراهيم التي كانت حاضرة واقفة تسمع كل ما دار بين زوجها وضيوفه. ويسجل القرآن أنها ضحكت، وشأن الضحك أن يصدر عن الإنسان إذا سُرَّ بما سمعه، أو تملكه شعور ممزوج من التعجب والاستغراب.

واختلف المفسرون في توجيه سبب ضحكها اختلافا كثيرا، حتى حمله بعضهم على أن الضحك هو إحساسها بالعادة الشهرية. وهو محمل بعيد لغة ومعنى. والذي أفهمه من الآية أنها كانت مسرورة. قد يكون سرورها لما علمت أن ضيوفها ملائكة وكلهم الله بالانتقام من قوم لوط الفجرة. وقد يكون لما ذكر في الآية، وهذا مما جبلت عليه النساء، سرورهن بالحمل ينشر في نفوسهن البهجة. أو بأمر آخر مطوي، ولا يهمنا في حبك القصة معرفته على وجه الدقة، فلننصرف عن ذلك إلى ما سيأتي واضحا في مراحل القصة.

كانت سارة زوج إبراهيم منشرحة، كأنها مهيأة لحدث سار، ويأتي هذا الحدث أيضا فتبشّرها الملائكة أنها ستحمل بإسحاق وأنها سترى من ابنها هذا حفيدها يعقوب أيضا.

72←73: قالت ياويلتا ءالد ...إنه حميد مجيد.

البشارة صادقة لا تشك في تحققها، ولكن هذه البشارة كانت غريبة نظر للظروف المصاحبة التي عبرت عنها سارة في تساؤلها. وصرحت بذلك في قولها: ياويلتا!

صيغة تدل على التعجب الممزوج بالشعور بالصدمة. كيف ألد بمعنى كيف يتأتى مني الحمل، وأنا قد تجاوزت السن الذي تحمل فيه النساء أجنة! لقد بلغت سن اليأس وأصبحت عجوزا مسنة. وزوجي كبر وأصبح شيخا طاعنا في السن. فكونها عجوزا، وكون زوجها شيخا، حسب المعروف من سنن الحياة أنهما قد جاوزا سن الإنجاب، فكيف تتحقق هذه البشارة ؟

-أجابها الملائكة بما يرفع حيرتها ويزيل تعجبها قائلين: أتعجبين من أمر الله (نفاذ قدرة الله) أليس هو القادر إذا أراد شيئا يأمره فيستجيب. ولا عجب أن يصدر هذا من الله، ولا عجب أيضا في تخصيصكم بخرق العادة، لأن تعلق إرادته بإعطائكم الولد في مثل هذا السن هو رحمة وبركة، وأنتم أهل للرحمة والفضل يا أهل البيت. وتختم الآية بأن الله حميد، لا يسع المتأمل في كمالاته إلا أن يثني عليه بما هو أهله، وأنه مجيد: متصف بأوصاف العلو الذي لا يشاركه أحد فيها.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الروع : الفزع والخوف.

المجادلة : المقابلة في القول والحجج، المحاورة.

الحلم : كمال العقل مع أناة واحتمال.

أواه : كثير التوجع والاهتمام بشؤون غيره من الناس.

منيب: كثير الرجوع إلى ربه.

بيان المعنى الإجمالي :

اطمأن إبراهيم لمَّا تحقق أن الذين قدموا عليه ملائكة الرحمن، ولمَّا تتابعت عليه البشائر. ثم أخذ يسأل الإمهال لقوم لوط لعلهم يرتدعون. وذلك لأن من طبيعة إبراهيم ومن مزاياه أنه راجح العقل يتحمل الأذى ولا يسرع بالرد، كثير التأسف على كل من يصيبه مكروه، وهو في حضرة ربه يعود إليه بصفة دائمة.

و ناداه ربه: يا إبراهيم أعرض عن توسلاتك فيهم؛ إنه قد حق عليهم الوعيد، وإنه سيلحق بهم العذاب الذي لا مرد له.

بيان المعنى العام :

74←75: فلما ذهب عن إبراهيم الروع....أواه منيب.

بعد أن اطمأن إبراهيم وذهب عنه ما وجده من خوف وريبة من الضيوف الذين امتنعوا من تناول ما قدمه إليهم، وتبين له أنهم ملائكة الله أتوا ليبشروه بامتداد نسله، وبنجاة لوط من العذاب الذي سيحل بقومه. وبعد أن تأكد من أن القضاء المبرم سيحل قريبا بالقوم المفسدين، أخذ يدعو ربه ويعتذر لقوم لوط ويسأل لهم الإمهال علهم يقلعوا عن السوء الذي انتشر فيهم وتمكن منهم.

وتسجل الآية ما كان عليه إبراهيم من كمال خلقي، قام بموجبه سائلا الصفح عن قوم لوط، هذا الخلق يتمثل في أنه امتلأ حلما، مما يبين عن عقل راجح، وتحمل للأذى، وصفح عمن ظلمه. وأنه كان رقيق المشاعر قوي الإحساس يكثر من التأوه إذا رأى الانحراف عن منهج الله، يتوجع لانصرافهم عن الطريق المستقيم، ويهتم لما يصيبهم من هموم. وإن رجوعه إلى ربه يلزمه بصفة متتابعة يحاسب نفسه ويعيش في ظل القرب من ربه.

76-يا إبراهيم أعرض عن هذا.. غير مردود.

وبينما إبراهيم يسأل لقوم لوط الإمهال والتوفيق، يأتيه الخطاب القاطع: يا إبراهيم انقطع عن توسلاتك، إنه قد آن أوان تنفيذ الوعيد حسب القدر السابق الذي لا يبدل. وإن قوم لوط سيسلط عليهم عذاب لا يمكن الحيلولة بينهم وبينه.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى
هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ
ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

سيء بهم : حصل له السوء بسبب قدومهم عليه.

ضاق بهم ذرعا: ضاق ذراعه فلا يستطيع مده إلى غايته. أي لم يجد حيلة في الخروج من الأمر الذي ألم به.

عصيب : شديد فيما لا يرضي.

يهرعون :مقبلون بشدة كأنهم مدفوعون من خلفهم.

ولا تخزون : ولا تذلوني بالاعتداء على ضيوفي.

من حق : من رغبة.

ركن شديد : قوة تمنعني.

قطع من الليل : جزء من الليل.

سجيل : من واد من جهنم .

منضود : متتابع.

مسومة : عليها علامة تفرزها عن غيرها.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقلت القصة من إبراهيم إلى لوط، بتحول الملائكة إليه في صورة بشرية، فاستاء من قدومهم وشعر بالضعف والحرج، وعبر عن ذلك بأنه في يوم شديد. وبمجرد ما سمع قومه بقدوم ضيوف جدد على لوط أسرعوا إلى بيته على ما هو عادتهم من ربط علاقة شذوذ جنسي مع كل قادم. رجاهم لوط أن يحترموا ضيوفه، وعرض عليهم أن يزوجهم من فتيات هن أفضل من الذكور استمتاعا وطهارة. وحضهم على تقوى الله التي تحصنهم من الإثم الذي تعودوا عليه. ونهاهم أن يهينوه بالتعدي على ضيوفه، وتعجب أن لا يوجد فيهم رجل رشيد يحسن التدبير.

أجابوه بكل وقاحة: لما ذا اللف والدوران، إنك تعلم ما نريد من ضيوفك ولا نرغب في بناتك. قال لوط عند ذلك مظهرا الحرج الكبير الذي هو فيه بتمنيه أن لو كانت له قوة يستطيع بها أن يوقف فسادهم، أو لو كان في المنطقة رجل قوي يأوي إليه ويحميه ويمده بالتأييد ليحميه من فساد قومه، وعزمهم التعدي على ضيوفه.

عند بلوغ اليأس بلوط هذا الحد كشف له الملائكة عن حقيقتهم وقالوا له نحن ملائكة الله. فكن مطمئنا. إنهم عاجزون عن النيل منك أو منا. وإنهم قد حق عليهم ما قُدِّر لهم من عذاب. فاخرج مع أهلك في الليل وسر بهم مبعدًا عن القرية، ولا يلتفت منكم أحد إليها، واستثنوا امرأته التي ستهلك مع الهالكين. إن موعدهم المهلِك مع الصباح، والصبح قريب انبلاجه.

لما حصل الأمر التنجيزي انقلبت القرية بما تحويه فأصبح عاليها سافلها، وتتابعت عليهم حجارة من نوع خاص لا ينجو منها أحد. وهي تصل إلى الظالمين أينما كانوا.

بيان المعنى العام :

77-ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ....يوم عصيب.

انتقل الملائكة المرسلون من إبراهيم، بعد أن أكملوا ما كلفهم الله به من البشارة ومن إخباره أن قوم لوط قد حق عليهم كلمة العذاب، انتقلوا إلى سيدنا لوط فقدموا عليه في صورة بشرية. ويصف القرآن الموقف الحرج الذي كان عليه، لقد ساءه قدومُهم، ووجد نفسه في ضيق، خشية من قومه الذين شاعت فيهم الفاحشة شيوعا جعلتهم لا يتورعون من الوصول إلى فعلتهم النكراء طوعا أو كرها . ووجد مجال حفظ ضيوفه وحمايتهم مجالا ضيقا. عبر عنه بأن ذراعه أصبح محصورا لا يستطيع أن يقوم بدوره من المدافعة. وفاض صدره بما يدل على الكرب الذي استولى عليه، فقال: هذا يوم عصيب، بالغ الشدة بما ينذر به من مكروه لا يستطيع دفعه، إذ هو يتجاوز قدراته.

78- وجاءه قومه يهرعون....أليس منكم رجل رشيد.

وشاع الخبر في البلد، وتسابق نحو بيته الذي يأوي الضيوف باندفاع، جماعة من قومه، كأنما قوة من خلفهم تدفعهم، قصدُهم ما هو دأبهم من فعل الفاحشة والتعدي على الضيوف إشباعا لعرامة شذوذهم الجنسي.

بلغ الحرج بلوط أقصاه، وحاول أن يصدهم بالإقناع عما عزموا عليه فقال لهم: يا قومي ! مقربا لهم بما يربطه بهم من النسب الذي من شأنه أن يصرفهم عن إيذائه. ثم فتح لهم باب الانصراف عن الفاحشة بأنه يُمكِّن من يرغب في إشباع شهوته المتهيجة بالزواج من بنات قومه. أقدم على هذا العرض باعتبار أنه النبي فيهم، فبنات قومه كبناته. وحرضهم على قبول عرضه بأن الزواج بين الرجل والمرأة، أطهر من الفاحشة بين ذكرين شرعا وذوقا. وأضاف تذكيرهم، آمرا لهم بتقوى الله الذي يمقت فعل الفاحشة. ثم جسم لهم الوضع الحرج الذي هو فيه سائلا أن لا يذلوه وأن لا يهينوه بإهانة ضيوفه، فإن من كرامة المضيِّف أن تحترم ضيوفه، يجدون في حماه العزة والمنعة. وسألهم في الختام متعجبا: ما لكم قد اتفقتم على الفساد واختلت القيم عندكم ؟ ألا يوجد من بينكم رجل رشيد في مداركه يحسن التدبير، عاقل ذو بصيرة في تقييم الأمور، يكشف لكم سوء ما أنتم مقدمون عليه، ويردعكم عن المضي في الفساد.

79←80: قالوا لقد علمت ما لنا ...إلى ركن شديد.

بلغت الأزمة أشدها. وتحول الحوار بين لوط وقومه إلى حوار الصم. فما نفذ تذكيره ولطفه وحسن تأتيه في المحاورة إلى عقولهم، ولا حرك فيهم داعية الخير والرجوع إلى ما هو حق بين. وقالوا له: ما لك تتجاهل ما أنت عالم به، إنك تعلم من سلوكنا ومن قيمنا الاجتماعية أنا لا نرغب في النساء اللاتي عرضتهن علينا، ثم أكدوا في وقاحة: إنك يا لوط تعلم ما نريد أن نحصل عليه، فنحن مصممون على النيل من ضيوفك فلماذا الدوران؟

بلغت الحيرة من لوط أشدها، وانكشف له أن قومه جمعوا بين الوقاحة والتحدي. فرجع إلى نفسه معبرا عما بلغه من اليأس: ليت لي قوة ذاتية أمنع بها ضيوفي منكم، بما يوحي أن كثرتهم كانت تفوق قدراته الذاتية. أو ليت لي قوة خارجية أستند إليها تمنعني. قوته الذاتية أضعف من أن تقاوم هذا الرتل المتتابع من قومه، ولا يوجد في محيطه من يحمي الحق أو يسنده. فالتعبير يوحي بأن اليأس استولى على مشاعره، وضاقت به الحيل التي تخرجه من المأزق الذي هو فيه.

81←83: قالوا يا لوط إنا رسل ربك ... وما هي من الظالمين ببعيد.

جاء الفرج بعد الشدة فسجلت الآيات الثلاث الألطاف التي تدارك الله بها لوطا.

-حضر الملائكة ما دار بين لوط وقومه، وشهدوا إصرارهم على الفساد فتم تسجيل ذلك عليهم. ولما يئس منهم لوط ويئس من وجود قوة تساعده في محنته، صرح له الملائكة بما يخرجه من الضيق الذي هو فيه .قالوا له : لسنا بشرا، ولكنا ملائكة الله أرسلنا إليك . إنهم عاجزون عن الوصول إليك أو عن النيل منا. فقد أعمى الله أبصارهم كما جاء في سورة القمر: **(ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم)**[1] - فكن مطمئنا يا لوط. وأنت مأمور بأن تخرج مصاحبا أهلك ليلا وتسير بهم، واقطعوا علاقتكم بالقرية الظالمة الفاسدة، فلا تلتفتوا إليها. ولم يبين القرآن السر في هذه الوصية. ويحتمل أن لا يبقى في نفوسهم تعلق بها، كما يحتمل أن العذاب الذي سينزل بها مما لا تتحمل الطاقة البشرية مشاهدته. ولا تأخذ امرأتك معك، أو إن امرأتك ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. وعلى التقديرين فزوجته هالكة ولا بد. وسينزل بهم العذاب مع الصباح .ومن المؤكد أن وقت حلول الصبح قريب وليس ببعيد.

---

[1] سورة القمر آية 37

النهاية: لما آن الموعد الذي حدده الله في سابق علمه لإهلاك قوم لوط، في لحظة انقلبت القرية فأصبح أسفلها أعلاها. وتتابع عليهم من السماء القذف بحجارة محماة قد تكون من واد بجهنم، وقد يكون ذلك على التشبيه كأنها من ذلك الوادي، وهي حجارة ليست كالحجارة تتميز بعلامتها التي تفرزها عن غيرها من أحجار الأرض بتقدير من ربك يا محمد.

ثم التفت القرآن إلى المشركين يهددهم، بأن آثار الخسف والعذاب قريبة منهم وليست بعيدة عن الظالمين وهم ظالمون بالشرك، فليرتدعوا عن الشرك. كما يحتمل المعنى أن إصابة قوم لوط بالحجارة من سجيل ليس بعيدا عن الظالمين.

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخير : حسن الحالة، ومنه وفرة الخير او رخص الأسعار.

محيط : يحيط بكم فيه العذاب.

القسط : العدل.

البخس : النقص.

تعثوا: تسعون في الفساد.

بقية الله : ما يبقيه الله لكم ويدوم. أو إبقاء الله خير لكم.

حفيظ: مجبر.

الحليم : صاحب العقل الراجح.

الرشيد :الموفق في التصرف في الأموال.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله إلى قبيلة مدين رسوله شعيبا، وكان فردا من أفراد القبيلة ليس غريبا عنها. طلب منهم أن يفردوا الله بالعبادة، وأن لا يحتالوا على المتعاملين معهم

بالتنقيص من الكيل أو من الميزان. وذكرهم بأن وضعهم المالي وضع ميسر فهم بخير، الأمر الذي لا يجدون معه عذرا لما يقومون به. وحذرهم من اليوم الذي يحيط بهم العذاب فلا يجدون منه مخرجا، وأمرهم أن يحكموا العدل في تعاملاتهم، وأن لا يحطموا أمل العارضين للسلع بإظهار عيوب موهومة وانتقاص في القيمة ليستولوا عليها بثمن دون قيمتها الحقيقية. وأن يتذكروا دوما أنهم مستخلفون في الأرض فلا يفسدوا فيها. وإن تطبيقهم لما عرضه عليهم هو طريق الخير فعليهم أن يلتزموه إن كانوا مؤمنين. وختم موعظته: بأنه لا يجبرهم على اتباع ما دعاهم إليه.

كان جوابهم الرفض لما تضمنته رسالته، وتأولوا أن ما جاءهم به إن هو إلا تصورات نشأت من الصلوات التي شاهدوه ملازما لها، وإلا فكيف ينهاهم عن عبادة ما استقر عليه آباؤهم! ثم إن الأموال التي تَدَخَّلَ في طريقة التصرف فيها بتحريم التطفيف ونحوه، هي أموالهم التي حصلوا عليها بجهدهم، فلا يقبل أن يتدخل أحد في تصرفاتهم، وهي الحرية الفوضوية التي ما تزال إلى اليوم حجة من فقدوا الإيمان. ثم ختموا تعجبهم بأن ما صدر منه لا ينسجم مع ما عرفوه من كمال عقله، ومن حسن تصرفه في الاستثمار.

بيان المعنى العام:

84←86: وإلى مدين أخاهم...عليكم بحفيظ.

أرسل الله إلى مدين رسولا منهم كما أرسل نوحا وهودا وصالحا، مما يبين أن الله، بفضله ورحمته، يساعد البشر على الاهتداء، فيرسل رسله من نفس الأقوام المرسل إليهم، يكونون قد خبروهم واطمأنوا قبل دعوتهم إلى صدقهم وكمال أخلاقهم .

ومدين قبيلة منسوبة إلى جدهم مدين. كانت مواطنهم بين الحجاز وخليج العقبة بقرب ساحل البحر الأحمر. وما روي في نسبهم لا يطمأن إليه .

بعث الله إليهم شعيبا ليهديهم بعد ضلال كبير في العقيدة واختلال في بنائهم الاجتماعي. فدعاهم:

أولا: إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وهي الدعوة التي انطلق منها كل رسول لتوجيه المرسل إليهم إلى الحق الذي تبنى عليه العقيدة والسلوك. وأن الانحراف عنه هو الضلال والضياع. يترتب عنه فساد في التصور، وفساد في العلاقات الاجتماعية، وفساد في ارتباط الإنسان بالكون الذي يعيش فيه.

ثانيا: إلى الصدق في المعاملة والابتعاد عن الحيل التي يتمكن بها أحد الطرفين من مغالطة الطرف الآخر والاستيلاء على حقه. فنهاهم عن تنقيص حق المتعامَل معه

من الوزن، أو الكيل، بإيهامه أنه أُعْطِيَ حقه كاملا، والمحتال قد غالطه واستولى على ماله باطلا. وشنع على هذه الطريقة التي شاعت فيهم، بأنهم لا يجدون مبررا ولو وهميا لما يفعلونه، فهم يعيشون في سعة ووفر من الخيرات، وليس بهم حاجة لمثل هذه التصرفات. ونبههم من ناحية أخرى إلى أنهم يعرضون أنفسهم إلى عذاب الله في يوم عظيم أخذُه، إما في الدنيا وإما يوم القيامة يوم الحساب. هذا العذاب الذي يحيط بهم لا يجدون عنه مخرجا.

أكد شعيب هدايته تلك، بأن ثنى مصرحا بما يفيده النهي. فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان: أي إعطاء الطرف المقابل حقه كاملا غير منقوص، ووضح ذلك بربطه بالعدل الذي لا يظلم فيه أي طرف الطرف الآخر .وهو معيار مغروس في الفطرة البشرية.

ثم نهاهم عن نوع آخر كان فاشيا فيهم، وهو أن بعض أصحاب المعرفة يظهرون ما ينقص من قيمة المعروض، ليستولوا عليه بثمن ناقص عن قيمته، وهو استغفال للجالبين للسلع باعتبار أن الخبير مدرك للقيم وللجودة، فيكون قصده مما يظهره من جوانب سلبية في السلعة، يرمي من ورائه أكل المال بالباطل.

ثم نهاهم نهيا عاما عن كل فساد في الأرض، فقال: ولا تعثوا في الأرض مفسدين – ولا تعثوا أي : ولا تفسدوا في الأرض فسادا مخربا. ذلك أن غمط حقوق الناس، كالاحتيال في الكيل والميزان، وكاختلاق العيوب المنقصة من قيمة السلع، هي ونحوها مما يعطل النمو ويزهد الناس في الإنتاج، وذلك إفساد في الأرض التي استخلفنا الله فيها لنعمرها. والتعمير لا يكون إلا بالتنمية.

وواصل حظهم على الاستقامة بأن ما يبقيه الله لهم من البركة في أرزاقهم، وما يبقيه فيدخره لهم من الثواب على التزامهم بالصدق في المعاملة، هو خير لهم مما يستعجلون الحصول عليه بالطرق الملتوية. وإنكم لتدركون ذلك إذا رجعتم لما يقتضيه التأمل العقلي في الصلاح الاقتصادي، وما يدعو إليه الإيمان.

وختم موعظته بأنه مبين لهم، ومبلغ لهم ما أوحي إليه، ويبقى كل واحد منهم مختارا مسؤولا عن اختياره، ولا أكره أي أحد .

87-قالوا يا شعيب أصلواتك ...الحليم الرشيد.

قابل قوم شعيب دعوته بالرفض. وذلك بفرض أن ما طلبت منا اعتقاده والتزامه، قد انتقش في عقلك بسبب ما نراك ملتزما به من الصلوات. كأنهم يعيبون عليه مواظبته على الصلاة، ولا يرون إلا أنها كانت سببا في تصورات هي حقيقة دعوته التي قامت:

أولا: على ترك عبادة ما عبده آباؤهم، يردون عليه بأن مخالفة الآباء على ما كانوا يقيمون عليه، والذي نجحوا به في حياتهم غير مقبول.

وثانيا: على التحكم المرفوض في طريقة تصرفهم في أموالهم. ذلك أن تلك الأموال جمعوها بجدهم؛ فلا يقبل أن تتدخل فينا.

و ختموا باستغراب أن تصدر هذه التعاليم عنه، فإنه معروف برجاحة العقل وحسن التفكير فلا يقبل منه أن يطرح ما ثبت عليه آباؤهم، وبأنه رشيد محسن للتصرف المالي، عارف بوجوه تنميته، فكيف ينهاهم عن التطفيف وما عطف عليه. وبه تنمو ثرواتهم؟

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

التوفيق : خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

توكلت : تقويت بعون ربي.

رهط الرجل : القرابة الأشد قربا منه.

رجمناك : قتلناك بالرمي بالحجارة.

ما أنت علينا بعزيز: لا يعجزنا قتلك وذلك هين.

ظهريا: وراء الظهر أي منسيا.

محيط : لا يخفى عنه علم أي عمل من أعمالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل القرآن تسجيل ما دار بين شعيب وقومه .قال لهم: يا قوم ما ذا تظنون أن يقع بي من السوء إذا أنا لم أبذل كل جهدي لإبلاغكم ما أوحي إلي، مع أني متمكن من هدي الله ورزقني النبوة خير ما يرزق .ولا أقصد من تذكيركم أن أظهر بمظهر المخالف لكم، بل ما أريد إلا الإصلاح على قدر طاقتي. وإذا وفقت فبفضل الله علي، ولأني معتمد عليه، وأعود إلى فضله ليؤيدني. وثنى بأن نهاهم عن أن يحملهم مضادة الحق الذي جاء به على العناد فيصيبهم من العذاب ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وقوم لوط قريبون منكم زمنا ومكانا. فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم . وتقربوا إلى ربكم بطلب المغفرة لما سلف منكم واندموا على ما فرط منكم، فإن الله رحيم بعباده إذا ما توجهوا إليه، ويحصلون على حبه رغم ما فعلوه قبل توبتهم من العصيان.

كان جوابهم: إنك لم تفلح في توضيح مرادك، وقوَّمْناك فتبين لنا أنك ضعيف لا تقدر على مقاومتنا، ولولا مكانتك عند أقاربك الأقربين لرجمناك بالحجارة، وما أنت بالرجل العزيز علينا.

أجابهم شعيب منكرا عليهم أن يقدِّموا في رعايته أقاربه، وينسون أنه مبعوث من عند الله الذي هو حاميه، والله لا يغيب عنه أي عمل من أعمالكم.

وهددهم في النهاية بعد أن يئس منهم، فقال لهم: استمروا على فسادكم، وإني مستمر على صلاحي. سوف تتبين لكم العاقبة، من يهلك بالعذاب المذل، ومن هو كاذب وانتظروا حلول ما وعدتكم به فإني منتظره معكم.

ولما قرب الموعد أنجى الله شعيبا والذين آمنوا معه وشملتهم رحمته،وأخذ الله شعْب مدين بصيحة قوية تجاوزت طاقة الإنسان فأصبحوا في ديارهم جاثمين على وجوههم لا حراك لهم، كأنهم لم يعمروا تلك الأماكن فلم يبق لهم أثر. أبعد الله مدين كما أبعد ثمودا تلحقهم الذلة والمهانة، وكلاهما هلك بالصيحة.

بيان المعنى العام :

88←90: قال يا قوم...رحيم ودود.

واصل القرآن تسجيل الحوار الذي دار بين شعيب وقومه:

قال شعيب: ما هو ظنكم إن كنت موقنا بأني متمكن من الحق البين الذي تلقيته عن ربي، وأكرمني بأن رزقني النبوة، وهي الرزق الحسن، وأسرعتم إلى تكذيبي ما ذا تكون عاقبتكم ؟ أليس من الحزم أن تصدقوني، خاصة وأن مضمون رسالتي إن تأملتم فيه لا تجدونه إلا محصلا لخيركم.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإني لا أريد أن أنهاكم عما نهيتكم عنه، ثم أعمل بخلاف ذلك في حياتي. فأنا ملتزم بتطبيقه، سائرٌ على ذلكم النهج. كما أني لا أقصد أن أظهر مخالفتي لكم، وما فرضتموه من أني أقصد إلى الخروج عن معتادكم وإظهار أني مخالف لكم، هو فرض خاطئ، فإني ما أريد إلا أن أصلح روابطكم الاجتماعية وتصوركم للكون وللخالق. وأعمل لبلوغ ذلك باذلا كل ما أملك في حدود طاقتي.

ثم إن تحقيق ما أسعى إليه، وخروجكم من الضلال إلى الهدى، وتقوية روابطكم الاجتماعية، لا يتم إلا بفضل من الله. فإنه سبحانه الموفق للخير بتيسير الأسباب ورفع المعوقات. إني معتمد عليه في جعل دعوتي تحقق الآثار الطيبة. وإني أعود إلى ربي فهو المرجع الذي استقي منه الهداية، وييسر لي العون.

و يا قوم لا يجرمنكم. هذه عبارة تكررت في القرآن تفيد النهي عن التلدُّد والعزم على العصيان مما يجعل الشخص يقرر القيام بفعل يستجيب لعواطفه مع أنه يعلم في باطنه أنه غير صالح. لا تحملنكم مخالفتي، واختياركم طريقا هو في شق وأنا في شق يقابله، من أن يفضي بكم ذلك إلى أن يسلط الله عليكم نكالا مثل ما أصاب قوم نوح، أو ما أصاب قوم هود، أو قوم صالح. وكانت عاقبة هذه الأقوام معروفة عندكم. ثم إن قوم لوط لم يمض عليهم أمد بعيد فيعمل النسيان في ستر ما أصابهم، بل عهدكم بهم قريب، وكذلك منازلهم قريبة من منازلكم.

وبعد أن فتح بصائرهم ليتقوا إصابتهم بمثل أصاب المعْرِضين عن هدايات الرسل السابقين، أرشدهم لما يرقق القلب، ويجلب رضوان الرب، إلى طلب المغفرة من الله بستر ما اقترفوه من ذنوب وما ارتكبوه من آثام، وأن يعلنوا إقلاعهم عن سيرتهم السابقة، ويظهروا الندم على ما فرط منهم، فيجددوا صلتهم بالله وترتقي أشواقهم إلى القرب منه .ومما يفتح آمالهم في القبول أن الله رحيم بعباده، يحب لهم الخير وسلوك طريق الرشد.

91 -قالوا يا شعيب ما نفقه...بعزيز.

قابل قوم شعيب إفصاحه عن تقريبه لهم وإرادته الخير لهم وتذكيرهم أجمل تذكير وألطفه، قابلوا ذلك بقولهم:

إنا لم نفهم كثيرا من كلامك، فلم تفلح في الإبانة عن مرادك، ودعوتك غير واضحة. ومن ناحية أخرى فتقويمنا لك كشف لنا عن ضعفك، فأنت لا تتقوى بحجة ملزمة، ولا بقوة جسمية تحميك من بطشنا. وشيء واحد راعيناه فلم نعجل برجمك بالحجارة، هو مكانتك من أقاربك الأقربين الذين نوقّرهم، ولا نريد أن نغيظهم برجمك. وفي اختيار العقوبة بالرجم، ما يفيد شدة نقمتهم على شعيب لأن الرجم عقوبة فيها تحقير وإذلال. وصرحوا بهذا المعنى لما قالوا له: مقامك هيِّن ولا عزة لك، ونعلم أنك لا تجد من ينصرك منا.

92←93: قال يا قوم أرهطي ...معكم رقيب .

أجابهم شعيب عن وقاحتهم، وتهديداتهم، وسوء تقديرهم لمقام الألوهية، بقوله: يا قوم! إن أمركم لعجيب، تذكرون أنكم قصّرتم في إذايتي تقديرا منكم لرهطي وقرابتي الأقربين، وأغفلتم لكفركم وضلالكم أني معتز بتأييد الله لي. أبلَغت بكم الغفلة أن نسيتم قدرة الله، وجعلتم الله وراء ظهركم نسيا منسيا، لا ترقبونه ولا تتفكرون في حضوره معكم في كل لحظة وأوان. واعلموا أن علم الله قد أحاط بكم فلا تعملون عملا إلا والله شهيد عليكم، مطلع على ما يصدر منكم وعن نياتكم الباطنة ولا يفلت شيء من علمه سبحانه.

ثم كرر نداءهم ليوقظهم مهددا لهم مظهرا يأسه من هداهم فقال: يا قوم اعملوا على الحالات التي تعملون عليها، وامضوا على السيرة التي تباشرون بها الحياة العملية والعقدية. وفي المقابل إني ماض على طريقتي التي دعوتكم إليها فأبيتم. سوف تعلمون علم اليقين الواقعي، من تكون عاقبته العذاب المذل، ومن يفضح بأنه كاذب. وانتظروا حلول ما أنذرتكم فإني معكم من المنتظرين. فهو معلن لهم أن العذاب قريب منهم.

94←95: ولما جا أمرنا...بعدت ثمود.

بعد أن يئس شعيب من اهتداء قومه أعلن لهم مفارقته لهم، وأن عليهم أن ينتظروا تحقق ما أوعدهم به. ولما قرب الموعد ظهر في الواقع مصداق قوله عليه السلام "وارتقبوا إني معكم رقيب" فأنجى الله شعيبا والذين آمنوا معه بسبب ما قدره لهم من الدخول في رحمته، واستولت على الذين ظلموا بشركهم وعنادهم صيحة انقلبوا بها جثثا هامدة، فما قدم الصباح إلا وهم منكبون على وجوههم لا حراك لهم. امَّحى تاريخهم في لحظة كأنهم لم يعمروا تلك الأرض ولم يقيموا فيها. ذهبوا يلحقهم الخزي وتتبعهم المهانة فهلكوا كهُلْك ثمود. وتشابه العذابان إذ كان كل منهما هلك بالصيحة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

السلطان : البرهان.

رشيد : الرأي الرشيد هو المعبر عن الصواب.

الورد : أصله الماء الذي يقصد إلى الارتواء منه.

يقدم : تقدم.

الرفد : ما يرفد به، أي يعطى.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا موسى مؤيدا بالمعجزات الظاهرة وبالحج الواضحة البالغة، إلى فرعون وأكابر القوم الذين كانوا يقودون الدهماء إلى حيث يريدون. فجروا على عادتهم، وما هي إلا إتباع ما يأمرهم به فرعون .وما كان فرعون ذا رأي سديد ولا فكر رشيد .يتبين ذلك من العاقبة التي يصيرون إليها، فقد أدخلهم النار، وبئس المصير .وحلت عليهم اللعنة والعذاب والهوان في الدنيا، وتتابع ذلك يوم القيامة وبئس ما غنموا من إتباعه ومالحقهم.

بيان المعنى العام :

96←99 : ولقد أرسلنا موسى ...الرفد المرفود.

أتبع القرآن قصة شعيب وقومه بقصة موسى عليه السلام مع فرعون وقد أظلهما زمن واحد، إذ تزوج موسى بنت شعيب.

ذكر من قصة موسى أن الله بعثه مؤيدا ببراهين قوية وواضحة لا تقبل الرد. أرسله إلى فرعون وأصحاب الجاه الذين كانوا يدبرون أمر الدولة مع فرعون. وبقية أفراد الشعب كانوا يأتمرون بما يأمرونهم به، ولا يخرجون عن طاعتهم. ولذلك نصت الآية على فرعون وملئه. أسرع فرعون بتكذيب موسى واتبعه من كان حوله فقدموا رأي فرعون على رسالة موسى. وكان فرعون سفيه الرأي بعيدا عن الرشد في التفكير.

ويحشرون معه يتقدمهم ويقتفون أثره. فكان قائدهم إلى النار. وما أسوأها من قيادة رمت بهم في الجحيم. وتبعتهم اللعنة في الدنيا فأغرقوا مهانين، وتتبعهم اللعنة يوم القيامة. وما أسوأه من مصير. وأصل معنى الرفد ما يعطى بقصد الإعانة من

مال(رفد) المرفود المتبوع. فهم قد لعنوا في الدنيا، وأضيفت إلى لعنة الدنيا لعنة الآخرة.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأنباء : الأخبار.

قائم : باق آثارها.

حصيد : ذهبت آثارها.

تتبيب : خسرانا.

الشقي: من أحاط به السوء.

السعيد : من جمع الأحوال الحسنة.

مجذوذ : مقطوع.

مرية : شك.

التوفية : إكمال الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القصص التي تتابعت في هذه السورة ما كان لك أن تعلم تفاصيلها لولا ما مكناك منه من الوحي. لقد نفذ فيهم الوعيد فبعض القرى درست ولم يبق لها أثر،

وبعضها ما يزال شيء من آثارها ثابتا. إن ما حل بهم لا ظلم فيه. ولكن الكافرين الهالكين هم الذين ظلموا أنفسهم بالتصميم على الكفر وتعليق آمالهم بالأصنام، فما استطاعت آلهتهم التي عبدوها أن تصرف عنهم البلاء عندما قدر الله إنزاله بهم. وبذلك تكون تلك الآلهة ما زادتهم إلا خسرانا على خسران.

وعلى ذلكم النحو يهلك ربك الأمم الظالمة المكذبة وينفذ عقابه يصحبه الألم الشديد الذي يحيط بالظالمين فلا يستطيعون أن ينفلتوا منه.

إن في تلكم القصص الصادقة ما يقوم دليلا على تحقق العذاب للظالمين يوم القيامة الأمر الذي يحمل الصالحين على الحذر منه. إن يوم القيامة سيجمع الله فيه جميع الناس، وهو يوم يحضره كل إنسان. إن تأخير ذلك اليوم هو بقدر الله الذي رتب منذ الأزل الموعد الذي ستحشر فيه الخلائق فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر لحظة.

إن الناس على قسمين يوم القيامة: قسم شقي، وقسم سعيد.

فأما الأشقياء فتأخذهم نار جهنم لا يخرج نفسهم من صدورهم إلا بجهد (زفير)ولا يستنشقون نفسا جديدا إلا مع عذاب (شهيق) وقد كتب الله للأشقياء الخلود في العذاب خلودا أبديا. وهذا الخلود لا يستعصي على القدرة الإلهية إنهاءه إذا ما تعلقت إرادته. إن إرادته لا يعوقها شيء

وأما السعداء فهم خالدون في نعيم الجنة خلودا أبديا إلا ما شاء الله، على معنى أن مشيئة الله لا يعوقها شيء. إنه عطاء لا ينقطع.

وخاطب القرآن كل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب، أن لا يشكوا في مآل مشركي مكة؛ فإنه سيلحقهم ما لحق المكذبين السابقين، إذ لم تَتْبَنِ عبادتهم على حق وإنما هم مقلدون لضلال آبائهم. وسينالون جزاء ما عاكسوا الإسلام وآذوا المسلمين وفتنوهم الجزاء العادل.

بيان المعنى العام :

100←102: ذلك من أنباء الغيب..إن أخذه أليم شديد.

يمثل هذا المقطع نظرة عامة على العبرة التي يستفيدها القارئ المتأمل في القصص السابق من نوح إلى موسى.

أولا: اعتبر بما قصصناه عليك من أحوال الرسل مع أممهم، وما انتهى إليه أمر تلك الأمم لما نفذ فيهم الوعيد فهلكوا، وإن كانت بعض من مساكنهم قد درس ولم يبق له أثر، وبعضها ما تزال آثارها قائمة. وما كان لك لتعلم تفاصيل ما جرى في تلك الأزمنة الغابرة مما هو غيب لولا الوحي الذي خصصتك به.

إن هذه الصورة من الفناء والخراب كانت جزاء وفاقا لما قابلوا به رسل الله، ولا يعتبر سحقهم ظلما، فإن الله لا يظلم أحدا من خلقه. ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم فسلكوا بها المسالك المهلكة، وانصرفوا عن الطريق المنجي. لقد تعلقوا بالأصنام فعبدوها وتخيلوا أنها تنصرهم عند الشدائد، فما وجدوا لها من غناء ولا دفع لما حل تنفيذ ما قدره الله لهم من العذاب جزاء كفرهم وتكذيبهم وإصرارهم على العناد. فآلهتهم عاجزون عن الدفع عنهم، ما استفادوا من عبادتهم إلا الخسران المبين. من سفاهة عقولهم تصورهم أن لأصنامهم مكانة تشفع لهم عند الله عما اقترفوه. وتصوروا أنها تحميهم من كل مكروه. فكان اعتقادهم ذلك صارفا لهم عن التأمل في الآيات التي لفت أنظارهم إليها رسل الله، فما زادتهم آلهتهم إلا خسرانا مبينا.

إنه على هذا النحو من الاستئصال والقضاء المبرم، يهلك ربك القرى الظالم أهلها فلا ينفلت أحد منهم من عذاب الله عند حلوله. إن نفاذ عقابه أليم يحس به الظالمون عميق الإحساس، وإنه لشديد مدمِّر.

وفي ذلك تهديد لأهل مكة الممعنين في كفرهم المنصرفين عن هدي سيدنا محمد ﷺ؛ إنه سيجري عليهم ما جرى على المكذبين من الأمم السابقة.

103←108: إن في ذلك لآية...غير مجذوذ.

إن ما ورد في القصص السابقة من تنفيذ الله وعيده، يقوم دليلا على أن يوم القيامة آت لاريب فيه. لقد أنذرت الرسل عليهم السلام أقوامهم ما سيحل بهم من عذاب في الدنيا، وقد تحقق، فكذلك سيتحقق ما أوعدوهم به من بعث للحساب والجزاء. كما يقوم ذلك دليلا إضافيا للمؤمنين الذين يخافون عذاب الآخرة فيحفزهم لفعل الخير والاستعداد له بما يرضي الله.

إن يوم القيامة يوم سيجمع الله له البشر جميعا فلا يتخلف أحد عن الوقوف به. وسيشهده كل فرد شهود الشيء المهول المحقق الذي لا مرية فيه.

أنكر الكافرون هذا اليوم، وعللوا أنفسهم بأنه لو كان حقا لم يتأخر. فحققت الآية أن هذا اليوم قد حدد الله وقت حلوله في أجل لا يتقدم ولا يتأخر. فالعالم كله مبني على نظام دقيق قدره رب العزة من الأزل. فقدر زمان إيجاده كما قدر وقت نهايته والوقت الذي يبعث فيه البشر. وربطه بحساب مضبوط، فلا يأتي إلا عند بلوغ الحساب تمامه.

اعتنى القرآن بتفصيل هول يوم القيامة؛ فبين أن الناس على قسمين متمايزين: قسم شقي الشقاء الذي ليس بعده سعادة، وقسم سعيد سعادة لا تتحول إلى شقاء. هو يوم

يبلغ من هوله أنه يعقد على الألسنة فلا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بعد الإذن له من مالك ذلك اليوم رب العالمين. ثم أخذ القرآن في تفصيل بعض ما يلقاه كل فريق:

أما الأشقياء فإن مستقرهم النار، التي يتقلبون فيها بين زفير، يتم الضغط على صدورهم وتنحبس أنفاسهم فلا تخرج إلا بزفرة دافعة بقوة؛ فهم في شدة عندما يخرجون أنفاسهم، وفي المقابل فهم لا يستطيعون أن يأخذوا الهواء لصدورهم إلا بعسر يتمثل في شهيقهم. وإن ذلك يمثل نوعا من أكدار المعذبين في جهنم. إن جري النفس بلطف في الحياة نعمة قد يغفل عنها كثير من الناس، وعسر التنفس إدخالا وإخراجا يلهي المصاب عن كل شيء ويفقد معه أساس الراحة. ويصاحبهم هذا العذاب وهم في النار، ويتواصل تواصلا لا انقطاع له. فليس المقصود أنه عندما تنتهي السماوات والأرض سيخفف عنهم ما يلقونه، كلا بل هو تجسيم لاستمرار العذاب إلى أبد الآبدين. وقد استثنى القرآن من أزمنة خلود الأشقياء في النار الزمان الذي يشاء الله أن ينقطع فيه العذاب عنهم. ومعنى ذلك والله أعلم: أن العذاب المسلط عليهم سيتواصل بإرادة الله وأنه لا يجب على الله شيء، فلو تعلقت مشيئته بتفريج كربتهم لفعل، وإن كان سبحانه قد أخبر أنهم خالدون بإرادته لا يخرجون من النار .

وأما الذين سعدوا برضوان ربهم فمصيرهم إلى الجنة ينعمون فيها بأنواع الكرامة التي كتبها الله لعباده الصالحين فيها، لا يخرجون منها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله، يفهم التعبير كما فهم التعبير السابق. وينفي القرآن احتمال تصور انقطاع الكرامة، بقوله: عطاء غير مجذوذ أي غير منقطع .

109-فلا تك في مرية مما يعبد...غير منقوص.

ثم توجه القرآن إلى كل تال للقصص السابقة أن يتأمل فيها ويتعظ بها، وأن يكون على يقين من أن مشركي مكة سيلقون ما لقيه المشركون في أحقاب التاريخ . وأن لا يدخله الشك في ذلك. إنهم عبدوا ما ليس حقيقا بالعبادة، وما بنوا صلتهم بمعبوداتهم على أساس من النظر والتفكير، ولكنهم هم مقلدون لآبائهم الضالون.

والعدالة الإلهية تسري عليهم، فهم قد وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بناء على الاتباع التقليدي الغبي، وآذوا المؤمنين، فسيُوَفَّوْنَ جزاء ما عملوا جزاء هو كفاء ما قدموا من ظلم وغمط للحق.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِن كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

كلمة :ما حكم به في الأزل من ترك الاجتهاد للبشر.

لقضي بينهم : لأزال الخلاف.

لا تطغوا : لا تجاوزوا الحدود.

الكون إلى الشيء : الرضا به.

طرفا النهار : أوله وآخره.

الزلف: جمع زلفة، وهي الساعة القريبة من أختها .

بيان المعنى الإجمالي:

أنزل الله (الكتاب) التوراة على موسى عليه السلام. ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يحتفظوا بسلامة نصه، فاختلفوا في نصه كما اختلفوا في مضامينه. ولولا أن الله قضى في الأزل أن يكون المرسل إليهم مكلفين بالاجتهاد مجزيين عليه، لولا ذلك لرفع الله الخلاف بينهم بإظهار التصور الصحيح والتنصيص على التصورات الخاطئة . واليهود مغرقون في الشك مما انقلب معه دينهم إلى شك وريبة.

اثبتْ يا محمد مواصلا الاستقامة على المنهج الذي أمرت به. وليكن المؤمنون الذين اتبعوك وتابوا من الكفر ملازمين للاستقامة. وإياكم والخروج عن الحدود التي حددها الله.

ولا تميلوا إلى الذين ظلموا بالكفر والعصيان، فالميل إليهم داعية للتأثر بهم وإصابتكم بعذاب النار. وإنكم لا تجدون من يقبلكم إذا التجأتم إليه غير الله، كما لا تجدون نصيرا ينصركم سواه.

وأدِّ صلاتك على أكمل الوجوه في أول النهار (صلاة الصبح) وفي آخر النهار (صلاة العصر والمغرب)وأوقاتا متقاربة من الليل (صلاة العشاء) وأبشر فإن فعل

الصالحات يتبعها ثوابها من ناحية، وتمحو الصغائر من الذنوب .إن في ذلك ما يؤكد التذكر واليقظة لمن شأنه أن يتذكر، ولا يمر مرور الغافلين. وعليك أن تتقوى بالصبر عما نهى الله عنه، والمداومة على فعل الخيرات. إن الصابرين محسنون، والله قد ثبّت أجرهم فلا يُضيع شيئا من صالح سلوكهم.

بيان المعنى العام :

110←111: ولقد آتينا موسى الكتاب ...يعملون خبير.

أفادت القصص التي تتابعت في هذه السورة تثبيت النبي ﷺ بعرض مقابلة الشرك لهدايات الله. وعطف على ذلك في هذه الآية، أن الله بعث سيدنا موسى عليه السلام مؤيدا بكتاب هو التوراة التي نوه بها القرآن، بأن فيها هدى ونورا، ومع ذلك فقد اختلف قومه فيها اختلافا بينا بالزيادة والنقص والتحريف وسوء التأويل. فلا يحزنك يا محمد موقف المشركين من القرآن.

إن إظهار الحق إظهارا ملجئا ليس من سنن الله التي أجرى عليها التكليف. ولكنه سبحانه ترك الناس لاجتهادهم، ينظرون ويعمقون التأمل فيهتدون، فيجزون جزاء مضاعفا على اجتهادهم الموفق. ويجتهدون فيخطئهم الصواب في غير العقيدة ويؤجرون لاجتهادهم. ويقتحمون بالتأويل المبني على التحريف والاستجابة لدواعي الهوى فيأثمون. وقد تتصارع الأفكار. ولم يكن من سننه سبحانه أن يحسم الأمر حسما يرفع النزاع. هذا هو قدره. ولو شاء أن يلجئهم إلى الرأي الحق لفعل، ولكنه لم يرد ذلك فلا يتحقق.

ولو حسم الله الأمر حسما يرفع كل اجتهاد وتأويل لقضي بينهم باستئصال من لم يكن على حق، ولكنه أراد أن تبقى سنة الاجتهاد في الاتصال بالنص، حتى يبقى على جدته وقوته.

ثم عرفت الآية بوجه من الاختلاف حمى الله منه القرآن، وهو الاختلاف في نص الكتاب. فاليهود لم يسلم لهم نص التوراة فبلغ الاختلاف بينهم في ضبط النص، وأدى ذلك إلى تأصل الشك فيه شكا أدخل في عقيدتهم الريب والشك.

إن ذلك الاختلاف ودوافعه المتباينة بين قصد الخير وقصد الإضلال، وما ينبني على ذلك من سلوك، كل ذلك سينال به كل فرد جزاء عمله. والله وهو المتصف بالعدل الكامل يجزي كل فرد حسب ظاهر عمله وباطنه، لأنه الخبير، الدقيقُ علمه بكل ما يصدر من الإنسان.

112-فاستقم كما أمرت...بما تعملون بصير.

توالى عرض أحوال الأمم السابقة، وانتهى البيان إلى اختلاف اليهود في كتابهم بين الانحراف الكامل وبين الوفاء لنصه وروحه، فناسب أن يتوجه القرآن لرسول الله ﷺ ليواصل ثباته على المنهج المستقيم الذي لزمه في حياته وفي شجاعته في القيام بالدعوة إلى الإسلام، رغم ما كان يلقاه من الأذى والعناد من أهل مكة. والآية مكية كالسورة. والاستقامة تقتضي أن يكون مطبقا تطبيقا كاملا لما جاءه من ربه في العبادة والمعاملات والعلائق البشرية. ومجموعها يمثل الكمال الناتج عن اليقظة لاتصال الفرد بربه، والإرادة الحازمة لتطبيق ذلك، مهما اختلفت الظروف والأوضاع. والنبي ﷺ هو في المستوى الأرفع والأكمل في الالتزام، بل إنه يجد لذته في طاعة ربه على ذلكم المستوى. وأمر المؤمنين بأن يسيروا على نهجه، وعبر عنهم بمن تاب باعتبار أنهم في الظرف الذي نزلت فيه الآية كانوا تائبين من الشرك عائدين إلى الفطرة، دين الإسلام. وتأكيدا للاستقامة نهى عن الطغيان المخل بالاستقامة، إذ هو مجاوزة الحدود التي حددها الله، وعدم مراعاة أوامره ونواهيه.

113- ولا تركنوا...ثم لا تنصرون.

إنه إذ تبين لكم طريق الإسلام بصفة واضحة لا لبس فيها، وأمرتم بالثبات عليه وعدم الخروج عن الحدود التي حددها، فاعلموا أنه يتكون من ذلك منهج في العقيدة والتعامل والسلوك يختلف عن منهج القوم الظالمين بشركهم أو بفسادهم. فلا تميلوا إليهم، ولا تظهروا الرضا بسلوكهم، ولا بطريقتهم في الحياة. إنهم منحرفون عن الاستقامة، فالمقترب منهم بصدد إتباعهم والتأثر بهم، وبالتالي الخروج عن الاستقامة. نحذركم من الركون إليهم لئلا يصيبكم عذاب النار. وفوق ذلك لا تجدون من له مكانة يصلح بها أن يكون لكم سندا، كما لا تجدون من ينصركم فيحول بينكم وبين عذاب النار أو يستطيع إخراجكم منها.

وهذه الآية من جوامع الكلم التي تضيء للسالكين طريق النجاح والخلاص .فبقوله تعالى : فاستقم ...و لا تطغوا- يتميز طريق الهدى بمعالمه لا ميل ولا تجاوز. وبقوله ولا تركنوا – استقلال المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات بالاعتزاز بالانتساب إليه وعدم الاهتمام ولا الرضوخ للمغريات التي ربما تكون عليها ظواهر المجتمعات الأخرى المنصرفة عن الله.

114←115: وأقم الصلاة ...أجر المحسنين.

إن الاستقامة على الطريق الذي شرعه الله فعلا للمأمورات واجتناب للمنهيات، وارتباط القلب بالله في كل الأوقات، يحتاج إلى ترويض النفس على الخير حتى تحبه وتقبل عليه عن داعية، وعلى الاشمئزاز من الشر لتجتنبه وتبغضه.

إن من أبلغ ما يساعد المؤمن على الاستقامة واليقظة الروحية، ما شرعه الله من الصلاة. فأكدت هذه الآية فرض الصلاة على رسول الله ﷺ، وعلى المؤمنين، وأمروا بإقامتها على معنى أدائها على الوجه الأكمل في الطرف الأول من النهار (صلاة الصبح) وفي الطرف الأخير منه (صلاة العصر، وكذلك صلاة المغرب) وزلفا من الليل أوقاتا متقاربة منه(صلاة العشاء). وقد تكفلت السنة القولية والعملية بضبط أوقات الصلوات الخمس وببيان شروطها وأركانها.

واعلموا أن الله تفضل عليكم بكرمه وعفوه، فجعل الحسنات التي أهمها الصلاة يتبعها ثوابها من ناحية، وتمحو أثر السيئات من الذنوب التي لم تبلغ درجة الكبائر، من ناحية أخرى. كما أن الصلاة تُكَوِّن في المؤمن مناعة تحفظه، إذا أداها على وجهها، من اقتحام المعاصي. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

ذلك ذكرى، أي ما بينته الآية من تأثير الصلاة في الروح بغسلها من الصغائر، ومن تكوين قوة تحمي من الوقوع في الآثام، هو ذكر عظيم لمن شأنه أن يتعظ بما يلقى إليه وأن ينفعل لداعي الخير.

وتوج التوصية بالأمر بالصبر على دواعي شهوات النفس، وعلى المغريات من متع الحياة الدنيا، والصبر مما يتقوى به المؤمن فيقدم حظه من رضوان الله على الحظوظ العاجلة. ففي الصبر الإيجابي خير كثير. وكفاك تنويها به ما ختمت به الآية بأن الصابرين محسنون وأن الله يكتب لهم أجورهم، ولا يضيع منها شيئا.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

بقية الناس : أهل الفضل.

الفساد : المعاصي.

أترفوا : توسعوا في الإقبال على الشهوات.

أمة واحدة : متفقون على اتباع الهدى.

نثبت : نرفع الاضطراب.

الفؤاد : الإدراك.

بيان المعنى الإجمالي :

صياغة فيها تحذير للحاضرين وأسى على ما انتهي إليه أمر الماضين. فهلا كان في الأمم السابقة بقية من أهل الفضل والعلم يقومون بالنهي عن العصيان والفساد في الأرض ولكن قليلا قاموا بهذا الواجب فكتب الله لهم النجاة.ولم يستفد منهم المتبعون لشهواتهم الذين تعلقوا بالترف والتوسع بلا حد في المتعة فكانوا بذلك محرومين لعدم شكرهم وعدم مراعاتهم لحدود ربهم.

أهلكهم الله وما ظلمهم. ولكن جريا على ما كتبه على نفسه: أن لا ينتقم من أهل القرى الصالحين، فالله لا يظلم أحدا، وإنما يجزي المجرمين بما فعلوه من فساد.

واعلم أن الله قادر على جعل الخلق على نمط واحد متمحضا للطاعة، ولكنه خلقهم خلقا مختلفا ينساق كل فرد إلى الدواعي الخاصة به، وعلى هذا هم سائرون، لكن الذين شملتهم الرحمة لا يختلفون في الحق، ويلتزمون به في تفكيرهم وفي سلوكهم . وبذلك تحقق ما قدره الله في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ : أنه سيملأ جهنم من الجن ومن البشر المنحرفين الكافرين.

إن ما قصه الله على رسوله في هذه السورة من أخبار الرسل، شأنه كشأن ما قصه من قبل : أنه حق لا زيد فيه ولا نقص. أنه يثبت قلبه ويزيده قوة على الصبر والمواصلة والاحتمال، وأن فيها عبرة وموعظة للمؤمنين.

وبعد أن والى القرآن الحجج والوقائع التي حدثت في الكون المؤيدة للدعوة، وبعد ذلك جاء الأمر، قل للذين انصرفوا عن الإيمان وثبتوا على الكفر مهددا: واصلوا عملكم الضال فإنا ملتزمون بالثبات على صالح عملنا، ثم انتظروا العقاب الذي سيحل بكم، فإنا منتظرون فضل الله علينا، وتسليط عذابه عليكم.

والله وحده هو العالم بما غاب عن البشر مما لم يُقِم عليه دليلا ولا أمارة، لا من العقل ولا من المادة، وإن تحقيق جميع الأمور على الوجه الذي سبق في علمه

الشامل، هو راجع إليه لا يشاركه في ذلك أحد. فهو وحده الحقيق بأن تتوجه إليه بالعبادة وتستند إليه ليعينك على قضاء أمرك. والله عليم بحقيقة ما تعملونه وبنياتكم التي بها تكتسب الأعمال قيمتها الحق.

المعنى العام :

116←117: فلولا كان من القرون...وأهلها مصلحون.

لولا حرف للتحضيض أي لحث المخاطب على الفعل، ولما كان مضمون الآية متعلقا بالأمم السابقة وقد ذهبت، ولا معنى لحثها، كان المقصود تحذير من يأتي بعدها. ففاتحة هذه الآية صرفت المقصود منها إلى التحذير من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السالفة التي لم تقم بواجب إنكار المنكر.

فهلا كان في الأمم التي خلت قبلكم جماعة من أهل العلم بالشريعة والحرص على سيادة الخير ممن يعتبرون البقية من أهل الفضل والكمَّل من الناس، يقومون بنهي المقتحمين للمعاصي، ويحذرونهم من الاستهتار بعمل السوء، حتى تصلح أحوال الأمة ويعمرون الأرض، فيتغلب الخير على الشر.

وقوله تعالى: **إلا قليلا ممن أنجينا منهم**. هذا الاستثناء هو استثناء منقطع بمعنى لكن، أي لكن قليلا من أهل القرون الماضية من الذين أنجاهم الله من النار كانوا يقومون بواجب النهي عن المنكر، ويؤثِّرون في أقوامهم، فلا يعم الفساد الأرض بما يتبعه من الاستئصال العام.

ولكن تأثيرهم لا يشمل الجميع فيبقى الذين تعلقوا بالتوسع في حظوظ النفس والشهوات، وهم المترفون، الذين اتبعوا ما تزينه لهم نفوسهم بدون حد، فكانوا بسبب هذا التعلق من المجرمين، لا يشكرون الله على نعمه، ولا يقفون عند حدوده، فحق عليهم الهلاك.

و بذلك يتحقق ما سنه الله وكتبه على نفسه: أنه لا يسلط عذابه على أهل القرى إذا كانوا على صلاح واستقامة. فما يسلطه من عذاب لا يلتبس بالظلم، وإنما هو جزاء عن عصيانهم وارتكابهم لما نهوا عنه، وما ربك بظلام للعبيد.

118←119: ولوشاء ربك ...و الناس أجمعين.

إن وضع بني الإنسان من الاختلاف بينهم وضع قدره الله في طبيعة البشر لم يخلقهم نمطا واحدا يسيرون على نهج واحد لا يتبدل ولا يتحول، خلقهم وكل واحد منهم متميز عن غيره في مواهبه وفي عواطفه، وفي اختياراته، وفي الظروف المتحولة التي تحيط به وتؤثر فيه. منهم من يؤثر الخير والصلاح والاستقامة.

ومنهم من يؤثر الاستجابة لدواعي الشهوة والاستئثار والتسلط والفجور، منهم من يتعلق بالله ويعمل، تبعا لذلك، ما يرضيه، ويرجو الآخرة، ومنهم من يؤثر متع الحياة الدنيا وينسى ربه ويسقط من حسابه يوم الجزاء. ورحمهم بما أرسل إليهم من الرسل وما ألهمه الصالحون من الدعوة إلى الخير وتذكير الناس بالحق، كما أنه لم يمنع الشيطان وحزبه من التأثير في عواطف البشر، ومن العمل على حجب القوة العاقلة عن قيادة الإنسان في حياته. ولذلك كان الاختلاف بينهم في التفكير وفي السلوك اختلافا مسترسلا مع الجنس البشري.

و لذلك المفهوم من تمكين الإنسان من حرية الاختيار، ومن التكليف والحساب عليه، ثم الجزاء العادل مع ما يخالطه من الرحمة. خلق الله البشر غير مقصورين على الطاعة ولا منصرفين حتما إلى المعصية، بل هم مختلفون بين صالحين وعصاة طالحين، طائعين وفسقة، مؤمنين وكفار.

وتحقق في الوجود الفعلي تقدير الله، وما كتبه في الأزل من كون الإنسان محاسبا عن أعماله ملاقيا جزاءه. وجسم ذلك بأن الجنة ستمتلئ بأهل الصلاح من الإنس والجن، وكذلك النار ستمتلئ بالأشقياء من النوعين.

120- وكلا نقص عليك من أنباء الرسل...وذكرى للمؤمنين.

نقص عليك يا محمد كل نبأ وخبر من أخبار المرسلين قبلك، مما نثبت به قلبك وعقلك، ونزيح عنك كل قلق واضطراب، فتأنس بتلك القصص، وترى فيها سنن الله في الخليقة، وتتعرف على الطريقة التي واجهت بها الأمم أنبياءها الذين يعملون على هدايتهم وتبصيرهم بالحق. إن العرض الواقعي من الوحي على قلب رسول الله، وما عاناه الرسل من المكذبين يزيد الرسول إصرارا على الدعوة إلى دين الله ويقوي قدرة احتماله لما يسلطه المشركون عليه من الأذى المعنوي بالتكذيب والاستهزاء، والأذى المادي بمختلف أنواعه. وقد صبر النبي ﷺ على كل ذلك حتى انتصر الدين، وذلك بما طبع عليه من كمالات، وبفضل ما يوالي عليه ربه من تأييد، ومن ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم.

وأكد القرآن أن ما ذكره في قصص هذه السورة حق، كالشأن في القصص السابقة، وأن الهدف منها هو تذكير المؤمنين بما ينفعهم وما يوقظهم من الغفلات، وهي الموعظة التي ترقق القلوب وتقرب الإنسان من الخير.

121←: 122وقل للذين لا يؤمنون ...إنا منتظرون.

بعد أن استوفى القرآن خطاب الرسول ووعظ المؤمنين بما جاء في القصص السابقة، أمر الرسول بتهديد الذين خلت قلوبهم من الإيمان ولزموا ما هم عليه من

الكفر، ولم يتعظوا بما جرى على الأمم السابقة، قل لهم مهددا: واصلوا عملكم على النحو الذي أنتم عليه، فلنا منهجنا وطريقتنا في العمل، ولكم منهجكم وطريقتكم، لا نرضى بما أنتم عليه، ونحن ماضون على الحق، وأنتم ماضون على الباطل، وانتظروا ما سيحل بكم من مقت الله وعقابه. ونحن ننتظر عقابه لكم. وإكرامنا بعفوه وفضله. وشتان ما بين الانتظارين.

123- ولله غيب السماوات...وما ربك بغافل عما تعملون.

ختم القرآن سورة هود بهذا البيان الجامع الذي ينعطف على كل ما جاء فيها فيؤكده، ويثبت أن عِلْمَ البشر لا يتجاوز الظواهر المحدودة التي مكنهم الله من علمها، أما ما هو ثابت، ولكنه مغيب عن حواسنا ومداركنا ولم يقم عليه ما يبلغنا إدراكه، فهو خاص بعلم الله لا يشاركه فيه غيره. وشمول علمه سبحانه يدل على أن ما اتخذوه من دونه من آلهة ضلال، لأن الجاهل لا يصلح أن يكون معبودا، وبجانب العلم فإن تعلق العلم بإنجاز المعلوم مصروف عنه كل الكائنات، فإن إحاطة الإنسان بجميع الظروف التي يتم بها إنجاز الخلق لا تعود إلى الخلق ولكن الله سبحانه هو الذي يوفر الأسباب ويصرف المعوقات، فما تعلقت إرادته بإنجازه ينجز، وما تعلقت إرادته بتعويقه يعوق، ومن أراد نصره ينتصر، ومن أراد خذلانه يخذل. فمن الادعاء الباطل أن يدل الناجح بقوته الذهنية وذكائه في تحقيق ما تحقق، ولا بدأبه وعمله، ولكن التوفيق الإلهي هو الذي هداه إلى الطريق الموصل، وصرف عنه المعوقات الداخلية والخارجية، فالأمر لله والإنسان مسؤول.

إنه إذا كان المتصرف الحق في الكون وفي كل ما يحدث فيه من صغير أو كبير وعظيم أو تافه، هو من أثر تعلق الإرادة، فتوَجّهُ إليه بالعبادة، فإنه وحده الحقيق بأن يتقرب إليه المتقربون، واعتمد عليه وحده ليسعدك بالتوفيق والعون.

واعلم علم اليقين أن الله لا يغيب عنه أي عمل تعملونه من شر أو خير، ويرتبط بذلك الجزاء الذي لا ظلم فيه، فليحذر الضالون من حسابهم عن سوء أعمالهم، وليفرح المؤمنون بما يترقبونه من حسن الثواب.

أتممت سورة هود بعون الله وفضله يوم الخميس 13 شعبان 1432 2011/7/14-

أسأله ضارعا أن ييسر لي إكمال ما بقي كما يسر لي ما قمت به إن وليي الله.

سـورة يـوسف

سورة يوسف هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف. وأجمعوا على تسميتها بهذا الاسم .نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. رتبتها في النزول الثالثة والخمسون. نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر. اختصت بأنها تضمنت أطول قصة في القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المبين : الموضح التوضيح الكامل.

القصص : الإخبار بما جرى من الأمور.

الغفلة : انتفاء العلم نتيجة عدم توجه الذهن.

يا أبت : يا أبي مع دلالة على تمكن القرب والود.

الكوكب : النجم.

يا بني : بني تصغير ابن، صيغة تستعمل للدلالة على ما في نفس المتكلم من حب وشفقة.

لا تقصص رؤياك : لا تخبر برؤياك

الكيد : إخفاء عمل مضر.

يجتبيك : يصطفيك ويختارك.

الأحاديث : جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، أو الشيء المتحدث به.
إتمام النعمة : جعلُها كاملة لا يعقبها سلب.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن إلى خصائصه:

هو مجموع في كتاب مبين لما أراد الله أن يبلغه إليكم. لم يكن لأحد من الكائنات دور في ألفاظه ولا في تراكيبه بل أنزله من العالم العلوي، يقرأه البشر باللغة العربية التي طوعها لتحمل الوحي. رجاء أن ينفذ إلى عقولكم فتزداد معارفكم بما تضمنه سعة ودقة ويفيض في عقولكم قوة.

إننا بعظمتنا نُعْنَى بك ونقص عليك أكمل القصص وأحسنها، لصدقها، وجمال عرضها، وتنوع الحِكَمِ المستقاة منها. والحال أنك كنت قبل أن ينزل عليك الوحي لا تعلم شيئا من ذلك.

ثم يعرض القرآن مقدمة للقصة الطويلة التي تخص يوسف عليه السلام، فيتحدث القرآن عن مجلس ضم يعقوب وابنه. يحدث الغلام أباه: أنه رأى في المنام رؤيا عجيبة، رأى أن أحد عشر نجما ومعها الشمس والقمر حيته ساجدة له.

و أول رد فعل للوالد النبي الصالح أنه ارتسم في ضميره أن هذه الرؤيا رؤيا صالحة منبئة عن مستقبل يسمو فيه ابنه إلى مقامات علية يحسد عليها. وبنى على ذلك أن نصحه بكتم هذه الرؤيا عن إخوته ولا يحدثهم بها. وبين له أنه معرَّض بذلك للحسد منهم وما يترتب على الحسد من تدبير ما يلحق به السوء. وإن الشيطان يغري إخوته بالإضرار به على ما هو شأنه من العداوة المستحكمة فيه للبشر.

ثم طمأنه على أنه يستقبل خيرا كبيرا. وسيختاره ربه لتحمل مهام رفيعة، ويتولى تعليمه ما يُقِرُّ به الحكمة في قلبه، وما يمكنه من تأويل الرؤى. ويكمل عليه إنعامه إكمالا يحميه من الخسران. ويرتفع به مع أسرة والده يعقوب من مقام إلى مقام أعلى منه. فإنه على هذا النحو جرت عنايته بأصوله إبراهيم وإسحاق. إن ربك ينفذ ذلك، تبعا لعلمه المحيط بحقائق القلوب ودخائل النفوس، فهو يمكن الصالحين الطيبين من المراتب السنية، وذلك هو مقتضى الحكمة الربانية.

بيان المعنى العام :

1←2: ألر تلك آيات الكتاب...لعلكم تعقلون.

افتتحت سورة يوسف كما افتتح غيرها من السور، بالحروف المقطعة التي بيَّنَّا ما يتعلق بها في سورة البقرة.

نوه القرآن بما فيه من كمالات تتحقق بها هداية البشر، وتمكنهم في يسر من الانتفاع به. إنه كاشف عن المعاني الجليلة التي تضمنها، بيَّنها بلا غموض. أنزله رب العزة على قلب محمد كلاما يقرأ مجموعا في كتاب. يسمو بتلكم المزايا فلا يدانيه أي كلام آخر، ولا يعرف كتاب جامع للعرب قبل القرآن. وكل ما عندهم حكم تعتمد الرواية اللفظية أو شعر ينتقش في ذاكرتهم ويستمتعون بسماعه وإنشاده.

تخير الله أن يكون القرآن بلغة العرب التي طوَّعها لما فيها من خصائص لحمل كلامه بما يشتمل عليه من عقيدة، وتشريع، وتحريك للقلوب، وإخبار عن الغيب الذي سيحصل يوم القيامة، وعن المغيبات من الأحداث التي تمت في التاريخ وطواها النسيان أو دخلها الزيد والتحريف والتبديل. وذلك بنعمة الله وفضله، رجاء أن تصبحوا به عالمين علما يقبله العقل ويضم عليه جوانحه. فتجمعون بهذا القرآن بين العلم وسعة المعارف والسمو العقلي.

3- نحن نقص عليك أحسن القصص...لمن الغافلين.

نقص عليك يا محمد في هذا القرآن الذي أنزلناه عليك أكمل القصص، وأتمها، وأبلغها جودة، لقد كانت أحسن ما سَمِعَتْهُ آذان البشر، لصدقها وجمال أسلوبها وبلاغ تأثيرها، وجمعها بين العبر والحكم، ولفت الأنظار إلى سنن الله في الكون، وإيقاظ السامعين بتحريك عقولهم وعواطفهم وأذواقهم الفنية وهم يتابعون قصصه الواقعية التي ليست من نسج الخيال. وذلك من منن الله عليك، فالحال أنك كنت يا محمد قبل إنزال القرآن عليك من الغافلين عما جاء فيه، لا تعلم منه شيئا. وفي هذا رد على الذين يزعمون أن قصص القرآن يتلقاها الرسول ﷺ من معاصريه الذين كان لهم علم بالكتب السابقة.

4 -إذ قال يوسف لأبيه ....رأيتهم لي ساجدين.

تبدأ القصة بمجلس ينفرد فيه يوسف عليه السلام بأبيه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وقد تمكنت العلاقة بين الوالد النبي الصالح، وبين ابنه الصغير لما استقر في قلبه من صلاح الغلام منذ بواكير صباه. فكان الامتزاج بينهما امتزاجا قويا، تآلف مع عاطفة الأبوة الطبيعية ما جمعه يوسف من كمالات خِلْقِية وخُلُقية. يعرض يوسف في هذا الظرف الذي اختلى فيه بأبيه ما رآه في النوم من أمر عجيب. رأى أحد عشر نجما من نجوم السماء ومعها الشمس والقمر قد أدت له تحية وهي خاضعة له ساجدة.

من بداية القصة تتحدد ملامح يوسف . فصفاء روحه وما هيأه الله له من الكمالات النفسية ارتقت به من الصلات الأرضية التي هي ميدان الرؤى المنامية في العادة،

إلى العوالم العلوية الكواكب والشمس والقمر. ولا شك أن الوالد النبي قد غمرت قلبه أحاسيس الإعجاب والتنبؤ بما سيكون لولده من مكانة عالية. وقويت خشيته أن يُصَدَّ عن بلوغ الغايات التي هو مهيأ لها.

5 -قال يا بني لا تقصص رؤياك...عدو مبين.

وتقدم الوالد بنصحه لولده بعد أن استمع إليه فقال: يا بني لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك؛ الذين كانوا أكبر منه سنا وأقوى أجساما. ولهم نفس المنزلة الاجتماعية بما لهم من شرف النسب إلى بيت إبراهيم وما تناسل منه. وقرن نهيه عن إخبارهم برؤياه معرفا له بالمعطيات التي بنى عليها ذلكم التحذير. إنه يخشى عليه أن يثور في نفوسهم الحسد ليوسف. والحسد داء يدفع الحاسد إلى العمل على حرمان المحسود من الخير. ولذا تجد الحاسدين يدبرون في الخفاء ما يضر بمن يحسدونهم وهو الكيد، ولا يتورعون عن أي فعل يطفئ النار التي تشتعل في بواطنهم . كل همهم الحيلولة بين المحسود وبين الخير الذي هو فيه. والحسد مدخل من مداخل الشيطان، فما يزال يحرك نقمة الحاسد على المحسود ويزين له الخطوات التي تقطع صلته به، وتهيئه لانتظار نزول البلايا به، حتى تتمكن العداوة ويهشم الوحدة الإنسانية والإيمانية، وهو رشح العداوة للبشر، التي صرح بها الشيطان المصمم على المضي على ما تقتضيه. فعداوته للجنس البشري عداوة واضحة بينة .وهذا المقطع يلفت النظر إلى الطريقة الصالحة في التربية: هي ليست أوامر ونواه حازمة جافة، ولكن يصدرها المربي في قالب من التقريب والود، يا بني، ويصل التوجيه بالتعليل المعقول الذي يقنع، فيثبت في النفس التوجيه .

6- وكذلك يجتبيك ربك...إن ربك عليم حكيم ..

أردف يعقوب على نصيحته، ما يثبّت في نفس ابنه الثقة بمكانته وعلو قدره، إذ فهم الأب الصالح من الرؤيا، أن الله قد اختار ابنه ليقوم بأشرف الوظائف التي تقربه منه . فعلى ذلكم النحو من الرؤيا الصالحة ستمضي علاقته بربه، وستبلغ العناية به منتقلا من رتبة إلى مرتبة أسمى في الحكمة والتعقل حتى يصل إلى الاقتدار على إدراك أسرار الحوادث في الكون ومآلاتها وما تدل عليه، وهي الحكمة التي يبلغها الأنبياء بالوحي، وهو معنى يعلمك من تأويل الأحاديث، كما يطمح أن يسمو إلى بعض منازلها الحكماء في تفسيرهم للوجود ومظاهره. كما يمكن أن تدل الآية مع ذلك على صفاء روحه ونور عقله حتى يستطيع أن يفسر الرؤى المنامية وما تدل عليه في عالم اليقظة مستقبلا تبعا لما يحل في القلب والروح من توفيق على كشف الحجب عن تلكم المآلات.

ثم أفرغ في قلبه ما يمكّن البشرى التي قدمها، بأن الله سيتم عليه نعمته فيبلغ بها إلى درجات علية من الكمال دون أن يخشى سلبها، منسحبة عليه وعلى أسرته، والده وإخوته ومن اتصل بهم من الصالحين، كما انبثقت في الشجرة النسبية التي هو فرع منها: إبراهيم وإسحاق.

وتختم الآية بما يُعد ما ورد فيها إلى ما يحققه: إن الله عليم لا يخفى عليه حقيقة النفوس الكريمة الطاهرة والأرواح الصالحة الطيبة، وأنه تبعا لعلمه يخص هذا النوع بما يشرفه من الكمالات وتولي المهام العالية. فيضع النعم في المواضع المناسبة، وهو الحكمة.

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الآيات : جمع آيةوهي الدليل على ما تتطلب معرفته.

عصبة : جماعة تفوق العشرة.

غيابات : جمع غيابة وهو ما غاب عن البصر.

الجب : البئر التي حفرت وبقيت على حالتها دون أن تشد بالبناء.

بيان المعنى الإجمالي :

في قصة يوسف وأخيه دلائل ترشد إلى حكم عديدة، وتوجيه رشيد لمن يسأل من الناس عن أخبارها. تفتح القصة بتدبير مؤامرة من إخوة يوسف، الذين حملتهم الغيرة من شدة حب أبيهم لأخيهم يوسف، إذ كان يخصه بمزيد عناية، لما يصدر عنه عند اللقاء العائلي من ذكاء وبعد نظر يسمو به بعيدا عنهم. ولكنهم بناء على حسدهم له أسقطوا كل تلكم المزايا، وقالوا: إن يوسف وأخاه ما يزالان صبيين لا تنتفع منهما الأسرة بشيء لا مكاسب مادية ولا دفاعا عنها، ولا يشاركان في تحمل أعباء الأسرة التي ينفردون بحملها وحدهم، وحكموا على أبيهم تبعا لذلك بالخطأ البين، لتفضيلهما في الرعاية والحب عليهم. وساقهم هذا التحليل إلى أنه يتحتم إبعاد يوسف من الساحة. وقلبوا وجوه النظر التي تبلغهم هذه الغاية. فقال بعضهم: اقتلوا

يوسف، أو اطرحوه في أرض بعيدة لا يستطيع أن يعـود منهـا إلـى أرض قومـه. وأيـد نظريته بأن هذا يحقق لهم ذهاب يوسف ذهابا لا رجعـة بعـدها، فننفـرد بأبينـا، وتكـون حياتنا أصلح بعد ذلك.

وعرض آخر وكان أقـل نقمـة علـى يوسـف: أن لا يقـدموا علـى القتـل والتصـفية الجسدية، ولكن يلقونه في قعر بئر على الطريق التـي تمـر عليهـا القوافـل، الـذين مـن شأنهم أنهم يرتووا من الآبار التي في طريقهم، وبهذا تتـولى القافلـة أخـذه والابتعـاد بـه إلى بلدها، وهذا خير إن كنتم مصممين على إبعاده عن الأسرة.

بيان المعنى العام :

7- إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب...لفي ضلال مبين.

الآيات السابقة كانت مقدمة لقصة يوسف،وإطارا محددا لمسارها.

و من هذه الآية كانت البداية في إبـراز تفاصـيل القصـة، فافتتحـت بالإشـارة إلـى مـا فيها من حكم ودلائل على عبـر تعـرّف المتتبعـين لأحـداثها بعظـيم صـنع الله وحكـيم تقديره، وأن العاقبة للصابرين. ففي قصة يوسف عليه السلام دلائـل علـى قـيم رفيعـة تكشـف خفاياها لكل من يسأل عنها، وتؤثّر فـي النـاظرين تـأثيرا يمكـن الخيـر فـي نفوسـهم، وينفرهم من الباطل ومن الملوثات العاطفية.

8- تؤكد الآية على حقيقة ما سيرد فيهـا مـن تفاصـيل، وأنهـا قصـة واقعيـة لـيس للخيال مدخل فيها. والمتأمل يجد في كل حـدث مـن أحـداثها ارتباطـا بالمقدمـة إذا مـا استحضرها في نفسه، وأجاد فيها النظر وتعمّق.

أول حدث: اجتماع لإخوة يوسف عرضـوا فيـه قضـية أهمـتهم جميعـا علـى درجـات مختلفة بينهم في طريقة علاجها.

نشأت أحداثها من إحساسهم أن أباهم يعقـوب عليه السلام يحـب يوسـف وأخـاه بنيـامين حبـا يفوق ما يحمله من حب لهم .وأنـه لا مبـرر لهـذا التفضـيل فـي نظـرهم، والحـق أن يكون تعلق الوالد بهم وتقريبهم أشد من أخويهم. إذ أنهما مـا يـزالان يـدرجان فـي سـن الصبا ولا يغنيان عن الوالد ولا عن الأسـرة شـيئا. وأنهـم هـم الـذين ينفـردون لكثـرة عددهم وقوتهم (عصبة) بالدفاع عن الأسرة عند الشـدائد، ويسـهمون إسـهاما كبيـرا فـي تيسير أمور حياتها. وبهذا وصلوا إلى اقتناع بـأن أبـاهم أخطـأ الصـواب وتحيـز إلـى يوسف وأخيه استجابة لـداعي عاطفتـه لا لتحكـيم عقلـه. ورأوا أن هـذا أمـر بـين لا غبار عليه. ولم يقدّروا ما ليوسف من كمـالات، ومـا يبـدو منـه مـن مخايـل التفـوق وحسن الاهتداء على صغر سنه. وهـذا شـأن البشـر إذا حسـدوا انطلقـوا فـي تقـدير

الأمور من قصد إلى تبرير الحاصل النفسي الأول دون سبره والتأمل فيه، ذلك أن يعقوب وهو النبي المبشَّر به إبراهيم عليه السلام لا يقدِّر الأمور بالنفع المادي العاجل، ولكن يتأثر بالمزايا الرفيعة في النباهة والصلاح .

9←10 :اقتلوا يوسف أو اطرحوه .....إن كنتم فاعلين.

بعد أن هيأوا أنفسهم للانتقام من يوسف، وكان ما دار في نفوسهم محرضا لهم، أخذوا يقلبون الفرضيات التي تحقق لهم غرضهم، وما يحصل إثر كل واحدة منها، على أن المهم في نظرهم: أن ينفردوا بأبيهم بعد ذهاب يوسف وإياسه من الالتقاء به من جديد بعد تنفيذ ما دبروه.

كان الرأي الأول الأشد: قتل يوسف وإنهاء حياته مرة واحدة، أو إلقاءه في أرض بعيدة عن منازلهم لا يتصور أنه يتمكن مع صغر سنه من العودة إلى بيت أبيه. وبهذا ينفردون بأبيهم ولا يقاسمهم أحد النظر إليه والحديث معه. ثم أبرز النتيجة واضحة أنهم سيكونون بعد تنفيذ هذا الرأي قوما صالحين لا يعكر عيشهم مع أبيهم هذا الحب العارم ليوسف. أو أنهم برروا الإقدام على القتل بالعزم على التوبة منه بعد تنفيذه، فيتم الجمع بذلك بين الاستراحة من يوسف ومن العودة إلى الله بالتوبة، بما يحقق لهم الصلاح الدنيوي والأخروي.

و يفهم من القصة أن هذا الرأي الشديد لم يلق قبولا. فعرض أحدهم رأيا آخر افتتحه برفض قتل يوسف، وذلك بأن يلقوا يوسف في بئر لا يستطيع الخروج منها بمفرده، ويتخيرون بئرا على الطريق السالك للقوافل الذين من شأنهم أن يستقوا من الآبار التي تعترضهم في طريقهم، فيتولون إخراجه ويبتعدون به عن أرض قومه، ويستريحون منه دون أن يرتكبوا جناية قتل أو تعريض للهلاك.

و تشير الآية إلى أن الذي عرض هذا الرأي ما كان متحمسا لتصفية يوسف أو إبعاده فأنهى كلامه بقوله: إن كنتم مصممين على فعل يريحكم منه. كأنه يرشدهم إلى التريث وعدم التسرع .

قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ
وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ
ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا

لَخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

النصح : قول أو عمل فيه نفع للمنصوح.

نرتع: نشارك الأنعام في السير والحركة، فتتفتح بذلك شهيتنا للأكل.

الخسران : عدم النفع المرجو منهم.

أجمعوا : صمموا على التنفيذ.

بيان المعنى الإجمالي :

عملوا على تنفيذ ما دبروه من الكيد ليوسف، وتغلبوا على العقبة الأولى بإظهارهم الود والحرص على ما ينفعه، فقالوا لأبيهم عجبٍ لك لماذا لا تأمنا على يوسف أخينا الذي نحبه ونقدم له ما ينفعه قولا وعملا. رَخِّصْ له في خروجه معنا غدا للبرية نجري في فضائها الرحب بما يقوي أبداننا ويفتح شهياتنا للأكل، ونلعب بما يرفع السآمة عنا وينشِّط عقولنا .وثق بحرصنا على حفظه.

صدقهم فيما تقدموا به وقال لهم: إني ألِفْتُ بقاءه إلى جانبي، وبعده عني يحزنني، وأخاف عليه من أن يعدو عليه ذئب فيأكله. قالوا له مبعدين هذا الفرض: كيف يأكله الذئب ونحن جماعة كثيرة العدد قوية البنية. إننا نفقد فتوتنا إذا حصل ذلك. وأذن يعقوب ليوسف فخرج معهم، فلما ابتعدوا به ووصلوا بجانب البئر رموا به في قعره وحيدا. وأسعفه ربه فآنسه بوحيه، وألقى في روعه أنه لا ينالـه أذى وأنه سيخبر الذين اعتدوا عليه بما فعلوه وهم لا يشعرون بأن الذي ينبئهم هو يوسف.

بيان المعنى العام :

11←12: قالوا يا أبانا ما لك لاتأمنا على يوسف ...لحافظون .

بعد أن دبروا المكيدة ليوسف وصمموا على التخلص منه، أخذت القصة تعرض الطريقة التي تم بها التنفيذ.

1) العقبة الأولى كيف يتمكنون من الانفراد بيوسف بعيدا عن يعقوب، فتقدموا لأبيهم بعرض ظاهرُه شدة حبهم ليوسف، وقالوا له: إنهم ما فهموا لماذا رغم شدة تعلقهم بأخيهم، لما ذا لا يستثيقهم عليه، ولا يُمكِّن لصلتهم به، ولا يجعله تحت رعايتهم. ونؤكد لك أنا نسعى بأقوالنا وأفعالنا إلى ما يجلب الخير له. إنا سنخرج غدا إلى البرية لرعي أنعامنا، وفي الفضاء الرحب نجري ونتحرك وننشط وتتفتح

شهيتنا للأكل وتقوى أجسامنا، ونلعب اللعب الذي به تنشرح النفس ويذهب عنها الكلال. فأرسل معنا يوسف يستفيد مما تتيحه هذه السياحة في البريِّة. وثق أنا نحفظه من كل ما يمكن أن يتعرض إليه من سوء فلا تخش عليه.

وهكذا يفعل الحاسدون المتآمرون فيظهرون اللين والنصح ويتخفَّوْن تحت ستار الحب والنصح وتحمل مسؤولية الحفظ .

13←14: قال إني ليحزنني أن تذهبوا به...إنا إذا لخاسرون.

2) تشير القصة إلى أنهم استطاعوا أن يخففوا من حذر يعقوب، وأسلسوا له ما جعله يصارحهم بنفي الشك فيهم. ولكنه يحزن لبعده عنه فيفقد ما ألفه من الأنس به، ويخشى على يوسف وهو الغلام الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه أن يعدو عليه ذئب فيفترسه في غفلة منهم عنه. وبهذا انحلت العقبة الأولى بهذا الغطاء الكاذب والتملق، وبقيت عقدة الخوف عليه من الذئب لا منهم. فأبعدوها من نفسه بأن عددهم وقوتهم التي يعرفها منهم، تطمئنه على أنهم قادرون على حمايته؛ إنه لو تمكن الذئب منه وعجزوا عن حفظه، فهم يشهدون على أنفسهم أنهم خاسرون في حياتهم، فاقدون للفتوة والشجاعة محكوم عليهم بالخسران. فكان ما قدموه مؤذنا بتحملهم لمسؤوليتهم كاملة، وأنهم لا يرضون لأنفسهم أن يسقطوا عن مستواهم القوي الذي يعتزون به.

وهكذا يصنع المتآمرون كلما برزت عقدة حلوها بمكر يهدِّم كل سياج للمناعة. فتمكنوا من اصطحاب يوسف ينفردون به، ولا مغيث له من مكرهم.

15-فلما ذهبوا به وأجمعوا ...وهم لا يشعرون.

3) تمكنوا من الخروج به بعد ترويض والدهم فائتمنهم عليه، وأخذوه معهم وخرجوا به إلى البرية .وعندها خلا لهم الجو لتنفيذ ما دبروه من مكر. عزموا على التنفيذ بكل قسوة وبدون رحمة ولا شفقة. وترجح عندهم الرأي الأخير: إلقاؤه في الجب. فرموه في قعره، وانصرفوا يظنون أنهم قد نجحوا في إبعاد يوسف عن الأسرة وعن أبيهم بعدا لا رجوع بعده.

وفي هذا الظرف الصعب بعد العنف الذي صحب رميه في البئر وذهابهم عن المكان وفقد الأنيس، يسعفه ربه بالوحي، الذي لم يفصل القرآن طريقته ولكن قذف في قلبه الطمأنينة وأزال عنه الخوف، بما حاصله :أنه سيخرج سالما، وأنه سيعلو عليهم وينبئهم بما صنعوا به. وما شعر أحد منهم بهذا الوحي لما جاءه، أو المعنى أنه سينبئهم بما صنعوا وهم غافلون عن كونه يوسف الذي رموا به في الجب.

وعلى الاحتمالين فالقصد ظاهر أن الله يؤيد الصالحين في النهاية وتكون لهم العاقبة الطيبة.

وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

نستبق : نتغالب في الجري

بمؤمن لنا : بمصدق لنا.

كذب : مكذوب .

التسويل : تسهيل النفس وتزيينها ما تحرص على حصوله.

صبر جميل : الصبر الذي لا يصحبه شكوى.

المستعان :المطلوب منه العون على تحمل الصبر.

بيان المعنى الإجمالي :

عادوا إلى أبيهم بعد أن أطبق الظلام باكين ليوهموه أنه تملكهم الحزن لما جرى، وأعلنوا ناسجين من خيالهم قصة موته، وأنها تمت على النحو الآتي: ذهبوا يتسابقون في الجري وأبعدوا، وتركوا يوسف بجانب ما حملوه معهم إلى البرية من الزاد والمتاع. وعدا عليه الذئب لما كان وحيدا فأكله. وليبالغوا في التمويه أضافوا إنا نقدر أنك لا تصدقنا لفرط حبك ليوسف، مع أننا نؤكد أنا صادقون. نقلنا ما حدث بكل أمانة. وعرضوا قميصه الممزق الملوث بالدم زاعمين أنه دمه بعد ما أكله الذئب. وفاق جلَد يعقوب وصبره قوة الصدمة، فعبر عن شكه في روايتهم، وأن ما عرضوه هو مما زينته لهم نفوسهم، وأنه يتدرع بالصبر الذي لا تصحبه شكوى. وأن يطلب من الله العون على تجاوز ما وصفوه.

بيان المعنى العام :

16←18: وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ...والله المستعان على ما تصفون.

4) بعد أن ألقوه في الجب تمهلوا في الرجوع إلى أبيهم فلم يصلوا إلا عند ما أظلم الليل، عند العشاء. وأحكموا تلفيق قصة وهمية أعطوها ببكائهم صورة تقنع في

ظنهم أباهم: أن يوسف قد افترسه الذئب، وقالوا: إنا كنا نتسابق جريا على الأقدام حسبما يتم بين الفتيان ليروضوا أنفسهم، يبتعدون بذلك عن المنطلق.وأن يوسف لما كان، لصغره، لا يستطيع أن يتسابق معنا في الحلبة تركناه يحرس متاعنا. وأن الذئب وجده منفردا فافترسه. ومبالغة في التمويه قرنوا تصويرهم للواقعة مع بكائهم بأمرين:

أولهما: أنهم قالوا لأبيهم: إنك لفرط حبك ليوسف لا تصدق مقالتنا، مع أننا نجزم ونؤكد أننا صادقون فيما رويناه، فلا تتهمنا.

ثانيهما: أنهم أحضروا قميص يوسف مخرقا ممزقا ملطخا بالدم الكاذب، الذي ليس بينه وبين دم يوسف أي صلة، عضدا لروايتهم التي أحكموا نسجها الباطل.

صدم يعقوب بما لفقوه، وأدرك من المقارنات التي حفت بالخبر، وبحديث قلبه الصافي، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأن ما أكدوه هو تلفيقات لا أساس لها لم تقع في الوجود. فواجههم بأن نفوسهم المريضة قد سهلت لهم تزييف الحقيقة، وحسنت لهم اختلاق صورة باطلة بعد أن استدرجتهم إلى فعل منكر مذموم أخفوه. وأنه لا ينهار لهول المصاب، ويتذرع بالصبر، وأنه يلتجئ إلى الله يطلب منه العون على التحمل وعلى فتح أبواب الفرج. ويومئ قوله (المستعان على ما تصفون) إلى أنه غير مصدق لهم. إذ لم يقل على ما وقع، أو على موت يوسف، مما يشير إلى أن الحقيقة مستورة، ويطلب من الله العون ليوسف في وضعه الخفي، ولنفسه على التحمل.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوارد : الذي يرد الماء.

أدلى دلوه : أرسل دلوه إلى قاع البئر ليستخرج الماء.

يا بشراي : يا فرحتي.

أسروه : أخفوا خبره.

بضاعة : عرض تجارة.

شروه : باعوه.

بخس : ثمن نازل عن قيمته.

الزاهدين : الذين لا رغبة لهم في الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يمكث يوسف زمنا طويلا في قاع البئر حتى مرت، حسب المتوقع من إخوته، قافلة تسير قاطعة مسافات الصحراء. وقفت بجانب البئر وأرسلت أحد أفرادها يمتح لها الماء من الجب. وما إن جذب دلوه حتى وجد فيه يوسف فصاح فرحا يا للبشرى! هذا غلام. أخفوه عن الأنظار حتى بلغوا سوق النخاسة في مصر وباعوه بثمن قليل بعيد جدا عن قيمته وما كانوا يدركون قيمته.

بيان المعنى العام:

19← 20: وجاءت سيارة فأرسلوا ....من الزاهدين.

من هذه الآية يفرد القرآن الحديث عن المسار الذي سار فيه يوسف بعد أن رماه إخوته في البئر وانصرفوا إلى منازلهم، وينقطع الحديث عن الإخوة وعن يعقوب.

كما توقع إخوته لم يمض عليه زمن طويل في البئر حتى مرت قافلة قريبا من البئر، وأرسلوا أحدهم يجلب لهم الماء. وقف الوارد على البئر وأنزل دلوه فتعلق به يوسف، وما أشد فرحته إذ وجد بين يديه غلاما وصاح يا لَلبشرى! هذا غلام. يطوي القرآن ما دار بين يوسف وبين القافلة، ويكتفي بالنتيجة: وهي أن القافلة اعتبرته سلعة، رقيقا يبيعونه ويأخذون ثمنه. وما كانت معاملتهم له معاملة حسنة كما يشير إليه قوله تعالى: **والله عليم بما يفعلون**. كان من الواجب أن يسألوه عن سبب سقوطه في البئر وعن أهله وعن مكانهم، ويعملوا على مساعدته على العودة إليهم. ولكن شدة حرصهم على استرقاقه والفوز بثمنه، سوغ لهم أن يقوموا بأعمال غير صالحة نحوه ليصلوا به في خفية إلى سوق العبيد قبل أن يفتضح أمرهم. وفي سوق النخاسة باعوه مسرعين بثمن قليل بالنسبة لنفاسته، مقدر حسب قيمة وقت النازلة بدراهم غير كثيرة تُعَدُّ، شأنَ ما هو قليل. وسبب ذلك أنهم ما كانوا حريصين على التمسك به، ولعل ذلك خوفا من أن يلحق بهم من يعرفه فينتزعه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

مثواه : مكان إقامته .في مكان نومه وطعامه ومجلسه.

أشده : استكمال قوته.

حكما : حكمة بسداد النظر.

علما : تأويل الأحاديث.

بيان المعنى الإجمالي :

كان الذي اشتراه ذا فراسة عالية، فتبين له أن ليوسف شأنا، فأوصى امرأته أن تعامله معاملة كريمة تليق بما يتوقع له، فهو يأمل أن ينتفع وزوجته بإمكاناته العالية، أو أن يتخذه ولدا إن تواصل عدم إنجابهما للذرية. وروي أن اسمه فوطيفار وأنه كان رئيس الشرطة وبتعبيرنا وزير الداخلية. وسأقتصر على التعبير عنه باسم عزيز مصر كما جاء في القرآن، ويبدو لي أن لقب العزيز يخاطب به كل من كان ذا منصب عال في الدولة، ولذا سيأتينا أن إخوة يوسف عليه السلام خاطبوه بيا أيها العزيز قبل أن يعرفوه. وامرأة العزيز ذكر أن اسمها زليخا، وهي في كتب اليهود راعيل . وسألتزم في التعبير عنها بامرأة العزيز كما ذكرها القرآن بهذه الإضافة ولم يسمها، ولا ثقة لي بما وراء ذلك.

وعلى هذا النحو من الرعاية ابتدأ تمكين الله ليوسف في أرض مصر، فيسر له أن يربى في وسط يزيده قدرة على إدراك الغايات البعيدة المغيبة عن الناس. وليلحظ فينتفع بالإجراءات وطرق الحكم التي كان يتحدث بها في قصر العزيز. وإذا أراد الله شيئا فإنه يتمه ولا تستطيع أية قوة أن تعوقه. ولكن كثيرا من الناس لقصر نظرهم لا يدركون هذه الحقيقة. ثم إنه لما بلغت قواه البشرية مستوى النضج، أنزل الله في قلبه الحكمة، وفتح له أبواب العلم؛ وهذه هي سنة الله مع المحسنين من عباده يُكْرِمُهُمْ بأنواع من الفضل.

بيان المعنى العام :

21-وقال الذي اشتراه من مصر...ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تسير القصة على السنن التي قدر الله أن تجري عليها تقلبات الحياة، يسر يعقبه عسر والعكس. فبعد تلك المحن من قذفه وحيدا في بئر، يشتريه رجل من رجال

الدولة في مصر قوي الفراسة أدرك من اللحظة الأولى أنه ملك غلاما نفيسا عالي المواهب صالحا لأن يكون بينه وبينه وثيق الصلات. أسكنه معه في نفس البيت، وقال لامرأته: أنت مؤتمنة على هذا الغلام، لتكن معاملتك له معاملة التكريم، ولا تعامليه معاملة العبيد. إني لأرجو أن ينفعنا هذا الغلام في مستقبل أيامنا، وثنى بإمكانية أشد قرابة: هي أن يتبنياه ولدا لهما. وكأنهما قد قاربا اليأس من الإنجاب.

وعلى ذلك النحو من العناية التي صاحبت يوسف من تاريخ إلقائه في الجب إلى أن قربه عزيز مصر ذلكم التقريب، ابتدأ تمكين يوسف في أرض مصر على ما سيأتينا في قوله تعالى : وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء [1]- وليضيف من منن الله عليه تكاملت معارفه واقتداره على تأويل ما ترمز إليه الرؤى المنامية، وعلى تجاوز الظواهر إلى ما وراءها من الدلالات .والله سبحانه يحقق ما تعلقت به إرادته، ولا يحول بينه وبين ذلك أي قوة، فكلها مهزومة أمام سلطانه. ولكن أكثر الناس تغيب عنهم هذه الحقيقة الثابتة التي تعددت الشواهد الناطقة بصدقها.

22- ولما بلغ أشده واستوى ....نجزي المحسنين .

تتابعت عناية الله بيوسف، ينقله من مرتبة إلى مرتبه أسمى. فصرحت الآية بأنه لما بلغ كمال قوته البدنية، أحل الحكمة في عقله، فبدت له الحقائق جلية، وقامت المآلات في نفسه واضحة فرشد سلوكه وصلح عمله. وأعطاه قدرة على تعبير الرؤى المنامية وهو معنى قوله تعالى : وهذه سنتنا مع المحسنين من البشر نتولاهم ونسعدهم بالتوفيق وبلوغ مراتب الكمال .

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ

[1] سورة يوسف آية56

فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

راودته : لاطفته لتسوقه إلى غرضها.

عن نفسه : عن عفافه بتمكينها منه لما تريد.

غلقت الأبواب : أحكمت غلقها.

هيت لك : بادر أنت وأقبل.

معاذ الله : أعوذ بالله. أعتصم به مما تحاولين بلوغه.

أحسن مثواي : أحسن العناية بي وأكرم كفالتي .

الهم : العزم على الفعل.

البرهان : الحجة البينة التي صرفته عنها.

السوء: خيانة من ائتمنه.

الفحشاء : الفعلة القبيحة الزنا.

قدت : خرقت قميصه طولا، من خلف.

ألفيا: وجدا.

سيدها : زوجها.

قبل: من الجهة الأمامية.

كيد: مركب من الخداع والاحتيال والمكر.

الخاطئ : فاعل الخطيئة.

أعرض عن هذا : اكتمه.

بيان المعنى الإجمالي :

كان يوسف عليه السلام بارع الجمال، قوي البنية، بلغ أشده في بيت عزيز مصر، فتعلقت به امرأته وحاولته ليتصل بها جنسيا، ولما بلغ تعلقها به حده الأقصى، انفردت به وأحكمت إغلاق الأبواب، ودعته بقولها: هيت لك، تعال أقبل، أخاطبك أنت لا غيرك .وترفَّعَ أن يقع في الخطيئة فقال لها: إني أتحصن بالله من أنزل إلى مستوى أخون فيه زوجك الذي رباني وائتمنني . إني لو خنته في زوجته أكون ظالما له. والظالمون مآلهم الخسران.

لقد كان تعلقها بيوسف شديدا، فهامت به وظنت أنها إذ تنازلت عن كبريائها وقامت هي بالخطوة الأولى، أنه سيتحقق لها الوصل الذي طالما حدثت نفسها به وحلمت به. كانت على حظ من الوسامة. فيوسف عليه السلام لم يرغب عنها ويستعصم بالله لضعف في أنوثتها ونقص في وسامتها، ولكن صورتها في نفسه هي صورة المرأة الناضجة المؤثرة. ولكنه رأى دليلا أسعفه به الله في ساعة المحنة فصد عنها وتمسك بعفافه، وبذلك أبعده الله عن الخيانة لزوجها وعن الزنا .كان ذلك جزاء إخلاصه، والإخلاص يسمو بأصحابه إلى مراتب الكمال التي تقربهم إلى الله، ويوسف من زمرتهم.

جرى يوسف نحو الباب فحل قفله، ولحقت به امرأة العزيز وجذبته من قميصه لتمنعه من الخروج فمزقته، وفوجئا بالزوج عند الباب ومعه أحد أقاربها. وكانت ماكرة حاضرة البديهة، فتوجهت إلى زوجها ملقية التهمة على يوسف قائلة: ما هو الجزاء المناسب لمن حاول الاعتداء على أهلك ؟ ما أراه إلا أن يسجن أو يعذب العذاب المؤلم. ونفى يوسف عن نفسه التهمة جازما أنها هي التي راودته عن نفسها. وتدخل قريبها فقال: إن كان القميص خرق من الأمام فذلك دليل على أن يوسف هجم عليها ونازعته من أن ينال منها فخرقت ثوبه، وإن كان قميصه خرق من خلف فذلك دليل على أنه فر منها وأنها لحقته وجذبته بقوة من رقبة قميصه فتخرق. وقام الدليل على كذبها وصدقه، فالتفت إليها زوجها قائلا: هذه مكيدة من المكائد التي تتقنها النساء. إن كيدكن عظيم. والتفت إلى يوسف وطلب منه أن يكتم الأمر ولا يشيعه. ثم توجه إليها من جديد مرشدا لها أن تسرع بطلب العفو وأن لا تعود، وأثبت أنها كانت مخطئة كشأن الخطائين من البشر.

بيان المعنى العام:

23←24.وراودته التي هو في بيتها...إنه من عبادنا المخلصين.

خرج يوسف من المحن السابقة تحوطه العناية الإلهية حتى استقر في قصر عزيز مصر موصى بتكريمه، وكرم فعلا، ونما في حجر النعيم حتى اكتمل فبلغ أشده. جمع بين الجمال والوقار والقوة الجسدية مما يجعل العين الذي تنظر إليه تعجب بمظاهر الرجولة والفتوة فيه.

وفي قصر العزيز ما كان يعيش مع الخدم، بل كان يعيش مع أسرته حسب الوصاية به من أول يوم حل فيه. وكانت امرأة العزيز تلحظ كماله وجماله، وتحدثها نفسها وتشغلها به إلى أن غلبتها نوازع الشهوة فدفعتها إلى مراودته، فلاطفته وللنساء قوة طبيعية في الإغراء.

و قالوا لهـا هذا حبيبـك معرض *** فقالت ألا إعراضه أهون الخطب
فما هي إلا نظرة وابـتسامـة *** فتصطك رجـلاه ويسقط للجـنب

لا يفصل القرآن المقدمات التي مرت بها إلـى أن وصـلت إلـى التصـريح بهيامهـا بـه وإرادتها القوية لتستولي على عفافه فينساق معها إلـى الاتصـال الجنسـي بهـا، وتفـرغ شحنة تضخمت مع الـزمن فهزمـت كبرياءهـا ومكانتهـا الاجتماعيـة. ثـم قامـت فـي الوقت الذي استولت عليها الشـهوة واسـتبدت بهـا الغلمـة، فأحكمـت إغـلاق الأبـواب حتى تطمئنه على أنه لا يفاجئهما أي كـان وقالـت: هيـت لـك. تعـال أقبـل. واختـار القرآن أن يعبر عن دعوتها له بهـذه الكلمـة التـي ليسـت مـن أصـل عربـي ليكـون جرسها معبرا عن أنفاسها اللاهثة في هـذه اللحظـة، ووصـل هيـت بكلمـة لـك لإفـادة شدة الاتصال كما تقول العرب شكرا لك على أن الشـكر متصـل بـك وهـو أقـوى مـن قولك أشكرك، كأنها تقول كل كياني لك يا يوسف. اجتمعت كـل الظـروف ليـتم لهـا مـا أرادت. وما أشدها محنة يمر بها. كـان جوابـه جازمـا قاطعـا لكـل محاولاتهـا : إنـي أعتصم بالله من مواقعتك. إن زوجك هـو سـيدي الـذي ربـاني وأكرمنـي فـي مقـامي عنده وقربني منه فلا أخونه فـي زوجتـه. إن خلقـي وخشـيتي مـن الله أن ينـزل بـي غضبه تمنعني من ظلم العلاقة التـي تربطنـي بزوجـك. إن الـذين يتجـاوزون الحـدود ويظلمون مآلهم خاسر.

وتأتي في العرض لمسة تبعد ما يمكن أن يتصور به أن الصـارف لـه عنهـا، أنهـا مـا كانت على حظ من الإغـراء والجاذبيـة والأنوثـة الصـارخة، فيصـرح القـرآن بخفايـا نفسيهما، لقد همت به في ملاطفتها له، جادة فـي تحقيـق غرضـها مـن الاتصـال بـه، معجبة به أتم الإعجاب وأكمله .وكان هـو معجبـا بجمالهـا ورقتهـا ومـا تمتلكـه مـن مزايا مغرية بها. ولكن الذي حال بينـه وبـين المضـي إلـى النهايـة، أنـه رأى برهانـا استقر في يقينه وملَك عليه أرجاعه وأحاسيسه وغرائـزه، يبعـده عـن الزنـا وقـام فـي باطنه ذلكم الدليل الذي جاءه من هداية ربه الذي يرعـاه ويحوطـه بألطافـه، فتمثـل لـه الزنا قذارة تقزز منها، وطار مـا كـان يقتضـيه إعجابـه بمفاتنهـا مـن المضـي إلـى النهاية الفاجرة .

على هذا النحو حفظنا هو أبعدنا عنه السوء الذي هو خيانـة مـن ائتمنـه، وعـن الفحشـاء الفعلة القبيحة: الزنا .وذلك لأنه من عبـاد الله الـذين قـربهم ونسـبهم لنفسـه وأخلصـهم لذاته العلية وأخلصوا له في عبادتهم، فكانـت علاقـتهم بـه علاقـة قـرب تتلقـى أنـوار الهداية مباشرة قوية التأثير.

25←29: واستبقا الباب وقدت ....إنك كنت من الخاطئين .

حاول يوسف أن يبتعد عنها ففر نحو الباب، وحاولت أن تسبقه إليه لتحول بينه وبين الخروج. وطوى القرآن حلقة لا بد منها لتصور المشهد، لعلها أن يوسف تمكن من فتح القفل الذي أحكمت غلقه، فأنشبت يديها في طوق قميصه فتخرق من خلف. وتظهر المفاجأة التي ما كان أي منهما يتوقعها. حضر سيدها صاحب البيت زوجها في تلك اللحظة والباب قد ذهب قفله، فارتسم المشهد أمام ناظره: هيئة زوجته مسترابة في لباسها وفي لهث أنفاسها، ويوسف واقف معها في خلوة وقميصه ممزق.

لقد كانت على حظ كبير من سرعة البديهة، وقوة المكر، فحاولت أن تنقذ نفسها وتلقي بالتهمة على يوسف فتوجهت لزوجها بدون تلعثم قائلة : ما هو الجزاء الذي يكون حقيقا به من عزم على النيل من زوجتك ؟ ثم أردفت : إما أن تكون غياهب السجون مأواه، وإما أن تسلط عليه من أنواع التعذيب القاسية ما يكافئ خيانته.

كان يوسف واقفا يسمع إلى بهتانها متعجبا، وقبل أن يطلب منه سيد البيت جوابا نطق عليه السلام مفندا كلامها في براءة: هي راودتني عن نفسي.

ويظهر في المشهد رجل هو من أهلها قدم مع زوجها، فسبق ليدلي بشهادته التي تظهر الحقيقة. ما كان معهما حتى تكون شهادته مبنية على حكاية ما أبصره، وإنما اعتمد القرائن التي تعطي نوعا من المعقولية لتسلسل الأحداث. رأى أن يوسف يضم أطراف ثوبه الممزق، فَهَدَتْه فطنته أن طريقة تمزيق الثوب تشهد لها أو عليها. وتقدم قائلا: إن كان القميص قد من قبل فإن ذلك يدل على أنه قد هجم عليها وأنها دافعت عن نفسها فتخرق ثوبه، ولا يكون إلا من الجهة الأمامية. وأنه إذا تخرق ثوبه من الوراء فذلك يدل على أنه فر منها ولحقته فجذبته من قميصه فتخرق من الخلف. وكان حكمه بالقرائن مقنعا. فلما شاهد الزوج تخرق القميص من خلف، توجه إلى امرأته وخاطبها بقوله: إنه تدبير منك مركب من الخداع والمكر والاحتيال، وإنك أنثى كسائر النساء مقدرتكن على الكيد عظيمة. وقع في نفسه صدق يوسف وكذبها. والتفت إلى يوسف ودعاه إلى أن يكتم ما حصل ولا يشيعه. وعلى هذا النحو في القديم والحديث تعالج الفضائح الجنسية في الأوساط التي أتخمتها الحضارة، وأفسدها الارتخاء الخلقي.

ثم التفت إلى زوجته وأرشدها أن تطلب الصفح عما وقع. وأن تسقطه من ذاكرتها بعدم العود إليه.

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا
لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً
وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي
فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

شغفها : فعل مأخوذ من الشغاف وهو غلاف القلب، أي تمكن حبه من قلبها أفضل تمكن.

ضلال مبين : خرجت عن الصواب بصفة واضحة.

المتكأ : محل الاتكاء .والاتكاء جلسة بين القعود والاضطجاع.

أكبرنه : أعظمن جماله.

قطعن : ذهلن بجماله فجرحن أيديهن.

حاش لله :جملة تقدم للدلالة على الاستبعاد والنفي.

استعصم : امتنع امتناع من يعد مضاجعتها يناقض عصمته.

الصاغر : الذليل.

أصبو إليهن : أميل إليهن.

من الجاهلين: من الذين لا يراعون حدود الله.

بدا: ظهر لهم وترجح.

بيان المعنى الإجمالي:

تحدثت النساء المتصلة بقصر العزيز بالحادثة، وحمّلن امرأته التهمة، وأنها قد أحبت غلامها حبا استولى على قلبها ومشاعرها. وصرّحن بلومها على موقفها وأنها أخطأت خطأ بينا.

لما بلغها ما تحدثن به وهو ما يعرضها إلى تحميلها المسؤولية وما يمكن أن يتبعها من عقاب وانحطاط منزلة، دبرت أمرها لتسكت تلك الأفواه ؛ فدعتهن ضيفات عليها، ورتبت لقاءها بهن على مستوى عال من التكريم، فلكل ضيفة مكانها

المريح الفسيح، وأعدت لهن صنوفا من الأطعمة وأمرت أن يصحب الطعام سكينة لكل واحدة منهن.

استراحت الضيفات لحسن القبول والاستعداد، وأخذن في تناول الطعام، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن من المكان الذي هو فيه، وفوجئن بالفتى الذي طلع عليهن: أذهلهن جماله، وأعظمن بهاءه، وملك مشاعرهن وإحساسهن حتى جرحت السكاكين أيديهن، وهن من علية القوم أيديهن لطيفة، ومن شأن سيدات القصور أن لا يعملن بأيديهن، ويتولينها بالمراهم التي ترقق الجلد وتلين الملمس، ولذا بمجرد ما غفلن عن السكاكين وشغلن بيوسف وجرحت أيديهن سال الدم فعبر القرآن مجسما لذلك بقوله : (وقطعن أيديهن) وقلن: لا يتصور أن يكون هذا الذي أمامنا بشرا، إن هو إلا من جنس الملائكة، ملك من المستوى الرفيع. وتحققت الغاية التي من أجلها جمعتهن، فصرحت: هو الفتى الذي سبقتن بلومي في حبه، نعم لقد راودته عن نفسه فأبى متمسكا بعصمته. وإن لم يفعل ما آمره به ويطفئ حرارة حبي له بالوصال، ليدخلن السجن، الذي يذهب بكبريائه وليكونن من الأذلاء.

ولما سمع كلامها وتبين له تصميمها، إذ لم تستح من التصريح به لضيفاتها، قوي إدراكه للخطر فتوجه لربه يطلب منه العون. قال رب السجن الذي تهددني به هو خير لي من حياة القصور مع الفجور. إنك ربي إن لم تسعفني فتبعد عني كيدهن قد تتهاوى مقاومتي لإغرائهن، وأميل إليهن وأنتهي إلى ارتكاب الخطيئة التي يعيش عليها الجاهلون الفاسقون.

استجاب ربه الراحم لدعائه، وهو السامع لتضرعه وابتهالاته، فأبعد عنه كيدهن، إن الله هو السميع لدعاء الداعين وابتهالات الضارعين، العليم بما يجري في نفوسهم فلا يردهم عن بابه خائبين.

ثم قر قرارهم رغم ما شاهدوه من الأدلة الناطقة ببراءته، أن يدخلوه السجن إلى أمد لم يحدد.

بيان المعنى العام :

30-وقال نسوة في المدينة...في ضلال مبين.

رغم حرص زوجها على كتمان الحادثة، فقد خرج الخبر من السر، وتحدثت به بعض النساء المتصلة بالقصر، إذ لفظ [نسوة] يدل على قلة عددهن. وبلغ امرأة العزيز ما يتهامسن به من الإنكار عليها وما يتحدثن به في مجالسهن: إنها على رغم مستواها الرفيع ومنزلتها الاجتماعية العالية، نزلت إلى مراودة غلام من التابعين في القصر، راغبة في مضاجعته؛ قد بلغ حبها له وهيامها به أن استولى على قلبها: لقد انحرفت وسارت في طريق الخطأ البين.

31←32: فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن....من الصاغرين.

سمعت امرأة العزيز ما يجري من تهامس وتعليق على الحادثة. واعتبرت ذلك بما خالطه من لوم وإنكار، أنهن يحمّلنها الخطيئة، وأن شيوعه على هذا النحو قد يترتب عليه من السوء ما يترتب. فقد يحدث به أزواجهن، وقد يثار بينهم وبين زوجها ما يدفعه لمعاقبتها أو الانفصال عنها. والمرأة شديدة الحساسية في كل ما من شأنه أن يهدم حياتها الزوجية، خاصة إذا كان الزوج يحتل مستوى رفيعا في الدولة، فعبر القرآن عن ذلك بقوله:(**فلما سمعت بمكرهن**)

و كما أشرنا إليه سابقا، لقد كانت على قدر كبير من الفطنة والذكاء، فعملت على إقحامهن إقحاما يسكت إنكارهن. فدعتهن لبيتها ضَيْفَاتٍ عليها، ورتبت في إكرامهن ما يليق بمقامها ومقامهن على العادة المتبعة في قصور عظماء رجال الدولة.

مجلس وثير رحب، لكل واحدة من ضيفاتها متكأ تترفق به، وأمرت الخدم بإحضار ما اختارته من المأكولات، وأن يقدموا مع الأطباق السكاكين التي يقطعن بها الطعام حسب المستوى الحضاري الذي بلغته مصر في ذلك العصر، أن الطعام يقطع بالسكين ولا ينهسن اللحم ولا ينهشن الفواكه وغيرها.

وراق المجلس، وأخذت كل واحدة منهن تتناول مما قدم لها تحاوله بالسكين. وفي هذه اللحظة، كان مما رتبته أن يكون يوسف في غرفة ملاصقة تفتح على قاعة الجلوس، وأمرته أن يخرج على الحاضرات مفاجأة، إذا سمع أمرها له بالخروج.

وحرك سمعه، وهو ينتظر، الأمر بالخروج، فأطاع. وإذا بيوسف وسط النسوة من علية القوم، فشغلن بالنظر إليه والتمتع بالتثبت في محاسنه، وبهرهن ما جمع من جمال ووسامة وفتوة، حتى نسين أنهن يمسكن بالسكاكين في أيديهن فانفلت الحذر وجرحن أيديهن دون أن يحسسن بألم الجراح، وهن من علية القوم، وشأن أمثالهن أن لا يعملن بأيديهن، وأن يعتنين بتليينها بالمراهم فتزداد نعومة ورقة. ولذا فإنه بمجرد ما جرحت، سال منها الدم كأنها تقطعت، فتجسيما لهذا المعنى قال تعالى: **(وقطعن أيديهن)**. وقلن بصوت واحد معبرين عن شدة إعجابهن ومنفسين عما استقر في بواطنهن من المشهد الذي ما كان الخيال يسعفهن بتصويره: لا يكون هذا الفتى الذي جمع كل هذه المحاسن، من جنس البشر. هو من جنس آخر، هو من الملائكة الذين سموا عن البشر، في تصورهم، فتنزهوا عن النقص والعيب.

نجحت امرأة العزيز فبلغت ما أرادت، وقد أصبحت النسوة يشاركنها الإحساس بقوته الجمالية والرجولية الغازية لقلوب النساء. وهنا أعلنت لهن هذا الفتى بجماله

الأخاذ هو الذي سبقتن للومي في حبه قبل أن ترينه، وقبل أن يهز قلوبكن كما هز قلبي. نعم قد راودتُهُ عن نفسه بعد أن هممت به، فانحاز إلى العصمة من الزنا وامتنع من إطفاء الحرارة التي تلتهب في كياني. وقد عقدت العزم على أنه بين خيارين: إما أن يرضخ لإغرائي ويكون طوع أوامري، وإما أن يرمى به في غياهب السجون فتذهب كبرياؤه وينقلب ذليلا من الصاغرين.

33←35: قال رب السجن أحب إلي...ليسجننه حتى حين .

ربحت الجولة. وقد أصبحت نساء الطبقة العالية يشاركنها الإعجاب بيوسف، ويعذرنها في حبها له وتعلقها به. وكان يوسف يسمع كلامها ويحس بمشاركة بقية النسوة لها. وقد أحكم عليه الطوق إذ تعدى الإعجاب به والرغبة في القرب منه امرأة العزيز إلى غيرها، ولكل واحدة منهن قدرتها على الضغط عليه لو أتيحت لها الفرصة. فتوجه طالبا العون من ربه ليساعده على ما ألزم به نفسه من التقوى والابتعاد عن المحرمات. وأن حياة السجن عنده أحب و أفضل مما يدعونه إليه؛ إنها المنقذ المادي له. إني أخشى أن أنهار أمام مواصلة الضغط علي إن لم تتفضل ربي بصرف كيدهن عني. (يبدو أنه واثق من مواصلة كيدهن، وأنه كلما خرج من أحبولة ستنصب له أحبولة أخرى) ولعلني بضعفي البشري سأنتهي إلى الميل إليهن فأكون من جملة الجاهلين السفهاء الذين لا يرْعَوْن حدود الله. فكان تعبيرا من عميق الشعور بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

تلت هذه الابتهالات الخاشعة أن أجاب الله دعاءه، فصرف عنه آثار كيدهن، وثبّته على مواصلة المسيرة الطاهرة في سلوكه، وقواه فمضى على طريق العصمة. بكل تأكيد: إن الله يسمع نداء الداعين والمبتهلين، وهو العليم بما تكنه صدورهم وتنطوي عليه ضمائرهم ولا يخفى عليه صدق الصادقين.

ثم تمر فترة من الزمن، لم يتعرض القرآن إلى تفاصيلها. كانت تتأرجح بين قوة تأثير امرأة العزيز على دفع التهمة عن نفسها والإقناع ببراءتها، ومواصلة إغراءاتها ليوسف، حتى يئست من هزم صلابته في التمسك بعصمته، وبين الظواهر الناطقة ببراءة يوسف. ولكن في تبرئته سقوط امرأة العزيز وتحميلها التهمة. وتغلبت كفة الكيد على كفة الحق، فتم اتخاذ القرار بسجنه سجنا يطول، إلى أمد مجهول.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾
قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ
مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ
مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ
أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ
مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ
سِنِينَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملة : الدين .

تركت : لم آخذ مع إمكان الأخذ.

السلطان : الحجة.

القيم : المستقيم

قضي : تم القضاء ولا مبدل له.

بضع: يقال للعدد بين ثلاث وسبع.

تستفتيان : تطلبان ما يزيل الإشكال بالفتوى.

بيان المعنى الإجمالي :

نفذت امرأة العزيز ما أرادت، وأدخلت يوسف عليه السلام السجن، ودخل معه السجن فتيان من فتيان الملك. كانت صلتهما في السجن بيوسف قوية، فعرضا عليه رؤيا

في منامهما ليعبرها ثقة منهما بما شاهداه من استقامته وكمالاته، إذ لاحظا أنه يسير في جميع شؤون حياته على الوجه الحسن. قال لهما يوسف: سأعبر رؤياكما قبل موعد تناول المساجين للطعام. وإن تعبيري هو من فضل ربي الذي خصني بهذا العلم. إني لم ألتفت للدين الذي كان عليه القوم الذين لا يؤمنون بالله وينكرون يوم القيامة. والتزمت في حياتي الدين الذي سار عليه آبائي من قبلي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. نوحد الله ولا نشرك به أي شيء. إن هذه الهداية حصلت لنا وللمؤمنين أمثالنا بفضل من الله . والعجب أن كثيرا من الناس يقابلون نعم الله وفضله بالكفر ولا يشكرونه.

ثم قدم لهما حجة تقنعهما بالتوحيد. ارجعا إلى ما تحكم به فطرتكما، أيهما أفضل أن تعبدوا آلهة متفرقين لا صلة بينهم، هذا للنور وذاك للظلمة، وهذا للخصب وذاك للقحط، وهذا للغنم، وذاك للمطر وهكذا، وكل إله لا يتصرف إلا في ميدانه وهو عاجز عن الدخول في ميدان غيره من الآلهة؛ أو أن تعبدوا إلها واحدا يتصرف في الكون كله ويجريه على نظام متناسق. إن الذين تعبدونهم من دون الله لا حقيقة لهم، أنتم الذين أطلقتم عليهم أسماء الألوهية، وجعلتموهم آلهة ولا حجة لكم. إنهم عجزة والحكم لله وحده الذي أمركم، وأمره يجب أن يطاع. أمركم أن تفردوه بالعبادة. إن ذلك هو الدين المستقيم الذي يبلغكم سلامة العاقبة. وانصراف الناس عن هذا الدين هو بسبب جهلهم.

ثم أعلمهما بتأويل رؤياهما فقال: الذي رأى أنه يعتصر الخمر سيخرج من السجن ويقربه الملك ليتولى سقايته وحضور مجالس أنسه، وأما الآخر فسينفذ فيه العقاب بقتله وصلبه وانقضاض الطيور الكاسرة عليه تأكل من رأسه. انتهى الأمر وقضى الله بما قضاه وهذا تأويل رؤياكما.

وقال يوسف للساقي الذي يظن ظنا مؤكدا أنه سيتحقق له في المستقبل ما أخبره به، قال له: اذكرني بما علمته مني وبظلامتي عند الملك. ونسي الساقي بعد خروجه من السجن وصية يوسف، فبقي يوسف في ظلام السجن حوالي سبع سنوات.

بيان المعنى العام :

36-ودخل معه السجن فتيان....إنا نراك من المحسنين.

تم لامرأة العزيز ما أرادت، وأدخل يوسف عليه السلام السجن ليقضي فيه أعواما. وصادف أن دخل معه السجن فتيان كانا يعملان في قصر الملك. وما إن وقع نظرهما على يوسف حتى أنسا به، وتقربا منه، وتفرسا في ملامحه فوثقا بمزايا هو

بكمالاته. واقتصر القرآن على ذكر هذه العلاقة لأنه كان لها دور في مستقبل حياته عليه السلام. وإن كنا نجزم أن إقامته في السجن أدخلت على السجن جوا جديدا، بلطفه وحسن معشره، وسمو أخلاقه، وتخفيفه كرب المكروبين، فكان عليه السلام مستودع أسرارهم، وملجأ لهم يخفف عنهم وحشة السجن وقساوته.

و كل سجين يفكر في اليوم الذي يخرج فيه من السجن، ويتعلق بكل بارقة أمل، ويرغب في تطلع الغيب ومن ذلك تأويل أحلامه. وكان من هذين الغلامين: أن أحدهما رأى في منامه كأنه يعصر العنب ليحوله إلى خمر، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزا والطير تتبعه تنقر مما يحمله.

وقص كل واحد منهما رؤياه على يوسف ليؤول لهما ما رأياه، وتلطفا في مخاطبته قبل أن يعرضا عليه قالا له: إنا نعتقد أنك من المحسنين، الذين صفت أرواحهم وسمت نفوسهم الذين يُمْكِنُ لهما النفاذ إلى ما وراء الظواهر. فهذه رؤيانا فعبرها لنا لعلنا نرى فيها خيطا من أمل.

37←40: قال لا يأتيكما طعام ترزقانه....أكثر الناس لا يعلمون.

و جد يوسف من الغلامين شدة تعلق به، وأنه يمكنه أن يهديهما إلى الدين الحق. فطمأنهما أولا: بأنه سيفسر لهما ما رأيا ه ويؤوله قبل الوقت الذي من المعتاد أن يوزع الطعام فيه على المساجين. وأدمج أن قدرته على التأويل آتية من أن ربي علمني تأويل الرؤيا ورزقني هذا العلم الذي استقر في عقلي. وبهذا تمكن يوسف بحكمته أن يزيد إقبال الغلامين وقبولهما لما يعرضه عليهما. فما هو تفصيل هذه الحكمة في الدعوة ؟

أولا: أخبرهما بأن الشركَ منتشر في الدنيا، وأنه لم يأخذ ولم يتبع ملة القوم الذين لا يؤمنون بالله الذين قصروا أنظارهم على الحياة الدنيا، وكفروا باليوم الآخر الذي يجازَى فيه كل إنسان على ما قدمه في حياته.

ثانيا: إني التزمت في عقيدتي نفس الطريق والصورة التي كان عليها آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب. ثم وضح ذلك بأنها عقيدة تنفي أي شريك لله في ألوهيته. الوحدانية الكاملة التي لا شائبة فيها. إن اهتداءنا للتوحيد فضل من الله علينا وعلى من كان على نهجنا من الناس. والعجب أن أكثر الناس لا يشكرون نعم الله عليهم فيكفرون به وينسبون ما حصلوا عليه من الخير إلى غيره.

ثالثا: أقام لهما دليلا يناسب مستواهما الفكري وفطرتهما ورقق في مخاطبتهما، فناداهما: يا صاحبي السجن، كأنه يقول لهما إن ما أنتما فيه من السجن والعذاب

حصل من المشركين بالله، ونحن هنا نمثل وحدة ترفض ما هم عليه. ارجعا إلى الفطرة، هل الأفضل أن تكونا تابعين لآلهة متفرقة، كل واحد منها عاجز عن التدخل في ميدان الآخر، ويتصرف في ميدانه الخاص، أو الأفضل أن تكونا عابدين لإله واحد يقهر الظلم والاستبداد ولا يرضى بالفوضى.

رابعا: إن الآلهة التي تعبدونها لا حقيقة لها ولا يوجد فيها خصائص الألوهية. هي أسماء أطلقتموها أنتم على ما لا صلة له بالربوبية، لم يقِم خالق الكون عليها حجة توجب عبادتها أو التقرب إليها. انتبهوا فهي لا تتصرف ولا تحكم في الكائنات، والذي انفرد بالتحكم في كل شيء هو الله .والمتحكم في الكائنات هو الحقيق بأن يعبد وبذلك أمر سبحانه. إن الدين الذي هو على هذه الصورة هو الدين المستقيم السائر مع العقل والبديهة، الذي لاعوج فيه، والذي ينتهي بكم إلى سلامة العاقبة. ولكن غلبة الجهل على الناس صرفتهم عن عبادة الله وحده وتعلقوا بالشركاء.

40- يا صاحبي السجن أما أحدكما....فيه تستفتيان.

ثم وفى لهما بما وعده من تفسير رؤياهما، وأولها لهما على النحو الآتي:

أما الذي رأى نفسه يعصر، فسيكون ساقي الملك يحضر مجالس ندمائه. وأما الذي رأى الطير تأكل من الخبز الذي يحمله فوق رأسه، فسيقتله الملك ويصلبه، وتأتي كواسر الطير فتأكل من رأسه. تم القضاء بما أخبرتكما فلا يقع في المستقبل إلا ذلك.

41-وقال للذي ظن أنه ناج منهما...بضع سنين.

ثم أردف يوسف عليه السلام طلبًا توجه به إلى الساقي، الذي يظن ظنا قويا أنه سينجو، وأنه يكون قريبا من الملك وخاصة في أوقات فراغه وانشراحه. طلب منه أن يغتنم فرصة يذكُر فيها للملك ما عرفه في السجن عن يوسف، ويرفع عنده مظلمته.

خرج الساقي فعلا من السجن، وكان قريبا من الملك يحضر مجالس أنسه. ولكنه نسي وصية يوسف عليه السلام. وما كان تَفَقُّدُ المساجين وتجديد النظر في أمورهم مرعيا في ذلك العصر. بل يُنسى السجين في كثير من الأحيان حتى يموت. ونسي الساقي عرض قضية يوسف على الملك، فاستمر سجنه حوالي سبع سنوات. وإذا كان كل أمر يحدث في الكون هو بقدر الله وحكمته، فإن بقاء يوسف وتسلط الشيطان على الساقي حتى جعله ينسى يوسف الذي كان معجبا به ومرجعا له، علله كثير من المفسرين بأن يوسف علق آماله بنظر الملك في شأنه، وكان كماله يقتضي أن يدعو الله ويعلق آماله على استجابة دعائه. ولهذا الكلام وجه من النظر. ولكن الذي

ترجح عندي أن حياة السجن حياة ينقطع فيها الملهمون من البشر إلى التأمل، وينضج تفكيرهم نضجا يؤهلهم لتحمل مسؤوليات القيادة في الدولة. وقد كان النبي ﷺ قد حبب إليه الخلاء والانقطاع عن الناس، فأعده ذلك لقيادة الأمة سياسيا كما أسعده الوحي بقيادتها دينيا. وسوف يأتينا أن يوسف تولى تصريف خزائن مصر في سني العسر واليسر، وكان طول إقامته في السجن واختلاؤه بنفسه للتأمل أنضج قواه القيادية، ونجح فعلا في تسيير المهام التي أوكلت إليه بعد أن أخرج من السجن.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ

سمان : سمينة.

عجاف: جمع عجفاء، الشديدة الهزال.

الملأ : أعيان الناس وعلية القوم .

عبر الرؤيا : فسر ما تدل عليه، أبان إشاراتها ورموزها.

أضغاث : مفرده ضِغث، الحُزمة من أخلاط النبات، وأعواد الشجر.

الأحلام : جمع حُلُم ما يراه النائم.

بعد أمة : بعد زمن غير قصير.

الصديق : لقب لمن جمع صفات الكمال الخلقي والاستقامة.

أرجع إلى الناس : ارجع إلى الملك وأهل مجلسه.

دأبا: استمرارا على العادة.

شداد: جمع شديدة بسب الجدب.

يأكلن : يُفْنِين

الإحصان: الادخار بالوضع في الحصن، مكان الادخار.

يغاث الناس : تنزل فيه الأمطار وينتشر الخصب.

يعصرون : تثمر أشجار العنب ما يعتصرون منه الخمور.

بيان المعنى الإجمالي :

رأى الملك رؤيا في منامه عرضها على حاشيته ورجال الدولة ليعبروها له. قال: إنه رأى سبع بقرات سمان يتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة فيأكلنها. وسبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسة. فأشكل فهمها عليهم وقالوا: أحلام لا نسق بينها تراكمت واختلطت، ونحن جاهلون بتأويل الأحلام المعقدة المختلطة. وتنبه الساقي الذي نجا من العقاب فتذكر يوسف بعد سنوات، لما سمع ما دار بين الملك وعلية القوم. فتقدم للملك وقال: أنا أستطيع أن أخبركم بتأويل رؤياكم، فأذنوا بإرسالي .

أذن الملك بإرساله فتوجه إلى السجن، وبادر يوسف عليه السلام بالتنويه بخلاله وكمالاته (أيها الصديق) وعرض عليه الرؤيا كما تحدث بها الملك، وأن الناس تحيروا في تأويلها، وينتظرون بيان ما فيها من غموض.

قال له يوسف: تقومون بزراعاتكم سبع سنين على ما هو معتادكم. وستكون سنوات خصب، لكن عليكم أن تقتصدوا في التمتع بما تنتجونه فيها، وأن تدخروا الزروع الفائضة عن القليل الذي تأكلونه في السنابل بدون دراس. ثم يتبع السنوات السبع هذه سنوات سبع شديدة قاحلة لا تنبت الأرض فيها شيئا؛ تأكلون فيها ما ادخرتم ولا يبقى إلا شيء قليل. ثم في السنة التالية للسبع يأتي عام خير وخصب فتنزل الأمطار ويجري الري في الأشجار فتعتصرون من ثمارها ما تعتصرونه في سني الخصب.

بيان المعنى العام :

43←45: وقال الملك إني أرى سبع.....فأرسلون.

بقي يوسف في السجن إلى أن أخذت بوادر الفرج تظهر إثر رؤيا رآها ملك مصر الذي هو أحد ملوك العمالقة في مصر السفلى، وليس من ملوك القبط الفراعنة. رأى في المنام رؤيا حيرته لتناقض مقوماتها. رأى أن سبع بقرات سمان قوية البنية، تتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة ضعيفة البنية فيأكلنها، وسبع سنابل خضراء

وبجانبها سبع سنابل يابسة .وتوجه إلى حاشيته والمقربين منه وخاصة الكهنة الذين كان لهم اختصاص في تعبير الرؤى، عارضا عليهم ما حيره من رؤياه، طالبا منهم أن يقدموا له تفسيرا لما رآه إن كان لهم علم بتعبير الرؤيا.

و تحير كبار القوم والكهنة من الحاشية الملكية في فهم ما ترمز إليه هذه المجموعة المتناقضة، وكان جوابهم: هذه تراكمات من الأحلام مختلطة ومتداخلة غير واضحة ولم نجد ما يزيل الإشكال.

وهنا تنبه الساقي، وثار في نفسه ما نسيه بعد سنين طويلة وتذكر يوسف عليه السلام وكيف أفتاهما في رؤياهما، وقد صدق تفسيره وتم في الواقع ما أخبر به. وتوجه إلى الملك مخاطبا له خطاب التعظيم: أستأذنكم في الذهاب إلى الشخص الذي ينبئكم بتفسير رؤياكم.

أذن له الملك، فجرى نحو السجن، ودخله دون أن يعترضه أحد فهو رسول الملك، وتمكن سريعا من الاتصال بيوسف عليه السلام وخاطبه بكل أدب معبرا عما عمرت به نفسه من تقدير قائلا: يا يوسف، يا أيها الصديق (الرجل الكامل في صفاته، النقي في سلوكه، الوفي للقيم العليا التي يحملها) أزل عنا الإشكال في رؤيا. وعرض عليه ما رآه الملك بدون زيد ولا نقص. وأنهى كلامه بأنه: بفضل فتواه سيعود إلى الملك وحاشيته فيزيل حيرتهم ويعلمون تأويل الرؤيا.

47←49: قال تزرعون سبع سنين دأبا...وفيه يعصرون.

بما علَّم الله يوسف من تأويل الرؤيا، وإزالة الغموض المنسحب عليها، عرَّف الساقي السائل، بما يؤول إليه كل عنصر من عناصرها، فقال:

أولا: تزرعون سبع سنين على العادة التي تسيرون عليها في فلاحة الأرض، وسيكون نتاج أرضكم وافرا. وتنبَّهُوا فإن عليكم أن تبقوا ما زاد على قوتكم في كل سنة مما تحصدونه في سنابله، وأن تقتصدوا ولا تُبَذِّروا، وعليكم أن تقتصروا على الحد الأدنى لقوتكم في تلكم السنوات، وأن تدخروا الباقي.

ثانيا: سنوات الخصب ستُتبع بسبع سنوات يعم فيها الجدب، تقسو فيها الأرض على أهلها فلا نبات ولا زرع. يقتات الناس مما ادخروه في سني الخصب، ولا يبقى بأيديكم إلا قليل مما تدخرونه .

ثالثا: بعد السنين الشداد القاحلة يأتي عام تتابع فيه الأمطار ويعم الخصب ويجري الماء في النبات والشجر. فتعصرون من أعناب الكروم خمورا، ومن قصب السكر ما يجري بين أليافه، ومن بقية الفواكه ما كنتم تعتصرونه قبل الجفاف.

فتبين أن البقرات العجاف اللاتي يأكلن البقرات السمان: البقرات السمان السبع المأكولة هي سبع سنوات من الخصب متواليات. والبقرات العجاف الهزيلة الآكلة: هي سنوات سبع يعم فيها القحط ويأكل الناس ما ادخروه من سني الخصب. والسنابل الخضر السبع: هي ما يحصلون عليه من الزروع في سنوات الخصب، والسنابل اليابسة هي السنابل المدخرة.

وقد جمعت فتواه بين بيان الغموض، وبين التدبير الحكيم للتعامل مع المحاصيل الوافرة في سنوات الخصب السبع، من الاقتصاد وعدم التبذير، ومن ادخار الحصاد في السنابل حتى لا يسرع إليه السوس. وبين بيان أن سنة الله جرت على أن يعقب العسر اليسر.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الشأن الهام من حالة أو حادثة.

حاش لله : صيغة يراد منها المبالغة في النفي والتنزيه.

حصحص : ثبت واستقر.

بيان المعنى الإجمالي :

لما بلَّغ الساقي تفسير يوسف عليه السلام للملك وحاشيته، أكبر علمه ورجاحة عقله وحسن تدبيره. فأمر بإخراجه من السجن وأن يحضر لديه. وتوجه رسول من القصر الملكي ليوسف حتى يقبله الملك. وامتنع يوسف من الخروج من السجن وقال للرسول: اذهب إلى الملك واطلب منه أن يسأل النسوة اللاتي حضرن مجلس امرأة العزيز وجرحن أيديهن ماذا علمن وما شاهدن ؟ إن ربي لا يخفى عليه شيء من كيدهن لي.

جمعهن الملك وسألهن عن الأمر الذي حصل عند مراودتهن يوسف عن نفسه، فأجمعن على التنصل من اتهام يوسف بريبة وأنه بريء. وكانت امرأة العزيز

حاضرة، فصرحت: الآن بان الحق وظهر؛ أنا تعلقت بيوسف وراودته ليتصل بي، وإنه لصادق فيما ذكره من براءته من مراودتي.

كان يوسف عليه السلام يهدف من إحضار النسوة إلى تحقيق أمرين: أن يثبت براءة عرضه مما اتهم به، وأن يثبت يقينيا للعزيز أنه لم يخنه في زوجته عند مغيبه، لأن الله لا يساعد الخائنين بما يحجب الحقيقة إلى الأبد.

ثم توجه معلنا: أن ثباته على الطهارة هو تبع لما صحبه من ألطاف، وأنه لا يدعي أن نفسه نفس تسمو عن الضعف البشري، بل كل نفس تنزلق إلى الإثم إلا إذا رحمها الله وثبتها على الطهر والسمو. إن ربي غفور للمذنبين التائبين، رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

50 -وقال الملك ائتوني به....إن ربي بكيدهن عليم.

رجع الساقي إلى الملك وحاشيته، ونقل إليهم نقلا أمينا ما سمعه من يوسف. فكان لذكي تفسيره ولما أدمجه من التوجيهات في مقابلة الخصب والجدب، وفي طريق خزن الزروع، وما أضافه من تعقيب السنين الصعبة بسنة خصب ووفر خيرات، كان لكل ذلك موقع التقدير لمواهب يوسف عليه السلام عند الملك، وقال ما محصله: هذا الرجل ينبغي أن يكون إلى جانبي يساعدني على تصريف أمور الدولة، ائتوني به.

وتوجه من القصر الملكي رسول الملك يزف البشرى ليوسف: إن الملك عفا عنك. فما كان موقف يوسف وقد تولى الملك بنفسه الأمر بإخراجه من سجنه وبعث رسوله إليه؟ كان يوسف لما دخل السجن بريئا عند الله، متهما بالخيانة عند الذين بلغهم خبره مع امرأة العزيز. فما كان منه لحكمته وبالغ صبره إلا أن قال للرسول الذي كان يظن أن يوسف سيسرع بالخروج معه: ارجع إلى سيدك الملك (ربك) فاسأله سؤالا يزيل الشبهة ويبرئني مما اتهمت به. قل له: يقول لك يوسف: ما حقيقة أمر النسوة اللاتي جرحن أيديهن في مجلس امرأة العزيز؟ إن ربي الذي أنا مستمسك برعايته عليم بكيدهن. ولقائل أن يقول ما هو كيدهن؟ فإن التي كادت له هي امرأة العزيز. واستشعر المفسرون هذا السؤال وأجابوا عنه بأجوبة غير مقنعة. والذي ترجح عندي: أن النسوة عذرن امرأة العزيز في حبه وعملها على وصاله، وأن ما وقعن فيه من إعجاب بشمائل يوسف يخفي مشاركتهن الرغبة في سقوط يوسف في حبال المضيفة، وما يمكن أن يتبعه من وصالهن، فأخفوا الحقيقة وأيدوها فيما اقترحته من سجنه، ومن شأن الظالم أن يتلهف لوجود من يبرر له ظلمه، فيمضي فيه.

51 -قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف....وإنه لمن الصادقين.

حمل الرسول رسالة يوسف إلى الملك، فأمر بدعوة الحاضرات في ضيافة امرأة العزيز، وأتين إلى مجلس الملك، وألقى عليهن السؤال التالي: ما هي حقيقة الأمر الذي تم عندما راودتن يوسف عن نفسه، هل استجاب للإغراء ؟ وكان جوابهن واضحا نافيا للقالة التي تُحُدِّث بها في المجالس. حاش لله! نبرأ إلى الله من اتهام يوسف، ما علمنا على يوسف خروجا عن العفة أو سقوطا في الرذيلة.

كانت امرأة العزيز حاضرة في مجلس الملك فوقفت معلنة: في هذه اللحظة ثبت الحق واستقر، وسقط كل ما كذبت فيه على يوسف: أنا في ضعفي تعلقت به فراودته عن نفسه طمعا في وصاله. وبصفة مؤكدة: هو على الحق من الصادقين.

52←53: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ... إن ربي غفور رحيم .

الذي أفهمه من الآيتين: أن يوسف عليه السلام طلب إحضار النسوة اللاتي حضرن مجلس امرأة العزيز لغرضين:

أولا: غرض رفع كل تهمة علقت به من قبل حتى يكون عرضه نقيا عند الناس كما هو في الواقع، وبهذا لا يجد حساده مغمزا في سيرته ينفذون منه إلى الإيقاع به.

ثانيا: ليعلم عزيز مصر علما يقينيا أنني لم أخنه في غيبته، ولم أعتد على شرفه، وأن الله سبحانه لا يؤيد ما يكيد به الخائنون لبلوغ مقاصدهم الخبيثة إلى ما لا نهاية، بل يكشف أمرهم ولو طال الزمان.

و ختم كلامه متواضعا لله، مظهرا ضعفه حتى لا يفهم منه أنه نجا وعف لقوة إرادته. فقال: إني لا أدعي براءتي من المعصية ونزاهة نفسي وبعدي عما رميت به لمزايا الذاتية، فإن كل نفس قد تنزل وتنحط وتأمر ملحة صاحبها بالإقبال على الشهوة والخطيئة والإثم، وأن الذي يعصم الإنسان هو رحمة الله التي تحوط به فتفتح بصيرته، فتصفو سريرته، وينفر من الخطيئة والإثم. وفوق ذلك فإن ربي غفور لزلات التائبين رحيم بعباده الذين يتعلقون برحمته.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أستخلصه لنفسي: أجعله خالصا لي لا يشاركني فيه أحد.

مكين : ذو مكانة ومرتبة عظيمة.

أمين : موثوق به لايخون.

يتبوأ : ينزل ويتصرف.

نصيب : نعطي عطاء الفضل.

بيان المعنى الإجمالي :

لما ظهرت براءة يوسف عليه السلام وأدرك الملك مستواه الرفيع في العلم والأدب والحكمة، أصدر أمره بان يخرجوه من السجن ويحضروه بمجلسه.

تحدث الملك إليه فكان ما سمعه منه ملأ نفسه إعجابا بكمالاته وجمع ما استقر في نفسه بقوله: إن لك المنزلة القوية في الدولة وإنك لأمين يطمأن إليك، فتول ما شئت من أمور الدولة فأنا أثق فيك.

عرض يوسف على الملك أن يسند إليه الحفاظ على أموال الدولة وما تملكه من الأرزاق، موجها طلبه بأنه يحفظ الأموال بحسن التصرف فيها وتثميرها، وأنه يباشر عمله حسب القوانين العلمية التي لا مكان فيها للعواطف والارتجال. وأعْطِيَ ما طلب، فمكنه الله من أرض مصر ينتقل في أقاليمها يسدد المسيرة ويباشر الأمور من قرب، وتجري الأمور حسب إرشاده وتوجيهه.

إن الله يعطي موجبات رحمته لمن يشاء، ويوفي للمحسنين في سلوكهم أجرهم دون أن يضيع منه شيء. وفوق ذلك الأجر الذي أعده في الآخرة للمؤمنين المتقين

بيان المعنى العام :

54←55: وقال الملك ائتوني به أستخلصه ....حفيظ عليم.

لما أبلغ الرسول جواب يوسف وظهرت براءته تبعا لما طلبه من إظهار الحقيقة؛ عندها قال الملك: ائتوني بيوسف أجعله خالصا لنفسي، يكون مقربا مني، يساعدني على تسيير أمور الدولة، ولا يهتم بشيء آخر.

تحدث الملك مع يوسف، فزاد إعجابا برجاحة عقله، وحسن منطقه، وكمال أدبه، وعلو أخلاقه، ووجد فيه الرجل الذي يحق أن يستعين به في تسيير أمور الدولة، فعبر له عما تقتضيه هذه الثقة وذلكم الإعجاب بقوله: إنك اليوم في مرتبة رفيعة، ثقتنا فيك تامة لأمانتك وسمو أخلاقك.

فهم يوسف من تصريح الملك: أنه يريد أن يستكفي به في بعض المهام، فقال للملك: ولِّني التصرف في خزائن الدولة. والذي أفهمه من ذلك حسب تعبيرنا اليوم أن يوليه وزارة المال بما يشمل الأموال والمنتجات الزراعية، يتصرف فيها تنمية وتوزيعا. وبرر طلبه هذا بأنه مؤهل لذلك لجمعه بين صفتين:

الأولى: قدرته المتميزة على حفظ الأموال بتثميرها وحسن التصرف فيها، وأمانته في إعطاء الناس حقوقهم وعدم ظلمهم.

ثانيا: مستواه المعرفي الذي يتصرف به في الأموال تصرفا مستجيبا لما يقتضيه العلم الكاشف عن الوجوه الصالحة للتصرف فيه، الذي لا دخل فيه للعواطف والمحسوبية والارتجال.

56←57: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض...وكانوا يتقون.

وعلى هذا النحو من التأييد يسرنا ليوسف ما بلغ به المكانة العليا في أرض مصر. دخلت الأراضي والعاملون فيها تحت قيادته وتوجيهاته؛ وما نزل في أي مكان إلا كانت دواليب الاقتصاد تحت إمرته، بعد أن أحكم تنظيمها وربط بينها، فقوله تعالى (يتبوأ منها حيث يشاء) تدل على أصل عظيم من أصول النجاح في التسيير الاقتصادي، الذي هو إحكام التواصل بين الأقاليم.

وعطفت الآية بإبراز قاعدة عقدية أساسية، أن الله يمكن مَن يشاء مِن موجبات رحمته .ويتفضل بتوفير أجرهم على ما أجرى على أيديهم من صلاح وخير. وفوق ذلك، التكريمُ والثوابُ في الآخرة، ذلكم التكريم الذي يخص به عباده الذين صفت أرواحهم بالإيمان وصلحت أعمالهم بسلوك مسالك التقوى.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

منكرون : جاهلون أتم الجهل أنه يوسف.

الجهاز : ما يحتاج إليه المسافر .

بضاعتهم : ما قدموه ثمنا للطعام.

رحالهم : جمع رحل وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب.

الانقلاب : الرجوع.

سنراود: سنحاول.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذ يوسف عليه السلام في تسيير المهام بحكمته، وأعقبت سنوات الجدب سنوات الخصب. ووقعت أسرته في ضيق، فجاء إخوته يرغبون في شراء الطعام. وأدرك يوسف لما رآهم أنهم إخوته بينما هم لم يتفطنوا أنه يوسف. وبعد أن سلم لهم ما اشتروه قال لهم: اصطحبوا في المرة القادمة أخاكم للأب، واعلموا أنه إذا لم يأت معكم فلا أبيع لكم شيئا من الحبوب، ولا أقبلكم. أجابوه بأنهم سيحاولون أباهم ليصطحبهم، وأنهم يبذلون قصارى جهدهم .ومن حكمته أن أذن عماله بأن يجعلوا ما قبضوه منهم في رحالهم، رجاء أن يعرفوها عندما يصلون إلى منازلهم، فيكون ما وجدوه من الأثمان الراجعة إليهم محرضا لهم على العودة لشراء الأقوات. ولا يحول الفقر بينهم وبين العودة إلى مصر.

بيان المعنى العام :

58←62: وجاء إخوة يوسف فدخلوا....إلى أهلهم لعلهم يرجعون.

استقر يوسف عليه السلام مباشرًا لمهامه. وتتابعت السنون فجاء الخصب سبع سنين تصرف فيها بالحكمة حسب الخطة التي قدمها في تعبير الرؤيا. ثم توالت سنوات الجدب، وعمت أرض مصر وما جاورها من أرض فلسطين حيث منازل أبيه وإخوته. وأصاب يعقوب وبنيه وأهله ما أصاب المنطقة من الشدة .وطوى القرآن تفاصيل الأحداث التي تلت قيام يوسف عليه السلام بمهامه، لأنها أحداث طبيعية لاعبرة خاصة فيها. ويتصورها التالي لكتاب الله كما يشاء دون أن يدخل خلل في العبر التي أحكمتها محطات القصة.

تناولت هذه الآية مبدأ ارتباط آخر القصة بأولها. فقد تتبع القرآن ما حدث ليوسف عليه السلام بعد إلقائه في الجب إلى أن أصبح الرجل الأول في دولة الكنعانيين بمصر، ولم يتحدث عن أبيه وإخوته. ولكن من هذا الموقع عاد الارتباط بين يوسف وأسرته. ذلك أن الجدب الذي عم المنطقة كلها، وقد علم الناس أن الدولة قد استعدت لإسعاف الجياع بالأقوات. فوجه يعقوب بنيه بما عندهم من بضاعة يقدمونها ثمنا لما هم في حاجة إليه من الأقوات.

جاء إخوة يوسف إلى مركز بيع الأقوات، وقد كان يوسف يتولى مراقبة مركز البيع مراقبة حازمة ومتتابعة، فلما دخل إخوته لشراء ما هم في حاجة إليه، رمقهم يوسف وعرفهم، بينما استمر إخوته في ذهولهم عن تصور أن الذي يتحكم في أقوات المنطقة هو أخوهم. وطوى القرآن ما دار من حديث بين يوسف وإخوته، ويفهم من قوله أئتوني بأخ لكم من أبيكم، أنه عليه السلام استدرجهم للحديث، ووصل بفضل لقانته من تحقيق ما أراده من محادثتهم دون أن يتفطنوا لمراده. ولما كانوا يريدون شراء طعام يكفي لأسرتهم فقد يكون أنه سألهم عن عدد أفرادها، وأعلموه أنهم إخوة أشقاء، ولهم أخ من أبيهم لم يصحبهم في سفرتهم. ولعل يوسف نظم توزيع الأقوات على عدد الرؤوس التي تتكون منها العائلة. فلما مكنهم من حصة أخيهم الذي لم يحضر معهم طلب منهم أن يحضروه في المرة القادمة، وأنهم إن لم يأتوا به معهم فلا يتوقعوا أن يحصلوا على شيء، بل إنه لا يسمح لهم بقربه ولا بتقديم أي عذر. ثم حركهم لقبول طلبه بأنه ملتزم في تسيير الأمور بالعدل والشفافية، ولفت أنظارهم إلى ما شاهدوه في ناحيتين: أولا: أنه يوفي الكيل ولا ينقص من حقوق المشترين شيئا، على أن الظرف تبعا لشدة الحاجة قد يجعلهم يقبلون بما يعطيهم ولو كان أحط من حقوقهم .وثانيا: أنه يستضيف المشترين ويكرمهم إكراما على خير الوجوه، فإذا قدموا مع أخيهم فإنه سيستضيفهم جميعا.

تيقنوا من جدية يوسف، وقالوا له: سنحاول أباه، بكل تأكيد، ليتركه يخرج معنا في المرة القادمة.

ثم إنه تبعا لشدة ذكائه، أمر الفتيان المشتغلين بعمليات البيع وقبض الأثمان تحت إمرته، أن يضعوا ما قبضوه من إخوته في رحالهم، وذلك، لعلهم إذا رجعوا إلى أبيهم وجدوا الأثمان التي دفعوها قد عادت إليهم، فلا يتخلفون عن العودة إلى الشراء من جديد، إذ كانت هيآتهم تدل على ما هم عليهم من الفقر والخصاصة.

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا

مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الميرة : الطعام المجلوب.

موثق من الله: يمين، الله شاهد على ما التزموا به.

أن يحاط بكم : تكونون في مأزق لا حيلة لكم في الخروج منه.

وكيل : رقيب على تنفيذ ما التزمنا به.

لا أغني عنكم : لا أجزي ولا أدفع، فلا أكفيكم .

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تفصل المشهد الذي حصل إثر رجوعهم من عند يوسف. بادروا قبل أن ينزلوا رحالهم بعرضهم على أبيهم ما تم بينهم وبين العزيز الذي انتهى إلى حرمانهم من الطعام إن لم يصحبوا أخاهم وأنهم يرغبون في الإذن له بالسفر معهم ووعدوه بحفظه. وأجابهم بإشارة لاذعة، مذكرا لهم بما انتهى إليه حفظهم ليوسف، وإن حفظ الله له خير من حفظهم. ثم قاموا إلى رحالهم لإنزال الطعام الذي جلبوه، وكانت مفاجأتهم كبيرة، إذ وجدوا المتاع الذي قدموه ثمنا عاد إليهم. فكرروا طلبهم أن يصحبهم أخوهم نظرا لهذا المعطى الجديد. إذ ثمن الطعام حاضر. فلنذهب لنأتي بالميرة لأهلنا، ونرعى أخانا رعاية تضمن سلامته، وينال أخونا ما يعطيه العزيز لكل فرد، فنضيف ما يكال لبعيره، وتحصيلنا عليه أمر يسير لكرم العزيز. قال لهم أبوهم لا آذن له بالسفر معكم إلا إذا أقسمتم لي بالله موثّقين بذلك وعدكم من رجوعكم ببنيامين إلا إذا حال بينكم وبين البر بقسمكم موانع تفوق طاقتكم. وزادهم تأكيدا محذرا بأن الله هو الوكيل على ما عقدناه.

وأردف ناصحا لهم أن يتوزعوا عند دخولهم لمدينة العزيز، وأن يتفرقوا لينفذوا من عدة أبواب، حتى لا يلفتوا إليهم أنظار الحرس والقائمين على الأمن، مبينا لهم أنه لا يستطيع أن يدفع عنهم الأذى، فإن التصرف والتنفيذ هو بيد الله. على الله توكلي وعليه وحده سبحانه فليتوكل الصالحون المتوكلون.

بيان المعنى العام :

63←64: فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا....وهو أرحم الراحمين.

لما رجع إخوة يوسف إلى منازلهم دخلوا على أبيهم وقصوا عليه ما وقع لهم مع عزيز مصر المتحكم في الأقوات. والعقدة الكبرى أن العزيز أخذ قراره: أنه لا يمكنهم من الطعام في المستقبل ولا يتحدث إليهم ولا يقبل أي عذر منهم، إلا إذا اصطحبوا أخاهم .وطلبوا من أبيه أن يأذن لهم في أخذ أخيهم معهم حتى يستطيعوا اشتراء الطعام وتسلم الكيل الذي يقابل الثمن الذي يبذلونه. وأكدوا له أنهم يقومون بحفظه ويرعونه في سفرهم حق الرعاية.

كان جواب يعقوب دقيقا، فقال لهم : قدمتم أنكم ترغبون مني أن أأتمنكم عليه، وأي ائتمان هذا ؟ هل هو كما ائتمنتكم من قبل على أخيه يوسف ؟ يشير إلى التجربة الأولى التي أعقبها ضياع فلذة كبده يوسف. وقالوا له: إنهم سيحفظونه، ثم والى إن حفظ الله خير من حفظكم. إن ربي أرحم الراحمين. قد يشير إلى قسوة قلوبهم لما فرطوا في يوسف. وفي صيغة جوابه أنه يتوكل على الله في حفظ ابنه الذي يتولاه بأفضل مما يبذلون من الرعاية، مما يفهم منه أنه غير مصمم على عدم إرساله معهم. يبدو أن ذلك كان تبعا لحرج الموقف في الاختيار بين منع بنيامين من السفر معهم، وبين توقف استمرار حياة العائلة على ما يجلبونه من الطعام.

65←67: ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم...فليتوكل المتوكلون.

بعد أن بادروا بالحديث مع أبيهم عن سفرتهم وما حصل فيها من قرار حرمانهم في المستقبل من الطعام إن لم يصحبوا أخاهم، رجعوا إلى رحالهم فأنزلوها وفتحوها. ولَشَدَّ ما كانت دهشتهم إذ وجدوا البضاعة التي قدموها ثمنا لما اشتروه قد رجعت إليهم. فانحلت بذلك مشكلة ما يقدمونه من ثمن لما يشترونه من أقوات. فقالوا لأبيهم: يا أبانا انحلت المشكلة، هذه البضاعة التي كنا دفعناها لعزيز مصر قد عادت إلينا، فلنسافر إلى مصر بها، ونصحب أخانا في سفرنا، ونتولى العناية به وحفظه من كل مكروه، ونضيف إلى ما أتينا به من الطعام حمل بعير آخر؛ لعلهم يقصدون أن عزيز مصر سيمكن أخاهم من حمل بعير من الطعام، وذلك حسب ما عرفوه من كرم العزيز، أمر يسير مظنون حصوله.

يبدو أنه قد اجتمع من الظروف المساعدة ما أثر على يعقوب عليه السلام تأثيرا جعله يسمح بخروج بنيامين أخي يوسف معهم في رحلتهم إلى مصر. ولكن اشترط عليهم أن يحلفوا له يمينا مؤكدة يشهدون الله فيها على أنفسهم، توثق التزامهم بأن يحافظوا

على أخيهم من تاريخ خروجه معهم حتى يعودوا به إلى أبيه سالما. ولما كان المستقبل مجهولا، وما يحصل فيه من المعوقات لا يعلمها إلا الله، حللهم من هذا الالتزام إذا وجدوا في أنفسهم في مأزق يحول بينهم وبين الوفاء بالتزامهم لا يجدون حيلة ولا قدرة لهم على الخروج منه. وأقسموا لأبيهم هذا القسم المغلظ، ثم زاده تأكيدا بقوله: إن الله رقيب عليكم في تنفيذكم ما التزمتم به، كأنه يشير إلى ما بقي في نفسه من الشك فيما ادعوه من عدوان الذئب على يوسف.

وأوصاهم وصية استندت إلى تجربته الطويلة، فقال لهم: إذا دخلتم مدينة العزيز فتوزعوا على أبوابها ولا تدخلوا من باب واحد: ووجه بعضهم ذلك على أنه حماية لهم من أن تصيبهم عين حاسدة، إذ قافلة من أحد عشر رجلا أخوة، تتشابه قسماتهم، وهم على حظ من الجمال والمهابة، قد يثير بعض الناظرين الذين ينقدح من عيونهم ما يضر المنظور إليهم. فحماية لهم من ضرر العين أوصاهم بالدخول مفرقين من أبواب عديدة. ووجهه آخرون من أن دخولهم مجتمعين قد يثير الريبة في الحرس القائمين على الأمن، فربما ضيقوا عليهم أو أوقفوهم للتحقق منهم إذا دخلوا مجتمعين، ولا يثيرون الشبهة إذا توزعوا على أبواب المدينة.

ثم عرفهم أن العمل بوصيته لا ترد قضاء مبرما قدره الله وتعلقت إرادته بتنفيذه. ذلك أن الحكم الذي ينفذ في النهاية ويقع في الوجود هو ما حكم به الله فتعلقت إرادته بإنجازه. فمجموع كلامه يهدف إلى تقرير تصوره لما يحدث في الكون ومسؤولية الإنسان فيه. فالإنسان مطالب بأخذ الأسباب وهو محاسب على ذلك، وأما تحقيق ما قصده مما تكون العادة تحققه فليس ذلك بواجب، بل المتحكم في الحوادث هو المنظم لهذا العالم الله رب العالمين، فكم من مجتهد بذل عنايته وأخذ بالأسباب، ولم يصل إلى مبتغاه. يوضحه أن الأسباب المنتجة للمقصود ليست كلها خاضعة لإرادة الإنسان وسعيه، بل قد تكون أسباب أخرى للنجاح خفيت عن العامل. وقدراته الفكرية لا تبلغ الإحاطة بجميع المؤثرات ولا التحكم فيها. وهو معنى التوكل على الله الذي أخبر بنيه بأنه ملتزم به، وأنه المنهج الصائب الذي عليه الصالحون من البشر؛ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا

تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ
أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا
تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ
﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا
جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ
أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما كان يغني عنهم من الله من شيء : ماكان يستطيع أن يرد عنهم القضاء.

قضاها :قام بها.

آوى أخاه : قرب إليه أخاه.

فلا تبتئس : لا تهتم، و ابتهج.

السقاية : إناء كبير يسقى به الماء و الخمر.

الصواع : الصاع وعاء مضبوط للكيل.

التأذين : النداء المكرر.

العير :المجموع من المركوبات وأحمالها وأصحابها.

أوعيتهم : جمع وعاء وهو الظرف الحاوي للشيء.

الكيد : فعل يتوصل بظاهره إلى أمر آخر خفي.

بيان المعنى الإجمالي :

سافر أبناء يعقوب ومعهم أخوهم الصغير إلى مصر للميرة، ونفّذوا وصية أبيهم فتفرقوا على أبواب المدينة عند دخولها. وما كان يعقوب بوصيته تلك يرد عنهم ما سبق به القضاء، ولكنه أراد أن يعلمهم أن يأخذوا بالأسباب التي هي في مقدورهم، وهو الحزم، ومع ذلك أن يحسنوا التوكل على الله. وهذا التأديب هو عمل بما استقر في نفسه من علم علّمه الله إياه، وقام به، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب .

ولما دخلوا على يوسف تلطف فقرب أخاه منه، وسارَّه بأنه أخوه يوسف الذي أشاع إخوته عنه أنه أكله الذئب. وأوصاه أن يغسل ما في صدره من حزن على ما كان إخوته يقترفونه من تجاوزات .

مكنهم من الطعام الذي جاءوا لشرائه، وبمجرد ما حزموا أمتعتهم وهموا بالسفر، صاح بهم أحد أتباع العزيز: أيتها القافلة قفوا إنكم سارقون.

ولشد ما كانت دهشتهم برميهم بهذه التهمة؛ فسألوا المنادي ما ذا فقدتم ؟ أجابهم فقدنا المعيار الذي كنا نكيل به الطعام، وهو صواع الملك (السقاية) الذي يشرب منه الماء والخمر، واعلموا أني ضامن لمن يأتي به ما يمكن أن يحمله بعير من الطعام.

فأقسم أبناء يعقوب: تالله، كما علمتم من حالتنا وسلوكنا، ما جئنا لنرتكب ما يوجب قلاقل في أرض مصر. وإننا لأبعد الناس عن السرقة.

أجابهم الصائح ملزما لهم: ما هم حكمكم على السارق عندما نكتشفه ؟ ولثقتهم في براءتهم قالوا يسترقه العزيز جزاء ما اقترف. لأنه ظالم والظالم يستحق هذا الجزاء. أوحى يوسف للمفتش أن يبدأ بأوعية الإخوة قبل وعاء بنيامين، تم الأمر وفي النهاية وجدوا السقاية في متاع بنيامين. ونفذ الحكم فيه الذي رضوا به مقدما، فأصبح رقيقا عند يوسف. وتم ذلك، بعون من الله، فحقق يوسف ما رتب له من الحيلة لضم أخيه لنفسه، وليتابع الخطوات التالية لجمع الشمل. إذ لولا ذلك التدبير وإسراع إخوته بالحكم ما كان يوسف يستطيع أن يسترق أخاه حسب القانون الملكي في مصر. على معنى أن السارق لا يسترق في القانون المصري في ذلك الوقت.

والله يرفع في مقامات السمو من يشاء من عباده فرفع يوسف إلى مقامات العز وتحقيق ما يريد.

وكان ما بلغ به يوسف غايته هو اتباع منهجية علمية وصلت به إلى النجاح. ومن سنن الله التي بنى عليها الكون أن العلم لا يقف عند حد ففوق كل مَرْتَبَةٍ مَرْتَبَةٌ أعلى تدعو الإنسان لمواصلة البحث والاجتهاد حسب منهجية منتجة. وبالطبع فكل عالم يوجد من هو أعلم منه في الحاضر أو في المستقبل.

بيان المعنى العام :

68- ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم...أكثر الناس لا يعلمون.

تجهز إخوة يوسف للسفر إلى مصر وصحبوا أخاهم في سفرهم. ولما بلغوا المدينة المصرية طبقوا ما أوصاهم به أبوهم يعقوب، فتوزعوا في الدخول بين أبوابها. وما كانت وصية يعقوب لهم لتبعد عنهم جميع الأخطار، ولكن عطفه على أولاده

حمله على النصح لهم، فقام تحت داعية حنان الأبوة، وبموجب ما اختزنه الله في قلبه من حكمة، فأبلغهم ما هو خير لهم. ونوه القرآن بيعقوب عليه السلام: إنه على حظ كبير من النفاذ إلى غايات العلم الذي علمه الله، فهو قد علَّم أولاده أن لايهملوا الأسباب الواقية من المصائب، وعلمهم أيضا أن ذلك لا يضمن لهم السلامة مائة بالمائة، فليحسنوا التوكل على ربهم. ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحكمة العزيزة من الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب .

69 – و لما دخلوا على يوسف آوى.... بما كانوا يعملون.

بعد أن وصلوا إلى المدينة توجهوا إلى مجلس العزيز فدخلوا عليه. لاحظ يوسف أن ما دبره قد حقق غايته. فها هو أخوه بنيامين معهم أمامه، فتلطف حتى قربه منه وأسرَّ له: إني أنا أخوك يوسف، فأزل ما كنت تجده من كدر على موتي، ومن حزن على ما كانوا يعملون تبعا للغيرة مني ومنك، وَابْتَهِجْ بتلاقينا.

70← 76: فلما جهزهم بجهازهم ...وفوق كل ذي علم عليم.

أذن يوسف عليه السلام العمال المكلفين بتسليم الأقوات للمشترين، وأمر من يثق بكتمانه السر أن يجعل السقاية، التي كانت وسيلة الكيل، في متاع أخيه بنيامين. وتسلم كل واحد من أبناء يعقوب نصيبه، واستعدوا لمغادرة المكان للسفر. وبينما هم يقيمون رواحلهم لينطلقوا إلى أبيهم، أخذ أحد عمال العزيز ينادي مكررا: قفوا ! يا أيتها القافلة إنكم سارقون.

وقفوا مشدوهين سائلين ما ذا فقدتم وعمّاذا تبحثون؟ كان الجواب واضحا فقدنا صواع الملك، ونضمن لكم أن من أتانا به نجازيه بما يحمله بعير من الطعام. وصواع الملك هو السقاية التي كان يشرب منها الخمر والماء، واتخذت على أن تكون معيارا معلوما للكيل يوفى به كل مشتر حقه. ولا شك أن الملك لا يشرب إلا من سقاية ثمينة. ولذا عرضوا جزاء من يأتي بها حمل بعير.

كانوا متحققين من براءتهم فقالوا: تالله، والتاء الداخلة على اسم الجلالة هي كالواو فهي وزان والله، تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض، وما كنا سارقين. أقسموا على براءتهم أنهم جاؤوا للميرة لا لينشروا الفساد في أرض مصر، أي إننا لسنا عصابة سوء تقوم بما يترتب عنه فساد في المجتمع، فإن ضياع صواع الملك يتبعه قطعا تفتيش عام واتهام الأبرياء، واضطراب يزعزع الاستقرار، وأيضا فبالتحديد نحن أبعد الناس عن السرقة وسفالتها. وأسندوا براءتهم إلى علم أتباع العزيز بذلك. وفرض المفسرون فروضا تكشف عن مصدر علمهم ببراءتهم واستقامتهم، فقالوا:

إنهم لما قدموا للميرة في المرة الثانيـة أخبـروا: أنهـم وجـدوا بضـاعتهم فـي رحـالهم فكان ذلك شاهد صدق على تورعهم عن مـال الغيـر، كمـا فرضـوا أنهـم اتهمـوا فـي المرة الأولى بالجوسسة وظهرت بـراءتهم. وهـي فـروض لا يقـوم عليهـا دليـل مـن قريب أو من بعيد من النص القرآني. ولذلك فإن الـذي تـرجح عنـدي: أنـه نـوع مـن الإلزام الخطابي لنفي التهمة، مستند إلى ما شـاهدوه مـنهم فـي التعامـل وفـي السـلوك العام من خلق رفيع وأدب ربوا عليه في بيت النبوة.

وأمام هذا الجواب الحاسم ألزمهم المكلفون بالبحث عن الصواع بأن يصدروا حكمهم على من وجد عنده الصواع حتى لا يتنصلوا من العقوبة لو وجدوه عند أحدهم .

وتحقق ليوسف المرحلة الثانية من تدبيره بحكمهم: أن مـن وُجِـد الصـواع فـي رحلـه يصبح عبدا رقيقا للعزيز جزاء ما قام به، وعللوا حكمهم ورضـاهم بـه بـأن مـن أخفـى الصواع عنده مُتَعَدٍّ ظالم، وعلى هذا النحو ينبغي أن يجزى الظالمون.

ثم بدأ التفتيش، فكان من حبك ما قصده يوسـف أن أوحـى لعمالـه بـأن يبـدؤوا بتفتـيش أمتعة الإخوة ويتركوا أمتعة بنيامين إلى الآخر، وكلما أتمـوا الكشـف عـن متـاع أحـدهم برأوا صاحبه، وفي النهاية استخرجوا الصواع من وعاء بنيامين.

و نفذ الحكم فيه فأخذ على أنه عبد من عبيد العزيز.

و يعلق القرآن على ما انتهى إليـه الأمـر: إن الله يسـر ليوسـف الأسـباب كلهـا التـي بلغت بتدبيره غايته التي كان يرمي إليها. فقـد جمـع الله بينـه وبـين أخيـه جمعـا كـان بحكم إخوته الذين قصدوا أن يبالغوا في الدلالة علـى بـراءتهم مـن تهمـة السـرقة.ولولا ما حكموا به ما كان يوسـف ليـتمكن مـن أخـذ أخيـه، لأن شـريعة ملـك مصـر: أن العقوبة التي تنزل بالسارق لا تصل إلى حد استرقاقه.

و الخاتمة: أن الله هو الرافع الخافض، فمـن أراد أن يسـمو بـه ويحقـق لـه مـا يريـد، ييسر له الأسباب التي تبلغه المقام الرفيع. وإن العلم الـذي هـو أسـاس النجـاح والرفعـة هو بالنسبة للعلـم البشـري تطـور متتـابع، كلمـا حقـق البشـر مسـتوى فتحـت لهـم منجزاتهم أبوابا للسمو إلى ما هو أرفع، فعلـى البشـرية أن تواصـل البحـث والاجتهـاد ليكون كل كشف وراءه كشف أسمى منه. ومن ناحية أخـرى فـلا يظـن أحـد أنـه بلـغ القمة من العلم. ففوق كل مستوى لعالم مستوى أرفـع مكـن الله منـه أحـد معاصـريه أو سيمكن غيره من ذلكم المستوى الأرفع في المستقبل.

۞ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ۖ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُّمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ۖ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ۖ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معنى الألفاظ :

أسرها : أخفى الكلام في نفسه.

شر مكانا : حالتكم شرمن بنيامين وأخيه.

مكانه : عوضه.

معاذ الله: نلجأ إلى الله أن يحمينا من الأخذ بعَرْضِكُمْ.

استيأسوا : يئسوا يأسا قويا.

خلصوا: انفردوا.

نجيا: يتحدثون سرا فيما بينهم.

يحكم الله لي : يقدر لي ما ينفعني.

للغيب : للأمور المغيبة عنا عالمين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن ظهرت الفضيحة، وأن أحدهم كان سارقا ونفذ فيه الحكم بالاسترقاق، قالوا، رغبة منهم في تخفيف شيء من العار الذي لصق بهم: إن يسرق بنيامين فقد سرق أخوه من قبل، كأنهم يلصقون المعرة بأخويهما من الأب يوسف وبنيامين، أما هم فهم أشرف من أن يسرقوا. قالوا هذا بدافع الكراهية المتولدة عن الغيرة من يوسف وأخيه، فوجدوا مدخلا لينفسوا عما تضطرب به عاطفة المقت لأخويهم. ولا يقتضي ذلك أن يكون ما رموا به يوسف من السرقة أمرا واقعا حتى يبحث له عن مخرج.

كان كلامهم هذا بمحضر يوسف وبمسمع منه. تحمل يوسف هذه الإذاية له ولأخيه ولم يظهر غضبه من مقالتهم، وقال في نفسه: أنتم أسوأ حالا وأحط من مستوانا. والله أعلم بما وصفتم من كذب وافتراء أو من صدق. يشير إلى كذبهم عنه وعدم إدراكهم لحقيقة الأمر بالنسبة لبنيامين. هذا العلم الحق هو عند الله الذي لا يغيب عنه شيء ولا تلتبس عليه الأمور.

بيان المعنى العام :

78←80: قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا.... وهو خير الحاكمين.

بعد أن تم استرقاق بنيامين عند يوسف، استشعر إخوته قوة الصدمة التي ستنزل على أبيهم عند علمه بالخبر. فحاولوا إنقاذ بنيامين وتوسلوا ليوسف أن يمكنهم منه وأن يعوضوه بأحد منهم يكون رقيقا بدله. وتوسلوا لذلك: بأن أباه ما يزال حيا وهذا أصغر أولاده فرقته عليه وحنانه يتبعهما قوة أسفه الذي ربما يضر به، وهو مع ذلك هو شيخ، وتقدمه في السن يضاعف من رقة عواطفه، وثالثا هو كبير إما بمعنى أن شيخوخته في مراحلها المتأخرة فضعفه أشد، أو على معنى أنه كبير قومه، ومن شأن العلاقات الدولية أن تقع فيها مراعاة الكبراء مراعاة خاصة.

كما توسلوا له، بأنه حسبما شاهدوه من معاملته للناس ومن كمال خلقه، أنه من القوم المحسنين الذين هم أبعد ما يكون عن الشدة والصرامة الحديدية.

كان جواب يوسف حاسما: ابتدأه بأنه يتحصن بالله ويلتجئ إليه من أن يأخذ البريء بذنب المجرم، وأن يطلق السارق الذي وجد الصواع في حوزته، ويسترق من ثبتت براءته بعد التفتيش. إن ما يلتمسونه ظلم، وأنه ما كان من الظالمين.

81←82 : ارجعوا إلى أبيكم فقولوا...وإنا لصادقون.

يئسوا من التأثير على يوسف، وأيقنوا أنه لا فكاك لأخيهم من يده، وأنهم سيواجهون والدهم بالكارثة التي حصلت ؛ فانفردوا في مكان يدبرون الأمر ويقلبون الوجوه في المرحلة القادمة. سجل القرآن ما قاله كبيرهم: ذكّرهم بالميثاق الغليظ المؤكد برقابة الله عليه الذي أخذه أبوهم عليهم، كما ذكرهم بأنهم آذوه أشد الإذاية في يوسف. وأضاف، لذا فإني قررت أن أبقى في مصر ولا أعود معكم، فإني استحي من مقابلة والدي في هذا الوضع الذي حرم فيه من ابنيه الصغيرين على شدة حبه لهما وعطفه عليهما، أو أن يتحقق فيَّ قضاء الله وحكمه مما هو مخبوء في قدره سبحانه. وإني راض بما يحكم به الله علي، فإنه سبحانه عادل لا يظلم، ولا يستطيع أحد أن ينقض حكمه.

ارجعوا وحدكم، واعرضوا عليه ما وقع عرضا أمينا، قولوا له: يا أبانا إن ابنك سرق، وهذه الشهادة بسرقته مستندة إلى علمنا الذي شاهدناه مشاهدة لا ريب فيها. وما كنا مطلعين على الغيب، حافظين لما سيقع عند ذهابنا بأخينا للميرة.

ثم لقنهم أخوهم هذا أن يقولوا لأبيهم : لتحقق مما قلناه لك، فاسأل أهل القرية المصرية التي شاع فيها خبر ضياع السقاية ووجودها عند بنيامين، فإن الخبر تناقله العموم حتى أصبح معروفا عند الجميع. وأقرب من ذلك اسأل رفاقنا الذين جاءوا معنا من مصر وسمعوا وشهدوا ما أخبرناك به.

﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

سولت: زينت وسهلت.

صبر جميل: صبر لا شكوى معه إلى بشر، ولا ضجر من قضاء الله.

كظيم: يكتم حزنه في نفسه ولا ينفسه بالشكوى للناس.

تفتأ: تفتر .

حرضا: شدة المرض المقرب من الهلاك.

بثي: همي الشديد.

التحسس: شدة التطلب للتمكن من المعرفة.

روح : الرحمة وكشف الكرب.

بيان المعنى الإجمالي :

كان رد يعقوب على الرواية التي قدموها له حسبما أشار عليهم كبيرهم، أن قال: زيَّنَتْ لكم أنفسكم حرماني من ابني الذي أمنتكم عليه، فأمري هو الصبر الذي لا أشكو معه حزني لأحد ولا أيأس من رحمة الله. فإني أرجو أن يأتيني الله بأبنائي، إنه العليم بحالي وأحوالهم، المصرف للأمور بحكمته فيردهم علي في الوقت الذي قدره وقضاه.

ثم انصرف عنهم قائلا: يا أسفى على يوسف، وأقام على الحزن يعتصر قلبه حتى أثر في قواه فابيضت عيناه من ذلك، إنه يختزن في قلبه من الحزن أقساه.

استمر على ذلكم الوضع حتى خشي عليه أبناؤه، رجوه أن يرأف بنفسه، وقالوا له إنك تواصل تذكرك ليوسف حتى وصلت إلى هذه الحال، وسيصل بك الأمر إلى أن تبلغ من الهزال ما به تنهد قواك، فتنقلب مريضا لا تقوى على شيء وربما يصل بك الأمر إلى الموت.

أجابهم: إني أشكو همي المقيم وحزني على ما ذهب مني إلى ربي، وإني لغني عن نصحكم فإني أعلم من الله علما مستواكم بعيد عن إدراكه.

ثم إنه بعد مدة أشار إليهم إشارة مما استقر في يقينه من الإلهامات الإلهية، فطلب منهم بكل حنان أن يسافروا إلى مصر وأن يبذلوا جهدهم لتتبع كل المسالك التي تمكنهم من التعرف على وضع يوسف وأخيه وأن لا يكونوا يائسين من رحمة الله في كشف الكرب كما هو مقتضى الإيمان، فإن اليأس لا يلف بحجابه إلى على قلوب القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83←84: قال بل سولت لكم أنفسكم ....فهو كظيم.

رجعوا إلى أبيهم بعد أن استقر رأيهم في معالجة المشكلة عند أبيهم على الرأي الذي قدمه كبيرهم. وأعلموه بما تم في سفرتهم وأن ابنه بنيامين بقي عبدا عند عزيز مصر، وأن ابنه الأكبر عزم على البقاء في مصر غريبا لا يبرحها إلا أذنت له، أو حدث ظهور قضاء من الله يخصه.

لقد ذهبت ثقة يعقوب فيما يقدمه له أولاده من روايات بعد الصورة التي قدموها له عن أكل الذئب ليوسف، وقد بقي يجد في باطنه، بنوع من إحساس الملهمين، أن يوسف حي. ولهذا هو لم يصدقهم في هذه كما لم يصدقهم في المرة الماضية. فواجههم بعدم اطمئنانه لما يقولونه؛ وقال لهم: لقد زينت لكم أنفسكم تغييب بنيامين عني، فأنا أتدرع بالصبر الذي لا أشكو فيه مصيبتي لأحد، ولا أعترض على قضاء الله. ورجائي في الألطاف الإلهية أن تشملني فترد علي أبنائي الثلاثة: يوسف وبنيامين والابن الأكبر. وأكد رجاءه بأنه متعلق بالله الذي لا يخفى عليه حاله كما قال أحد الصالحين في ابتهالاته: علمه بحالي يغنيني عن سؤالي. وهو الحكيم الذي يرتب الأمور ترتيبا دقيقا.

ثم انصرف عنهم بعد هذه الكلمات التي تمثل يقين الأنبياء وأدبهم في مواجهة المشاكل التي تخصهم، وسعة رجائهم فيما عند الله. وقام الحزن في نفسه يعتصر

قلبه وأحاسيسه، ويجدد له ذكرى ولديه اللذين فقدهما، وخاصة يوسف الذي كان فقده أشد عليه لسببين: أحدهما أنه قُدِّمَ فَقْدُهُ على أنه مات وأكله الذئب، وإن كان يشك في هذه الرواية، وثانيهما أن يوسف ملأ عليه حياته لما جمع الله فيه من كمالات خِلْقِية وخُلُقِيّة، ولذا سجل القرآن ذكره لأساه وأسفه على فقد يوسف(يا أسفى على يوسف)، لتلك الاعتبارات لا على أنه غير حزين على فقده للآخرَيْن. كان فقدهم يتجدد في كل لحظة، وكان يختزن أساه في نفسه حتى أثر ذلك في أعصابه البصرية فابيضت عيناه. ويمكن حمل بياض عينيه على العمى: أي عمي، ويمكن أن يفهم على أنه ضعف بصره حتى تغير لونهما إلى ما يقارب البياض. ونوه الله بصبره وعدم شكواه فقال إن يعقوب كظيم لحزنه يتفاعل في باطنه وتتأثر به قواه الفكرية والعاطفية، ولا يظهره للناس.

85←87: قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف...إلا القوم الكافرون.

لزم يعقوب عزلته ومتابعة تفكيره في أبنائه المفقودين، ووهنت قواه وخشي عليه أولاده فقالوا له إشفاقا عليه: قسما بالله إنك لا تنقطع عن تجديد حادثة فقدك ليوسف حتى يفضي بك حزنك المقيم هذا، إما إلى المرض الشديد أو إلى الموت. أجابهم: بأني متعلق بالله، أشكو إليه وحده لا إلى غيره، أشكو إليه بثي أي همي الشديد، وتواصل تفكيري في أبنائي وحزني المقيم على ما فات عني منهم. وأشار إليهم إشارة لطيفة بأن قربي من الله يفتح علي سبحانه أحاسيس تقصر عقولكم عن إدراكها. ويبلغ ذلك أن يستقر في يقيني علم لا تعلمونه ولا يمكنكم الوصول إليه. مرَّ زمان غير قليل على يعقوب وهو على هذه الحال من الانصراف عن الناس، وما ابيضت عيناه من الحزن في أيام قليلة، وما بلغ ما بلغ بأبنائه من الإشفاق عليه إلا وقد طال انعزاله وطغيان الهم والحزن عليه.

ثم كاشفهم ببعض ما هو حاصل في نفسه: من أن يوسف لم يمت وأنه سيعود إليه، فقال لهم: يا بني، نداء فيه شفقة وحنان يحرضهم على تنفيذه، اذهبوا إلى مصر وابذلوا جهدكم في تتبع كل ما يمكن أن يوصلكم لمعرفة وضع يوسف وأخيه، تحسسوا، كأن المتتبع يعمل على أن يحس بكل خصائص ما يلمسه، فيهتدي مثلا إذا انغرست شوكة صغيرة إلى مكانها. وربط هذا التوجيه بأن يكونوا واثقين من النجاح، وهذا دواء نفسي، ذلك أن الآمل يواصل طريقه ويتابع بحثه، بخلاف اليائس من المنطلق أن يفتر عن المتابعة. فأرشدهم إلى أن يكونوا متفائلين غير يائسين، فإن من حرم الإيمان هو الذي تنسد الأبواب أمام ناظره، ولا يتوقع كشف كربه

فيحرم الأمل ويستولي عليه اليأس. إن المؤمن ينتظر الفرج من الله في أشد الظروف وأبلغها قسوة. وإنه وإن طال أمد غياب يوسف، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لذلك الأسباب فتتفرج.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

مسنا الضر : أصابنا الضر.

مزجاة : قليلة غير مرغوب فيها.

الإيثار : التفضيل بالعطاء .

الخاطئ : فاعل الخطيئة عمدا، والمخطئ من قصد الصواب فأخطأ.

التثريب : التوبيخ والتقريع.

بيان المعنى الإجمالي :

توجه الإخوة إلى مصر ليبحثوا عن أخبار يوسف وأخيه، وليجلبوا الطعام وقد قسا الوضع بالجدب المتواصل .فلما دخلوا عليه بادروا بمخاطبته خطابا يليق بمركزه: يا أيها العزيز، وبسطوا شكاتهم من الخصاصة ومن وضع أبيهم، وأنهم قد قدموا بسلعة، يعلمون أنها غير مرغوب فيها يدفعها جالبها دفعا، ثمنا للميرة التي يريدون الحصول عليها، كان ذلك تقدمة لطلبهم أن يوفي لهم الكيل كما لو كانت السلعة المقدمة منهم للشراء جيدة. ورجوه أن يتفضل عليهم ويتصدق فإن الله يجزي المتصدقين.

رق يوسف لحالهم فتوجه إليهم مذكرا وموبخا: أنتم تذكرون ما صنعتم بيوسف في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين.

أيقظهم كلامه فسألوه أنت حقا يوسف ؟

فأجابهم أنا يوسف وهذا أخي، إنه مـن يتـق الله ويصـبر علـى الشـدائد فإنـه محسـن. والله يمكن المحسنين من أجورهم

قالوا: نقسم بالله إن الله ميزك علينا، وإننـا كنـا خـاطئين. رحمهـم يوسـف وقـال لهـم بدون لوم ولا توبيخ: يغفر الله لكم اليوم لمًّا تبتم فإنه أرحم الراحمين.

ثم ناولهم قميصه وقال لهم خذوا قميصي هذا، وَضَـعُوهُ علـى وجـه أبـي يعـود صـفاء بصره، ويأتيني معافى، واحملوا أهلكم جميعا إلى مصر .

بيان المعنى العام :

88-فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز....يجزي المتصدقين.

قرر الإخوة أن يسافروا إلى مصر لغرضين:

أن ينفذوا ما طلبه منهم أبوهم من البحث الدقيق عن كـل مسـلك يمكـن أن يوصـل إلـى معرفة وضع يوسف عليه السلام.

وأن يأتوا بالميرة لأهلهم وقد توالت سـنوات الجـدب وتفـاقم الأمـر. ويبـدو أن الفتـرة بين بقاء بنيامين وكبير الإخوة بمصر، وبين سـفرتهم هـذه، قـد طالـت بعـض الشـيء كما يستفاد من وصف الحالة التي كان عليها يعقوب عليه السلام.

بمجرد ما وصلوا إلى مصر استأذنوا للدخول على يوسـف فـأذن لهـم، وبـادروه برفـع شكواهم من الوضع الذي هم عليه فنـادوه بقـولهم: يـا أيهـا العزيـز، وتلقيبـه بـالعزيز خرجه كثير من المفسرين على أن عزيز مصر الذي اشـترى يوسـف قـد مـات وتـولى يوسف مهامه، وذكروا روايات كثيرة متصـلة بـذلك، والـذي يتـرجح عنـدي أن كلمـة العزيز عرف في مخاطبة أصحاب المسؤوليات الكبـرى فـي الدولـة فـي ذلـك العهـد. كما يقال اليوم : معالي، وصاحب المعالي، ودولة الرئيس، ونحو ذلك.

عرضوا عليه الحالة التي وصلوا إليها بتوالي سني الجـدب، وقـالوا: قـد أصـابنا الضـر المسغبة وأمر أخيهم، وبلغت منا الخصاصة مبلغهـا، وجئنـا طـالبين الميـرة، وبضـاعتنا التي نقدمها مزجاة :قليلة وغيـر مرغـوب فيهـا، يعنـون أن قيمتهـا ضـعيفة. فأعطنـا الطعام وافيا غير ناقص، وزدنا من فضلك ما تتصدق بـه علينـا، وأوكلـوا جـزاءه عمـا يفعله معهم من جميل إلى الله الكريم الذي يجزي المتصدقين.

ملحظ هام :

التزم التعبير عن الثمن المقدم: بالبضاعة ولـم يـذكر أنـه نقـود، وقـال لفتيانـه اجعلـوا **بضاعتهم** في رحالهم آية62- ولما فتحـوا متـاعهم وجـدوا**بضـاعتهم** ردت إلـيهم آيـة

65- قالوا يا أبانا ما نبغي هذه **بضاعتنا** ردت إلينا آية 65- وجئنا **ببضاعة** مزجاة آية 88- فأينما ذكر الثمن عبر عنه ببضاعة. وفي هذه الدقة التعبيرية إعجاز قرآني. ذلك أن التعامل بالنقود حصل في القرن الثامن قبل الميلاد، وكان الناس يتعاملون قبل ذلك بتبادل السلع حسبما حققه الذين كتبوا في تاريخ النقود. ويوسف عليه السلام عاش في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد والقرن السابع عشر. وهذا، والله أعلم، سر الالتزام في التعبير عن الثمن المقدم بالبضاعة التي هي السلعة ولم يكن ما يقدم ثمنا نقدا وإنما كان سلعة(بضاعة)

نعم قد جاء في أول السورة أن الذين التقطوا يوسف من البئر أخفوه على أنه بضاعة، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، فوقع التعبير بالدراهم، لكن المتأمل يجد أن المقصود هو لفت النظر إلى قلة الثمن الذي قبضوه، وهذه أفضل طريقة لإبلاغ المعنى المقصود للتالين لكتاب الله في وقت التنزيل، فعبر عن قيمة المقبوض بالدراهم لا بالدنانير وأن هذه الدراهم قليلة لا كثيرة، فهو تصوير لتفاهة ما باعوه به وسرعة قيامهم بذلك حتى يقبضوا ثمنه قبل أن يفتضح أمرهم بقدوم من يعرفه فيأخذه من أيديهم .فالكلام على أنه باعوه بشيء قيمته ضعيفة، ولو عين ذلك الشيء لكان غير واضح الدلالة على تفاهة القيمة كما يدل عليه: بدراهم قليلة معدودة غير موزونة في وقت التنزيل. نظير ذلك أن تقول لشخص من غير المملكة العربية السعودية: البنزين رخيص في المملكة ثمن القالون يساوي بعض المليمات. فأنت لا تقصد أن العملة السعودية تتجزأ إلى المليمات، ولكن قصدك أن الثمن رخيص.

89←93: قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ..بأهلكم أجمعين.

كان رد يوسف على عرضهم وبيان وضعهم المثير للشفقة، أن تحول إلى العطف عليهم وتفريج كربهم.

ابتدأ إجابته بقوله: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه، وهل، تفيد معنى، قد، مضافا إليها الاستفهام الإنكاري. فيكون المعنى قد علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه مما أنكره عليكم .فقد حسدتم يوسف، وألقيتموه في الجب وحرمتموه من والده ومن أهله، ولم ترفقوا ببنيامين ولم ترحموا صغره، في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين، أي كنتم عاصين أو كنتم شبابا لم تبلغوا سن النضج وعمق التجربة.

أيقظهم كلام يوسف، ففتح أعينهم وتأملوا في ملامحه، فصاحوا: أئنك لأنت يوسف؟ كانت المفاجأة سريعة وقوية، بين وضع يوسف في نظرهم أول الأمر، وهو الذي

يرجون منه أن يعطف عليهم، وأن يرحمهم ويتصدق عليهم، وبين ما يفيده تذكيرهم بفعالهم مع الإنكار عليهم مما لا يعرفه إلا يوسف، كانت النقلة كبيرة جدا فقالوا كأنهم يبغون التثبت، هل أنت يوسف؟ وأسرع بالإجابة فقال: أنا يوسف، وهذا أخي. وتبدد الغموض. فوصل يوسف كلامه بقوله قد من الله علينا، أي توالت علينا الألطاف من فضله، ثم أبرز العبرة في محنته التي تشمل إخوته وتشمل البشرية كلها فقال: إن الذي يتقي ربه فيتغلب على دواعي الشهوة، ويخلص له في مناجاته ودعائه وعبادته، ويقرن إلى ذلك الصبر عند الابتلاء، إن الله لا يهمله، إنه بإحسانه في اختيار المواقف المعبرة عن عميق الإيمان وصادق التوكل ينضم إلى موكب المحسنين الذين تكفل الله بإيصالهم الثواب الذي كتبه لهم.

قال إخوة يوسف بعد أن ارتسمت صورتان شتان ما بينهما، صورتهم في خصاصتهم وشعورهم بالذنب والخطيئة، وصورة يوسف وهو المتحكم في أقوات مصر وما حولها مع السؤدد والعزة، قالوا: قسما بالله، لقد ميزك الله علينا فهداك إلى معالي الأمور وأنعم عليك فجازاك، فهنيئا لك ما أغدق عليك من تفضيله، نعترف بأننا كنا خاطئين في كل ما فعلناه معك ومع أخيك، وما سببناه لوالدنا من الأسى والحزن.

تحققت توبتهم وظهر ندمهم على ما صنعوا، ولا شك أن مظهر الانكسار أضاف على وضعهم الذي عبروا عنه في بداية اللقاء تراكمات تنادي من وراء قسمات وجوههم بالأسى الذي بلغ منهم مبلغه. وأخلاق النبوة تسمو عن الإمعان في الإذلال، فخاطبهم يوسف عليه السلام رافعا معنوياتهم بقوله: لا لوم عليكم ولا توبيخ ولا تقريع. اليوم وقد تطهرت نفوسكم داخليا بالتوبة والإنابة يغفر الله لكم، فالله متصف بالمغفرة وهو التواب مما يبشر التائبين بقبول توبتهم. والله أرحم الراحمين فبرحمته يتعلق البشر كلهم وتنالهم رحمته ولا ييأس مؤمن من أن تشمله.

ذكر ابن عطية والرازي وابن حجر في الإصابة: أن أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لقبح فعلهما معه قبل .فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي رضي الله عنه، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة، فقال علي رضي الله عنه: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: **(تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين)** فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلابد لذلك أن يقول: **(لا تثريب عليكما)** ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: **(لا تثريب عليكما)** الآية.

بعد أن طمأن إخوته بصفحه عنهم، وكشف لهم أن تعلقهم بفضل الله ومغفرته يذهب عنهم أوزارهم، حضر وقت العناية بذلكم الشيخ الحزين، فناول قميصه لإخوته وقال لهم: خذوا قميصي وألقوه على وجه أبي، وكشف لهم عن السر: أنه بمجرد ما تعم رائحة يوسف وجه أبيه تنشرح ملكاته ويذهب ما غشى بصره من ضعف. وأدمج في ذلك أنه يأتيه إلى مصر سليم البصر. وبرًّا بأهله ووصلا لرابطة القربى أمرهم أن يصحبوا أهلهم جميعا ليقاسموه النعم التي أنعم الله بها عليه.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الريح : الرائحة.

تفندوني: تنسبونني إلى ضعف العقل.

الضلال : الخطأ.

القديم: الذي طالت مدته معك.

البشير : المبشر بإبلاغ الخبر السار.

ارتد: رجع.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذت القافلة طريقها إلى منازلهم بفلسطين. وكان يعقوب جالسا صابرا مع بعض قرابته، وإذا به يخبرهم أنه يحس برائحة يوسف قريبة منه، وهذا أمر واقع إلا أن تنسبوني للخرف. فأقسموا أنه باق على تصوراته الخاطئة التي لازمته منذ زمن طويل.

و وصلت القافلة وتقدم البشير حاملا قميص يوسف وغطى به وجه يعقوب فرجع له بصره وقال لهم مذكرا: ألم أقل لكم إنه يحصل في يقيني من إلهامات ربي ما لا تعلمون.

ندم إخوة يوسف على ما صنعوه، وطلبوا من أبيهم النبي المقرب أن يتوجه إلى الله ليغفر لهم ذنوبهم، فأجابهم أنه سيواصل لهم الاستغفار، وأَمَّلَهُمْ في عفو الله الذي هو وحده الغفور للذنوب الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

94←98: ولما فصلت العير قال أبوهم ....إنه هو الغفور الرحيم.

أخذ إخوة يوسف القميص وارتحلوا به إلى منازلهم. ولما ابتعدت القافلة عن منطلقها، وجد يعقوب أن رائحة يوسف تهب عليه وتملأ شمه، فأخبر الحاضرين الذين كانوا حوله قائلا: إني أجد رائحة يوسف لولا أن تنسبوني إلى الفند وهو الخرف. فأقسموا له أنه ما يزال على الخطأ الذي لازمه منذ زمن طويل في اعتقاده أن يوسف لم يمت وأنه سيجتمع به.

وصلت القافلة، وتقدم المبشر بالخبر الذي كان ثوب يوسف معه، فغطى به وجه يعقوب. وإذا بالخلل الذي أصاب بصره يزول، فأصبحت عيناه تنقلان له ما حوله، كرامة من الله لنبيه الصابر المحتسب. وعندها ذكّر الحضور بما كان أخبرهم به من قبل، مما استقر في روحه وعقله بإلهام إلهي، بلغ به مبلغ اليقين: إني أعلم من الواردات عليَّ مباشرة من الله ما لا تعلمون.

كرامات توالت، وعجائب من صنع الله تتباعت. وجد إخوة يوسف أنهم أخطأوا خطأ كبيرا، واستبانت لهم الحقيقة، وندموا على ما فرط منهم، فطلبوا من أبيهم النبي الصالح أن يطلب لهم من الله أن يغفر لهم التجاوزات التي وقعوا فيها، وأن يمحو ذنوبهم .فأجابهم :أنه سيفعل ذلك. ولا حظ المتتبعون للتعبير القرآني أنه لم يستجب لهم بطلب مغفرة ذنوبهم في الحال، ولكنه سيفعل ذلك في المستقبل على ما تفيده السين الداخلة على أستغفل. وخرَّجوا المعنى على أن يلازم الاستغفار لهم حاضرا ومستقبلا، لعظم الفساد الذي ترتب على صنيعهم. وبسط لهم الأمل بأن الله هو الغفور الرحيم. ويترجح عندي: أنه لا يقدم على الاستغفار إلا بعد أن يحصل له الإذن من ربه في ذلك.

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ
أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

بيان معاني الألفاظ :

آوى : ضم مظهرا الحفاوة.

آمنين : جمع آمن وهي الحالة التي يكون فيها الإنسان مطمئنا لا يخشى مالا يلائمه.

العرش : السرير المرتفع الذي يجلس عليه

السجود : وضع الجبهة على الأرض قصد التعظيم.

خر: تصوب نحو الأرض.

أحسن بي : أحسن إلي.

البدو : ضد الحضر.

النزغ : إدخال الفساد في النفس.

فاطر : خالق.

الولي : القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي.

ألحقني : اجعلني مدركا من سبقني.

الصالحون : المتصفون بالصلاح ويعني الأنبياء.

بيان المعنى الإجمالي :

ارتحل يعقوب من الشام إلى مصر، ولما دخلوا على يوسف قرب إليه أبويه ورفعهما على العرش الذي يجلس عليه. وحياه الجمع بالتحية التي كانت سائدة في ذلك العصر بالسجود له. وقال لأبيه مذكرا: تحقّقَ تأويل الرؤيا التي كنت عرضتها عليك في صباي. وأردف لقد أحسن الله إلي وأكرمني برعايته، فقد أخرجني من ظلمات السجن، وأكرمني بجمع شملي بكم فأتى بكم من البدو، ويسر لكم الحياة الحضرية، وذهب ما أفسده الشيطان في تفكير إخوتي. إن ربي يبسر ألطافه لمن يشاء من عبيده، إنه هو العليم الذي لا يفوته ما يحدث في الكون، وهو الحكيم الذي يتصرف في الحوادث تصرفا متصفا بالحكمة البالغة.

ثم توجه مبتهلا إلى ربه فقال: رب أكرمتني فيسرت لي من الملك ما أقيم به أمر الناس على العدل الذي يرضيك، وعلمتني ما أستطيع به تأويل الأحلام، وأنفُذَ من الظواهر إلى ما وراءها من الحقائق التي تخفى على الناس، يا خالق السموات والأرض ثبتني على الإسلام إلى أن تتوفاني عليه، وألحقني بالصالحين.

بيان المعنى العام :

99←100: فلما دخلوا على يوسف ... إنه هو العليم الحكيم.

تجهز يعقوب للرحيل وسار إلى مصر حتى بلغها. ولـم يُعْـنَ القـرآن بتفاصـيل السـفرة، لأنه لا يتعلق بها غرض في القصة.

لما دخل يعقوب وأهله على يوسـف قـرَّب إليـه أبويـه مكرمـا لهمـا ورفعهمـا علـى السرير الذي كان يجلس عليـه. واختلـف الـرواة فـي زوجـة يعقـوب هـل كانـت أم يوسف، أو كانت خالته التي تزوجها يعقـوب بعـد وفـاة أمـه ؟ فعلـى الروايـة الأولـى يكون قوله تعالى: أبويه تغليبا لجانب الأبوة علـى الأمومـة فـي التثنيـة، وعلـى الثـاني يكون تغليبا لعلاقة الأبوة على علاقة الخالة.

وعندما ارتفعا إلى العرش حيّوْهُ مع بقية الأهـل التحيـة التـي كـان يحيـى بهـا الملـوك وكبار رجال الدولة، فسـجدوا لـه بوضـع جبـاههم علـى الأرض. والتحيـة بالسـجود حرمها الإسلام لما ارتفع بالكرامة الإنسانية إلى المستوى الـذي وحَّـد فيـه بـين البشـر في القيمة الإنسانية، فاختص الله سبحانه بالسجود دون غيره.

وقال لهم: ادخلوا أرض مصـر آمنـين إن شـاء الله. هـو ترحيـب بهـم فـي مـوطنهم الجديد الذي سيقيمون فيه، موفورٌ أمـنُهم مـن جميـع النـواحي، بمـا تطيـب لهـم بـه الإقامة، ولما كان دوام ذلك في المسـتقبل مرتبطـا بفضـل الله وعنايتـه، وتأدبـا مـع الله وتبركا أَلْحَقَ بقوله ذلك (إن شاء الله).

ثم ذكر أباه مستحضرا الظرف الذي قص فيه عليه رؤياه فـي صـباه، رابطـا بـين مـاتم مناما وما تحقق واقعا. نعم جعل ربي الرؤيا رؤيـا حقًّـا. كاشـف بهـا سـبحانه الـروح بالحوادث المغيبة، فأتت أقرب ما يكون إلـى الصـورة الواقعيـة بعـد أزمـان، وليسـت أضغاث أحلام. ثم ذكر أهم منن الله عليه التي أحسن بها إليه، وعدد منها:

1) إخراجه من السجن بما يصحبه مـن عـذاب نفسـي يحـرم السـجين مـن علاقاتـه الاجتماعية ويقهر إرادته؛ مع إظهار براءته ونصاعة عرضه.

2) اجتماع شمل الأهل، مع الانتقـال مـن حيـاة البـداوة القاسـية إلـى خفـض حيـاة الحضارة الناعمة.

3) رجوع اللحمة بينه وبين إخوته بعد إساءتهم إليه. وخفف مسؤوليتهم بنسبة الإفسـاد إلـى الشيطان. وتكرم فلم يفصل ما كادوا به إليه، وذلك من سمو أخلاق النبوة، ونظيره مـا جـاء في قوله تعالى: (فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض)[1] ليكون ذلك نبراسا يسير عليه المهتدون بأخلاق النبوة السامية.

---

[1] سورة التحريم آية 3

وختم كلامه بأن الله يقدر ما يلائم لمن يشاء ويبعد عنه ما يسبب له الحرج، وقد فعل بي كل ذلك فضلا منه ونعمة. إنه العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فكلما وقعتُ في ضيق وكرب أسعفني، وأزال كربتي، وحول ضيقي إلى فرج .وهو ربي الحكيم الذي يجري الأمور حسب حكمته العالية.

101- رب قد آتيتني من الملك ... توفني مسلما وألحقني بالصالحين.

ألحَق تعداد نعم الله عليه وعلى أهله بالابتهال إلى عزته بهذه المناجاة الرفيعة الصادرة من توقد الشعور المتصل بالله فقال: يا رب قد تفضلت وأنعمت فيسرت لي ما يسرته لي من الملك، ومن أمر التصرف في شؤون الناس وإقامتهم على العدل. وأنعمت علي بالعلم الذي استطعتُ به تجاوز القريب إلى ما وراءه في الأحلام وفي النظر للأحداث. سبحانك ربي أنت الخالق للسماوات والأرض وأنت القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي. أسألك ربي أن تكمل علي نعمك بأن تثبتني على الإسلام وتتوفاني عليه، وأن تلحقني بالصالحين من أنبيائك المكرمين، أي في جنات النعيم.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنباء الغيب : أخبار ما غاب عن الناس.

الحرص : شدة الطلب.

بيان المعنى الإجمالي :

تمت القصة العجيبة عن يوسف بتفاصيلها وعبَرها، وهي من الأخبار المغيبة التي لم يعلمها رسول الله إلا بفضل الوحي الذي جاءه من ربه. ولفت النظر إلى الجزئيات التي وردت في القصة وهي من حديث النفس أو من التآمر الخفي والمكر التي لا يمكن أن يطلع عليها إلا الله. ورغم ما في هذه القصة من الدلائل على صدقك فإن أكثر الناس وإن حرصت على إيمانهم وبذلت غاية جهدك لا يؤمنون. مع أن ما تبذله من جهود، وتواصله من سعي لهدايتهم لا تطلب منهم أجرا على ذلك. إذ قد انحصرت الغاية من القرآن أن يكون ذكرا يوقظ العالمين جميعا إلى طريق الرشد والخير.

بيان المعنى العام :

102←104: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ...إلا ذكر للعالمين.

بعد أن أتم القرآن القصة بما تضمنته من أحوال عجيبة وما ورد في تفاصيلها من حقائق غطاها الزمن البعيد. وبما نفذت فيه إلى أغوار النفوس وإعلانها ما دبَّرته، وتصارع الشر والخير. والعاقبة للخير الذي ينتصر في النهاية فينهزم الشر. كل ذلك يجمعه القرآن ويشير إليه باعتبار أنه حاضر في قلب كل من تتبع مراحل القصة. كل ذلك هو من أخبار الغيب الذي ما كنت تعلمه أنت ولا قومك، علمته عن طريق الوحي الذي نفتح لك به الآفاق الفسيحة. وتجسيما لهذا المعنى يخاطب الله نبيه فيقول له: إنك ما كنت حاضرا قريبا منهم إذ عزموا في خفاء، ودبروا وقرروا ما رجحوا، ونفذوا ما أرادوا، سواء في ذلك إخوة يوسف في جميع مراحل مراودة أبيهم إلى إلقائه في الجب، والسيارة الذين أخفوه حتى باعوه، وشأن امرأة العزيز والنسوة، وسبق إخوة يوسف بإعلانهم عن حكم السارق إلى آخر تلك الجولات في أعماق النفس البشرية. إن في الإخبار عن هذه المغيبات التي طواها الزمن البعيد بكامل الدقة ما يقوم دليلا على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله.

إن ذلك من شأنه أن يؤثر في العقول تأثيرا يجعلها مُقَدِّرة لصدق هذا الوحي، وأنه من عند الله، إذ أنه ما يمكن لمحمد أن يخبر بهذه الأخبار بتلكم الدقة، مع أنه ما كان العرب يعلمون شيئا منها. ولكن أكثر الناس لا يؤمنون رغم حرصك على إيمانهم ،وتقديم الأدلة المتتابعة والمحاولات المتتالية وصبرك عليهم. كما يمكن أن تدل الآية على أن أكثر الناس، رغم حرصك على تبليغ ما جاءك من وحي ربك، يرفضون التأمل في الحقائق التي عرضتها عليهم، فهم لذلك غير مؤمنين .

إنهم لا عذر لهم في تصميمهم على الكفر، فأنت تقدم لهم القرآن حبا في إنقاذهم، وليس إيمانهم به أجرا على صنيعك. إن القرآن هو ذكر للعالمين فقط وما كان ليكون أجره إيمانهم.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الآية : العلامة الدالة على توحيد الله.

يمرون عليها : يرونها.
غاشية : من الغشي بمعنى الإحاطة من كل جانب.
بغتة : فجأة.
البصيرة : الحجة الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الأدلة المثبتة لوحدانية الله منبثة في الأكوان بدون حساب، تجدها في السماوات وفي الأرض. ولكن كثيرا من الناس رغم أنهم يشاهدونها لا يتأثرون بدلالاتها كأنهم معرضون عنها. ثم إن أكثر الناس يدعون أنهم موحدون وهم في الحقيقة مشركون، فالعرب يقولون إن الله خالق الأكوان، ويؤمنون بآلهة تكون وسيطة بينهم وبينه، والنصارى تقوم عقيدتهم على التثليث، وكثير من فرق اليهود هم على شرك. إن أمرهم لعجيب، كأنهم آمنون من أن يسلط الله عليهم عذابا يحيط بهم لا يجدون منه مفرا. أو تقوم عليهم الساعة بغتة فجأة دون أن يشعروا بقدومها فلا يكون لهم وقت يتوبون فيه.

وجماع القول، قل لهم: إن مهمتي هي الدعوة إلى الله معتمدا على الحجج البينة، ومنزها له عن كل نقص، وليس بيني وبين المشركين أي صلة، والدعوة إلى الدين هي مهمتي التي اسعى لترسيخها في قلوب المؤمنين بي.

بيان المعنى العام :

105←107: وكأين من آية ....وهم لا يشعرون.

الكون كله شواهد ناطقة بأن خالقها واحد أحد؛ فسواء أنظرت في السماء وما عمرت به من كواكب منتظمة في سيرها وفي مكوناتها، وفي الترتيب العجيب في علاقاتها، أم نظرت في الأرض وما عليها من أجناس وأنواع مختلفة، من البشر والحيوان والنبات والجماد، وفيما اختص به كل فرد من خصائص تميزه عن غيره وتجمعه إلى نوعه وجنسه في آن واحد، إنها آيات وعلامات تنادي بأن الذي سير كل هذه المخلوقات بقوانين ثابتة على ميزان واحد في الأجرام السماوية العظمى، وفي الذرة الضئيلة. إن ذلك ينادي الإنسان العاقل ليشهد بأن خالقها ومسيرها هو الله الكامل الكمال المطلق. ولكن كثيرا من الناس يشاهدون هذا التنظيم المحكم دون أن يتأملوا فيه، هم معرضون عنه لا يلتفتون إليه. وحتى الذين يدعون أنهم مؤمنون بالله فإيمانهم غير سليم من لوثة الشرك، سواء في ذلك العرب الذين يقولون إن الله هو الخالق، ثم يضيفون إليه آلهتهم مدعين أن لها حظا من الألوهية. أو النصارى بإيمانهم بالتثليث .

إن من عجيب الأمر أن هذه الأدلة التي من شأنها أن تحرك العقول فتذكر الإنسان بضعفه الشديد أمام قوة الخالق، ليحذر بطش الله، يشاهدها كثير من الناس، دون أن تحرك فيهم المهابة والخوف من الله، كأنهم آمنون من أن يسلط عليهم عذابا قويا يحيط بهم من كل جانب لا يجدون منه ملجأ ولا مفرا، أو تقوم عليهم ساعة القيامة وهم غافلون فلا يجدون وقتا للتوبة والإنابة.

108- قل هذه سبيلي...وما أنا من المشركين.

قل لهم يا محمد: هذا الذي بلغتكم وشرحته لكم وأقمت عليه الحجج، هو سبيلي الذي ينتهي بي إلى رضوان ربي ووفائي بما حُمِّلْتُهُ. ثم وضح سبيله: أنه يدعو إلى الله متمكنا من الحجج التي تنفي عن هذا الدين كل شائبة شك أو دخيلة شرك، مع التنزيه الكامل لله معلنا أنه لا صلة بينه وبين المشركين. فمُهِمَّتُه الأولى ﷺ هي الدعوة إلى الله، وكذلك هي مهمة المؤمنين به، وقد فرض على الصحابة فرض عينٍ دعوة الناس للإسلام، ثم أصبح بعد ذلك خاصا بالفرقة التي تفقهت في الدين قال تعالى: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون [1].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

استيأس الرسل : يئسوا يأسا قويا.

بأسنا : عذابنا .

القوم المجرمون : المكذبون للرسل.

أولو الألباب : أصحاب العقول المستقيمة.

---

[1] سورة التوبة آية 122

الذي بين يديه : الكتب الإلهية السابقة .

التفصيل: التبيين.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه سنة الله في الهداية. كل الذين أرسلهم الله على مر التاريخ، هم رجال من أهل المجامع السكنية عاشوا مع أقوامهم قبل أن يوحى إليهم ثم أوحي إليهم. وأن المرسَل إليهم صمموا على الكفر فبقيت آثارهم دالة على ما انتهوا إليه. ألم يسافروا في أنحاء الأرض ليشاهدوا تلك الآثار ناطقة بمآلهم. وهو ما يؤكد أن ثواب الآخرة خير من الدنيا، مالكم لا تنظرون نظر من له عقل فيحمي نفسه من المآل الخاسر ؟

لقد واصل أقوامهم تكذيبهم رغم حرصهم على هدايتهم حتى بلغ الأمر بالرسل أن يئسوا من اهتدائهم. وحتى ظنوا أن الكافرين كذبوهم تكذيبا لا رجعة فيه، عندما يبلغ الأمر هذا الحد يأتي نصر الله لرسله، فينجي الله الصالحين المؤمنين، ولا يرد نقمة الله على القوم الكافرين أي راد.

إن في قصص القرآن في سورة يوسف وغيرها ما يثير الذهن الذكي ليتخذ من وقائع القصص عبرا يتجاوز بها الواقع إلى تبين الحلول لما يأتي به المستقبل. إنها قصص مستخلصة من الواقع لا من اختراع الخيال. ويمثل القرآن خيطا واصلا بالكتب السابقة فيصدقها. وتفصل القصص من أمور العقيدة والسلوك وصنع الله في الحوادث ما يهتدي به التالي، فكان بذلك رحمة للمؤمنين يهديهم إلى الصراط المستقيم

بيان المعنى العام :

109- وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا...أفلا تعقلون.

تضمنت الآيات السابقة إصرار المشركين على تكذيب الرسول ﷺ رغم توفر الآيات المصدقة والحرص الشديد على إظهار مقومات الإسلام. والتعِلَّة التي يبررون بها رفضهم أنك رجل مثلهم. ففند القرآن هذا التشغيب بالرجوع إلى سنة الله في بعث الرسل الذين حمّلوا وحيه للبشرية. فما أرسلنا من أول أمر الإرسال إلا رجالا مثلك اخترناهم فأوحينا إليهم، فكذبهم أقوامهم ورفضوا الاهتداء بما جاءوا به، فسلط عليهم عقابه، وما تزال آثار تدميرهم باقية .كان أولئك الرسل معروفين في المجتمعات التي بعثوا فيها. ثم توجه السؤال للمكذبين، مالهم يقابلونك بالتكذيب ويتعللون بما قدمناه؟ ألم يسيروا في الأرض فتقوم لهم شواهد من آثار الذين مضوا في الحياة قبلهم. مما يشير إلى أن عاقبة المكذبين برسالتك سيكون نظير ما آل إليه أمر المكذبين للرسل من قبلك.

ثم بشرت الآية الرسول ﷺ ومن آمن به، بأن ما أعد من الكرامة يوم القيامة لمن لزم التقوى مستحضرا في مختلف ظروف حياته صلته بربه مقبلا على الطاعة ومبتعدا عن المعاصي، وذلك خير من الدنيا وما فيها. إن هذه الحقيقة ينساق إليها العقل بطبيعته. فمالكم منحرفون عن التقوى، أليس لكم عقل تتظرون به فيهديكم!.

110- حتى إذا استيأس الرسل وظنوا....بأسنا عن القوم المجرمين.

وصفت هذه الآية المآل الذي انتهى إليه أمر الإصرار على العناد، بلغ الأمر أن الرسل رغم حرصهم وطول نفسهم في الدعوة، أن يئسوا من إيمان قومهم، إذ ما من باب من أبواب التأثير إلا سلكوه بصبر كبير وذكاء في التأتي، وهذا الاستمرار جعل أتباع الرسل يظنون أن رسلهم قد كذبهم المعاندون تكذيبا لا رجعة فيه. في هذا الظرف الحرج يسعف الله رسله بنصره، وينجي من يشاء إنجاءه من الذين ثبتوا على الإيمان ويسلط عقابه على المعاندين على القوم الكافرين.

111-لقد كان في قصصهم عبرة ....ورحمة لقوم يؤمنون.

أكملت هذه الآية السورة، فكأن هذه الخاتمة تنظر إلى الوحدة التي عرضتها منوهة بما جاء فيها من عميق الدلالات، ومن حسن السبك، ومن الصدق في التعبير عن الواقع، وبما أيقظته في عقول التالين ومشاعرهم من الألطاف الإلهية، ومن تغلب الخير على الشر، مع بناء كل ذلك على الواقع لا على الخيال المجنح. فقد كانت قصة يوسف مع نظائرها في القرآن مشحونة بالعبر، الذي إذا تأملها المتأمل صاحب العقل المستقيم، فتحت له أبوابا، يتجاوز بها الوقائع السابقة إلى نظيرتها التي يمكن أن تحدث في الوجود؛ فيجد صنع الله في تسيير الكون محرِّضا له ومطمئنا على أن سلوك مسلك الاستقامة والرشد حسبما جاء في تلك القصص هو الذي ينتهي به إلى النجاح والصلاح.

إنه ما كان كلاما غير ملتزم بالصدق أومن نسج الخيال، ولكنه متصل بمنابع الحق فيما تقدمه من كتب الله مؤكد لمضامينها، ويبين أمورا كثيرة من أحوال النفس، وعاقبة المتقين والفاسقين، ويثبت أن المتصرف في الأكوان هو الله تعالى، وأن التقوى هي الحصن الحافظ للإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وبذلك تنفتح من هذه القصص المسالك التي تشمل بها الرحمة الإلهية المتدبرين لها الآخذين بدلالاتها، وهم الذين صفت عقيدتهم وطردوا كل شائبة شك أو شرك، وأنار الإيمان بصائرهم وهداهم إلى الصراط المستقيم.

16 رمضان 1432-2011/8/16

سـورة الرعـد

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف. بهذا الاسم (سورة الرعد) أثبتت في المصاحف وفي الروايات. واختلف في تاريخ نزولها فقيل نزلت كلها بمكة، واستثنى بعضهم آيات منها، وقيل نزلت بالمدينة. والقائلون بأنها مكية ذكروا أنها نزلت بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين ذكروا أنها مدنية جعلوا رتبتها في التنزيل السابعة والتسعين بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓرٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

عمد : اسم جمع عمود، وهو ما يقام عليه سقف القبة أو البيت.

الجري : السير السريع.

المسمى : المحدد.

يدبر الأمر : يبرم وينفذ.

مد الأرض : وسع فيها.

الرواسي : جمع راس، الثابت المستقر.

قطع : جمع قطعة وهي الجزء.
صنوان : جمع صنو وهي النخلة التي تنبت مع أختها من أصل واحد.
الأكل : المأكول.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة بحروف يتلى كل واحد منها منفردا - ألف - لام - ميم - ر - ويتعلق بها ما أثبتناه في سورة البقرة. أعقبت بالإشارة إلى آيات القرآن الموصوفة بأنها منزلة من عند الله، وأنها انفردت بالحق الذي لم يختلط بباطل، ولم يلحقه شك ولا تحريف. ولكن أكثر الناس رغم هذه الشواهد على صدقه حرموا من الإيمان.

تفرد الله بأنه هو الذي رفع السماوات دون أن تكون معتمدة على أعمدة، وفوق ذلك استوى على العرش بغير ممارسة ولا تحديد، وطوّع الشمس والقمر فلا تخرجان عما قدر لهما، وتسرعان إلى مآلها الحتمي الذي هو نهايتهما وزوالهما. وكل ما يجري عليهما من التركيب والتحول والسير خاضع للتقدير المحكم. يبرز الله لكم تلكم الأدلة رجاء أن يحصل في قلوبكم اليقين بقدرة الله وتصرفه الحكيم في الأكوان، وأنكم ستعودون إليه يوم القيامة.

بسط الله الأرض وجعل فيها جبالا ثابتة وأجرى فيها الأنهار، وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، وقدر لتلقيحها في مراحل بروزها الأولى ما يتم به خلقها، وجعل من أنواع الحيوان ذكورا وإناثا، بذلك يتم التكاثر. وكل هذه الكائنات التي جعلها يلفها الليل والنهار فتصل إلى غاية مداها، وينعم بها البشر في جملة المرافق التي يسَّرَها الله لهم. إن التأمل في هذا الخلق وفي التنظيم المحكم لمساره في الحياة، يعطي دليلا للقوم الذين لا يمرون على مشاهد الحياة غافلين بل يتفكرون في أسرارها تفكيرا يلقي في قلوبهم اليقين: أن الله هو المتصرف في هذا الكون.

تأملوا في الأرض فهي في ظاهرها قطع متشابهة ومتجاورة، ومع ذلك فإن العناصر التي تتركب منها كل قطعة تتميز بخصائص، لها أثرُها في النماء وفي الإنتاج. على هذه القطع المتجاورة تنتشر جنات من أعناب مختلفة الأشكال والألوان، وتنبت في أرضها زروع متنوعة، وتعلو النخيل فيها. ومن عجيب خلق الله أن بعضها تكون النخلة وحيدة وبعضها تنبت في جذعها نخلة أو نخلات (صنوان) تسقى تلكم الأشجار بماء واحد من السماء أو من الآبار أو من الأنهار، ومع ذلك تجد اختلافا بينها في الطعم والمذاق. يكون بعضها أفضل من بعض. إن الذين يعملون عقولهم ولا يمرون على مشاهد الكون مرور الغافلين، يجدون فيها أدلة وبراهين على تفرد الله بالتقدير والخلق والتسيير.

بيان المعنى العام :

1-ألر تلك آيات الكتاب ...ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

افتتحت هذه السورة بحروف تقرأ منفصلة – ألف – لام – ميم – ر- على النحو الذي افتتحت به سورة البقرة وغيرها من السور التي استهلت بحروف لا توصل عند القراءة. وقد بينا ما يتعلق بها في سورة البقرة.

ثم تشير الآية إلى ما سبق نزوله من آيات القرآن الكريم إشارة تدل على سمو آياته، باعتبار أنها تقوم معجزة للنبي ﷺ دالة على صدقه، وبأنها تتضمن من المعاني العالية ما ينادي بما لها من فضل لا يدانى في الهداية، فالكتاب هو القرآن. وثنى بإبراز مزيتين لذلك الكتاب:

أولا: أنه منزل من عند الله جرى على لسانك بعد تلقيك له عن طريق الوحي.

ثانيا: أنه الكتاب الوحيد الذي طبع على الحق، فغيره من الكتب إما أن يكون من إنشاء البشر، وإما من الكتب المنزلة إلا أن المنزل عليهم وأخلافهم لم يستطيعوا حفظها من الباطل الذي أدمجوه في ثناياها استجابة لشهواتهم، أو لتقصيرهم .

إنه بالرغم عن مزاياه فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون به. ومن هنا ترتبط السورة بأواخر سورة يوسف (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)[1] مما يرجح أيضا أن تكون مرتبتها في التنزيل. الرابعة والخمسين.

2←3: الله الذي رفع السماوات بغير عمد...لقوم يتفكرون.

تصرح الآية بأعظم ما تدل عليه آيات الكتاب من الحق، وهو تفرد الله بالتأثير في الكون كله، ويلفت الأبصار والبصائر إلى ما يشاهده الإنسان في أي موقع له من الكون. يشاهد أن الله وحده هو الذي رفع السماء بما تحويه من كواكب ومجرات ومخلوقات بترتيب قدره فأحكم تقديره. لها منازلها في تلكم القبة العظيمة المترامية الأطراف إلى أبعاد لا يعلمها إلا الله . قدرها بعض العلماء فيما وصلوا إلى معرفته بالسنوات الضوئية؛ ومع ذلك فلا ترى أعمدة تحميها من السقوط. وأزالوا بعض الغموض بواسطة دراسة الجاذبية المضبوطة ضبطا، لو قوي أو ضعف عما هو عليه ما كان لهذا الكون أن يبقى ولو لحظة.

وفوق ذلك فإنه سبحانه قد استوى على العرش وقد أشرنا إلى ما يتعلق بذلك المفهوم في الآية (54) من سورة الأعراف.

---

[1] سورة يوسف الآية (103)

وفَصَّلَ القرآن مما اشتملت عليه السماوات، فَصَّلَ الشمس والقمر، نظرا لقوة ارتباط الإنسان بهذين الكوكبين في حياته. فنص على أنهما مسخران لتقديره يسير كل واحد منهما سيرا سريعا جدا، وسيبلغان مع بقية الكواكب غاية المدى المحدد لها في الوقت الذي قدره وأحكمه في سابق علمه. وعند ذلك تقوم القيامة وينتهي عمر الكون.

إن هذا الكون بجميع ما يحويه مع تحولاته المتلاحقة في تسلسل الوجود، ما يعود منها إلى الوضع المادي، أو إلى العقل والنفس، هو بتدبير الله في كل لحظة من اللحظات. فمع كل نَفَس وخلجة وتطور في كل كائن يتنزل التدبير الإلهي ينفذ ما جرى به القدر، ثم يقيم ذلك شاهدا ودليلا يهدي الإنسان إذا ما تأمل واستبصر إلى أن هذا التغير المتلاحق وعدم الاستقرار، حتى فيما يظن حسب الظواهر الخادعة أنه مستقر، ينادي بأن الفناء لازم من لوازم الحياة الدنيا، وبأن الخلق على هذا النحو من الحكمة، من الواجب الحتمي أن ينتهي إلى الخالق للجزاء. إذ بدون ذلك يكون الخلق عبثا. واليقين بالتنظيم المحكم والربط بين أجزاء الكون في كل لحظة يناقض العبث. فلذلك كان التأمل دليلا على البعث الذي يلقى فيه كل إنسان جزاءه من ربه عما قدمه من خير أو شر.

بعد أن لفت القرآن إلى الكون كله في انتظامه وفي خلقه، ثنى بدعوة الإنسان للتأمل في حكمة الله في خلقه للأرض. فقد بسط الأرض ووسع فيها فَيَسَّرَ عمارتها واستثمار ما تحويه من خيرات. وثبَّت في الأرض جبالا راسيات مستقرة ترتفع أعلى قمة فيها إلى 8848 مترا. وأجرى خلال الأرض الأنهار التي تحمل الماء والطمي. وجعل فيها من كل الثمرات، ما هو موجود وقت نزول الوحي وما يحدث في المستقبل، وما ينقطع بعد وجوده. وقوله تعالى: "جعل فيها زوجين اثنين" يحتمل عوده إلى الثمرات، على أن الثمرات نتيجة لقاح يحدث بين نوع الأنثى فيها ونوع الذكر، ويتم هذا التلقيح تارة بتوسط الإنسان أو بالريح أو ببعض الحشرات كالنحل، وفي كل ذلك حكمة ومنة. ويحتمل أنه تذكير بمنة خلق الحيوانات التي لا يتم التكاثر فيها إلا بوجود النوعين الذكر والأنثى. ثم إن جميع هذه الكائنات الأرضية يلفها في دورات متعاقبة وبانتظام لا يختل الليل والنهار، وفي تعاقبهما مع ما لفتت إليه الآية من مظاهر كونية عجيبة، ما يقوم من كل مظهر من تلكم المظاهر آيات وبراهين يؤلف منها أصحاب الفكر النير المستقيم أدلة على القدرة البالغة والحكمة العالية لخالق الكائنات. وأن الله هو المتفرد سبحانه بتصريف ذلك تصريفا بعيدا عن الفوضى.

4- وفي الأرض قطع متجاورات وجنات ...لقوم يعقلون.

وظاهرة أخرى في الأرض تقيم الدليل على أن كل أحوال الأرض مستندة إلى الاختيار والإرادة الحكيمة، فالأرض أجزاء متجاورة، والتركيب الذي عليه كل جزء يختلف عنه الجزء المجاور له، وتؤثر تلكم العناصر في سرعة نمو النبات وفي جودة ومذاق ما تنتجه. وعلى وجه الأرض تقوم جنات من نخيل وأعناب وتتخللها زروع تسقى بماء واحد نازل من المطر أو من الآبار أو الأنهار، ومع ذلك فلكل شجرة مذاقها ونكهتها، وتتفاضل فيما بينها باعتبارها مأكولا للإنسان، وتَنْبُتُ النخيل من أصل واحد وبعضها يستمر على ذلك، وبعضها قد يلتصق بالنخلة الأولى نخلة ثانية فهما صنوان بدون تنوين، وبعضها يلتصق بها أكثر من واحدة فهي صنوان منونة. إن الإنسان العاقل يفضي به هذا الاختلاف المدرك مع وحدة الأرض والماء والطقس إلى الجزم بان هذا الاختلاف لا يقبل أن يكون وليد الصدفة. ويعتقد أن إرادة الخالق هي التي ميزت بينها وأوجدت ما أوجدت بجميع الخصائص. وأن علمه وإرادته وقدرته لا تقتصر على الكليات بل هي تتناول كل الكائنات الجزئية أيضا.

۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

المثلات : العقوبات المنكلات.

الأغلال : جمع غُل، طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير.

السيئة : الحالة السيئة، المصيبة.

المثلات : جمع مثلة وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا في الشدة.

بيان المعنى الإجمالي :

من أعجب العجب، أحوال المشركين المنكرين للبعث، الذين يقولون تبريرا لاستبعادهم لبعث الأجساد بعد موتها: كيف تعود إلى الحياة من جديد بعد أن تحللت عناصرها واندمجت في التراب ؟ منشأ ضلالهم هو كفرهم بربهم الذي أوجدهم من

عدم، ووالى عليهم ألطافه حتى بلغوا كمالهم. ولكن الكفر كان قيدا في أعناقهم يلويها عن التأمل، ويسوقهم في النهاية إلى الخلود في عذاب النار.

ومن فساد تفكيرهم أنهم يطلبون منك أن يعجل الله بتسليط العذاب الذي أوعدتهم به قبل أن يطلبوا التعجيل بالخيرات التي عند الله، وذلك لأنهم يستبعدون أن يسلط الله عليهم عذابه، مع أن الأقوام الذين انتقم الله منهم لكفرهم حاضرة أخبارهم في أذهانهم ومشاهدة آثارهم. ولكن الله لا يعجل العقوبة بل يمهل الناس مع كونهم ظالمين علهم يعودون إلى التمسك بالحق. إن هذا الإمهال لطف منه فإذا أصروا على الضلال فإن الله يعاقبهم أشد العقاب.

وسجل القرآن على الكافرين تشغيبهم باقتراحهم على الرسول أن يأتيهم بمعجزات من وحي خيالهم. فأوقفهم القرآن ببيان حقيقتهم. أنهم قوم ضالون جاءهم الرسول لينذرهم ما هم صائرون إليه، وأن دور الرسول كشأن الرسل السابقين أنه يساعد البشر على الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

بيان المعنى العام :

5-وإن تعجب فعجب قولهم...أصحاب النار هم فيها خالدون.

عنيت الآيات الأولى من هذه السورة بقضية التوحيد وقضية القدرة النافذة في الكون. وثنى القرآن بالتوجيه إلى قضية كبرى في إصلاح البشرية هي قضية البعث يوم القيامة. توجه القرآن مؤكدا على قضية البعث والجزاء في مناسبات عديدة باعتبار أنها ركن من أركان العقيدة. وتمثل هذه العقيدة بالنسبة للمشركين والكفرة وأهل الضلال والفساد القضية التي يعملون على إنكارها، لأن التفكير فيها يفسد عليهم متعهم وإسرافهم وظلمهم. ولأنها إحدى القوى التي تبعث في المستضعفين الأمل وتحرضهم على الصمود.

شأن الإنسان أن يعجب من كل خارج عن المعتاد خروجا لافتا للنظر، ومن أحق ما يكون مدعاة للتعجب ما يصرح به الكفرة: إننا ننكر مستبعدين أننا سنعود خلقا جديدا كما كنا، بعد الموت وما يعقبه من تدخل عوامل الفناء تُفَتِّتُ أجزاءنا وتخلطها بالتراب. وعقَّب ذلك بثلاث نواح :

أولا: أولئك الكفرة النافون للبعث أوقعهم في ضلالهم، كفرهم بربهم الذي تولاهم بعنايته وألطافه في تحولاتهم الكبرى من نطفة من ماء مهين في أرحام الأمهات إلى اشتداد عضلاتهم وقدراتهم الذهنية وما يسر لهم من الأرزاق، وما يعتورهم بين الحين والآخر من اهتزازات وضعف تنبئ من استبصر أن مظاهر السلامة بعد العطب مؤذنة بأن القادر على ذلك قادر على البعث.

ثانيا: أن كفرهم ضيق عليهم مساحات تأملهم فهم لا ينظرون إلى ما وراء الحاضر أمامهم. كما تشير الآية إلى أنهم سيحشرون يوم القيامة، التي أنكروا تحققها، أذلاء شأنهم شأن الأسرى الذين طوقت أعناقهم بالأغلال فهم يسيرون إلى حيث قدر لهم من العذاب والمهانة.

ثالثا: التصريح بأن ما قدر لهم: أن صلتهم بالنار تكون ملازمة لهم كأنهم والنار في علاقة صحبة لا تنقطع وأي صحبة أعاذنا الله. فأكد هذا المعنى بقوله تعالى هم فيها خالدون.

6-ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة...لشديد العقاب.

بلغ بهم العناد إلى نوع من التحدي السخيف، فلما أخبرهم النبي ﷺ بالوعيد الذي سيسحقهم إن هم واصلوا كفرهم، طلبوا منه أن يعجّل هذا الوعيد استخفافا به، وإنكارا لإمكان حصوله. فمن فساد تفكيرهم أنهم طلبوا أن يعجل الله تسليط العذاب عليهم وما يسوؤهم قبل أن يطلبوا أن ينعم عليهم بالخيرات، والحال أن انتقام الله من المعاندين قد سبقت شواهده، وآثار ذلك معروفة عندهم. وهذه سنة في الطغاة من الكافرين ومن المستبدين المتسلطين على شعوبهم. فهم يواصلون الظلم والكفران بنعمة الله، وهم مطمئنون إلى أنه لما لم يسلط عليهم العذاب عاجلا، فمعنى ذلك أنهم آمنون.

إن تأخير إنجاز الوعيد مبناه أن الله سبحانه هو أعلى من أن يكون منتظرا ما يخرج به الجاهلون عن طاعته ليوقع عليهم عذابه في الحال. ولكنه غفور يمهل العصاة إمهالا يفسح لهم المجال ليتحولوا من الشر إلى الخير، ومن الكفر إلى الإيمان. فهم مع ظلمهم الذي لا يخفى عن الرقابة الإلهية يؤجلهم إما إلى الأجل الذي حدده في سابق علمه في الدنيا، وإما إلى يوم القيامة. وليعلموا أن عدل الله سيوقع بهم جزاء فسادهم في العقيدة والعمل جزاء لا تصحبه رحمته، فيكون أشد ما يتصور.

7-ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه....ولكل قوم هاد.

تسجيل آخر لمقالات الكافرين، وهم يتلوّنون كل مرة بطلب أشياء لا يقصدون منها حصول اليقين وطرد موجبات التردد، ولكن ليظهروا أن ما يطلبونه يتوقف عليه إيمانهم. فإذا لم يستجب لطلباتهم، استنتجوا منه أن ما جاء به ليس من الحق في شيء. فهم يغمضون أعينهم عن المؤيدات الحاصلة، وعن الإعجاز القرآني، ويقترحون الاقتراح تلو الاقتراح يبغون من ذلك التعجيز، والتحكم في التقدير الإلهي حتى يكون طوع مقترحاتهم. طلبوا أن ينزل الله على رسوله معجزة حسبما

يقترحونه، أوان يرقى في السماء وهم يشاهدون رقيه ثم يأتي معه بكتاب مجسم يعرضه عليهم لقراءة نصه، وقالوا: لولا أنزل عليك ملك. إلى آخر أنواع التعنت التي فضحهم القرآن باقتراحها. فردَّ عليهم القرآن ردا قاطعا بين مكانتهم ودور الرسول ﷺ. أما مكانتهم فهم ضالون عن الحق، غير واعين بالمآل، إذ لا تصل بهم عقيدتهم ولا سلوكهم إلا إلى الخسران المبين. وأما دور الرسول ﷺ فهو أن ينذرهم سوء العاقبة التي تترصدهم، وأن يعمل على إنقاذهم مما هم صائرون إليه. وهذه سنة الله في إرسال رسله، أنه يبعث لكل قوم هاديا يهديهم، أي إن إنذارهم سوء العاقبة يصحبه تبيان طريق الهدى والرشد.

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغيض : يستعمل في الدلالة على النقص.

الكبير : العظيم.

المتعالي : المترفع، العزيز العزة الكاملة.

سواء : مستو، لا يفضل واحد عن غيره.

المستخفي : المبالغ في الاختفاء.

السارب : المتنقل السائر. فهو يتصرف كيف شاء دون حذر.

معقبات : جمع مُعَقِّبة. ملائكة يتبعونه ويلازمونه.

يحفظونه : يراقبونه.

التغيير : التبديل بمغاير.

وال: الوالي هو الذي يشتغل بأمر غيره اشتغال تدبير.

بيان المعنى الإجمالي :

تنص الآيتان الثامنة والتاسعة على ما يحقق عقيدة الوحدانية وعقيدة البعث. فالله هو المتفرد بعلم ما تحويه الأرحام علما شاملا، للخصائص المادية لكل فرد، ولمواهبه

العقلية والنفسية. ويعلم أوضاع الرحم الحامل، مقدرا لكل فترة من فترات الحمل ما يمكّن النسل الجديد من بلوغ المستوى الذي يستقل به بعد ذلك في الحياة. وكل ذلك يقوم دليلا على عظمة الباري سبحانه، وعلى خضوع الكائنات لتقديره فهو العزيز المتعالي.

علم الله علم واحدٌ وشاملٌ ولا يتغيرُ، ولا تؤثر فيه الظروف التي يتخفى فيها الإنسان، أو يظهر .فما جرى في ضميره دون أن تنبس به شفة وما جهر به، ما عمله تحت جنح الظلام بعيدا عن الناس، وما صنعه في وضح النهار وملأ من الناس، كل ذلك سواء في علم الله .وليس علمه بإحدى الصورتين أوضح أو أتم من الأخرى.

أقام الله على كل إنسان حفظة من ملائكته يسجلون كل ما يصدر عنه من قول أو فعل. وطريقة ذلك التسجيل والمتابعة هي من ترتيبات الله التي تفوق مدارك البشر..

وإن نعمة الله على عبيده تقيدها الطاعة والشكر، ويترتب عن كفرها والانغماس في المعاصي زوالها. وإذا أراد الله أن يوقع على عبده عقابه فإرادته نافذة ولا يجد ناصرا يحميه أو يدبر له طريق نجاة.

بيان المعنى العام :

8←9: الله يعلم ما تحمل كل أنثى ....الكبير المتعال.

تُتَمِّمُ الآيتان ما عرضته السورة من بدايتها، فتبسط ما يدل على الوحدانية والتفرد بالخلق والتدبير، وتؤكد أحقية البعث وتقربه للأذهان الغافلة عن دقيق صنع الله. فتم التعرض أولا لقانون التكاثر في الحيوان والإنسان الذي يجريه الخالق على ترتيب ونظام لا يحيط بعلمه إلا هو. فالآية تشير أولا إلى أن ما يحدث في كل لحظة من حمل كل أنثى في عالم الحيوان أو الإنسان هو مما اختص به علم الله، ثم تَنْزل من هذه النظرة الكلية إلى مرتبة أدنى، هي أن الله وحده يعلم بمجرد ما تعلق اللقيحة بالرحم الخصائص التي أودعها في الخارطة(الجينوم)، إن البرنامج المكتوب في رأس كل لقيحة، الضابط لكل جزئية من الجزئيات التي ستظهر، محدِّدة ما يكون عليه الكائن الإنساني أو الحيواني في المستقبل، والتغييرات التي تحدث والأسباب المؤثرة في ذلك وجودا أو عدما، هو ما تفرد الله بعلمه. وإن حصر النص الواسع الآفاق (يعلم ما تحمل كل أنثى) في كون ما حوته الأرحام من جنس الذكور أو جنس الإناث، تضييق مستند إلى تصور قاصر تبعا لتعلق الأبوين، وقد تكون الأسرة مهتمة بالبحث عن كون الجنين ذكرا أو أنثى. وهذه جزئية من مئات ملايين من الجزئيات التي يحيط بها علم الله في اللقائح التي تتحول إلى أجنة. وهذا ما لا

يصل إليه علم أحد لا بوصف الفردية ولا الشمولية . ويختص به العلم الإلهي . وإن تصور الفكر البشري لهذا العلم الرباني في أبعاده اللامتناهية لما يحدث في كل لحظة في عالم الإنجاب، ليقوم دليلا على إمكانية بعث هذه الكائنات التي أحاط علمه بها في بداية التكوين وأحكم مسارها. ولا يعقل إنكاره أو الشك فيه أو طلب الدليل عليه .فكانت هذه الجملة الأولى محققة لصدق كل ما سبق في هذه السورة من وحدانية الله ومن البعث.

عطف القرآن على ذلك: **(وما تغيض الأرحام وما تزداد)** اختلف المفسرون اختلافا كبيرا في تأويل المراد بنقصان الأرحام وزيادتها .

والذي ترجح عندي بعد التأمل، أن صدر الآية تحدث عن خصائص الجنين الذي استقر في رحم الأم، وأن هذا المقطع لفت النظر إلى التحولات التي تحدث في الرحم ذاته، فبمجرد ما يعلق الجنين بجدار الرحم، تتغذى العلقة من دم الأم لتأخذ في الانقسام والنمو، ويتم تحول في الهرمونات، وبهذا تغيض الأرحام مما كانت تمتلئ به من الدم، ويدخل دم الأم في تكوين الجنين، فينمو وتظهر شيئا فشيئا مكوناته ويزداد وزنه إلى أن يبلغ الوقت الذي ينزل فيه إلى الأرض كائنا يحمل خصائص النوع . فمعنى تغيض الأرحام: نضوب الدم كما تقدم في سورة هود: وغيض الماء آية 44- وزيادتها بزيادة وزن الجنين الذي نما من ذلك الدم.

ثم عطف على ما تقدم، مبينا أن كل شيء يحدث في الوجود لا يتم بلوغه إلى مستوى الحدوث إلا بعد مروره بمراحل مضبوطة ومحددة بدقة بالغة، ويدخل في هذه القاعدة الكلية التكاثر الحيواني والإنساني. فكل مرحلة من مراحل التطور، وفي كل لحظة زمنية منها، تتولى العناية الإلهية إمداده بما هو في حاجة إليه من الغذاء نوعا وكما، فلو زاد ما يصير إليه عن الحاجة أو نقص كان الخلق مشوها غير قادر على الحياة. وبهذا اللفت يقوم دليل قاطع على البعث فإذا كان التقدير الإلهي قد يسر للجنين بلوغ المستوى الذي يصل به إلى الحياة المستقلة، أفلا يقوم هذا دليلا واضحا على إمكان إعادة خلقه ليبعث من جديد ؟

ويدخل كل ذلك تحت قبة العلم الإلهي الذي لا تخفى عليه خافية، سواء أكان ذلك من عالم الغيب الذي لا تصله معارف الناس، أو من المشاهدات التي تختلف أحجامها فتدق حتى لا يستطيع الإنسان إدراكها بحواسه المجردة، أو تعظم على مستويات مختلفة.

هو سبحانه العظيم الذي لا يدانيه في عظمته شيء. وهو العزيز الذي يخضع كل شيء لإرادته.

10-سواء منكم من أسر القول ومن جهر...وسارب بالنهار.

يتفاوت إدراك البشر لما حولهم تبعا لعلو المستوى الصادر منه أو ضعفه، فبعضها يهز الإنسان هزا وبعضها ينزل إلى المستوى الذي تمر آثاره دون أن يشعر بها. ولذا كان من يرغب في كتمان أقواله وأفعاله يقوم بها في سر، ويتخذ جنح الظلام له ساترا حتى لا يطلع عليه أحد. ولكن الله سبحانه يعلم كل ما يصدر عن الإنسان علما يستوي فيه ما أعلنه صاحبه وما كتمه في قلبه فلم تتحرك به شفة، لا تفاضل بينهما، وعلمه بالحالتين سواء. كما أن من يقوم بعمل من الأعمال ويتخير له جنح الظلام ويبالغ في تحري البعد عن عيون الناس، ومن يقوم به وهو يسعى في وضح النهار فيلفت الأنظار إليه بحركته وينكشف بالضوء، هما سواء بالنسبة لعلم الله إذ لا يتوقف علمه على سبب مساعد يضعف عند فقده، وهذا هو الفارق بين العلم الكامل الذي لا يتوقف على شيء، والعلم المحدود المرتبط بقوانين المعرفة.

11- له معقبات من بين يديه...و ما لهم من دون من وال.

لله ملائكة يتابعون الإنسان في جميع أحواله، ويقيدون كل ما يصدر عنه من خير أو شر في سر أو إعلان. يحيطون به من أمامه ومن خلفه ومن جميع جهاته فلا يغيب عنهم أي فعل أو قول منه. ولا تسأل عن الطريقة التي يتم بها توثيق كل ذلك ولا عن المراقبة كيف تتم، فكل ذلك من أمر الله: من الترتيبات التي أحكمها الله وهي فوق المدارك البشرية، كقوله تعالى، **قل الروح من أمر ربي**[1]. وروى مالك والبخاري ومسلم بسندهم إلى أبي هريرة واللفظ لمالك: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي ؟فيقولون: تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون. – ح 472 ج 1 ص241–

و يمكن أن تفهم الآية على أن لكل إنسان في جميع أحواله التي تقدمت في الآية السابقة حفظة يحفظونه تتم بهم صيانته من العوادي الحيوانية ومن أشرار البشر. فتكون الآية منبهة على الألطاف المحيطة بالإنسان. ويكون معنى من أمر الله: أي يحفظونه من كل ما جرى القدر به، فإذا حل المقدور أُسْلِمَ المرء إليه.

ونبه القرآن بعد أن قرر أن لله حفظة يراقبون أعمال البشر ويسجلون ما قاموا به، أو أن الله يحفظ البشر حسبما جرى به القدر، ثنى ببيان أن الله إذا أنعم نعمة على

---

[1] سورة الإسراء آية 85

عبده فإن صاحبها يُقيِّدها فتلزمه إذا شكر واستقام، وأن الإنسان إذا غير سلوكه، فاستعان بالنعمة على المعاصي، فإن الله يسلبه تلك النعمة ويحول حاله من النعمة إلى النقمة ومن الرخاء إلى البؤس. وفي هذا تحذير للذين رحمهم الله من أن تبطرهم النعمة فيظنون أنها مصاحبة لهم دائما.

و إن الله العظيم قدرته إذا أراد تغيير أوضاع المتجاوزين لحدوده من الرخاء إلى العسر والشدة، تبعا لسوء صنيعهم، فإنه لا تقوم قوة تحول دون تنفيذ ما أراده. وبالتالي لا يجدون من يدبر لهم ما ينقذهم به من تنفيذ عدل الله فيهم.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يجادلون : يخاصمونك.

المحال : القوة، والإهلاك.

ضلال: ضياع.

الغدو : الوقت الذي يخرج فيه الناس لقضاء حوائجهم .

الآصال : جمع أصيل وهو وقت اصفرار الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

الظواهر الكونية كتاب مفتوح يقرأ فيه المتأمل شواهد تثبت أن الله هو الواحد الذي لا شريك له وأن الخلائق صائرة إليه. فظاهرة السحب تتكرر، ويلمع في بعضها البرق الذي يكاد يخترق الأفق من أقصاه إلى أقصاه ويأخذ الأبصار، ويتأثر الإنسان به بين الخوف من الصواعق وبين الأمل في نزول الأمطار وانتشار الخصب. والسحب قد تكون خفيفة سريعة التنقل وقد تتراكم وتثقل.

وظاهرة الرعد التي تصحب البرق هي تسبيحة من تسبيحات الكون لله تنزهه عن الشريك فلا مؤثر فيها غير قدرته وإرادته ولسان حالها يثني عليه بما أودع فيها

من نظام. وكما ينطلق التسبيح من لسان الكون بلغته التي عِلْمُهَا عند خالقه، فكذلك يصدر هذا التنزيه من ملائكة الله وهم يخشونه أشد الخشية.

ويرسل الصواعق متى أراد لتصيب من أراد إهلاكه. والعجب من الكفرة أنهم يجادلون في تفرد الله بالتصرف والتأثير، مع أن مكره سبحانه بالمنصرفين عنه، قوي شديد مشاهد لديهم.

خضع العباد لله فهو وحده الذي يتوجه له الداعون بابتهالاتهم الصادرة عن شعورهم بالحاجة الحق لعون ربهم وهو القادر على إسعافهم بمطالبهم. وأما الكافرون فيدعون دعاء صادرا عن عقيدة باطلة فيكون ضياعا غير منتج. مثلهم كعطشان بسط كفيه إلى الماء يبغي أن يصل الماء إلى فمه ولن يبلغ فمه وهو على هذا الوضع.

خضعت الكائنات كلها لله وانقادت عن رضا، أو مكرهة. فسجد له المؤمنون حبا فيه وشوقا إليه، وسجد المنافقون كرها وهم أذلاء، وسجدت الظلال مع الساجدين واضحة وضوحا أفضل في فترتي الصباح والعشي تبعا لامتدادها المرتبط بوضع الشمس في السماء. وكل الكائنات تجري عليها قوانينه وتقديره من السماوات والأرض وما احتوته.

بيان المعنى العام :

12←13: هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا...وهو شديد المحال .

مما يلفت أنظارنا في كل آية من الآيات التي سبقت في هذه السورة التقابل ففي الآية (1) بين الإيمان والكفر، وفي (2) الوجود والفناء، وفي (3) زوجان والليل والنهار، وفي (4) الوحدة مع اختلاف النتائج، وفي (5) الآيات الدالة على البعث وإنكاره، وفي (7) الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة، والغفران والعقاب، وفي(8) الإنذار والهداية، وفي (9) نقصان الأرحام وزيادتها، وفي (10) علم الغيب وعلم الشهادة، وفي(11) السر والجهر، وفي (12) التمكين من النعمة وسلبها.

وفي كل ذلك براهين متتابعة على الوحدانية والقدرة الكاملة. وفي الآية 12 يحرك القرآن انتباهنا للتأمل في ظاهرة السحب المتراكمة والبرق الذي يصحبها تارة، يخترق البرق السحب بسرعة الضوء ويمتد نوره الخارق أو يقصُر. نشاهده فإذا أثر المشاهدة بقوته التي تكاد تخطف الأبصار إحساس بالخوف مما يمكن أن يتبعه من الصواعق، وإحساس بالأمل بنزول الأمطار عقيبه. فالظاهرة واحدة وتأثر الإنسان بها من الضد إلى الضد، من الخوف إلى الاستبشار والأمل. ثم إن تفسير هذه الشحنة الكهربائية وأسباب تفريغها، لماذا تحدث في بعض السحب، وتمر سحب

أخرى دون أن يتخللها أي برق؟ كل ذلك ينادي بأن الله هـو وحـده الـذي يتصـرف فـي الكون ومنه السحب فينشئها على النحو الذي يختـاره، وتقصُـر قوانـا الفكريـة ومعارفنـا عن تبين سبب ترجيح إبراز ظاهرة عن غيرها.

و يتْبَعُ لمع البرق صوت الرعد، ومع أنهما يصدران في وقت واحد تختلف سرعتهما، فيختلف الإحساس بوجودهما. كما تختلف الاهتزازات المصاحبة ضعفا أو شدة تكاد تصم الآذان. إنها تسبيحة من تسبيحات الكون للخالق المتصرف الواحد القهار. هو الذي أحدثها على المستوى الذي أراد وقدر. ولكن لا نفقه تسبيحها، وصدق الله فيما أخبر به. وتقترن بتسبيحة السحب وما يصحبها تنزيه الملائكة لله عن كل نقص، وهم مستحضرون عظمته على أكمل وجه، مما يجعلهم يخافون عقابه.

قد تنفلت من السحب صواعق حارقـة تنفـذ إلـى الأرض يصـيب الله بهـا مـن يشـاء ويصرفها عمن يشاء. انطلق اللاعبـون فـي ميـدان اللعـب، وتراكمـت السـحب ولمـع البرق وزمجر الرعد ونزلت صاعقة صعق بها لاعب واحـد مـن بـين اللاعبـين. مثـل هذه الحادثة تتكرر في الوجود وتقـوم دلـيلا علـى أن المتصـرف فـي الكـون هـو الله وحده، ومع ذلـك فـالكفرة يجـادلون الرسـول والمـؤمنين فـي تفـرد الله بالتـأثير فـي الكون، ويثبت بما لا مجال للشـك فيـه أن القـوة العظمـى التـي لا تغالـب ذات الأثـر الشديد، هي لله وحده.

14- له دعوة الحق والذين يدعون من دونه... الكافرين إلا في ضلال.

تبين من الآيـات السـابقة، أن الله هـو الواحـد الأحـد، وهـو وحـده القـادر المـؤثر، ويكون موقع هذه الآية تأكيد ذلكم المفهوم. فـإن تفـرده بالألوهيـة والقـدرة يتبعـه حتمـا أن من يرفع يديه بالدعاء، ويتوجه قلبه طلبا للعـون والرعايـة والغـوث والنعمـة، يكـون توجهه صادرا عن حق إذا كان منبعثا عن عقيـدة حـق لا عـن عقيـدة باطلـة. فالـدعاء في حقيقته هو نتيجة ما يحصل فـي الضـمير مـن حاجـة إلـى أن يتـولى الله سـبحانه بقدرته الداعي فييسر له خيرا، أو يصرف عنـه ضـرا. فصـدور الـدعاء يكـون بـذلك صادرا عن عقيدة حق لا عن تصور باطل.

ثم زادت الآية هذا المفهوم بيانا بالتنصيص على فسـاد مقابلـه، وهـم المشـركون الـذين يدعون آلهتهم من دون الله، وجسَّـمت ذلـك الفسـاد بتمثيلـه بالظمـآن المحتـاج لشـرب الماء فيبسط كفيه إلى الماء ليبلغ الماء فمه، وطريقتـه تلـك لا يبلـغ بهـا المـاء إلـى فمه أبدا. وبهذا فإن دعاء الكافرين لآلهتهم دعوة ضـائعة لا يترتـب عليهـا جلـب منفعـة ولا دفع ضر.

15- ولله يسجد من في السماوات والأرض...بالغدو والآصال.

تفيد هذه الآية أن الذي تخضع له الكائنات جميعها، ويتصرف فيها بحكمته وتنقاد إلى الغاية التي حددها لها هو الله سبحانه .

و السجود له معنيان: الوضع الخاص الذي يضع فيه الساجد جبهته على الأرض؛ والسجود بمعنى الانقياد. فتثبت الآية المعنيين معا، بالنسبة للإنسان على سطح الأرض يسجد المؤمنون الصالحون في صلواتهم عن حب ورغبة وطواعية، ويجدون لذة في قربهم من ربهم: أقرب ما يكون المرء من ربه وهو ساجد. ويسجد المنافقون عن كره وغش. والسجود بهذا المعنى لا يتحقق إلا في بني الإنسان؛ والآية عامة لمن في السماوات والأرض. ولذا تحمل الآية على ما يعم السجود بالمعنيين لينطبق المفهوم على نص الآية، فيكون سجود البشر هو ما قدمناه، مع السجود الذي يعم الكائنات جميعا بمعنى خضوعهم للقوانين التي أجرى الله عليها خلق كل كائن وكل نوع وكل جنس. على معنى أنه لا يستطيع أي فرد من المخلوقات أن يتمرد على قوانين الخلق المحكم. فمثلا، إذا كانت الحيوانات البرية تتنفس الهواء، ولا تحيى بدونه، والأسماك البحرية الماء عنصر أساسي في استمرار حياتها، فكل الكائنات خاضعة لتلكم القوانين، فالمؤمنون يشكرون الله ويحمدونه على ما لطف ودبر من تلكم القوانين. وغير المؤمنين تجري عليهم قوانينه و إن كرهوا. ويصاحب سجود الذات بروز صورتها في ظلها وقت وجود الشمس. واختار القرآن الظلال في الصباح وفي العشي، لأن الظل في هذين الوقتين يمتد امتدادا أطول من بقية ساعات النهار.

و هذه الآية هي موضع السجود الثاني في القرآن حسب ترتيب المصحف. والسجود عند قراءة قوله تعالى: والآصال – متفق عليه– وعلى التالي والساجد أن يستحضر أنه ممن يسجد لله طوعا امتثالا لأمره، رجاء في فضله.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ

يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يقدرون.

القهر : الغلبة.

أودية : جمع واد، الحفير الممتد الذي يسيل فيه ماء المطر .

قدر : تقدير .

الزبد : ما يعلو الماء المتدفق من رغوة، يحمله السيل ويرمي به على ضفتيه.

رابيا: منتفخا، الذي قد ربا.

الحلية : المصوغ الذي يتزين به .

يضرب : يبين بالمثل.

الجفاء : ما يطرح ويرمى به لكونه لا قيمة له.

الحسنى: العاقبة الحسنة.

المأوى : المنزل الذي يذهب إليه الإنسان للسكنى فيه.

المهاد : ما يفترش ويمهد للجلوس والرقاد.

استجابوا : أجابوا مع رغبة، محافظة على التطبيق.

بيان المعنى الإجمالي :

اسألهم من رب السماوات والأرض الذي أبدعها ونظم شؤونها وأقامها على ميزان لا يختل؟ باغتهم بالإجابة، فهم لترددهم تتلعثم ألسنتهم ولا يسرعون بالإفصاح عن الحقيقة، قل لهم: هو الله. ووبّخهم وقل: لما ذا اعتمدوا وعبدوا من دون الله آلهة عجزة، لا يقدرون على جلب نفع لأنفسهم أو دفع ضر عنها، فضلا عن تأثيرهم في غيرهم. وعرّفهم بالمنزلة الهابطة التي هم عليها. فهم مع عماهم ومع إطباق الظلام على عقولهم، لا يستوون مع المؤمنين الذين هداهم الله فعرفوا الطريق المستقيم وجاءتهم أنوار الوحي فأدركوا ما وراء الظواهر من حقائق.

أجعلوا لله شركاء تساووا معه في الخلق، وخلقوا كخلقه، فكان ذلك معرضا لهم للاشتباه والحيرة ؟قل لهم وأخرجهم من ضلالهم، قل لهم: الله هو المتفرد بالخلق،

وما عداه مخلوق له سبحانه. والله هو الواحد الذي لا شريك له في تصرفه بالخلق، وهو الغالب الذي تخضع له كل الكائنات.

ثم ضرب القرآن مثلين يقربان ما تضمنته الآيتان قبله:

المثل الأول: أن الله أنزل الماء من السماء فسالت منه المياه لتتجمع في الأودية ويأخذ كل واد منها حسب سعته، ويعلو سطحها زبد منتفخ يلقيه السيل على جانبيه، يذهب أثره وتختزن الأرض الماء الصالح للحياة. وذلك مثل ما ينزله الله من الهدى فينتفع به أقوام على قدر سعة مداركهم وصفاء أرواحهم ويستمر عطاؤه في العالمين، ويهيج من الحق النازل الكفرة المعاندون. فيكون شغبهم وتضليلاتهم كالزبد الذي يتبدد في النهاية ولا يبقى له أثر.

المثل الثاني: المعادن التي يُحمَى عليها فينزل المعدن الصالح للزينة من الذهب والفضة، أو من الحديد والنحاس ونحوها التي يعمل منها الصناع آلات ومرافق للناس، ويعلو الزبد الذي لا نفع فيه فيلقى به. وكذلك ما ينزله الله من الهدى على نحو ما ذكر في المثل الأول.

ويصرح القرآن ختاما بالنتيجة: هي أن الذين قبلوا ما جاءهم من الوحي برغبة وتعلق كبيرين، يجزيهم ربهم بالحسنى المتمثلة في ضروب ألطافه التي لا تحصر، ونصرهم على أعدائهم وإحلال الأمن في نفوسهم والرضا. وفي المقابل فإن الذين رفضوا الهدى يكون مآلهم أنه يبلغ بهم اليأس: أن يودَّ أحدهم لو يفتدي من سوء وضعه بما حوته والأرض بل بضعف ذلك، فتتضاعف حسراتهم النفسية ويحاسبون حسابا لا رحمة فيه، يناقشون في كل كبيرة وصغيرة. وتكون الدار التي ينتهون إليها هي جهنم يفترشون نارها، وما أسوأه من فراش.

بيان المعنى العام :

16- قل من رب السماوات والأرض ....وهو الواحد القهار.

تكرر الأمر بالقول في الآية الأولى خمس مرات (قـــل) .

تتابعت من مفتتح السورة البراهين والمشاهد المثبتة للوحدانية، وتوجت بتسجيل حقيقة يذهل عنها الكافرون: إن الله يسجد له ويخضع لقدرته وإرادته الكون كله.

وتهيأوا تبعا لذلك لمخاطبتهم خطاب التوبيخ والتقريع، وإظهار هوانهم وضعف تفكيرهم. ولا شك أن ذلك يكون وقعه أقوى إذا صدر عن الله، فتكرر الأمر بقل ليتوجه إليهم مضمون القول توجيها يبكتهم.

بادرهم بالسؤال من تولى العناية بالسماوات والأرض فنظّم أمورها أكمل تنظيم وأدقه؟ وهذا ما تفيده كلمة رب. وهذا السؤال لا يقصد منه أن ينتظر إجابتهم، لأنه

ليس له إلا جواب واحد هو الحق وما عداه زيف و باطل. فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يعرفهم بالجواب فيقول لهم: الله، رب السماوات والأرض. ورتب على ذلك توبيخهم على عنادهم ومواصلة الكفر به فأورد عليهم سؤالا إنكاريا توبيخيا، أكفرتم به فاتخذتم آلهة من دونه .تلك الأصنام الممثلة للعجز والهوان التي بلغ من ضعفها أنها لا تقدر على جلب أي نفع لنفسها أو أن تدفع عنها ضرا يؤذيها .

ثم ثنى مشوها لحالهم، والمدى البعيد الذي يفصلهم عن المؤمنين، من الضد إلى الضد ومن الرفعة والإيجابية، إلى الانحطاط والسلبية. قل لهم: إن حالهم كحال من فقد بصره ففاته إدراك ما هو حاضر أمامه فأنكر وجوده. أو كمن أطبق عليه الظلام فهو لا ينتفع بحاسة النظر فهو لا يرى شيئا. وشتان ما بين وضعهم مع العمى أو الظلمة المطبقة، وما بين وضع المؤمنين وقد جاءهم نور من ربهم فاهتدوا إلى حقائق الوجود ومآلات الكون، وتمكنوا من الهداية الربانية فإذ الكائنات كلها داخلة تحت أبصارهم مؤذنة بما وراءها من يد الإبداع وكمال التدبير، زاهية بالتناسق المؤلف بينها.

كلمة [أم] التي تفيد من البداية قصد الانتقال من الكلام السابق إلى كلام جديد يعبر عنه (بالإضراب) عن الكلام السابق وتوجيه العناية للكلام اللاحق. فتورد الآية عليهم سؤالا محرجا: أجعلوا لله أربابا مساوين له في ألوهيته وقدرته. تمكنت تلكم الآلهة أن تخلق وتحدث مخلوقات على النحو الذي تصرف به الله في الإيجاد، فأوقعهم ذلك التشابه في حيرة ما هو خلق الله وما هو خلق الآلهة ؟ ثم ما هو الفرق بين الله وبين آلهتهم ؟إن هذه الصورة تثير السخرية من لوازم عقائدهم. ولذا أعقبها بأمره لمحمد ﷺ (قل)إن الله هو المتفرد بالخلق وآلهتهم لا تخلق شيئا بل هي مخلوقات. والله هو الواحد الذي لا يشاركه أحد في ذاته ولا في خلقه فجميع الموجودات مخلوقة له. وأيضا هو الغالب الذي يخضع له كل شيء. فلا يصعب عليه إيجاد المادة ولا الصورة التي يتم عليها الإيجاد. وآلهتهم لا تقدر على خلق أي كائن مهما ضؤل. فهي آلهة زائفة.

17- أنزل من السماء ماء فسالت أودية...يضرب الله الأمثال.

تضمنت الآية تمثيلين، كل منهما يؤدي ما يؤديه الآخر، ليعم التوضيح للناس جميعا من يدرك التمثيل الأول ومن يدرك التمثيل الثاني، ومن يدركهما جميعا. فلنتابع ذلك:

التمثيل الأول: أن الله أنزل من السماء مطرا متداركا، فسال في الشعاب وتجمع في الأودية على قدر سعتها، وإنك لتشاهده مسيره في المسيل تعلوه رغوة منتفخة،

فتذهب تلك الرغوة غير منتفع بها ويبقى الماء الذي ينفع العباد، وينشر الخصب وينبت الزرع وتسري به الحياة في الأرض.

سالت أودية بقدرها، جرى في كل واد من مياه الأمطار المتجمعة ما يملأ جوانبه، وكل واد يحمل من الماء على قدر سعته. وسرعة حركة المياه تبعا لانحدارها من الجبال والروابي، مع ما تأتي عليه من الهشيم تتكون منه رغوة تعلو سطحها (الزبد) ومن شأن الزبد هذا أن يكون منتفخا لما يتخلل تركيبه من فقاقيع الهواء.

التمثيل الثاني: المعادن على الصورة التي استخرجت من مقاطعها، يتناولها الصناع فيوقدون عليها النار، لاستخلاص المعدن الصالح من الذهب والفضة لصنع الحلي والنقود، أو من المعادن الأخرى كالحديد والنحاس والرصاص التي يوقدون عليها النار ليستخلصوا منه الفلز وليتخذوا منه صفائح لصنع المواعين والآلات المختلفة للارتفاق بها.

هذان المثلان ضربهما الله ليعتبر بهما الناس وليتخذوا منهما نظيرا يكشف لهم بصفة أقرب مضمون ما يشيران إليه، هما مثلان للحق والباطل فلنتتبع مراحل التمثيل:

أولا : تتابعت الأمطار على ما وصفناه أخذا من الآية، والماء النازل من السماء به دوام الحياة، وتكونت منه سيول تداخل فيها ما ليس من الماء ولكنه لصيق له في جريانه، ولا نفع فيه، بل إنه ارتفع فوق سطح الماء وانتفخ وهو الزبد الذي لا يبقى طويلا بل يقذفه السيل على جنباته، وتتفرقع فقاقيعه ويبقى الماء الأصيل يروي الأرض وينبت الكلأ والعشب والثمار وينفذ إلى أعماق الأرض فتختزنه بين طبقاتها.

ثانيا: مثل الماء النازل من السماء كمثل القرآن أنزله الله هاديا للقلوب ينشر في العقول نور الإيمان فتطمئن، ويوجه الأعمال إلى الخير فترقى الحضارة، ويأمن الناس. فيتكون منه منهج متكامل يأخذ طريقه في إصلاح الحياة كما يأخذ الماء طريقه. ثم إن المتلقين له على درجات في التأثر والانتفاع بهداه على مقدار ما لهم من قوة إيمان ورغبة في صالح الأعمال كما يأخذ كل واد من الماء ما تتسع له جنباته، ويتواصل النفع به كما يتواصل النفع بالماء الذي سارت به الأودية. ويمر على أسماع الكافرين فيهيجهم لمعارضته ويكون لهم صوت مرتفع، ولكنه مهزوم في النهاية شأن الزبد الذي ينتفخ ويعلو على سطح الماء يلقى به دون أن يكون له أثر.

ثالثا: مثل آخر من المعادن: يوقد الصناع والصواغون النار على المادة الخام فيسيل المعدن الصافي من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص متميزا، وينفصل ما خالطه فتقذفه النار الحامية زبدا كما يقذف الوادي الزبد على جانبيه. وينتفع الناس من الذهب والفضة حليا ومن المعدن متاعا لقضاء حاجاتهم.

ضرب الله ذلك مثلا للحق والباطل؛ فيكون الماء الذي تحمله الأودية وتتشربه الأرض فتنتفع هو كالحق النازل من عند الله المستند إلى الوحي، والزبد الذي يربو مثلا للباطل. وكذلك ما يخلص من المعادن من ذهب أو فضة وحديد ونحاس ونحوهما هو كالحق ينتفع به الناس، وما تقذفه النار إلى الخارج كالباطل.

وعلى هذا النحو يضرب الله الأمثال لتكون مؤكدة ومبينة ومقنعة للناس.

18-للذين استجابوا لربهم الحسنى...وبئس المهاد.

يدعو النبي ﷺ الناس فيبلغهم ما أحي إليه من ربه من العقيدة والتشريع والإرشاد، يكون المتلقون له على نوعين:

النوع الأول: المؤمنون الذين قبلوا ما جاءهم من ربهم بعقول متفتحة ورغبة في العمل به، ثم يلتزمون بعزيمة صادقة وقوية تطبيق ذلك، ويعملون به فعلا. هؤلاء وعدهم الله الحسنى: ينزل عليهم رضوانه في الدنيا، ويلطف بهم، وينصرهم على أعدائهم، ويمكن لهم ويلحق بهم ذرياتهم. وييسر حسابهم في الآخرة، ويكرم جزاءهم في منازل الرضوان في الجنة دار القرار.

النوع الثاني الكافرون: الذين يرفضون ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ عقيدة وسلوكا، هم آيلون إلى وضع من اليأس، يبلغ بهم النكال أنهم يكونون في أسوأ وضع: يودون لو يجدون ما يقدمونه لإنقاذ أنفسهم من الهوان والعذاب الماحق المحيط، ولو كان ذلك بتنازلهم عن الأرض وما فيها، بل ضعف ما في الأرض، وأنى لهم أن يتحقق لهم ما يتمنونه فلا هم يملكون من ذلك شيئا. فتكون أمانيهم من الأماني الخيالية تضاعف حسراتهم.

أولئك الكفرة الرافضون، جزاؤهم الحساب السيء الذي لا يتجاوز فيه عنهم لا في صغيرة ولا في كبيرة، ومصيرهم جهنم يفترشون نارها وما أسواه من فراش.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يصلون : الوصل ضم شيء إلى شيء، واشتهر في الإحسان والإكرام، ومنه صلة الرحم .

خشية : خوف ناشئ عن تعظيم من يخافه.

ابتغاء وجه ربهم : طلب رضاه.

الدرء: الدفع والطرد.

العاقبة : الخاتمة.

عدن : الإقامة، والاستقرار، والثبات.

نقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به.

بيان المعنى الإجمالي :

فريقان لا يجمع بينهما جامع: من يوقن بأن الحق الواضح، هو ما أنزله ربك إليك، لا شبهة فيه ولا تناقض، منسجم مع الفطرة. والفريق الذي حجب عقله عن النظر فعمي عن الحق الذي بلغتهم إياه. إنه لا يتأمل فينتفع إلا من كان أصيل الرأي واضح التفكير وهم أصحاب العقول المستنيرة. ولكن ما هي ملامح أصحاب العقول المستنيرة ؟

أولا: هم الذين يوفون بما عاهدوا عليه الله من توحيده وتطبيق شرعه، ويحترمون التزاماتهم، فيأمنهم المتعاملون معهم.

ثانيا: هم يصلون أرحامهم ولا يقطعون العلاقات الرابطة في جميع المستويات.

ثالثا: هم يستحضرون دوما أن الله مطلع عليهم، فيخافون من كل عمل يتجاوز به العامل حدود ه. كما يخافون من الحساب الذي يفتضح فيه المحاسَب وتعلن أعماله السيئة.

رابعا: هم ملتزمون بخُلق الصبر الإيجابي رغبة في رضوان ربهم.

خامسا: هم يحافظون على أداء صلواتهم على الوجه الأكمل.

سادسا: هم ينفقون مما رزقهم الله في السر و العلن.

سابعا: يدفعون آثار ما عملوه من سيئات بالقيام بالحسنات.

أعلنت الآية جزاءهم: أنهم يختصون بأن العاقبة الخيرة في الآخرة هي لهم وحدهم. يتفضل الله عليهم بتمكينهم من الإقامة السرمدية في جناته. ويلحق بهم أهليهم من الآباء والأمهات والأزواج والذرية، وإن كانوا دون مرتبتهم. ومن مباهج الجنة أن الملائكة يدخلون عليهم زرافات ووحدانا يهنئونهم بما أنعم الله عليهم، يسلمون ويذكّرونهم بما كانوا عليه من كمالات، وخاصة الصبر على العبادة، وعلى مقاومة دواعي الشهوة والشيطان. وينوهون بالمآل السعيد في دار إقامتهم النهائية.

وفي المقابل فإن الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه من التوحيد بعد ما أكده وأقره في فطرتهم، وعلى خلاف الفريق الأول يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويتجاوزون الحدود فيفسدون في الأرض، أولئك ملعونون مطرودون من رحمة الله. ويختصون بأسوأ مآل في أسوأ مستقر.

بيان المعنى العام :

19-أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ...يتذكر أولوا الألباب.

تقرر هذه الآية عدم التسوية بين فتح من عقله لقبول ما أنزله الله إليك من الهدى، وبين من أقفل قلبه عن النظر فيه. وتمت صياغتها على طريق الاستفهام لتحرك السامع للنظر في مضمونها، شأن السؤال في إيقاظ الذهن.

فالفريق الأول: هو من تيقن أن ما أوحاه الله إليك من العقيدة والتشريع والغيب والقصص، هو الحق الذي لا مدخل للباطل فيه؛ وبما أن اليقين يتبع الوضوح الذي لا شبهة فيه، والبيان التام الذي لا يلابسه غموض، فإنه ناسب أن يطلق على الفريق الآخر (الأعمى) إشارة إلى أن رفضه ليس له مبرر إلا أنه عطل قواه الفكرية، فأصبح كالأعمى الذي لا يرى الأشياء الماثلة أمامه، والعيب في بصره لا في الكائنات المعروضة.

ثم أظهرت الآية أنه لا يستطيع أن ينتفع بالبينات إلا من رُزِق عقلا صالحا. وهم أولو الألباب. وفي هذا إشارة إلى أن إعراض الكفار عن الوحي ناشئ عن غبائهم .

20←22: الذين يوفون بعهد الله ....أولئك لهم عقبى الدار.

ولتمييز أولي الألباب أكمل تمييز واصل القرآن عرض صفاتهم النبيلة، التي تفيد أن الكافرين فاقدون لتلك الكمالات.

الصفة الأولى: وفاؤهم بما عاهدوا الله عليه، وهذا العهد يشمل ما ذكر في سورة يس من إفراد الله بالعبادة ورفض ما يدعو إليه الشيطان (ألم أعهد إليكم يا بني

آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عـدو مبـين وأن اعبـدوني هـذا صـراط مسـتقيم)[1]
وانغرس هذا العهد في الفطرة، وقد يحجبه التـأثير الشـيطاني والتقليـد. كمـا يشـمل مـا يقتضيه عهد الإسلام من الالتزام الصادق بكل ما فصله من تشريع.
و عطف على الوفاء بالعهد عدم نقض الميثاق. وهذه صـفة أعـم مـن الوفـاء بعهـد الله، إذ تجمع إلى الوفاء بعهد الله احترام المواثيق والالتزامات التـي التـزم بهـا المـؤمن مـع غيره من الناس.
الصفة الثانية: وصل ما أمر الله أن يوصل. وهذه قاعـدة اعتنـت بهـا الشـريعة لبنـاء المجتمع المتماسك .فـأولو الألبـاب يصـلون أقـاربهم، ويصـلون إخـوانهم المـؤمنين، وخاصة عند المناسبات الداعية للاتصال، كالأفراح والأحزان والأعياد والمرض.
الصفة الثالثة: خشية الله، وهي الخوف من غضـبه وعقابـه ومـن حجـب ألطافـه. ذلـك أن أصحاب العقول الذكية يستحضرون بصفة مسـتمرة، ولا يغفلـون، عـن كـونهم فـي كل لحظة من لحظات حياتهم، في قبضـة الله يفعـل بهـم مـا يشـاء. يعجـل العقوبـة أو يمهل، أو يغفر ويرحم. وهذا الاستحضـار يكسـب الإنسـان يقظـة زائـدة تيسِّـر عليـه الالتزام بالاستقامة في حياته.
الصفة الرابعة: الخوف من الحساب السـيء، الـذي يفتضـح فيـه المحاسَـبُ، ويجـازى عن كل صغيرة أو كبيرة من أعماله السيئة، وهو مـا يقـوي العـزم علـى فعـل الخيـر والابتعاد عن الشر.
الصفة الخامسة: هم الذين تحلوا بالصبر الإيجابي، رجاء أن يفوزوا برضا ربهم. فصبرهم ليس استسلاما، وليس رياء، ولا حبا في الظهور بمظهر القوة كما يقول الشاعر:
وتجلدي للشامتين أريهم *** أني لريب الدهر لا أتزعزع.
فأولو الألباب يصبرون ليفـوزوا برضـوان الله، جـزاء امتثـالهم لمـا أرشـدهم إليـه وأوصاهم به. ولا يقترن صبرهم بشكاة ولا تبرم ولا يأس.
الصفة السادسة: هم ينفقون أموالهم سرا وعلانية، بمـا يفيـد أنهـم اقتلعـوا جـذور الشـح فحلت السماحة في قلوبهم، وأكدوا بذلك وثيق الصلات بالمجتمع.
الصفة السابعة :هم يدرؤون بالحسنة السـيئة. إنهـم إن غلـب علـيهم ضـعفهم البشـري فقارفوا السـيئة تيقظـوا، وتحركـت الـنفس اللوامـة، فـأتبعوا السـيئة بالعمـل الحسـن المرضي عنه، قال ﷺ: وأتبـع الحسـنة السـيئة تمحهـا. وتنسـحب هـذه الصـفة علـى

[1] سورة يـس ، آية 59-60

الاستعداد النفسي لطرد وساوس الشيطان ودواعي الشهوة. وكذلك الصفح بعدم مقابلة الشر بالشر. فدفع السيئة بالحسنة باب واسع لتوثيق الصلات الاجتماعية، والتسامي عن النزول إلى مراتب الساقطين، كالعفو عن المسيء والإحسان إليه، والعدول عن السيئة بعد الهم بها، ويدفعون من رأوا منه منكرا بالطريقة التي هي أحسن لينكف ولا يعاند.

هذه الباقة ضمت العناصر الذاتية، التي بها يسلك صاحب العقل الراجح عند ورود مقتضاها، العمل على ما بينته الآية، فهو اتصاف بالقوة. أولئك هم جديرون بأن تتحقق لهم الخاتمة السعيدة فيختصون عن جدارة بأن لهم العاقبة في الدار الآخرة.

23- جنات عدن يدخلونها ومن صلح...من كل باب.

صورت الآية العاقبة التي خُص بها أولو الألباب تصويرا يضاعف الشوق إليها، ويساعد بالتالي على الالتزام بالمنهج السالك إليها:

أولا: هي جنات يقيمون فيها إقامة سرمدية لا تنقطع. فتمتُّعهم بنعيمها يختلف عن النعيم الدنيوي الذي يعكر صفوه خوف انقطاعه.

ثانيا: الابتهاج بصحبة الأهل من الآباء والأزواج والذرية. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصفات، أنه إذا صار إلى الجنة لحق به صالح أصوله وفروعه وزوجه. وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى كما قال تعالى: "والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء" [1] – لكن آية الرعد أشمل من سورة الطور التي اقتصرت على ما ينفع الذرية من الأصول.

ثالثا: مشهد التهاني من الملائكة الوافدين يقدمون تهانيهم. يأتون زرافات ووحدانا من كل باب. وسجل القرآن صيغة التهاني: سلام عليكم، هنيئا لكم الأمن الذي حل في قلوبكم وفي محيطكم. فهو سلام شامل سابغ، ويضيفون التنويه بصبرهم على الطاعة، وتجلدهم لقمع دواعي النفس وتزيين الشيطان؛ ويظهرون إعجابهم بما آتاهم الله من فضل لا يشوبه نقص بكلمة جامعة (نعم عقبى الدار) دار عاقبتكم .

26-والذين ينقضون عهد الله....لهم اللعنة ولهم سوء الدار.

هذه الآية تفصل حالة أضداد الذين يوفون بعهد الله. فصرحت مشنعة عليهم أنهم ينقضون ما عاهدوا الله عليه وما التزموا به، ولو كان موثقا ومؤكدا. وتقوى فيهم

---

[1] التحرير والتنوير ج 13ص 131

دواعي الأنانية إلى درجة أنهم لا يرعون الصلات الإنسانية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي في جميع درجاته الأسرية وما فوقها، فلا يهمهم أمرها. وبالتالي تكون اختياراتهم ناظرة دائما إلى مصالحهم الخاصة، لا يمتد تفكيرهم إلى الغايات البعيدة النافعة، ولا يقدرون حقوق الآخرين ولا ضوابط الاستخلاف المسؤول عنه كل مكلف . فيفسدون في الأرض بتجاوزاتهم، وهذا مظهر من مظاهر الحضارة المادية المنحرفة، التي عم فسادها البر والبحر والجو، فبلغ حدا أضر بالإنسان وبالحيوان والنبات، مما يهدد بتحولات بيئية تكون كارثة على الأرض ومن عليها.

ثم يأتي الحكم العادل فيهم: قُضِي بأنهم مبعدون عن رحمة الله وفضله، ومن كل خير يرغب الإنسان في حصوله، وأن مآلهم يوم القيامة المآل السيء الجامع بين المهانة والعذاب .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

البسط : الكثرة والدوام.

يقدر : هو عكس البسط، يضيق.

المتاع : ما يتمتع به ولا يدوم .

الإنابة : الرجوع.

الاطمئنان : السكون بحصول اليقين وانتفاء الشك.

طوبى : حسن.

ذكر الله : يشمل القرآن وذكر الله باللسان.

المتاب : التوبة

بيان المعنى الإجمالي :

تقرر الآية أن التوسعة في الرزق غير مرتبطة بالصلاح، ولم يطلعنا المولى على الحكمة التي يبسط بها الرزق أو يضيقه، وقد يبسط الرزق للكافرين ليزدادوا إثما ثم يكون عليهم حسرة. وقد يبسط الرزق للصالحين لترقى مراتبهم بالشكر والإنفاق. وقد فرح الكفار بما جمعوه من أموال ظنا منهم أن ذلك هو الغاية التي ليس وراءها غاية. وذهلوا عن كون متاع الحياة الدنيا يسرع إليه الفناء ولا يخلو عن نقص وكدر.

يقترح المشركون على رسول الله أن يأتيهم بمعجزات تقنعهم بأنه رسول من عند الله كإحياء آبائهم أو نسف جبال مكة نسفا لتتحول الأرض إلى سهول. رد عليهم القرآن: بأن الهداية أو الضلال لا ترتبط بالآيات، ولكن من فتح عقله وقلبه للآيات الواردة آمن، ومن أغلق عقله وقلبه يحرمه الله ألطافه فيستمر على كفره.

ونوهت الآية بالمؤمنين الذين آمنوا إيمانا لا يداخله ريب ولا شك فسكنت قلوبهم لما آمنوا به. وزادهم القرآن وذكر الله بألسنتهم طمأنينة ورضا، إن ذكر الله تطمئن به القلوب.

إن الذين جمعوا بين الإيمان والاستقامة، فصلحت أعمالهم، يهنأون بالمنزلة الحسنة، وبالعاقبة الطيبة.

إنا أرسلناك إلى أمة الدعوة الشاملة لجميع البشر في جميع الأعصار، على السنة التي بعثنا بها رسلا إلى أممهم في القرون الماضية. وذلك لتتلو على البشر آيات القرآن الذي أوحيناه إليك. ومن تضليل المشركين كفرهم بالرحمن مدعين أن الله والرحمن شيئان. قل لهم: الرحمن هو ربي الواحد الأحد لا شريك له، أعتمد عليه وحده في هدايتي وتسيير أموري، وإليه سبحانه أعود بالتوبة.

بيان المعنى العام :

26-الله يبسط الرزق لمن يشاء ....الدنيا في الآخرة إلا متاع.

لما صرحت الآية السابقة بغضب الله على الذين لا يوفون بما عاهدوا الله عليه، مع أنه يلاحظ أن بعضا منهم قد وسع عليهم في الحياة الدنيا بوفرة الأموال وما يصحبها من نعيم. رفعت هذه الآية هذا اللبس بتصريحها بالقانون الإلهي في التوسعة في الأرزاق أو التضييق فيها؛ فبينت أن فيض المال على الإنسان غير مرتبط بالاستقامة، وليس جزاء عنها. كما أن حبسه غير مرتبط بالغضب ولا هو جزاء عنه. ولكن الله يتصرف بحكمته التي حجب عنا أسرارها. فقد يبسط الرزق للعصاة لتتضاعف آثامهم، ويبسطه للصالحين فتسمو منزلتهم بالشكر وأداء حقوقه،

ويضيِّق الرزق على بعض الصالحين لينالوا ثـواب الصـبر. وفـرح الكفـار بـالأرزاق التي يَسَّرها لهم، فطغوا بما نـالهم، وحسـبوا أن نعـيم الـدنيا هـو الغايـة التـي لـيس وراءها غاية أسمى منها. وما أقصر نظرهم فإن ما ينعم بـه الإنسـان فـي الحيـاة الـدنيا إذا قيس بنعيم الآخرة يبدو تافها، إذ أن نعيم الـدنيا محـدود زمنـه يسـرع إليـه الفنـاء، مشوب بنقص وكدر، أما نعيم الآخرة فقد جمع بين الدوام والكمال.

27←29، ويقول الذين كفروا لولا أنزل ...وحسن مآب.

يسجل القرآن اعتراضات الكـافرين لـيقمعهم بالحجـة البينـة. كـرروا طلـب خـوارق للعادة مدعين أنهم بذلك يتيقنون أن محمدا ﷺ مرسـل مـن ربـه. طلبـوا أن يحيـي لهـم آباءهم، أو أن يحول أرض مكة إلى سـهول كسـهول الشـام صـالحة للزراعـة، ونحـو ذلك من المقترحات التي هي في الحقيقـة قلـب للأوضـاع ونقـض للمنطـق السـليم. ان الله لما بعث رسوله أيده بالمعجزات التي تبقـى مـع الـزمن ولا تنحصـر فـي بيئـة ولا زمن معيَّن. والله في عزته وجلالـه يؤيـد رسـوله بمـا يحصـل بـه اليقـين بصـدقه. وتعالى أن ينتظر ما يقترحه المعرضون عنه ليلبِّـي مـا يطلبـون. ومـن ناحيـة أخـرى فإن الإيمان أو الضلال غير مـرتبطين بـالمعجزات، كمـا قـال تعـالى : "لقـالوا إنمـا سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون"[1] ولكن حصـول أحـدهما تـابع للتقـدير، فمـن شاء أن يضله منع عنه ألطافه، فيقوم على عقله وبصـيرته حجـاب يصـده عـن اتبـاع الحق. ومن شاء له الهداية أسعفه بألطافـه فينفـتح قلبـه وعقلـه وروحـه فيسـرع إلـى ربه. ويعود إلى هدايته يستلهم منها ما يزيده ضياء في يقينه ورشدا في سلوكه .

29- الذين آمنوا وعملوا الصالحات....وحسن مآب.

في مقابلة المشركين الذين ضغطت علـيهم الشـكوك وأخـذوا يقترحـون الآيـات المبـددة لحيرتهم، ينوه القرآن بالذين آمنوا وتتابعـت علـى عقـولهم الآيـات فأكسـبتهم طمأنينـة وسكونا، وأكدت يقينهم صارفة وسـاوس الشـياطين. كـان هـذا الحاصـل نابعـا مـن دراسة القرآن والتأمل في مضامينه والأنس بأسلوبه العـالي؛ نعـم تكتسـب القلـوب فعـلا برد اليقـين بمخالطـة القـرآن. فتسـتجيب النوايـا والأفعـال لهديـه وتـتمحض للعمـل الصالح الذي يطبق ما نزل عليهم صـورة وضـمونا. وتعلـن النتيجـة مصـرحة بـأنهم نالوا الخير الكامل الذي ارتبط بهـم (طـوبى لهـم) وعـاقبتهم العاقبـة الحسـنة التـي ترضيهم، وليس فوق الرضا منزلة.

---

[1] سورة الحجر آية 45

30- كذلك أرسلناك في أمة قد خلت ....واليه متاب.

على هذا النحو أرسلناك إلى أمة الدعوة الشاملة للبشرية في عصره وما يتلوه من الأعصار. وإنك لست بدعا من الرسل فقد أرسلنا قبلك رسلا مضوا في التاريخ. إنك مكلف بأن تتلو عليهم القرآن الذي أوحيناه إليك، والذي هو حجتك الدائمة ومعجزتك العابرة للزمن. والذي بلغ من الوضوح والبيان أقصى غايات البيان. ومع ذلك يواصل المشركون الكفر بالله الذي رحمهم برسالتك.

و من شغب المشركين قولهم: إن محمدا يدعو إلى التوحيد وفي الآن نفسه يدعو لعبادة الله ولعبادة الرحمن. يرد القرآن عليهم، ويلقن الله نبيه ما يفضحهم ويرد شغبهم، قل لهم: هو الرحمن ربي الذي تولاني بألطافه وهو واحد لا إله إلا هو، فالله هو الرحمن، لا أعتمد إلا عليه. وإليه وحده أتوب، فهو الذي يقبل توبتي.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

قطعت به الأرض : ضاقت مسافات الأسفار.

الأمر : التصرف الذي به تتكون الأشياء.

ييأس : يوقن ويعلم .

القارعة : الرزية المباغتة التي تقرع قلب صاحبها لفظاعتها.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا القرآن هو أسمى الكتب المنزلة من الله، وهو جار على سنة الكتب السابقة في تضمنها لوحي الله، الذي من شأنه هداية الناس للحق. ولو كان كتاب من الكتب تحولت به الجبال من أماكنها أو قربت به المسافات أو قام به الموتى من أجداثهم فتكلموا لكان هذا القرآن أولى بذلك، لكن هذا ليس من مهمة الكتب المنزلة. بل إن المتصرف في الكون هو الله وحده. فليبق المؤمنون على يقينهم أن الله لو أراد أن يهدي بالقرآن جميع الناس في قسرهم على الإيمان لفعل. ولكن إرادته تعلقت بأن يكون البشر مكلفين يسعدون باختيارهم طريق الهدى، أو يشقوْنَ باختيارهم طريق الضلالة.

ستتواصل على المشركين الكوارث بسبب كفرهم وصدهم عن طريق الله، أو تزعجهم بحلولها قريبا من مكان إقامتهم، وسيتواصل هذا الانزعاج حتى يأتي وعد الله بالقضاء على الشرك. إن الله إذا وعد فوعده آت لا ريب فيه.

بيان المعنى العام :

31- ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ....إن الله لا يخلف الميعاد.

أعلن القرآن في الآية السابقة أن على البشر أن يخضعوا لما يأتيهم من ربهم، وإنه من قلب الأوضاع أن يتحول العبيد إلى مقترحين للأدلة المادية التي ربطوا بها الإيمان. وتؤكد هذه الآية ذلك المعنى إذ تتضمن: أنه لو وجد قرآن يسير الجبال فيحولها من أمكنتها، ويحولها إلى سهول تتسع للزراعة والرعي. أو يؤثر في المسافات فيختصرها ويقرب الأبعاد. أو يحيي الموتى فيكلمون أخلافهم. لكان هذا القرآن محققا لذلك. لكن ذلك ليس من مهمات الكتب المنزلة على الرسل. فإن التصرف في الكون قام على سنن ضبطها رب العالمين وأجرى عليها سير الكون، ولا تتحول أي سنة من تلك السنن إلا بتحويله سبحانه .

فليطمئن المؤمنون لإيمانهم. ثم استفهم القرآن استفهاما إنكاريا لانتفاء يقين الذين آمنوا: أي إن يقينهم ثابت لم يتزعزع، إن الله قادر على هداية الناس جميعا بأن يقسرهم على الإيمان. ولكنه تعالى لم يرد أن يكون الإيمان قسريا. لأنه مخالف لما قدره من التكليف الذي لا يتحقق إلا مع الاختيار. وبالاختيار يتفاضل البشر فيكون منهم الشقي والسعيد. فكلمة ييأس مع أن مستعملة استعمالا اشتهر حتى أصبح سابقا إلى الأذهان في معنى اليقين. والاستفهام الإنكاري الداخل على النفي يحصل منه الثبوت بطريقة مؤكدة. إنكار عدم يقين المؤمنين، يساوي يقينهم يقينا قويا.

سيستمر الخوف في قلوب المشركين، فكلما خرجوا من مصيبة حلت بهم مصيبة أخرى، أو تحل قريبا من دار قرارهم، فينزعجون لها ويتعمق خوفهم، والمصائب متنوعة تزيل عن المشركين الطمأنينة، كالقحط والأمراض والإحساس بفقدان الأمن والمناعة. وسيستمر الأمر بهم على هذا النحو إلى أن يأتي وعد الله بنصر المؤمنين نصرا يقلع دابر الشرك ويعلي كلمة التوحيد. إن الله إذا وعد فإن تحقق وعده مؤكد ولا يخلف ميعادُه، إذ هو القادر المتصرف في الكون كله.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ
﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌۢ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ

تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاستهزاء : مبالغة في الهزء والسخرية.

الإملاء: الإمهال.

قائم: رقيب بما يشمل الحفظ والعلم الدقيق.

مكرهم : إخفاء وسائل الضر.

الواقي : الحائل دون بلوغ الضر.

مثل : صفة . كقوله تعالى وله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى.

أكلها : ما يؤكل فيها.

العقبى : حال تتلو أخرى قبلها.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلي الله نبيه بأن ما يطلبه المشركون من الآيات، هم يعلمون أن الرسول لا يجيبهم إليها، ولكن طلبوها استهزاء به وطعنا في نبوته، يسليه بأن هذا أمر جرى عليه الكافرون مع المرسلين السابقين، وأن الله يمهلهم ثم يسلط عليهم عذابه السريع الماحق، فاعجبوا من قوة أخذه .

وبعد أن تجلى الأمر بقوله تعالى: وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب، كشف القرآن عن تنكرهم ومخالفتهم لما هو بديهي فسألهم منكرا عليهم: أتشركون بالله الذي يطلع على ما يجري في كل نفس من خير أو شر ويجازي عنه، وهو الذي خلقها ويسر لها بقاءها ورزقها، تشركون به أصناما جامدة لا تضر ولا تنفع ؟ قل لهم يا محمد سموهم شركاء فالتسمية لا تخرجهم عن حقيقتهم .

أم أنتم تريدون إنباء الله بما لا يعلم له سبحانه وجودا في الأرض، وهو العليم بكل صغيرة وكبيرة، فعدم علمه سبحانه بهؤلاء الشركاء ينفي وجودهم؛ أم تريدون إثبات

الشركاء بظاهر كلامكم المنافي للحقيقة، والظواهر غير مثبتة. ولكن السر الخفي أن رؤساء المشركين قد ضللوا أتباعهم ليتمكنوا من قيادتهم والتسلط عليهم.

وبذلك استحق التابعون والمتبوعون أن ينزل عليهم العذاب في الحياة الدنيا ذلة وهزيمة وقلقا، وسيكون عذابهم في اليوم الآخر أعظم مشقة مع يأس من وجود أي وقاية تحميهم من عذاب الله.

إن الصورة التقريبية للجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، أن الأنهار الجارية الصافية تتخللها، وأن ثمارها لا تنقطع، كلما تناول منها المنعَّمُ شيئا خلفه في الحال غيره، وأن ظلالها غير متقطعة. تلكم الجنات هي عاقبة المتقين . وفي المقابل فإن عاقبة الكافرين النار.

بيان المعنى العام:

32- ولقد استهزئ برسل من قبلك ....فكيف كان عقاب.

هذا أمر محقق، حاصله أن الرسل السابقين لما قاموا بتبليغ ما أنزل إليهم قابلهم المشركون بالسخرية والاستهزاء، جرى هذا مع نوح ومن جاء بعده .قال تعالى في نوح: **كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه**، ومع موسى لما قارن فرعون نفسه به فقال: **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين**. فأراد الله أن يسلي نبيه ويثبته حتى لا يتأثر بما يقوم به المشركون من إيرادات لا يقصدون تحقيقها، لكن يرمون إلى الاستهزاء به بإظهار عجزه عن تلبية مطالبهم.

والله مع رسله يؤيدهم، فيمهل الكافرين ولا يعجل لهم بالعقوبة، ثم يستأصلهم فيأخذهم أخذا سريعا لا ينفلتون منه، ودعا كل سامع لاستحضار عذابه ليتعجب من شدته وإحاطته.

33-أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ...و من يضلل الله فما له من هاد.

كان الجواب الذي أمر رسول الله ﷺ أن يواجه به المشركين قاطعا، في الآية السابقة: **وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب**.

المتضمن شقين تسجيل كفرهم، وتسجيل ما استقر في قلب رسول الله من الحقيقة: أن ربي هو الذي تتابعت عنايته بي، بما تفيده كلمة ربي من الرعاية والعناية والألطاف، وأنه واحد لا شريك له، وأن تعلقه به هو تعلق يصاحبه في نشاطه، ولا ينفك عن العودة إليه. ومن آثار ذلك ما تلقاه من القرآن ومن الوحي الهادي إلى سواء السبيل.

وأتبع القرآن هذا بإظهار فساد تفكير المشركين، وذلك بإيقاظهم بسؤال مرتب على الجواب القاطع السابق، بالمقارنة بين[رب محمد المطلع على كل كبيرة وصغيرة

العالم بما يجري في نفس الإنسان، مشاعره وإراداته ومقاصده، يتولاه بالحفظ ويمده بالإمدادات المتنوعة الحافظة لكيانه النفسي والجسمي والروحي. وهو الخالق الرازق، الشامل قيامه على الإنسان في دنياه بما ييسره له من عون وألطاف، وفي آخرته بجزائه عما قام به؛ ولا يخرج عن علمه شيء من ذلك، فهو الرب العادل يبشر بقوله: (القائم على النفس بما كسبت) الصالحين بحسن الثواب، ويهدد ويوعد الضالين بما هم أهل له من سوء العقاب] وبين أصنامهم ومعبوداتهم العاجزة عن رعاية نفسها فضلا عن حماية من يلوذ بها. وهذه المقارنة تظهر سفه عقولهم باتخاذهم شركاء لله في ألوهيته، قل لهم :سموهم آلهة فإنه ليس لهم من الكمال والقدرة والخلق أي شيء، ليس لهم إلا تسميتكم لهم آلهة، تسمية لا حقيقة لها. وما كانت الأسماء موجدة لما لا وجود له في الواقع. أم تقصدون إلى إنباء الله بوجود شركاء، والله المحيط علمه بكل ما حوته الأرض، لا يعلم أن له شريكا، وهو ما ينفي وجود الشريك إذ لو كان موجودا لعلمه. كما تقول لآخر: إنك تملك دارا في مكة، فيجيبك لو كنت أملكها لعلمت، مما يفيد نفي التملك.

أم تريدون إثبات الشركاء بقول ظاهره مخالف لمضمونه؛ وإذا كان ظاهر الكلام يناقض مضمونه فذلك أصرح ما يثبت كذبه وبطلانه.

وإنك إذا تعمقت ليتضح لك أسباب اتخاذهم شركاء لله، فإنه يتبين لك أن رؤساءهم زينوا لهم عبادتها والتقرب إليها، ليذهبوا بما عندهم من عزة، فيكون التحكم فيهم سهلا. ولذا تجد أول هدف للمستبدين الحيلولة بين أتباعهم وبين عقيدة التوحيد، فيحرضون على التعطيل وعلى انتشار الخرافة، وعلى التعلق بالمادة والهوى.

وسجل القرآن في النهاية ما بلغوه من الفساد أنهم وقفوا حاجزا بين الناس وإتباع سبيل الهداية والأخذ بالصراط المستقيم.

لقد حرمهم الله ألطافه، وتمسكوا بما يعتقدون أنه يجلب لهم النفع العاجل فضلوا،

34- لهم عذاب في الحياة ....وما لهم من الله من واق.

وإذ بين القرآن عمل الرؤساء على إضلال تابعيهم، وانقياد التابعين للضلالات فأشركوا بالله، والشرك ظلم عظيم، أومأ إلى استحقاقهم سوء الجزاء في قوله تعالى:" ومن يضلل الله فما له من هاد" ثم صرح به في هذه الآية: أن الله خصص لهم عذابا في حياتهم الدنيا من القلق والحيرة والذلة والهزيمة، وذلك العذاب النازل بهم هو عذاب هين بالنسبة لما يترصدهم من عذاب الآخرة. ولا يجدون واقيا يقيهم منه فيجمع لهم اليأس والنكال.

35- مثل الجنة التي وعد المتقون ...وعقبى الكافرين النار.

أمور الآخرة من نعيم أو عذاب نمط غير ما نعلمه في الدنيا، ولكن القرآن قرب إلينا حسب مداركنا ما يلقاه البشر يوم القيامة ليحرض الصالحين على مواصلة تقوى الله والعمل بما يرضيه، وليهدد الكفرة حتى يقلعوا عن فسادهم.

و هذه الآية أتت على تلكم الطريقة، فمثل الجنة التي وعدها الله المتقين ووصفها: أنها تتخللها الأنهار الصافية الجارية، وإنتاجها غير منقطع على خلاف ما عليه الإثمار في الدنيا، إذ كل ثمرة تقطف لا يخلفها إلا بطن آخر عند أمده. وأشجارها كثيفة ملتفة فتكون ظلالها متصلة، وهو عزيز وجوده في الدنيا، وأتم ما تكون عليه الجنات، إذ لا تكون على مساحات كبيرة.

وإذ تهيأت الصورة وقُرّبت لاستحضارها، تؤكد الآية أن هذه الجنة، هي العاقبة التي سيكون إليها مآل المتقين. وفي المقابل فإن عاقبة الكافرين نار جهنم بما تجمعه من عذاب جسمي ونفسي، أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأحزاب : جمع حزب، جماعة فيها غلط وتعصب.

مآبي : رجوعي.

حكما : ما تضمنه القرآن من الحكمة والمعاني.

الولي : النصير.

الواقي : المدافع الحافظ.

الذرية : النسل.

أجل : وقت محدد.

كتاب : مكتوب مضبوط موثق.

يمحو : المحو الإزالة، وتطلق على التغيير والتبديل.
التثبيت : ضد المحو.
أم الكتاب : أصل الكتاب، العلم الإلهي بالنهايات.

بيان المعنى الإجمالي :

اختلف تأثير القرآن في أصحاب الكتاب اليهود والنصارى، فبعضهم فرح بما أنزله الله عليك، هذا الحق الذي نفى التغييرات التي حرفت الديانتين فابتعدت بهما عن المنهج الذي جاء به موسى وعيسى فاطمأنوا. وبعضهم تعصب وكون كتلة رفضت الحق الذي جئت به. قل لهؤلاء: لم يأمرني ربي إلا بتركيز الأصل الذي يقوم عليه الدين وهو تخصيص الله بالعبادة، فأنا لا أدعو إلا إلى الإخلاص له سبحانه، وإني أعود إليه دائما.

و على هذا النحو من الإنزال أنزلنا عليك القرآن حالة كونه جامعا لمنهج الحكمة ولأصولها، وحالة كونه بلسان عربي، لما في هذه اللغة من مزايا، بها جمعت بين الثبات والتطور. واحذر أن تستجيب لمقترحاتهم الصادرة عن هواهم فتطلب مني أن أؤيدك بما يطلبونه من الآيات، إن الأمر خطير تفقد به النصير والحامي. وهو في الآن نفسه تحذير للمؤمنين: أيها المؤمنون احذروا أن يستنزلكم الكافرون لتتراخى مقاومتكم لما يدعونكم إليه من هواهم، فإن من يتراخى فيتبعهم لا يجد نصيرا ولا حاميا من دون الله.

و من شغب المشركين في مقاومتهم للدعوة أن اعترضوا على كون محمد مرسلا من ربه، لأنه تزوج ولأنه أنجب. فرد الله عليهم بأنه قد تتابعت رسل الله للبشرية في التاريخ، وأنهم كوّنوا أسرا فتزوجوا وأنجبوا، فأنت لست بدعا من الرسل. وإذا كان عيسى لم يتزوج ويحيى كان فاقد الرغبة في الاتصال بالنساء فذلك استثناء وليس القاعدة.

عود إلى رد ما اقترحوه من الآيات، فأثبتت الآية أن كل رسول يقدم المعجزة التي تأيد بها من الله ولا يستطيع أن يأتي بغيرها. وإظهار أي معجزة إنما يتم في الأجل المقدر سابقا بالخصوصيات الذي أرادها الله. وعلى هذا النحو تجري جميع المظاهر في الكون؛ فالله يتصرف بحكمته فيثبت ما شاء تثبيته ويمحو ويزيل ما يشاء إزالته، فعلم البشر أو الحفظة لا يبلغ النهايات التي هي بيد الله وحده وتحت تصرفه. وهذه النهاية هي محفوظة في أم الكتاب الذي هو علمه الأزلي.

بيان المعنى العام :

36- والذين آتيناهم الكتاب ....وإليه مآب.

دعا النبي ﷺ البشر جميعا إلى الدين الذي أوحاه الله إليه، فـآمن بـه مـن المشـركين مـن يسر الله له الاهتداء، وقد وضحت أمرهم الآيـات السـابقة؛ وواصـل بعـض المشـركين ما هم عليه، وقد ناقشتهم الآيات السابقة وهددتهم.

و دعا أهل الكتاب، فمنهم من آمن به ووجد فـي نفسـه انشـراحا، بعـد مـا كـان يلفهـا القلق من التغييرات التي أدخلها رجال الدين على صـفاء العقيـدة بعـد نزولهـا. فوجـدوا فيما أنزل على رسول الله ﷺ ما خلّص العقيـدة مـن التراكمـات التـي أبعـدت اليهوديـة والنصرانية عن وضوح الوحدانية. وبعض أهـل الكتـاب تعصـبوا للصـورة التـي هـم عليها كاعتقاد النصارى أن عيسـى عليه السلام ابـن لله، واعتقـاد اليهـود أنـه كـاذب ولـيس رسولا، وتمسكهم بما ورد في التوراة من تجسيم لله.

قل لهم يا محمد قولا واضحا يكشف عن منهجك ويبين العقيـدة التـي تـدعو إليهـا: إنـي لم أؤمر إلا بشيء أصلي هو قـوام دعـوتي، أن أفـرد الله بالعبـادة، وأنفـي أن يكـون له شريك لا في ذاته ولا في ملكه ولا في تصـرفه، إليـه وحـده أدعـو البشـر جميعـا للإيمان به ولتطبيق ما ورد في كتابـه، وإليـه أرجـع فـي كـل أمـر وملمـة أسـتغيثه لينصرني ويثبتني.

37- وكذلك أنزلناه حكما عربيا....من ولي ولا واق.

إنه على هذا النحو من العناية فـي الإنـزال، أنزلنـا القـرآن حالـة كونـه متضـمنا أولا للحكمة، ترتقي به عقول الناظرين فيه، ويعطيهم منهجـا فـي الفكـر يمكـنهم مـن إدراك الحقائق والفهم الصحيح العميق لما يعترضهم فـي حيـاتهم. وثانيـا عربيـا فـي لسـانه، هذه اللغة التي بفضـل خصائصـها الذاتيـة ومرونتهـا اسـتطاعت أن تتحمـل كـلام الله وأن تبلغه للناس، وأن تبقى قدراتها البيانية مع الـزمن. وفيـه إيمـاء إلـى المشـركين أن الله أعزهم لما اختار العربية لغة لقرآنه، فكـان مـن واجـبهم أن يسـرعوا إلـى الإيمـان به ونصرة نبيه." لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون"[1] .

وتختم الآية بتحذير المؤمنين على أبلغ وجه من التساهل في الثوابت مع المشركين، لتقريبهم من الإسلام، فإنهم يكيدون لهذا الدين، ويقدمون طلبات يعلقون عليها دخولهم في الدين، ويوهمون المسلمين أنهم إذا تنازلوا فقبلوها ستتوحد الكلمة ويقوى الدين بذلك. وما يعرضون إلا أهواء نابعة من الباطل وسائرة مع الضلال، بعيدة عن الحق. وللتحذير التحذير البالغ

---

[1] سورة الأنبياء آية 10

أسند الاتباع إلى رسول الله المعصوم، ليظهر القرآن أنه إذا كان الرسول على جلالة قدره ومكانته لا يغفر له اتباع أهوائهم فكيف بغيره.

وحمله بعضهم على أن الخطاب مقصود به النبي ﷺ قصدا أوليا، حتى لا ينساق إلى طلب ما اقترحوه من الآيات. اعلم يا محمد أنك، لشدة حرصك على انتشار الإيمان، لو اتبعت مطالبهم النابعة من الهوى، فتوجهت بالطلب من الله أن ينزل عليهم الآيات التي اقترحوها، فإنك لا تجد نصيرا ينصرك ولا من يقيك من عاقبة دخولك في ذلك الأمر. وينسحب المفهوم على المؤمنين حتى لا تتراخى عزائمهم في مواجهة الكفر الذي لا يضمر للإسلام إلا الشر.

38←39: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك....وعنده أم الكتاب.

كانت المعركة مع الشرك معركة شرسة، يعملون بكل وسيلة على تشكيك الناس في صدق الرسالة، ويحاولون أن يختلقوا أشياء موهومة ليؤثروا بها على الدهماء. فكان مما اعترضوا به: أن النبي ﷺ كون أسرة فله زوجة هي أولا: أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، وأنجب منها. وقالوا إن مقام النبوة يتنافى مع تكوين الأسرة. فرد الله عليهم بأن ما قدموه هو كلام فاقد لكل أصل، ولكل منطق. إذ أن سنة الله في بعثة الرسل: أنه يأذن لهم في الزواج وينجبون، وإن المعترضين عربا ويهودا ونصارى ينتسبون إلى إبراهيم. ولولا أن إبراهيم تزوج أكثر من امرأة وأنجب لما كان لهم وجود ولا لبني إسرائيل، وما عيسى إلا واحد من ذريته عليه السلام.

ثم رد القرآن على اقتراحهم الإتيان بآية حسب مقاييسهم؛ إن سنة الله أيضا في الرسل أنهم يقدمون معجزاتهم التي أيدهم الله بها، ولا يستطيعون أن يتأيدوا إلا بما قدره الله من خصوصية الآية التي عينها وأنجزها، هذه الآية التي يظهرها الرسول تبعا للإذن الإلهي له، ويعرضها على البشر ليثقوا في صدقه ويتبعوه.

ثم أظهر القرآن قاعدة من قواعد التصرف الإلهي في الكائنات سواء أكان إظهار المعجزة المؤيدة أو ظهور أي أثر في الوجود: حاصل ذلك أن لكل حادث أجل مضبوط لا يتقدم عنه ولا يتأخر، قد وثق توثيقا لا يتصرف فيه بإظهاره أو إزالته إلا الله سبحانه. ثم فصل هذه القاعدة: أن الله يمحو ويزيل ما شاء إزالته، ويثبت ويبقي ما شاء إبقاءه. على معنى أن ما يحدث من الحوادث تبعا للعلم الإلهي تترتب عنه نتائج، والنتائج مثبتة في علم الله، ثم إن استمرار تلك النتائج أو قطع استمرارها هو أيضا في علم الله وينفذ بقدرته. خذ لذلك مثلا، ينزل الله حكما فيبقى ثابتا إلى الوقت الذي قدر فيه انتهاء العمل به فيمحوه من التشريع، ويعمل المرء

عملا سيئا فتثبت نتائج عصيانه في صحائفه، ثم يهتدي فيستغفر ويفعل الخير فيمحو الله عنه سيئاته، ويعمل الإنسان بعمل أهل النار عقيدة أو سلوكا، فيكون ما يعلمه الملائكة والحفظة أنه من أهل النار، ثم يهتدي ويتوب ويصلح ما أفسد فيكتب أنه من أهل السعادة. وكذلك العكس. ولا تغير في علمه سبحانه، وإنما يظهر أثر علمه في الأجل الذي حدده مسبقا. وهذا ينسحب على جميع الظواهر الكونية والتشريعية. فقوله ما يشاء عام عموما واسعا لا يستطيع أحد حصره ولا الإتيان على مضامينه.

وعنده سبحانه، مخزون في علمه ما سيثبته وما سيغيره في آجاله، وهي النهايات التي لكل ظاهرة، وذلك لا يقبل التبديل ولا التغيير بل ينفذ حسبما هو مثبت في أم الكتاب يختص الله به ولا يطلع عليه أحدا، والذي هو على أفضل التفاسير: علم الله الأزلي بما سيتغير وما يثبت في النهاية.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا معقب : لا راد ولا مناقض

بيان المعنى الإجمالي :

تضمنت الآية وعدا لنبيه بأن الله ناصره ووعيدا للمشركين: أنه سيهزمهم. وأن الله سيقر عينك ببعض الانتصارات، وذلك تحت مظلة قوله تعالى **لكل أجل كتاب**، فما لم يتحقق من الانتصارات في حياتك فذلك لا يزعجك ولا يسبب لك أسفا، لأن مهمتك هي إبلاغ الوحي، أما حساب الكافرين حسابا يكون جزاء عن كفرهم فذلك مما اختص به الله ينفذه حسبما قدره.

و العجب من المشركين أنهم يرون بأعينهم أن الخناق يضيق عليهم، وأن ما حولهم من سكان الأراضي يدخلون في الإسلام ويتخلون عن الشرك. إن الله قد حكم بنصر

دينه، وخذلان الشرك، وما حكم به الله لا يوجد من يستطيع نقضه، وتنفيذه سيكون سريعا في الأجل الذي قدره لا تردد فيه.

وتلك هي الطريقة التي جرى عليها الكفرة من الأمم التي مضت، عندما يطبق عليهم العناد، أنهم يلجؤون إلى المكر والتدبير الخبيث لصرف الناس عن الهدى. إن مكرهم سيحبطه الله ويظهر الحق، سينقلب مكرهم عليهم بقدرة الله التي لا تغلب؛ من شأن الماكرين أنهم يحبكون دسائسهم في خفية حتى لا يتيقظ لها من أرادوا إضراره، والله مطلع على سرائرهم، عليم بمكرهم، سيحاسبهم عليه وسينكشف لهم في النهاية من يفوز بالعاقبة الحسنة، سيتأكدون من خسرانهم، وسوف يعلمون ويشاهدون عاقبة المؤمنين في الدار الآخرة.

ومن مكرهم أنهم يضللون الدهماء بادعائهم أنهم لم يؤمنوا بمحمد لأنهم تأملوا فوجدوه ليس رسولا، ولو ثبتت رسالته لاتبعوه. وفي الحقيقة إن الذي أضلهم هو العناد وعدم التأمل في معجزاته. ويرد عليهم القرآن ردا قاطعا فيأمر الرسول أن يقول لهم: يكفيني الله الذي يشهد لي بصدقي، فإنه من كذب على الله لا بد أن يفتضح ويخيب، كما يشهد سبحانه بفجوركم وضلالكم وتمردكم على الحق. كما أنه يشهد لي العلماء الراسخون الذين درسوا الكتب السماوية السابقة ووجدوا فيها نعتي وبالتالي صدق رسالتي.

بيان المعنى العام :

40- وإن ما نرينك ...و علينا الحساب.

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: لكل أجل كتاب فتثبت أن ما وعد الله به نبيه من النصر والتأييد وما أوعد به المشركين من الهزيمة والعذاب آت لا محالة. ولكن الأمد الذي سينفذ فيه الوعد أو الوعيد هو في علم الله لا يتقدم عن أجله ولا يتأخر عنه كما تقتضيه الآية **لكل أجل كتاب**. إن الله يقر عينك بتحقق بعض ما أوعد الله به المشركين فتشاهد بعضا من هزائمهم في الحرب، وسيحرمهم الله من ألطافه مما يعرضهم إلى أنواع من النكبات في أموالهم وفي أبدانهم، وسينفذ البعض الآخر من الوعيد بعدك، فلا تأس. ذلك أن مجال مهمتك الشريفة التي تتحملها هي إبلاغ ما أو حيناه إليك وقد قمت بذلك، وأما عقابهم على جميع ما قدموا وحسابهم الحساب الشديد على كفرهم وسوء فعالهم فهو لله ينفذه متى شاء كما يشاء.

42- لقد حجب العناد عن أبصارهم ما هو مشاهد حاضر أمام أعينهم، فسألهم سؤال إنكار ليوقظهم مما ران عليهم من الغفلة عن إدراك الواقع والاعتبار به. ألم يروا ما أيد الله به الإسلام الذي أخذ ينتشر ويضيق الخناق كل يوم عليهم، وتخرج مساحات من الأرض من سلطانهم وتنضم إلى ساحة الإسلام ؛ مما ينبئ من له

بصيرة أن ما حل بجيرانهم سينتهي إليهم، وأن الإسلام سينتصر وتكون له وحده الكلمة. بهذا حكم الله، وحكمه ثابت لا يقبل النقض ولا تستطيع أية قوة الاعتراض عليه أو التدخل لتحويله أو الشفاعة فيه. وأن حساب رب العزة سريع، فإمهالهم إنما هو لأجل قريب جدا إذا قيس بعمر الكون. وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون.

42-وقد مكر الذين من قبلهم...لمن عقبى الدار.

منهج الكفر لما انفصل عن الحق واعتمد الهوى، منهج واحد لا يختلف فيه وضع من مضى عن وضع المشركين من العرب. مضت أمم قابلوا دعوات المرسلين بالتصدي لهم بأنواع من الحيل والكذب والمراوغة، قاوموهم فدبروا الاعتداء عليهم وعلى أتباعهم جسميا ونفسيا. إن مكرهم ضعيف محدود، هددهم القرآن بأن المكر المحيط بهم الذي لا يجدون منه فكاكا، هو المآل الذي قدره لهم حسب ما تكنه أنفسهم، إن ما يجري في بواطنهم من مكر يظهرونه تارة ويخفونه تارة أخرى لا يغيب منه شيء عن الله فهو مطلع عليه، وسيجزيهم به جزاء وفاقا. وعندها يعلم الكافرون علم اليقين من يفوز في الدار الآخرة، بمعنى أنهم سيتحققون أن الخسران سيحل بهم، وأن السلامة والكرامة للمؤمنين يوم القيامة.

43 -ويقول الذين كفروا ....علم الكتاب.

من مكر المشركين الذي ألحقهم بمن قبلهم من الضالين في الآية السابقة وهددهم بسببه، ما دلت عليه هذه الآية التي تتضمن أن المشركين يزعمون أنك لست رسولا من عند الله، على معنى أنهم لو تحققوا أنك مرسل من عند الله لآمنوا بك. وهم يقصدون إلى التأثير على الدهماء حتى لا يتبعوا ما أنزل إليك، وإن كانوا في باطن الأمر هم أعرضوا عن التدبر في القرآن وعن النظر فيما جئت به من الحكمة والآيات البينات الشاهدة بصدقك، إن العناد قد حجب بصائرهم عن الهدى، وما تخفي صدورهم أكبر. ولذلك تولى القرآن إجابتهم فأمر النبي ﷺ أن يقول لهم :يكفيني الله الذي لا تخفى عليه خافية، الذي لا يهمل من تجرأ وكذب عليه، كما لا يهمل من رفض الحق وعمل على سيادة الباطل، يكفيني سبحانه أن يكون شاهدا بيني وبينكم. ومع شهادة الله شهادة من تعمق فيما أنزله الله من الكتب السابقة، وعلم محتواها، وما تشير إليه وما بشرت به من رسالتي، هؤلاء العلماء الذين كنتم تعودون إليهم لمعرفة أسرار الكتب المنزلة، وتستنبئونهم عن مضامينها؛ واليوم لما

شهدوا بما علموا كـذبتموهم وكفـرتم، فشـهادتهم فضـحت سـرائركم وتشـويهكم للحـق النازل من عند الله على لساني.

وفي ختام السورة تنويه بالعلم والعلماء الصـادقين. فالرتبـة التـي أحلهـم القـرآن إياهـا قد سـمت إلـى مسـتوى أن الرسـول تأيـد بشـهادتهم. وفيـه إشـارة ذكيـة للمـؤمنين المتمسكين بالحق ليعتمدوا على ما يرشدهم إليه العلماء ويخبرونهم به.

سـورة إبراهيـم

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف. وأجمع المفسرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسم. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. عدت رتبتها في النزول السبعين. نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإذن : الأمر بفعل يتوقف على رضا الآمر.

الويل :الهلاك وما يتصل به من موجباته من شدة وبلاء.

يستحبون : يحبون حبا شديدا، يقصد منه أنهم يؤثرون.

يصدون عن سبيل الله : منع الداخلين في الإسلام.

ضلال بعيد : تعمقوا فيه تعمقا لا مطمع في خروجهم منه.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه الله بما جمعه في القرآن من مزايا، فهو منزل من العالم العلوي لا دخل للرسول في كلمة ولا آية ولا سورة منه، وأنه وكّل نبيه الذي انتخبه من بين البشر لتبليغه وبيانه. وأن الغاية المقصودة من إنزاله، هي إخراج الناس من الظلمات التي كانت مطبقة عليهم من الشرك ومن الحيرة في المبدأ والمصير، وفي نظام العلاقات الأسرية والاجتماعية، ومع الكون، إخراجهم إلى طريق بين واضح هو منهج الله العزيز الذي لا يغلبه شيء، المتفرد بالحكمة البالغة، فكان صراطه الذي بينه صالحا لكل زمان ولكل مكان وللبشرية جميعها على اختلاف مستوياتها الفكرية وبيئاتها.

والهلاك للكافرين الذين سيحل بهم من العذاب الشديد. إن هذا العذاب هو جزاء ما اختاروه لأنفسهم من إيثار الحياة الدنيا وتقديم مغرياتها على الفوز في الحياة

الآخرة. هم يجتهدون لمنع الراغبين في الإسلام بما يقدرون عليه من تضليل وتأثير. إنهم يعادون الطريق المستقيم طريق الله، ويعملون على أن تسير حياتهم الخاصة والحياة بصفة عامة على اتباع الشهوات والأنانية والبغي. لقد تمكن الضلال من قلوبهم وعقولهم.

بيان المعنى العام :

1←2:الر كتاب أنزلناه إليك ....للكافرين عذاب شديد.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي سبق ما يتعلق بها في أول سورة البقرة. وأتبعت بالتنويه بالقرآن بذكر بعض من خصائصه:

1) هذا كتاب، ضبطت ألفاظه وحروفه ووثّقت. فكان النبي ﷺ كلما نزل عليه شيء من القرآن دعا كتبة الوحي وأمرهم بتوثيق ما أنزل عليه كتابة، فاجتمع لتحقق سلامته من التغيير أمران: الحفظ في الصدور، والكتابة. وهو ما لم يتوفر لأي كتاب منزل قبله، فتعرضت للتغيير والتبديل، وسلم القرآن. ذلك أن الله أراد أن يكون القرآن الخاتم لوحيه والحافظ له، المخاطب به البشرية إلى يوم الدين.

2) أنزلناه: هو وارد من العالم العلوي، وليس للرسول ولا لغيره أي أثر في نصه. وأن المنزّل له هو المتفرد بالعظمة (نا) نحن.

3)إليك: للإشارة من أول الأمر على أن النبي ﷺ هو الذي يتولى بيانه والصورة العملية لهداه. ولذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

4) تحديد الهدف من إنزاله: إخراج الناس من الظلمات إلى النور. ذلك أن القرآن قد ساعد الإنسان على الخروج من ظلمات الجهل وما يصحبه من حيرة وتخبط، بما ركزه من عقيدة التوحيد، والكشف عن المبدأ والمصير، وتوحيد التشريع المنظم للحياة في جميع شعبها. فحدد موقع الإنسان في الكون، وصلته بخالقه وبالبشر وبالكون جميعا، وكشف له عن مصيره بعد موته. وهذه كلها أسئلة محيرة تاه فيها العقل البشري، وانتهى إما إلى تصورات خيالية لا سند لها، وإما إلى الاعتراف بالحيرة والغموض. وقام القرآن بإخراج الناس من تلكم الظلمات إلى الرؤية الواضحة المنسجمة، وسما الإنسان لما اختلط بالقرآن، فأشع في عقله ومشاعره نورا يبدد الغموض، ويعطيه منهجا متناسقا.

3-الذين يستحبون الحياة الدنيا ...في ضلال بعيد.

إن الصراط المنوه به هو صراط الله المالك لما حوته السماوات، ولما هو في باطن الأرض ولما هو على ظهرها. وإن من يتأمل في القوانين التي أحكمت مسارها

والعلاقات فيما بينها، ليقتنع بأن الصراط الذي هدى إليه عباده هو الصراط الذي يضمن لهم السعادة في الدارين. إذ هو صراط العليم الذي شمل علمه كل شيء. الحكيم الذي ظهرت حكمته في بناء الكون. قد قصرت المعارف البشرية أن تدرك أي جزئية في هذا الكون وفي الإنسان إدراكا تتضح به كل الجوانب الظاهرة والخفية. وكلما تقدم العلم البشري تأكد الاقتناع بقوله تعالى: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا. العلم المبني على الحكمة والنظام لا على الصدفة والفوضى.

إنه إذا كان صراط الله على الحال الذي وصفناه، فإن الكافرين الذين رفضوا إتباعه أحقاء بأن يسلط عليهم ما يهلكهم، أو أن يسلط عليهم الدعاء بذلك. وفسرت الآية الويل: بأنه العذاب الشديد الذي يذهب السامع في تصور قوته وإذايته كل مذهب. ثم إن هذا الجزاء أو الدعاء ما كان ليلحقهم إلا لاختلال المعيار في اختيارهم ثم المضي فيما اختاروه. لقد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة إيثارا جعلهم كلما تقابلا يقدمون الحياة الدنيا ومطالبها على الحياة الآخرة ومقتضياتها. ثم إنهم يعملون كل أنواع المكر ليمنعوا من تفتحت عقولهم وقلوبهم للإيمان. هد فهم وطلبهم أن تسير الحياة على منهج مُعْوَجٍّ وطريق غير مستقيم. ذلك أن الكفر يدعو إلى اتباع الشهوات وتحكيم الغريزة، وإيثار الأنانية والمصلحة العاجلة، وهذه لا تتحقق إلا بالمراوغة، وطمس الحقيقة، والحيلة، وعدم التقيد بالقيم الخلقية الرفيعة.

إن الكفار قد انغمسوا في الضلال، وتمكن منهم فساروا في مسالكه إلى أقصى غاية، مما يحول بينهم وبين الخروج منه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللسان : اللغة التي يتم بها التخاطب.

القوم : الأمة والجماعة الذين يتكلمون بلغة واحدة.

أيام الله : هي الأيام التي يسلط فيها عذابه أو ينعم فيها بخيراته.

يسومونكم سوء العذاب : يبغونكم العذاب السيء.

بلاء: اختبار، ويكون بالخير والشر، أكثر ما ورد في الشر.

تأذن : أعلن.

الغني : الذي لا يحتاج إلى شيء.

الحميد : المحمود فعلا حمدتموه أو لم تحمدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

من سنن الله في بعثة الرسل، أن الوحي الذي يتنـزل عليهم فيبلغونه لا يكون إلا بلغة قومهم، ويردفون إلى التبليغ البيان بما يُحَصِّل الاقتناع. ثم إن أقوامهم يفترقون بعد ذلك، فمنهم من يغلق عقله عن التدبر فيما جاء به المرسلون، وبالتالي رفض كل المعجزات، فيحرمهم الله عونه ويغلق عليهم الضلال أبوابه فلا يجدون منه مخرجا.

ومنهم من يقبل على ما جاءه من ربه على لسان رسله بقلوب متفتحة، متأملة في الحق مذعنة له فيفتح الله عليهم من ألطافه ما يثبتهم على الحق. وقدرة الله على التصرف في المخلوقين لا يعوقها شيء لأنه العزيز الذي لا يغلب، وقدرته تسير البشر والعوالم بحكمته الكاملة.

أرسل الله موسى عليه السلام مؤيدا بالمعجزات، كما أرسل محمدا مؤيدا بمعجزة القرآن. وأمره أن يحقق الغاية التي من أجلها بعث، وهي إخراج قومه من ظلمات الكفر والحيرة، إلى نور الإيمان. وأن يثبت الخير في نفوسهم بتذكيرهم، بالأيام التي سلط عليهم فيها بلاءه الذي لم يستطيعوا له ردا، وصبروا عليه فأعقبه الفرج، وبالأيام التي بسط عليهم فيها خيراته ونصرْه، فنطقت به ألسنة الشاكرين معترفين بالفضل. فكان الابتلاء بالخير والشر، في كل منهما آية ودليل على تفرد الله بالتدبير.

واذكر يا محمد الظرف الذي قال فيه موسى لقومه: ياقومي كونوا ذاكرين ولا تنسوا نعمة الله التي تفضل بها عليكم، تلكم النعمة الكبرى يوم أنجاكم من جيوش فرعون التي لحقت بكم تبغي استئصالكم. وقد تنكل بكم فرعون وملؤه، لما كنتم بين أظهرهم. يبغونكم العذاب الجامع بين الإذاية المادية والإهانة. كانوا يقتلون الذكور منكم ويبقون على حياة الإناث للخدمة والاستمتاع؛ وفي ذلكم العذاب والتسلط القاهر

بلاء من ربكم ليختبر صبركم ولترتدعوا عن الكفر الذي أنساكم وصية إبراهيم ويعقوب من التمسك بالإسلام إلى الموت.

واذكر في القرآن الظرف الذي أعلن فيه الله أنه يجزي الشاكرين لنعمه بتواصلها والبركة فيها، والشكر يكون بالإخلاص لله ونسبة الخير إليه وعبادته كما أمر. وصرف النعمة فيما خلقت له. كما أنه يجزي من كفر نعمته بالعذاب الشديد. والكفر يشمل الشرك وكفر النعمة بصرفها في نقيض ما خلقت له.

وقال موسى أيضا لا تمتنُّوا بالطاعة، ولا تظنوا أن المعصية تؤثر في التصرف الإلهي أو تضيره سبحانه .فإنه سبحانه غني عن طاعاتكم، حقيق بأن يحمد على كمالاته وأفضاله.

بيان المعنى العام :

4-وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه...وهو العزيز الحكيم.

هذه قاعدة من قواعد التصرف الإلهي أنبأت بها الآية، وهي أن الله لا يبعث رسولا من رسله إلا وهو يتكلم ويفصح عن مراده ويبلغ الوحي، فيحدث المبعوثَ إليهم باللغة التي يتكلمون بها. لأن مهمته هي بيان ما أوحي له به، ولا يتأتى البيان إذا كانت لغة الوحي ولغة البيان تتم بغير ما يفهمه الناس المبعوث فيهم. وكان من أوهام الكفرة أن لغة الوحي لا تكون إلا باللغة العبرانية أو السريانية، وأن الرسول يترجم ما تلقاه من وحي إلى اللغة التي يفهمها قومه. ومع أن هذا الوهم خطأ، هو مخالف لمنطق الحياة، فالرسل مصلحون وقادة ولا يكون القائد ناجحا إلا إذا كان يحدث قومه بلغتهم. وقد اختار الله اللغة العربية لتحمل الوحي، لما اجتمع فيها من خصائص الدقة، والقدرة على أداء المعاني المشاهدة والغيبية، وما يتعلق بالعقيدة والسلوك والحقوق. وما كانت لغة تساويها أو تقرب منها في ذلك.

ثم إن الرسل بعد تبليغهم الوحي والقيام بتوضيحه قولا وعملا، والاستدلال على مضامينه بما يقنع، تكون الاستجابة مختلفة، فبعض المرسل إليهم يصممون على العناد ورفض ما جاء به المرسلون، ويبذلون جهدهم لمقاومتهم وصد الناس عن اتباعهم، فهؤلاء يتركهم الله لما اختاروه، ولا يسعفهم بألطافه، فيسيرون سادرين في الضلال. وفي المقابل يُسعد الذين فتحوا عقولهم للتأمل في الوحي، وتحركت قلوبهم لاتباعه، يسعدهم بالتأييد للمضي في طريق الهداية الذي اختاروا السير فيه. إن الله هو العزيز الذي لا يغلبه شيء فيمنعه من تنفيذ ما أراده، هذه الإرادة النابعة من الحكمة الكاملة. وحكمة الله هي الحكمة الكاملة الشاملة لكل ما يقضيه وينفذه.

5-ولقد أرسلنا موسى بآياتنا....لكل صبار شكور.

هذه حقيقة مؤكدة أن الله أرسل موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، وأيده بالمعجزات الواضحة، فأمْرُهُ لا يختلف عن أمرك، كلاكما مرسل مؤيد بالأدلة البينة التي يذعن لصدقها من سلمت فطرتهم، وكلاكما خاطب قومه باللغة التي يتحدثون بها، وكلاكما مكلف بإخراج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. لقد امتزج بنو إسرائيل بعد يوسف عليه السلام بسكان مصر، فتأثروا بهم في عقيدتهم وأخلاقهم، ونسوا حظا من شريعة إبراهيم ويعقوب ويوسف، فانقلب تفكيرهم وتصورهم للكون، بمحاكاة المصريين، إلى ضروب من الأوهام، فأمر الله موسى أن يأخذ بأفكارهم وقلوبهم فيخرجهم من ظلمات الباطل والحيرة إلى مستقر الإيمان. وكذلك كان العرب على دين أبيهم إبراهيم ثم توالت عليهم القرون، فتراكم على عقيدة إبراهيم وشريعته من التصورات الجاهلية ما قطع الصلة بينهم وبينه. وبهذا تظهر المناسبة بين الآيات السابقة وهذه الآية.

أمر الله موسى لتستقر شريعته في ذهن بني إسرائيل، أن يذكِّرهم فيبرز إلى الوعي ما سبق أن أنفذه الله فيهم في أزمنة مختلفة من مظاهر قدرته، سواء منها أيام بطشه ليرتدعوا، أو أيام نصره وإعزازه ونشر خيراته.

وبذلك يكون ما يبتلي به الله البشر من الخير أو الشر، يؤدي دوره في إصلاح النفوس وتقويم السلوك، يستفيد من القوارع الصابرون منهم، الواثقون من عدالة ربهم، الراجعون على أنفسهم بالتقويم والتسديد؛ كما يستفيدون من الخير ما يؤكد معرفتهم بفضله، فيزدادون قربا منه واعترافا بفضله، فتنطلق ألسنتهم بالشكر على نعمه.

6-وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله ....بلاء من ربكم عظيم.

أمر الله موسى في الآية السابقة بتذكير قومه بأيام الله، وتبيينًا لما تم من ذلك وردت هذه الآية تقول للنبي ﷺ: واذكر قول موسى لقومه، فماذا قال موسى لقومه ؟: قال لهم يا قومي لا تنسوا وليكن حاضرا في وعيكم النعمة الكبرى التي أنعم الله بها عليكم. يوم بلغ الخوف بكم مبلغه لما نظرتم فوجدتم أن فرعون وجنوده قد لحقوا بكم، وأنتم لا قبل لكم بهم ولا تستطيعون الوقوف أمامهم ولا الدفاع عن أنفسكم كما سجله القرآن:(قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين)[1] - أنجاكم الله من الاستئصال في ذلكم اليوم كما أنجاكم من العذاب

---

[1] سورة الشعراء الآيات 67/61

السيء الذي كان فرعون وملؤه يقصدون بـه إيلامكـم وإهـانتكم. نعـم إن العـذاب كلـه سيء ولكنه على مراتب. وأسـوؤه مـا اقتـرن فيـه العـذاب المـادي بالإهانـة والإذلال النفسي. ولذا عطفت الآية على – سوء العـذاب – بعضـا مـن مظـاهره. كـان فرعـون وأكابر قومه يعمدون إلى قتل الذكور مـن بنـي إسـرائيل، ويبقـون علـى حيـاة الإنـاث ليكن خدمة لهـم فـي البيـوت أو للاسـتمتاع. وبـذهاب الـذكور يطوعـونهن للإشـباع الجنسي. إن ما وصل إليه الظلم والاستبداد الفرعوني فيـه بـلاء مـن ربكـم عظـيم، لـم يحمكم منه، جزاء انحرافكم عن دين إبـراهيم وغفلـتكم عـن وصـيته ووصـية يعقـوب، وعن منهجهما وعبادتكم لآلهة المصـريين(**يـا بنـي إن الله اصـطفى لكـم الـدين فـلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**)[1] – فجمعت الآيـة بـين التـذكير بنعمـة الإنجـاء وبحرمـانهم من الألطاف حتى لا يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان.

7←8: وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم ....فإن الله لغني حميد.

و اذكر يا محمد الظـرف الـذي أعلـن فيـه الله لموسـى بمسـمع مـن بنـي إسـرائيل، الإعلان الذي يجري عليه تصـرفه فـي الشـعوب وفـي بنـي إسـرائيل و فـيمن يـأتي بعدهم: أنه يتفضـل كرمـا منـه بجـزاء الشـاكرين مزيـدا مـن الخيـرات والألطـاف والعون. إن الشكر على النعم واجـب علـى المـنعَم علـيهم، ويتحقـق الشـكر باللسـان وبالعمل الصالح. وأداء الواجب لا يستحق عليه صـاحبه جـزاء ولكـن الفضـل الإلهـي جمع للشاكرين بين الرضا النفسي بالاستقامة وبين تواصل خيراتـه التـي منهـا مـا يفـتح به بصائرهم وينمي مداركهم كما جاء في قولـه تعـالى: (**والبلـد الطيـب يخـرج نباتـه بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نفصل الآيات لقوم يشكرون**)[2] –

كما أنه يجزي من كفر بالنعمة، التي أسـعده بهـا رب العـالمين، بالعـذاب الشـديد الـذي يتجاوز طاقة الأبدان والنفوس. وفي هذا تهديد وتحـذير مـن مقابلـة النعمـة بالمعصـية، وصرف النعمة في غير ما أمـر الله أن تصـرف فيـه. ولا شـك أن الكفـر بـالله أشـد أنواع الكفر.

وقال موسى لقومه أيضا: اعلموا أن شـكركم للـنعم لا يسـتفيد منـه الله سـبحانه شـيئا، كمـا أن كفـركم لا يضـره سـبحانه. ولا تحسـبوا أن سـبقكم للطاعـة يعـزز جانـب المرسلين، ولا تتخيلوا أن حرصهم علـى اهتـدائكم مبعثـه حـب النجـاح. إن الله غنـي

---

[1] سورة البقرة آية132

[2] سورة الأعراف آية57

عن عبادتكم فكماله كمال ذاتي، لا تؤثر فيه طاعتكم بزيادة، ولا عصيانكم وكفركم بنقص. وهو المستحق للحمد. المحمود فعلا سواء أقررتم بنعمه أو جحدتموها.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

بيان معانى الألفاظ :

فاطر : مخترع لا على مثال سبق.

يدعوكم : يناديكم بأوامره ونواهيه وإرشاده.

السلطان : الحجة التي لا مرد لها.

التوكل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بعلمه بما يصلح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن مشركي مكة قد أتتهم أخبار ما تم لقوم نوح، إذ قصة الطوفان تكررت على الأسماع فلا يشك فيها أحد. وكذلك هم يمرون على آثار قوم عاد وثمود ويشاهدون خراب ديارهم بسبب تكذيبهم لرسلهم. وكما سلط الله نقمته على الثلاثة عاقب أمما أخرى طوى ذكرهم أبعادُ الزمان، فأنتم لا تعلمونهم وتفرد الله بعلم أخبارهم. وسنة الله في القوم الكافرين جرت على نسق واحد. إن تلكم الأمم جاءتهم رسلهم مؤيدين بالحجج البينة والمعجزات الظاهرة، فأشاروا لأنبيائهم إشارة تفيد: واصلوا كلامكم فإنه غير مؤثر ولا صادق. وإنا شاكون في كل ما تدعوننا إليه. كان جواب الرسل جوابا هادئا رفيقا. أتشكون في الله، في وجوده وفي قدرته وفي حكمته، والكون كله بسمائه وأرضه يشهد بأنه هو الذي خلقه على غير مثال

سبق. إنه رب كريم يدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ليغفر لكم ما أنتم عليه من الشرك وما اقترفتموه من الآثام، ثم يفسح لكم في حياتكم لتحيوا حياة آمنة مطمئنة إلى الأجل الذي حدده لكم في هذه الدنيا.

كان جواب الكفرة جوابا رافضا رفضًا قاطعا للاستجابة لهم. بنَوْهُ على أنه لا فضل للرسل عليهم، لأنهم مستوون معهم في البشرية. وزعموا أن وراء دعوة الرسل قصد غير خاف عنهم، إذ كل هَمِّ الرسل أن يمنعوهم من اتباع ما كان عليه آباؤهم بما له من قداسة. ثم قالوا لرسلهم: إذا كنتم صادقين فأتونا بمعجزة وحجة بينة لا تقبل الاحتمال ولا الرد.

أجاب المرسلون: نعم نستوي معكم في البشرية ولكن البشر ما كانوا نمطا واحدا كما تخرجه المعامل، بل هم متفاوتون تبعا لما يتفضل الله به على بعضهم، ويحرم منه البعض الآخر. ثم إننا لا نستطيع أن نأتيكم بآية على المقاس الذي اقترحتموه لأن الله هو المتفرد وحده بإنزال البينات في الوقت الذي يريد. والمؤمنون مأمورون بالتوكل على الله وحده. فهو الذي يهديهم سبيل النجاح ويؤيدهم .ثم أعلن الرسل أنه لا يوجد ما يحول بيننا وبين التوكل على الله، خاصة وقد لطف بنا فهدانا إلى سبل النجاح والأمن. ثم أعربوا عن تحديهم للكفرة الذين عملوا على إذايتهم لصدهم عن مواصلة ما يقتضيه الإيمان، فقالوا إننا صابرون على الإذاية، وطَنَّا أنفسنا على الثبات على الحق. وتأكد في ختام الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، فعلى كل من أراد أن يستعين بالمعين الحق فليتوكل عليه.

بيان المعنى العام :

9-ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم....ما تدعونا إليه مريب.

لا يقصد القرآن من التذكير بما وقع للرسل مع أممهم أن يشغل الناس بسماع أخبارهم فقط. وبناء على هذا فتذكيرهم ببعض ما تم لموسى مع قومه أتِي به لإنفاذ الدعوة المحمدية في عقولهم بالاعتبار بقوم موسى. ولذا عَقَّب ذلك بالاستفهام الإنكاري الذي مضمونه أنه قد نقلت لكم أخبار قوم نوح، فإن خبر الطوفان قد شاع وذاع وتناقلته الأمم قرنا بعد قرن، وكذلك أخبار قوم عاد وثمود الذين كانت منازلهم في جزيرة العرب وأنتم تشاهدون آثار إهلاكهم. لقد علمتم مصيرهم فاحذروا إن واصلتم رَدَّ دعوة الإسلام أن ينتهي أمركم إلى ما انتهى إليه أمرهم .

ولم يكن تنفيذ الوعيد محصورا فيهم، بل إن سنة الله في الانتقام من المعاندين المكذبين، حصدت أقواما كثيرين كذبوا رسلهم، وطوى الزمن ذكرهم، فلا يعلمهم إلا الله.

ثم استحضر القرآن عرض رسلهم عليهم ما كلفوا به من هدايتهم إلى الحق وإخراجهم من الشرك إلى التوحيد، وما قابلوا به رسلهم.

جاءتهم الرسل مؤيَّدين بالمعجزات البينة الواضحة التي ينقاد لوضوحها ولتحديها من لم يغلق العناد والكبر عَقْلَهُ. ودعوهم إلى توحيد الله والإيمان بما أنزل إليهم والعمل به. عبَّر القرآن عن رفضهم بقوله: ردوا أيديهم في أفواههم. وهذا التركيب تركيب قرآني لم ينقل مثله من كلام العرب. ولذا اختلف المفسرون في بيان المراد منه، والذي رجحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور تبعا للزمخشري أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل، كراهية أن تظهر دواخل أفواههم. وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل. التحرير ج13 ص196- ويبعده أن يكون لهم بقية من أدب حتى يكرهوا أن تظهر لهواتهم عند إغراقهم في الضحك مع شدة وقاحتهم في المحاجة وتعصبهم لما هم عليه.

فلعل المعنى أنهم لما قرع أسماعهم دعوة الرسل وعرض حججهم ومعجزاتهم، وضعوا أيديهم على أفواههم إشارة إلى أنهم لا يقطعون الكلام على الرسل مع الإيماء إلى أنهم رافضون له، حتى إذا ما أتم المرسلون كلامهم أجابوهم بما ذكرته الآية لاحقا، ويكون التركيب دالا على هذا المفهوم وإن اختلفت طرق التعبير عنه باختلاف عادات المرسل إليهم في الإفصاح عن ذلك.

ثم قالوا لهم ما مضمونه: إنا كفرنا بما أرسلتم به جملة وتفصيلا، رفضا قاطعا لا رجوع عنه وإن ما عرضتموه علينا لا يرتفع إلى درجة إقناعنا بوجود الله ولا بكونكم مرسلين من عنده، ولا أن ما تدعوننا إليه صادق يقينا. بل إنا نشك في الأمرين معا، وشكنا قوي جدا.

10←12: قالت رسلهم أفي الله شك...فليتوكل المتوكلون.

هذه الآيات تسجل المحاورة التي تمت بين المرسلين وبين أقوامهم المكذبين.

أولا: أنكر المرسلون عليهم جراءتهم بشكهم في وجود الله وتصرفه في الكون، وأبرزوا هذا الإنكار في صيغة الاستفهام (أفي الله شك) ويتضمن الإنكار التعجب من نفيهم من قامت الشواهد على تفرده بالتأثير، فأعقبوا الاستفهام بالآيات الدالة على وجوده وتصرفه. وهي الكون كله: السماوات والأرض، التي يشهد العقل أنها لتغيرها وتحولاتها ناطقة بأنها محدثة من عدم، وأن المحدَث لا يستغني عن المؤثر المحدِث. خاصة وأنها وجدت من غير أن يكون لها مثال سابق عليها؛ مما يدل على كمال علمه. ومن رحمته بكم أنه أولاكم عنايته، فدعاكم بواسطة المرسلين الذين

أرسلهم إليكم وبما تضمنته رسالاتهم مـن بيـان التوحيـد ومـن أوامـر ونـواه وإرشـاد، هذه الدعوة التي رتب عليها غفران ذنوبكم التي اقترفتموهـا قبـل مجيـئهم ثـم يمـد فـي أعماركم لتنعموا بحياة الاستقامة إلى الأجل الذي قدره لكم في الدنيا.

ثانيا: بعد هذا البيان العاقل الرفيق، كـان جـوابهم جوابـا قاطعـا لحجـج المرسـلين فـي ظنهم، إذ بنوا ردهم علـى أنـه لا ميـزة تميـز المرسـلين حتـى يكونـوا رسـلا هـداة مبعوثين من عند الله. لأنهم بشر مثلهم لا فارق بينهم حتـى يكونـوا أكثـر قربـا مـن الله. ثم عطفوا على ذلك إظهار السبب الخفي في زعمهـم الـذي دعـا المرسـلين إلـى القيـام بالدور الذي يحتجون للإقناع به. وهو أنهم يرغبـون فـي الحيلولـة بيـنهم وبـين الـدين الذي كان عليه آباؤهم، على معنى أنه الدين الذي جـرب فصـح، واكتسـب القداسـة مـن السلف. ثم طلبوا من الرسل أن يقدموا لهم حجـة لا تقبـل الـنقض ولا الجـدال. مـع أنـه ما من رسول إلا هو مؤيد بمعجزة تحداهم بها فعجزوا.

ثالثا: أجابهم المرسلون، نعم! نحن نقر أننا بشـر نسـتوي معكـم فـي الإنسـانية، ولكـن البشر وإن اتحدوا في الخصائص التي كـانوا بهـا بشـرا إلا أن قيمـتهم ليسـت واحـدة، فإن الله يتفضل بمنه على بعضهم فيمكنـه ممـا حـرم منـه غيـره. ألا تـرون أنـه وإن كانت القوة العقلية قدرا مشتركا بـين البشـر إلا أنهـم متفـاوتون فـي الـذكاء وحضـور البديهة وقوة الإفصاح والإقناع، وكذلك فـي حـظ كـل مـنهم مـن الجمـال والوسـامة، كذلك في القوة البدنية إلى آخر الفوارق بيـنهم .وكلهـم عبيـده يتصـرف فـي حظـوظهم بحكمته وعدله وإن كان قد يخفى عنا موجبات ذلك.

طلبتم منا أن نأتيكم بحجة قاطعة، ومعجـزة قـاهرة تخضـعون لهـا حـالاً. وهـذا مـن صلفكم وعنادكم، فإن طلبكم هذا فيه قلب للمـوازين. إن المتصـرف فـي الكـون هـو الله وحده، وهو ينزل ما يشاء في الوقت الذي يشـاء، ولـيس فـي مقـدورنا أن نـأتيكم بآيـة كما ترغبون إلا إذا أذن الله لنـا وآتانـا مـا يؤيـدنا بـه. فـاقتراحكم معجـزة تحـددون مواصفاتها وتضبطون وقتها، هو تعبيـر عـن تجـاوز لقـدركم، ومقابلـة لنعمـة الهدايـة بالرفض والمكابرة.

ثم واصل الرسل بالإعلان عن صلتهم بالله بأنها صـلة مـن يعتمـد علـى الله فـي تـدبير أموره لتفرده سبحانه بالعلم الصادق في الحاضر والمـآل، وهـذه الطريقـة هـي الطريقـة المأمور بها المؤمنون، تشملهم هم كما تشمل المؤمنين برسالتهم .

إن التعمق في طلب الحقيقة أكد لنا أنه لا طريق إلا طريـق التوكـل عليـه، ولـذا تجـدنا لا نخرج عن هذه السبيل. وقد قامت شواهد تُمَكِّنُ فينـا هـذا الاختيـار، فقـد هـدانا الله للسبل التي لاشك أنها سبل الفوز والنجاح والأمن.

ثم أشاروا إلى أن ما صدر عن الكافرين من الإذاية والتحرش بهم، طمعا في التأثير عليهم ليتخلوا عن الدعوة التي يحملونها، لا يحقق لهم أي شيء. فقمعوا بهذا كل آمالهم وأعلنوا أنهم قد تدرعوا بالصبر. وأن الضغط عليهم لا يزيدهم إلا إصرارا على الإيمان وتطبيق ما جاءهم من ربهم. وختمت الآية بالدعوة إلى التوكل على الله على أنه المسلك الوحيد المفضي للفوز.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الملة : الدين.

الاستفتاح : طلب الفتح، والفتاح الحاكم.

خاب : خسر.

الجبار: المتعظم في نفسه المتكبر، الذي لا يرى لأحد عليه حقا.

العنيد : المعاند للحق .

غليظ : قوي شديد.

ورائه جهنم : ينتظره عذاب جهنم.

صديد : السائل الذي يخرج من الدمل.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل الكافرون من المحاجة إلى التهديد، فعرضوا على الرسل وأتباعهم أن يختاروا بين أمرين: إما الخروج من الأرض التي يجاورونهم فيها، وإما أن يقلعوا عن دينهم ويعودوا إلى إتباع ملة الكفر. أنزل الله على رسله ما يثبتهم فأوحى إليهم: أني سأستأصل الظالمين وأهلكهم. وأن هذا التأييد هي سنته مع الذين يستشعرون دوما الخوف من حساب الله يوم القيامة، كما يخافون وعيده الذي يوقنون أنه لا راد له، وهم المتقون الصالحون.

طلب الرسل من الله أن يفتح عليهم بنصره الذي وعدهم إياه، وبشرهم بأنه سيحقق الخيبة والخسران لكل مستكبر عنيد. وأنه بعد الانتقام منه في الدنيا سيصلى نار

جهنم، التي من بعض خصائصها أن الداخل إليها يلهب كبده من العطش، فلا يجد أمامه إلا سائلا من الصديد، وهو ما يسيل من الدمل، يحاول رغم قذارته أن يشرب منه فلا يستطيع أن يبتلعه. ثم يحس بسكرات الموت وآلامه تدخل في شعابه ولكنه لا يستريح بقدوم الموت فعلا. وبعد ذلك من عذاب شديد لا يعلم كنهه إلا الله.

بيان المعنى العام :

13←14: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم...وخاف وعيد.

تابع القرآن عرض تحدي الكافرين للرسل وتهديدهم، وأعلموهم أنهم بين خيارين. إما الخروج من أرضهم. هددوهم بأنهم سيلجئونهم إلى ترك ديارهم وأرضهم ومغادرتها قسرا. على معنى أن لهم من وسائل الضغط ما يجبر الرسل وأتباعهم على الفرار من الأرض التي يعتبرونها ملكا لهم وحدهم. وهذا من طبائع الاستبداد كما نشاهده اليوم في معاملة اليهود للفلسطينيين؛ وإما أن تعودوا إلى إتباع ديننا وتعرضوا عما تدعوننا إليه. وإذا كانت كلمة تعودوا تفيد حسب أصل الاستعمال أنهم كانوا على ملة الكفر فخرجوا منها ويطلب منهم العودة إليها. وما كان الرسل على ملتهم حتى يعودوا إليها؛ فيحمل الكلام على أن الرسل ما كانوا قبل مجيء الوحي يتعرضون للكفرة بإنكار ما هم عليه، فحملوا سكوتهم عنهم قبل ذلك على أنهم كانوا موافقين لهم. أو أنه لما كان الكلام موجها في الحقيقة للرسل وللذين آمنوا معهم، فتغليب المؤمنين في الخطاب الذين كانوا فعلا على ملتهم، سوغ قولهم أو لتعودن في ملتنا.

إن هذا الاستكبار والتهديد قابله التأييد الإلهي للرسل، بالوعيد والوعد: أوعد المستبدين الظالمين أنه سيستأصلهم ويهلكهم، ووعد المؤمنين أنه سيمكنهم من الأرض، التي توعدهم الكافرون بإخراجهم منها، بالسكنى فيها بعد إهلاك الظالمين وإما بدخولها تحت سلطانهم. ثم ثبت القرآن هذه النهاية بأنها سنة الله مع الذين يخافون ربهم، والخوف من الله حالة تنشأ في النفس عندما يستحضر الإنسان موقفه من ربه المطلع على ما يخفيه عن أعين الناس وعلى ما يظهره، وخاصة عندما يقف بين يديه للحساب. كما يخاف نفاذ وعيده في الدنيا والآخرة. إنه لا يحصل هذا الخوف المزكي للنفس إلا في قلوب المتقين الصالحين.

15←17: واستفتحوا وخاب كل جبار....عذاب غليظ.

هذه الآيات تحتمل أن تكون مرتبطة بالمرسلين، وأن تكون مرتبطة بالكافرين.

فإذا فهمناها على أنها مرتبطة بالمرسلين وأن الضمير في قوله تعالى: **واستفتحوا** يعود على المرسلين، يكون حاصل المعنى أن المرسلين طلبوا من الله أن يفتح

عليهم نصره، وأن ينجز لهم وعده الـذي نصـت عليـه الآيـة السـابقة. وتأكـد النصـر بتحقق خيبة وخسران كل جبار مستكبر، دأبـه العنـاد وإغـلاق منافـذ التفكيـر معـاداة للحق.

وإذا فهمناها على أنها مرتبطـة بالكـافرين، كـان المعنـى أنهـم طلبـوا النصـر علـى الرسل، فخابوا لأنهم جبابرة معاندون. ولا تقتصر خيبتهم علـى مـا سـينالهم فـي الـدنيا، بل تتجاوز ذلك إلى يوم القيامة فوراء عقاب الدنيا عقـاب الآخـرة الـذي فصـل بعضـه: أن جهنم تنتظر كل جبار عنيد. فوراء عذاب الـدنيا عـذاب جهـنم، الـذي وصـف شـيئا من فظاعته، بأن فؤاده يلهب ويطلب السقيا، فيسقى من سـائل هـو الصـديد القـذر الـذي يسيل من الدمل. يحاول رغم ذلك أن يشرب منـه، لعلـه يطفـئ عطشـه اللاهـب؛ فـلا يمر إلى حلقه ولا يستسيغه. وهنا يأخذ الموت بسـكراته وآلامـه يهـد كيانـه .فـلا يبقـى جزء منه إلا وهو معـذب بعـذاب المـوت، ولا يسـتريح بـالموت. ووراء ذلـك عـذاب قوي شديد يتجاوز التصور. ذلك أنه مـن شـؤون الآخـرة الفائقـة علـى كـل تصـور. سواء في ذلك النكال والعذاب، أو النعيم والفضل.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

عصفت الريح : إذ اشتدت فحطمت ما هو في طريقها وفتته.

برزوا : خرجوا من مكان كان يحجبهم، وهي القبور.

الضعفاء: الأتباع.

المستكبرون : المبالغون في الكبر .

تبعا : جمع تابع.

مغنون : تدفعون.

الجزع : حزن يخالطه اضطراب.

المحيص : المنجى.

مصرخكم : مغيثكم .

بيان المعنى الإجمالي :

قرَّبت الآية ضياع أعمال الكافرين التي ربما نفعت بعضا من الناس في الدنيا، بأنه كحال كدس من الرماد تحركت ريح قوية شديدة في يوم رياحُه عاصفةٌ، فتطايرت به ونشرت أجزاءه بصفة لا يبقى منه شيء محسوس يمكن أن يجمع. فكذلك أعمالهم التي اكتسبوها وفقدت أساس الإيمان تكون ضياعا لا ينتفعون منها بشيء، وذلك هو الضلال الذي تعمَّق فذهب بصاحبه إلى مسافات بعيدة أشد البعد ومتنافرة.

ألم تعلم أيها الناظر أن الله تفرد بخلق السماوات والأرض، وأجراهما على الحكمة التي لا تختل. ألا يدل ذلك على أن الله قادر على إفناء الجبابرة والمستكبرين، وعلى أن يُمَكِّنَ خلقا آخر من أرضهم يكونون بالطبع مؤمنين صالحين، وأهون من ذلك ضياع ثواب صالح أعمالهم.

أهلكهم الله وخرج السادة والأتباع من قبورهم، وجرت بينهم المحاورة التالية: قال المستضعفون للمستكبرين القادة: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا مقلِّدين، نطبق ما تشيرون به علينا. فهل تستطيعون اليوم أن تكفونا شيئا من عذاب الله؟ أجابهم المستكبرون معتذرين عن التغرير بهم بأنهم ما قصدوا توريطهم، إذ هم مشتركون في العذاب، وأنهم يائسون فقالوا: سواء علينا أظهرنا الجزع والتبرم والحزن، أم صبرنا وتحملنا بدون شكوى، فإن حالتنا تتواصل على ما هي عليه وليس لنا مخلص.

وينضم إلى المشهد الشيطان الذي كان عمدة رؤسائهم في إضلالهم. يبرز محملا للكفرة المسؤولية عن ضلالهم فقال لهم بعد أن نفذ الله حكمه العادل في البشر يوم القيامة : إن الله وعدكم وعدا صادقا لا يخلف، أنه يكتب السعادة لمن أطاعه،

ووعدتكم بفوزكم بالسعادة إن أطعتموني فأخلفت وعـدي. ولكـن مـا كانـت بـين يـدي سلطة تجبـركم علـى اتبـاعي. دعـوتكم لاتبـاع شـهواتكم والكفـر بـالله فاسـتجبتم. فتوجهوا باللوم لأنفسكم ولا تلقـوا علـي بالملامـة. لأنـي لـم أجبـركم علـى إتبـاعي ولكنكم اخترتم لأنفسكم ما تـدعو إليـه شـهواتكم . إننـي لا أسـتطيع اليـوم أن أغيـثكم ولا تستطيعون إغاثتي. إني كافر بما دعوتكم إليـه مـن الإشـراك بـالله وإتبـاع الهـوى من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا. إن من اتبـع الشـيطان فكفـر هـو ظـالم، والظـالمون حقيقون بأن يسلط عليهم العذاب الأليم .

وبالمقابـل أدخـل الله المـؤمنين الملتـزمين بالعمـل الصـالح جنـات تتخللهـا الأنهـار الجارية، آمنين من انقطاع ما هم فيه من نعيم، هـو نعـيم دائـم بـإذن ربهـم الإذن الـذي لا مثنوية فيه. يُحيَّوْن من الملائكة ومن بعضهم لبعض بالسلام والأمن الدائم.

بيان المعنى العام :

18- مثل الذين كفروا بربهم ....ذلك هو الضلال البعيد.

هذه الآية صيغت على طريقة تجسـم المعنـى بتنظيـره بمـا هـو مـادي، وهـو المـراد بالمثل. إذ مثلت أعمالهم الخيرة في ظاهرها وعدم انتفـاعهم منهـا بالرمـاد الـذي تفرقـه الرياح العاصفة. مضمونها أن الكـافرين كـانوا يقومـون تـارة بأعمـال صـالحة مفيـدة للمجتمع تتجاوز مصالحهم إلى نفع الآخـرين. فهـي أعمـال فـي ظاهرهـا جـديرة بـأن توصف بالحسن والخير وأن يكونـوا علـى رجـاء مـن ثوابهـا. ولكـن تلكـم الأعمـال بفقدانها للأساس الذي يثبت آثارها ويبقيهـا لصـحابها، أعنـي العقيـدة الصـحيحة، كانـت كالرماد المتجمع بعد أن أتت النار على المـادة المشـتعلة فأذابتهـا وصـيرتها كدسـا مـن الهباء؛ فتحركت الرياح واشتدت وكانت رياحا تعصف بكـل شـيء فتكسـره ثـم تفتتـه، فتنشره متفرقا كأشد ما يكون التفرق، هذا فيمـا كانـت لـه صـلابة فكيـف يكـون حـال الرماد الذي يفرقه النسيم. وبذلك هـم لا ينتفعـون بشـيء منهـا، ثـم أكـدت الآيـة فـي خاتمتها خسران الفاقد للإيمان بـأن ذهـاب حسـناته هـو الضـلال القـوي كأنـه ابتعـد بصاحبه إلى مسافات تقطعه عما فيها من خير وبالتالي عن ثوابها.

19←20: ألم تر أن الله خلق السماوات.....على الله بعزيز.

إن ما توجهت العناية إليه في الآية السابقة من محو ما قام به الكفرة من أفعال حسنة في ظاهرها، المجسم ذلك بالمثل، قد أتبعه القرآن بالدليل. هذا الدليل الذي ابتدأه بسؤال موجه إلى كل من يمكن منه العلم، فقوله تعالى : ألم تر – ألم تعلم أن الله خلق السموات والأرض خلقا ملتبسا بالحق والحكمة، فسارت على نظام لا يختل. وهذا أمر مشاهد لا يقبل الاختلاف

فيه، مما يدل على عظيم القدرة، وينبه إلى أن إفناء الجبابرة والكفرة، والإتيان بالمؤمنين يخلفونهم، أمر أيسر من خلق السماوات والأرض بمقاييس البشر، وأهون من ذلك إحباط أعمالهم الصالحة وزوال آثارها. وأكد تحقق تلكم المفاهيم بأنها سهلة هينة عليه سبحانه. وما ذلك على الله بعزيز.

21←22: وبرزوا لله جميعا فقال...لهم عذاب أليم.

تضمنت الآية السابقة أن الله قادر على إهلاك الكفرة، وقد أهلكهم فعلا، فخرج السادة والأتباع من قبورهم، وستجري بينهم المحاورة التالية كما ستجري محاورة بينهم وبين الشيطان، عبر عن ذلك بصيغة الماضي لتحقق الوقوع.

وقف الأتباع الذين ما كان لهم حظ من الاستقلال في الدنيا، وكان السادة المتعاظمون بالكبرياء يقودونهم في دينهم وفي تصوراتهم. وقفوا يسألونهم يوم القيامة، بما أنا كنا تابعين لكم في الدنيا نسير في الخط الذي ترسمونه لنا، فهل تستطيعون أن تظهروا مكانتكم عند الله فترفعوا عنا شيئا من العذاب؟ والظاهر أنه سؤال تقريع وتوبيخ إذ يوم القيامة يستوي الجميع في إدراك حظوظهم وأنه أبعد ما يكون، أن يشفع عند الله المجرمون.

واعتذر المستكبرون بأنهم ما قصدوا توريطهم بدليل أن وضعهم ليس بأحسن من وضعهم. ثم أضافوا: اليأس من تبديل حالنا استولى علينا، فسواء أظهرنا الجزع والتشكي والتخبط، أو التزمنا الصبر وإظهار التحمل بدون شَكَاةٍ، فإنه لا مخلص لنا ولا ينفعنا شيء ولا نجاة لنا.

ثم يبرز الشيطان في المشهد لأنه كان قائد القادة ومضلل المضللين. كما هو شأنه في الدنيا كان يسترق السمع، فأعد نفسه للدفاع عن توريطه، وقد قُضِي الأمر، ونفذ الله ما أعده للبشر، وتميز السعداء بالكرامة، والأشقياء بالعذاب والمهانة. ثم قال لهم: إن الله وعدكم بالسعادة إذا أنتم عملتم بما جاءكم منه، ووعدتكم بالسعادة إذا اتبعتم الطريق الذي أدعوكم إليه، وأخلفت وعدي. وإني لم أكن مجبِرًا لكم على ترك ما دعاكم إليه الله وإتباع طريقي. ولكنكم كنتم مختارين فملتم لما تهوى أنفسكم، فلا تلوموني على إغوائكم. ولكن لوموا أنفسكم إذ لم تتفطنوا بتغريري بكم. إننا اليوم في الهوان سواء. فلا أستطيع أن أغيثكم، كما أنكم لا تستطيعون إغاثتي. ثم أردف إمعانا منه في تبَرُّئه وتحميلهم المسؤولية. إني كفرت بإشراككم لي في الدنيا من قبلِ يوم القيامة، على معنى إني لما دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه كنت متيقنا أني أدعوكم إلى باطل، وأن شخصي لا يمكن أن يكون شريكا لله يأمر فيطاع. وقد جربت عصيان

ربي فكتب علي الخسران الأبدي. هو تصريح منه بأنه أضلهم في الوقت الذي كان معتقدا أن ما يدعوهم إليه هو الضلال، فاتباعهم له وائتمارهم بأمره يتحملون مسؤوليته، وهم بذلك ظالمون. وختمت الآية بقول إبليس: إن الظالمين يستحقون العذاب الشديدُ ألمُه. ويحتمل أن يكون هذا من كلام إبليس، كما يحتمل أن يكون من كلام الله، على أنها حقيقة أطلقها لتكون خاتمة. وفي هذا العرض القرآني ما يوقظ البشر إلى شر الشيطان وعمله على إغواء البشر ثم تبرُّؤه منهم يوم القيامة، مما يضاعف أحزانهم على تراخي عزائمهم وإتباعهم لإغوائه.

23- وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات....فيها سلام.

هذا هو شأن القرآن في هدايته يقرن بين البشارة والنذارة، وبين التهديد والوعد الجميل. فبعد أن عرض عرضا وافيا مشخصا خاتمة الكفرة، أتبع ذلك بما حققه للمؤمنين الذين جمعوا إلى الإيمان العمل الصالح، فثبتت أعمالهم وأثمرت، على عكس الكفرة الذين ذهبت أعمالهم هباء كرماد عصفت به الرياح. فجازاهم ربهم بأن أدخلهم جنات جمع لهم فيها الخصب: تتخللها الأنهار، والأمن بامتداد النعيم إلى أبد الآبدين. وتأكيد الكرامة، فهم يلقون من الملائكة أينما حلوا تحية بالسلام والأمن كما قال تعالى: **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**[1].

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطيبة : النافعة.

الأصل : الجذر.

الفرع : الغصن الممتد.

في السماء : مرتفع، عال.

الأكل : ما يؤكل.

---

[1] سورة الرعد آية 25

كل حين : كل وقت أريد فيه جَنْيُهَا.

اجتثت : قطِّعت.

القول الثابت : الكلام الصادق.

بيان المعنى الإجمالي :

قرب الله للبشر أثر كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله، فنظَّرها بشجرة نافعة قوية، امتدت عروقها في الأرض الصالحة، فتم لها الغذاء الذي ارتفعت به فروعها إلى علو مبهج، يتناول منها صاحبها ثمارها كلما قصد إلى جنيها بتقدير محكم من الله. وكذلك كلمة الإيمان إذا استقرت في العقل والضمير فإنه يتبعها قوة صاحبها وثباته. وتنبع من كلمة الإيمان الأعمال الصالحة التي يجد ثمارها زكية في حياته وفي الحياة الآخرة. وهكذا يضرب الله الأمثال للناس رجاء أن يتأملوا فيها ويتفكروا في مدلولاتها فيثبتوا على التوحيد.

و بالمقابل فإن كلمة الكفر وما يتبعها من قول السوء الذي لا يحبه الله، مثَّل ذلك كالشجرة التي لا نفع فيها لا بظل ولا بثمرة. لإثبات لها في الأرض ولا قرار تعصف بها الرياح فتجتثها من أصولها. فكلمة الكفر تثبت القلق والحيرة لصاحبها وتفسد عليه أعماله ولا تحول بينه وبين الفساد في القول والسلوك، فتعصف بجميع أفعاله فلا يجد أثرا حتى لما كان منها نافعا للناس.

ويثبت الله المؤمنين بالقول الصادق الذي لا يتخلف توجيهه إلى الخير فيجد فيه المؤمن الطمأنينة في الحياة الدنيا، كما ينتفي عنه الخوف في الحياة الآخرة بتبين مصيره حسب ما جاءه وآمن به من كلام ربه. وفي المقابل يوغل الظالمون في الضلال. والله يفعل ما يشاء فيرتب للصالحين درجاتهم من النعيم حسب حكمته وعدله، ويعمق ضياع الكافرين تبعا لما قدموه من سوء بحكمته وعدله أيضا.

بيان المعنى العام :

24←26: ألم تر كيف ضرب الله مثلا...من قرار.

هذه طريقة قرآنية تحقق إقناع الناس على مختلف مداركهم بمضامين الآيات القرآنية وهداها. إذ المثل عبارة عن تقريب المجردات بتنظيرها بالمحسوسات فيتضح ما خفي عن البعض، ويزداد رسوخا بالنسبة للبعض.

النظير من الواقع المحسوس شجرة لها المواصفات التالية: النفع والصلاح (طيبة) متجذرة في الأرض ثابتة ثبوتا يمكنها في منبتها، فلا تؤثر عليها العواصف، وتمتد عروقها في باطن الأرض مما يوفر لها الغذاء من مساحات شاسعة يكسبها القوة.

(أصلها ثابت) انتفعت بما توفر لها من مـواد الأرض فامتـدت أغصـانها مرتفعـة تـبهج الناظر إليها (وفرعها في السماء). تجمع إلى ذلـك أنهـا شـجرة مثمـرة وثمارهـا غيـر منقطعة فكلما قصدها صاحبها وجد من ثمارها مـا يجنيـه بتقـدير مـن الله الـذي عنـي بها (تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها).

المجرد الذي قصـد تقريبـه وتأكيـده: كلمـة الإيمـان والتوحيـد: لا إلـه إلا الله محمـد رسول الله. فهذه الكلمة متى استقرت في الـنفس ورسـخت لا تزعـزع بمـا يـرد علـى صاحبها من تشكيك، ثم هي تمتد آثارها مرتفعـة بأعمـال صـاحبها التـي تكـون زكيـة بعامل التوحيد. نافعة له ولغيره، صالحة في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل شـجرة خبيثـة المنظـر والرائحـة، فاقـدة لمقومـات الثبـات والاسـتقرار، مقطوعة من الأرض. ونظيرها كلمة الكفر وما كان قريبا مـن ذلـك مـن سـيء الكـلام، التي ما استقرت في النفس حتى يكون وضـع صـاحبها الوضـع الخبيـث السـاعي إلـى الرذيلة والفساد لا يردعه عن السوء رادع. تذهب أعماله ضـائعة كمـا جـاء فـي الآيـة السابقة رماد تذروه الرياح.

ثم إنه وقع في كلام المفسرين اختلاف في تعيين الشـجرة الطيبـة، وفـي تعيـين الشـجرة الخبيثة. فقال بعضهم: هي النخلة اعتمادا على مـا رواه البخـاري وغيـره، فـي تشـبيه الرسول ﷺ المؤمن بالنخلة في أكثـر مـن مناسـبة. وقـالوا: إن الشـجرة الخبيثـة هـي الحنظل. ويترجح عندي ما ذهب إليه ابن عباس رضـي الله عنهمـا: هـذا مثـل ضـربه الله ولم يخلق هذه الشـجرة علـى وجـه الأرض. يقـوي هـذا أن الله ذكـر مواصـفاتها بدون تعيين اسمها، ولـو كانـت شـجرة معينـة لـذكرها باسـمها فيتبـع ذكـر اسـمها استحضار مواصفاتها.

27- يثبت الله الذين آمنوا...ما يشاء.

فَقْدُ الطمأنينة من أسوأ ما يعرض للإنسان في حياتـه الـدنيا. فـالقلق والحيـرة والأسـئلة التي تتحرك في النفس ولا تجد جوابا ولا تفسيرا، تفسـد علـى الإنسـان حياتـه وتصـيبه بالقلق المهدم. إن الذي يطرُد كل ذلك هو ما يـنعم الله بـه مـن التأييـد للإنسـان بهدايتـه وخاصة القرآن الذي يجد تاليه المتدبُر في آياته سلاما نفسـيا وراحـة كمـا قـال تعـالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[1] فالله قد أنعـم علـى البشـر بمـا يثبِّـتهم بـه مـن آيـات كتابه، هو القول المتصف بالثبوت في مضمونه وفي ألفاظـه. فينعمـون بـه فـي حيـاتهم الدنيا. يضيء لهم المسـالك المنجيـة ويـدفع عـنهم موجبـات الحيـرة والشـك القاتـل.

---

[1] سورة الرعد آية 28

وكذلك يجدون من آثار ملا زمتهم للعمل بما جـاء فـي القـرآن طمأنينـة راضـية. وقـد أذهب عنهم تمسكهم بالقرآن الخوف.

ثم ثنّى القرآن بما يثبت مضمون هذه الآية بـأن الله يتصـرف فـي الظـالمين المشـركين فيجعلهم في حيرة وارتابك. شأنهم شأن التائه الـذي لـم يتبـين الطريـق السـالك لغايتـه، فكلما سار في اتجاه عاجله الشك فيه. وذلك عاقبة الشـرك الـذي اختـار الضـال التزامـه وأعرض عما كشفه له الله من سوء العاقبة.

والله يفعل ما يشاء فعله لا راد لقضائه . فيسمو بـالمؤمنين إلـى درجـات متفاوتـة فـي النعيم والفضـل والتزكيـة، ويهـوي بالمشـركين إلـى دركـات مـن العـذاب والنقمـة والإذلال تبعا لحكمته وحسن تقديره.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

كفرا: كفران النعمة المقابل لشكرها. ومنه الشرك بالله.

أحلوا قومهم : كانوا سببا في نزول قومهم.

دار البوار : دار الهلاك والخسران جهنم.

القرار : موضع استقرار الإنسان.

الأنداد : جمع ند وهو المماثل في المجد والرفعة.

سبيل الله : كل عمل يجري على ما يرضي الله.

الخلال : مصدر من خالّك إذا وادك وصافاك.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب من كل من يمكنه الرؤية إذا لم ينتبـه إلـى رؤوس الكفـر الـذي بلـغ مـن سـوء عملهم وكفرهم، أنهم قابلوا نعم الله علـيهم مـن رسـالة النبـي ﷺ، ومـن أمـن بلـدهم، وتقدير العرب لمنزلتهم. قابلوا كل ذلك بكفر النعمـة التـي أشـدها شـناعة الشـرك بـالله ومقاومة دعوة الإسلام. وأثروا على قومهم فقـادوهم إلـى دار الخسـران، جهـنم. وهـي أسوأ قرار ينزل به الإنسان. ثم إنهم أقاموا من خيـالهم أصـناما قدسـوها حتـى جعلوهـا مساوية لله. وما حققوا بذلك إلا هـدفا واحـدا هـو أنهـم أضـلوا النـاس عـن الطريـق

المؤدي لمرضاة الله. قل لهم تهديدا لهم: تمتعوا بما أتيح لكـم فـي الحيـاة فـإن مصـيركم إلى النار.

قل يا محمد للمقربين من البشـر إلـيَّ: عبـادي: واصـلوا أداء صـلواتكم علـى الوجـه الأكمل، وواصلوا الإنفاق من الأموال التـي رزقـتكم إياهـا، وبـادروا بـذلك قبـل يـوم القيامة. ذلك اليوم الذي لا يملك أحد مـا ينفقـه لترتفـع درجاتـه، كمـا لا يجـد خلـيلا يشفع له أو تسمو به مكانته عند الله.

بيان المعنى العام :

28←29: ألم تر أن الله...وبئس القرار.

تحريك كل من يصح منه الرؤية لاستحضار ما دخل عليه قوله: ألم تر، فكأن مدخول الرؤية أمر محسوس منظور إليه، والعجب كل العجب ممن لم يشاهده. ذلك أَمْرُ الذين بدلوا نعمة الله كفرا؛ أتتهم النعم من الله من بعثة النبي ﷺ التي هي أكبر النعم وأجلها مقدارا، وحصانة بلدهم فتحققت لهم الحياة فيه آمنين في الوقت الذي كانت الحروب تشتعل في الجزيرة العربية (بلد آمن ويتخطف الناس من حولهم) وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، فكانت الأرزاق تأتيهم من كل مكان. فعوض أن يشكروا هذه النعم بقبول الحق الذي نزل إليهم ويخلصوا العبادة لمسديها، عبدوا الحجارة، وكذبوا الرسول ﷺ، وآذوه وآذوا المؤمنين به. هؤلاء هم رؤساء الكفر من قريش، استكبروا في مكة بغير الحق، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات، وصرفوا كثيرا من القادمين على رسول الله ﷺ. صرفوهم عن الإيمان والانضمام لجماعة المسلمين .وأثَّروا بالتالي في الضعفاء من قومهم، وحتى في بعض كبار القوم؛ كما فعلوا مع عم الرسول أبي طالب بإثارة نعرة النخوة بما كان عليه آباؤه والكبرياء بنسبه إليهم. فكانت الغاية التي حققوها لقومهم: أنهم أنزلوهم في النهاية دار الهلاك والخسران. وما هي هذه الدار ؟ الأقرب لنسج الآية هو ما جاء في قوله تعالى بعد: جهنم يصلونها، فيكون الخسران متعلقا بحالة قومهم يوم القيامة. وحمله بعضهم على النكاية التي حلت بقريش في واقعة بدر التي قتل فيها عدد غير قليل من رؤوس الكفر .ويكون الكلام ينتهي بقوله تعالى (دار البوار) ثم يستأنف القرآن أن عاقبتهم جهنم .

وجهنم هي أسوأ قرار يكون فيه الإنسان، أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

30-وجعلوا لله أندادا...مصيركم إلى النار.

رؤساء الكفر والمستكبرون الطغاة مـن مشـركي أهـل مكـة، اخترعـوا مـن خيـالهم أصناما أسبغوا عليها من التقديس الشيء الكثيـر. وطوعـوا النـاس ليعتقـدوا فيهـا النفـع والضر، حتى جعلوها مساوية لله في المجـد والعظمـة، يؤمنـون بهـا ويتقربـون إليهـا.

وما هو الدافع لهم في ذلك؟ أجابت الآية أنهم مـا فعلـوا شـيئا إلا أنهـم أوقعـوا قـومهم في الضلال والضياع، والبعد عن طريق الله، فضلوا وأضلوا.

قل لهم يا محمد: تمتعوا بمغريات الحياة الدنيا، وواجههم بعـد ذلـك مهـدّدًا لهـم بالكشـف عن مصيرهم الوحيد الذي سيؤولون إليه يوم القيامة، مصيرهم إلى النار.

31 - قل لعبادي ...ولا خلال.

أمر ﷺ في خاتمة الآية السّـابقة أن يهـدد المشـركين فـي مواصـلتهم العـبَّ مـن متـع الحياة بأن مصيرهم إلى النـار. وبالمقابـل أمِـر أن يخاطـب المـؤمنين بوصـفهم هـذا: الإيمان. ليواصلوا أداء الصلوات على أكمل وجـه وأتمـه، وأن ينفقـوا ممـا يسَّـر لهـم ربهم من الأرزاق سرا، بكيفية لا يعلم غير المنفق أنـه يسـمح بأموالـه تخفيفـا للحاجـة، وعلانية إنفاقا ظاهرا يدركه النـاس. وأتبـع الإنفـاق بـالتحريض عليـه سـرا وعلانيـة لطرد ما يمكن أن يُظَنَّ أن الإنفاق علانية لا ثـواب فيـه. نعـم ! إن تقـديم السـر علـى العلانية يشير إلى فضل الصدقة المخفية على الصـدقة المعلنـة، لمـا فـي الإخفـاء مـن الإبقاء على كرامة المحتاج.

وفي نظم الآية أسرار يكون من الخير إبرازها:

أولا: صرح الأمر الإلهي بالتوجه للعبـاد منسـوبين لـه، وهـو أعظـم شـرف للإنسـان عندما ينسب إليه (قـل لعبـادي) وفـي ذلـك إيمـاء إلـى أن المشـركين بشـركهم قـد انفصلوا عن ربهم.

ثانيا: أنهم لم يُطلَبوا بصيغة فعل الأمر التي لا تستعمل إلا لإيجـاد مـا لـم يتحقـق بعـد في الخارج، أما استعمال الفعل المضارع مـع الـلام المقـدرة يفيـد مواصـلة مـا هـم ينجزونه فعلا، وفيه تسجيل: أن الله مطلع على ما قاموا به من خير .

ثالثا: إظهار متعلق الإنفاق، أنه مما رزقنـاهم، ليكونـوا عنـد الإنفـاق مستشـعرين منـة الله عليهم الذي مكنهم مما ينفقون.

ثم حضهم على المبادرة بإقامة الصـلاة والإنفـاق قبـل انقضـاء العمـر، الـذي لا يعلـم ميقاته إلا الله. قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجد فيـه أحـد ملكـا يملكـه حتـى ينتفـع بالإنفاق منه. فعبر عن نفي التملك والتصـرف فيـه، بنفـي البيـع. وكمـا لا ينتفـع فـي ذلك اليوم بمال يتصدق منه، كذلك لا ينتفع بصداقة تشفع له.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرزق : القوت.

التسخير : التذليل، والتطويع.

الأمر : الإذْن.

دائبين : على حالات لا تختلف.

إن تعدوا : إن تحاولوا العد.

لا تحصوها: لا تضبطوا عددها.

بيان المعنى الإجمالي :

كتاب الكون أمامكم فانظروا فيه. تجدوا أن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض. ثم لطف بكم فيسر لكم في الأرض ما يمكنكم به من عمارتها، فأنزل الماء من السماء، وقدر أن يجري في باطن الأرض يتواصل مدده بعد نزوله، لتتولد منه الثمار والأقوات. وألهمكم الاستفادة من قوانين الكون لتتيسر بذلك حياتكم، فصنعتم الفلك، عليها تسافرون وتحمل أمتعتكم. وسخر لكم الأنهار تخصب الأراضي وتبعث بمياهها إلى مخزون المائدة المائية. وربط بينكم وبين الشمس والقمر تتعاقبان عليكم، تنتظم بتعاقبهما أمور الحياة وكذلك الليل والنهار. والنعم على كثرتها وتنوعها التي يحتاجها الإنسان، آتاكم الله إياها، فأخذ كل إنسان حظه المكتوب له منها. وهي نعم تعجزون عن عدها. ولكن الإنسان إذا لم يُنِرْ قلبه وعقله الإيمان يكون ظلوما جاحدا شديد الكفر، لا يتوجه بالشكر على الخيرات التي توفرت له.

بيان المعنى العام :

32←34: الله الذي خلق السماوات...لظلوم كفار.

بعد أن سجلت الآيات السابقة موقف الكافرين وفساد أعمالهم ومعتقداتهم ومصيرهم القريب والبعيد، وبينت مواقف المؤمنين والمنهج الذي أمروا بإتباعه، وما ينتظرهم من جزاء في الدنيا والآخرة، اعتنى القرآن بالتذكير بما يعتبر قوام الدين الإسلامي، أعني تفرد الله بالتصرف في الكون وفضله على البشر. وفي التذكير بذلك ولفت الأنظار للأدلة الناطقة بصدقه، ما يرفع حجاب الغفلة عن تلكم الأدلة، ويحييها في

العقل والضمير، حتى يكون الإنسان شاعرا بها، في منطقة التجلي الواضح، تهديه وتقوِّم مسيرته في الحياة.

استُخْلِصَتْ مادة هذا التذكير من كتاب الكون. فلفت الأنظار لحقيقة يُقرُّبها حتى المشركون، وهي أن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض. ولا يدعي عبدة الأصنام أن آلهتهم خلقت شيئا منهما. وفي هذا الكون يعيش الإنسان الذي يسره الله الذي خلقه، لتتم فيه الحياة والتعمير من البشر. ثم بعد الخلق العام للكون تابعت الآيات تصرف الله فيه بما ينفع الناس. فعدَّد النعم الكبرى التي بدونها تتعذر الحياة أو تكون عسيرة .

أولا: إنزال الماء من السحب المرتفعة حول المحيط الأرضي، التي تحبل الأرض بمتنوع الخيرات التي بها تستمر الحياة. فأخرج الثمار من الأشجار، وأخرج النبات الذي ترعاه الأنعام. ومن ذلك يتوفر للإنسان قوته الذي يعوضه عن الوحدات الحرارية التي تحترق بالعمل والكد. فمياه الأمطار، وتقبل الأرض لها ثم اختزانها لتروي عروق الأشجار والنبات على قدر ما هي في حاجة إليه، وكون ما يتحول من عناصر التراب والماء إلى ثمار وحبوب ومراعي للحيوانات التي يدخل في تركيب إنتاجها جميعا ما يتفق وطبيعة الإنسان، مما يشير إليه قوله تعالى: رزقا لكم – آيات تنادي بالقدرة والحكمة والوحدانية. وهذه نعم تصل من الله إلى الإنسان ولادخل له فيها.

ثانيا: إقدار الإنسان على الاستفادة من قوانين الكون بما يمكنه من تطويعها للتغلب على الصعوبات التي تعترضه. ومن ذلك ما هداه إليه من صناعة السفن التي مكنته من السفر بها واختصار المسافات الفاصلة بين أقطار الأرض وتحميلها بالسلع، وغير ذلك من المنافع التي تظهر مع الزمن صور جديدة لها. وكل ذلك بإذنه سبحانه في ترتيب القوانين التي باكتشافها تم للبشرية تحقق فوائد هذه النعمة.

ثالثا: الأنهار الجارية بما تحمله من مياه وما تنشره من طمي يخصب الأرض ويضاعف خيراتها، وتمكين الإنسان من التحكم في مجاريها والطاقات المتولدة من السدود التي تبنى عليها. ونفاذ مياهها إلى باطن الأرض تروي المائدة المائية، فتختزن في باطن الأرض. أُلْهِمَ البشر طريقة استخراجها والتحكم في الري بها.

رابعا: تعاقب الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار على الأرض وساكنيها. إن المنافع والألطاف التي تيسرت للإنسان بهذا التعاقب لا تكاد تحصى، بل إن الحياة لا يمكن لها أن تحدث ولا أن تستمر لولا هذا التعاقب المنتظم.

وبصفة عامة تفضل عليكم ويسر لكم فمكنكم من كل ما سألتموه. وليس معنى هذا أن كل إنسان استحوذ على جميع ما تفضل به الله، ولكن أخذ كل فرد من البشر حظه من الخيرات التي سألها الإنسان بلسان حاله أو بلسان مقاله.

ثم انسحبت الآية على ما تقدمها لتعطي مفهوم التعميم لفضل الله على البشر وتفرده بذلك. بأنكم لو حاولتم تعداد نعم الله عليكم لعجزتم عن ضبط أعدادها. إن نعما كثيرة لا يشعر بها الإنسان إلا إذا ذكر بها. لقد ذكّرت المؤمنين مرة بنعمة الله على كل فرد منهم، وما سمعت أحدا يذكر تلكم النعمة، هي أنه يعرف نسبه وأنه ابن فلان وفلانة. ولا يذكر هذه النعمة ولا يقدر حق قدرها إلا فاقدها. إن كل نَفَسٍ يملأ رئتيك أو يخرج منهما، وكل جرعة ماء تمر عبر مسلكها، وكل لقمة تنفذ إلى مكانها. نعم تتكرر ولا تلتفت إليها ولا تشعر بها، ولو فقدت واحدة منها لهان عليك في استرجاعها كل ما ملكت يمينك.

ولكن الإنسان الذي لم يستقر الإيمان في قلبه، ولم يضئ جوانب روحه، يمضي ذاهلا عن أخص خصائص نفسه، فيندفع إلى تجاوز حده. وأكبر ذلك الظلم الشرك بالله مسدي النعم. وتأتيه النعمة فيصرفها في عكس ما كان عليه أن يصرفها فيه حسب قانون الحكمة والعدل، فيقوده كفره بها إلى التمرد والاستكبار.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اجنبني : من جانبه باعده عنه. أي امنعني.

الصنم : المنحوت على خلقة البشر، وما كان على غير خلقة البشر، وثن.

الأفئدة : القلوب والعقول والمشاعر.

تهوي : تسير بجد وقصد إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد وانشر على أسماع قريش وعلى أسماع البشرية إلى يوم الدين ما دعا به وابتهل به إبراهيم عليه السلام. ابتهل إبراهيم لربه داعيا: رب اكتب الأمن لمكة هذا البلد الذي أسكنت فيه ولدي وأمه. واحمني وابنيَّ إسماعيل وإسحاق من عبادة الأصنام. قد عظم خوفي لما رأيت كثرة العابدين لها. إن من تبع منهجي في العقيدة والسلوك هو مرتبط بي نُكَوِّنُ معا وحدة. ومن عصاني فأمره إليك ربي. أنت الغفور الرحيم فقد تهديه برحمتك وتغفر له ما سلف من أمره بفضلك. ربنا إنني، تبعا لأمرك، أسكنت بعض ذريتي، إسماعيل ومن تناسل منه بهذا الوادي بين الجبال، أرض صخرية لا تصلح للزراعة ولا للغراسة، حول بيتك الذي حرَّمته فمنعته عن المعتدين، وشرعت من تقديسه ما به حمَيْتَه. ومقامهم في هذا المكان يصرفهم لعبادتك وإقامة شعيرة الصلاة على أفضل وجوهها؛ فيسر لهم الحياة بما تغرسه من حب وشوق في عقول ومشاعر قسم من الناس، فيسرعون إليهم رغبة في جوارهم وتعلقا ببيتك. وألهمهم شكر نعمتك. ربنا إنك العليم بإخلاصنا، فما نعلنه وما نخفيه سواء عندك، إنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء.

بيان المعنى العام :

35←38: وإذ قال إبراهيم ...من شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد أن لفت الأنظار إلى مظاهر القدرة الإلهية، ومختلف أنواع الفضل الإلهي ليجلب أهل مكة إلى الدخول في الإسلام. عقب ذلك بالتذكير بابتهالات إبراهيم، وهو أبوهم الذي يجدون في الانتساب إليه، والقيام على البيت الذي بناه شرفهم، وذلك مما يؤكد الوفاء بالنهج الذي كان حريصا عليه أشد الحرص. المنهج الذي أحياه رسول الله.

اذكر يا محمد ذلك الظرف الذي قام فيه إبراهيم داعيا ضارعا إلى ربه، وقد ترك إسماعيل وأمه بمكة لا أنيس لهما إلا رعاية الله. فلنتبع ما حفظه القرآن وذكر به.

أولا: رب اجعل هذا البلد آمنا. دعا مستنجدا مستحضرا أنه يدعو من توالت عليه ألطافه وتكريمه، بما تفيده كلمة الرب تبعا لأصلها (التربية) من الرعاية وقوة الارتباط بين المربَّى ومن تولى تربيته. أشار إلى المكان القفر الذي هو فيه وسماه بلدا، اعتمادا على ما تلقاه من الله من وحي يطمئنه بعمران ذلكم المكان. ومن حكمته عليه السلام أن طلب أولا الأمن الذي به يتواصل العمران، وفقدانه مؤذن بالخراب. أجاب الله دعاءه حتى إنه في العصر الجاهلي الذي فقد الأمن في الجزيرة العربية،

أقرّ الله في قلوب العرب حرمة مكة فقال تعـالى: (ألـم يـروا أنـا جعلنـا حرمـا آمنـا ويتخطف الناس من حولهم)[1]-

ثانيا: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس-دعا أن يحميه ويحصنه مع بنيه من عبادة الأصنام . وبنوه يوم دعائه إسماعيل عليه السلام جد محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وإسحاق جد موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

والأصنام منحوتات على شكل البشر تقـام لتعبـد مـن دون الله. وأتبـع دعـاءه بحمايتـه من عبادة الأصنام بإظهار حذره من التحول عـن عبـادة الله إلـى عبـادة الأصـنام، وإن كان عليه السلام رسـولا كريمـا جاهـد فـي سـبيل التوحيـد جهـادا متميـزا. وذلـك لإبـراز اشمئزازه الشديد من الضلال الذي شاهد كثيرا مـن النـاس فـي عصـره سـقطوا فيـه. روي عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قوله: من يأمن علـى نفسـه بعـد خـوف الخليـل على نفسه من عبادة الأصنام؟ والذي أفهمـه أنـه مـن التعـاليم التـي سـنها إبـراهيم أن يكون الناس على حذر من سـوء العاقبـة. كتـب الله لنـا ولكـم المـوت علـى حسـن الخاتمة.

ثالثا: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنـك غفـور رحـيم - أعلـن أنهمـا منهجـان: منهجه القائم على التوحيد الخالص، وبه تتكـون مـن المـؤمنين جماعـة واحـدة يؤلـف بينها العقيدة وتشرف بانتسابها إليـه. ومـنهج الشـرك وعبـادة الأصـنام ويتبـرأ مـنهم ويُوكِلُ عاقبتهم إلى الله الذي يحكم ولا معقب لحكمـه. ومـن صـفته الغفـران والرحمـة. وليس معنى تعقيبه هذا أنـه يرجـو لعبـدة الأصـنام المغفـرة لأن الله يقـول: (إن الله لا يغفر أن يشرك به)[2]، ولكن على معنى أن يفتح علـى بصـائرهم فيهتـدوا لتـرك عبـادة الأصنام وتوحيد الله كما قال تعالى. قـل للـذين كفـروا إن ينتهـوا يغفـر لهـم مـا قـد سلف)[3] - وذلك تبعا لقلبه الكريم الذي يحب الخير للبشرية .

رابعا: ربنا إني أسكنت مـن ذريتـي بـواد غيـر ذي زرع عنـد بيتـك المحـرم ربنـا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من النـاس تهـوي إلـيهم وارزقهـم مـن الثمـرات لعلهـم يشكرون -

واصل ابتهالاته بعرض الوضع الذي ترك فيه إسماعيل وأمـه فـي ذلـك الـوادي الـذي لا نبات به ولا زرع. والله يعلم المكان الـذي امـره أن يسـكنهما، ولعـل ذلـك إظهـارا

---

[1] سورة العنكبوت آية 67

[2] سورة النساء آية 116/48

[3] سورة الأنفال آية 38

للتضرع وقوة الحاجة للتأييد، فـإن مقومـات الحيـاة والعمـارة معدومـة، فَـذَكَرَها عنـد ابتهاله استنزالا للرحمة التي تطمئنه عليهما، ولا مورد لها إلا من ذلكم الباب.

وقرن خصائص المكان بأنه جمع بـين كونـه قحـلا لا يصـلح للزراعـة ولا للغراسـة، وبين رفعة المقدار بجوار البيت الذي حرَّمـه الله فمنـع المسـتبدين مـن الاسـتيلاء عليـه أو تحويله عن وضعه، أو الإضرار بساكنيه إضرارا يلجـئهم إلـى الهجـرة منـه فيسـرع إليه الخراب. وعلل مظهرا ما كشفه الله لـه: بـأن إقـامتهم فـي ذلـك المكـان تسـاعدهم على إقامة الصلوات تقربا إلى الله، بقلة الشواغل الصارفة عنها.

ثم ابتهل إلى الله أن يعوِّضهم عن فقر أرضهم، بحب النـاس لهـم وشـوقهم إلـى بلـدهم، فيسرعون إلـيهم بعوامـل نفسـية وروحيـة. وتنسـاق إلـيهم مـع الوافـدين المَشُـوقين الخيرات، رجاء أن يقدروا النعمة حق قدرها فيقوموا بواجب الشكران.

خامسا: **ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفـى علـى الله مـن شـيء فـي الأرض ولا في السماء -**

وَصَلٌ لدعائه بما تتنزل به الرحمات وتتحقق الإجابـات، وهـو التعبيـر عـن الإخـلاص الذي لا يطلع عليه إلا رب العالمين، باعتباره مما يجـري فـي بـاطن الـداعي. وبمقـدار صفائه يقوى الرجاء في الإجابة التي كان إبـراهيم عليه السلام شـديد الحـرص علـى تحققهـا. وأتم بالتذكير بالقاعدة الإيمانية التي تفيد تفرد الله بسعة العلـم وشـموله لكـل مـا يجـري في الكون. وفيه تعليم لذريته ومتبعي منهجه.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقيم الصلاة : أؤدي الصلاة بصفة مستمرة، وعلى أكمل الوجوه.

يقوم الحساب : يتحقق الحساب. ويبعث الناس من قبورهم ليوقفوا فيحاسبوا.

بيان المعنى الإجمالي :

ابتهالات زكية سجلها القـرآن صـادرة عـن إبـراهيم عليه السلام افتتحهـا بالثنـاء علـى الله، وذكر نعمه عليه اعترافا بها، والتي منها أنه وهـب لـه، بعـد أن تجـاوز السـن المعتـاد للإنجاب، النبيين الكريمين إسماعيل وإسـحاق. وأعلـن عـن ثقتـه فـي قـرب الله مـن عبيده يسمع دعاءهم ويجيب طلبتهم .وواصـل ابتهالاتـه بـأن ييسـر لـه الـدوام علـى

إقامة الصلاة، وأن يلحق به من ذريته في ذلك. وأكد التوجه بقبول دعائه، وختم ابتهالاته بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين.

بيان المعنى العام :

39←41: الحمد لله الذي وهب...يوم يقوم الحساب.

هذا من الأدب الذي هُدِيَ إليه إبراهيم عليه السلام، ليكون بذلك قدوة للمؤمنين بعده. وهو أن يعقب الدعاء بالثناء على الله، وبذكر النعم التي تفضل بها عليه.

قال إبراهيم: الثناء الأتم الأكمل لله الذي تفضل عليَّ فلم يجعلني مقطوع النسل، ولم يقطع أملي فوهب لي، رغم تقدم سني إلى الأمد الذي يتوقف فيه البشر عن الإنجاب، ولدين صالحين إسماعيل وإسحاق. وتشير الآية إلى أن إبراهيم كان يدعو ربه: أن يمتد نسله في الإيمان، وأن يخلفه من ولده من يواصل الدعوة إلى التوحيد. إن ربي سميع لدعائي، أجابني بتحقيق طِلبتي.

ثم عبر عما ألفه وأحبه ويرغب رغبة أكيدة في مواصلة القيام به، وهو أن يواصل في حياته إقامة الصلاة بأدائها على أتم الوجوه المقربة للمرء من ربه. وأن يمن على بعض ذريته بذلك فتستمر فيهم عبادة الله بإقامة الصلاة. وأكد الدعاء لتحقيق ما ابتهل به: إن ربي سميع الدعاء، أي مجيب لمن أخلص في دعائه. وألْحَق بدعائه المذكور في الآية أن يتولاه بالمغفرة، لما قصَّر فيه، وأن يسحب هذه المغفرة على والديه وعلى المؤمنين يوم يقوم الناس، وينهضون من قبورهم ليحاسبوا على ما قدموا. أما المؤمنون فقد تقدم قوله، فمن تبعني فإنه مني، وأما أبوه فقد تقدم في سورة التوبة آية 115 أن إبراهيم تبرأ من أبيه لما تيقن عدواته للتوحيد.

في ختام هذه الابتهالات ما ينادي بقيمة الصلاة في حياة الإنسان، التي قال فيها النبي ﷺ: وجعلت قرة عيني في الصلاة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ
فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ
﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن
زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا

بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفلة : الذهول.

تشخص الأبصار : ترتفع الأبصار.

الإهطاع: إسراع المشي مع مد العنق

إقناع الرأس : طأطأته من الذل.

الطرف : تحرك جفن العين.

الهواء : الخلاء.

إتيان العذاب : وقوع العذاب.

قريب: قليل.

المكر : إضمار فعل السوء بالغير.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما يرفل فيه المشركون المتمردون الظلمة من نعيم، هو نعيم زائل وقليل، ولا تظنوا أن الله غافلا عن قبائح أفعالهم وسوء عقيدتهم. كل ما في الأمر أن الله أمهلهم ليجزيهم عما قدموا. تراهم في يوم الجزاء وقد أحاط بهم هول العذاب من جميع الجوانب فشخصت أبصارهم، فلا تتقلب من شدة الهول. يسرعون ورؤوسهم ممتدة يغشاها الذل، توقفت جفونهم فلا يستطيعون إغماضها. وقلوبهم وعقولهم فارغة خاوية ذهب كل ما كان يعمرها من قبل. أنذِرْهم منبها بأنهم عندما يحين يوم العذاب يتوجه الذين ظلموا، بالشرك والتعدي على حقوق البشر، إلى الله بالسؤال أن يمهلهم بإرجاعهم إلى الدنيا وقتا قليلا يظهرون فيه إيمانهم وإجابتهم للدعوة التي بلغها إياهم رسول الله ﷺ . وسيكون الجواب: ألم تكونوا أقسمتم من قبل في الدنيا وأكدتم أنكم لا تخرجون من قبوركم. وبلغ من عنادكم أنكم حللتم في مساكن الذين دمرناهم من الأمم السابقة وأقمتم فيها، وتبين لكم بجلاء كيف انتقمنا منهم، وضربنا لكم على لسان رسولي في القرآن الأمثال الموقظة للعقول والقلوب، فأعرضتم عن كل ذلك.

ثم ثبت الله نبيه والمؤمنين، بأن المشركين قد دبروا لهم ما يؤذيهم في خفاء، والله عليم بما يمكرون، وما كان مكرهم ليؤثر في الجبال فيهدها، إن مكرهم ضعيف يتحطم على صلابة الرسول والمؤمنين الذين هم كالجبال.

بيان المعنى العام :

42←43: ولا تحسبن الله غافلا...هواء.

- تمرد مشركو مكة، وقد بسط الله لهم في الرزق والقوة، وكانت حظوظ زعمائهم موفورة من المال والجاه، فخيل إليهم أن الخير الذي هم فيه لا ينقطع ويصاحبهم في حياتهم وبعد موتهم. فهددهم القرآن بأن الله يمهلهم ولا يهملهم، إنه غير ذاهل عن أفعالهم، مطلع على ظلمهم الفظيع بالشرك بالله. فيكون المعنى لا تظنن أن عدم تعجيل العقوبة للمشركين الظالمين غفلةٌ عن جزائهم بقبيح فعالهم. ولكن الله قدر لكل شيء أجله، فهو تبعا لحكمته قدر تأخيرهم ليوم مهول: من صفة هذا اليوم:

أولا: أن أبصارهم تكون واقفة لا تتحرك من شدة الهول، يلهيهم ما هم فيه عن تقليب النظر وتحويل البصر. وضع أبصارهم كوضع العيون في حالة الاحتضار. إن دلالة العيون على الوضع النفسي دلالة مؤكدة لا تكاد تتخلف. فالحزن والتفاؤل والفرح والذهول والحيرة ونحوها، تنبئ عنها أوضاع البصر، فمن الدقة القرآنية في استحضار صورة المشركين يوم القيامة لفت الأنظار لوضع أبصارهم .

ثانيا: يسرعون في المشي مع مد العنق إلى الأمام بذلة واستكانة، كإسراع الأسير الخائف.

ثالثا: مقنعي الرؤوس: رؤوسهم مطأطاة من الذل.

رابعا: لا يرتد إليهم طرفهم: لا يقدرون على تحريك جفونهم، فتبقى ثابتة في وضعها لما داهمهم وما شاهدوه من الهول.

خامسا: أفئدتهم هواء: عقولهم خاوية ذهب منها كل ما تحويه، من شدة الموقف الذي أحاط بهم هوله من كل جانب.

إن ما مكنهم الله منه من نعم زائلة في الدنيا، لا تساوي لحظة من لحظات هذا الموقف المفزع الذي حددت بعض ملامحه الآيتان.

43←45: وأنذر الناس يوم يأتيهم...وضربنا لكم الأمثال.

الآيتان السابقتان كشفتا عن الوضع النفسي وعن حالة حواس المشركين يوم القيامة. وأردفت هذه الآيات صورة قمعهم ورفض توسلاتهم وتقريعهم ليكونوا على بينة من مآلهم فيقلعوا عن مواصلة الكفر ورفض الدعوة الإسلامية. فالغاية من هذه الآيات الثلاث إنذارهم لتغيير موقفهم.

مضمون الإنذار: أن المشركين الذين ظلموا بشركهم، وظلموا المؤمنين، وما كان يردعهم عن الظلم رادع، أنذِرْهم منبئا لهم بموقفهم يوم القيامة، يوم يشاهدون أهواله التي فُصِّل شيء منها في الآيتين، فيتوسلون إلى الله أن لا يعاجلهم بالعقوبة، وأن يؤخرهم قليلا قبل حسابهم وجزائهم، ليعبروا عن استجابتهم للدعوة بالإيمان، ويَتَّبِعُوا ما يأمرهم به المرسلون فيما يقبلون عليه وما يدعونه من الأعمال.

وهيهات يكون قمعهم وحرمانهم من قبول توسلاتهم بتـذكيرهم بمـا كـانوا أقسـموا عليـه في حياتهم الدنيا وأكدوه تأكيدا بالغا: أنهم لا ينتقلـون مـن قبـورهم إلـى الحشـر (مـالكم من زوال) على معنى إنكارهم الشديد للبعث.

ويتواصل تقريعهم وتوبيخهم، بأنهم لما كـانوا فـي الـدنيا كـانوا يمـرون فـي رحلاتهـم إلى الشام على ديار ثمـود، ويمـرون علـى ديـار عـاد فـي رحلاتهـم إلـى الـيمن، ويحطون رحالهم في منازلهم الخربة، ويشاهدون ويـرون مـا حـاق بهـم مـن العـذاب الذي استأصلهم. فقد تبينوا بذلك تبيُّنا يقينيا ما حـل بهـم مـن العـذاب. ومـع ذلـك فقـد أرسل الله لهـم رسـوله يعظهـم ويـذكرهم بمختلـف أنـواع التـذكير. (و ضـربنا لكـم الأمثال) نعم تكررت الأمثال الموقظة للعقول الكاشـفة عـن سـنة الله التـي يجريهـا فـي القوم الظالمين، ولكنهم واصلوا التكذيب والصد عن سبيل الله.

46- وقد مكروا...منه الجبال.

لقد هيأ المشركون ما يدفعون به الـدعوة بخبـث كبيـر. ودبـروا فـي الخفـاء ضـروبا ظنوا أنها ستوقف المد الإسلامي، وظنوا أن الله غيـر مطلـع علـيهم، فـواجههم القـرآن بالتأكيد على أن الله عليم بما يمكرون. ثـم هـوَّن علـى رسـوله وعلـى المـؤمنين مـا يبيتونه لهم، فقال تعـالى: (وإن كـان مكـرهم لتـزول بـه الجبـال) – إن– أداة نفـي، على معنى وما كان مكرهم لتزول منـه الجبـال، أي إن مكـرهم ضـعيف لا يسـتطيع أن يزيل الجبال الراسيات. فالرسول والمؤمنون صـامدون واثقـون، ومـا دبـره المشـركون لا يؤثر فيهم، وفيه إيماء للاستخفاف بهم وللتنويـه فـي المقابـل بصـلابة المـؤمنين فـي دينهم، وأنه لا يزعزعهم مكر المشركين.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبديل : التغيير.

برزوا : ظهروا بين يدي الله لا يواريهم بناء ولا حصن.

التقرين : الجمع بين اثنين بحبل كما يجمع بين الثورين.

الأصفاد : جمع صفاد وهو القيد والغل.

سرابيل : جمع سربال وهو القميص.

القطران : دهن أسود معروف، للنار فيه اشتعال شديد.

بلاغ : تبليغ وإيصال.

بيان المعنى الإجمالي :

تيقنْ أن الله سيتم وعده الذي وعدك، سيحقق لك نصره، وظهور الإسلام على الدين كله. إن إمهال الكافرين وعدم تعجيل العقوبة، هو تابع للتقدير الإلهي. ويؤكد ذلك: أن الله عزيز لا يمكن أن يرد حكمه راد، بل ينفذ ما أراد كما أراد. وهو القادر القدرة الكاملة على الانتقام، من الكافرين والطغاة.

وذكِّرهم باليوم الذي تتغير فيه الأرض والسماوات، فلا تكون خصائصها على ما تشاهدونه في الدنيا. وفي هذا اليوم يظهر المجرمون مكبلين ومجموعين بالقيود والأغلال. يغطي القطران أجسامهم، تلكم المادة التي تختزن الحرارة فترتفع درجتها وتلتصق بالجلود فتمزقها، وتغطي النار وجوههم فتستوعبها. وهو يوم يظهر فيه العدل الإلهي فتُجزَى كل نفس بما اختارت ونفذت ما اختارت. وجزاء البشر بما قدموا يتم في سرعة تفوق التصور. إن الله سريع الحساب.

استحضر القرآن في خاتمة سورة إبراهيم مجموع ما جاء فيها، فأشار إليه بأنه أمر أراد الله إبلاغه للناس ليستيقظوا، ولينذرهم به من عاقبة التهاون به، وليعلموا علم اليقين أن الله واحد لا شريك له، وليتدبر فيه أصحاب العقول الناضجة فيرشدوا فكرا وعملا.

بيان المعنى العام :

47- فلا تحسبن الله مخلف...ذو انتقام.

قاوم المشركون الدعوة الإسلامية، وآذوا المؤمنين، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة. وكل أمر مرتب عند الله في أجله لحكمة يعلمها. سلّى النبي ﷺ فخاطبه مؤكدا: إن الله لا يُخْلِفُكَ يا محمد ما وعدتك من النصر، وأنت في هذا على سنن المرسلين. ولذلك جمع لفظ الرسل والمقصود محمد ﷺ. إن الله الذي وعدك بالنصر والتأييد وإظهار دينه عزيز قادر لا يحول بينه وبين مراده أي شيء، جرت سنته في التاريخ البشري أنه لا يهمل المفسدين الظلمة، وينتقم منهم في النهاية انتقاما لا مفر لهم منه.

48←51: يوم تبدل الأرض غير الأرض...سريع الحساب.

ظن المشركون أن أوضاع الحياة الآخـرة كأوضـاع الحيـاة الـدنيا. وأن القـوانين هـي عينها . ولذا سجل عليهم أنهم ينتصرون بشـفعائهم (مـا نعبـدهم إلا ليقربونـا إلـى الله زلفى)[1] – وأن أموالهم سـتحميهم مـن العـذاب الموعـود بـه، وأنهـم يعتمـدون علـى أتباعهم وعلى كثرة أولادهم، (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى)[2]

إن أوهامهم تلك منقوضة إذ استندت إلـى أن أوضـاع الآخـرة كأوضـاع الحيـاة الـدنيا. هدَّمت الآيـات الـثلاث تصـوراتهم، وصـرحت بـأن الأرض غيـر الأرض، والسـماء غير السماء ؛ يؤثر الله فيهـا فيغيرهـا ويبـدلها. ويحقـق القـرآن أنهـم يخرجـون مـن الكوامن التي كانت تحويهم، يبرزون منها ظـاهرين سـواء أكانـت قبـورا أم ذرات مـن هباء أجسامهم. وإلـى مـن يبـرزون ؟ يبـرزون لله الواحـد الأحـد، لا رب غيـره ولا مالك في ذلك اليوم سواه، هـو قـاهر الجبـابرة والطغـاة والمسـتكبرين، يبـرزون أذلاء تحت سلطان قهره.

و يكشف الله المجرمين، ويرفع عنهم سـتره، فيـراهم كـل مـن يتصـور منـه الرؤيـة أسرى مقرونين بحبال تشدهم إلى بعضـهم، وقـد صُـبَّ الـذل علـيهم صـبا، يـرونهم وعليهم ثياب من قطران. تلكـم المـادة التـي تختـزن الحـرارة فتقـوى فيهـا، وتتمَـزَّعُ جلود من صبت عليه، ويلتصق بهـا القطـران فيتضـاعف عذابـه، وقـد غطـت النـار وجوههم واحتوتها.

إن الله يجمع الناس يوم القيامة ليجزي كل نفس بما فعلتـه، بعـد أن اختارتـه ثـم أرادتـه ووجهت له قصدها. وهنا يكون الجزاء وفق مـا كـان عليـه العمـل مـن خيـر أو شـر وحسن أو سوء. ولا تظنـوا أن أمـر الآخـرة كـأمر الـدنيا. يقتضـي أزمانـا لا تحـد لإيقاف كل صالح على أعماله ثم تحقيق ما يسـتحقه مـن جـزاء، وإيقـاف كـل شـرير على أعماله واعترافه بها ثم تسليط العقوبة العادلة عليـه. إن الأمـر مختلـف عـن ذلـك تماما. إنه يتم الحساب يوم القيامة بأمر الله في سرعة تفوق التصور.

52-هذا بلاغ للناس...الألباب.

هذا المذكور في سورة إبراهيم حقائق منزلـة عليـك لتبلغهـا للنـاس قاطبـة، وفـي هـذا التعقيب ما يرشد المؤمن إلى التأمل العميق فيما حوتـه. فقـد أظهـره الله للعـالمين قصـد أن تحتل مضمونات هذه السورة مراكز تفكـرهم ليسـتيقظوا مـن غفلاتهـم، ولينفـذ إلـى قلوبهم ومداركهم، فتنكشف لهم العواقب فيسـتقيموا فـي حيـاتهم (ولينـذروا بـه) ولتقـوم

---

[1] سورة الزمر آية 3

[2] سورة سبأ آية34

الأدلة التي لا تقبل النقض ولا التشكيك، فيحتل العلـم اليقينـي عقـولهم بـأن الله واحـد لا شريك له. وليكون في بيانها، وما ضرب فيها مـن الأمثلـة مـا يلفـت أنظـار أصـحاب العقول السـليمة والنابهـة، ليتـذكروا ويتـأملوا فتكـون لهـم مسـالك للإيمـان برسـالة الإسلام. وبهذا تومئ الخاتمة إلى منزلة المـؤمنين مـن الصـحابة ومـن يـأتي بعـدهم، بأنهم الأحقاء بوصف العقل الناضج (**ذوي الألباب**).

3 ذو القعدة 1432-2011/9/30

سورة الحجر

سورة الحجر هي السورة الخامسة عشرة في ترتيب المصحف. أجمع المفسرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسم. أخذ اسمها من خبر أصحاب الحجر الذي لم يذكر إلا فيها. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. عدت الرابعة والخمسين حسب ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : هو القرآن لأنه مأمور بكتابته لتوثيقه توثيقا يحفظه من التحريف والنسيان. وسمي كتابا قبل أن يتم إنزال جميعه.

مبين : معجزاته واضحة بينة.

ذرهم : فعل أمر لم يسمع ماضيه، بمعنى اترك.

يلهيهم الأمل : يستولي عليهم الأمل فينسيهم ما حقهم أن يتذكروه.

القرية : التجمع السكني من المباني اتسع كثيرا أو لا.

تسبق أجلها : تعدم قبل حلول الأجل المقدر لإهلاكها.

بيان المعنى الإجمالي :

أشار القرآن إلى الآيات المنزلة من القرآن باعتبار أنها حاضرة في ذهن المخاطبين. إنها في مجموعها تمثل الكتاب الذي أمر الله بكتابة نصه وقراءته قراءة يتبعها حفظه في الصدور. إنه كتاب مبين واضح، الدلالة على صدقه من ذاته .إن المكذبين به قد يندمون على تكذيبهم به ويودون أن لو كانوا قد انضموا إلى الأمة الإسلامية. لا تأسف على عنادهم واتركهم في ضلالهم فإنهم يعيشون عيشة الأنعام، همُّهم في بطونهم وفي متاع الحياة الدنيا القصير أجلُه السريعُ الفناء، وهدِّدْهم بأنه سيعلمون العذاب الذي سيسلط عليهم.

سنهلكهم كما أهلكنا القرى التي كفرت من قبلهم، ولكن لكل قريـة أجـل مكتـوب معلـوم لا يتغير عن موعده فلا يتقدم ولا يتأخر.

بيان المعنى العام :

1←2: ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ...لو كانوا مسلمين.

افتتحت هذه السورة بما افتتحت به سـورة يـونس مـن قبـل. والكـلام علـى الحـروف المقطعة تقدم بيانه في أول سورة البقرة.

استحضر القرآن ما تم إنزاله على رسول الله ﷺ وبلغه للنـاس مـن القـرآن. ولمـا كـان ذلك حاضرا أشار إليه بقوله تلـك آيـات الكتـاب، فـإن الآيـات المنزلـة لـدخولها فـي العقول والمشاعر وفي إرشادها للنشاط الفكري والعملـي والعقـدي، حاضـرة يشـار ليهـا في كل وقت كالشيء المشاهد. وأضاف لفظ الآيات للقـرآن ذاكـرا لـه، بكونـه قرآنـا، وبكونه كتابا. وإن كان المراد بـالقرآن والكتـاب واحـدا، إلا أن هـذا الجمـع هـو فـي نظري، والله أعلم، لإبراز الميزة التي اختص بها القـرآن مـن بـين الكتـب السـماوية. إن بقية الكتب التي أنزلها الله على رسله، قدر أنها تعتمـد إلـى الأجـل الـذي يتلـوه كـل رسول لمن سبقه، فيعتمد البشر الكتاب الأخير. واعتمـد المرسـل إليـهم علـى مـا وثـق كتابةً فقط أو بـالحفظ، ومـع تطـاول الـزمن وانتشـار الأميـة، أدمـج القـائمون علـى التوجيه الديني بعد الرسل زيادات ونقصوا مـا كـان مخالفـا لأهـوائهم أو مـا لـم تَـرْقَ عقولهم لفهمه، وتراكم ذلك حتى كان كـل كتـاب ينعـدم مـن الوجـود أو يتغيـر تغيـرا يفقد الثقة به مع الزمن. ولما أراد الله أن يكـون الإسـلام خـاتم رسـالاته إلـى البشـر، يسر لحفظ القرآن عاملان، بهما يتم التقابل والثقة:

العامل الأول: هو كتابة كل نص ينزل علـى رسـول الله ﷺ بمجـرد نزولـه، فقـد كـان للنبي ﷺ كتبة للوحي معروفون بأسمائهم. ثم إنه فـي عهـد أبـي بكـر الصـديق رضـي الله عنه جمع ما كان مكتوبا مرتبا حسب ما كان يأمر بـه النبـي ﷺ بقولـه اكتبـوا هـذه الآية في مكان كذا، أي قبل آية كذا وبعد آيـة كـذا. وبقـي المصـحف مجموعـا تحـتفظ به أم المؤمنين حفصة إلى عهد عثمان رضي الله عنه، فـأمر بنسـخ نسـخ منـه وزعـت على مراكز العالم الإسلامي. فما يـذكره بعـض الجهلـة مـن أن الجـامع للقـرآن هـو عثمان غير صحيح. وإنما مزية عثمان رضي الله عنه وهـي مزيـة لا تنكـر، أنـه نشـر القرآن في نسخ مجموعة على جمع أبي بكر. أي إن أبـا بكـر رضـي الله عنـه الخليفـة الراشد ألهمه الله مع الصحابة إلى الإسراع بجمـع القـرآن مرتبـا علـى الترتيـب الـذي هو عليه الآن في السنة الأولى التالية لانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

العامل الثاني: هو حـرص الصـحابة رضـوان الله علـيهم علـى حفـظ القـرآن فـي ذاكرتهم حفظا جيدا. وكان الحفظـة للقـرآن كلّـه معـروفين فـي ذلـك العهـد، وإلـيهم المرجع في إقامة القراء له على النص القرآني كمـا أنـزل. وبقيـت هـذه السـنة أعنـي العناية بحفظ القرآن كله في الذاكرة وتعهده حتـى لا يتفلـت منـه شـيء، ظـاهرة تتميـز بها الأمة الإسلامية. ومن مظاهر ذلك تلاوته في محاريـب المسـاجد مـن حفـظ الأئمـة في صلاة التراويح في شهر رمضا ن. وقد شاهدت عبـر شاشـة التلفـاز بابـا الكاتوليـك الذي يعد العالِم الأول في الدين المسيحي، أنه كلمـا أراد أن يستشـهد بـنص مـن الكتـاب المقدس يقدم له تابع بين يديه النسخة ليتلو منها ما يريد تلاوته.

فبالجمع في حفظ القرآن بين التوثيق بالكتابة، والحفظ فـي الصـدور، يكـون قـد اجتمـع بذلك للقرآن عاملان للحفظ يدفعان عنه كل تغيير بالزيـد أو النقصـان. **إنـا نحـن نزلنـا الذكر وإنا له لحافظون**. فحفظه رب العـزة بقـوانين فـي الحفـظ التـي لا يسـتطيع أن يجادل فيها أي عالم. زيادة عن اليقين بتحقق مضمون الآية عند المؤمنين.

و أتبعت الآية بوصف الكتاب بأنه مبـين، للدلالـة علـى أن شـاهد إعجـازه مـن نفسـه، فهو في ذاته كاشف عن صدق الرسول مبين لذلك ومعـرف لكـل مـن يتأمـل فيـه أنـه من عند الله. ليس لرسول الله ﷺ دخل في نظمه، بلّغه كما أوحـي إليـه بـه مـن عنـد الله عن طريق ملك الوحي جبريل عليه السلام.

وإذ كان القرآن واضح البيان؛ إعجـازه مـن ذاتـه، فعنـاد المشـركين وإعراضـهم عنـه يكون جالبا لندمهم يوم لا ينفع ندم. قـد يـودون أن لـو كـانوا منـدمجين فـي الجماعـة الإسلامية. ثم إن هذا التمني الذي دلت عليه كلمة – لو – هل هـو تمـن فـي الـدنيا عنـد حلول الهزائم بهم، عنـدما يحـاربون المسـلمين بالسـلاح ويحقـق الله نصـر المسـلمين عليهم، أو هو عند حلول العذاب بهم يوم القيامة فـي جهـنم، والتفضـل علـى المـؤمنين بالنجاة من النار وإدخالهم الجنة؟ الآية تحتمـل الـوجهين، وقـد ذهـب إلـى كـل منهمـا بعض المفسرين، وإن كنت أرجح الوجه الثـاني لأنـه هـو الحالـة التـي تعـم جميـع الكفرة .

3- ذرهم يأكلوا ويتمتعوا....فسوف يعلمون.

هذه الآية قصد بها تهديد المشركين، ولـذا يجـب أن تفهـم صـياغتها علـى مـا يـؤدي إلى ذلك القصد. افتتحت بقوله تعالى: **ذرهم** – هو صـيغة أمـر لـم يسـمع ماضـيه فهـو متروك الاستعمال فـي اللسـان العربـي ومعنـاه: اتـركهم، ولا تهـتم بشـأنهم اهتمامـا يُحْزِنك. وقد نزلت الآية بمستواهم إذ ألحقتهم بالأنعام الـذين لـيس لهـم هـم فـي الحيـاة

إلا الأكل والشرب، والتمتع بالشهوات. وتستولي عليهم الآمال التي يتابعونها في لهفة على تحققها. وما كان لها أن تتحقق لأنها سلسلة يولد كل أمل أملا آخر فيجري وراءها الكفرة لاهثين. والخيبة تترصدهم بمقدار ما تتسع آمالهم. وينسون، بقوة اتساع آمالهم، ما كان يجب عليهم أن ينظروا فيه ويكونون على ذكر منه.

وقوله تعالى: "فسوف يعلمون"، هي صيغة كثر استعمالها في التهديد بسوء العاقبة وأنه سيحل بهم ما لا يتصورن فظاعته.

4←5: وما أهلكنا من قرية ...وما يستأخرون.

لما هدد القرآن الكافرين في الآية السابقة بقوله فسوف يعلمون، على أن تحقق الوعيد سيأتي في المستقبل، بينت الآيتان سنة الله في تسليط العذاب على الكافرين، وإبادة مدنهم التي يتجمعون فيها. بينت ذلك على أن الوعيد لا يكون صدفة، وإنما هو محدد الأجل مُثْبت مكتوب عند الله ميعاده. فلا يحل العذاب بأمة من المهلكين قبل الأجل الذي كتبه الله وضبطه في سابق علمه، كما لا يتأخر العذاب عن أي فرد ممن قدر لهم الهلاك.

وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الذكر : الكلام الموحى به ليتلى ويكرر.

المجنون : الذي اختل عقله حسب تصورهم من أثر مس الجن.

لوما : حرف تحضيض.

النزول : الانتقال من علو إلى سفل.

الحق : المقضي.

الإنظار التأخير.

بيان المعنى الإجمالي :

زعم الكفار أنه من المستحيل أن ينزل الله وحيه على رسول الله ﷺ، وأن ادعاءه أنه موحى إليه يقوم شاهدا على أن به مسًّا بعقله من الجن. ثم حرضوه ليأتي بالملائكة تشهد بصدقه إن كان من الصادقين حقيقة. ورد عليهم القرآن بأن الملائكة لا تنزل

على غير رسل الله إلا منفذة للعذاب الساحق المقدَّر للمكذبين الفاسقين. فلو نزلت عليهم الملائكة لما أُجِّلوا، ولحل عليهم العذاب الماحق حالاً، وسُد عليهم الباب الذي يرجى لهم من الهداية.

ثم ذكر سبحانه خاصية من خصائص القرآن تؤكد أنه نزل من عند الله .هي أنه سبحانه قد تكفل بحفظ القرآن من التغيير . وبهذا خالف جميع ما يصدر عن البشر لأنه معرض ولا بد للتغيير.

بيان المعنى العام :

6←7: وقالوا يا أيها الذي نزل عليه... إن كنت من الصادقين.

بعد أن هددت الآيات السابقة المشركين بصفة عامة، أخذت هذه الآيات تناقشهم وترد ما اعترضوا به، وما توهموه من سند لهم في كفرهم بالرسالة.

واجهوا الرسول ﷺ بكل وقاحة فقالوا له: من المؤكد أنك مجنون، على معنى: إنك في ادعائك أنك مرسل من عند الله ما يقيم الدليل أن بعقلك مسا من الجنون، تبعا لاعتقادهم الفاسد أن ادعاءه تلقيه للوحي من الله لا يقول به عاقل سليمةٌ مداركه.

وَدَعْوَهُ بأنه الذي نزل عليه الذكر استهزاء به. أخذوا هذا المعرف من كلامه ﷺ، وليس عقيدة لهم. والذكر الذي وصف به القرآن والوحي يفيد أمرين:

أولهما: أنه نزل ليتلى ويكرر، على ما تفيده التلاوة من الذكر والإعادة للحقائق التي تضمنها من العقيدة والتشريع والإرشاد.

وثانيهما: أنه بما أنزل عليه من الوحي ينتشر ذكرهم في العالمين، ويسمو مقامهم، قال تعالى: (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) [1]–

و عرضوا عليه ملجئين له، يحثونه أن يأتي بالملائكة، يشهدون له بأنه من زمرة الصادقين، الذين التزموا بالصدق في أقوالهم. وليس غرضهم سماع شهادة الملائكة، ولكن ليقيموا عليه الدليل حسب زعمهم: أنه ليس رسولا. ومن سوء أدبهم أن شككوا في كونه من الصادقين بفرض ذلك مع حرف إن (إن كنت) التي خصصت في الكلام العربي بدخولها على الفرض القليل المستبعد وقوعه.

8←9: ما تنزل الملائكة إلا بالحق ...وإنا له لحافظون.

سأل المشركون في الآية السابقة أن تتنزل عليهم الملائكة شاهدة للرسول بأنه من الصادقين. فعرفهم القرآن بأن إنزال الملائكة على الأقوام لا يكون إلا لتنفيذ العذاب

---

[1] سورة الأنبياء آية 10

المقدر لهم. ذلك أن الملائكة ينزلون على الرسل حاملين للوحي هداية الله للبشر، وينزلون على المكذبين للرسل المتجاوزين لحدود الله لينفذوا العذاب الذي أمروا بتسليطه عليهم؛ فما ينزلون على غير الرسل والأنبياء إلا بالعذاب الماحق الذي يستأصل المنزل عليهم. إنه لو نزلت الملائكة، فإن معنى ذلك أنهم يستحقون حالا ولا يؤخرون رجاء إقلاعهم عن الكفر. فما سألوه لو أجيبوا إليه لكان فيه إبادتهم.

هذا وقد سبق في محاوراتهم أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: يا أيها الذي نزل عليه الذكر، يقصدون الاستهزاء به؛ فتولى الله إفحامهم بأن هذا الكتاب الذي يشككون فيه هو منزل من عنده، وأنه بالمكانة التي تولى حفظه بنفسه حفظا ميزه بذلك عن جميع الكتب السماوية. فكان حفظ القرآن من تاريخ نزوله إلى اليوم وإلى أبد الآبدين دليلا على كونه من عند الله. إذ لوكا ن نصا، للبشر يد فيه، لجرى عليه ما يجري على جميع الآثار البشرية. ذكر القاضي عياض في المدارك أنه سئل القاضي إسماعيل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من التغير، فأجاب بأن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال تعالى: **(بما استحفظوا من كتاب الله)** وتولى حفظ القرآن بذاته: **(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)** المدارك ج4ص283- باب جمل أخباره.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الشيع : جمع شيعة وهي الجماعة التي أمرها واحد.

الأولين : القرون الماضية.

نسلكه : السلك الإدخال.

المجرمون : كفار قريش.

السنة : العادة المكررة حتى صارت مألوفة.

لظلوا : فعل ظل يدل على الدخول في النهار أي مع شدة وضوحه.

يعرجون : يصعدون

سكرت : غُيِّرت أبصارنا عما كانت عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

من المؤكد أن الله أرسل رسلا تتابعوا عبر القـرون إلـى الأمـم الخاليـة. وأنهـم قـابلوا رسل الله إليهم بالتكذيب ثم الاستهزاء. ثم إنـه علـى هـذا النحـو مـن النفـاذ وتحريـك العقول يدخل الله القرآن في عقولهم فيدركوا خصائصـه العاليـة التـي لا تكـون إلا مـن قدرة فوق قدرة البشر، فيكفر المجرمون به وتقوم علـيهم الحجـة. ومضـى الأمـر علـى هذه السنة والطريقة من نفاذ الوحي إلى عقول المرسـل إلـيهم، ورفضـهم قبولـه عنـادا، ثم إنزال العذاب بهم. إن عنادهم لشديد، وأمره عجيـب، فـإنهم لـو فـتح الله لهـم بابـا في السماء وفي وضح النهار، وأخـذوا يعرجـون فيـه زرافـات ووحـدانا ليكـون ذلـك دليلا على أني أرسـلتك وأوحيـت إليـك، لقـالوا: خُـدِعت أبصـارنا فلـم تعـد تقـوم بوظيفتها كما كانت تفعل من قبلُ من أثر السحر.

بيان المعنى العام :

10←11: ولقد أرسلنا من قبلك في شيع.....إلا كانوا به يستهزئون.

يُحْزِنُ الرسول ﷺ، عنادُ المشـركين وإصـرارهم علـى رفـض الـدخول فـي ديـن الله، والله معه يؤيده ويسليه. والآيتان تسـيران فـي هـذا السـياق بعـد اسـتهزاء المشـركين وطلبهم نزول الملائكة ليشهدوا له. فتضمنتا أن الله قد أرسـل قبلـه رسـلا إلـى البشـرية تتابعوا عبـر القـرون يحملـون هدايـة الله إلـيهم. وقـد كـان أمـر المكـذبين واحـدا، يستهزئون بالرسل ومحضوا خبـثهم ليحزنـوهم بمختلـف أنـواع السـخرية، وقومـك لا يختلفون عمن سبقهم. كما قال تعالى: فلا يحزنك قولهم.

12←13: كذلك نسلكه في قلوب المجرمين....وقد خلت سنة الأولين.

وعلى هذا النحو المشاهد من موقف الكفار مـن القـرآن المنـزل عليـك، نـدخل القـرآن في عقول المجرمين، يسمعونه ويفهمونـه ويـدركون مزايـاه، يهـزهم ويحـركهم، ولكـن ما عزموا عليه من العناد والـرفض ينتهـي بهـم إلـى عـدم الإيمـان بـالقرآن. وبهـذا يكونون قد عرضوا أنفسهم للعذاب والهوان تنفيـذا للقـدر العـادل فـيهم. وهـذه سـنة الله مع المجرمين المكذبين من الأزل، أنه بعـد دعـوتهم للحـق، وإقامـة الحجـج الواضـحة عليهم، فإن من تمادى منهم على رفضه لمـا أنزلـه الله يلقـى الخـزي والعـذاب. وفـي ذلك تهديد محقق للمشركين من كفار قريش.

14←15: ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ....بل نحن قوم مسحورون.

جسمت الآيتـان مبلـغ عنـاد المشـركين، وأن مـا طلبـوا تحقيقـه مـن المقترحـات لا يقصدون من ذلك الاهتداء إلى الإيمان، ولا تصـديق الرسـول إذا تـم مـا حصـول مـا

طلبوه، ولكنهم يبغون أن ينفلتوا من الإذعـان للحـق بمختلـف المعـاذير. يقـول القـرآن :إنه لو فتح الله عليهم بابا من السـماء فظلـوا فـي وقـت سـطوع ضـوء الشـمس فـي النهار، الوقت الذي تتميز فيـه الأشـياء للنـاظر تمـام التميُـز، تبعـا لوضـوحها بشـدة الإشراق، وصعدوا إلى السماء فقاموا بالتجربـة المحسوسـة، لـو وقـع هـذا كلـه لكـان تأويلهم أن يقولوا: إن أبصارنا قد خُدِعَتْ فلم تعطنا حقـائق الأشـياء كمـا كانـت تعمـل. وقد سُحِرنا فاختلط علينـا الأمـر حتـى أصـبحنا نشـاهد أشـياء لا حقيقـة لهـا شـأن المسحور.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

البروج : جمع برج. وسيأتي معناها في الشرح.

الرجيم : المبْعَدُ لذله.

الشهاب : الشعلة الساطعة من النار.

مبين : من أبان بمعنى فَصَلَ وأبعد.

رواسي : جبال ثابتة .

خزائنه : المواضع الحاوية.

ننزله : نمكن منه.

بقدر معلوم : بتقدير معلوم مقدما.

اللواقح : تصرفات هذه الكلمة تدل على الإخصاب وما يتبعه كاللبن[1]

بيان المعنى الإجمالي :

من الثابت الذي لا مراء فيه، أن الله تفرد بخلـق السـموات، وبناهـا علـى نظـام محكـم تبين للناس منه مجموعات من النجوم الثوابت التـي تعـرف كـل مجموعـة منهـا عنـد

[1] انظر تاج العروس ج7 ص100/91

رصدها في الليل، مع نسبة موقع الشمس منها في النهار مما عرف في علم الأرصاد **بالبروج** التي يعرف بها عدد الشهور وتحول الفصول. كما حفظ السماء من رجس الشياطين، لكن من يحاول من الشياطين استراق السمع يلحقه سريعا شهاب ناري يبعده ويقضي عليه، فاحتفظ العالم العلوي بأسراره. وقد بسط الله الأرض بسطا يسَّر به للإنسان الحياة بدون كبير مشقة. وثبتها بالجبال التي حصل بها التوازن، وأنبت فيها من أنواع النبات التي دبَّر تركيبه على نسب، أمكن للنبات أن يكون ما هو عليه. وقد جعل الله في الأرض ما يعيش به البشر، وكذلك ما يعيش منه. أنواع كثيرة تصل بنفسها ولا مدخل للبشر في إطعامها. وبصفة عامة فإن كل شيء نافع هو من تقدير الله وخلقه، وهو المالك لجميعه، ويُمَكِّنُكُمْ مما شاء تبعا لما قدره في علمه سبحانه.

الله هو الذي يحرك الهواء المحيط بالأرض بكيفية يكون ريحا يحمل اللقاح من الزهور الذكران إلى الزهور الإناث، ويحمل الرطوبة فيثقل السحب بالماء الذي ينزل من السماء فيسقي الناس والأرض والحيوان. وعلى شدة حاجتكم للماء فإنكم لا تستطيعون خزنه فتنزلونه عند ما ترغبون في إنزاله.

بيان المعنى العام :

16←18: ولقد جعلنا في السماء بروجا...فأتبعه شهاب مبين.

أظهرت الآية السابقة أن المكذبين لو فتح لهم باب في السماء وتمكنوا من العروج وولوج المناطق العلوية لاختلقوا من المعاذير ما يواصلون به رفضهم للحق. وهذا الفرض الذي قصد منهم كشف عنادهم، لا إمكان التحقق، كان مناسبة للتنبيه على ما في خلق السماء والكون ونظامه، من أدلة تغنيهم عما اقترحوه من الأدلة على صدق الرسول.

بكل تأكيد، إن الذي نظم خلق السماء على قوانين محكمة وثابتة، بها تم سيرها في الكون هو الله سبحانه، ولا يدعي أحد أن له شريكا في ذلك، إلا الملاحدة الذين يزعمون أن خلْقها تم عقب الانفجار الكوني، وهي فرضية كسوها ثوب الحقائق العلمية؛ ينقضها شاهد العقل. ذلك أن الانفجار لا يكون إلا فوضويا، والنظام الكوني بلغ من الدقة كما تشهد به المكتشفات العلمية والمراصد العملاقة أبلغ المستويات من الحكمة. ولو لم يكن بناؤه على تقدير محكم ما استطاع العلم أن ينفذ إلى بناء الكون والعلاقات بين مكوناته، ولا أن يتقدم خطوة.

أثبتت الآية 16 أن الله نظم السماء فجعلها مقسمة إلى بروج. والبروج هي ما وصلت إليه ملاحظة البشر في نجوم السماء في الليل ملاحظة بصرية تتباعت، اهتدوا بها إلى وجود مجموعات من النجوم ثابتة ومترابطة، ومتناسقة بحيث لو ربط ما بينها بخطوط لتجمع منها ما يشبه صورة حيوانية كالأسد والعقرب، أو آلة كالميزان والقوس .ثم قارنوا بين سمتها في الليل وبين سمت الشمس في النهار فوجدوا أن الموقع يتغير كل شهر تبعا لدوران الأرض. وبنوا على ذلك تقسيم السنة إلى اثني عشر شهر او فصول السنة إلى أربعة فصول. وسموها بروجا .ابتداء من الربيع - الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة - الميزان، والعقرب، والقوس-والجدي، والدلو، والحوت .

إن هذا البناء الذي لم يختل على طول الملاحظة، والذي شارك المشركون في تتبعه والاعتراف بدقة نظامه، هو شاهد على أن هذا الكون تم إيجاده وتسييره بقدرة الله وحده. وإذا ثبت أنه من خلق الله انتفت ألوهية الأصنام. وإذا انتفت ألوهية الأصنام وتفرد الله بالخلق فإن مما يقتضيه تفرده بالخلق أن يفرد بالعبادة. والعبادة لا تكون إلا حسبما يرتضيه المعبود، وسبيل معرفة ذلك إرسال الرسل مؤيدين بالمعجزات، وكفى بالقرآن معجزة لمحمد ﷺ.

ثم أردفت الآية أن الخلق المحكم لم يقتصر على الدقة والنظام، بل أضاف إليه أنه سبحانه أراد أن يسبغ على ذلكم الخلق العظيم جمالا يبهج النفس ويمتع الناظر. لقد حُجِبت السماء عنا بالتلوث، فلم نعد نستمتع بجمالها الأخاذ. كنت مسافرا بين جدة والمدينة، وطلبت من سائق السيارة أن يتوقف فيما بينهما، ونزلت وركزت بصري في السماء وكان الجو صحوا لا تحجب السماء غمامة ولا تلوث ولا غبار، وبدت لي قبة السماء مرصعة بالنجوم في منظر ما زلت أتملاه إلى اليوم وأرجع بذاكرتي لاستحضاره فأجد من المتعة ومن اليقظة الروحية ما لا تسعفني اللغة ولا تساعدني قدراتي التعبيرية على تصويره تصويرا يأتي على تفاصيله فيجسمه للقارئ. إلا أني أدعو كل مؤمن أن يتأمل في قبة السماء في الليلة الصحو بعيدا عن المدن ليذكر بقلبه ولسانه: تبارك الله أحسن الخالقين .

17- تفيد هذه الآية سرا من أسرار السماء، في هذه المسافات التي لا يعلم مقدارها إلا خالقها، ولا يعلم مكوناتها إلا هو، من المجرات السابحة في أفلاكها وراء مجرة الشمس التي نحن نعيش في الأرض إحدى وحداتها، ولا تقاس الأبعاد بينها إلا بالسنوات الضوئية، هذا السر هو أن الله طهر تلكم المجرات من رجس كل شيطان

حقير لقول الله تعـالى: (إن الشـيطان كـان للـرحمن عصـيا)[1] فهـي محفوظـة مـن العناصر الخبيثة التي تأتمر بأمر الشيطان.

والشيطان من جنس الجن لقوله تعالى: (إلا إبليس كـان مـن الجـن ففسـق عـن أمـر ربه)[2] والشيطان وذريته كفرة يعملون على إغـواء البشـر (إن الشـياطين أوليـاء للـذين لا يؤمنون)[3]. وأما الجن فإن منهم من هو كافر ومـنهم مـن هـو مـؤمن قـال تعـالى :(قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقـالوا إنـا سـمعنا قرآنـا عجبـا يهـدي إلـى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا)[4] –

والذي يجب أن يعتقـده المسـلم أن الله كمـا خلـق البشـر خلـق الجـن، وطبيعـة هـذه المخلوقات تختلف عن طبيعة الإنسـان، وهـي مكلفـة مسـؤولة، وخصائصـها الخلقيـة يعلمها خالقها. وإذا كان عالمنا الأرضي يحتوي على عناصـر وقـوى مـا تـم اكتشـاف بعضها إلا في أواخر القرن الماضـي. ولـو عـرض علـى البشـر فـي القـرن التاسـع عشر أن أحدهم يكون في بيتـه وراء الأبـواب فيسـتطيع أن يـرى وأن يتبـادل الحـديث مع محاوره البعيد منه بعشرات آلاف الأميـال، لاعتبـر ذلـك خرقـا وخيـالا ولا يمكـن أن يتحقق في الواقع. وقام الدليل أن العلـم النظـري يفـتح أبـواب الإدراك كمـا تفتحهـا الحواس. فالله وهو الذي خلق الكون وهو العلـيم وحـده بمكوناتـه، وقـد أخبرنـا الـوحي بوجود الجن، ولذا فإنه يجب الإيمان بوجـود هـذه المخلوقـات ولا يـدخل فـي الإيمـان تحديد مواصفاتها، فمن نفاه فقد كفـر بمـا ثبـت يقينـا بـالوحي. ومـن ادعـى اسـتحالة وجوده فقد ادعى استحالة ما هو ممكن وخالف مقتضيات العقل.

فأفادت الآية أن الله حفظ السماوات مـن رجـس الشـياطين، لكـن مـن حـاول الصـعود إلى مستويات من العالم العلوي، من الشياطين تبعا لعـدم كثافـة مكونـاتهم، قـال تعـالى: (وخلق الجان من مارج من نار)[5] – والشـياطين مـن الجـن، فإنـه يُصَـدُّ عـن بلـوغ مستوى يستطيع فيه أن يسـمع محجوبـات الغيـب، فتكـون محاولتـه فاشـلة، ويُقـذف بشعلة من نار تبيده وتسحقه. فتم حفظ العـالم العلـوي ولا يطلـع علـى أسـراره بقدراتـه إنس ولا جان.

19←22: والأرض مددناها وألقينا...وما أنتم له بخازنين.

---

[1] سورة مريم آية44
[2] الكهف آية 50
[3] سورة الأعراف آية 27
[4] سورة الجن آية 2/1
[5] سورة الرحمن آية 15

ثم انتقل القرآن من العالم العلوي إلى الأرض التي على ظهرها يعيش البشر، فلفت الأنظار إلى بعض أسرار الخلق المحكم فيها.

1) أنه يسر للإنسان ببسطها، الانتقال بين أجزائها، وجعل فيها جبالا راسخات تثبتها وتحفظ التوازن بين أجزائها، ويسر إخراج النبات منها، وعرَّف أن تركيب النبات كان تركيبا موزونا على نسب دقيقة، بحيث لا يمكن للنبات أن يكون ماهو إلا بفضل تحقق تلك النسب، فلو زاد أي مكون أو نقص ما وجد النبات.

2) كما جعل الله بكمال تقديره للناس كافة، ما يحفظ لهم حياتهم مما تخرجه الأرض – معايش – جمع معيشة ما يتعيش منه. وكذلك تخرج الأرض ما يقيم حياة كثير من الكائنات تقتات من الأرض بنفسها دون أن يكون للناس دخل في ذلك.

3) ولا يوجد أي شيء نافع في الدنيا إلا وهو من تفضل الله على العالم به، وما يصلكم إلا ما قدَّر الله أن يصل إليكم منه، لأن المالك له هو الله، يوجده بقدرته وإرادته بأمره التكويني، أو يتحول بقدرته وإرادته من صورة لا نفع فيها إلى ما ينفع الناس، فكأن كل ذلك مخزون عنده يخرج من خزائنه ثم يمكنكم ما شاء منه حسب تقديره وحكمته. لا مدخل للصدفة فيما يصل إليكم منها لأنه معلوم عنده مقدما .

4) ثم لفت الأنظار الى الكتلة الهوائية المحيطة بالأرض، كيف يحركها سبحانه لتكون مخصبة، فيتولد عن حركتها الخصب والخير، إذا قدر الله ذلك، فتَنْقُل اللقاح بين الزهور بما يتولد عنه تكون الثمار، وتخصب السحب بما تنقله من رطوبة فتثقل السحب وتنزل الأمطار، وكل ذلك بتقدير عجيب فتنزل الأمطار التي من مائها يسقى البشر وتسقى الأشجار والنباتات. وذلك من فضل الله. وهو وحده المتصرف فيه فينزله في الوقت المقدر لإنزاله. ولا تملكون التصرف في خزائنه التي هي لله وحده.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوارثون : الإرث بمعنى البقاء .

المستقدمون : الذين سبقوا من الأجيال.
المستأخرين: الذي سيأتون من الأجيال .
الصلصال : الطين الذي ترك حتى يبس.
الحمأ: الطين إذا اسود فكانت رائحته كريهة.
المسنون : الذي طالت مدة مكثه.
السموم : الريح الحارة .

بيان المعنى الإجمالي :

تكشف هذه الآية عن المتصرف في الحياة والموت، فتؤكد أن الله هو المتفرد بذلك ينشئ الحياة في الكائن متى أراد، ويسلبها منه متى أراد. ويتفرد الله أيضا بالبقاء يوم يفنى الأحياء. وقد أحاط علم الله بالأجيال التي سبقت ومضت في التاريخ، وعلى نحو علمه ذاك يعلم الأجيال التي ستوجد في المستقبل. وقد تأسست حياة البشر على قاعدة المسؤولية التي تقتضي أن ينال المحسن جزاءه من التكريم، والمسيء جزاءه من العقاب. وهذا قد يحصل في الدنيا وقد لا يحصل، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يبعثهم يوم القيامة ليقضى فيهم القضاء العادل لأن الله حكيم. ولا يفلت أي إنسان ولا يغيب أي فعل من أفعال البشر عن الله لأن الله العليم العلم الكامل.

ثم كشف القرآن عن المادة الأصلية لخلق الإنسان التي لا يعلمها إلا الله. لأنه هو الخالق، فقال: إني خلقت الإنسان من صلصال طين يبس حتى إنك إذا نقرته طن، هذا الصلصال أصله طين طال مكثه حتى اسود ونتن. وقبل الإنسان خلقت الجن من ريح حار.

بيان المعنى العام :

23- وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون.

عطف القرآن على ما اختص به الله في الآيات السابقة مما يدل على تفرده بالألوهية، عطف على ذلك اختصاصه بالإحياء والإماتة. فالله سبحانه هو المتفرد بإنشاء الأحياء، وهو القادر على إحيائها بعد موتها، إذ القادر على إنشاء الحياة ابتداء، قُدْرَتَهُ على إعادتها أولى وأحرى. ثم إن هذه الكائنات التي يبث فيها الحياة ثم يسلبها منها، يقتضي ذلك أن يكون المتصرف فيها هذا التصرف هو الباقي بعد فنائها.

24←25: ولقد علمنا المستقدمين منكم ...إنه حكيم عليم.

الآيتان، مع شدة اتصالهما بالآية السابقة لتناول مضمون الثلاثة ما يتصل بالحياة والموت، يضيفان لما تقدم: أن التصرفات الإلهية منبثقة عن العلم الكامل. إنه

سبحانه يعلم كل ما فعله الذين تقدموكم في الحياة من الأجيال التي أحياها ثم أماتها، وكذلك يعلم ما سيأتي بعدكم من الأجيال التي يُحييها ثم يميتها. وإن تصرفه هذا وصدوره عن العلم الدقيق لكل حدث منهم، ينتهي إلى حشرهم جميعا يوم القيامة ليحاسبهم عما قدموه . ويقوم دليلا على ذلك أنه حكيم لا يفعل ما هو عبث، فإذا كان إيجادهم في الدنيا واختلاف سعيهم فيها ثم إماتتهم، إذا كان ينتهي إلى فترة يقضيها البشر في الحياة ثم تنتهي حياتهم على ما بينهم من الاختلاف في التأثير والعمل من الخير إلى الشر ومن النفع إلى الضر ومن الطاعة إلى العصيان، بل قد يكون بعض المجرمين قد نال من نعيم الحياة الدنيا حظا موفورا، وربما حرم بعض الصالحين فلم ينل من الرفاه إلا حظا قليلا. لو كانت الحياة الدنيا هي نهاية مرحلة الوجود، لاستوى الخبيث والطيب، والله يقول: **قل لا يستوي الخبيث والطيب**. ولما كان للمسؤولية، التي هي شرف الكائن البشري، الأثر الحتمي. فحكمة الله توجب البعث، وعلمه يقتضي أن لا يغيب عنه أي عمل قام به الإنسان في الحياة الدنيا، كما لا يفلت أي إنسان من حضوره يوم البعث.

26←27، ولقد خلقنا الإنسان من صلصال... من نار السموم.

خلق الإنسان سر لا يعلمه على حقيقته إلا الله. وهو سر مثير، لِمَا في خلق الإنسان من خصائص عجيبة. فهو على محدودية قواه الجسمية استطاع أن يتصرف في الكون، وأن يخضع القوى العنيدة لمصالحه ويتحكم فيها، ويسع عقله الحاضر، ويتتبع ما مضى فيتصوره تصورا يكاد يكون مطابقا لما وقع، وما يزال يبني على ما وصل إليه من اكتشافات وما وصل إليه غيره فيتقدم بالمعرفة أشواطا. وهو حادث ولكل حادث بداية، فكيف تمت بداية الإنسان ؟ قامت افتراضات رضيها كثير من العلماء في القرنين الأخيرين. وهدمها ما وصل إليه العلم بعد دراسة الجينوم البشري، الذي أثبت حسب قول العلماء تفرد السلسلة البشرية واختلافها عن جميع المخلوقات الأخرى .وبقي السؤال بدون إجابة عند من لم يؤمن برسالة الإسلام .

ولما كان الله هو الخالق للبشر، وأنه المتحكم في وجودهم وفي مصائرهم كما جاء في الآية السابقة، أراد سبحانه أن يكشف للبشر شيئا عن سر الوجود البشري ليكون دليلا على القدرة الكاملة والحكمة. فأعلم في هذه الآية أن الإنسان خلقه الله من مادة: هي صلصال، طين ترك حتى يبس وصار يطن إذا نقر، هذا الطين هو طين قد اسود من طول المكث، وتغيرت رائحته إلى رائحة كريهة. إن ما كشفه القرآن يضاعف العجب. ويقوم في آن واحد مناديا بكمال القدرة الإلهية، كيف كان هذا هو

أصل خلقة الإنسان المتميز المستخلف في الأرض. ويبـرز مـن جانـب آخـر أن أمـره سبحانه في التصرف: أنـه إذا أراد شـيئا أن يكـون، يـأمره فيكـون. ولا يتوقـف تنفيـذ إرادته على أن يكون الإنسان من معادن نفيسة لها خواص تفوق بقية العناصر.

ولما تسلط على الإنسان الأول، الذي خُلق من صلصال مـن حمـأ مسـنون، تسـلط عليـه الشيطان فأغواه وأفسد عليه حياته وما يـزال يواصـل إضـلاله. والشـيطان مـن الجـن. فناسب أن يظهر للبشر القدرة الإلهية في أصل خلق الجـن، فقـال: والجـان خلقنـاه قبـل خلق الإنسان من حرارة مختلطة بهواء، من نـار السـموم. وبقيـت، رغـم الكشـف عـن الأصل، التحولاتُ التي وصل بها الإنسان إلى مـا هـو عليـه اليـوم، والتحـولاتُ التـي طرأت على نار السموم حتى تكوَّن منها الجان مـن أسـرار العلـم الإلهـي. فتبـارك الله أحسن الخالقين، الذي أحسن كل شيء خلقه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

سويته : التسوية تعديل ذات الشيء.

نفخت : أحدثت قوة خفية لطيفة السريان قوية التأثير.

رجيم : مطرود.

عليك اللعنة :اللعنة الطرد والإبعاد على طريـق السـخط. وهـو دعـاء بالسـب وتحقيـق لوقوعه عليه.

يوم الدين : يوم الجزاء.

الإنظار : الإمهال والتأخير.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم الله ملائكته بما سينفذه من خلق بشر إنسان، مادة خلقـه طـين يـبس وجـف بعـد أن مر عليه زمن طويل اسود فيه ونتن ريحـه. وأن علـيهم بمجـرد مـا يـتم خلقـه ويبلـغ كماله بنفخ الروح المملوكـة لله فيـه، علـيهم أن يسـجدوا لـه تحيـة إكبـار وتقـدير، لا

عبادة وتأليه. وقام الملائكة بما أمروا بـه فسـجدوا لـه إلا إبليـس الـذي كـان مخاطبـا معهم فإنه امتنع أن ينضم إلى السـاجدين المطيعـين لأمـر الله. وسـأله الله عـن السـبب الذي من أجله لم ينضم للساجدين وتفـرد بـالخلاف. كـان جوابـه فيـه اعتـراض علـى الأمر ومناقشة لمعقوليته.

بيان المعنى العام :

وصفت هذه الآيات ما اقتـرن بخلـق آدم عليه السلام، وقـد مضـى قريـب منـه فـي سـورة البقرة، ونظرا لما في قصة خلق آدم وما اقترن بها مـن العبـر أعيـد ذكرهـا أكثـر مـن مرة في القرآن. وتجد في كل مرة فوائـد جديـدة، وصـياغة بخصـائص تعبيريـة لهـا وقعها. فلنتابع الطريقة التي عرض بها القرآن قصة الخلق في هذه السورة:

28- وإذ قال ربك للملائكة إني خالق....من حمأ مسنون.

أولا: أعلم الله ملائكته أنه قدَّر خلق بشر (إنسـان) والمـادة التـي سـيتم منهـا إحداثـه: صلصال، كان قبل ذلك طينا مضى عليه من الـزمن مـا تغيـر بـه لونـه إلـى سـواد، وأثَّر ذلك في رائحته فهي تبعا لذلك نتنة.

29- فإذا سويته ونفخت فيه من روحي... فقعوا له ساجدين.

ألزم الله ملائكته أن يسجدوا لآدم عند إتمام خلقه المتكون من أمرين:

أ-عندما تجتمع العناصر التي بها يتم تميزه، من الصـورة والمـواد الأساسـية فـي بنائـه الخاص، فيكتمل.

ب -وعندما يتم نفخ الروح فيه، أي عندما يتحول مـن صـورة ماديـة وشـكل خـاص لا حياة فيه إلى كائن يتحرك وتعمل حواسه وفكره ومشـاعره. فلـيس نفـخ الـروح عبـارة عن هواء ولكنه عبارة عن سريان مقومات الجنس البشري التـي بهـا يتميـز عـن بقيـة الكائنات. أما كيف يتم ذلك فهو من سر الخلـق والحيـاة الـذي لـم تكشـف عنـه الآيـة. وذلك لأن المستوى الفكري للإنسان لا يسـتطيع أن يفهـم سـر الـروح. ونسـبة الـروح إلى الله هي إضافة خلق وملك.

والسجود هو سجود الملائكة الذي يختلف عن هيئة السجود التي يقوم به الناس. وذلك لأن سجود البشر بوضع الجبهة على الأرض على هيئة مخصوصة يكون عليها الساجد. وخلقة الملائكة شيء آخر بعيد كل البعد عن خلقة الإنسان، فليس لهم جباه ولا أعضاء. وبهذا يرتفع الإشكال: كيف يسجد الملائكة والسجود محرم لغير الله؟ فنقول إن السجود تحية من الملائكة تحية تقدير لآدم عبر عنها بالسجود. والسجود الممنوع هو ما يمكن أن يدل على الخضوع الكامل والائتمار بأوامر المسجود له على وجه التعظيم .

30←31: .فسجد الملائكة كلهم أجمعون ...أبى أن يكون مع الساجدين.

ثانيا: أطاع الملائكة الأمر. فبمجرد ما ظهر آدم بشرا سويا، قابله كل الملائكة بالسجود له كما أمرهم ربهم، ولكن خرج عن الجماعة فرد واحد لم يسجد، هو إبليس فقد امتنع عن قصد وإصرار، وأبى أن يسجد مع الساجدين.

32-قال يا إبليس مالك ....ألا تكون مع الساجدين.

ثالثا: أوقف الله إبليس ليسأله، لما ذا لم تسجد وقد شملك وبلغك الأمر العام بالسجود. ولم يدخل في زمرة الطائعين للأمر الإلهي. ويقينيا إن الله يعلم الأسباب الخفية التي حاكت في نفس إبليس، فلماذا يوقف ويسأل ؟ أرى أن في ذلك تعليما للناس حتى لا يستند القاضي لعلمه ويرتب عليه الحكم. فإنه إذا كان الله يعلم مقدما ما يجيب به إبليس، فإنه مع ذلك أوقفه وسجل عليه جوابه.

33-قال لم أكن لأسجد لبشر...من حمأ مسنون.

رابعا: كان جواب إبليس أنه لا يتصور منه بحال من الأحوال (**لم أكن لأسجد**) أن يسجد بتحية التقدير لآدم عليه السلام. وصرح بأنه أعلى من أن يسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون حسبما أعلمهم الله لما أمرهم بالسجود .جمع إبليس بين عصيان الله، والاستكبار، ورميه رب العزة بالنقص وعدم الحكمة، إذ رفع الوضيع حسب ظنه (آدم) وحط من قيمة الرفيع (إبليس) وبمجموع ذلك انحط إبليس إلى درك الكفر. وخلع ربقة العبودية لله، وجعل ظنونه مقدمة على الطاعة.

34←35: قال فاخرج منه فإنك رجيم...إلى يوم الدين.

خامسا: عاجله العقاب ولم يهمله، فأمره أن يخرج من المقامات التي كان فيها. قد تكون الجنة، وقد تكون ظروف مقدسة كان يعيش فيها مع الملائكة. وأنه أُبْعِد إبعاد إهانة شأنه شأن الطريد الذي يلحقه الاحتقار والذل. وأنه ملعون طريد يتوالى عليه الدعاء بالطرد. ويتحقق عليه الهوان والخزي فلا ينفصلان عنه، وأن ذلك سيصحبه ويتوالى عليه إلى يوم البعث، اليوم الذي سيلقى فيه جزاء كفره واعتراضه على الحكم الإلهي. ولعذاب الآخرة أشد.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التزيين : التحسين بما يثير الميل.

موعدهم : مصيرهم إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي :

طلب إبليس من الله أن لا يعجّل عليه العقوبة التي يتسحقها، وأن يؤخره إلى اليوم الذي يبعث فيه البشر يوم القيامة. أعلمه الله أنه قرّر إنظاره إلى يوم الوقت المعلوم عنده في الأزل. ثم قال إبليس: ربي بسبب إغوائك لي، فإني سوف أمحض كل خبثي ومكري لأزين للناس أجمعين الباطل والرذيلة، إلا عبادك المخلصين فأنا لا أضلهم . قمعه الباري بأن انقسام البشر لصالحين وغاوين أمر قد قدره، وصراط مستقيم قرره في الأزل. فتسير فيه البشرية مقسمة إلى ضالين ومخلصين. وأن إبليس أحقر وأخزى من أن يكون له سلطان على البشرية يسيرها في المنهج الذي اختاره. ويقول الله وزيادة على ذلك فإن موعد الغاوين، وإبليس وجنوده منهم، هو إلى جهنم التي لا تفلت أي واحد من الغاوين. يتوزعون على مداخلها من الباب الذي قدر الله لكل داخل دخوله منه.

بيان المعنى العام :

36←38: قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون....إلى يوم الوقت المعلوم.

طلب إبليس من ربه، وقد علم الحكم المسلط عليه وأيس من العودة إلى المقامات التي كان يعيش فيها، طلب منه أن يؤخره ولا يعجل بالقضاء عليه وأن يبقيه إلى يوم البعث.

أعلن الله أنه سيبقيه إلى يوم محدد أجله، هو وقت ثابت في علمه لا يتأخر ولا يتقدم، والذي يستروح من الآية أن الله أعلن ما قدره في الأزل من أنه سينظره إلى الأجل المحدد، وليس ذلك استجابة لدعائه، فهو أهون من أن يستجاب له دعاء، شأنه شأن المغضوب عليهم الفسقة الضالين.

39←40: قال رب بما أغويتني ....إلا عبادك منهم المخلصين.

ما كان هذا الإنظار لإبليس استجابة لدعائه، ولكنه تنفيذ للقدر الذي رتبه الله: أن البشر الذين سيستخلفون في الأرض مكلفون وغير معصومين، وسيتأثرون بجملة

من المؤثرات، وأنه قدر أن يسلط إبليس لإغواء من ألان قلبه وعواطفه لإغوائه. فبقاء إبليس يساير حياة النوع الإنساني على وجه الأرض من القدر السابق في علم الله .

وإذ تبين لإبليس أنه سيُعَمَّرُ في الدنيا ليشفي حقده الناشئ عن حسده لآدم ولذريته من بعده، خاطب عندها ربه رب العالمين كاشفا عن الشر الذي امتلأ به قائلا: رب بسبب ما خلقتني عليه من الغواية والإضلال، فإني سأبذل كل طاقتي وأمحض نشاطي بإلهاء البشر عن الحق، والميل إلى النواحي المؤثرة فيهم التي أغرس في قلوبهم حبها لما فيها من الزينة التي تأخذ بعواطفهم، فأحسنها لهم، بما يجعلها راجحة في اختياراتهم، فتلهيهم عن الواجبات وعن الحق، وتقرب الرذيلة منهم. وأدمج حسرته بسبب أن كيده مفلول، وتزيينه يعرض عنه عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وتعلقوا به، الذين استقر في قلوبهم أن متاع الحياة الدنيا وشهوات النفس تتهاوى، أمام ما اهتدوا إليه من حب للفضيلة وتعلق بربهم، فاستثناهم على أنهم خارج نطاق تأثيره.

41←44: قال هذا صراط علي مستقيم ...منهم جزء مقسوم.

وضع الباري سبحانه الأمور في نصابها. وصفع إبليس لما حقق سبحانه أن عباده المخلصين لا سلطان له عليهم، وأن إغواءه لغير المخلصين هو ما قدَّره أن يكون عليه الأمر في الأزل، فهذا هو الصراط المستقيم الذي جرى عليه أمر التقدير، وعلى الله تحقيقه بإرادته وقوته.

و الشيطان وإن كان خبيثا شرِّيرا يعمل على إضلال الناس وصرفهم عن الهدى وطريق النجاة، هو أضعف وأحقر من أن يكون له سلطان على البشر بقوته ومكره وخبثه. وأن عباده سبحانه لا يتسلط عليهم سلطان الشيطان لأنهم بشر. على معنى أن البشر ليسوا مفطورين على الشر، ولكن الذين يميلون عن هداية الله ويتبعون ما يملي عليهم الهوى وحظوظ النفس الأمارة، هم الذين يجد طريقا لمضاعفة انحرافهم ويتسلط عليهم، فهم غاوون قطعوا صلتهم بالله وبالفضيلة. ويجد الشيطان في هذه النفوس الضعيفة تبعا لوهن عزائمها البيئة الرخوة التي تنسجم مع ما يزينه لها من الفساد. وبالمقابل فإن الذين أخلصوا دينهم لله، وكانت صلتهم به حاضرة ومشرقة في قلوبهم، فإنهم يستحضرون عند وسوسته الأولى نِعَمَ الله عليهم وجمال الطاعة وقبح المعصية، ويثور في نفوسهم تبعا لما روَّضوها به من حب الفضيلة والخير والاشمئزاز من الرذيلة والشر، يثور في بواطنهم ما يهدم وسوسته ويطرد تسلطه. فلا يكون له عليهم سلطان.

و كشف القرآن عن مصير الغاوين الذين اتبعوا شهواتهم وانغمسوا في الرذيلة، وفسدت عقائدهم فأشركوا بالله، وتأثروا بوسوسة الشيطان وبما زين لهم فانخدعوا. إن مصيرهم إلى جهنم يوم القيامة يدخلونها أجمعين لا ينفلت أحد من العقوبة. وصف القرآن جهنم بأن لها سبعة أبواب، وهذا من أمر الآخرة الذي لا يقاس بما هو معروف في الدنيا. فليست الأبواب ذات مصاريع، وليست لها أقفال كأقفال الأبواب في المنازل، ولا هي مما يدرك سعته بمقاييس الدنيا. ولكننا نفهم من النص القرآني أنها سبعة مداخل أو مداخل متعددة، وأن كل داخل ممن غضب الله عنهم يصرف إلى الباب المقدر له الدخول منه. فليس مدخل المشركين العتاة الذين قاوموا الرسل وآذوهم وحالوا بين أتباعهم وبين الدخول في دين الله، كمدخل من قصَّر في النظر فكفر .والظاهر أن هناك تناسبا بين كل باب ونوعية الفساد الذي سيق من أجله الغاوي إلى الدخول منه إلى جهنم. أعاذنا الله منها بمن ه وكرمه.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

العين : المكان الذي يخرج منه الماء من باطن الأرض.

آمنين : لا يشعرون بالخوف أبدا.

الغل : البغض والحقد.

سرر: جمع سرير محمل مرتفع يمكن الاضطجاع عليه.

متقابلين، كل واحد قبالة الآخر يأنس به.

المس : الإصابة.

النصب : التعب.

بيان المعنى الإجمالي :

وصفت الآية ما أعده الله للمتقين من ضروب التكريم يوم القيامة. منازلهم جنات، ظاهرة الخصب فيها بينة. يتدفق ماء العيون الجارية خلالها. ويتجاوز النعيم الجانب المادي إلى الجانب الروحي والنفسي، فيتلقون التحية بالسلام من ملائكة الرحمن عند دخولهم، وتُصفَّى قلوبهم من آثار الحقد. فكل واحد يشعر بالأخوة والمحبة الجامعة بينه وبين إخوانه من المؤمنين، تتابع اجتماعاتهم وهم في أنس وراحة على

سررهم، يجد كل واحد منهم وهو يستمع إلى أخيه الكلام الرفيع الذي يبهج العقل والسمع، فيقبل على أخيه في شغف. لا يلحقهم الإعياء ولا يحل الخوف من انقطاع ما هم فيه، أمنوا البقاء فيها وعدم الخروج منها.

بيان المعنى العام :

46←48: إن المتقين في جنات وعيون....وما هم منها بمخرجين .

هي طريقة القرآن في التأثير على البشر ليستقيموا ويؤمنوا، فهو يزاوج بين التهديد ووصف جزاء الكافرين، وبين التبشير ووصف نعيم الآخرة. وهو في الحالين يحرك العقول والمشاعر ليقبلوا على هدي الله الذي تعقبه سعادتهم في الدنيا والآخرة. فبعد أن ذكر شيئا من هول جهنم التي تتفتح أبوابها فلا يفلت أحد كتب عليه العذاب من دخول الباب الذي قدر له الدخول منه ؛ بعد ذلك أخذ القرآن يصف شيئا مما ادخره الله للمتقين من عباده المخلصين، فذكر من النعيم المادي أن منازلهم جنات عديدة، ينعم كل فرد من المتقين بما خصه الله به من تلكم الجنات التي تلبي كل ما يمكن أن يحب أن يجده .وهي تتفق فيما بينها في الناحية المادية فالخصب ظاهرة شائعة فيها تتدفق خلالها العيون الجارية. كما تتفق في الحالة التي عليها المكرمون بدخولها، فهم:

أولا: يكرمون عند دخولها بالسلام عليهم: التحية التي هي شعار أهلها، كما قال تعالى: **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم**. ويحل في قلوبهم الأمن ويذهب الخوف وهو ما يحقق السعادة، إذ لا سعادة مع حلول الخوف في النفوس.

ثانيا: أن الله ينزع من قلوبهم ما كان عالقا بها في الدنيا من الحقد والبغض، فتتشرح مشاعرهم بالمحبة، وتعمر عواطفهم بأنس الأخوة الجامعة ؛ وتظهر آثار ذلك في اجتماعاتهم، فهم في راحة تامة هيئت لهم السرر التي يجدون فيها كامل الراحة، ويجري بينهم من الأحاديث التي لا لغو فيها ولا سقط، مما يجعل كل واحد منهم يجد لذة الإقبال على أخيه يسمع منه، فيحصل في عقله اللذة التي يجدها العلماء الصالحون في محاوراتهم السامية.

ثالثا: أن نشاطهم لا يلحقه الإعياء، فهم في حيوية متدفقة ومتواصلة.

رابعا: أن الحذر من لحوق أمد يفنى فيه ما خصوا به من نعيم لا يدخل في حسابهم، أمنوا من الشعور بالحرمان، ومن الخروج من منازلهم في الجنة .

۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

نبئ: أمر من نبأ إذا أخبر بخبر فيه فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

الوجل : الخوف.

الغلام : هو إسحاق عليه السلام.

عليم : أفتح عليه ما يحصل له به العلم الواسع، فهي صيغة مبالغة.

قنط : يئس.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه آية كاشفة عن مسؤولية الإنسان، ذلك أن من صفات الذي استخلفه أنه غفور رحيم لمن أناب واستغفر. وأنه شديد العقاب لمن أصر واستكبر. وأعلمهم بهذا الخبر الهام الذي تم بين إبراهيم والملائكة الذين قدموا فبادروه بالسلام ليذهبوا وحشته منهم. وعرفهم بأنه كان خائفا منهم. قالوا له: لا تخف إنا نبشرك بأنك ستكون أبا لغلام يُعَلِّمُهُ الله فيبلغ به مستوى راقيا (عليم). كانت البشارة بعد أن تقدمت سنه ومثله في ذلكم العمر لا يولد له فسأل سؤال تثبُّت، هل تقصدون من بشارتكم إياي أنه سيولد لي غلام فعلا، أو هي بشارة تؤول على معنى خير سيتفضل به علي رب العالمين ؟ أجابوه: فعلا سيولد لك غلام ونحن نريد الحقيقة، فلا تجعل معطى تقدمك في السن سببا لدخول اليأس في نفسك، مما يدعو للتأويل تبعا لما جرت عليه العادة. نفى إبراهيم عليه السلام أن يكون مبعث سؤاله القنوط واليأس، وأخرج جوابه في صورة سؤال إنكاري، لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، أي إنه على هدى من ربه، إذا كان عليه السلام من أوضح الناس إيمانا.

بيان المعنى العام :

49←50: نبئ عبادي إني أنا الغفور الرحيم ...هو العذاب الأليم.

أعلم يا محمد عبادي بهذا الخبر الصادق الهام. أني أنا الله المتصرف في الكون العليم بكل ما يجري فيه. إني أغفر الذنوب وأمحو آثارها وإني عظيم المغفرة، فلا ييأس عبادي من مغفرتي متى ما أنابوا إلي، وتعلقوا بواسع رحمتي. ولذا قرن سبحانه وصف الغفور بالرحمة، للدلالة على شدة الاتصال بينهما على أن المغفرة وستر الذنوب مرتبط بالرحمة الواسعة. قال تعالى: **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** [1]. فكانت هذه الآية ونظائرها فاتحة لباب الأمل في القلوب، طاردة لليأس، داعية المذنبين إلى الإنابة. إن الغفور الرحيم إذا ستر ذنوب عباده في الدنيا، فإنه بذلك ينبئهم أن فضله سيتواصل عليهم يوم القيامة. فلا ييأس من رحمة الله المذنبون التائبون. إذ اليأس دافع للتمادي في المعاصي. والله يحب أن يتوب عباده قال تعالى: **إن الله يحب التوابين** [2].

وقد أراد الله عندما خلق آدم أن يكون هو وذريته مسؤولين عن أعمالهم، مسؤولية لا تخرجهم من الأمل إلى القنوط. فصدَّر بعظيم مغفرته وواسع رحمته، وثنى بإيقاظهم إلى ما يترتب عن العصيان من مؤاخذة وعذاب أليم. فكانت التربية القرآنية تجمع بين طرفي الرجاء والخوف، فلا يغلب عليهم الرجاء حتى تنحل عزائمهم ويتبعوا شهواتهم فيفسدوا في الأرض ويخيبوا في مهمة الاستخلاف. ولا ييأسوا ويطبق عليهم الخوف فيقعدوا عن فعل الخير.

51←56: ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... إلا الضالون.

إن تلكم الحقية التي قررها القرآن من المغفرة والرحمة، والعذاب الأليم لمن رفض العمل على ما يدخله في المغفرة والرحمة، أتبعها بقصتين من واقع الحياة، لتؤكد للناظرين ما تضمنه التعريف الإلهي. هما قصة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام .

فتضمنت قصة إبراهيم:

أولا: أنه دخل على سيدنا إبراهيم عليه السلام ضيوف لا يعرفهم، ابتدأوه بالسلام ليطمئن لهم ولا يأخذ حذره منهم. وكشف لهم عما حاك في صدره من مباغتتهم له، وأنه خاف منهم لولا مبادرتهم بالسلام.

ثانيا: مضاعفة في تأمينه أبلغوه ما أمروا به من تبشيره بأنه سيولد له غلام، وأنه ينشأ في رعاية الله فيتولاه ربه حتى يصبح عالما كبيرا بالحقائق والتشريع .وقد تقدم في سورة هود ما تبع ذلك من استغراب زوجته وما رفع به الملائكة عجبها.

---

[1] سورة الزمر آية 50

[2] سورة البقرة آية 222

ثالثا: أضافت هذه الآية أن سيدنا إبراهيم شارك امرأته متعجبا من البشارة، ذلك أنه يحس بأن تقدمه في العمر أثر فيه ضعفا، فراجعهم ليتبين مقصدهم من البشارة، هل يقصدون أنه سيولد له فعلا غلام، أو هو من الكلام الذي يؤول على أنه خير قادم؟ ولذلك عقب سماعه للبشارة بقوله: فبأي شيء تبشروني، أفصحوا عن مرادكم ؟ كان جوابهم رافعا لكل احتمال: بشرناك بشارة ملابسة للحق لا تأويل فيها، فلا تكن قانطا من فضل الله عليك جريا على ما ألفه الناس في مثل عمرك.

ونفى إبراهيم أن يكون موجب سؤاله هو اليأس من رحمة الله، وأعلن ذاكرا الحقيقة التي صاغها في صيغة قاعدة كلية على طريق الاستفهام الإنكاري: لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الضالون عن الهدى وعن واضح الإيمان. وأنا مؤمن.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الأمر والشأن، وغلب استعماله في الأمر الشديد.

الغابرين : الذاهبين الهالكين.

منكرون : لانعرفكم.

يمترون : يشكون، وهو العذاب .

بالحق : الخبر الصادق .

أسر: سِرْ بهم ليلا.

القطع : الجزء الأخير من الليل.

اتبع أدبارهم : اجعلهم أمامك.

إلى حيث تؤمرون : إلى المدينة التي سوف تعبن لكم.

وقضينا : حتَّمْنا.

دابر : أصله آخر، والمعنى من أولهم إلى آخرهم.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل إبراهيم عليه السلام الملائكة عن المهمة التي أوكلت إليهم، فأخبروه: إنا أرسلنا إلى قوم استقر الإجرام في نفوسهم، لنرسل عليهم العذاب المقدر لهم. وهم القوم الذين دعاهم لوط إلى الإقلاع عن الفاحشة، فأعرضوا عن دعوته، وواصلوا قبيح فعالهم. ولكن نمكن آل لوط من النجاة، إلا امرأته فقد قدرنا أن تكون مع المهلكين.

ثم دخل الملائكة على لوط عليه السلام، فنكرهم وعبر لهم عن ذلك مستفسرا عن نسبهم. فعرفوه أنهم ملائكة الله جاؤوا ليحققوا ما كان قومه يشككون فيه من نزول العذاب بهم، مؤكدين بقولهم أتيناك ملا بسين للحق وإنا صادقون فيما أخبرناك به. فاخرج وأخرج معك أسرتك في آخر الليل وكن أنت وراءهم، ولا ينظر أحد منكم إلى المنازل التي خرجتم منها، وواصلوا سيركم إلى المكان الذي سوف تؤمرون بالنزول فيه. وأوحى الله إلى لوط أن العذاب سيتأصلهم جميعا من أولهم إلى آخرهم مع وقت الصبح وشروق الشمس.

بيان المعنى العام :

57←60: قال فما خطبكم أيها المرسلون...قدرنا إنها لمن الغابرين.

أنس إبراهيم عليه السلام بحديثه مع الملائكة وزال ما وجده من نكارة أول الأمر، فتوجه إليهم بالسؤال: ما هو شأنكم أيها المرسلون، وما هي المهمة التي أوكلت إليكم ؟ لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون على الأمم إلا وهم موكلون بأمر عظيم تنفيذا لأمر الله .

أجاب الملائكة: بأنهم أرسلوا إلى سدوم القرية التي كان لوط يدعو فيها قومه ليصرفهم عن الفاحشة التي ألفوا إتيانها، وتمكن الإجرام منهم وشاع فيهم المنكر، وواصلوا معرضين عن دعوة سيدنا لوط متألبين عليه. أُرْسِلنا لننزل بهم العذاب المقدر لهم، لكن سننجي آل لوط أي أسرته من العذاب النازل، ولا ينسحب هذا الاستدراك على امرأته إذ قدرنا أنها من الهالكين، أي الباقين في العذاب.

61←66: فلما جاء آل لوط المرسلون ....مقطوع مصبحين.

بعد استقبال إبراهيم عليه السلام للملائكة وما أكرم به من البشارة، وإخبارهم إياه بأنهم ماضون إلى سيدنا لوط عليه السلام لتنفيذ ما قدر لقومه المجرمين من العذاب، واصل الملائكة سيرهم نحو لوط ولما دخلوا عليه تفرس فيهم فأنكرهم لاختلاف سماتهم عن سمات قومه، وأظهر لهم ذلك. عرفوه بقولهم :إنا ملائكة الله أرسلنا بتحقيق العقاب الذي كان قومك يشكُون فيه، مؤكدين ذلك :إنا أتيناك ملابسين للحق الذي لا

مراء فيه. وإنا لصادقون فيما أخبرناك به. ثم أمروه أن يخرج مع أهله في آخر الليل، وأن يقدمهم ويسير وراءهم، وأن ينبههم بأن لا يولوا وجوههم أثناء سيرهم إلى منازلهم التي خرجوا منها. ثم تابعوا سيركم إلى المكان الذي سيعين لكم وتؤمرون بالنزول فيه.

وأوحى الله إليه أنه قرر استئصال قومه المجرمين مع الصباح، وهو ما يفيده قوله: (أن دابر هؤلاء مقطوع). فيكون معنى التركيب أنهم مهلكون من أولهم إلى آخرهم.

وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

يستبشرون :يفرحون.

الفضيحة : شهرة حال شنيعة.

الخزي : الذل والإهانة .

لعمرك : أقسم بحياتك يا محمد.

السكرة : ذهاب العقل .

يعمهون : يتحيرون ويرتبكون.

الصيحة : صعقة شديدة في الهواء.

مشرقين : عند طلوع الشمس.

آيات : أدلة.

المتوسمون : المتأملون.

سبيل مقيم : طريق بقيت فيه آثارهم ولم يمحها الزمن.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع قوم لوط بقدوم ضيوف عليه، فتسارعوا نحو بيته فرحين، طالبين أن يمكنهم من قضاء شهوتهم منهم. شعر لوط بالحرج الشديد وخاطبهم مثيرا في نفوسهم ما

يلحقه من فضيحة ومهانة إذا هم اغتصبوا ضيوفه، فكان جوابهم: لقد كنا نهيناك عن حماية أي وارد عليك من العالمين. أرشدهم إلى أن طريق الاتصال الجنسي المشروع والجاري على الفطرة إن كانوا يريدون ذلك، أن يتزوجوا من بناته، باعتبار أنه نبي قومه والذكور بمثابة بنيه والإناث بمثابة بناته.

و حياتك يا محمد لما ثار داعي الغريزة الشاذة فيهم كأنهم سكارى حجبت عقولهم، متحيرون لا يُقَدِّرون عاقبة ما يفعلونه حق قدرها. إنهم وهم على تلك الحالة من الاضطراب اقتلعتهم صيحة من السماء زلزلت كل ما يحيط بهم، فانقلبت البناءات، هوت سقوفها تحت قواعدها، وتتابعت عليهم كالمطر المتدارك حجارة مخلوطة بطين محمية لا تصيب شيئا إلا حللته ومزقته شر تمزيق .

ما سبق أن قصه الله علينا، فيه آيات لليقظين المتأملين. وإن آثار قوم لوط يمر عليها أهل مكة في طريقهم إلى الشام. تحكي أخذ الله الشديد للمكذبين المجرمين. وهو آية للمؤمنين الذين يربطون بين الأحداث ومحدثها رب العالمين.

بيان المعنى العام :

66←77: وجاء أهل المدينة يستبشرون...إن في ذلك لآية للمؤمنين.

شاع الخبر في القرية أن لوطا قدم عليه ضيوف، فتجمع ذكورهم وأتوا إلى بيته مستبشرين فرحين، طمعا منهم في الاعتداء بالفاحشة عليهم. وسواء أكان قدومهم قبل أن يخبر الملائكة لوطا بما جاؤوا من أجله أو بعد ذلك، فإنه قد وجد نفسه في موقف حرج جدا. هؤلاء الفسقة المجرمون عقدوا العزم على الاعتداء على ضيوفه، والضيوف لهم حرمة عند فضلاء الناس، فرجاهم أن يعرضوا عما عزموا عليه، وقال لهم: إن هؤلاء ضيوفي فلا تفضحوني وتوقعوني في وضع شنيع: أني لم أستطع أن أحمي من استجار بي وقدم علي آملا في رفدي والنيل من إكرامي . إنها إهانة وإذلال لي إذا اغتصبتم ضيوفي.

- كان جوابهم بالغا غاية الوقاحة فقالوا له: ألم ننتقدم لك من قبل أن لا تحمي أحدا من العالمين. ذَكَّروه بأنهم نهوه عن الحيلولة بينهم وبين اغتصاب أي فرد من البشر، ومن أي قبيلة كان، قدم على قريتهم.

- عرض لوط عليهم إذا كانت الغُلمة قد استبدت بهم، والرغبة في إشباع شهوتهم الجنسية عارمة، إن كنتم ولا بد فاعلين ما يقضيها، أن ينكحوا بناته فيفرغون شهوتهم فيما هو الفطرة والأصل في الاتصال الجنسي. وفي التعبير ببناته وقفة لما يفيده ظاهر القول من عرض بناته على الفسقة المجرمين. وتأويله يكون على أن

الرسول في الأمة التي كلف بهدايتها هو بمثابة الأب يحنو عليهم ويهمه أمرهم فيكون الذكور معتبرين أبناء له والإناث بنات. ويكون المراد حوّلوا قضاء شهوتكم من الذكور إلى الإناث من قريتكم. وخرجه بعضهم على أن الاعتداء على ضيوفه شنيع جدا أعظم من شناعة الاعتداء على بناته، كما تقول لمن اراد أن يقتل شخصا: اقتلني ولا تقتله. فليس المراد الإذن بقتل القائل ولكن صرف القاتل عن القتل.

- لما بلغت بهم الوقاحة هذا الحد، وجرهم خبثهم إلى العزم على فعل الفاحشة بضيوف نبيهم، وتعللوا بأنهم قد قدَّموا له، ونبهوا عليه، أن لا يجير ولا يحمي أحدا من الناس، على معنى أنهم لا يحترمون جواره، ولا يصدهم عن فسادهم نكرانه. تهيأوا بذلك لتسلط العذاب الموعود به من قبل لوط عليهم.

- قطع القرآن تواصل الأحداث، وتوجه إلى الرسول ﷺ، ليكون في القصة تهديد للمشركين الذين تمالأوا على رفض الدعوة وواصلوا تحكيم شهواتهم. توجه القرآن لرسول الله مكرما له أنبل تكريم وأعلاه، فأقسم بحياته، لعمرك صيغة قسم: أقسم بحياتك، وهذا أسمى ما يبلغه الخطاب المرعي فيه التكريم والتقريب من رب العزة إلى بشر. أقسم بحياتك إن فطرتهم قد انحرفت، وأخذت الشهوة على عقولهم كحال السكارى الذين تبعث فيهم نشوة الخمر دفعا للغرائز بمقدار ما تضعف فيهم القوة العاقلة. وهكذا أصبحت حياتهم مضطربة حائرة لا قرار لها. وشأن الغرائز عندما تثور وتعنف، وتقصي العقل من القيادة، أن يكون صاحبها حائرا مضطربا بعيدا عن الهداية والرشد.

- يعود الكلام بعد ذلك إلى قوله تعالى: **فأخذتهم الصيحة مشرقين**. ليكشف القرآن كيف تم تسليط العذاب عليهم عند طلوع الشمس. تم ذلك بصيحة عظيمة لا يقوم لشدتها قائم. اندكت الأرض وما فوقها. وانقلب أعلاها إلى أسفلها وعلا أسفلها وتتطاير شظايا كل بناء. وتتابعت الحجارة من السماء ترجم كل شيء فتسحقه سحقا. إنها حجارة خاصة من سجيل، خلطت بطين وأحمي عليها، تسحق كل من أتت عليه وتفككه فينقلب كأنه عظم منخور بال.

- في كل ما عرضه القرآن مما سبق، لَأَدِلَّةٌ موقظة للمتأملين الذين يعتبرون بالحوادث، ويربطون المسببات بأسبابها، ولا يمرون عليها وهم غافلون، وهم المتوسمون. وآثار التدمير الماحق ما تزال شاهدة على عاقبة المجرمين الرافضين لهداية الله، إن أهل مكة يمرون عليها في طريقهم إلى الشام. فمدينة قوم لوط المدمَّرة بقيت آثارها ناطقة بعاقبة القوم المجرمين.

- والتصرف الإلهي العادل الذي كانت فيه أدلة على الحكمة الإلهية التي يدركها المتوسمون، مما وقع لإبراهيم عليه السلام، وما تم في قصة قوم لوط من مجيء الملائكة وجراءة قومه عليه وعليهم، ثم الانتقام منهم وتدميرهم، وبقاء آثارهم موقظة للناظرين. إنها آيات متتابعة ينتفع بها المتيقظون. والمتيقظون هم الذين يبعث الإيمان في مداركهم إحساسا بأن كل تصرف في الكونُ يثبِّت إيمانهم ويقوم دليلا على صنع الله في العالم فتكون مساكن قوم لوط آية بينة من آيات الله.

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأيكة : المكان الملتف الشجر.

الظالمون : المشركون.

الانتقام : العقوبة الشديدة لأجل الذنب.

الإمام المبين : الطريق الواضح البين غير المندثر.

الحجر : وادي القرى بين المدينة والشام، على الطريق من خيبر إلى تبوك.

النحت : العمل بالإزميل في الصخر ليخرج من ذلك ما ينتفع به.

بيان المعنى الإجمالي :

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام، دعاهم لتوحيد الله والاستقامة في تعاملهم، فتحدوه وأقاموا على الشرك، فانتقم الله منهم. وإن خراب منازلهم وخراب منازل قوم لوط على الطريق التي تسلكها القوافل التجارية من مكة إلى الشام، لم تندثر آثارهما. وعطف على قصة قوم شعيب قصة ثمود قوم صالح. وكلتا القصتين لم يُعْنَ القرآن في هذا الموقع بتفصيل أخبارهما. فذكر أن ثمودا كذبوا الرسل وأعرضوا عن المعجزات التي تؤيدهم. ووجهوا كل همهم للحياة الدنيا. برعوا في نحت الحجارة واتخذوا من صخور الجبال بيوتا ظنوا أنها تؤمنهم أمانا لا خوف معه. فأهلكوا بالصيحة القوية مع الصباح، فما حماهم ما خططوه وعملوه.

بيان المعنى العام :

78-و إن كان أصحاب الأيكة لظالمين.

عطف القرآن قصة أصحاب الأيكة على قصة لوط باعتبار أن منازلهما على طريق القرشيين في تجاراتهم .يشاهدون آثار الدمار الذي حل بهما. وأكد النص القرآني من البداية أنهم كانوا ظالمين، أي مشركين. وجاء التأكيد ب- إنْ- المخففة من الثقيلة إنَّ.

كان أصحاب الأيكة قوما مشركين ينزلون بأرض تغطيها أشجار كثيفة ملتفة، بعث الله إليهم سيدنا شعيبا فدعاهم إلى التوحيد والعدل في التعامل، فكذبوا رسولهم وتحدوه، فانتقم الله منهم. وأخذهم عذاب يوم عظيم هو عذاب يوم الظلة. وسيفصل القرآن خبرهم في سورة الشعراء الآيات 176/190-

79- فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين.

أكدت الآية أن منازل قوم شعيب ومنازل قوم لوط على طريق واضح بين، تسلكه قوافل التجار، ويشاهدون الدمار الذي لحق بهما.

80←84: ولقد كذب أصحاب الحجر ...ما كانوا يكسبون.

عطف القرآن على قصة اصحاب الأيكة قصة أصحاب الحجر. ثمود الذين بعث الله لهم سيدنا صالحا. دعاهم إلى توحيد الله. وأيده بمعجزة هي الناقة وسيأتي تفصيل أخبارهم في سورة الشعراء الآيات (141/150).

سجّل عليهم في هذا النص: أنهم كذبوا رسولهم، وأعرضوا عن التأمل في الدليل الآية التي كانت معجزة له. ألهاهم الإقبال على متاع الحياة الدنيا عن قبول ما جاءهم به صالح. برعوا في النحت فكانوا ينحتون في صخر الجبال بيوتهم، ويتخيلون أنها تحقق لهم الأمن. فأهلكهم الله بالصيحة القوية مع دخولهم في الصباح، وما نفعهم ما كانوا يقومون به من الاحتياطات، وما يدبرونه لحماية أنفسهم.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصفح الجميل : العفو عنهم مع عدم العتب.

لا تمدن : لا تحدق نظرك إعجابا بما أوتوه من النعيم الدنيوي.

النذير : المُعْلِمُ بحدث فيه ضر.

المبين : المصرح و الموضح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الله أجرى خلق السموات والأرض وما بينهما وما اشتملا عليه، حسب قوانين مضبوطة تنسحب على كل كبيرة وصغيرة . فلا مجال للمصادفة ولا لعدم المعقولية فيما يحدث فيهما. وإن من ملابسة الخلق بالحق ما يقتضي أن يكون البشر المستخلفون في الأرض مسؤولين عن استخلافهم فيها، وأن يبعثوا يوم القيامة ليجزوا بما عملوا. فقابل يا محمد صدهم عن الحق بالصفح عنهم الصفح الذي لا لوم معه ولاغلظة. واعلم أني أنا ربك الخلاق العليم بما أخلقه وتطوراته وما يحدث منه. وإنك في رعايتي، فقد آتيتك سورة الفاتحة والقرآن العظيم، وذلك أكبر منة.

وما جمعته من الخير يقل في نظرك ما يتمتع به المشركون رجالا ونساء، فلا تنظر إلى ما بين أيديهم من النعيم، فإنه نعيم زائل وما عندك باق مستمر في عطائه صلاح البشرية إلى يوم القيامة.

ولا تحزن لكفر من كفر، ولا لما يصيبهم. وإن قلبك الكبير يحب الخير للبشر جميعهم. وواصل ما جبلت عليه من نبيل الأخلاق مع المؤمنين، وحنوك عليهم. وقل للمشركين إني نذير لكم أنذركم عذابا سينزل عليكم، بينته لكم، وفيما تلاه القرآن عليكم من مآلات المكذبين ما يكون رادعا واضحا لكم عن رفض الإيمان.

بيان المعنى العام :

85←86: وما خلقنا السماوات والأرض ...إن ربك هو الخلاق العليم.

تنعطف الآيتان على ما سبق في السورة من تمرد المشركين، وما لحقهم في النهاية من العذاب الذي استأصلهم فتصرح بقاعدة عامة بنى الخلاق العليم عليها الكون: السماوات والأرض وما بينهما، ما يحدث فيهما ظاهرا وباطنا، بما يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل العناصر الكونية، تثبت أن الله خلق هذه العوالم ملتبسة بالحق، تجري على الحق ولا مدخل للباطل فيها. والحق يعني النظام والدقة والحكمة، والربط بين الأسباب والمسببات. هي قوانين ثابتة معقولة لا يخرج عن صارم ضبطها صغيرة ولا كبيرة، ولا يختلف في ذلك كسب الإنسان وجزاؤه عن قوانين العقل وعن قوانين المادة.

نعم !إن الطاقة العقلية للإنسان تقصر عن إدراك جميع تلكم القوانين، وعن تفاصيل انطباقها في الوجود. ولكن الخلاق العليم هو الذي قدرها في مواقيتها بحكمته. وبهذا يكون الربط بين الفعل والجزاء، وبين الكسب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب هو أمر ثابت لا شك فيه. ولكن إظهاره في الخارج مرتب في علم الله، فإما أن يُظهِر بعض آثاره في الدنيا. وإما أن يتحقق ذلك عند البعث عند قيام الساعة. فبهذا يكون البعث للحساب والجزاء يوم القيامة ضرورة عقلية مستندة إلى الارتباط بين الأسباب والمسببات. إذ الصلاح وفعل الخير سبب للثواب والتكريم، والفساد والشر سبب للعقاب والإهانة. فإن لم تظهر بعض الآثار في الدنيا تكون الحياة الآخرة أمرا حتما لتحقق المسببات. وهذا ما ورد في أثناء القصص السابقة في السورة من تكريم أو استئصال، مرتبط كل ذلك بكسب الإنسان.

وترشد الآية النبي ﷺ ليتسع صدره ولا يحزن ولا يضيق بما يمكر به أعداء الإسلام، فإن ذلك هو شأنك على ما خلقتك عليه من كمال نفسي وخلق رفيع سداه الصبر ولحمته الترفع عن الجاهلين.

والتأمل في تلكم القوانين تؤكد للناظر فيها أن ربك هو الخلاق لا خالق غيره، لقصر قدرات غيره عن الإحاطة، وضعفها عن بلوغ الحكمة الشاملة، وأنه هو العليم، لما يكشف عنه النظر في الخلق. إن ربنا لم يهمل صغيرة ولا كبيرة، ولا يتيسر النظام إلا مع العلم الدقيق الشامل. وقد قدر سبحانه أن لا يعجل باستئصال مشركي مكة، وقد ظهرت الحكمة في ذلك من بعد، فقد قام بعضهم وما تناسل منهم بنشر دين الله في الآفاق.

ونلفت النظر إلى تعبير القرآن: **إن ربك** - ففي إسناد الرب سبحانه، وهو رب كل شيء، إلى النبي ﷺ ما يشير إلى عنايته به وتسليته عما يلقاه من المشركين، وأنه لا يغيب عن علمه شيء وسيجزيهم. فإنه كما خلقهم هو أعلم بفِعالهم. وهو سبحانه الذي يقدر لكل شيء أجله. وقد يكون في عدم معاجلتهم بالعذاب ما يشرح صدره ويحقق له ما يرغب فيه.

87- ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم.

هيأت الآيات السابقة، في قوله تعالى : **لعمرك** الآية، وفي قوله تعالى قريبا: **إن ربك** هو الخلاق العليم، لتأكيد المنن التي خُصَّ بها النبي ﷺ، فوقع التصريح بذلك في هذه الآية. **لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم**. المنة أوصلها الله لنبيه مع كامل الرفق والتكريم، لما توحي به كلمة الإيتاء بجرسها الناعم الذي هو ألطف

من أعطيناك. وقد آتاه الله- سبعا - مـن المثـاني- والقـرآن- أمـا كلمـة السـبع فهـي نص في دلالتها على المعدود لا تحتمـل مـا هـو أكثـر ولا مـا هـو أقـل. والمعـدود المثاني جمع مثناة، اسم مشتق من اثنين أصـله ثنـى الشـيء فجعلـه اثنـين. وعلـى أي شيء تدل كلمة مثاني؟ ذهب معظم المفسـرين إلـى أن المقصـود بهـا سـورة الفاتحـة اعتمادا على الحديث الذي أخرجه البخاري، وعلى مـا أخرجـه مسـلم، وقـد بينـا ذلـك في سورة الفاتحة. وإطلاق المثاني على سورة الفاتحة بـالنظر إلـى أنهـا تقـرأ فـي كـل ركعة من ركعات الصلاة. فأطلقت عليهـا بـذلك الاعتبـار، كمـا أطلـق لفـظ المثـاني على القرآن كله، كما جاء في قوله تعـالى (الله نـزل أحسـن الحـديث كتابـا متشـابها مثاني)[1] - نوه الله بالقرآن كله بأنـه كـرر مضـامينه بأسـاليب مختلفـة بمـا يضـمن تثبيتها واستيفاء جميع جوانبها بطريقته الخاصـة البالغـة حـد الإعجـاز، إذ تـم التكريـر بطرق متنوعة، يكشف المتأمل كل مرة أعيـد فيهـا المضـمون جوانـب لـم تـذكر مـن قبل، وطريقة تعبيريـة متميـزة، ووحـدة لا اخـتلاف فيهـا. وبمـا أن سـورة الفاتحـة تضمن التخطيط العام لكل ما عني به القرآن أطلق عليها السبع المثاني.

وبناء على ما ذكرناه تكون من فـي قولـه تعـالى مـن المثـاني تـدل علـى أن السـبع المثاني التي امتن بها الله على رسـوله هـي بعـض القـرآن أبـرزت بصـفة خاصـة لتكون مزاياها متحدة مع مزايا القرآن وتزيد عليه.

ويسوغ عطف القرآن العظيم عليها، بالنظر إلـى المغـايرة بـين المعطـوف والمعطـوف عليه بالكلية والجزئية.

88←89: لاتمدن عينيك إلى ما متعنا...إني أنا النذير المبين.

إن ما آتاك الله من القرآن والسبع المثاني، وما خصك به من الوحي والهداية والرعاية، وما اصطفاك به لتكون أمينا على وحيه خاتما لرسله، هي مِنَنٌ لا تقاس بما أوتيه المشركون من المال والجاه والأولاد وقوة الأبدان، فما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا، زائل غير ثابت، فلا تكن معجبا به، ولا تنظر إليهم نظر الإكبار لما خصوا به من نعيم الدنيا. وقوله تعالى: أزواجا منهم: الرجال والنساء، أو أصنافا منهم ممن انبسطت لهم أسباب النعيم دون من كانوا في خصاصة. إذ أن المشركين لم يكونوا جميعا مبسوطٌ لهم في الرزق، بل كان بعضهم في ضيق فجمعوا بين الخسارتين. والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فإنه يشمل أمته حتى لا يشتغلوا بزهرة الحياة الدنيا إيثارا لها على ما آتاهم الله من الهداية ورزقهم من التوفيق لاتباع دينه.

---

[1] سورة الزمر آية 23

ثم أرشد رسوله ليخفف عن نفسه من حرصه على إيمانهم. هذا الحرص الذي جعله يحس بالحزن والأسى لعدم اهتدائهم وإصرارهم على الكفر. فهداه إلى أن يخفف عن نفسه التي تشفق على البشر جميعهم حتى الكافر منهم. ولا يفهم من هذا أن يحول عواطفه النبيلة إلى قسوة وشدة ويكون غير آبهٍ بما يمس غيره من سوء، فقال تعالى ما معناه: وارفق بالمؤمنين مجسما هذا الرفق والعناية بحالة الطير عندما يحتضن صغاره فيرخي جناحيه عليها: "واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ"

وقل للكافرين المعاندين قولا فصلا: اعلموا أن مهمتي هي إنذاركم بإعلامكم ما يترصدكم من سوء المصير إن أنتم أعرضتم عما جئتكم به، وأن أبين لكم ذلك بيانا واضحا لا يبقي لكم تعلة تتعللون بها تبريرا لعدم الاستجابة.

كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

المقتسمين : يحتمل أن يكون المراد به الذين قَسّموا القرآن أجزاء لا رابط بينها، أو الذين حلفوا.

عضين : جمع عضة بمعنى مجزأ إلى حق وباطل، ومقبول ومرفوض.

الصدع : الجهر والإعلان.

ما تؤمر : الدعوة إلى الإسلام.

أعرض : كن أقوى من أن تتأثر بمكرهم.

كفيناك : تولينا أمر المستهزئين بك فننتقم منهم، ونمحي آثار استهزائهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أفادت الآية السابقة أن الله أمر نبيه بأن يعلن أنه النذير المبين، ينذر الصادين عن دين الله بالعذاب، هذا العذاب هو كالعذاب المسلط على الذين بلغ بهم العناد أن قسموا القرآن أقساما قبلوا بعضه مما وجدوه لا يخالف وجهة نظرهم، ورفضوا ما يناقض تصورهم ومعتقداتهم. كما جعلوا القرآن مقسما إلى شعر وكهانة وأساطير

الماضين وكلام مجنون. وهؤلاء هددهم القرآن في أكثر من مناسبة بما يترصدهم من العذاب.

ثم أقسم بمحمد أنه سيسألهم يوم القيامة سؤال فضيحة عما كانوا يعملون في الدنيا فيجازيهم.

ثم أمر رسوله بأن يعلن بالدعوة، وينشرها دون تَخَفٍّ، وأن لا يأبه بما يقاومه به المشركون من إذاية لفظية أو فعلية. وطمأنه بأنه سبحانه تولى إجهاض استهزاء المستهزئين، هؤلاء الذين فسد تفكيرهم كفساد سلوكهم. فهم قد جعلوا مع الله آلهة أخرى لا حول لها ولا قوة، فجراءتهم على الله وعليك تُعَرِّضُهم إلى أشد عقوبة، وسيعلمون النكال الذي سوف يحل بهم، وهو تهديد شديد بسوء مصيرهم.

و يواسيه بأن الله ليس غافلا عما يرهقك به المشركون، ومن تحرجك من كلامهم. وسوف تظهر لك الحكمة من إمهالهم. ويرشده كما يرشد المؤمنين في الأوقات الحرجة أن يستعينوا بتسبيح الله مع الحمد، والصلاة.

و ختاما عليه أن يواصل ما يقوم به من عبادات يتقرب بها إلى الله ولا ينقطع عنها إلى أن تنتهي حياته، وهذا ما على كل مؤمن صادق أن يلزمه في حياته.

بيان المعنى العام :

90←91 كما أنزلنا على المقتسمين الذين...جعلوا القرآن عضين.

كانت صياغة هذه الآية على طريقة التشبيه: أداة التشبيه الكاف في قوله تعالى: **(كما)** والمشبه به **(ما أنزلنا على المقتسمين الذي جعلوا القرآن عضين)** والمشبه يحتمل أن يكون المفعول المقدر في قوله تعالى :**(وقل إني أنا النذير المبين)** أي أنذركم عذابا كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين. فيخلص المعنى هكذا: وقل إني أنذركم عذابا كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين الذين جعلوا القرآن الكريم مقسما إلى حق وباطل، ومقبول وغير مقبول.

و بعد أن قدمت بهذه المقدمة أريد أن أقرر نفي بعض الاحتمالات التي قال بها بعض المفسرين، ثم أتعمق قليلا في نظم الآية بتتبع ألفاظها.

الرأي الأول: قال بعض الناظرين في كتاب الله: إن المقتسمين هم الذين ذكرهم الله في قصة صالح: **(قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون)** سورة النمل آية 51 – فحملوا كلمة المقتسمين على معنى الحالفين استنادا إلى قوله تعالى: **تقاسموا بالله** – وهذا التفسير لا يصح حمل هذه الآية عليه .ذلك أن القرآن أتبع كلمة المقتسمين بما يوضحها **(الذين جعلوا**

القرآن عضين) وقوم صالح مكـروا ودبـروا طريقـة للقضـاء علـى صـالح عليه السلام، ولا صلة لهم بالقرآن.

الرأي الثاني: أن المقتسمين هم أهل الكتاب الـذين قسـموا مـا تلقـوه مـن الكتـب عـن رسلهم إلى ما يوافق القرآن فقبلوه، وإلى مـا يخالفـه فرفضـوه، ويكـون معنـى القـرآن عضين، أي كتـابهم المقـروء (التـوراة أو الإنجيـل) مقسـما. وإطـلاق القـرآن علـى كتابهم اعتمادا على الاشـتقاق اللغـوي، لا أراه مقبـولا. لأنـه قـد تكـرر إطـلاق لفـظ القرآن سبعا وستين مرة في غير هذا الموضـع وكلهـا بمعنـى الكتـاب المعجـز، الـذي أنزله الله معجزة لمحمد ﷺ. وهو ما حول المعنى اللغـوي إلـى المعنـى العَلَمِـي فيكـون تبعا لذلك هو السـابق للأفهـام، ولا يحمـل علـى المعنـى اللغـوي بمعنـى القـراءة إلا بقرينة صارفة، ولا وجود لقرينة.

الرأي الثالث :وقل للمشركين ولأهل الكتاب إني نـذير لكـم، أنـذركم عـذابا لا تجـدون منه ملجأ ولا مفرا، هو يشبه العذاب الذي أنزلنـاه علـى المكـذبين مـنكم، الـذين قسـموا القرآن إلى حق يأخذون به وباطل ينكرونه ويرفضـونه . فكلمـة عضـين جمـع عضـة بمعنى جزء وقسم، أصله عضو فقلبت الواو الآخـرة هـاء. وهـذا التقسـيم صـدر مـن المشركين في طعنهم علـى القـرآن، قـالوا: إنـه سـحر، وأسـاطير الأولـين، وشـعر، وكلام مجنون، وكهانة. كما صدر من أهـل الكتـاب، إذ قبلـوا مـا صـدق كتـبهم ومـا يبقيهم على ديانتهم، وكذبوا بما نسخه من أحكام وما صـححه مـن التبـديل الـذي حرفـوا به وحي الله إليهم.

و لما كان شأن التشبيه أن يكون محققا ومقربـا للمشـبه بوصـله بالمشـبه بـه المعـروف لدى المخاطب معرفة أوضح، فإن هذا العذاب المشـبه بـه غيـر مـذكور علـى التعيـين، كما لم أجد ما يثلج الصدر في تعيينه. ذلك أن ما قدمه المفسـرون أنـه نكـال يـوم بـدر، ويوم بدر في السنة الثانية من الهجرة، والآيـة مكيـة قبـل الهجـرة فكيـف يـتم التشـبيه بشيء لم يحدث بعد ولم يـدخل فـي تصـور المخـاطبين. غايـة مـا أطمـئن إليـه أن المخاطبين استحضروا ما يدل عليه التشبيه، ولم ينقل إلينا.

92←93: فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

هذا وعيد للكافرين أكده بالقسم (فوربك) وفـي إقسـام الله بـرب محمـد، مـن التقريـب والتنويه بعلي مقامه ﷺ عند ربه ما لا يخفى. إذْنْ أقسـم الله بذاتـه العليـة، فعلـى مـا ذا أقسم؟ أقسم مؤكدا مضمون القسم بـالحلف وبعلامـة التأكيـد لنسـألـنهم بالمقسـم عليـه وهو: سؤال المنذَرين جميعا لا يفلت مـنهم أحـد، سـؤالهم سـؤال فضـح وتقريـر عمـا

كانوا يعملونه في الدنيا .هذا السؤال لا يتطلب جوابا، ولكنه إيماء للجزاء المترتب على سوء أعمالهم، في قوة لَأُعَاقِبَنَّهُمْ على أفعالهم، فتكون هذه الآية تفننا في التعبير عن مضمون الآية السابقة.

94←96: فاصدع بما تؤمر ...كفيناك المستهزئين.

هذه محطة من المحطات الكبرى في مسيرة الدعوة الإسلامية. هي التالية لتلقي الوحي الأول (اقرأ باسم ربك الذي خلق) لِمَا تلقاه وأُمِرَ بتبليغه لعشيرته الأقربين. ونجح ﷺ في هداية عدد من أهل مكة الذين كانوا يجتمعون ويعبدون الله في دار الأرقم بن الأرقم، ويتخفّى من كان بعيدا عنها فيقيم صلاته في بعض الشعاب. ومع ذلك فإنهم كانوا لا يسلمون من أذى المشركين. وتحول الوضع من يوم نزول هذه الآية التي تلزم النبي ﷺ بأن يجهر بالدعوة، ويعلو صوته بالحق الذي أنزل إليه ليخرق الأسماع، ويبلغ العقول والقلوب. تكليف جديد أثقل من التكليف الأول، إذ عليه أن يدبر المسالك التي تكون أنجع لِيَنْفُذَ منها إلى البشر جميعا. ويتأكد عليه أن يخطط ما يكفل له الوفاء بهذه المهمة، وهو عالم صلَف قريش، وكبْرها، وشدة تمسكها بآلهتها. إنه الأمر من رب العزة لمحمد الذي لا يدخر جهدا في القيام بالمهمة التي أوكلت إليه. وكل سعادته أن يفوز برضوان ربه، كلفه ذلك ما كلفه. ويزيد هذا التحول ثقلا بأن عليه أن لا يُراعيَ ما ألفه المشركون في عباداتهم وتعاملاتهم، بل يصدع بكل ما نزل عليه. فاصدع بما تؤمر بدون ذكر متعلق **تؤمر** ليعم العقيدة والشريعة والسلوك. لتكن شجاعتك على مستوى ما أنت مقدم عليه، فلا يهمك مواقف المشركين وما يعدونه في طريقك من معوقات. فمعنى أعرض عن المشركين، لتكن أصلب وأقوى في مواجهة المشركين فلا تبتئس بما يقومون به لتثبيطك وإذاية المؤمنين.

و تبقى الحرب النفسية التي يتفنن فيها السفلة من المشركين، التي منها الاستهزاء بالدين والقرآن ومظاهر الإسلام. وإن كان الاستهزاء لا يصد عن الدخول في الإسلام، إلا أنه يجرح كبرياء المؤمنين المعتزين به ويؤذيهم، إذ يعمد السفهاء إلى المقدس فيعبثون به.

كانت هذه الناحية مما أهمَّتْ الرسول ﷺ، فأعلمه الله أنه كفاه أمر المستهزئين، أي توليت مكانك الانتقام منهم، وجعلت استهزاءهم مسلوب التأثير. وعن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير هم خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل،

والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة. وكلهم هلكوا بمصائب حققت فيهم كفاية الله لنبيه.

ثم أكدت الآية في خاتمتها استحقاق المستهزئين للانتقام الذي يترصدهم، ولا مناص لهم منه، لأنهم تجاوزوا الحدود، وجعلوا مع الله آلهة أخرى لا تملك من خصائص الألوهية شيئا. فشنعت الآية بتفكيرهم، وأن ما وصل به فساد التفكير إلى اتخاذ آلهة مع الله يجعل كل ما يفعله بعد ذلك أقل شناعة. وإذ قد جمعوا بين الشرك بالله والاستهزاء بالرسول ﷺ فهم بذلك حقيقون أن ينالوا جزاءهم الذي أبْهِمَ لتذهب النفس في تصوره كل مذهب يتناسب مع عظم جرمهم.

97←98: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك...وكن من الساجدين.

قوت الآيتان السابقتان عزيمة رسول الله ﷺ (فاصدع، وأعرض) (إنا كفيناك المستهزئين) ولا شك أن النبي ﷺ كان على مستوى رفيع من شدة الإحساس ورفض التعدي. فهو قد آزره ربه فصمد، ولم ييأس ولكنه مع ذلك كان يتألم لكفر قومه بما أنزله الله إليه، وإقامتهم على الشرك وعبادة الأصنام، ويتألم لمقابلتهم ما هو عليه من الجد بالاستهزاء والسخرية. فآنسه ربه بهذه الآية، كن واثقا يا محمد أن الحالة التي أنت عليها هي تحت رعايتي، لا يخفى علي ما تقاسيه وما يحز في نفسك الكريمة، ويشير سبحانه بهذا إلى أن في ذلك حكمة عند الله في عدم استئصالهم.

ويرشد نبيه إلى المنهج الذي يخفف عنه هذا الكدر النفسي:

أولا : يذكره بأنه يجد في الإعلان بتسبيح الله مسلاة لهمه ورَوْحًا يفرج عنه. فهو إذا سمع منهم عبارات الشرك، وتمجيد الآلهة، والسخرية من القرآن والإسلام مما يقصدون به الإذاية، عليه أن يجري على قلبه، التسبيحَ المنزه لله عن أقوالهم. وعلى لسانه ذكر ما استقر في قلبه قارنا لحمده على ما أفاضه عليه من نعمة الهداية للصراط المستقيم وتقريبه التقريب الذي رفعه إلى مقام الائتمان على وحيه.

ثانيا: أن يفزع إلى الصلاة، فعبر عن الصلاة بالسجود، الذي هو كما شرع في الإسلام، المظهر الأكمل للخضوع لله. روى الإمام احمد وأبو داود عن حذيفة بن اليمان :أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه (نزل به هم أو غم) صلى. كما أخرج الإمام أحمد تطبيقا لهذه الآية بسنده إلى عبد الله بن جعفر كان إذا حزبه أمر قال: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. علق عليه المناوي (فائدة) أخرج النسائي عن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه أن سبب هذا أنه لما زوج عبد الله بن جعفر بنته قال لها: إذا نزل بك أمر فاستقبليه بأن تقولي: لا إله إلا الله الحديث ...فإن المصطفى ﷺ

كان يقوله. قال الحسن فأرسل إلي الحجاج فَقُلْتُهُنَّ، فقال: والله لقد أرسلت إليك وأنا أريد قتلك، فأنت اليوم أحب إلي من كذا وكذا فسل حاجتك. وهو في مسلم بنحوه من حديث ابن عباس [1].

99- واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ثلث الله وصيته لنبيه بأن يواصل القيام بعبادة ربه مستحضرا عنايته به إلى آخر نفس من حياته. إلى أن يأتيه ملك الموت. فأطلق اليقين على الأمر الثابت المتيقن الذي لا شك فيه، وهو أن كل نفس ستبلغ أجلها الذي أجل لها وتخرج من الدنيا. وذلك نظير قوله تعالى: (وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) [2]

و قد كان عرض علي بعض أصحاب السلطة أن قوله تعالى: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أنه إذا حصل اليقين عند الإنسان فذلك مغن له عن العبادة. وحسب ما ذكر لي أنه عرض رأيه هذا على أساتذة من خريجي السربون فاستحسنوه وأيدوه . فعرفته أولا: أن الخطاب موجه أولا إلى النبي ﷺ ثم إلى أمته، فهل كان النبي ﷺ لم يبلغ اليقين فأمره بالعبادة حتى يصل إلى اليقين ليترك بعد ذلك العبادة ؟هذا تصور لا يمكن أن يتصوره رجل مسلم.

ثانيا: أن هذه الآية لها نظير في سورة المدثر وتلوت الآية فهل معناها: وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين بالتكذيب؟ فسكت بعد ذلك.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير هذه السورة يوم الجمعة غرة شهر ذي الحجة 1432- بعد أن توقفت أياما تبعا لعملية جراحية أجريت على عيني والحمد لله المان باللطف والشفاء. وأسأله سبحانه أن يعينني على بلوغ التمام، وأن يجعل عملي خالصا لوجهه ينتفع به المؤمنون.

---

[1] فيض القدير ج5ص 120

[2] سورة المدثر آية 46/45

سـورة النّحـل

هذه هي السورة السّادسة عشرة في ترتيب المصحف. عرفت بهذا الاسم في المصاحف وفي كتب التفسير. وروي عن التابعي الجليل قتادة الدوسي أنها تسمى أيضا سورة النعم جمع نعمة، إشارة إلى النعم العديدة المذكورة فيها. وأخطأ بلاشير في قراءتها ظانا أن النون مفتوحة فترجمها على أنها النَعَم.

و عند معظم المفسرين هي مكية، واختلف في بعض الآيات منها، فذهب بعضهم إلى أنها مدنية، وأن النبي ﷺ أمر كتبة الوحي أن يضعوها في مكانها من السورة. وسنتعرض لها عند تفسيرها إن شاء الله .نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة ألم السجدة فهي بذلك الثانية والسبعون حسب ترتيب تاريخ النزول.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستعجال : طلب تعجيل حصول شيء.

الملائكة : هو جبريل عليه السلام.

الروح : الوحي.

من أمره : من مقدوراته التي يستأثر بها.

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق بما لا يبقى معه مجال للشك أن ما قدره الله، من حلول النقمة بالكافرين ونصر المؤمنين، سيقع في المستقبل في الوقت الذي حدده. فاستوى في التحقق ما سيأتي بما قد نفذ فعلا. ولذا فلا تطلبوا سرعة حلول الوعيد بالنسبة للكفار أو الوعد بالنسبة للمؤمنين، لأن تقدير الله مؤسس على الحكمة التي لا تتبع ما يرقبه الناس أو يسألونه. تنزه سبحانه عما يشرك به الكفرة الجاحدون.

و من مظاهر الألوهية التي لا يشاركه فيها أحد عنايته بخلقه، فقد أنزل ملائكته محملين بالوحي لرسله الذين اختارهم، وهو العليم، لينذروا البشر أن لا إله يستحق العبادة والتقرب إليه إلا الله. فعليهم أن يكوّنوا وقاية لأنفسهم من التعرض لنقمته.

كما أنه تفرد بخلق السموات والأرض التي تقوم بما هي عليه من نظام، دليلا على أنها من خلق الله وحده، ولا يتصور لها خالق سواه. إذ قامت في خلقها على الحكمة والدقة لا على العبث والفوضى.

بيان المعنى العام :

1-أتى أمر الله فلا تستعجلوه.

استبطأ المشركون ما أوعدهم الله ورسوله من الكوارث والبلايا في الدنيا، وحملهم ذلك على التكذيب والاستهزاء. وكذلك استبطأ المسلمون النصر، وهم يشاهدون المشركين يتطاولون مكذبين، تتضاعف مقاومتهم ويضيّقون عليهم في حياتهم. فكان المشركون يستعجلون النبي ﷺ أن يأتيهم بما أوعدهم، وكلما توسع أمد الإمهال كانت مقاومتهم أشرس وأعنف، وكان التكذيب أشد وأقوى، ويجد استهزاؤهم مددا من عدم مشاهدتهم لبطش الله. وكذلك حال المؤمنين، ولعلهم فاتحوا النبي ﷺ سائلين أن يعجل الله لهم بالنصر، ويكبت أعداءهم ويعلي راية الإسلام، دون أن يدخلهم شك في صدق الرسالة. ولكنها الطبيعة الإنسانية العجلَى التي ينتابها الضجر من التأخير الذي لم يُكْشَفْ عن حكمته وبقي سرا من أسرار القدر المحجوب .

ولذا ورد الرد على صياغة فاصلة جازمة، أتى أمر الله. تحقق إتيان أمر الله، كأنه صدر في الوجود وتم ظهوره، فنفى الارتياب فيه بالتعبير عنه بالفعل الماضي. إن ما قدره الله من نصر المؤمنين وتسليط الجزاء العادل على الكافرين أمر ثابت، ولشدة ثبوته عبر ب [أتى] عوض سيأتي. وإذا كان محققا لاشك فيه، فاعلموا أن خروجه من التقدير القديم إلى الوقوع المنجز، يتم وفق الحكمة التي أجل بها سبحانه حوادث الكون منذ الأزل. ولذا نُهُوا جميعا أن يستعجلوا عذاب الله للكافرين ونصره للمؤمنين، لأن استعجالهم لا يقدم ولا يؤخر. ولا تتبع الإرادة الإلهية رغبات الناس. تعالى الله وهو العظيم، وتنزه وتقدس عن أن يُشْرَك به أحد، أو أن يعبد غيره، أو أن يتقرب لأحد سواه.

2-ينزل الملائكة بالروح ...لا إله إلا أنا فاتقون.

أثبتت الآية السابقة تعاليه وتنزهه عما يدعيه المشركون. ومن مظاهر الوحدانية وزيف الشركاء، أنه سبحانه هو الذي تتابع عنايته بخلقه فيحمل ملائكته وحيه،

وأطلق على ما يوحي به بالروح، لأنه بالوحي تستقيم العقول فتدرك الحق وتسمو إلى خالقها متقربة منه بالعبادة، فحياة العقول تتحقق بالوحي، كما تتحقق حياة الأجسام بحلول الروح فيها. ولو حرمت الوحي لكانت عاجزة عن قيادة الإنسان إلى ما فيه نفعه وخيره، ويخسر تبعا لذلك حاضره ومصيره.

وهذا الوحي متضمن لأمور اختص الله بعلمها، يوحيها لأنبيائه ليبلغوها للناس فتستقيم بذلك حياتهم الدنيوية والأخروية. إنه يختار للتبليغ من له الكفاءة للقيام بهذه المهمة النبيلة العظيمة، بما أودع في كل منهم من الخصال الرفيعة، التي بها سَمَوْا على بقية البشر، وتهيأوا لوعي ما يتلقونه من الملك. قال تعالى: (الله أعلم حيث يجعل رسالاته) [1].

إنه سبحانه يتخير من عباده من هو أهل لمهمة إنذار الناس وتنبيههم إلى الحقيقة الكبرى التي هي أصل الصلاح في الكون: أنه لا إله إلا الله. هو الحقيق بأن يخضع له كل إنسان، فيقوم عن رضا بجميع ما يأمر به ويجتنب ما ينهى عنه. وأن تثبت صلته بربه حلولا مستمرا يهديه إلى مواصلة الخير والبعد عن الشر.

3-خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون.

تتابع الآيات لافتة الأنظار للمشاهد التي تقوم ناطقة بأن الله هو المتفرد بالألوهية، إذ هو وحده الخالق، ولا يدعي أحد غيره أنه يخلق شيئا. والمخلوق لا يصلح أن يكون إلها. فعرضت:

أولا: إثبات قضية لا يستطيع أي عاقل أن يجادل فيها. هي أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأن خلقه لها كان ملتبسا بالحق لا بالباطل، وبالحكمة لا بالعبث. إنه وإن اختلف إدراك البشر للأسرار في ذلكم الخلق المحكم العجيب، إلا أنهم يشتركون في الإقرار بالنظام المحكم لسيرها وانضباط أحوالها. ولا يستطيع أي كان أن يدعي أنه خلقها أو أوجدها، إذ كل ما سوى الله مما هو مدرك للبشر لا تبلغ قوته مستوى السماوات والأرض.

نعم إن الملاحدة يدعون أنها خلقت بالانفجار الكوني الذي حدث في لحظة من الزمن البعيد. وهذه فرضية لم يقم عليها دليل علمي من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هذا الانفجار المدعَى فوضى لا نظام، والمشاهد أن كل مكوِّن من مكونات الكون يسير على نظام بالغ الدقة. غاية ما يطمح إليه العلم أن يدرك القوانين التي

---

[1] سورة الأنعام آية 124

تحكم كل كوكب في تركيبه وفي علاقاته. ورغم التقدم العلمي الذي بلغته البشرية اليوم فإنها لم ترم بنظرها إلى ما وراء المجموعة الشمسية، من مجرات تقدر أبعادها بالسنوات الضوئية.

إن ما عشش في عقول الكفرة من فساد قادهم لاتخاذ آلهة من دون الله، لا يضر الله شيئا فإنه تعالى وتقدس عما يشركون، وهو ما ينادي به إحكام خلقه.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

خصيم : كثير الخصام.

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز.

الدفء : ما يتدفأ به فيقي الإنسان من البرد.

تريحون : حين تعودون بها إلى المكان الذي خرجت منه للرعي صباحا.

تسرحون : تخرجون بها إلى المراعي.

الأثقال : جمع ثقل، وهو ما يثقل على الناس حمله بأنفسهم.

شق : المشقة.

السبيل :الأعمال المبلغة إلى الجزاء يوم القيامة.

قصد السبيل : السبيل المستقيمة.

جائر : مضلل حائد عن الاستقامة الموصلة إلى المقصود.

الذرء : الخلق والتكثير.

الرواسي : الثوابت من الجبال.

الميد : الاضطراب.

بيان المعنى الإجمالي :

حقيقة ثانية لفت إليها القرآن الأنظار: هي التحول المفاجئ في الإنسان المشرك، خلقه الله من نطفة من ماء مهين على أشد ما يكون من الضعف، فأحاطه بألطافه

حتى اكتملت مواهبه العقلية، فإذا هو يصرف النعمة الكبرى (العقل واللسان) في إنكار الخالق وإثبات شركاء له.

وصل القرآن تلك الظاهرة الغريبة بلفت الأنظار إلى ظواهر أخرى تلهم الإنسان إلى الاعتراف بالخالق المدبر للكون. من ذلك أن الله خلق الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز. يتخذ الإنسان من أصوافها وأوبارها وأشعارها ما ينسج منه لباسا أو سقفا للخيمة يمكنه من الدفء ويقيه من البرد. ويأكل من لحومها ما يعوض ما أذهبه العمل من قواه. ومع ذلك هي تُدخل على نفسه البهجة والإحساس بجمالها حين تعود من المراعي ممتلئة البطون حافلة الضروع. أو تخرج للسرح في الصباح نشيطة متداخلة. كما سخرها لتساعد الإنسان على الضرب في الأرض والتحول بمتاعه وتجارته، فتحمل الأثقال وتسير بها إلى المكان الذي يقصده، الذي ما كان له أن يبلغه بدون الإبل إلا بجهد عظيم ومشقة كبرى. أفلا يقوم ذلك دليلا على أن ربكم الذي تولاكم بعنايته رؤوف بكم رحيم بضعفكم.

وعرض القرآن أيضا ما خلقه الله من الخيل والبغال والحمير، لافتا النظر إلى منافعها التي من أبرزها اتخاذها مطايا ليطوي بها الراكب المسافات القريبة والبعيدة، ويستعين بالخيل على الصيد والقنص. ومنة أخرى فيها، أنه خلقها على صورة فيها جمال يمتع البصر. فهي زينة في الأرض وزينة لمن يركبها. ونبه القرآن على أن تلكم المذكورات وراءها خلق لا يوجد في البيئة العربية ولا يعرفه المخاطبون. وبعد هذا وذاك ما سيلهم الله إليه الإنسان ليُكَوِّن منه مراكب وآليات تنقله وتنقل أمتعته وتخترق به أجواء السماء. والله هو الملهم الذي خلق القوانين وخلق الطاقة التي تسير تلكم الأنواع المختلفة من الطائرات والسيارات والرافعات والصواريخ.

وفوق كل ذلك، فإن الله هو وحده الذي مكن الإنسان بفضله وإرادته، من العقل الراشد إلى طريق الهدى وحصنه برسالاته، فتم تبيُّن الطريق السالك للغايات المحصنة له من الضلال. وبجانب طريق الهدى طريق الضلالة المنحرف عن الصراط المستقيم. والإنسان مختار يسلك ما يشاء. ولو شاء الله أن يقصركم على الهدى لفعل، ولكن هذا يرفع التكليف. والله أراد أن يكون الإنسان مكلفا مختارا.

ثم واصل القرآن لفت الأنظار إلى ظواهر تثبت تفرده بالألوهية والقدرة والحكمة، لفت الأنظار إلى الماء النازل من السماء، في إنزاله حكمة وفي ربط حياة الإنسان به في شرابه وفي فلاحته، وفي تحويل الأرض الجرداء به إلى مراعي، وفي

تمشيه في باطن الأرض حتى تحول مع عناصر الأرض إلى زروع وزيتون ونخل وأعناب، إلى ثمرات مما هو معروف عند المخاطبين ومما هو منبث في أقطار الأرض. كل ذلك يقوم دليلا واضحا لمن يتفكر فيما تتقله إليه حواسه ليستلهم الصور فيدرك الحكمة التي وراءها.

كما لفت الأنظار إلى الليل والنهار والشمس والقمر كيف سخرها فكانت مساعدة لاستخلاف الإنسان في الكون. والنجوم على كثرتها التي ملأت أرجاء السماء قدر لها مسارها أو تمركزها ثابتة في مكانها مستجيبة لقوانين خلقها. وكل ذلك فيه أدلة على ارتباطها بخالقها للقوم الذين يُعملون عقولهم.

وما خَلَقَهُ ونَشَرَهُ في الأرض من الحيوان والنبات، يتحد أصله وتختلف ألوان ما تفرع منه، يتضمن أيضا أدلة منادية لقوم يتأملون في الظواهر ويعملون فيها عقولهم.

وسخر كذلك البحر للإنسان، فكان مخزنا للأسماك يأكل الإنسان لحومها بخصائصها من طراوة وجدة. ومع هذا يستخرج الإنسان من البحر اللؤلؤ والمرجان يتزين بهما. كما سخر البحر لتجري فيه الفلك للأسفار وللتجارة، إنه إذا تأملتم في نعمة الله تلك يرجى أن تقودكم إلى لشكر.

ثم حول الأنظار لنظام في الأرض خفي، وهو أنه سبحانه ألقى في الأرض جبالا راسية ثابتة تحفظ استقرارها وعدم اضطرابها. وأجرى فيها الأنهار الناقلة للخصب إلى الأماكن التي لم تروها الأمطار. ويسَّر في الأرض اتخاذ الطرق التي ينتقل فيها الإنسان من مكان إلى آخر. وقدر أن يكون سطحها مختلف المظاهر لتكون تلكم الاختلافات علامات يهتدى بها لبلوغ المكان المقصود بدون اشتباه. كما جعل النجوم علامات في الليل يهتدي بها السُّراة في الوقت الذي لا تتبين فيه المعالم الهادية وكذلك في البحر.

وختمت تلكم التنبيهات بسؤال ينكر على المشركين ضلالهم، هل يستوي الذي يخلق بالعاجز الذي لا يستطيع أن يخلق شيئا ؟

ثم أيقظ العقل والحس إلى ما يأتي من نعم الله وفضله. فأكد أن الإنسان عاجز عن حصر نعمه، وما يتنبه له هو قليل بالنسبة للنعم التي هو ذاهل عنها، والتي لا يحصرها التعداد. ومن أفضل النعم أن الله يغفر للمذنبين تجاوزاتهم، ويرحمهم فلا يعاجلهم بالعقوبة.

بيان المعنى العام :

4- خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين.

ثانيا: يتبع القرآن خلق السماوات والأرض، وما في خلقهما من دلالة على الوحدانية لله، إذ لا يستطيع أن يتصور لعظمهما أن يكون لهما خالق غيره، يتبع ذلك بلفت الأنظار لخلق الإنسان. ففي ومضة سريعة ينتقل القرآن بالناظرين من نقطة البداية في تكوينه إلى اكتمال قواه الباطنية، وقدراته على البيان والتأثير، اللذين يتفرد بهما عن غيره من بقية الكائنات الأرضية. ويبدو في هذه النقلة العجيبة البون الشاسع بين المبدأ والوضع الذي آل إليه.

فمبدأ الإنسان قضية لا خلاف فيها، هي النطفة: البييضة الملقحة العالقة بجدار الرّحم. والتي هي الخلية الأولى التي لا ترى إلا بالمجهر. وسواء أنظرت إلى حجمها أو وزنها أو صلابتها، فإنك تجد شيئا حيا صغيرا جدّا. أودع الله في هذا الكائن التافه برنامجا كاملا ودقيقا لتطوره، وأحاطه بألطافه لينمو ويكتمل حتى يظهر ما كان كامنا فيه. وإذا هو إنسان تنوعت مداركه، ونما عقله، ويستطيع أن يُبَلِّغ ما يريد أن يبلغه بلسانه وأن يؤثر في مخاطَبيه، كما يتلقى منهم رسائلهم. ولم يقصره خالقه على قول الحق والتزام الصدق، بل ترك له الحرية في تصريف قواه ومداركه وقوته البيانية في الخير أو في الشر. والعجب من الإنسان كيف ينحرف فيستعمل أداوته تلك في تقرير الباطل ويخاصم فيه، ويكد عقله وفصاحته وبيانه ليقلب الحقائق ويدافع عن الشرك، ويطمس الفضيلة. كأن هذا الانقلاب أمر مفاجئ إذا جمعت بين مبدئه وبين وضعه الحالي الزائغ.

5-والأنعام خلقها....ومنها تأكلون.

ثالثا :خلق الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز. وهي تجتمع مع الإنسان في كونهما من جنس واحد، هو جنس الحيوان. وتبرز النعمة في القصد من خلقها، الذي هو عون الإنسان على الحياة(لكم) فعدد من ذلك.

أ-الدفء، الذي يحمي الطاقة الحرارية في الجسم من النزول بلذع البرد، وذلك بما يتخذه من أصوافها وأوبارها وأشعارها من نسيج للكساء وسقف للخيام.

ب – مصالح متنوعة عبر عنها بالمنافع كالألبان، والسماد لتخصيب الأرض.

ج – الأكل من لحومها فتعوض الإنسان عما احترق من الوحدات الحرارية.

6-ولكم فيها جمال .....و حين تسرحون.

رابعا: يغذي الإنسان ذوقه ومشاعره بالجوانب الجمالية في الكون، كما يغذي جسمه بالوحدات الحرارية التي يجدها في أنواع الأطعمة. والأنعام يجد فيها صاحبها عندما تعود من مراعيها تتهادى وقد امتلأت بطونها بما رعته من النبات، وحفلت

ضروعها باللبن، ما يسر نظره ويملأ نفسه بالبهجة. وكذلك في تزاحم القطعان من الأنعام، وهي منصرفة إلى المراعي في خفة، منظر لا يخلو من جمال، وإن كان عودتها أتم في ذلك. ولذلك قدم القرآن الرواح على السرح.

وفي الامتنان بالناحية الجمالية ما يهدي إلى أن الدين الإسلامي دين لا يقمع دواعي الفطرة السليمة، بل يعززها. فعناية المسلم بالنواحي الجمالية التي تهذب ذوقه وتلبي الأحاسيس الرقيقة فيه منسجم مع عمق التدين، سواء أكان ذلك في مأكله أو ملبسه أو مسكنه، أو في تعبيره وبيانه.

7- وتحمل أثقالكم إلى ...لرؤوف رحيم.

خامسا :أذن للإنسان أن يمشي في مناكب الأرض وهُدي إلى التحرك في أرجائها. ولما كان ما يملكه وما يتصرف فيه يتجاوز نقله طاقاته البدنية، سخر له الإبل تحمل متاعه وتجارته، وتبلغه البلد الذي يريده، وإن كانت المسافة بعيدة لا يبلغ الإنسان قصده إليها إلا بمشقة وتعب شديدين.

وإنك لتلحظ فضل تسخير الله تلكم الحيوانات للإنسان، فترى الطفل يأخذ بخطام بعيره ويركبه ويسوقه إلى حيث شاء. أفلا تقوم هذه النعم مناديةً بما اتصف به ربنا من رأفة بعباده، يسعدهم بما يُهَوِّنُ عليهم المشاق، وبما يعينهم على تحقيق أغراضهم الصالحة في الحياة. وذلك من رحمته التي وسعت كل شيء.

8- والخيل والبغال والحمير ..و يخلق ما لا تعلمون.

سادسا: خلق سبحانه الخيل والبغال والحمير وسخرها للإنسان. وامتن على البشر بأن مكنهم من ركوبها لقطع المسافات، والطرد والقنص، والدفاع والغزو. كما أنها زينة تقر عين مالكها وراكبها والناظر إليها. وما يزال الناس إلى اليوم يعنون بها وخاصة بالخيول، ويبذلون في الجيد منها أثمانا عالية ربما تفوق أفضل السيارات تقانة. وتختص البغال مع جمالها وصلابتها بالقدرة على تسلق الجبال، وهي أفضل ما يستعين به سكان المناطق الوعرة. والحمير المذكور في الآخر منزلتها في الواقع دونهما، ولكنها أوسع انتفاعا إذ يمكن للفقير أن يملكها. كما أن سيرها لا يتعب الراكب فيتروح عليها في الأسفار البعيدة. ولما قصرت الآية الامتنان على الركوب والزينة فإنه قد أخذ منه بعض الفقهاء أنه لو كانت الخيول والبغال والحمير يجوز أكل لحومها لبينته الآية. وحاصل الفقه في أكل لحومها:

أما الخيل فقد حرم مالك وأبو حنيفة وأصحابهما وكثير من الفقهاء أكل لحومها اعتمادا على ما ذكر قريبا. وذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين إلى جواز أكل

لحومها. وهو الأرجح في النظر. لأن الاقتصار على بعض المنافع في مقام الامتنان لا يفيد قصر حلية الانتفاع على ما ذكر، فإن البقر يستعان بها في الحرث وكذلك الإبل، وتركب أيضا ولم يذكر ذلك في الآية. ولا قائل بحرمة ذلك لعدم ذكره في معرض الامتنان.

ب:وأما البغال فلما كانت نوعا مركبا من نطفة ذكر الحمير والفرس، فمن حرم أكل لحومهما حرم أكل لحوم البغال، وأما من أحل أكل لحوم الخيل فقد غلب في البغال صلتها بالحمار فحرم أكلها أيضا، إلا ما روي عن عطاء أنه يجيز أكل لحوم البغال، وهو قول تفرد به.

ج – أما الحمر فالقول بتحريم أكل لحومها يقرب من الإجماع.

و تختم الآية بتثبيت قاعدة، هي أن علم الإنسان قاصر حتى فيما سبيله المشاهدة. إذ تثبت الآية أن الله يخلق في الحال والمستقبل ما لا يعلمه المخاطبون بالآية عند نزولها. فهو سبحانه قد خلق من الحيوانات التي يستعين بها الإنسان وتيسر له حياته في بيئته ما لا يعلمه العرب، كالحيوانات التي تجر مراكب البشر في القطب المتجمد، وكالفيلة التي تعتمد في كثير من حاجات الإنسان في بعض المناطق، والحيوانات التي ظهرت في القارة الأميركية.

كما تفيد الآية أن الله سيلهم البشر اكتشاف قوانين الطاقة التي يسيرون بها الطائرات ورافعات الأثقال، والسيارات بمختلف أحجامها وأشكالها، والسفن العملاقة، والصواريخ العابرة للفضاء، وغير ذلك، مما عوض الطاقة الحيوانية وتقدمت به الحضارة أشواطا. كما يشمل ما هو في علم الغيب مما هو مفتوح للبشر معرفته.

9 - وعلى الله قصد السبيل ....لهداكم أجمعين.

الإنسان ممكن في الدنيا من اتباع طريق الخير أو طريق الشر. وتعهد الله سبحانه تفضلا منه ورحمة ببيان طريق الهدى بأمرين:

أولهما: ما رزقه الإنسان من عقل يميز بين الصالح والطالح والحسن والقبيح، والخير والشر، ويتصور العواقب التي ينتهي إليها إذا هو سلك سبيل الهدى، والعاقبة السيئة إذا هو انحرف وغَلَّبَ النفع الضئيل القريب على الخير الكثير المضمون في النهاية.

ثانيهما: ما تفضل به سبحانه من إرسال رسله لتقويم مسار الإنسان وللكشف عما يمكن أن تكون الشهوات والعواطف، والعادات السيئة، قد حجبته عن العقل المجرد.

إن قوله تعالى: ومنها جائر، أي سبيل غير موصل للمقصود، إلى الخير، الضامن لسلامة الإنسان في الدنيا والآخرة. وضلال ذلكم الطريق هو مسبب عن اختيار الإنسان وترجيحه طريق الضلالة على طريق الهدى.

وتختم الآية بالتأكيد على أن الله خلق الإنسان خلقا جعله به حرا مختارا. وهذه إرادة الله. ولو شاء سبحانه أن يخلق الإنسان مطبوعا على الخير عاجزا عن الشر لخلقه كذلك، ولكنه لا يكون إنسانا ولا مكلفا ولا مستخلفا في الأرض.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تسيمون : تطلقونها للرعي.

آية : دليل على أن الله هو الخلاق وحده.

ذرأ: أوجد وخلق بواسطة التناسل.

البحر : الجزء الواسع من الأرض المملوء ماء حلوا أو مالحا.

الطري : اللين الغض.

الحلية : ما يتزين به

المخر : الشق.

الرسو: الثبات بالمكان.

السبل : جمع سبيل وهو الطريق الذي يسلكه المسافرون.

علامات : أمارات يتخذها الإنسان فتحميه من الضلال.

بيان المعنى الإجمالي :

الله هو وحده الذي أنزل الماء من السماء وفي ذلك دليل على تفرده بالألوهية والخلق سبحانه. ثم في تتبع ما يترب على هذا الماء دلائل أخرى لمن يتأمل . يدخل الماء في تركيب الإنسان وحاجته ليرتوي منه. حاجته إليه أكيدة، يستطيع أن يستغني عن الطعام أياما ولكنه لا يصبر على الماء، ويسري الماء في الأرض فتنبت به الأشجار والكلأ فترعاها الأنعام، وتدخل لحومها وألبانها في تركيب الإنسان. وخلق في الإنسان القدرة على معرفة قوانين الفلاحة، والماء عنصر أساس في الزراعة وفي نمو الأشجار المثمرة من الزيتون والنخيل والأعناب، وما لا يحصى من الأنواع المثمرة مما يتناسب مع كل إقليم. كل ذلك يشرح صدور الذين ينفذون بتفكيرهم إلى معرفة تلكم القوانين في قوى إيقانهم بأن الله وحده هو الخلاق العظيم. كما سخر سبحانه الليل والنهار ليلائم الوضع البشري، وسخر والشمس والقمر تسخيرا للإنسان لا يعوقه عن القيام بدوره في الكون. وكذلك النجوم التي ملأت قبة السماء، أودع فيها ما جعلها تسبح في الكون وتسير في مساراتها، وفيها دلائل على الحكمة الإلهية وعلى تفرده سبحانه بالتأثير.

بيان المعنى العام :

10-هو الذي أنزل من السماء ...فيه تسيمون.

سابعا: المنة الكبرى ذات الآثار المتداخلة العجيبة.

بين أولا: أن الإنسان مرتبط بالماء النازل من السماء بتقدير إلهي وفضل منه، نتبين ذلك من قوله مقدما (لكم) إظهارا لشدة الارتباط بين البشر وهذا الماء النازل من السماء.

وثانيا: أن من هذا الماء شرابه، يدخل الماء في كيانه ليعدل مكونات الجسم، ويصفيه من كثير من الفضلات.

وثالثا: أنه يتمشى في باطن الأرض فيخرج من اختلاطه بعناصر الأرض الأشجار بما تحمله من أوراق، والمراعي التي يطلقون فيها أنعامهم فتقتات من الكلأ، كما تتناول ما تصل إليه من أوراق الشجر. وإذا بالماء النازل من السماء يتضاعف خيره فتنمو به الأنعام حتى يصبح قوتا للناس في اللحوم والألبان.

11-ينبت لكم ....لقوم يتفكرون.

ثم بين رابعا من عجائب القدرة، كيف أن الماء النازل من السماء يرتبط بما ألهم إليه الإنسان من فن فلاحة الأرض، فينبت منه الزروع والزيتون والنخيل

والأعناب . إن الفارق بين هذه الآية والتي سبقتها أن الآية السابقة تولد فيها عن الماء مراعي وأشجارا لا مدخل لمجهود الإنسان فيها، وهذه الآية تدل على ما يبذل فيه الإنسان مجهودا، فيحرث الأرض، ويلقي بالزريعة في الأرض على طريقة مخصوصة، وكذلك نبتة الزيتون وفسيل النخل، وغصن العنب؛ فهذه الثلاثة عمرت بها المزارع في الجزيرة العربية وما حولها من أرض الشام والعراق. والإنسان يحرث ويزرع ويغرس ويتابعها بالرعاية لتنمو وتثمر، وكلها مرتبطة بالماء النازل من السماء. ووراء ذلك أنواع عديدة تبعا لما في كل قطر من أقطار الأرض من خصائص في التربة والمناخ، تمنح الإنسان صنوفا من الثمرات.

عرض القرآن ما عرضه ولفت الأنظار إليه ليجد فيه من كان له عقل يتأمل ولا يقنع بالظواهر، يجد فيما ترتب على نزول الماء من السماء دليلا على أن الله هو المتفرد بالخلق. ذلك أنه ليس للإنسان أي دخل لا في إنزال الماء من السماء، ولا في الآثار المترتبة عنه، حتى ما يقوم به من مجهود في الزراعة أو الغراسة لا نُجُحَ يتبعه إلا بفضل من الله.

12-وسخر لكم الليل والنهار...لقوم يعقلون.

ثامنا : بيَّن من عجائب القدرة كيف طوَّع سبحانه الليل والنهار والشمس والقمر للإنسان. والذي يظهر أن تسخير الليل للإنسان يبرز تحققه في الملاءمة بين الوضع البشري وبين تعاقب الليل النهار، فلو استمر الليل على الكرة الأرضية أو النهار، لكانت الحياة صعبة جدا إن لم نقل مستحيلة. فتواصل الليل يصحبه نزول الحرارة، المؤثر سلبا على حياة الإنسان والحيوان والنبات وفقد الإنسان السكون الليلي الذي يريحه من عناء العمل بالنهار. وكذلك العكس، لو استمر النهار لارتفعت الحرارة إلى درجة تفسد الحياة. وكذلك الشمس في جاذبيتها للأرض وما تبعثه في الكون من الضوء والحرارة بمقدار تسير معه حياة الإنسان بصفة ملائمة. ومثلها القمر وتأثيره في المد والجزر، وجاذبيته للأرض بما يمكنها من الاستقرار في مدارها؛ كل ذلك تجده مراعى فيه وضع الإنسان والخواص التي تيسر عليها الحياة.

و من الإعجاز القرآني أنه لما تعرض للنجوم فصلها عن بقية الظواهر، ذلك أنها كثيرة كثرة لا يَعْلَمُ على وجه الدقة خصائصها إلا خالقها. وتحكُمها قوانين صاحبتها عند التكوين المعبر عنه بالأمر. ثم إنه حرض العقل الإنساني لينفذ إلى تلكم العوالم، وأشار إلى أنه واجد في اهتمامه ذاكم أدلة متنوعة على تفرد الله بالألوهية والتأثير. فهي ليست محجوبة لا تتكشف للقدرات العقلية للبشر إذا هم ساروا حسب مناهج البحث المولِّدة.

و يلاحظ أن الآية السابقة (11) ختمت بأن في ذلك آية، وختمت هذه الآية (12) بأن في ذلك لآيات. وذلك لأن ما تم تعداده في الآية الأولى منبثق من شيء واحد هو الماء ظهر بمظاهر متعددة فعبر عنه بآية، أما الآية الأخيرة فهي ظواهر تقوم كل واحدة منها بنفسها وتستقل بدلالتها.

13- وما ذرأ لكم ...لقوم يذكرون.

تاسعا: لفتت هذه الآية الأنظار إلى ظاهرة الألوان المختلفة في الكون، نجد اختلافها في النوع الواحد وما في كل لون من جمال. اعتبر ذلك في الخيل والعصافير والطيور، فقد اختلفت الألوان مع أنها وجدت ونمت في بيئة واحدة وغذيت بماء واحد واتحد الأبوان. وبتفسير ذلك بأن الجينوم ظهر في الحصان الأول فكان أشقر وظهر جينوم آخر في أخيه من قبله أو من بعده فكان أدهم أو أبيض. من الذي جعل الجينوم الخاص المحمول في الخريطة يكون فاعلا أو معطلا؟ إنها قضايا تدعو إلى التأمل مع استحضار مختلف الظواهر لتبين القدرة المؤثرة بالفعل.

14-وهو الذي سخر البحر ...ولعلكم تشكرون.

البحر قوة عظيمة، عندما يهيج يهلك كل ما يأتي عليه. نقلت لنا وسائل الإعلام المرئية صورة من زحف البحر على مناطق من شرق آسيا وشاهدنا الكوارث التي تبعت تدفق مياهه. وابتلع قاعه مراكب كثيرة عبر التاريخ. والغواصون المهرة يتولون في فترات إخراج بقايا السفن الغارقة، وفي ذلك ما يحسس بنعمة تسخير البحر للبشر.

عاشرا : إن هذه القوة العظيمة طوَّعَها الله للإنسان. هداه إلى صناعة السفن التي ما تزال تتطور حتى أصبحت أفضل وسيلة لنقل السلع، ورواج التجارات، وما يترتب على ذلك من توفر فرص العمل، وتبادل الخيرات بين العائلة البشرية ونمو الثروات. وينعم الإنسان بالسباحة في مياه البحر الذي يحتضنه، ويلطف شواظ الحر. ومن مياهه اهتدى إلى الخطوات الأولى لتحويله إلى ماء صالح للشراب وري الحيوانات والأشجار والنبات. كما تقوم مياهه على تمكين أجهزة من المصانع للعمل. فمنافع البحر بعد تسخيره لا تحد. ولو جعله هادرا مضطربا لتعطل معظم الكرة الأرضية وخرج عن خلافة الإنسان.

و من تسخيره سبحانه البحر أن جعله بيئة صالحة لحياة الأسماك التي تعتبر مقوما غذائيا جيدا للإنسان، بما يحتوي عليه تركيبها من بروتين وكلسيوم وأملاح عديدة. وعدد القرآن من المنة أنه قدَّر أن تكون لحوم الأسماك غضة على خلاف لحوم

الأنعام، والتعبير في المنة بالطري فيه إدماج مرشد إلى أكلها جديدة، مما ينبئ أن خزنها يقتضي أخذ احتياطات خاصة.

ومنة أخرى أن الله كوّن في البحر أنواعا من الأصداف يستخرج منها اللؤلؤ الذي تفنن الإنسان في نظمه فكان حليا يضيف إلى وسامة الإنسان جاذبية، كما يستخرج من البحر المرجان الذي كان مجالا للنحت ثم تكوين حلي منه أيضا. وأفهم من إسناد اللباس في الحلية إلى ضمير جمع المذكر (تلبسونها) مع أن الغالب في لباس الحلي هو للنساء، إشارة إلى أنه غير محرم على الرجال التزين بالحلي من غير الذهب أو الفضة، وأن لبس خاتم للرجال من فضة لا من ذهب به فص من لؤلؤ، أو من مرجان، حلال.

ومن نعم تسخير البحر، أن هدى الإنسان لقوانين الطفو على سطح الماء فاتخذ الفلك التي تحمل الأثقال وتشق البحر رابطة بين البلدان، ميسرة لنقل خيرات الأرض، وكل ضروب السلع من مكان إلى آخر. والتعبير بابتغاء الفضل كثر إطلاقه في القرآن على التجارة .كما أشرنا إليه آنفا.

وإذ افتتح نعمة إجراء الفلك في البحر، بأنها نعمة ظاهرة يدركها كل راءٍ (وترى الفلك فيه مواخر) ناسب أن تختم بأن هذه المشاهدة تقتضي أن يتوجه الإنسان بالشكر لربه على ما يسر وأعان، وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين لغلظ حسهم وظلام قلوبهم لم تفدهم حتى الأدلة الواضحة الظاهرة.

15←16: وألقى في الأرض ...هم يهتدون.

ظواهر أربعة جمعها القرآن على أن القدرة الحكيمة هي التي ألقتها على سطح الأرض، فكأنها ظواهر حدثت بعد التكون الأول لها، كما تشير إليه كلمة (ألقى) - الجبال -الأنهار - السبل - العلامات - فلننظر كل ظاهرة من هذه الظواهر: عبَّرت الآية عن الجبال بالرواسي، وكشفت الآية عن الحكمة في ذلك: أن دور الجبال فوق سطح الأرض، وتوزيعها على النحو التي هي عليه حقق توازنا في الكرة الأرضية يحميها من الاضطراب. وهو ما مكن الإنسان من الاستقرار، الشرط الأساسي للعمران، والممكن أيضامن إقامة المشروعات السكنية والانتاجية.

1) الأنهار: تتجمع فيها المياه وتنساب على الجنبات فتسقي أراضي شاسعة ما نزل عليها المطر كوضع النيل في مصر، وتمخرها السفن كالبحر، وتتوالد فيها الأسماك، وغير ذلك من المنن.

2) السبل: لا يستغني الإنسان عن التنقل في أرض الله، كما لا تتم الحضارة إلا بالضرب في الأرض. ويسر الله الأرض فبسطها بشكل يمكن للإنسان أن ينتقل بين أرجائها في يسر.
وأتبعت الأنهار والسبل بقوله تعالى: "لعلكم تهتدون"، أي رجاء أن تحصل لكم الهداية المادية التي تبلغكم الغايات التي تقصدونها. كما أنها وسائل تصلون بالتأمل فيها إلى الاهتداء إلى إبداع الصنع الإلهي في الكون فتتمكن الهداية الإيمانية منكم.
3) العلامات. لو كانت الأرض صفحة واحدة لا اختلاف فيها ولا خصائص لأجزائها، لتاه الإنسان في فضائها الواسع البعيد الأرجاء، ولكن حكمة الله جعل لمناطقها خصائص بها تتميز تعرّف الإنسان بالمنطقة التي هو فيها. كما ألهمه أن يقيم معالم يعرف بها الطريق السالك، ولا يختلط عليه سبيل العودة. وهذه نعم مثبتةٌ أن كل دقيقة في الكون آية دالة على الحكمة التامة، وإن كان كثير من الناس قد يغفلون عنها.
4) وخص بعض النجوم بخصائص يهتدي بها البشر في سراهم، في الوقت الذي يطبق فيه ظلام الليل على المعالم، كما يهتدي بها المسافرون في البحار ولا معالم. كما ينتفع من ظهور بعضها تغير الفصول، فيعتمدون على ذلك في الزراعة. وبالجملة فإن ما عمرت به السماء من نجوم يكون هداية لفريق من الناس، هم جزء من الجماعة الإنسانية وفضل نشاطهم تنتفع به المجموعة البشرية.

17—18: أفمن يخلق ....لغفور رحيم.

تتابع في هذا المقطع لفت الأنظار إلى النعم التي هي من فضل الله ولطفه بالإنسان. وحرك العقول والمدارك لاستحضارها وللانتقال منها إلى مبدعها، والتركيز على أنه لا يستطيع أن يدعي أحد أن له شركا في إيصالها للبشرية، ولا في تنظيمها التنظيم التي هي عليه.
فاستفهم القرآن استفهاما ينكر فيه على المشركين ضلالهم، إذ ادعوا أن لله شركاء، مما ينبئ عن غبائهم في تسوية من هو عاجز عن خلق أي شيء مما ذكرته الآيات وأقامته دليلا على تفرد الله بالتأثير، تسويته بمن تفرد بالخلق والتقدير والحكمة في خلقه. ثم يقرّعهم على اختلال تفكيرهم ويسجل عليهم بأداة التحضيض أنهم لا يتفكرون فيما هو مشاهد أمامهم .
تفرد الله سبحانه بالخلق بمعناه الحقيقي الكامِل الخلق الذي قدر خصائصه وآثاره. هو الخلق الذي لا يتوقف على وجود مادة سابقة، إذ هو منبثق عن العلم الدقيق الشامل لجميع الجزئيات الظاهرة والكامنة، و عن القدرة النافذة، وعن الإرادة الحرة. يستجيب فيه المخلوق لإرادة الخالق وحكمته. فيبرز للوجود حسب التقدير السابق ولا أثر للمصادفة.
وليس لأحد سواه أي أثر في الخلق بهذا المفهوم الدقيق لا في حال إيجاده، ولا لآثاره بعد إنجازه ولا لعلاقاته بعد إنجازه في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد.

فدعوى بعض الواهمين أن لهم قدرات على الخلق دعوى كاذبة، وزيف بعيد كل البعد عن الحقيقة.

ردد بعض خريجي "الصربون" الفرنسي مُنَوِّهين "بالفكر الخلاق" وليس للفكر مهما توقد وصفا أن يخلق شيئا. وغاية ما يصل إليه الانكشاف المطابق للحقيقة. فليتأمل البشر حامدين ما منحهم الله من قوى التفكير ليدركوا صدق هذه الحقيقة: الخلق لله وحده. أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون.

ويُخْتَمُ العرض بقاعدة جامعة عامة، تحرك العقل ليتأمل، والمشاعر لتنطلق في الاتصال بالكون، بما يصحبه من تتبع لنعم الله على الإنسان. ويفجأ النص القرآني بتلكم الصورة البديعة: أن الكثرة الكاثرة من النعم التي لم تترك جانبا من جوانب الوجود، ولا حظا من حظوظ البشر، ولا تنظيما وألطافا مقترنة في سير الحياة، هي كثيرة كثرة يتجاوز حصرها وتعدادها قدرات الطاقات البشرية. وفوق ذلك كله، إن الإنسان لضعفه قد يقع في المعصية ويستعين بفضل الله عليه على ارتكاب الإثم، ويذهل عما توجبه النعم من الشكر. ويظهر القرآن نعمة هي أجل النعم ويذكر بها: إن الله لغفور رحيم، يمحو ذنوبهم ويسعفهم برحمته التي وسعت كل شيء. اللهم لا تحرمنا مغفرتك وأدخلنا ربنا في رحمتك.

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

أيان : اسم استفهام، مركب من (أي) و(آن) بمعنى أي وقت.

البعث : الإرسال، والمقصود به في اصطلاح القرآن إحضار الناس للحساب.

منكرة :جاحدة.

لا جرم : لابد، حقا.

بيان المعنى الإجمالي :

أفضت الآيات المعددة للنعم إلى إثبات تفرد الله بالخلق، وأنه غفور رحيم. وواصل القرآن مفصلا بعض ما يوضح العقيدة الحق، التي منها إثبات أن الله هو المتفرد بعلم الظواهر والخفايا. وعلمه الكامل يتبعه حتما أن يكون هو وحده الخالق، وأن آلهتهم عاجزة عن خلق أي شيء ولوكان تافها، بل هي مخلوقة فالحجارة التي نحتت منها الأصنام مخلوقة لله. وليس لها روح ولا حركة فهي ميتة لا تعلم ما هو

محيط بها، وكذلك عبدتها لا يشعرون بالوقت الذي سيقومون فيه من قبورهم إلى البعث.

ثم صرح القرآن بالحقيقة التي تميز المسلمين، هي اعتقادهم أن إلههم واحد لا شريك له. وأن الكفرة الذين من أخص صفاتهم إنكار البعث، الذي يحملهم على مراقبة سلوكهم. قد استحوذ الإنكار والعناد على قلوبهم فلم يبق فيها منفذ لنور الهداية، وجرهم ذلك للاستكبار. وحقا لا شك فيه أن الله يعلم سرهم كعلمه بما يظهرونه، مما يشير إلى أنه سيحاسبهم ويجازيهم عن كفرهم وعن مؤامراتهم، وعن خبيث فِعالهم، جزاء سيلحقهم وهم محرومون من رحمة الله لأنه سبحانه يمقت المستكبرين ولا يحبهم.

بيان المعنى العام :

19-والله يعلم ما تسرون وما تعلنون.

امتزج في هذه الآية بيان حقيقة مفادها: أن علم الله علم ذاتي حاصل بدون أسباب، على معنى أن علمه بالبواطن الخفية مما يُسِرُّه الإنسان في نفسه ويجري في باطنه ولا يعبر عنه بلسانه ولا بفعله، هو كعلمه بما تصدر آثاره عن صاحبه بالكلام أو الفعل فتشاهد في الخارج . كما هو تهديد للمشركين أن ما يكتمونه هو كما يعلنونه سينالون جزاءه. وبذلك يكون كل ما أعدوه من مكر بالمسلمين سيعاقبون عليه وإن لم يتيسر لهم تنفيذه.

20- والذين تدعون...وهم يخلقون.

صرحت الآية بعجز الأصنام التي يعبدونها، ويتقربون إليها عن الخلق، يستوي في ذلك التافه والعظيم من الكائنات. ثم أكد عجز تلكم الأصنام بإبراز الدليل على ذلك. إنهم مخلوقون من الحجارة التي نُحِتوا منها. وما كان مخلوقا لا يُقبل عقلا أن يكون خالقا، لما في ذلك من قلب الحقائق. ولإذلالهم لم يذكر الفاعل الذي خلقهم، وبقي معلوما من المقام.

21-22: أموات غير أحياء...وهم مستكبرون.

إن الأصنام جامدة لا تتحرك، فهي ميتة لا روح لها ولا شعور ولا إدراك، وأكدت الآية هذه الحقيقة لشدة غفلة المشركين عنها، فأضافت إلى وصف الموت أنهم غير أحياء.

ثم إن عبدتها لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم ليلقَوْا جزاءهم. وفي هذا إشارة إلى أن البعث آت لا ريب فيه. وعدم شعورهم بتاريخ قيام الساعة ، وأنها تبغتهم تهديد لهم بما سيلقونه بعد البعث . فاستوى جهل المشركين بين الحاضر الذي أثبتوا فيه لله شركاء، وبين المستقبل الموعود به فنفوه. ولا يقال إن المؤمنين أيضا لا يعلمون متى تقوم الساعة، وذلك للدقة في التعبير الذي تم عليه صياغة الآية، قال تعالى : **وما يشعرون** فأمر الساعة لم يدخل في شعورهم أصلا لا في حقيقته ولا في زمنه،

أما المؤمنون فكما وصفهم القرآن: **والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق**[1] فهي حاضرة في مشاعرهم يتفكرون فيها فتقوى خشيتهم وتُصلِح أعمالهم.

22- إلهكم إله واحد...وهم مستكبرون.

صرحت الآية بما مهدت له الآيات السابقة التي هدمت ما يقوم عليه الشرك. والحقيقة التي تستخلص مما تقدم: أن إلهكم واحد لا شريك له. فأنتم أصحاب العقيدة الحق. وتصوركم يقوم على أساس الوحدانية المعنى النفيس الصادق الذي ضل فيه كثير من الأمم. قال تعالى : **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**[2] وفي مقابلة المؤمنين، الذين شرفهم الله بالخطاب (إلهكم)، الكفرة الذين ذكرتهم الآية بأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، تعمّق في قلوبهم الكفر حتى أصبحت تنكر هذا الدين، وتمكّن الجحد لحقائقه فيها فتحول إلى عناد ورفض وعدم نظر في محتوياته، وأصيبوا بالداء الخبيث النفسي، داء الاعتداد بما عندهم والترفع عن الحق .

23-لا جرم أن الله يعلم ...لا يحب المستكبرين .

وإذ عرّت الآية 22 التركيب النفسي الفاسد للكفرة، أفادت هذه الآية أنه لا جرم. وهذه الصيغة تفيد التحقق لما يرد بعدها تحققا لا يدخله الشك. أن الله يعلم ما يتبع كفرهم من الضلالات التي يسرونها ولا يعلنونها، ومن المناكر والأفعال القبيحة التي يبدونها ويظهرونها . وفي ذلك وعيد شديد مقرون بالعدل، إنه إذا كان الله يعلم ما يبطنونه وما يهيئونه في السر لتوقيف مد الدعوة الإسلامية، ولا يخفى عليه شيء من المؤامرات التي يعقدونها في الخفاء للمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالمؤمنين، كعلمه تعالى بما يسلطونه من تعذيب على المؤمنين لفتنتهم عن دينهم ، فإن في معنى علمه تعالى بذلك أنه سيجازيهم على فسادهم وظلمهم واحتقارهم للإسلام وأهله . وإنه سبحانه مع أنه الرحيم الرحمن لا يرحمهم، لأنهم استكبروا والله يمقت المستكبرين ولا يحبهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ
مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن
فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ

[1] سورة الشورى آية 18

[2] سورة يوسف آية 106

وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أساطير : جمع أسطورة وهي القصة.

الأوزار : جمع وزر بمعنى الثقل، وقصد به الذنب.

مكر: ألحق الضر بغيره مع خداعه بأنه له ناصح.

القواعد : الأسس والأساطين.

خر : سقط.

المشاقة : الاشتداد في الخصومة.

الخزي : الإهانة .

ألقوا السلم : خضعوا بمذلة مظهرين الاستسلام.

المثوى : موضع الإقامة .

بيان المعنى الإجمالي :

عمل مشركو مكة على صد الناس عن الدخول في دين الله، فكانوا إذا سئلوا عن طبيعة دين الإسلام، أجابوا بأنها أساطير وقصص، ليس فيها شيء من الحكمة ولا السمو .

وما ذا كانت نتيجة إضلالهم للذين طلبوا منهم أن يساعدوهم على إدراك الحقيقة؟ النتيجة: أنهم يأتون يوم القيامة محملين بأثقال الذنوب التي ارتكبوها، وبأثقال ذنوب الذين أوقعوهم في الضلال. وما أسوأ وضعهم وهم يرزحون تحت أثقال الذنوب المضاعفة !

يثبت الله نبيه بأن مكر مشركي مكة بمغالطة من يرغب في الدخول في الإسلام سينتهي بهم إلى ما انتهى إليه الصادون عن الإيمان في الأمم السابقة . سيمحقون محقا لا يجدون منه نجاة. مثلهم كمثل من اتخذ بيتا قوّى أركانه وأقام سقفه على أعمدة صُلْبة، وفي لحظة ترتج الأرض وتتناثر الأركان وتتكسر الأعمدة ويهوى السقف فوق الرؤوس، ويسحق من كان يظن أنه محمي بذلكم البناء، دون أن يشعر الجهة التي جاء منها التدمير .

ثم يعرض القرآن ما يلقـاه المشـركون، فيثبـت أن الله يـذلهم، ويـوبخهم علـى رؤوس الأشهاد فيسألهم أين الشركاء الذين تعلقتم بهم تعلقا كبيـرا، فجعلتمـوهم فـي شـق وأنـا في شق ؟ وينطق الذين منحهم الله العلـم فأضـاء فكـرهم وروحهـم فيقولـون إن الذلـة والعاقبة السيئة حقيق بأن تنصبا على الكافرين .

إن النكال المسلط على الذين ظلموا أنفسهم بالشرك يصـحبهم مـن اللحظـة التـي تـأتيهم فيها الملائكة لقبض أرواحهـم . إنهـم يستسـلمون وتتزعـزع ثقـتهم بنفوسـهم فيقولـون كما يقول كل مجرم عند القبض عليـه : لـم أفعـل سـوءا .ويبطـل الملائكـة كلامهـم بإثبات جريمة شركهم بالله، والله سـبحانه لا يخفـى عليـه شـيء ولا يُضـيع مـا سـجل عليكم من سوء أعمالكم .ويقال له يوم القيامة : ادخلوا أبـواب جهـنم ذلـك مـآلكم فـأنتم مخلدون فيها، فيتضاعف عذابهم باليـأس مـن توقـع رفـع العـذاب عـنهم. ومـا أسـوأ عاقبة المتكبرين الذين قادهم كبرهم إلى سوء المصير.

بيان المعنى العام :

24- وإذا قيل لهم ....قالوا أساطير الأولين .

لا شك أن الـوحي المنـزل علـى رسـول الله ﷺ، قـد حـرك العـرب، وكـان حـديثَ مجالسهم. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قـال: لمـا بلـغ أبـا ذر مبعـثُ النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لـي علـم هـذا الرجـل الـذي يـزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثـم ائتنـي . فـانطلق الأخ فلقيـه وسـمع من قوله، ثم رجع فقلت ما عندك؟ فقال: والله رأيـت رجـلا يـأمر بـالخير وينهـى عـن الشر. فقلت له: لمْ تشفني من الخبر، قال : فأخذت جرابـا وعصـا ثـم أقبلـت إلـى مكـة فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه وأشرب مـن مـاء زمـزم وأكـون فـي المسـجد قال فمر بي عَلِيٌّ فقال : كأن الرجـل غريـب .قـال قلـت : نعـم، قـال فـانطلق إلـى المنزل، قال فانطلقت معه لا يسـألني عـن شـيء، ولا أخبـره، فلمـا أصـبحت غـدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء فمر بـي علـي فقـال : أمـا نـال الرجل أن يعلم منزله بعد؟ قال: قلت : لا قـال انطلـق معـي، فقـال مـا أمـرك ومـا أقدمك هذه البلدة ؟ قال: قلت له: إن كتمت عليَّ أخبـرْك. قـال فـإني أفعـل. قـال: قلـت له: بلغنا أنه خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخـي ليكلمـه فرجـع ولـم يشـفني من الخبر فأردت أن ألقاه. فقال له : أما إنك قـد رشـدت، هـذا وجهـي إليـه فـاتبعني، ادخل حيث أدخل. فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمـت إلـى الحـائط كـأني أصـلح نعلـي، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل عليـه ودخلـت معـه علـى النبـي صـلى

الله عليه وسلم، فقلت له اعرض عليَّ الإسلام، فعرضه، فأسلمت مكاني. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل. فقلت: والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم. فخرج حتى أتى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش: بأعلى صوته إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فضُربت لأموت، فأدركني العباس وأكب علي ثم أقبل عليهم فقال ويلكم: تقتلون رجلا من غفار. ومتجركم وممركم على غفار ! فأقلعوا عني. فلما أصبحت الغد رجعت فقلت مثل ما قلت بالأمس فقالوا قوموا إلى هذا الصابئ، فَصُنع مثل ما صُنِع بالأمس، وأدركني العباس فأكب علي وقال مثل مقالته بالأمس.[1]

بمقدار ما كان النبي صلى الله عليه ثابتا على دعوة الناس لدين الله، بمقدار ما كانت قريش تصد الناس عنه. فكانوا يتعرضون للواردين إلى مكة ليقذفوا في أفكارهم الأباطيل. من ذلك أنهم يضللون من يسألهم عن الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ فيزعمون: أن ما جاء به إن هو إلا مجموعة من القصص وأخبار الأمم الماضية. على أن المنزل من عند الله لا يكون أخبارا وقصصا.

25-ليحملوا أوزارهم ...ألا ساء ما يزرون.

فما كان مآل ما يروجونه من افتراءات وتضليل ؟ مآلهم أنهم أضافوا إلى ما هو مسجل عليهم من جميع الآثام بسبب كفرهم، وما استحقوه عليها من العذاب، أضافوا إلى ذلك أن آثام الذين أغووهم وضللوهم فانحرفوا عن الصراط المستقيم، سيحملون مثل آثامهم دون أن ينقص من آثامهم شيء. وعلى هذا النحو من الخسران يقدمون يوم القيامة تحت ثقل الآثام. نعم كان إضلالهم للذين استرشدوهم وطلبوا منهم الهداية ناشئا عن جهلهم وبعدهم عن المعرفة الصحيحة.

وإذ قد جسمت الآية وضعية المشركين المضلِين، بأنهم يرزحون يوم القيامة تحت أثقال آثامهم، وآثام الذين ضللوهم، كان موقع التعليق، على وضعهم ذاك، بأنه وضع سيء، كان موقعًا رشيقا .

26-قد مكر الذين من قبلهم ...من حيث لا يشعرون.

تذكير بسنة الله التي يستأصل بها الذين يصدون الناس عن الإيمان لابسين ثوب النصيحة ليغرُّوا من يسألهم. مضى فريق من المدعوين إلى الإيمان على أيدي

---

[1] فتح الباري ج9 ص362/360

الرسل السابقين، على طريقة الخداع لمن يسألهم عن مضمون ما جاء به الرسول، فيظهرون لهم أن ما جاء به ليس له حقيقة، وأنهم يخشون عليهم من أن يقعوا في الضلال. لقد كانت سنة الله معهم أنه استأصلهم استئصالا لم يستطيعوا التحصن منه. جسم القرآن العذاب الساحق الذي يفنيهم، فصوره في صورة من اتخذ بيتا قوّى بنيانه بقواعد ضاربة في عمق الأرض، وأقام أعمدة ثابتة رفع عليها السقف، وفي لحظة ينفذ القضاء فتهتز القواعد وتتهاوى الأعمدة ويسقط السقف فوق رؤوسهم فيسحقهم، ويتسلط عليهم العذاب المقدور من جهةٍ، ما كانوا يتوقعون أنهم يعذبون من قبلها. فهو عذاب باغت يزلزل المعذَّب ويكون أشد إيلاما له . ذلك أن العذاب إذا كان تدريجيا فإن النفس تتعود عليه وتتهيأ لما ينتهي إليه بخلاف العذاب الباغت.

وتحقق الآية أمرين:

أولهما : تثبيت للنبي ﷺ وتوهين مكر مشركي مكة، على أن مآلهم الهلاك والخسران .

وثانيهما: تهديد للمشركين أنه سيحيق بهم العذاب، وسيلقون ما لاقاه أمثالهم في الأمم السابقة.

27-ثم يوم القيامة يخزيهم...والسوء على الكافرين.

إنه مع العذاب الناجز المقدر لهم، سيمقتهم الله يوم القيامة ويهينهم، ولم تفصل الآية نوع الخزي الذي سيحل بهم، إذ هو شأن من شؤون الآخرة أشد نكالا وأعظم إهانة من كل ما هو معروف في الدنيا .

وينضاف إلى خزيهم فضحهم على رؤوس الأشهاد، أنهم يسألون سؤال توبيخ أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم، و تجعلونهم مساوين لي .تصورونهم على أنهم في شق أهلٌ أن يعبد، وأنا في شق آخر مهمل .

إنه سؤال يفزع منه كل متبصر وكل مؤمن، ويرتفع من حناجر أهل العلم صوت صادق فيعلنون : أن المسؤولين قد أهلكوا أنفسهم، وأنهم مؤهلون لينزل بهم العذاب ويكونوا في أسوأ الأحوال . الكلام في قوة أنهم يتبرأون مما سمعوا ويثبتون أنهم لا صلة بينهم وبين هؤلاء الكفرة المسؤولين. وأنهم حقيقون بما سينفذ فيهم من الذل والمهانة، وأنه هو العدل .

28-29: الذين تتوفاهم ...مثوى المتكبرين.

واصل القرآن بيان خزي الكافرين، ببيان أن عذابهم يبدأ يوم تنزع الملائكة أرواحهم. الذي فهمته من الآية أن رحلة العذاب تنطلق من اللحظة التي تقبض الملائكة أرواحهم في الدنيا، ثم تتواصل إلى أن يدخلوا في مستقرهم الذي تقرر لهم

(جهنم). وقد أكد القرآن في أكثر من مناسبة أن الكفرة الأشقياء، يكون وقت النزع هو أول مراحل العذاب قال تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق)[1] - (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)[2] - ويكون شأنهم كشأن المجرم وقت إلقاء القبض عليه، يُسْرِع بالتبرؤ من فساده ويظهر نفسه بمظهر المستسلم الذي لم يأت منكرا .

نَسْجُ الآية : أن الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، والشرك أعظم أنواع الظلم، تقبض الملائكة أرواحهم قبضا مقترنا بالشدة والعذاب، فيستسلمون في ذل، ثم يعبرون في استكانة بأنهم عباد صالحون ما عملوا سوءا في حياتهم . ويلقون الرد السريع الذي يبطل دعواهم، بقول الملائكة: بلى، الدالة على إبطال كلامهم ونزع الصدق عن مضمونه. أي إنكم عملتم السوء. واليوم لا يفيدكم الإنكار، لأن الله عليم بكل ما صدر منكم . سجله عليكم ولا يعزب عن علم الله صغيرة ولا كبيرة من أعمالكم. أي إننا موكلون حسبما أعلمنا الله بما كنتم تعملون، نعاملكم على نفس النسق الذي عاملنا به الذين تقدموكم من المشركين .ويقال لهم يوم القيامة : ادخلوا أبواب جهنم، فينساق كل واحد إلى الباب الذي قدر له الدخول منه، ويلقى العذاب الذي كتب له، ويحل في قلبه اليأس من تحوله عن وضعه، إذ يصحب دخوله لمستقره إعلامه أنه خالد في منزلته المشؤومة خلودا أبديا سرمديا .

وإذلالا لكل داخل لجهنم يسمعهم رب العزة: ما أسوأ مقام المتكبرين. وقد ربط جزاء الكافرين بما كانوا عليه في الدنيا من استيلاء الكبر عليهم. وفي ذلك إشارة إلى مساواتهم لإبليس الذي عصى ربه ولم يسجد بسبب تكبره، فلحقته اللعنة إلى يوم الدين.

وفي تتبع أحوال المشركين هذا التتبع وربطه بالتكبر، ما يحرك كل مؤمن ومؤمنة ليكون يقظا حذرا من داء الكبر الذي يعمي البصيرة، ويشجع على الشر، ويقطع أواصر المجتمع فيتخلخل البناء الاجتماعي.

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن

---

[1] سورة الأنفال آية 51

[2] سورة محمد آية 27

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

طيبين: جمع طيب وأصله حسن الرائحة، ويستعمل للدلالة على الحسن والكمال.

ينظرون : ينتظرون.

حاق : نزل وأحاط.

بيان المعنى الإجمالي :

قطع القرآن بسط ما يتعلق بالمشركين وعجل ببشارة المؤمنين المتقين، هؤلاء الذين استقر القرآن في نفوسهم ورضوا به رضا جعلهم يجيبون من يسألهم عما بلغه رسول الله ﷺ منزّلا من ربه، يجيبون بأنه الخير الكامل في كل ناحية من نواحي الحياة الدنيا والحياة الآخرة .ويقر القرآن أن جزاء المحسنين من جنس ما قدموا حسنة في الدنيا، وحسنة في الدار الآخرة هي أفضل مما يلقونه من جزاء في الدنيا .ويقال فيها: نعم الدار دار المتقين. هي جنات، ظاهرة الخصب واضحة فيها، تتخللها الأنهار الجارية. من كرامتهم على ربهم أنهم كلما هموا بكسب شيء وجدوه حاضرا. وعلى هذا النسق يجزي الله المتقين.

تبدأ كرامتهم عند النزع بتطهيرهم من جميع الأدناس والآثام. تتقدم الملائكة إليهم بالسلام المثبت للطمأنينة . ثم يؤذن لهم يوم القيامة بدخول الجنة، ومبالغة في إكرامهم يعلن أن ما نالوه هو جزاء صالح أعمالهم في الدنيا .

عود إلى تهديد الكفرة . إنهم لا يترقبون إلا أحد أمرين: إما قبض أرواحهم من ملائكة العذاب، أو أن يأتيهم عذاب يستأصلهم. وهي سنة الله مع المكذبين من الأمم السابقة الذين فعلوا مثل فعل مشركي مكة . حقت عليهم كلمة العذاب . وكان ذلك جزاء عادلا. لم يظلمهم الله، لأنه بعث لهم الرسل وأقام لهم الدلائل على طريق الهدى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالعناد والإشراك بالله. فجازاهم الله في الدنيا بسيئات أعمالهم، وأطبق عليهم عاقبة استهزائهم بآيات الله وبرسله .

بيان المعنى العام :

31/30-وقيل للذين اتقوا...يجزي الله المتقين.

لما بسط القرآن القول في بيان وضع المشركين ومآلهم، عجل بالحديث عن القسم المقابل الذين آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به، ثم طبقوا وعاشوا هذا الدين فعبر عنهم بالمتقين . فوضعَهم أولا في إطار عام، هو إطار الرضا والاقتناع بأن وضْعهم بهذا الدين هو أحسن وضع، وفعل القرآن في حياتهم وفي مشاعرهم أفضل فعل وأتمه وأحسنه. وإذا كان الكافرون عندما يسألون عن القرآن يجيبون بأنه أساطير، فإن المؤمنين عندما يسألون عن القرآن وعما جاء به النبي ﷺ يجيبون الجواب العام الذي يجعل السائل كلما فكر في جانب من الجوانب يجد صياغة الجواب توضحه. فقولهم: (خيرا) كلمة جامعة لكل مرتبة من مراتب الكمال والفضل والحسن، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

ويعقب القرآن على رضاهم وعلى إجابتهم بعرض قاعدة عامة فيما يلقونه، تتناسب مع ما انطوت عليه ضمائرهم وما جرى عليه عملهم: إن للذين أحسنوا في هذه الدنيا عقيدة وعملا، يلقون جزاء من جنس عملهم. هو الحسنة في الدنيا والآخرة. يوضح هذا ما أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزى به في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا ، فإذا لقي الله عز وجل يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا)[1] -ويدقق القرآن بالتنبيه على أن جزاءهم في الآخرة هو أفضل وأكمل وأحسن، ويعبر بدار الآخرة خلافا لتعبيره عن مآل المشركين بأنه مثوى . وذلك لما بين المنزلين من اختلاف، فمقام المنعمين في الجنة مقام راحة واستقرار وأمن كما هو ظلال كلمة الدار في الاستعمال. بينما الكفار يُلْقَوْن في جهنم باعتبارها قرارا لهم لا يجدون فيها راحة ولا سعة فعبر عنها بكلمة مثوى. تختم الآية بإنشاء التفضيل المثير للتعجب من الخير الذي هم فيه، ولنعم دار المتقين .

هذه الدار هي جنات عدن وإقامة مهيأة لهم يدخلونها دخول الكرامة ولا يبرحونها. جمعت أنواع التكريم، يعم الخصب جنباتها، وتتخللها الأنهار الجارية . ولا ينقص من نعيمهم الحرمان من أي شيء، فكلما تاقت نفوسهم لشيء ورغبوا فيه وجدوه حاضرا. إنه على هذا النحو من الجزاء يكون جزاء المتقين.

---

[1] ج 3 ص125

32-الذين تتوفاهم ...بما كنتم تعملون.

وتختم هذه الآية بالتقابل بين الوضعين، وضع الكافرين: الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، ووضع المؤمنين المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين. وصفتهم الآية بالطيبين، وإذا كان أصل كلمة الطيب تستعمل في الرائحة الحسنة التي تميل إليها النفس فإنه قد توسع فيها فأصبحت تدل على الوضع الأكمل المرغوب فيه، مما يعني أن الله يكرمهم فينقّيهم من جميع النقائص ويكونون على أكمل حالة إنسانية، ثم يرفعون عنهم الانزعاج من الموت فيحيونهم بالسلام، فيفارقون الدنيا وهم في أمن . ثم يوم القيامة يكرمون بتوجه الخطاب بالإذن في دخول الجنة . ومن بالغ الفضل وعظيم التكريم أن يخاطبوا بأن الجنة التي تدخلونها هي جزاء أعمالكم. واعتبرنا هذا تكريما مضاعفا، لان الجنة هي بفضل الله وتتقاصر الأعمال عن الفوز بها، والمنة الكبرى من ربهم خطابهم بتقدير أعمالهم تقديرا جعل الجنة جزاء لهم بها . والله ذو الفضل العظيم .

34/33-هل ينظرون ...ما كانوا به يستهزئون.

بعد أن طمأن القرآن المتقين وعرض ما سيلقونه من حسن الجزاء في الدنيا والآخرة، توجه إلى المشركين ليشنع بهم، يفضح دخائلهم . فقال تعالى : إنهم لا ينتظرون ولا يترقبون إلا أحد أمرين : ما سبق أن قرره القرآن من نزع الملائكة أرواحهم أول مراحل العذاب والنكال، أو أن ينزل بهم ما قدره الله لهم من الاستئصال على ما تقدم قريبا من التهديد في قوله تعالى : **فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.**[1] – وحقق القرآن ذلك بأن هذه سنة الله مع الكفرة الذين مضوا من الأمم السابقة. وذكر القرآن بأن ما نالهم هو جزاء عدل لكفرهم وثباتهم على الضلال، فتسليط العذاب عليهم كتسليطه على الذين من قبلهم لا ظلم فيه، ولكن السابقين والحاضرين هم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم طريق الضلالة والكفر بآيات الله، وصدودهم عن التدبر في الآيات التي جاءتهم من عنده . وبعد تنبيههم من قبل رسل الله على ما ينتظرهم من سوء المصير . إنهم صمموا على رفض الهدى، ومضوا في الحياة مُتَحَدّين للأوامر والنواهي الإلهية، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وأحاط بهم العقاب إحاطة لا يجدون منه مفرا، بسبب إقامتهم على مقابلة جدِّ الرسالة بالاستهزاء .

---

[1] آية 26

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معانى الألفاظ :

البلاغ المبين : الإبلاغ الواضح الموضح.

الطاغوت : ما عبد من دون الله من إنسان راض بذلك أو حيوان أو جماد.

الحرص : الإرادة القوية في الشيء

بيان المعنى الإجمالي :

يسجل القرآن فساد تفكير المشركين ومحدوديـة فهمهـم، فقـد تخيلـوا أنهـم أتـوا بحجـة قاطعة تبرر ما هم عليه .قالوا: إن الله يعلم ما نعتقده وما نفعلـه ومـا نُحِلُّـه ومـا نحرمـه نحن وآباؤنا، فلوكان غير راض به لمنعنا منه، وهو القدير علـى كـل شـيء كمـا يقولـه محمد. رد عليهم القرآن بأن هذه مقالة ليست جديدة، بل قالهـا مـن كـان قـبلهم، وسـلط الله عليهم العذاب الذي استأصلهم فلو كان ما اعترضوا بـه صـالحا لمـا نـال المشـركين من الأمم قبلهم العذاب. ثم إن طبيعة الرسـالة : أن المرسـلين يبلغـون مـا أنـزل علـيهم من ربهم ويوضحونه للناس ولا يجبرون أحدا على اتباعهم .

ثم فصل القرآن: وما على الرسل إلا الـبلاغ المبـين: أنـه تعـالى بعـث فـي كـل أمـة رسولا يبلغهم ويبين لهم، وأول همـه عبـادة الله وحـده والبعـد كـل البعـد عـن عبـادة البشر والحيوانات والأشياء. وأن من البشر مـن اهتـدى فكانـت هدايتـه مـن الله بفضـل بيان الرسل وإعمال العقل حسب القـوانين المنتجـة. وأن مـنهم مـن اتبـع هـواه وأقـام على ما كان يعتقده ويسير عليه، فأعرض عن هدايـة المرسـلين وثبـت علـى غوايتـه . ثم فتح بصائر المخاطبين بـأمره لهـم أن يسـيروا فـي الأرض ليشـاهدوا عاقبـة الـذين أعرضوا عن هداية الله كيف حل عليهم مـن العـذاب مـا استأصـلهم. ثـم يخاطـب الله نبيه أنه وإن كان حريصا أشد الحرص علـى هدايـة قومـه فـإن الله قـدر أن لا يكـون الناس مؤمنين جميعا، ومن قدر لـه الضـلالة لا يـؤمن. ومعنـى ذلـك أن مـن علـم الله

منه أنه لا يعمل عقله ويـرفض مقـدما النظـر فـي الـوحي وصـمم علـى التقليـد، لا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يهديه. وأن هذه الفئة لا تجد نصيرا ينصرها.

بيان المعنى العام :

35-وقال الذين كفروا لو شاء الله ...إلا البلاغ المبين .

سجل القرآن مجادلة الكفرة لرسول الله ﷺ، لما قدموا هـذا الاحتجـاج الـذي ظنـوا أنهـم سيفحمونه به. عرض القرآن حجة المشركين أنهم قـالوا: إذا كـان الله، حسـب مـا يثبتـه القرآن وشريعة الإسلام، قادرا على تنفيذ إرادتـه، ومطلعـا علـى كـل مـا يجـري فـي الكون، فإنه لو كنا نحن وآباؤنا علـى ضـلال فـي عبادتنـا الأصـنام، وهـو لا يشـاء عبادتنا لها، لحال بيننا وبين ذلك. كمـا أنـه لـو شـاء أن لا نحـرم مـا حرمنـاه مـن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي على ما بينه القـرآن - **لمنعنـا بقدرتـه مـن تحـريم ما حرمناه** [1].

وهذه الشبهة من أقوى الشبه المضللة التي يدخلها الشـيطان فـي عقـول الكفـرة وكـذلك المتخاذلين عن تطبيق شرع الله، وإن كـانوا يـدعون أنهـم مسـلمون. يجيبـك أحـدهم إذا دعوته ليقوم بما أوجب الله عليه من صلاة وزكاة، أنـه لوشـاء الله أن أفعـل مـا أمرنـي به لهداني . وقد رد عليهم القرآن بوجهين :

الوجه الأول : أن الله سلط عقابه على الذين كانوا مـن قـبلهم بمـا استأصـلهم وأبـادهم، وبقيت ديارهم خرابا .فلو كان الله يرضى بكفرهم أو بتهـاونهم لمـا سـلط عقوبتـه علـى أمثالهم. وأن المتخاذلين من المؤمنين بـأمور العبـادة المفروضـة يقـرأون القـرآن وهـو يهدد المرتكبين للآثام، فهم بين رفض مـا أكـده القـرآن فيكفـرون، وبـين الإقـرار بـه فتسقط حجتهم وتتهاوى تِعِلَّاتهم .

الوجه الثاني : أنهم أسقطوا الأساس الذي بنى الله عليه أمر هذا الكون لمَّا استخلف الإنسان فيه، ومكنه من فعل الخير أو الشر ليكون مسؤولا عن أعماله . نعم لو أراد الله أن يخلق الإنسان مفطورا على فعل الخير فقط لتحقق ذلك، ولكن لا يكون إنسانا بل يكون شيئا آخر. إن الحرية من أعز ما فُضِّل به الإنسان. والحرية والمسؤولية صنوان يسيران معا. وشرف الإنسان يكمن في حريته. ولذا كان سلب الحرية والتسلط بالقهر لإخضاع البشر بالتعسف مما فطر البشر على مقاومته، ويقبلون التضحية بأرواحهم في سبيلها. فالحياة بدون حرية ذل ينزل بالإنسان إلى درك الحيوان غير العاقل أو الشيء الفاقد للروح.

---

[1] سورة المائدة آية - 103

وتأكيدا لهذا المفهوم ختمت الآية بقوله تعالى: **فهل على الرسل إلا البلاغ المبين.**
تقول الآية: إن مهمة رسل الله محصورة في نطاق لا تتعداه، هو إبلاغ البشرية هداية الله التي يوحي بها لرسله رب العالمين، الذين يقومون مع إبلاغها بتوضيحها توضيحا يقنع الباحثين عن الحقيقة غير المعاندين. ولا تتجاوز مهمتهم إلى إجبار الناس على قبول ما كلفوا ببيانه. والمرسلون من عهد نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ ملتزمون بهذه المنهج.

36- ولقد بعثنا في كل أمة رسولا...فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

تفصل هذه الآية قوله تعالى في الآية السابقة: فهل على الرسل إلا البلاغ المبين. فتحقق بأبلغ تأكيد أنه قد تعاقب لطف الله بخلقه في تاريخ البشرية . بعث سبحانه في كل أمة رسولا، همُّه الأول: إفراد الله بالعبادة وطرح الشرك وعبادة الأصنام وكل ما يقدمه الخيال الفاسد على أنه ذو سلطة يستحق بها أن يعبد ويطاع. ثم إن الناس انقسموا بعد أن وصلتهم الهداية.
قسم هداهم الله، فأقبلوا على ما جاءهم من ربهم إقبال التأمل، وأعملوا عقولهم ومداركهم في مضمون الرسالة فتبين لهم أن النفع والخير في تنفيذ ما أمروا به، وأنه يجلب لهم الصلاح وتستقيم به أمورهم . وفي المقابل يتحقق الفساد واضطراب الأحوال فيما نهوا عنه، فاستجابوا لرسالة المرسلين. فالله هو الذي أعطاهم عقولهم التي نظروا بها، وهو الذي بعث الرسل ليبينوا طريق الرشاد وليكشفوا لهم ما يغطيه الهوى من الفساد. فكانت الهداية الحاصلة بفضل ما آتاهم الله ؛ فنسبت الهداية إليه .
وقسم صمموا على رفض ما جاءهم من الهدى، وحكموا في عقولهم هواهم، فعطلوا ما مكنهم الله من آلات تبين لهم السبيل الموفق للنجاة، وساروا معرضين عن معالم الطريق، ورجحوا ما ورثوه من ضلالات . ولا تكون النتيجة بهذا الاختيار إلا الثبات على الضلالة، وهو معنى: ومنهم من حقت عليه الضلالة . فهي من كسبهم ومن نتاجهم الخاص .
ولما كان القرآن يرمي إلى إصلاح البشر وهدايتهم ختمت الآية بما يوقظهم من غفلاتهم، فطلب منهم أن يسيروا في أرض الله ليشاهدوا بأعينهم عاقبة المكذبين الذي استأصلهم العذاب بسبب كفرهم .

37-إن تحرص على هداهم ...وما لهم من ناصرين .

هذه الآية تنادي بما جمع الله في رسوله من سامي الأخلاق. إن قومه رغم شدة مقاومتهم له، ومجاهرتهم له بالعداء، هو حريص أشد الحرص على هدايتهم يتألم

من استمرارهم على عبادة الأصنام، لا ينِي من معاودة تذكيرهم وتقديم النصح لهم، لا يصده عن مواصلة مهمته أي عائق، هو نافذ العزيمة صابر على المضي. فيقول الله له مسليا : إن شدة حرصك على إيمانهم لا يبلغك أن تُسَرَّ بإيمانهم .ذلك أن من سبق في علم الله أنه ثابت على ضلاله، لأنه أصم أذنيه وصرف ملكاته عن النظر، ورضي بالتقليد الأعمى، لا تستطيع أن تهديه. وهذه الطائفة من المصممين على الكفر وعبادة الأوثان لا يجدون نصيرا يوم القيامة. وقراءة الجمهور: لا يُهدى من يضل بضم ياء المضارعة. فحذف الفاعل وبني الفعل لنائب الفاعل، وذلك لتقدير الفاعل عاما يتناول كل من يحاول هداية هؤلاء الذين اختاروا الضلالة على الهدى، أي لا يجد أي هاد طريقة يهديه بها.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

جهد أيمانهم : أغلظ الأيمان وأوثقها.

يبعثون : يحضرون لمحاسبتهم عما قدموا.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم المشركون قسما مغلظا: أنه يستحيل أن يُبْعَثَ الموتى بعد أن تتحلل أجسامهم، وتتناثر أجزاؤهم في الكون. وكذبهم القرآن فأثبت أن البعث حقيقة لا شك فيها. وأنه وعد صادق التزم الله به، ووعده لا يخلف. وكل ما في الأمر أن المشركين وهم أكثر الناس وقت نزول الآية جهلة لا يعلمون الحقائق.

وسيكون يوم القيامة مبينا للناس وجه الحق ووجه الباطل فيما كان يحدث من خلاف حولهما في الدنيا، ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين في نفيهم لإحياء الموتى وليوم الجزاء .

استبعد الكافرون البعث لتصورهم أن الأجسام إذا تحللت وانتشرت أجزاؤها في الكون يستحيل أن تعود إليها الحياة. فأعلن القرآن عن حقيقة تشمل البعث وغيره، هي أن إرادة الله تنفذ محدِثَةً ما سبق أن تقرر في علم الله . ويتم الإحداث بصفة لا يكون للمُحْدَثِ أي ممانعة بمجرد ما تتعلق الإرادة بالإحداث يتم في الحال، كالقول للشيء كنْ، فيكون موجودا حالا .

بيان المعنى العام :

38- وأقسموا بالله جهد أيمانهم ...لا يعلمون.

لا يترك المصممون على الكفر أي وسيلة لـرفض الـدعوة إلا اسـتعملوها، فزيـادة علـى التكذيب الصريح، والاسـتهزاء، والاخـتلاق، هـم فـي هـذه الآيـة يحـاولون الإقنـاع بالحلف بالأيمان المغلظة، ويقسمون باسم الله، الذي جعلـوا لـه شـركاء، ولكـن تخيـروا الحلف به، لما يعلمون من تصديق مخاطبيهم بمـا يقسـم عليـه باسـمه العظـيم. كـان مضمون قسمهم أن الله لا يحيي مـن يمـوت وتخـرج منـه الـروح ليحاسـب، اسـتبعادا منهم لعودة الحياة بعـد المـوت، وقـد تحللـت الأجسـاد. كمـا سـجل علـيهم القـرآن: (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أءذا كنـا عظامـا نخـرة)[1] . وكـان الـرد علـيهم بكلمة (بلى) التي تفيد نقض ما صرحوا به، أي يبعـث الله مـن يمـوت .ثـم أكـد أمـر البعث بأن الله وعد بذلك وعدا حقـا صـادقا، كأنـه أمـر التـزم بـه، ووعـده سـبحانه يستحيل أن يتخلف .

ومع التحقق الكامل ونفي كل شك: أن بعث الله المـوتى سيحصـل لامحالـة فـي الوقـت الذي قدره سبحانه في سابق علمه. ولكـن أكثـر النـاس، وهـم المشـركون فـي وقـت نزول الآية لا يعلمون هذه الحقيقة وينكرونها، والإنكار لا ينفي الواقع.

39- ليبين لهم الذي يختلفون فيه...كانوا كاذبين .

من حكمة الله في خلق الإنسان أن جعله قابلا للمعرفـة، ومكنـه مـن الطـرق التـي يبلـغ بها الوصول إلى معرفة الحـق، بحواسـه، وبعقلـه، وبـالوحي المنـزل. إنـه إذا اعتمـد هذه الطرق وجرى على قوانين المعرفة التي نظـم بهـا الله أمرهـا، فإنـه سيصـل إلـى الحق. ولكن بعض الناس يسـلكون السـبيل الموصـل، وبعضـهم يسـلك السـبيل الـذي يبعد به عن إدراك الحق، بإهمالـه بعـض الطـرق، أو بإجرائهـا علـى غيـر القـوانين الصحيحة. وبناء على ذلك كان الاختلاف بـين مـن أدرك الحقيقـة وعمـل بهـا، وبـين من أدركها ولم يعمل بمقتضاها، وبين من ضل فغابـت عنـه. والغايـة التـي مـن أجلهـا أوجد خالق الكون النظام الموصـل لـم تتحقـق فـي الـدنيا؛ فكـان يـوم القيامـة يـوم الانكشاف والتمييز بين الحـق والباطـل فـي المـدارك، وفـي الـدعاوى فـي الحقـوق المادية، وارتفاع الحجب التي كانت تغطي الحق في الدنيا.

---

[1] سورة النازعات آية 11

ومن ذلك أن الذين كفروا بـــالله وكـــذبوا بـــاليوم الآخـــر والحســـاب، ســـيواجهون بالبعـــث واقعا يكذب دعاويهم في الدنيا : أنه ليس بعد الحياة الدنيا حياة أخرى .

40-إنما قولنا لشيء ...كن فيكون.

هذه الآية توضح أن تصور المكذبين بالبعث تصور ساذج، وأنهـــم علـــى حـــظ كبيـــر مـــن الجهل. لقد استبعدوا أن تعود الحياة إلى الأجساد بعـــد تحللهـــا وتفـــرق أجزائهـــا. توهمـــوا أن الإيجاد لا يتم إلا بالتغلب على امتناع موضـــوع الخلـــق، فـــإن التـــأثير حســـب قـــانون الكون يتم بعد تغلب المؤثر علـــى عصـــي مقاومـــة الموضـــوع القابـــل للتـــأثير. فالحـــداد مثلا إذا أراد أن يكـــون شـــكلا، لا يحقـــق إرادتـــه إلا بالتغلـــب علـــى الحديـــد بإحمائـــه وطرقه، أو إدخاله تحت ضغط الآلات التي تعطيه الصـــورة التـــي يريـــدها الصـــانع. ثـــم لا بد قبل هذا أن تكون مادة الحديد موجـــودة وقابلـــة حســـب خصائصـــها للصـــورة التـــي يريد أن تكون عليها. ومرجـــع ذلـــك هـــو عجـــز الإنســـان أن يحقـــق إرادتـــه إلا باتبـــاع القوانين التي بني عليها الكون. فكانت هذه الآيـــة كاشـــفة عـــن اخـــتلاف الحـــادث عـــن الخلاق القديم القادر التـــي لا تحـــد قدرتـــه ولا يعترضـــها شـــيء .والســـماوات والأرض وما فيها خاضعة تستجيب للإرادة الإلهية بطبعها .إنـــه إذا كانـــت بطبعهـــا عصـــية عـــن المؤثر الحادث، فهي بطبعها طائعة للمؤثر القديم .

عبر عن هذا المعنى القرآن الكريم بتحميل اللغة في وُسْـــعِ قـــدراتها مـــن ناحيـــة، والعقـــل البشري من ناحية أخرى . إنمـــا قولنـــا المعبـــر عـــن إرادتنـــا لإحـــداث أي شـــيء : أن نتوجه إرادتنا لإبراز ما أردناه مـــن العـــدم إلـــى الوجـــود أولا، وعلـــى الصـــورة التـــي سيكون عليها ثانيا، وفي الظرف الزماني والمكـــاني اللـــذين خصصـــناهما ثالثـــا. فيحـــدث ما أردناه دفعة واحدة أو على مراحـــل كـــل مرحلـــة هـــي اســـتجابة لإرادتنـــا . إن إرادة الله قديمة وليس بينها وبين العلم خلاف بـــل هـــو التوافـــق الكامـــل. فمـــا علمـــه الله منـــذ الأزل يكون داخلا تحت سلطان الإرادة حسب العلـــم القـــديم، يـــتم إنجـــازه عنـــدما تتعلـــق الإرادة بإنجازه وتحقق القـــدرة مـــا تعلقـــت بـــه الإرادة دون فصـــل بينهـــا. وعبـــر عـــن طواعية جميع ما يراد خلقه في الدنيا أو فـــي الآخـــرة بصـــدور الأمـــر (كـــن) لِتَحْـــدُثْ لِتَخْرُجْ إلى الوجود، فيتم ذلك بدون تصور للتخلـــف أو أي فاصـــل زمنـــي . وهكـــذا أمـــر البعث . فإنه في الزمن والمكان الذي أراده الله تتجدد الحيـــاة فـــي كـــل مـــن عـــاش علـــى ظهر الأرض ثم مات عند حضور أجله.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

المهاجرة: متاركة الديار .

لنبوئنهم : لنسكننهم ما يجزيهم الجزاء الحسن عن مهاجرتهم .

حسنة: عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم .

بيان المعنى الإجمالي :

تنوه الآية بالمهاجرين الأولين إلى الحبشة، وكذلك الذين سبقوا إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن ظلمهم المشركون أشد الظلم فثبتوا على دينهم، كما تتناول كل من يهاجر ابتغاء مرضاة الله فيما يستقبل من الأزمان، وتعدهم بحسن الجزاء في الدنيا وأكبر منه وأتم في الآخرة . إنهم صبروا وصمدوا ولم تهِنْ عزائمهم في الماضي، وهم معتمدون على الله في مستقبل حياتهم.

بيان المعنى العام :

42/41- الذين صبروا...وعلى ربهم يتوكلون.

تحدثت الآية عن حُظوة المهاجرين، والسورة مكية، فلذلك حملها المفسرون على الذين هاجروا إلى الحبشة، وحملهما بعضهم على المهاجرين الذين سبقوا إلى المدينة قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليها. وهي تتضمن وعدا صالحا لكل مهاجر تحققت فيه المواصفات التي بينتها الآية.

يقول القرآن : إن الذين تركوا ديارهم وتحولوا عن مواطنهم، هجرة سامية عن الأغراض الدنيوية، ورغبة في التحصيل على مرضاة الله، وإيثارا لما عند الله على ما هو بين أيديهم من المال ، ومن المتاع، ومن الإلف لمرابع الصبا، وقاموا بهجرتهم تلك بعد أن سُلِّط عليهم الظلم فلم تهن عزائمهم ؛ هؤلاء المحصورون في هذا الإطار، أؤكد وأنا الله العزيز الحكيم، أني سأعوضهم عما فاتهم من حظوظ في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فسأيسر لهم مساكن يرضونها، ونجاحا شاملا في بيئتهم الجديدة، سأعوضهم عما فاتهم من مال ومن أهل، ومن تعلق فطري بموطنهم، فزيادة على الغنائم التي كانت أثر نصر الله،،سأبارك في ذرياتهم، وأجعلهم يأنسون بسكنى المدينة المنورة .

وأما في الآخرة فهو فوق ذلك بكثير، هو الجزاء الذي لا تحده حدود، ولا يعلم مقداره إلا مسديه رب العالمين.

يمكن أن يحمل المعنى ولكن لا يعلمون على معنى، أن المهاجرين لو كانوا يعلمون ما قدره الله لهم من حسن الجزاء، لما حزنوا أول الأمر على مفارقة مكة. كما يحتمل أن الكفرة لم يلحقوا بهم لأنهم لا يعلمون ما أعد الله للمهاجرين.

ثم نوهت الآية بالمهاجرين وأبرزت خصلتين عظيمتين: إحداهما ما تحلوا به من قوة العزيمة والصبر على الأذى، والثبات على نصرة الدين، والثانية هي الاعتماد على الله الاعتماد الذي جعلهم يأخذون بالأسباب. ويشعرون أنهم في جميع المراحل يجدون الثقة في قلوبهم بعون الله وتأييده .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الكلمات

أهل الذكر : أصحاب كتب الشريعة.

الزبر : الكتب التي سجلت الوحي.

أنزلنا إليك الذكر: أنزلنا إليك الكلام الذي من شأنه أن يتلى.

لتبين : لتوضح.

مكروا : أعدوا في خفية ما يضر.

يخسف : يحدث زلزالا شديدا تبتلع به الأرض ما فوقها.

من حيث لا يشعرون : يأتيهم بغتة لا يستطيعون له دفعا.

يأخذهم : يهلكهم.

التقلب : السعي في شؤون الحياة.

التخوف : التنقص، أو الخوف .

معجزين : منفلتين من العقاب

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن على حقيقة :هي أن سنة الله في إصـلاح البشـر ، أن يرسـل إلـيهم رسـلا رجالا يبلغونهم وحيه .واسألوا علماء يهـود وقساوسـة النصـارى هـل بلـغ رسـالة الله غير الرجال؟ أرسل رسله مصحوبين بالأدلـة البينـة ممـا تقتضـيه العقـول الصـالحة، وبالكتب المدونة للشرائع . وتوجه إلى الرسول الأكـرم صـلى الله عليـه وسـلم مخاطبـا له بأنه نزل عليه الكتاب الـذي يتلـى ليثبـت مفاهيمـه فـي العقـول والمشـاعر، فتـتم الاستجابة له بالعمل والتطبيق.

والعجب من الغفلة التي عليها الذين يدبرون فـي خفـاء مـا يسـيء ويضـر المـؤمنين، مع أنهم يعلمون ضـعفهم وأنهـم لا يقـدرون علـى حمايـة أنفسـهم مـن أن يزلـزل الله الأرض تحت أقدامهم فتبـتلعهم ومـا يملكـون، أو أن يـأتيهم عذابـه فيستأصـلهم، دون أن يتوقعوا الجهـة التـي أتـاهم منهـا، أو أن يأخـذهم وهـم ناشـطون مقبلـون علـى تجاراتهم وفلاحتهم ولهوهم، أو يهلكهم شيئا فشيئا كلما نقـص مـنهم جانـب تبعـه جانـب آخر وهم مستسلمون لا يعرفون كيف ينقذون أنفسهم، إلى أن يهلكوا جميعا.

ثم يدعوهم إلى أن يقلعوا عن العناد والكفر، فـإنهم إن فعلـوا ذلـك فـإن الله يـرأف بهـم فيسعدهم بعونه، ويرحمهم فيكفر عنهم ما سبق من آثامهم .

بيان المعنى العام :

44/43-وما أرسلنا قبلك إلا رجالا...ولعلهم يتفكرون.

لا يقلع المشركون عن تكرار اعتراضاتهم علـى رسـالة النبـي ﷺ . ويعملـون جاهـدين على إدخال الشك في قلـوب السـابقين إلـى الإسـلام . ومـن اعتراضـاتهم قـولهم: إن الرسول الذي يتلقى الوحي من الله ويكلفـه بـإبلاغ شـرعه للعـالمين لا يصـح أن يكـون إنسانا تتحقق فيه خصائص البشرية. ولذلك نزلت هـذه الآيـة مؤيـدة للرسـول صـلى الله عليه وسلم أولا موجهة إليه الخطاب، ليكون دعمـا لحجتـه فـي رد مـا يقولـون، فثبتـه الله بقوله :إن سنة الله في بعثة الرسل إلى البشرية أنـه لا يكلـف بمهمـةِ تَقَبُّـل الـوحي ثم إبلاغه إلا رجال من البشر .

ثم توجه القرآن إلى الكفرة المشاغبين فقال لهم: أسألوا أهـل الكتـب السـابقة مـن علمـاء اليهـود والنصـارى، إن كنـتم جـاهلين بجـنس الـذين أرسـلهم الله، أكـانوا رجـالا أم ملائكة؟ وهؤلاء لا يستطيعون أن يخبروا إلا بأنهم كـانوا بشـرا؛ فمقالـة الأحبـار حجـة على الكفرة لأنهم يصدقونهم، ولا يتهمـونهم بالانحيـاز للمسـلمين لأن عـداوتهم للإسـلام

متأصلة، فلا دلالة فيه على أنا افتقرنا لشهادتهم. وقد ثبت أن قريشا أرسلت إلى أحبار اليهود يسألونهم.

وقوله تعالى : **بالبينات والزبر**، كأنه جواب سؤال مفهوم من الكلام تقديره والله أعلم: بِمَ أُرْسِلُوا ؟ أرسلناهم مصحوبين بالبينات والزبر . أما البينات فهي ما يدل على صدقهم من شواهد العقل، وكذلك المعجزات الواضحة أن مخالفتها للعادة لا تكون إلا من خالق العادة، أقامها مؤيدة للرسول شاهدة بصدقه.

وأما الزبر، فهي الكتب التي وثقت ما أوحاه الله لرسله، كقوله تعالى : (**إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى**)[1]، وكذلك ما سجله الحواريون من كلام عيسى عليه السلام بعد رفعه . فبعض الرسل تم تأييده بالبينات، وبعضهم جمع إلى البينات الكتاب.

وسيدنا محمد ﷺ أيده الله بمعجزات كثيرة اعتنى بها وجمعها القاضي عياض في الشفاء. ومعجزته الكبرى القرآن . فنوهت الآية به، على أنه أنزل عليه القرآن الموصوف بأنه ذكر، يتلى وتعاد تلاوته لتكون معانيه ودلالاته حاضرة في عقول الناس. وإن من أهداف المنزل أنه يتم به بيان ما نزله الله إلى الناس من الشرائع التي أرسل بها النبي ﷺ . ولما كان المبلغ للتبيين والموضح للمشكل والرافع لغير المراد والهادي إلى الغاية والمفصل للأحكام هو الرسول ﷺ أسند إليه التبيين .

ويؤكد القرآن على إيقاظ العقول لتتأمل ثم تفكر فيما أنزل، ليبلغوا بتأملهم وضوح العقيدة، ولتتعمق الهداية في قلوبهم فيلتزموا في سلوكهم الصراط المستقيم المحقق لرضوان الله، والمساعد على النجاح في الاستخلاف في الأرض . والبعد عن الفساد والشر. وليتأملوا في بيانك فتتشربه عقولهم ومشاعرهم. فيكون بيان الرسول بالإبلاغ ليتأملوه بأنفسهم، وبالكشف عنه وتوضيحه، وهما جناحا الفوز في الدنيا والآخرة.

45←47: أفأمن الذين مكروا... لرؤوف رحيم.

هذه الآيات تهز الكفرة هزا شديدا، وتوقظهم معتبرة أن الغفلات قد أحكمت حجب المآلات عن تصورهم، إنهم دبروا وهيأوا . إنها تنبههم على أنهم مستعدون لأن ينزل بهم وجه من وجوه الانتقام . فما أشد غفلة هؤلاء الذين هيأوا مخادعين ما يلحق الضرر بالمسلمين، ففعلوا الأفعال السيئة وظنوا أنهم في مأمن لا يلحقهم ضر، مع أنه قد تنزل بهم نقمة من النقم الآتية :

---

[1] سورة الأعلى آية 19/18

1)أن تتزلزل بهم الأرض وتنشق عن فراغ عظيم يبتلعهم، ثم تطبق عليهم فلا يبقى لهم أثر على ظهرها. إنهم لا يملكون ثبات الأرض التي تحت أقدامهم، فكيف لا يحصنون أنفسهم بالتوبة إلى الله من هذا الاحتمال الذي وقع في الكون ودمر الله به المفسدين، كما وقع لقارون قال تعالى: (فخسفنا به وبداره الأرض)[1]

2) أن يصابوا بعذاب في أبدانهم فيقيم فيهم الألم الذي لا يبرح أجسادهم، ويأتيهم من ناحية لا يشعرون أنه يأتيهم منها. على معنى أنهم لا يستطيعون له دفعا، ولا يكون في طوقهم التوقي منه.

3) أن يهلكهم الله في الوقت الذي يكونون على حظ كبير من النشاط والحركة، في تجاراتهم، أوفي مزارعهم، أوفي تجمعات لهوهم ومرحهم، ولشد ما تكون دهشتهم إذ يباغتون بالعذاب فلا يجدون منه حماية.

4) أن يسلط عليهم متتابع النقم فيهلكون شيئا فشيئا حتى يتم تدميرهم، فمعنى على تخوف: على تنقص، تتوالى عليهم المحن ولا يجدون منها مخلصا، وهذا من أشد العذاب، إذ لا يقضى عليهم قضاء واحدا، ولا يجدون ما يدفعون به المصائب المتتابعة التي تصيبهم في أنفسهم وفي أموالهم وفي حياتهم بصفة عامة . أو يأخذهم وقد تحققوا نزول العذاب بهم، وأخذوا ينتظرون حلوله وهم خائفون. ويكون معنى على تخوف: على خوف.

وختمت الآية بتحريضهم على ترك العناد والإقبال على الإسلام، ذلك أن الله قد اتصف بالرأفة والرحمة، فمن رجع إليه وأقبل على شرعه الذي أنزله، فإنه يلقى من رب العالمين ما تقتضيه صفة الرأفة بالمستضعفين فيمكنهم بفضله ما يرقون به إلى منازل المهتدين، وصفة الرحمة التي تشمل كل شيء، تبدو مظاهرها في الدنيا والآخرة .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الكلمات

يتفيأ : عود الظل بعد أن أزاله ضوء الشمس،

داخرون : خاضعون، متصاغرون، متواضعون .

---

[1] سورة الروم آية81

بيان المعنى الإجمالي :

ما لهؤلاء الكفرة لا يتأملون فيما يرونه بأبصارهم من مظاهر الكون الدالة على خضوع كل ما خلق الله من الأجسام على وجه الأرض، رغم أنه يتكرر كل يوم !كل الأجسام التي على وجه الأرض تلقي ظلالها في الجهة المعاكسة لأشعة الشمس تبدو ممتدة عند مشرقها . ثم تأخذ في الانحسار فتمحي عند الزوال، لتعود منطلقة في الجهات المقابلة بعد ذلك إلى مغيب الشمس. كلها ساجدة لله مطيعة لقوانينه خاضعة لذلك.

إنه لله وحده تسجد جميع الكائنات العلوية السماوات بما فيها من أجسام عظيمة وكائنات صغيرة جدا، وسجودها بسيرها في المسار الذي حدده لها من بدايتها إلى فنائها. خاضعة لكل ما قدره لها في الأزل. وكذلك ما على الأرض من الدواب،فلكل نوع من أنواع الدواب تسبيحة هي سجودها لخالقها، قصرت إمكاناتنا عن الإحساس بها، أخبرنا رب الخلائق بأنه يتلقاها منها .

وكذلك ملائكة الرحمن يسجدون لله سجودهم اللائق المأمورون بالقيام به، مستشعرين الطاعة والبعد عن الكبر الذي أهلك إبليس، عندما دعوا إلى السجود لآدم. فمن طبيعة الملائكة أنهم ينفذون ما يؤمرون به في خوف من أن ينزلهم عن المكانة التي رفعهم إليها.

بيان المعنى العام :

48-أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء....وهم داخرون.

هذه الآية تنبه الغافلين ليتأملوا في أحد مظاهر الكون التي تدل على تفرد الله بالتصرف فيها، فتقوم منادية بعظيم حكمته. وهو مشهد يتكرر كل يوم، هي المخلوقات المجسمة من الجماد والشجر والحيوان والإنسان، تطلع عليها الشمس فتبدو صورتها في ظلالها متجهة إلى الجهة المقابلة لأشعة الشمس، وتنحسر تلكم الظلال شيئا فشيئا إلى أن يمحي الظل عند زوالها، ليعود إلى الجهة الأخرى. فما كان من هذا الأثر قبل الزوال فهو ظل، وما كان بعد الزوال هو فيء. يتفيأ ظلالها أي تعود ظلالها إلى جهة اليمين أو جهات الشمال إلى أن تغيب الشمس .وعبر عن الجهات باليمين مفردا والشمال جمعا تفننا في التعبير. وقد يكون مرد ذلك أن مستقبل الشمس بعد الزوال يكون الفيء المتجه إلى يمينه ثابتا في أصله ويتسع فالمكان المظلل لا يمحي الظل منه، وأما ما كان عن شماله فهو يتناقص، فهي مواقع مختلفة له فعبر عنها بالشمائل . والله أعلم .

إن الأجسام التي تظهر ظلالها على وجه الأرض كلها خاضعة منقادة للتصرف الإلهي، أعطاها قوانين وجودها وتحولاتها وقبولها لأشعة الشمس وظهور ظلالها على وجه الأرض، وتستجيب لتلكم القوانين خاضعة ذليلة طائعة أو مكرهة .

49←50- ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض....ويفعلون ما يؤمرون .

ولله لا لغيره يسجد كل شيء سجودا يختلف من جنس إلى جنس ومن نوع إلى نوع، فيعبر عنه بما يتلاءم مع خواصه . يسجد له سبحانه ما في السماوات من المجرات العظيمة، والمجموعات، وما في كل مجموعة ومجرة من وحدات، إنها تجري خاضعة معترفة بخالقها مسخرة للمسار الذي حدده لها، إلى أن ينتهي الأمد الذي قدر لوجودها . وكذلك ما تحويه الأجرام السماوية من كائنات دقيقة أو عظيمة قصُر العلم البشري عن إدراكها . وكذلك ما في الأرض من الدواب، فكل نوع من أنواع الدواب يعبر لخالقه بسجوده الذي يلائم قدراته مع إحساس بلذة في ذلكم السجود، قد تعبر عنه بأصواتها أو بحركاتها أو برقصاتها أو بوقفات لا ندركها فيها تسبيحة بجلال الخالق وخضوع له .

وكذلك ملائكة الله هم يسجدون لله سجودا يناسب خصائص خلقهم، شاعرين بفضل الله عليهم أن نزع منهم الكبر الذي ظهرت لهم آثاره في إبليس لما استكبر وكفر فلعن .

إن الملائكة على ما فطروا عليه من التجرد عن الهوى، وانغماسهم في الطاعة وتنفيذهم لما يؤمرون به على الوجه المرضي، هم يخافون ربهم المتصرف فيهم تصرف الاستعلاء، من أن يسقطوا عن المكانة التي بوأهم إياها، وهم يفعلون ما يؤمرون به بصفة دائمة، دون أن يشعروا أي يكون منهم أي تباطؤ أو تأجيل للتنفيذ.

وفي هذا إيماء لمنزلة المؤمنين الذين بتطبيقهم لما أنزل إليهم يرقون إلى منزلة الملائكة، وأن الكفرة الذين لا يسجدون لله، ويخضعون للأصنام، أنهم في درجة أقل قيمة من الحيوانات.

وهذه الآية، عند تلاوة القارئ: ويفعلون ما يؤمرون موضع سجود مجمع عليه.

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ارهبوني : خافوني.

الدين : الطاعة.

واصبا : ثابتا دائما .

تجأرون : تصرخون متضرعين .

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية عن عبادة إلهين اثنين كما ضلت القبائل العربية المجاورة لبلاد فارس فاتبعوهم في عبادة إله النور وإله الظلمة. والله واحد لا شريك له. من التناقض أن يوصف بالألوهية ثم يعتقد أنهما اثنان. فخافوني ولا تخافوا غيري. فأنا المتفرد بالنفع والضر. والنورُ والظلمةُ حالتان للأرض، والله مالك السماوات والأرض فلا يعقل أن يكون المملوك إلها. ومن مقتضيات الألوهية أن يتفرد بوجوب طاعته، وأن يتفرد بالتشريع وأن يكون مالك يوم الجزاء.

وهو سبحانه الذي تفضل عليكم بالنعم التي لا تحصون لها عدا، ولا تصل إليكم أي نعمة إلا منه. وفوق هذا فإنه إذا مسكم الضر ترفعون أصواتكم بالدعاء ملتجئين إليه ليكشف ما حل بكم، ثم إذا كشف ضركم، أعلن فريق منكم كفره بنعمة الله وعاد إلى ما كان عليه من الشرك.

كانت عاقبة ما أنعمنا به عليهم ولطفنا بهم فسلمناهم بعد الضر، أن بدلوا شكر النعمة بكفرانها، يهددهم القرآن بقوله : تمتعوا بالنعم التي رزقتم والعافية التي سلمتم بها بعد الضر مع كفركم، فسوف تعلمون العاقبة علم اليقين .

بيان المعنى العام :

51- وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ....فإياي فارهبون.

افتتحت الآية مصرحة بأن هذا القول صادر ممن يقول الحق ويبطل الباطل، وتهز السامع بذلك للانقياد لمضمون القول. فماذا قال الله ؟

اولا :لا تتخذوا إلهين اثنين .وخص النهي بعبادة إلهين إبطالا لما تسرب لبعض القبائل العربية المجاورة لفارس من محاكاتهم لهم في عبادة إلهين اثنين إله الخير وإله الشر (دين المزدكية) . وأفردهم بالنهي بناء على أنهم لا يدخلون في النهي العام لعباد الطاغوت، لأنهم لا يمثلون الإله في صورة مجسمة. إذ يعتقدون أن إله الخير هو النور، وأن إله الشر هو الظلمة. إن عبادة إلهين هو تناقض، لأن الإله لا يكون إلا تام القدرة ينفذ ما أراد، وإذا كان لا يتحكم في كل شيء فهو عاجز.

فالإقرار بالألوهية، ثم اعتقاد التعدد هو تناقض عقلي مرفوض. ولذلك صرح بعد ذلك تأكيدا لما فهم من قوله: لا تتخذوا إلهين اثنين من النهي عن اعتقاد التعدد : اثنين بمنطوق الكلام وما فوق ذلك بمفهومه .فهو الواحد الأحد، تعالى أن يكون له شريك له في الألوهية . وانبنى على ذلك حقيقة أخرى أتبع بها الحقيقة الأولى : هي دعوته للبشر جميعا : إياي فارهبوني: لا تخافوا أحدا إلا أنا .

52-وله ما في السماوات والأرض... أفغير الله تتقون .

تحقيقا لما تضمنته الآية السابقة بأنه هو الله الواحد الأحد، أثبتت هذه الآية ما يلزم عن ذلك: أنه المتفرد بملك السماوات والأرض. فمن الضلال اعتقاد النور والظلمة إلهين، مع أنهما حالتان من حالات الكون المملوك لله وهو خالقه. وإذ تفرد سبحانه بملك جميع المخلوقات وجب أن ينتفي وجود إله غيره . إذ لا معنى للألوهية بدون ملك. ولما كان هو الخالق المتفرد بالملك وجب أن يتفرد بوجوب الطاعة على جميع الأحوال. ولا مانع من أن يفهم تفرده بالدين، تفرده بالتشريع، أو تفرده بالتمكين من الجزاء. فيكون معنى الآية لله وحده الطاعة ثابتة، أو أنه هو المشرع الذي يجب أن يطبق ما شرع. أو أنه مالك الجزاء يوم القيامة ملكا ثابتا محققا. واختتمت الآية بالإنكار عليهم إنكارا توبيخيا خشيتهم من إله الشر وتقربهم إليه، فإن الفاعل المنجي من الشر هو الله، فعليهم أن لا يتقوا أحدا غيره.

53←54-وما بكم من نعمة...إذا فريق منكم بربهم يشركون.

واصل القرآن هدم العقيدة المزدكية بإثبات أن جميع النعم والخيرات التي يتمتع بها الإنسان هي واصلة من عطاء الله وفضله . وفوق هذا فإنه إذا أصابكم أي ضر من مرض أو سوء أو ضيق أو مشاكل عصيَّة، فإنكم لا تلتجئون إلا إليه، ولا ترتفع أصواتكم إلا بدعائه ليرفع عنكم ما نزل من بلاء . نعم قد استقر في نفوسكم أن الآلهة التي تدعونها من دون الله عاجزة عن تخليصكم من الوضع الحرج الذي دخلتم فيه.

أبطلت الآية عقيدة إله الخير وإله الشر. وأثبتت أنه لا فاعل في الكون إلا الله. وبعد هذه الألطاف التي شملت البشرية كلها من الخير والاستجابة لرفع الضر يرتقي القرآن مسجلا أنه إذا أزال ما لحقهم من ضر، وهذا يتكرر لأن الإنسان معرض لمختلف أنواع الأضرار من ميلاده إلى حين وفاته، إنه ما بقي أي فرد فاعلا في الحياة إلا بفضل ما أسعفه به ربه من اللطف الذي أزال ضره . فكما أن النعم تتابع من الإيجاد والحياة إلى من يعنى به حتى يكبر، بل في كل لحظة من لحظات حياته،

إنه لو تأمل، ما استطاع إحصاء ما أحاطه بـه الله مـن نعـم فـي كـل لحظـة، وكـذلك الأضرار، بالحماية منها أو بخروجه منهـا سـالما، يتكـرر ذلـك ولطـف الله هـو الـذي يبقي عليه .

ولكن فريقا من البشر إذا عـادت إلـيهم العافيـة، التـي هـي مـن عنايـة الله وتقـديره، يفجأوون بنكران الفضل ، ويعودون إلى التعلـق بـآلهتهم يشـركونها فـي الألوهيـة .إنـه مع أن الله يعلم علما أزليا ما يؤول إليـه هـذا الفريـق مـن الشـرك، إنـه مـع ذلـك لا يمنعهم ألطافه التي قدر أن تمس البشر جميعا.

55- ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون.

تحتمل وجهين من المعنى:

الوجه الأول: أن عاقبة ما رزقهم من العافية بعـد الضـر كـان الكفـر بنعمـة الله وعـدم شكرها. فهذا كقوله تعالى: (**فالتقطه، موسى آل فرعـون ليكـون لهـم عـدوا وحزنـا**)[1] فبينت أن عاقبة التقاطه انقلابه عدوا لهم، وسببا لكثيـر مـن الحـزن والأسـى. وهـم لـم يقصدوا ذلك بالتقاطه. وعلى هذا النحو تفهم الآية.

الوجه الثاني : أن يكون المعنى على التهديـد، أي إكفـروا بمـا آتينـاكم فسـوف تعلمـون العاقبة .

ومعنى الآية : أن القرآن يسجل على ذلك الفريـق الـذي لـم يشـكر نعمـة الله وتفضـله بإزالة الضر، وعاد إلى عبادة الأصنام ، يسجل عليـه كفـره بمـا آتـاه الله مـن فضـل. ونقول لهذا الفريق انتفعوا مما أنعمنا به عليكم من متـاع الحيـاة الـدنيا، ناسـين المـنعم الحقيقي . فسوف تعلمون علم اليقين عاقبة أمـركم . ولـم تبـين الآيـة مـا ذا سـيعلمون، ليذهب التصور في فظاعته كل مذهب، وبذلك يكون التهديد أقوى .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ
وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ
هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ
ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

[1] سورة القصص آية 8

بيان معاني الألفاظ :

يجعلون : يصيرون ويعطون.

ما لا يعلمون : الأصنام.

نصيبا : قسما.

ظل وجهه : صار وجهه صيرورة دامت معه.

مسودا : عابسا كئيبا.

كظيم : غاضب أشد الغضب.

يتوارى : يختفي.

هون : ذل.

يدسه في التراب : يدفنه في الأرض.

المثل : الحالة العجيبة .

بيان المعنى الإجمالي :

عددت الآيات صورا من ضلال المشركين. منها أنهم يخصصون لآلهتهم، التي يجهلون حقائقها ويجهلون مآلها، ولا يعلمون مِنْ أمرها شيئا علما واضحا، يخصصون لها شيئا مما رزقهم الله يتقربون به إليها. قسما بالله يثبت: أن الله سيوقفهم بين يديه ويسألهم عما قدموه ويجازيهم الجزاء العادل. ومنها أنهم ينسبون لله بناتا هي في نظرهم أحط من الذكران . وبالنسبة لهم تجدهم يعتزون بما لهم من بنين. وتوضيحا لذلك تذكر الآية التالية :أن أحدهم إذا بشر بأن زوجته ولدت أنثى عد ذلك الخبر مصيبة، تظهر على وجهه علامات الحزن والكآبة ويغضب أشد الغضب، يتباعد عن أنظار الناس، في حيرة من أمره ؛أيبقي على المولودة بما يتبع ذلك من هوان، أو يدفنها حية في الأرض ويستريح .هذا حكمهم العام، فما أسوأ ما حكموا به .إن الفاقدين للإيمان لا يتصورون إلا تصورا سيئا، ويجب أن يكون ما يرتسم في عقولكم عن الله الصورة الأعلى المنزهة عن كل نقص. كيف لا وهو العزيز الذي لا يغلب الحكيم في كل ما يصدر عنه.

بيان المعنى العام :

56- ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا....عما كنتم تفترون.

يواصل القرآن تسجيل أوهام المشركين ليفضحهم بفساد تفكيرهم، وضحالة عقولهم فذكر:

أولا: أنهم عمدوا إلى ما رزقهم الله من خيرات،،وهم لم يحصلوا عليها لا بقواهم ولا بتدخل آلهتهم، أخذوا تلكم الأرزاق فقسموا قسما منها خصصوه لمن لا يعلمون

أن له حقا ولا منة ولا فضلا ؛ فهذا المجهول تأثيرُه، المجهول حقيقتُه، ولا أساس لوجوده إلا الخيال والوهم والتقليد، خصصوا له من الرزق الذي أعطاهم الله قسما وتقربوا به إليه .

أنكر عليهم القرآن وهددهم تهديدا حققه بالقسم عليه (تالله) سيسألكم الله يوم القيامة عن هذا الكذب الذي اشعتموه، وعضدتموه بتلكم القرابين. معنى ذلك أنه ينزل بكم من العذاب ما يتناسب مع فظيع كذبكم. وفيه إشارة إلى أن الله لا ينزل عذابه إلا بعد أن يوقف المجرم ويقرره بالسؤال الذي لا يستطيع أن يراوغ في الجواب أو أن ينكر الحقائق .

57- ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون.

ثانيا : مقالة أخرى منكرة وعقيدة سخيفة، شاعت في بعض القبائل العربية، فزعمت قبيلتا كنانة وخزاعة، أن الملائكة بنات الله من خيار وشريفات إناث الجن، فهم قد جمعوا في مقالتهم هذه بين منكرين : نسبتهم إلى الله التناسل، وجعل نسله ملائكة هم بنات من نساء الجن. ولذلك عجَّل القرآن بقوله سبحانه، أي تنزه الله تنزيها مطلقا عن افتراءاتهم . ثم شنَّع بقبح عقيدتهم هذه، أن جعلوا الله ما يأنفون منه، لأنهم يفضلون الذكور على الإناث، وجعلوا لله بناتا .

58←59-وإذ بشر أحدهم بالأنثى ...ألا ساء ما يحكمون .

ثالثا: ومن اختلال القيم عندهم، أن بعض العرب يعتبر البنات، التي ينسبونها إلى الله، مصيبة. فإذا جاء المخبر لأحدهم فأخبره بأن زوجته ولدت أنثى، تقطب وجهه، وجلله الحزن كأنما غطي سوادا . وانطوى على غضب شديد. ثم إن شعوره في صلته بالناس يتحول إلى حياء وحذر من لقاء قومه. يختفي عن أنظارهم بسبب هذه البشارة. وإنها لبشارة في الحقيقة، وإن كانوا يعتبرونها مصيبة، إذ بالإناث يتواصل الإنجاب وتستمر الحياة، وتتسع الأسر بالمصاهرة، ولا فرق في الخصائص البشرية بين الذكر والأنثى. ولا يفضل عمل الذكر على الأنثى ولا العكس، إذ القيمة في ذات المنتَج لا عمن صدر.

ثم إنه بعد ذلك تتفاعل الأوهام في نفسه، وتعظم له مصيبته، ويرى أنه قد أصبح مهينا بما ولدته زوجته، فيسول لهم ضيق التفكير ووسواس الشيطان أنه قد أطبق عليه الهم، فهل يمسك البنت على ما يصحب إمساكها من ذل، أو يتخلص بدفنها حية في الأرض. هذه سلسلة مما اقتنع به الجاهليون وحكموه في أنفسهم من سلم للقيم. تنبهوا فإن حكمهم هذا حكم سيء فاسد .

60-للذين لا يؤمنون بالآخرة ...وهو العزيز الحكيم .

تختم الآيات بالتعليق عليها ممن يعلم حقائق الأمور. فبعد أن توالى تسجيل فساد ما يعتقدون وانحطاط تفكيرهم، عقبه بأن الذين من صفتهم أنهم خلت عقولهم من نور الإيمان، هم أحرياء بأن لا يكون تصوركم لهم إلا تصورا جامعا للقبح والفساد والدناءة. وسما بكم سبحانه، فتصوركم لجلاله هو تصور أعلى وأكمل من كل ما يمكن أن يجري في العقول . كيف لا، وهو العزيز المتصرف في الكون تصرفا لا يغلبه عن مراده شيء ولا يعترض عليه معترض، نافذ ما يريده ؛ الحكيم الذي ثبتت حكمته التامة في كل شيء خلقَهُ وقدره .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

يؤاخذ : يجازي جزاء فيه شدة.

الظلم : الاعتداء على الحق وأعظمه الإشراك بالله.

الأجل : الزمن المحدود الذي يؤخر إليه الشيء .

المسمى : المُعَين.

ساعة : اللحظة التي تأجل إليها العذاب.

لا جرم : حقا، لا شك فيه.

مفرطون : بالغون غاية الجراءة وارتكاب المعاصي.

زين لهم الشيطان : حسن لهم القبيح والسيء .

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما بني عليه استخلاف الإنسان في الكون أنه مختار وأنه سيحاسب على ما قدم يوم القيامة، وأن الله لا يعجل له العذاب بمجرد ما يعصي . وإن أعظم معصية هي

الشـرك. فتقـدير الله أنـه لا يسـحق المشـركين وممتلكـاتهم مـن دواب وغيرهـا فـي العاجل، ولكن يمهلهم إلى الأجل الذي قدَّره. إنـه عنـد حلـول الأجـل المقـدر والمحـدد في علم الله، ينفذ فيهم العذاب دون تقديم ولا تأخير.

ومن سوء عقيدتهم وفساد تفكيرهم، أنهم يخصصـون مـا يكرهونـه ولا يرضـونه بـالله، ثم يزينون بألسنتهم الكذب ليروج على الدهماء، أن الأمور الحسـنة هـي لهـم. إنـه حقـا لا شك فيه، أن لهم النـار لا الحسـنى، وأنهـم يسـرعون إلـى جهـنم. كـأن عقيـدتهم وأعمالهم مغناطيس ينجذبون به إلى النار.

تأكيد بالقسم المغلظ: أن الله بعـث قبلـك للأمـم رسـلا فكـذبوهم، وقـبَّح لهـم الشـيطان هداية الله وزين لهم الشـرك والمعاصـي فـاتبعوه وأعرضـوا عـن هدايـة الله. وكـذلك فعل المشركون من أهل مكة فاتبعوا الشيطان فهـو اليـوم سـندهم فـاتبعوه. وعـاقبتهم أن الله سيعذبهم العذاب الشديد الألم.

وتعقيبا على ما فصله من ضلال المشركين، أعلـن القـرآن الغايـة مـن إنـزال القـرآن وتأييد الرسول ﷺ به، هذه الغاية هي أن يكشف لهم الحـق ويفصـل فيمـا شـجر بيـنهم من خلاف من شـرك ظـاهر وخفـي ، ومـن عبـادة للشـهوة والمـال، ومـن طاعـة لدواعي الأهواء، ليجدوا في هذا القرآن الهدايـة لطريـق السـلامة فـي الـدنيا والآخـرة، وليرحمهم فيطمئنوا بعد الحيرة ويأتلفوا بعد الاختلاف .

بيان المعنى العام :

61-ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ...لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

اجتمع في هذه الآية أمران :

الأول: تهديد للذين سجلت الآيات السابقة فساد ما يعتقـدون، وقـبح مـا يفعلـون، فـإن الله قادر على أن يسحقهم سحقا يقضي عليهم وعلى مكاسبهم.

الثاني: أن الإمهال لا يقتضي عدم المؤاخذة. فـإن الله قـد أحسـن التقـدير فلكـل شـيء أجله الذي تنفذ فيه القدرة الإلهية.

معنى الآية : مضت سنة الله فـي جـزاء المشـركين: أنـه لا يعجـل لهـم العقوبـة، ولا يسلطها بمجرد ما يبدو منهم مظاهر الإشراك بـالله ،فـالظلم هنـا معنـاه الشـرك، لأنـه لو عاجل المشركين بالعقوبة لمـا تـرك علـى ظهـر الأرض دابـة تتحـرك، ولقضـى على الحياة في الأرض . وقد مضى الشـرك فـي الأرض، والحيـاة باقيـة، فثبـت بـذلك ما تدل عليه الآية. وهذا قضاء عادل، لأن من جحد مـن أعطـاه الوجـود أو أشـرك بـه فقد بلغ به الفساد الفكري ما يستحق به أن يسلب منه الوجود.

وإذ انتفى تعجيل العقوبة، فإن المؤاخذة على جريمة الشرك ثابتة يتم تنفيذها في الأجل الذي قدره الله. وهو موعد مضبوط في علمه ضبطا يتم في الوجود بكامل الدقة، فلا يتأخر لحظة عن أجله، ولا يتقدم.

62-ويجعلون لله ما يكرهون ....لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون.

يتتابع في هذه الآية تسجيل القرآن على المشركين ضلالاتهم، وفساد عقيدتهم، فقد قسموا ما مكنهم الله منه، فجعلوا القسم الأحط والأدون لله، وقدموا لآلهتهم الأجود والأفضل، خصوا الله بأسوئها لأنهم يخشون آلهتهم خشية أشد من خشية الله . وأيضا هم يكرهون البنات فجعلوا لله نسلا من البنات . وقد علق أحد الظرفاء على توجيه كثير من الأُسَرِ أولادهم الموهوبين للدراسة في المعاهد العصرية، وأولادهم المحدودي الإمكانات إلى المعاهد الدينية، بقوله : ويجعلون لله ما يكرهون. ومع ذلك هم أهل فصاحة وبيان، فأطلقوا مواهبهم اللسانية، لتزييف الحقيقة، والاستهزاء بالرسالة المحمدية وبالعقيدة الصادقة، وتمويه الكذب على الله مصورين لكذبهم بصورة تغطي ما فيه من باطل وافتراء، كقولهم : (**وإن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى**)[1] -ومثله ما يتجرأ به ملا حدة العصر مما لا يسمح به أدبي وتوقيري أن أسجله ؛ وفي المقابل يبرزون أن الوضع الأفضل والحالة الحسنى هي لهم .

ويرد عليهم القرآن بما يشاكل دعواهم : إنه لا شكَّ ومن المؤكد أن مآلهم النار، وأنهم يسرعون إليها، يدفعهم دفعا شديدا إليها ما قدموه في حياتهم من منكر القول وتضليل الناس والجراءة على الله .هذا إذا قرأنا الآية على أنهم مفرَطون بفتح الراء وأما على قراء ة وأنهم مفرِطون بكسر الراء أي متجاوزون للحد في المعاصي .

63-تالله لقد أرسلنا إلى أمم...ولهم عذاب أليم .

تأكيدا بالقسم المغلظ المبرز لصدق مضمونه ؛ هذا المضمون المقسم عليه : هو أن الله بعث للأمم التي سبقت قبلك في التاريخ، يا محمد، رسلا قصد إرشادهم إلى العقيدة الصحيحة، والتشريع الصالح لعمارة الأرض . فدعوهم إلى الطريق المستقيم ووضحوا لهم ما نزل إليهم، وبذلوا غاية جهدهم لهدايتهم، فرفضوا عنادا واستكبارا رسالة رسلهم وكذبوا . ذلك أن الشيطان خلط عليهم الميزان فقبح لهم الحسن،

---

[1] سورة فصلت آية 50

فأطاعوه واتبعوا غوايته. وكذلك المشركون بمكة زين لهم الشيطان الشرك وما جرت عليه حياتهم مما يرفضه العقل السليم والحكمة، فكان الشيطان وليَّهم يعتمدون عليه ويركنون إليه في هذا الزمان. وستكون عاقبتهم لعصيانهم لك واتباعهم للشيطان أن ينزل بهم العذاب الأليم .

64-وما أنزلنا عليك الكتاب...ورحمة لقوم يؤمنون.

هذه الآية تعتبر النتيجة لما تقدم توضيحه في الآيات السابقة من ضلال المشركين، وما رتب عليه. فهي تأتي معلنة المهمة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وما تأيَّد به. إن الغاية الكبرى من تأييدك بالقرآن الذي أنزلناه على قلبك هي أن تبين للناس الطريق الذي يرضاه الله لعباده، الذي به يصلون إلى مرضاته، هذا الطريق الذي غمره كثير من الشبهات فاختلطت معالمه، وجرَّهم عدم الوضوح إلى الاختلاف، شأنه شأن الباطل الذي تكثر مسالكه ؛ أما الحق فهو واحد ولا يكون أكثر من واحد . إن هذا الهدى الذي حمله القرآن للناس هو الهدى الكامل للبشرية المنقذ لها من طرق الضلال، وإنه رحمة للقوم الذي يؤمنون به، يخرجهم من الحيرة إلى الوثوق، ومن الشك إلى اليقين، ومن التيه إلى الطريق السالك الذي يجدون معه الأمن والرضا الباطني .

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأنعام : اسم يجمع كل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

العبرة : الموعظة

البطون : جمع بطن بما يحويه من أجهزة الهضم.

الفرث: الفضلات التي يدفعها الجهاز الهضمي لتتحدر إلى المصير .

الخالص : الذي لا شوب فيه يكدر صفاءه.

السائغ : السهل مروره في الحلق .

السكر: الشراب المسكر.

الرزق : الطعام.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن نظر الإنسان ليتأمل في كتاب الكون فيهتدي، ويذهب الخلاف الذي مزق البشرية. الله وحده هو الذي أنزل من السماء الماء فبطل الشرك، وقدر أن يحيي بذلكم الماء الأرض بعد أن كانت جرداء ميتة، فتخرج نباتها وينتشر على سطحها. فثبت وجه من البعث بعد الموت. إن في هذه الظاهرة دليلا على تفرد الله بالخلق وأن الحياة يمكن أن تعود بعد الموت.

ولفت نظر البشر إلى منة أخرى أصلها الماء المنزل من السماء، الذي تنبت به الأعشاب، وترعاها الإبل والبقر والغنم والمعز، فتتحول في بطونها تحولات مقدرة بضبط حكيم إلى لبن كان مختلطا بالفرث الذي تلقيه الأنعام من الفضلات وبالدم الذي يتحول إلى الخلايا فيغذيها بما تستطيع به أن تباشر وظائفها في الجسم وكلاهما مستقذر. ويتميز اللبن بكونه خالصا لا قذارة فيه، يسهل شربه .

والمنة الثالثة من نزول الماء من السماء ، تحوله باختلاطه بعناصر من الأرض تمر عبر عروق الشجر فتتولد الثمار من النخيل والأعناب، تقطفونها فتأكلون منها وتدخرونها تمرا وزبيبا وذلك الرزق الحسن ، وتتخذون من عصيرها سكرا .

وفي تحول ماء المطر إلى لبن وتحوله إلى ثمرات النخيل والأعناب ما يقوم دليلا على تفرد الله سبحانه بالخلق والحكمة .

بيان المعنى العام :

65- والله أنزل من السماء ماء ...لآية لقوم يسمعون.

هذه الآية وما تبعها قد سبق في صدر السورة من آية 10 الى آية 13 ما يتفق في الظاهر معها . ولكن لهذه الآيات موقع خاص في الارتباط بما سبقها قريبا. فالآيتان 64/63- أهم ما ورد فيهما: أن الشيطان أثر في البشر فأضلهم بتزيين الشرك ورفض عقيدة البعث فاختلفوا، وأن القرآن يهدف إلى إخراجهم من الاختلاف، وفي ذلك أعظم رحمة.

وتهدف هذه الآية إلى تأكيد الدور الذي قام به القرآن بلفت النظر إلى كتاب الكون الذي يحقق أن الله واحد وأن البعث حق. في كتاب الكون لا يجادل أحد في أنه لا يُنزل الماء من السماء إلا الله. فكل ما عبد من دون الله باطل فهُزم الشرك. وهذا الماء النازل من السماء يسري في باطن الأرض فإذا الأرض الجرداء الهامدة تتحرك فتربو، ويتخلل الماء باطنها، فإذا الزريعة تنفلق وتحيا بعد أن كانت ميتة، فيمد النبات جذوره في الأرض ويشق رأسُه قشرتها الظاهرة ليشارك الكائنات الحية

في الوجود. وهذا يثبت أن البعث حق. وختمت الآيـة بقولـه تعـالى: إن فـي ذلـك لآيـة لقوم يسمعون -لارتباطها بالآية السابقة فإن القـرآن يـؤثر تـأثيرا عامـا فـيمن يسـمعه، وكذلك يؤثر فيمن يسمع هذه الآية ليستيقظ للتدبر في تلكم الظاهرة الكونية فيهتدي .

66-وإن لكم في الأنعام لعبرة....خالصا سائغا للشاربين.

عطف القرآن على الظاهرة السابقة التي تدل على تفرد الله بالألوهية وإمكان البعث، عطف هذه الظاهرة العجيبة الدالة على إحكام الصنعة الإلهية في الكون. وترتبط بالآية السابقة، إذ أن محل الاعتبار هو ما ينشأ عن إحياء الأرض بالنبات ورعي الأنعام له، ثم صيرورته لبنا، وما بين مرحلة الرعي والتحول إلى لبن يشربه الإنسان .

تقرر الآية: أن ظاهرة امتلاء الضروع باللبن بعد رعـي الأنعـام للنبـات، تجـدون فيهـا عبرة تتجاوزون بها الظاهرة إلى ما وراءها مـن بـديع صـنع الله ودقـة الخلـق. الـذي يقوم دليلا على الوحدانية.

وأول ما تواجه به الآية العقل لتهزه هزا، هو الربط بين ماء السماء والأرض والأنعام والإنسان ربطا، عاجَل بأن الله هو الذي يسقيكم هذه الألبان التي تدرها الضروع.

وتوضح الآية مناطق التأمل في الصنع الـدقيق العجيـب : أن تلكـم الألبـان تخـرج مـن بطون الأنعام، بما تحويه من أجهزة دقيقة ، مـع ضـوابط محكمـة فـي عمليـة التحـول من أعشاب هضمتها المعدة وبعثت بها إلى أجهـزة أخـرى فـي الـبطن، فحولـت قسـما منها إلى دم به يتم النشاط، وحولت قسما آخر إلى لبن، وحولـت قسـما ثالثـا إلـى فـرث تقذف به إلى المِعَـى الغلـيظ . فضـلات تلقيهـا الحيوانـات لتنقلـب أسـمدة تضـاعف خصوبة الأرض .ويبدو التقـدير المحكـم فـي خصـائص اللـبن الـذي كـان مختلطـا بالفرث والدم . فالفرث لو بقي في الحيوان لأسرع إليـه المـوت، وهـو مسـتقذر، والـدم به يتم النشاط ويتحول إلـى عنصـر تغذيـة لكـل خليـة مـن خلايـا الجسـم، ولكنـه مستقذر. ومن بين هذين يمر اللبن إلى الضرع فيـدخل فـي بنيـة الإنسـان خالصـا مـن القذارة سهل التناول، يمر من الحلق إلى داخل الجسم.

67-ومن ثمرات والنخيل والأعناب ...إن في ذلك لآية لقوم يتقون.

آية ثالثة من كتاب الكون تتبع نزول المـاء مـن السـماء، يمـتن الله بهـا علـى البشـر. أخرج الله لكم بسقي السماء للأرض من ثمـرات النخيـل والأعنـاب مـا تتفكهـون بـه، وتتخذون من تلكم الثمرات سكرا أي مسـكرا . والآيـة مكيـة والخمـر حـرم بالمدينـة. وعطف على السكر الرزق الحسن، وفي ذلك إيماء إلـى أن الـرزق الحسـن فـي هـاتين

الثمرتين هو الانتفاع بأكلها وقت القطاف أو بادخارها تمرا وزبيبا، مما يشير إلى أن اتخاذ الخمر منهما ليس بالرزق الحسن مما يفتح الباب للنهي .

ثم الإشارة بأن ذلك آية للقوم الذين يعقلون، فيها إعداد آخر لتحريم الخمر وقصر المنة على الأكل، باعتبار أن الخمر يحجب العقل.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوحى : ألهم.

يعرشون : ما يرفعونه في مكان مرتفع على أعمدة ويسقف أعلاه بجريد النخل ونحوه، فيستمتع صاحبه بظله وبالمشهد .

السلوك: المرور وسط الطبيعة.

ذللا: جمع ذلول بمعنى مسخرة .

شراب : العسل .

بيان المعنى الإجمالي :

ألهم ربك النحل يا محمد إلهاما عجيبا فأعملوا فيه فكركم. تأملوا في هذه الحشرة الصغيرة كيف غرس الباري في طبيعتها، أن تتخير الأماكن العالية من الجبال ومن الشجر ومن المعروشات لتتخذ منها مساكن على خلاف طبيعة الحشرات الأخرى، وذلك لارتباطها بالإنسان فيما تصنعه .ثم ألهمها أن تسلك الطرق التي يَسَّرَها للسلوك فيها دون أن تضيع عن الخلية التي خرجت منها . تنتشر في الطبيعة فتتناول مما تخرجه الأشجار من ثمار عند نوْرها وبعد نضجها ما تتمثله، فتحيله في المعمل الدقيق في بطنها إلى شراب حلو المذاق مختلف الألوان تبعا للمراعي والفصول، يشفي من كثير من الأسقام.

بيان المعنى العام :

68←69: وأوحى ربك إلى النحل....إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

وأوحى ربك إلى النحل. بهذا الافتتاح المثير يلفت القرآن الأنظار إلى مشهد في كتاب الكون. ثلاث كلمات متتابعة – الوحي – ربك – النحل. فلنأخذها واحدة واحدة، ثم نعطف بالجمع بينها:

1)الوحي: أصله الكلام الخفي، والإشارة الدالة كغمز العيون، وتقطيب الوجه، وحركة خاصة في اليد. والمراد به هنا ما أودعه الله في النحل من إلهام غرسه في جينومه، فسار به النحل في حياته . هذا الإلهام العجيب الذي عكف عليه علماء متتبعين للضبط الدقيق من التخصيب، إلى تنوع الانتاج إلى ذكور وإناث وخناثى، إلى مراحل النمو، إلى توزع الأعمال والمهام ، إلى ما تفرزه من عسل، إلى انتفاع الإنسان منه. كل ذلك يسير بحكمة الخلاق العليم ويستمر مع الزمن. كل نحلة ترث خصائص جنسها وتنفذ مهامها، وتتابع الحياة في هذا النوع من الحيوان الصغير.

وأول الخصائص التي لفتت الآية نظرنا إليها بيوت النحل المعبر عنها بالأجباح، التي ألهمت طريقة في بنائها على أشكال مسدسات هندسية لا تختل مقاييسها وتلتحم فيما بينها، فلا يتخللها فراغ بخلاف بقية الأشكال فإنه إذا التأمت قد لا يكون التحامها محكما، وبذلك يتم تحصينها من الحشرات ومن تسرب المياه وتحولات الطقس، وبعد امتلاء المسدس من العسل،تغطي عليه لحفظه بمادة تفرزها هي الشمع نفس المادة التي غطت بها المسدس . وللفتحات التي تخرج منها وتدخل مكان مخصوص يحفظ الخلية.

2) اختار القرآن لفظة ربك فجمع بذلك بين أمرين : أن الذي ألهم النحل هو الذي تتابعت عنايته بمخلوقاته فلا يهمل صغيرة ولا كبيرة، من قليل ما علمه الناس ومن كثير ما جهلوه، فإن الدقائق التي أودعها في النحل تقوم شاهدا على بالغ العناية وحكيم التقدير .

2)أسند لفظ الرب لمحمد، ربك) ليزيده وثوقا بكمال عنايته به صلى الله عليه وسلم. فإنه إذا كان الرب قد اعتنى بالنحلة الحشرة الصغيرة عناية ما تزال أسرارها تتكشف مع البحث عبر الزمن، فإن عنايته بك أعظم وأعظم.

3) النحل، أنقل عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بعض ما ذكره رحمه الله في التحرير والتنوير. النحلة ذباب، جرمه ضعفي جرم الذباب المتعارف. له أربعة أجنحة، وتحت خرطومه شوكة يلسع بها للدفاع عن نفسه، سمها ضعيف، تموت إذا انفصلت شوكتها منها. وهي ثلاثة أصناف ذكر، وأنثى، وخنثى .وظيفة الذكور حماية الجبح تحوم حوله وتلقح الإناث لتلد به الإناث إناثا.

اليعسوب : وهي أضخم جرما من بقية النحل وهي التي تلد الإناث إذا لقحت وتلد الذكور بدون تلقيح .وهي ملكة الخلية فهي واحدة فيها .

الخنثى : هي التي ترعى الزهور والثمار وتفرز العسل، وهي أصغر جرما من الذكور، وهي معظم سكان الخلية .

ومن الإلهام تخيُّرها للأماكن الرفيعة لبناء بيوتها. من الجبال، ومن الشجر، ومن المعروشات التي يرفع عليها الفلاحون الأغصان لينعموا فيها بالظل مع حفظ الثمرة.

– وفوق ما تقدم من تخير الأمكنة الرفيعة لبناء بيوتها، إبراز ما ألهمته لبقائها والقيام بدورها في الكون. إذ سجلت الحكمة الإلهية في جينومها تتبع الثمار من بداية نورها إلى تمام نضجها لتتمثل من رحيق الأزهار ومن سائل الثمار المادة التي تصنع منها العسل .

كما أعانها تبعا لطبيعة أجنحتها أن تتنقل من زهرة إلى أخرى ومن شجرة إلى شجرة ومن مكان إلى مكان أبعد دون أن تُضيع خط سيرها، لتعود بعد أن تمتلئ من المادة التي تحولت في بطنها إلى عسل فتعمر به مسدسا من الجبح .

وقد سخر الله طرق سيرها. ورأيت لبعض العلماء أن النحلة إذا كشفت مرتعا جيدا أو أحست بما تريد أن تبلغه إلى أخواتها، تطير حسب حركات وخطوط مقدرة، يفهم منها بقية النحل الرسالة التي أرادت إبلاغها. وهو من التقدير العجيب الذي لم يبلغ البشر إلى اليوم حل شفرته .

فأشارت الآية إلى الترتيب المحكم في ترابط الكون بتقدير من خالقه؛ فإذا ماء السماء يسري من الأرض إلى الأشجار، فتخرج منه الأزهار والثمار التي ترعاها النحل، وإذا النحل يفرز من بطنه ما جمعه برعيه عند سيره في الطبيعة، يفرزه عسلا يتناوله البشر، فيجدون فيه شفاء من أسقامهم .

ومن الدقة في التعبير القرآني تنكير كلمة شفاء، فعدم تعريفها يؤذن بوجود شفاء غير عام لجميع أنواع الأسقام. وهنا تدخل عوامل كثيرة قدرها رب العالمين ليحصل التأثير، كمرعى النحل، ومزاج المتناول، والمقدار الصالح للتأثير، والظرف الزماني الذي يتم فيه التناول وغير ذلك.

وتختم الآية، بلفت الأنظار لتتبين ما نظمه الباري في حياة النحل وصلتها بالإنسان، حتى يتعمق في ذلك بواسطة تفكيره، فيجد فيه دليلا إضافيا على القدرة والإحكام، وما في بناء الكون من ترابط أوسع من أن يستطيع الإنسان جمع خيوطه.

وكان بعض المتملقين في مجلس المهدي قال : إنما النحل بنو هاشم يخرج من بطونهم العلم فقال له رجل :جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطونهم.

فضحك المهدي وحدث به المنصور، فاتخذوه أضحوكة من أضاحيكهم. وحقق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: أن الذي رد عليه الرد المناسب لتجرئه على كتاب الله، وتحميله ما لا يتحمل تقربا من السلطان، هو بشار بن برد.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

أرذل العمر : حال هرم البدن وضعف العقل. والرذالة أخس من الرداءة.

الراد : المعطي.

انفسكم : من نوعكم.

الحفدة : جمع حافد يراد به ابن الابن.

الطيب : الحسن الخالص من النكد.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله وحده الذي خلق كل إنسان على وجه الأرض دون أن يكون للمخلوق أي اختيار لا في إيجاده ولا في سماته الخاصة المميزة له عن بقية أفراد النوع. وهو الذي يسلبه الحياة في مرحلة من مراحل قوته، أو يمهله إلى أن يغلب عليه الضعف والوهن في بدنه وفي قواه العقلية حتى يكاد لا يذكر شيئا مما كان يعلمه. إن ذلك أوضح دليل على اتصاف الله بالعلم الشامل والقدرة على إنجاز ما علم أنه سيوجد.

مما تفرد الله به من التصرف في قضايا البشر، أنه هو الرازق لكل نفس ما تحصل عليه، وتفضيله بعضهم على بعض، فمنهم غني وفقير. والفقر والغنى وإن كانا أثرا لأسباب بها تحققت التوسعة أو التضييق ، إلا أن الإحاطة بها فوق طاقة البشر . وتخلصت الآية للاحتجاج على انحراف تفكير الكفرة، فهم يدعون لله شركاء، مع أنهم لا يعطون عبيدهم من أموالهم ما يشركونهم به، فكيف يشركون بالله أصنامهم؟ والله وحده هو الذي جعل للرجل امرأة وللمرأة رجلا يتم بينهما التكامل حتى يصبحا كأنهما نفس واحدة علاقتهما تتجاوز الإشباع الجنسي إلى بناء

أسرة تقوم على العواطف النبيلة والود والرحمة . يستمر هذا الامتزاج بالإنجاب الموصول فيجد الزوجان في أحفادهما عونا عند الكبر والحاجة، وأتم منته بما يسره من مال وما وفره من مأوى وطعام ولباس ومن رفاهية تتسع أو تضيق تبعا لتقديره سبحانه .

والعجب من أمر الإنسان الذي يعتقد في الباطل الذي لا أساس له ولا حقيقة، يعتقد في الأصنام ويتقرب إليها ويكفر بالله.

بيان المعنى العام :

70- والله خلقكم ثم يتوفاكم ....إن الله عليم قدير.

تتابع هذه الآيات كاشفة عن انفراده سبحانه بالتصرف في ذات الإنسان وفي رزقه تصرفا ليس للإنسان فيه اختيار ولا تأثير . فلنتأمل في مضمون الآية التي كثيرا ما يغفل الإنسان عن التأمل والاعتبار به .

أولا : خَلْقُ الإنسان: خروجه للحياة بنفخ الروح فيه، صفاته الخاصة من طول أو قصر، ومن لون، ومن جمال أو دمامة، ومن ذكاء أو غباء، وجنسه ذكرا أو أنثى إلى آخر ما يميز كل فرد عن غيره. فهل كان لأي فرد اختيار في الوضع الذي هو عليه . إن الله وحده هو الذي خلق . وكما دخل الإنسان للحياة فكذلك يخرج منها بدون إرادته. وكيف يقضي الإنسان حياته ؟ يقضي ردحا من الزمن وهو مقبل عليها مسرورا بها ومنعما راغبا أن تطول أيامه، ثم ينحدر فتنهدُّ قواه شيئا فشيئا، وتضعف شهيته للأكل، وتيبس مفاصله، ويضعف بصره وسمعه ، ويتتابع سقوط أسنانه، ويصيبه الوهن، وما يزال النسيان وضعف الذاكرة يغزوان بريق فكره حتى يكاد لا يرتسم في ذهنه شيء إلا ليسقط سريعا. ومن حكمة القرآن تخصيصه لوضع الفكر من بين أعراض الهرم، لأن تميز الجنس البشري بعقله لا ببدنه.

إن من ينظر في تاريخ البشرية التي تواصل أفرادها من آدم إلى اليوم، لا يظفر بفرد هو نسخة مساوية لغيره من أعضاء العائلة البشرية. فمن قسم لكل حظه وخصائصه وحباه بألطافه إلى أن اشتد عوده وأسهم في خلافة الأرض، ثم هدَّم تلك القوى شيئا فشيئا إلى قبض روحه؟ أفلا يقوم هذا التدبر في خلق الإنسان شاهدا على تفرد الله بالعلم الكامل، والقدرة التامة على إنجاز ما ثبت في العلم إيجاده . وصدق الله: إن الله عليم قدير.

71- والله فضل بعضكم على بعض ...أفبنعمة الله يجحدون .

ثانيا: في نفس سياق الآية -70- تلفت النظر إلى تفرد الله بالتصرف، وتدمج في اثناء الاستدلال توبيخا للمشركين .

تثبت الآية أولا: أن الله أعطى لكل كائن رزقه، ولولا رزقه لما سار لحظة في الوجود.

وثانيا: إن الأرزاق تضيق وتتسع تبعا لتقدير إلهي تعجز مداركنا عن كشف الأسباب الحقيقية التي ترتب عنها الثراء أو الفقر. فهو قد فضل بعضنا فوسع عليه فيما آتاه من مال، وضيق على آخرين فهم يعانون من الخصاصة .تجد الذكي العالم يحارب الفقرُ سعادتَه، وتجد الغبيَ الجاهل يكثر ماله وتنمو ثرواته، ويحالفه الحظ في معاملاته . وفي كثير من الأحوال تجدهما من أسرة واحدة اتحدت تربيتهما، واتحدت البيئة التي يعملان فيها . أفلا يقوم ذلك دليلا على أن الموسع والمضيق هو الله، وأن التصرف بيده تبعا لحكمته وإن كانت إمكاناتنا تقصر عن إدراك الأسباب الخفية التي تحقق بها الأثر من الغِنَى أو الفقر . وينسب إلى الإمام الشافعي قوله:

ومن الدليل على القضاء وكونه *** بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم أدمجت الآية مفرِّعة على التفاوت في الرزق وحرص الإنسان على مكتسباته، أن الإنسان الموسع عليه في المال يمسك ماله لنفسه ولا يرضى أن يشاركه فيه عبيده الذين يتصرف فيهم، فقوله تعالى : [ما ملكت أيمانهم] تعبير يساوي كلمة عبيده، لما كانت العبودية المفيدة لملك السيد تتحقق بأحد أمرين: إما أسر العدو فينقلب رقيقا. والأسر هو قهر أحد المتحاربين من يقاتله فيمسك به بقوة يمينه، وإما أن يشتريه بدفع ثمنه الذي يكون عادة باليمين .

إن هؤلاء الأثرياء لا يرضون بأن يعطوا رزقهم إلى عبيدهم حتى يكونوا شركاء فيه متساوين. فكيف يثبتون لله شركاء يساوونه في ملكه؟ أفلا يدل هذا على مناقضة الشرك للعقل والفطرة.

وحق أن يتوجه لهم التوبيخ والتقريع على مقابلتهم النعم بكفرانها، فسألهم سؤال إنكار وتوبيخ أيجحدون نعمة الله عليهم ؟

72-والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا...وبنعمت الله هم يكفرون .

ثالثا: في نفس سياق الآيتين السابقتين يظهر النص القرآني منةً ثالثة وتأثيرا مباشرا لله وحده في حياة الإنسان يتمثل في :

أن الله جعل لكل من الجنسين ما يربطه بالجنس الآخر ربطا أخص من التوافق في الخصائص الإنسانية، إذ هو ارتباط يقوَى حتى يكون به الزوجان كأنهما نفس واحدة. إن هذا التكامل مع التمازج بلغ به التعبير القرآني (من نفس واحدة) صفاء وشفافية تقتضي لبيان أبعادها كلاما مطولا وتفصيلا، ولكن الظلال التي يوحي بها تفتح آفاقا واسعة، كلما أعاد التالي تمثلها غذته بلطيف المعاني وبديع الأحاسيس.

وهي نعمة من جعلِ الله، ليس للإنسان فيها يد. فلولا تلكم الرعاية الربانية لكان البحث عن الجنس الآخر يثور عند الشبق الجنسي، حتى إذا خفتت داعية الشهوة انفصل كل واحد منهما عن الآخر، كما هو شأن الحياة الحيوانية.

ثم تحققت المنة، بجعلٍ آخر مقرون بالأصل :هي الصلة المستمرة مع المستقبل في أولاد الأولاد (الحفدة)، منة الأسرة المحضن الذي يمتد من الأبوين إلى الأولاد وإلى ما ينجبونه . إنه إذا ربيت الأسر على الأصول الإسلامية فإن الجدود والجدات يجدون في الجيل الثاني أعوانا ومساعدين، وكلمة الحفدة أصلها يدل على الإسراع في الخدمة، فتشير الكلمة حسب بنائها إلى ما غرس في الفطرة مع حسن التربية من إسراع إلى الأخذ بأيدي الكبار من الصغار، وتيسير حياتهم .

و هذه النعمة يتم بها صلابة الارتباط النسبي . فيجمل الأولاد اسم العائلة، ثم يسير به الأحفاد مع المستقبل. وكون الإنسان يعرف نسبه نعمة كبرى يغفل عن التنبه إليها معظم الناس.

-إنه لا تتم السعادة والأنس في العائلة إلا بفضل ما يسَّره الله من مال وما مكنها من أرزاق ؛ من المأوى إلى الطعام واللباس، إلى ما يتوفر من أسباب الرفاهية على ما تم تقديره كما جاء في الآية-71-

وتختم الآية كما ختمت الآية السابقة بسؤال إنكاري يوبخ المشركين كيف يقابلون هذه المنن باعتقادهم في الأصنام الباطلة، ويكفرون بحق المتفضل عليهم، حقه في اعتقاد وحدانيته، وفي عبادته، وفي التقرب إليه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يملكون : يقدرون.

مثلا : مماثلا.

العبد : المملوك الفاقد لحرية التصرف في نفسه وفي ماله.

الكل : العاجز عن القيام بشؤونه ويقوم بها عنه غيره .

مولاه : كافله .

يأمر بالعدل : يأمر بالحق والصواب.

الصراط المستقيم : الطريق الواضح الذي لا التواء فيه .

بيان المعنى الإجمالي :

ينكر القرآن على المشركين عبادتهم لمن لم يستطع أن يعطيهم أي شيء لا من السماوات ولا من الأرض، ويصاحبهم العجز في المستقبل، مما يدل على فساد عقولهم . فإياكم أن تُقَرِّبوا ما اختص الله به، بمحاولة تشبيهه بما يرتسم في أذهانكم. لا من الموجودات المادية ولا الخيالية. فإن علمكم محدود، وعلم الله لا محدود ولا يستطيع المحدود أن يدرك اللامحدود.

قرب الله الحقيقة بضرب مثل حاصله التنظير بين رجلين : الأول : عبد فاقد للحرية عاجز لا يتصرف في نفسه ولا يملك شيئا، والثاني : حر ذكي رشيد رزقه الله رزقا واسعا من خير ما يتنافس فيه أصحاب الثراء، لا أحد يحدد له التصرف فيما يملك، ثم هو يستمتع برزقه ينفق منه بحكمة وذوق .فهو محبوب من عائلته مشكور ممن لحقهم سخاؤه . هل الرجلان مستويان؟ ولما كان التنظير المقرب في القسم الأول هو للأصنام العاجزين، وفي الثاني مثل للتصرف الإلهي، فإن اللسان يسرع بحمد الله وشكره. وما صرفهم عن شكره وإخلاص العبادة له إلا جهل كثير منهم وهم الدهماء، والأقل يعلم الحقيقة ويخفيها إيثارا لمتاع الحياة الدنيا.

وضرب الله مثلا ثانيا يظهر عجز معبوداتهم التي مثلها القرآن منظِّرا لها برجل أخرس لا ينطق ولا يستطيع أن يعبر عما في نفسه، وهو عاجز عن تدبير أمره، فيقوم مالكه بجميع شؤونه .ثم إن مالكه إذا أراد أن يستعين به في قضاء حاجة من حاجاته لا يأتيه بما طلبه منه لغبائه . هذا الرجل التي مواصفاته ما بينته الآية هل يدعي من له عقل، أنه هو ومن يكون عاقلا حكيما لا يغيب عنه أي جانب من جوانب الحقيقة ويأمر بها. وهو سائر في طريق واضح لا خفاء فيه ولا التواء أنهما سواء ؟ وكذلك من يعبد الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئا، ومن يعبد الله المتفضل على الإنسان بتبيين الحق والهداية إلى الصراط المستقيم المنجي .

بيان المعنى العام :

73- ويعبدون من دون الله ما لا يملك...ولا يستطيعون .

سياق الآيات واحد، الدعوة لتوحيد الله ونفي الشرك، وتثبيته بالنعم التي اختص بإسدائها رب العالمين. فهذه الآية تنكر على المشركين عبادتهم للأصنام، والإعراض عن عبادة الله، مع أن تلكم الأصنام لم تقدر على إعطائهم أي مقدار من الرزق الذي ينعمون به من بدء إيجادهم إلى بلوغهم مستوى النضج والقوة. هي عاجزة عن تمكينهم شيئا من الرزق أيا كان مورده، لا من السماوات ولا من الأرض، وهي لا تستطيع أن تنيلهم شيئا في المستقبل، والآية تتضمن توبيخا مبطنا لما قادهم إليه سخافة تفكيرهم.

74-فلا تضربوا لله الأمثال...وأنتم لا تعلمون.

تتابعت الآيات السابقة معرفة بما اختص الله به من القدرة والحكمة والإنعام، وتأكد فيها أنه هو المتصرف في شؤون الخلق لا رب غيره ولا معبود سواه .ومن لوازم التفرد بالخلق أن يأمر عبيده ويوجههم إلى ما فيه خيرهم، وأن ينهاهم عن سلوك الطرق المضللة . فجاءت هذه الآية متضمنة نهي الناس جميعا أن يقيموا أي مقارنة بين الله وبين كل تصور يأتي من الواقع أو من الخيال. ويُقَرِّبُ هذا المضمون للأذهان ببيان علة النهي؛ إن الله تفرد بالعلم الشامل لما وجد ولما سيوجد وللواجب وللجائز وللمستحيل. وعِلْمُ البشر قاصر، لا يستطيع أن يبلغ في أي جزئية من عالم المشاهدة، فضلا عن غيره، الكشف الكامل الذي يتجلى به الموضوع تجليا لا يبقي أي غموض. فإذا كان علم الإنسان يحجبه عن إدراك حقائق الموجودات الحادثة حُجُب هو عاجز عن النفاذ لما وراءها، فمحاولته تمثيل الله ضلال مبين. لأنه من الحقائق العقلية أن القاصر والمحدود لا يصل إلى أن يسع الكامل واللامحدود.

75- ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر ...بل أكثرهم لا يعلمون.

يواصل القرآن بطرق شتى إقناع البشر بحقيقة تَفَرُّدِ الله بالخلق والتصرف والرزق. فصيغت هذه الآية صياغة تمثل ذلكم المفهوم بما حاصله : يقرب الله لأذهانكم بالتنظير بين رجلين مختلفين اختلافا كبيرا .

الأول: عبد مملوك فاقد لحرية التصرف في ذاته، ولا يملك شيئا فضلا عن أن يتصرف فيه. أحاط به العجز فأفقده كل قدرة ؛ تصور ما شئت فيه من النقائص كالعمى والصمم والزمانة وفقدان العقل .وهذا ما يمثل أصنامهم، إذ هي حجارة منحوتة في الغالب .

الثاني : حُرٌّ مالك أمر نفسه، وسع الله عليه في رزقه، فآتاه المال الكثير الجيد من أفضل ما يتنافس فيه الناس ؛ ثم إنه تبعا لحصافة رأيه وحسن ذوقه، ونبيل عاطفته، لا يختزن ذلك المال كحارس عليه، ولكنه يستمتع به فيتصرف فيه تصرف العاقل السمح، ينفق منه حسبما يهديه إليه حسن تدبيره ينفق سرا وجهرا دون رقيب عليه .

يختم التنظير بين المثلين بسؤال، هل يستويان ؟ لا يستدعي السؤال جوابا لأنه لشدة وضوحه ليس له إلا جواب واحد، لا مساواة بينهما.

ولكن القرآن بإعجازه يحول الجواب إلى إعلان ما ترسخ في ضمير الناظر والتالي،" الحمد لله " تفرد الله بالحمد والثناء والشكر فهو الكامل المتفضل، وسبحانه أن يكون له شريك .

ثم ختمت الآية بإعلان: أن أكثر المشركين ما سوغ لهم اعتقاد شركاء لله إلا ترسخ الجهل فيهم؛ والتعبير بالأكثر جار على الدقة القرآنية، فإن بعض المشركين يعلم الحقيقة ولكن لا يظهرها ولا يعلن عنها تغليبا لحظوظهم الدنيوية.

76- وضرب الله مثلا رجلين أحدهما....وهو على صراط مستقيم .

أضاف القرآن للمثل الأول مثلا آخر تأكيدا للبيان والتوضيح. فضرب الله مثلا برجلين :

1) رجل أبكم، فاقد لما تميز به الإنسان باعتباره كائنا اجتماعيا، هذا الكائن الذي لا يمكنه أن يندمج في المجتمع إلا بفضل ما رزق من النطق، ولذا عرف المناطقة الإنسان بأنه حيوان ناطق، والنطق قد يكون بالفعل؛ وهو الذي يستطيع أن يتحدث بالكلمات ويبلغ ما في نفسه بالكلمات والجمل، ويُسمِعها غيره . وقد يكون بالقوة وهو الذي في لسانه حبسة أعجزته عن التكلم بالصوت ولكنه يستطيع أن يبلغ ما في نفسه بالإشارة والكتابة والحركات. والقسم الثالث هو العاجز عن التفاعل مع غيره لا بالصوت ولا بالإشارة. وهذا هو المراد بالأبكم الأخرس في الآية .لأن الأصنام المعبودة للمشركين هي كالنوع الأخير. وهو مع ذلك عاجز لا يستطيع أن يقوم بأي شأن من شؤونه، بل هو يعتمد على مالكه (كَلٌّ على مولاه) لا يهتدي للخير أبدا. فكلما طلب منه سيده قضاء أمر لا يرجع إليه بما طلبه، وما أشد شقاءه بهذا العبد، وهو مثل للأصنام التي يجهد عُبّادها في نقلها وتنظيفها وحراستها ولا يستفيدون منها شيئا ولا تعقل عنهم شيئا.

2)أما المعادل فلم يبسط القرآن صفاته كما تم في الآية السابقة تفننا في تبليغ المقصود، واكتفى القرآن بالسؤال عن التسوية بين هذا المثل السيء وبين من بلغ

من الحكمة أنه لا يأمر إلا بالعدل، على أن الميزان عنده لا اختلال فيه، فمعرفته بالصواب في كل أمر معرفة كاملة، ولا يتوقع أنه يغفل عن أي جانب مما يمكن أن يلابس ما أمر به . وبالجملة فهو متمكن من السير على الطريق الهادي الواضح، الطريق الذي تبدو غايته منذ البداية لا التواء فيه ولا عوج.

والمثل الأول المضروب يمثل وضع المشركين مع أصنامهم التي لا تدرك شيئا وحاجتها إلى عُبّادها محققة وحاجة عُبّادها إليها معدومة، وبذلك تُمكن في ضلالهم، وتَنْزِل بهم عن المستوى الإنساني. والمثل الثاني لكمال الله تعالى في ذاته وفي هدايته للبشرية وتمكينهم من النعم الجليلة.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات : ما هو موجود فيها ولا تستطيع مدارك الإنسان أن تصل إليه.

أمر الساعة : الشأن العظيم في لحظة فناء الكون كله .

لمح البصر : إدراك البصر للمرئي.

الفؤاد : العقل

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بعلم كل دقيقة من دقائق ما حوته السماوات والأرض. والإنسان لا يدرك إلا بعض الظواهر، وهو محجوب عن الإحاطة بكل ما حواه الكون .إنه مما اختص الله بعلمه، وهو الغيب . هذا الكون الواسع الأبعاد المتغير في كل حين، وُجِدَ من عدم وسينتهي في الوقت المحدد له مسبقا الذي لا يعلمه إلا الله، سيتم إعدامه في لحظة وجيزة بمقدار ما ينقل البصر صورة ما يراه ، بل أقل من ذلك وهذا ليس بعيدا لأن قدرة الله لا يعجزها شيء .

إنه بقدرة الله وإرادته خرج كل واحد منكم من بطن أمه صفحة بيضاء لا يعلم شيئا من هذا الكون، والله هو الذي أودع فيكم الحواس الخمس التي بها استطعتم إدراك ما يجري حولكم، وجعل لكم عقولا تختزنون بها المحسوسات وتُركِّبُون بها مع المعقولات ما يمكنكم من الاستخلاف في الأرض وتوسيع المعارف البشرية. رجاء أن تدركوا هذه النعمة فتنطلق ألسنتكم بشكر الخلاق العظيم .

بيان المعنى العام :

77-ولله غيب السماوات والأرض...على كل شيء قدير.

عِلْمُ الإنسان بما حوته الأرض وما حوته السماوات محدود جدا، وما يجهله عنها أكثر مما يعلمه. والله لا يغيب عن علمه شيء، ما كان صغيرا تافها وما كان عظيما جدا كالمجرات .ومما هو مغيب عن علم البشر الوقت الذي حدده الله لفناء الكون .إن فناء الكون أمر ثابت لا شك فيه أخبر بذلك خالقه، الله رب العالمين. ويشهد العقل بذلك لأن التغيرات التي تجري على العوالم تُثْبِتُ بما لا مجال للشك حدوثها، وأنها خرجت من عدم، والقدرة التي أوجدتها لا تعجزعن إنهاء وجودها. وقدر الله أن يتم ذلك بغتة فلا يعلم أحد متى حدوث الساعة، وفي سرعة كبيرة جدا، قَربَ ذلك بالزمن الذي يحصل فيه ارتسام صورة أي شيء في البصر. وللتدقيق فإن إفناء العالم يتم في لحظة أقل من ذلك. ومما يحقق ذلك وينفي عنه كل بعد أن الذي يفني العالم هو الله الذي لا يوجد ما يعاكس قدرته بل ينقاد كل شيء لما يريده.

78- والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ....لعلكم تشكرون .

تحقق هذه الآية الألطاف التي انفرد الله بإسدائها لخلقه. ساعد الإنسان على المعرفة، هذه المعرفة التي تنمو شيئا فشيئا، وتتكون منها شبكة متلاحمة، هي حظ الإنسان المقدر له منها. يُذكر القرآن كل فرد أنه ولد فنزل من بطن أمه إلى الأرض، وحواسه تكون غير ممرنة على الإدراك وقت خروجه. ؛ ثم تحصل له المعلومات الحسية ثم المعنوية شيئا فشيئا. وأول قنوات المعرفة هو ما يأتي عن طريق الحواس الخمسة، التي من أقواها في المخزون المعرفي ما وصل عن طريق السمع والبصر ولذلك خصت بالذكر. ثم إن هذه المدركات الحسية تختزن في العقل الذي يولد منها ومن المجردات معارفه التي تضيق أو تتسع تبعا لتجاربه، و نباهة فكره، وقدرته على التركيب من الأوليات النتائج التي فيها يتمايز البشر بمقدار ما يبلغون من صواب الاستنتاج .

وهذه النعمة التي سمت من الحواس إلى العقل ناسب أن يتبعها رجاء أن يقدرها البشر حق قدرها فيشكرون الله على ما أنعم ويقبلون على الإسلام .

أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَا أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجو : ما يلي الأرض من السماء .

يمسكهن : يحميهن من السقوط .

سكنا : مكانا للسكنى والاستقرار .

تستخفونها : تجدونها خفيفة .

الظعن : السفر.

الأثاث : ما يفرش في البيوت كالزرابي، والوسائد .

المتاع: ما يساعد الإنسان في حياته كالأعدال، وخطام البعير، واللبد .

أكنان : جمع كن، ما يقي من البرد والحر في الغيران والكهوف .

السرابيل : جمع سربال، القميص الواقي للجسد .

البأس : الشدة في الحرب.

التولي : الإعراض.

بيان المعنى الإجمالي :

ما بال البشر لا يتأملون في التقدير الإلهي العجيب، في تنظيمه لأمر الكون ؟ فتلك الطيور تسبح بين السماء والأرض، لا يمسكها في الجو إلا القانون الدقيق الذي ركبه الله عليها. إن في طيرانها وما يرتبط به من صنعة تم تدبير كل جزء منها ليقوم معرفا بالدلائل على تصرف الله وحده بالخلق وحكمته فيه، ويجد فيه المؤمنون الطمأنينة الراضية.

والله هو الذي هداكم للعمل فيما بين أيديكم، فاتخذتم منه بيوتا تسكنون فيها، كما هداكم لا تخاذ بيوت هي قباب من جلود الأنعام، أو من الخيام التي تنسجونها من الوبر والشعر والصوف، خفيفة الحمل سهلة الطي والنشر، في السفر والإقامة. كما هداكم لاعتماد أصواف الأنعام ووبر الجمال وشعر المعز لتتخذوا منها الأثاث كالزرابي والبسط والوسائد، وتنتفعون بها ما تكونون منه ما تستمتعون به متاعا هو إلى أمد محدود.

والله قدر أن تبسط المخلوقات القائمة ظلالها فتأوون إلى ظلالها لتلطف عليكم وهج الحر وأشعة الشمس الحارقة ؛ كما قدر أن تنفتح في الجبال كهوف تجدون فيها ما يحميكم من الأعاصير وتقلبات الطقس .كما ألهمكم اتخاذ اللباس الذي يقيكم الحر ويقيكم البرد، ونسج الحديد ليحصنكم من ضرب أعدائكم في القتال، هي نعم تجدون فيما تجمع فيها من ألطاف ما ينفذ إلى عقولكم فتكونون أقرب إلى اعتناق الدين الإسلامي .

لا تتأسف يا محمد ولا تحزن بسبب عناد من لم يسلم فمهمتك لا تتعدى إبلاغ الوحي وتبيينه، وقد قمت بمهمتك على أكمل وجه .

يسلي الله نبيه بإعلامه أن الذين لم يسلموا، بعضهم تبين له أنك على حق وعرف نعم الله، ولكنه أعرض معرضا ومنكرا لها في الظاهر خوفا على ذهاب حظوظه الدنيوية، والأكثرية من الدهماء لم يتأملوا فيما لفت الوحي إليه أنظارهم فثبتوا على الكفر.

بيان المعنى العام :

79- ألم يروا إلى الطير مسخرات...لقوم يؤمنون .

في كل صفحة من كتاب الكون مشاهد تنادي بأن وراء نظامها مدبر حكيم، ولكن تَعَوُدَ الإنسان بالمشهد، قد يحجب عنه ما فيه من تقدير عجيب وتدبير بالغ أعلى درجة من الإتقان. يلفت القرآن الأنظار ليكون ما تنقله إليهم حواسهم ينفذ إلى العقل فتسمو مداركهم عن إدراك الحيوانات. إن هذا التأمل مفتاح للتقدم العلمي، ومفتاح ليكون الإيمان أوضح وأشمل.

هذه الآية تُفْتَحُ باستفهام لتحرك التالي للتأمل في الطيور التي يراها صباح مساء تخترق الأجواء صاعدة نازلة في يسر وحفظ. إنها قد استطاعت أن تنفلت من جاذبية الأرض، التي ما ارتفع جسم في السماء بقوة دافعة، إلا وتُضْعِفُ الجاذبية القوة التي رفعته شيئا فشيئا حتى يسقط على الأرض. وترى الطيور تعلو في السماء حتى يبلغ بعضها أعلى قمم الجبال، ولا يمسكها إلا القانون الذي خلقها عليه بارئها . وتصرح الآية في خاتمتها بأن في طيران الطيور دلائل تزيد المؤمنين إيمانا، كخفة عظامها، والأجنحة والريش والذنب، والإرادة التي تحرك أجهزة معقدة فتحركها الحركة التي تندفع بها وتعلو في الجو وتسير يمنة ويسرة وارتفاعا وانخفاضا، وعودة إلى الأرض ثم الطيران من جديد . في كل جزئية من التركيب المتقن للطائر الذي تمكن به من الطيران مع تحقق سلامته، دليل على أن الوضع الذي عليه يستحيل أن يكون من باب الصدفة ؛ وأن الذي رتب تركيبه هو الله سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه .

80-والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ...ومتاعا إلى حين .

تواصل الآية لفت الأنظار لنعم الله على الإنسان؛ فمنها أنه ألهمه السعي لتشييد بيت يجد فيه راحته، ويحفظه من تقلبات الطقس، وتجتمع فيه الأسرة، وتتحقق به رعاية الأصول لفروعها. وتتجاور البيوت فتنشأ المدن وما يتبعها من التعاون سبيل التقدم الحضاري .

ونظرا للتركيب الإنساني الخاص الذي هو بين الإقامة والارتحال، ألهمه في الحالة الأخيرة اتخاذ القباب من جلود الأنعام الحافظة للساكن داخلها حفظا يقارب البيوت المبنية، أو اتخاذه الخيام مما ينسجه من الوبر والشعر والصوف. وعلى هذين النوعين من المرافق التي عليها اعتماد سكان البوادي الذين يتبعون مواطن الكلأ لأنعامهم. وكذلك الجيوش، وكذلك الفرق التي تبعد عن المدن لإنجاز بعض المشاريع العمرانية. إن هذه الأنواع من البيوت تحقق الحماية للنازلين فيها، ويسهل نصبها عند النزول، كما يسهل طيها وحملها عند الارتحال.

كما ألهم الإنسان أن يتخذ من الوبر والشعر والصوف أثاثا يبسطه في البيوت كالزرابي، والبسط والوسائد. كما يفتل من الوبر والشعر والصوف ما يستعين به في شؤون حياته، ويتمتع به متاعا آئل إلى الزوال . إشارة إلى أن متاع الحياة الدنيا هو إلى الأجل الذي قدره الله لبقاء الإنسان الخاص، ولبقاء الكون بصفة عامة .

81- والله جعل لكم مما خلق ظلالا...لعلكم تسلمون .

مواصلة لتعداد الألطاف الإلهية وعونه سبحانه للإنسان، من الأمور التي خلق الله عليها الكون، مع أن معظم البشر لا ينتبهون لها . فالله سبحانه هو الذي مد الظل الحاجب لقوة حرارة أشعة الشمس في الجهة المقابلة لمكانها، والسائر في الصحاري وفي الأوقات التي يشتد فيها حر الشمس يدرك جيدا قيمة هذه النعمة . كما أن الجبال لم يخلقها مصمتة بل جعل فيها مغاور وكهوفا يأوي إليها الإنسان فتحميه من الأمطار ومن الرياح العاتية ومن وهج الشمس، فتكون له سترا وحاميا يأوي إليها كما يأوي إلى بيته الذي بناه .

كما ألهمكم ستر أجسامكم بما تنسجونه من ثياب تقيكم حر الشمس وزمهرير البرد. وتحميكم من ضرب السيف وحد النبل بالدروع التي كان يلبسها المقاتل فيرتد عنها سلاح العدو، وكذلك الخوذات التي تحمي رؤوس الجنود اليوم من الشظايا والرصاص .

إنه على هذا النحو الذي إذا ما تأملتم فيه، يتبين لكم ما أكمله الله عليكم من النعم. إن إدراك هذه النعم من شأنه أن يجعل قبول الدين الإسلامي واعتقاد ما جاء فيه قريبا جدا.

82- وبناء على أن النظر في كتاب الكون يفتح للناظر قبول الدين الإسلامي، وأن العناد هو الحائل بين الإنسان وبينه، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هداية الخلق وإنقاذهم من شر الكفر وسوء عاقبته، وأنه كان يتألم من إصرار قريش على الشرك، تولى القرآن تسليته عن إعراضهم، بتذكيره أن مهمته التي ما قصر فيها، والتي أداها على أكمل وجه، هي فقط عرض ما أنزل عليه على أكمل ما يكون من البيان والوضوح نقيا من الشبهات. مما يشير إلى أن الله راض عنه، وأنه لا يتحمل تبعات المعاندين.

83-يعرفون نعمت الله ... وأكثرهم الكافرون .

تصور الآية دخائل نفوس الكفرة . فَعَدَدٌ منهم كانوا أصحاب فطنة وتيقنوا بأن واهب تلك النعم والهادي إليها هو الله ؛ ولكنهم فوق ذلك عوض أن يقبلوا على الإيمان بقلوب طائعة، وبالشكر لمسديها، اختاروا إظهار الشرك تغليبا للحظوظ الدنيوية، من مال ورئاسة، التي يخشون ضياعها منهم إن هم دخلوا في الإسلام. وأكثر الممتنعين من الإسلام من الدهماء كفرة انصرفوا عن التأمل في براهين الحق فطبعوا على الكفر .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

نبعث : نحضر.

الشهيد : الشاهد.

يستعتبون : الرضا بعد اللوم.

السلم : الاستسلام.

ضل عنهم : غاب عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر محذرا لهم، اليوم الذي يُحْضِرُ الله في المحشر من كل أمة شاهدا يشهد بالحق، يقتنع المشهود عليهم بصدقه، فيكشف مواقفهم في الدنيا، وفوق هذا تخرس أفواه الكافرين فلا يؤذن لهم في الكلام ولا يتوقعون أن يحصلوا على الرضا بعد تقريعهم. وبعد ذلك يرون مكانهم في جهنم وقد فُتِحَت أبوابها، فيسألون ربهم أن يخفف عنهم من عذابها أو يؤخرهم؛ ولكن يستقر في نفوسهم اليأس من قبول توسلاتهم ، فيكون ذلك العذاب النفسي .

ويُحضر الله ما عبد من دونه فيفجأ المشركين حضورها، ويخيل لهم أنهم يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم بتحميل الشركاء جزءا من المسؤولية فيقولون: ربنا! هؤلاء الشركاء أغرونا بعبادتهم، وينطق الله المعبودات من دونه فيعلنون: إنكم كاذبون ما دعوناكم لعبادتنا. وعندها يستسلم الكافرون ويغيب عنهم كل ما افتروه على الله. وخُص الكافرون الذين كانوا يمنعون من يرغب في المبايعة على الإسلام بمضاعفة العذاب، لأنهم كانوا يفسدون على الراغبين في الإسلام ما تفتحت له قلوبهم .

بيان المعنى العام :

84-ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ....ولا هم يستعتبون .

بعد أن لفتت الآيات السابقة الأنظار لما في مشاهد الكون من أدلة على تفرد الله بالخلق والتدبير والحكمة البالغة وختمت بأن الرسول قد قام بمهمته أتم قيام، وهو غير مسؤول عن كفر المعاندين، وعمن يعلم نعمة الله ولكنه ينكرها تقديما لحظوظ الدنيا ؛ واصل القرآن تنبيه المشركين إلى بعض مشاهد يوم القيامة كأنها حاضرة أمام أعينهم . واذكر يا محمد يوم تحضر الأمم إلى المحشر، وندعو مع كل أمة شهيدا يشهد عليهم يكشف عن موقفهم من رسالات الله، إنه لمشهد عظيم: :البشر موقوفون، والشاهد الصادق الذي قد اقتنع بصدقه المشهود عليهم يعلن ما شاهده في الحياة الدنيا . وفي ذلكم مشهد لا يستطيع أحد أن يتكلم إلا لمن يأذن له رب العزة بالكلام . ولكنه في هذا اليوم لا يأذن للكفرة بالدفاع عن أنفسهم، ولا يطمع أي منهم أن يحصل على الرضا بعد ما يسمعون الشهادة، فليست شهادة يعقبها الرضا بعد اللوم، ولكنها شهادة تطأطئ الرؤوس وتذل المتكبرين .

و في يوم القيامة مواقف :

موقف تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتقدم ما تظن أنه ينفعها قال تعالى: (**يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها**)[1] – وموقف بعد ذلك هو ما فصلته الآية، يدعو الله شهيدا يشهد على موقف كل أمة من الأمم من رسالة الله إليها، المؤمنين والكافرين، وفي هذا الموقف تخرس ألسنة الكفرة فلا يؤذن لهم في الكلام ولا يطمعون في قبول المعاذير قبولا يصحبه الرضا . وهو معنى ولا هم (يستعتبون).

85-وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ...ولا هم ينظرون .

بعد الموقف الذي خرست فيه ألسنة الكفار يوم القيامة بظهور الحقيقة الفاضحة لهم وانكشاف ظلمهم ، يحضر أمام أعينهم ما أعده الله لهم من منازل العذاب، فينزعجون كأشد ما يكون الانزعاج، وتنطلق ألسنتهم بالسؤال أن يخفف عنهم، أو أن يؤخروا ولا يسرع بهم إلى جهنم. وحقق القرآن أنه لا يستجاب لتوسلاتهم، فيكون عذاب اليأس هو أولَ عذابٍ يسلط عليهم بعد الموقف السابق المذل.

87/86-وإذا رأى الذين أشركوا....وضل عنهم ما كانوا يفترون.

يتابع القرآن عرض مشاهد يوم القيامة بالنسبة للكافرين. إنه في ذلكم اليوم يحضر الله الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، ويفجأ المشركون حضورها معهم، وتسول لهم أنفسهم أنهم قد يجدون في حضورها معهم ما يخفف عنهم المسؤولية، بتحميل الآلهة ذنب دعوتهم إلى عبادتها . فيقولون: ربنا هذه الآلهة هي شركاؤنا في الذنب أغرتنا بعبادتها، فكنا ندعوها من دونك. وهنا يلقي الله على الأصنام المعبودة قولا قاطعا يعلنونه: إنكم أيها المشركون كاذبون، فما كنا ندعوكم إلى الإشراك بالله، ولكنكم اتبعتم خيالاتكم فأسبغتم علينا صفة الألوهية. وبعد أن كذبتهم آلهتهم، ورأوا العجب من نطقها بالحقيقة، يُظْهِرُ الذين كفروا استسلامهم ؛ بمعنى أنه لم يبق عندهم أي أمل في النجاة، كحالة الجندي المغلوب المقهور وقد ألقى سلاحه، ومد يديه للقيد . وغاب عنهم فلم يجدوا شيئا له حقيقته من افتراءاتهم وكذبهم .

88- الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...بما كانوا يفسدون.

إذا كانت الآية السابقة كشفت عن الخوف الشديد الذي أطبق على المشركين وقد صاحبه اليأس من تخفيفه أو إنظارهم . فإن القرآن في هذه الآية قد أضاف إلى الوصف السابق أن العذاب الذي وَجِلُوا منه فسألوا تخفيفه أو إنظاره، سيضاعف

---

[1] سورة النحل آية 111

على الذين جمعوا بين الكفر وبين منع من حصل منه ميل للدخول في الإسلام. وقد روت كتب السيرة ما كان يقوم به مشركو مكة من الحيلولة بين الوافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المبايعة على الإسلام، بالكذب وتصوير الإسلام بصورة مشوهة، وبالإذاية لمن رأوا منه عزما مؤكدا. وحق عليهم مضاعفة العذاب، لأنهم ما اقتنعوا بما هم عليهم من الفساد حتى تحولوا إلى نشر الضلالة والفساد.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبيان : البيان الكامل.

بيان المعنى الإجمالي :

يطلب الله من نبيه أن يذكر الناس بما يحصل يوم القيامة من دعوة شهيد من أنفسهم لا يستطيعون الطعن فيه يشهد معلنا موقفهم من رسالة الله جل وعلا إليهم. وأنه ﷺ سيكون الشاهد على المؤمنين بما يسرهم، والشاهد على هذه الزمرة التي أشركت بالله وأعرضت عن هدايته. ومع ذلك يَذْكُرُ الله لنبيه ويخاطبه: إني أنزلت عليك الكتاب القرآن فيه بيان كل شيء يحتاجه الإنسان في حياته الدنيا والآخرة. وهو الكتاب الذي يهدي المسلمين إلى الخير وإلى الصراط المستقيم، ويرحمهم بإعدادهم لفعل الحسن وبصدهم عن القبيح، ويبشرهم بحسن العاقبة .

بيان المعنى العام :

89- ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم ....ورحمة وبشرى للمسلمين .

هذه الآية متصلة بالآية 84 أعيدت فاتحتها ليبني القرآن عليها شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة التي بعث لهدايتها، وهي تتضمن تهديدا لمشركي مكة بشهادة الرسول عليهم، و قد استحضرتهم الآية بالإشارة إليهم . وهذا التهديد لا يقصر شهادته على من كان حاضرا يوم نزول الآية، بل شهادة الرسل على من بعثوا إليهم تنسحب على الحاضر والمستقبل. والشهادة هنا ليست على وزان الشهادة في الدنيا، إذ أن الشهادة في الآخرة تبنى على علم يقيني عند الشاهد، حصل له إما بالمشاهدة في الدنيا، وإما بما يلقيه الله في نفسه إلقاء يتم به استحضار ما وقع في

الدنيا كأنه يراه رأي العين، هذا من ناحية، ومـن ناحيـة أخـرى فـإن المشـهود عليـه لا يجد مطعنا يطعن به في الشهادة كما نصت عليه الآيتان السابقتان 87/84.

ومع تشريفه صلى الله عليه وسلم بأن شهادته هـي المظهـرة للحقيقـة فتُخْـرِسُ المكـذبين وتجلي صدق المؤمنين، نوهت الآية بكتاب الإسلام القرآن الـذي جمـع مـن المزايـا مـا لم يجتمع في أي كتاب آخر:

هو مبين أتم بيان وأكمله لكل شيء يرغب الإنسان في الوصـول إليـه ممـا اهتمـت بـه الشرائع السماوية. وهذا مما يتطلب بيانـا ولـو مختصـرا يـرد اعتـراض المعترضـين، فأقول: إن القرآن هو الـذي يرفـع حيـرة الفكـر فيجيبـه عـن تسـاؤلاته عـن المبـدأ والمصير، ويبين للإنسان منزلته فـي الكـون وصـلته ببقيـة الكائنـات، ويفـتح للـروح قبسا من النور يكسبها الطمأنينة والرضـا. إنـه يعمـق الإحسـاس بوحـدة الإنسـان مـع الكون، وبوحدة المؤمنين، وبالوحدة الإنسـانية بغرسـه للفضـيلة وقلعـه للرذيلـة، ونشـر القيم الخلقية الرفيعة وتقويم ما اعـوج مـن العـادات والسـلوك. والقـرآن يقـيم العدالـة ويقتلع الظلم والاستبداد، ويبين الحقوق بيانا يحميهـا بـه مـن الاخـتلاط. ويربـي البشـر على الفضيلة ويجعلهم يمقتـون الرذيلـة ويقاومونهـا بـالأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر. بما يحقق بناء المجتمع الفاضل. ويقيم العقـل علـى المـنهج العلمـي الـدقيق (**ولا تقف ما ليس لك به علم**)[1] بما يفتحه هذا المـنهج مـن اقتـدار علـى السـمو بمـا هـو تحت تصرف الإنسان في الكون. إن تحليل مضمون هذه الآيـة أوسـع مـن هـذا المقـام ولكن في ذلك إشارة مجملة لبركات القرآن التـي لا يحـد عطاؤهـا. وخصصـت الآيـة من تلك الآفاق على ثلاثة أشياء:

1)الهدى : فإنه وإن كان داخلا تحت مظلة "بيانا لكل شيء " إلا أن المقصود الأهم من تشريع الشرائع هو هداية الإنسانية التائهة الضالة، والقرآن هو المنهج الكامل في هذا الباب، كما بينا شيئا من ذلك في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وبقية الرسالات بين رسالات بادت ولم يبق منها شيء، وبين رسالات حرفت يمعن متبعوها في الضلال .فالتنبيه على القرآن بكونه هدى يبرز هذه الصفة التي اختص بها القرآن، والتي هي أنفس ما تفضل الله به على الناس، وأحوج ما يكون الإنسان إليها.

2) الرحمة :من أحسن ما فسرت بـه الرحمـة وصـفا لله تعـالى، مـا جـاء فـي كـلام القاشاني الرحمة علـى قسـمين :امتنانيـة ووجوبيـة . فأمـا الامتنانيـة فهـي الرحمـة

---

[1] سورة الإسراء آية 36

المفضية للنعم السابقة على العمل، وهي التي وسعت كل شيء، وأما الوجوبية فهي الموعودة للمتقين والمحسنين في قوله تعالى : (فسأكتبها للذين يتقون)[1] - وفي قوله تعالى :(إن رحمة الله قريب من المحسنين) [2]- ولما كانت في الآية حديثا عن القرآن وهو كلام الله، فيكون المعنى: إن القرآن يعد الإنسان للعمل الصالح الذي يسعده في دنياه وأخراه . والقرآن رحمة بما يحقق وعد الله على تلاوته والعمل به من الثواب ورفيع المنزلة .

3) البشرى : ما يحصل للمتدبر وهو ينتقل بين الآيات الدالة على حسن ثواب الدنيا والآخرة للمؤمنين، وما يفتح من الأمل الرحب في فضل الله، وما ينشرح به الصدر كلما ألم به الحزن أو الضيق بما يجد فيه من وعد الله بأنه مع المؤمنين وإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا[3] .

وهذه الهبات القرآنية الثلاثة لا تحصل إلا للمسلمين.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

العدل : إعطاء الحق لصاحبه.

---

[1] سورة الأعراف آية 156

[2] سورة الأعراف آية 56

[3] سورة الشرح آية 6/5

الإحسان : مرتبة فوق العدل يكون بها العدل أتم.
ذوو القربى: من يجمعك به صلة نسب أو مصاهرة .
الفحشاء : ما عظم قبحه من العقائد والأفعال والأقوال.
المنكر : ما ترفضه الشريعة والفطرة السليمة وتستقبحه .
البغي : الاعتداء.
الوعظ : كلام يقصد منه التأثير في المخاطب ليبتعد عن الشر، ويفعل الخير.
التذكر : مراجعة ما استقر في النفس وحصلت غفلة عنه.
أوفوا: أنجزوا ما عاهدتم عليه.
العهد : الالتزام، وقد يؤكد باليمين .
نقض اليمين : إبطال المحلوف عليه .
بعد توكيدها: مع ما صحبها من توثيق.
الكفيل : الضامن والرقيب.
نقضت : حلت ما غزلته وأعادته على الحالة التي كان عليها قبل غزله.
الغزل : المغزول من الصوف أو الشعر أو القطن.
من بعد قوة: من بعد إحكام الغزل.
أنكاثا : جمع نكث بمعنى نقض .
دخلا: فسادا. ذريعة إلى الغدر.
أمة: طائفة مترابطة من الناس، أو قبيلة، أو ما هو أوسع منهما.
أربى : أزيد.
يبلوكم : يختبركم.
الزلل : انزلاق الرجل لعدم ثباتها وقد يعقبها السقوط.
تذوقوا السوء : تحسوا إحساسا قويا بالألم.
صددتم : أعرضتم.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تمثل ميثاقا غليظا، على كل مؤمن أن يواصل تذكره له، ويراجع نفسه دائما ليطمئن أنه عامل به. أول بند هو التزام العدل في علاقته بالله، وفي علاقته بأعضاء أسرته، وفي علاقته بمن يتعامل معه، وفي علاقته بالمحكومين إن كان حاكما من السلطة التنفيذية أو القضائية. وفي علاقته بالكون، وحتى في علاقته بنفسه. وثاني بند هو الإحسان أن يسمو إلى مرتبة في التعامل فترقى همته إلى ما هو فوق الواجب عليه. والبند الثالث أن تكون علاقته بأعضاء أسرته الأقرباء

والبعيدين، ممن تربطه بهم آصرة النسب أو الصهر، أن يكون ذاكرا لهم ذكرا ينيلهم من لين كلامه ومن ماله إنفاقا أو إهداء في حدود ما أنعم الله به عليه .حتى يكون بناء الأسرة قاعدة البناء الاجتماعي قويا متماسكا .

كما نهت الآية عن ثلاثة أشياء معاكسة للثلاثة المأمور بها، مهدمة للمجتمع. فنهت عن الفحشاء ما كان قبحه فظيعا، إذ الإتيان بما هو مستفظع يفسد الخلق العام ويتسفل المجتمع به .وكذلك المنكرات التي يرفضها العقل والشرع وتؤثر فسادا في الأفراد وفي المجتمعات .والطامة الكبرى هي البغي والاعتداء على حقوق الآخرين. كان الدافع لذلك التسلط على الناس بالمركز السياسي أو بالقوة المالية أو البدنية، أو كان الدافع رد الاعتداء بما هو أشد عنفا وتسلطا.

ثم دعا القرآن إلى الالتزام بالوفاء بالعهود، ما كان منها بين الإنسان وربه وما كان بين البشر في تعاملاتهم. خاصة إذا تأكد العهد بالقسم بالله الذي جعله الحالف شاهدا عليه وضامنا لوفائه . وليعلم ناقض العهد المقسم عليه أن الله يعلم حقيقة ما تنطوي عليه نفسه، والظروف التي تبعها نكث العهد. ولا يروج على الله المعاذير الكاذبة، فإنه سيجزي الناكث، ولو استطاع أن يفلت من العقاب العاجل.

ثم شبه الناكثين بامرأة بلهاء كانت تجمع جواريها كل صباح فيغزلن ما بين أيديهن من الصوف أو الشعر أو الوبر إلى الظهر، ثم تأمرهن بنقض ما غزلنه ليعود إلى الحالة التي كان عليه قبل الغزل. وهذا هو شأن الذي ينقض عهده ويجعل أيمانه الموثقة سببا لحصول القطيعة والخصام. وقد يحمله على هذا أنه تراءى له أن الجماعة التي يريد أن ينتسب إليها وينقض عهده ليرتبط بها أنفع له، لقوتها أو كثرة مالها أو عددها، من الجماعة التي نقض معها عهده . إن في ذلك اختبارا من الله ليتبين الصادق العهد من الخائن، وسيجزى كلا بما فعل فيجد الناكث خسارته والموفي حسن جزائه.

إنه لو شاء الله أن يخلق البشر على نمط واحد مفطورين على الخير عاجزين عن الشر لخلقهم كذلك، ولكنه بحكمته أراد أن يخلق البشر ممكنين من الخير والشر مختارين لا ملجَئين. ولكن الله المتحكم في الكون كله وفيما يجري فيه يحيط بألطافه من شاء له الخير فيميل إليه ويسعى لتحقيقه ويعقب ذلك إذنه سبحانه بإنجاز ما جمع له المكلف الأسباب التي في مقدوره . وبالعكس فإنه قد يمنع ألطافه عمن يشاء فيسبق إلى المعصية فيقع ما يقع منه من الشر بخلق الله، ويُحاسَب الفريقان، كل على ما هيأ وأعد .وهو العدل والله لا يظلم أحدا.

ولليمين نفاذها وقوتها فلا تتوسلوا بها لإدخال الفساد في نفوسكم أولا وفي مجتمعاتكم ثانيا. فإن نقض الأيمان يترتب عنه فساد في النسيج الجامع لكم، ويكون حال المستهين بما حلف عليه كحال السائر في الطريق تنزلق به قدمه فيسقط. والسقوط تتبعه مساوئ خاصة إذا كانت اليمين على الالتزام بشرع الله، إذ يعتبر المستهين بيمينه معرضا عن طريق الله، وخاتمته العذاب العظيم يوم القيامة .

بيان المعنى العام :

90- إن الله يأمر بالعدل والإحسان...يعظكم لعلكم تذكرون .

هذه الآية تمثل ميثاقا جامعا للفضائل، مقررا للمنهج الذي يرضاه الله ويأمر به المؤمنين ليلتزموه، شاملا لأصول الشريعة . فقد أمرت المؤمنين بثلاثة أشياء – العدل – الإحسان – إيتاء المعروف لذوي القربى– ونهتهم عن ثلاثة أشياء – الفحشاء – المنكر– البغي – ولما جمعته من أصول الهدى والخير، ومن تحديد واضح للمنهج الإسلامي الذي يتحتم على المؤمنين أن يكونوا ذاكرين له، كتب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى الخطباء أن يختموا خطبهم يوم الجمعة بهذه الآية .

- بكل تأكيد يأمر الله، وأمره سبحانه واجب لا خِيَرَةَ فيه، بأن يلتزم الناس في حياتهم الوفاء لما تضمنته الآية، فقدم العدل.

والعدل هو العدل الشامل لجميع علاقات الإنسان. فالعدل في علاقة الإنسان بربه أن يقر بأنه هو الله الواحد الأحد ولا يشرك به شيئا، ويقابله الشرك وهو أعظم الظلم. وأن يخلص له في عبادته ألا لله الدين الخالص، والتقرب لغير الله أو تعليق الآمال به انحراف عن الصراط السوي الذي هو العدل. والعدل في علاقة الإنسان بأسرته الوالدين والزوجة والأولاد. وذلك بمراعاة مقتضيات الكرامة الإنسانية، وتمكينهم من حقوقهم التي ضبطها الإسلام، وعدم التمييز بينهم تمييزا يغرس في نفوسهم الحقد والفرقة. والعدل في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان باحترامه، وأن لا يظلمه بالتعدي على ماله أو عرضه ظلما مستندا إلى القوة، أو إلى الخبث والاحتيال. والعدل في علاقة الإنسان بالكون بأن لا يسمح لنفسه بإفساد ما في هذا الكون من جمال ومن توازن، ومن خيرات ينتفع بها ولا يبددها، كما لا يكتنزها لنفسه ويحرم البشرية مما أفاء الله عليه. والعدل في علاقة الحاكم بالمواطنين فلا هو يظلم أي فرد منهم أو ينتقص من حقوقه، أو يميزه تمييزا يغمط به حق غيره .كما لا يظلم المواطنون من ولي الحكم فيهم بالطعن فيه أو العمل على الانتقاض عليه ما دام يقيم

العدل فيهم. وعلى هذا النسق يفهم العدل . وإن ما تتغنى به البشرية اليوم من الديموقراطية لا يكون بها العالم سعيدا إذا لم يُحتَرَم العدل احتراما صارما لا تهاون فيه.

وثنى بالإحسان: وهو مرتبة أرقى من العدل، ذلك أن العدل هو الحد الفاصل بين ما يحل للإنسان عمله، وكسر ذلك الحد حرام منهي عنه، صاحبه غير مطبق لشرع الله. فالإحسان أن تسمو بالعدل إلى مرتبة من السماحة والرفعة، فيتنازل المحسن عن بعض حقوقه، أو يحمل نفسه مرتبة أرفع هي غير واجبة عليه رغبة في نيل درجة الإحسان. فالإحسان في علاقة الإنسان بخالقه مثلا: أن يكون مستحضرا في وعيه أن الله معه في كل لحظة وفي كل عمل يقوم به، وفي عبادته بصفة أخص، قال صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. ومن الإحسان في الأسرة أن يربيها على الحب وينفق عليها بسماحة في غير سرف. وعلى هذا النحو يذهب العقل في تصور سيرورة الإحسان في كل شيء، حتى في ذكاة الحيوان بأن تشحذ السكين ليكون ذبح الحيوان أقل إيلاما .وقد قال صلى الله عليه وسلم: إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحة. وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته. رواه مسلم وأحمد عن شداد بن أوس[1].

وثلث بإيتاء ذي القربى، أي إعطاؤهم المال عن سماحة. وخص القرابة نظرا من القرآن إلى تمتين بناء الأسرة، فأمر سبحانه أن يذكر كل واجد أعضاء أسرته الذين لا يجب أن ينفق عليهم، وهم في حاجة بل حتى الذين يملكون الكفاف يهدي لهم، وبذلك تقوى لحمة القرابة والنسب . ويكون البناء الاجتماعي بناء متماسكا.

ثم عطف القرآن على المقومات الإيجابية الثلاثة ما يحصنها بالنهي عن مفاسد ثلاث هي: الفحشاء – المنكر – البغي –

أما الفحشاء فهي كلمة يدخل تحت مدلولها كل عمل أو قول تستفظعه الفطرة، فيسقط صاحبها إلى المنازل الساقطة في نظر الجماعة. كالزنا والقذف والتطاول على الصالحين وأهل العلم، وترويج الشائعات المحيرة، وقطع الطريق .....

وأما المنكر فهو ما ترفضه الفطرة السليمة وتكرهه الشريعة من الأفعال والأقوال. ومن المنكرات ما هو محرم كشرب الخمر والقمار والكذب، وكاللباس الوقح الكاشف ونحو ذلك مما نهت عنه الشريعة ورفضته الفطرة والعقل.

---

[1] فيض القدير ج2 ص245 ح1761

وأما البغي الذي هو الاعتـداء علـى الآخـر. فإنـه قـد يكـون ابتـداء دون إثـارة مـن الطرف المقابل، كشأن الشطار والبلطجية الـذين يقصـدون بـث الإرهـاب فـي النفـوس ليطوعوا أكثر ما يمكن لإرادتهـم الشـريرة . وكشـأن الحكـام الظلمـة الـذين يقرنـون الظلم بالتخويف من الـبطش والإهانـة. وكقطـاع الطـرق. ومنـه مـا يكـون رد فعـل فيبالغ المعتدى عليه في الانتقـام فينقلـب معتـديا، قـال تعـالى :(فمـن اعتـدى علـيكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)[1]

إن ما جمعته الآية من الأوامر، وما ساقته من النـواهي، كلـه يسـتجيب للفطـرة وللعقـل المستنير وللميزان الذي يقوم عليه نظـام المجموعـة البشـرية، وباختلالـه يختـل البنـاء الاجتماعي، وتنتشر الفوضى . فلذلك ختمت الآيـة بـأن المقصـود ممـا ذكرتـه أن تنفـذ إلى القلوب فتحركها لتكتسب حماية من السقوط فـي السـفالة، وتبقـى فـي منزلتهـا مـن الكمال النفساني المقترن بالتزام ديـن الله. إنـه بتنزيـل هـذه الآيـة، وبمـا أن المـؤمنين يلتزمون تلاوة القرآن، فإنه يترتب على ذلك أن يكونوا ذاكـرين لمـا أمـرهم بـه القـرآن وبما نهاهم عنه ذكرا فاعلا في عقولهم ثابتا في نفوسهم.

91-وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ....إن الله يعلم ما تفعلون .

يواصل القرآن تفصيل الميثاق الخلقـي، فيـأمر مـن التـزم التزامـا وثقـه علـى نفسـه باختياره مما هو غير منهي عنه، يـأمره بـأن يـوفي بمـا التزمـه . وهـذه الالتزامـات على مراتب: الالتزام بما عاهد عليه المـؤمن ربـه. وقـد أخـذت هـذه العهـود علـى المؤمنين الأولين بالطاعة للتشريع والآداب ونصر الـدين، ممـا يـبلغهم إيـاه رسـول الله صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك ما بـايع عليـه المسـلمون تحـت الشـجرة، ومـن ذلـك أيضا ما ذكر في سورة الممتحنة مـن مبايعـة المهاجرات.....ويسـري هـذا علـى كـل مسلم إلى يوم القيامة. فـإن الإسـلام معنـاه الالتـزام بشـرع الله المبنـي علـى عقيـدة التوحيد. وكذلك ما يلتزم به المؤمن من العقود والمواثيق بينـه وبـين مـن يتعامـل معـه. إن الطمأنينة في ساحة المعاملات هـي قاعـدة النجـاح الاقتصـادي، بمـا يصـحبه مـن وفرة فرص العمل، وهي من ناحية أخرى داعية للدخول فـي ديـن الإسـلام، فـإن غيـر المسلمين إذا استقر في نفسوهم وفاء المسلمين لعهـودهم، فإنـه ينتهـي بهـم الأمـر إلـى أمرين : أحدهما مؤكد مواصلة التعامل وتقدير أخـلاق الإسـلام، وثانيهمـا الـدخول فـي دين الله تقديرا لما وجدوه من المسلمين من الثقة بهم.

---

[1] سورة البقرة آية194

وقد تكون العهود موثقة بالقسم على الوفاء، فيكون عـدم الوفـاء بهـا جامعـا لمنكـرين : منكر إخلاف العهد، ومنكر الاسـتهانة برقابـة الله التـي جعلهـا الحـالف موثقـة لوفائـه وبضمانه سبحانه الضمان الذي رضي المتعامـل بـه وثيقـة فـي تحقـق مـا تـم عليـه الاتفاق . وليتيقن كل معاهد حالف بالله أن الله يعلم حقيقـة مـا يفعلـه المعاهـدون. وفـي هذا إشارة إلى أن بعض ناقضـي العهـد قـد يقـدمون مـن المعـاذير الكاذبـة، والتـي يحسنون تزويقها فتروج عند الطرف المقابـل، ولكـن الله يعلـم بـواطن الأمـور . وإن استطاعوا خداع البشر فإن الله لا يخدع وسيحاسب المعاهد الناكث على فعله.

92-ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها....ما كنتم فيه تختلفون.

تشوه الآية صورة الناكثين بما يشمئز منه كـل كـريم طبـع مسـتقيم الفكـر. تعـرض الآية حال امرأة قرشية معروفة بالبله وقت نـزول الآيـة، قيـل اسـمها ريطـة التيميـة، ولم يذكر القرآن اسمها بل عرفها باسم الموصـول [التـي نقضـت غزلهـا] لاستحضـار خُرقِها واختلال مداركها . كانـت تجمـع جواريهـا عنـد الصـباح لغـزل الصـوف أو الشعر غزلا محكما، حتى إذا جاء وقت الظهيـرة أمـرتهن بـنقض مـا غـزلن وإعادتـه إلى ما كان عليه. وهكذا كان شأنها كل يوم .

إن الناس يتعاملون فيما بينهم فيحصل من ذلك نسـيج اجتمـاعي يقـوي الـروابط بيـنهم، وكذلك يدخل الناس في دين الله فتتمـتّن روابطهـم بالعقيـدة ويصـبحون إخـوة .فيكـون الذي ينقض العهد الإيماني، أو المواثيق التي أخـذها منـه المتعامـل معـه، شـبيها بهـذه المرأة الخرقاء التي كلما تحولت المادة التي عملت فيهـا مـع جواريهـا إلـى مـا يَصْـلُحُ لحمة أو سَدى تعيده منقوضا على الحالة التـي كـان عليهـا قبـل أن بـذلن فيـه الجهـد طيلة الفترة الصباحية.

ثم رفعت الآية إلى السطح أثر ذلك وعلتـه. فأمـا الأثـر فهـو أن نقـض العهـد يفضـي إلى انقلاب الصلات الاجتماعية إلى وضع من الفساد ترتفـع بـه الثقـة والطمأنينـة وهـو غدر بمن أخذ العهد واطمأن يفضي إلى الخصام . فارتفاع الثقـة بـين النـاس فيـه فسـاد كبير[**دخلا بينكم**] وأما العلة، فهي أن النـاقض للعهـد قـد يكـون يبغـي مـن ذلـك أن يحقق ارتباطه بأمة لها مكانة أرفـع، أو ثـراء أوسـع، أو قـوة أظهـر، ويبطـل عهـده لأجل ذلك مع من سبق أن عاهده ووثق ارتباطـه بـه . وقـد كـان فاشـيا فـي العـرف الجاهلي أن يفسخ المعاهد عهده إذا دعته قبيلة يرى أن انقلابـه علـى عهـده مـع الأولـى خير له. ثم حذرهم من الانسياق مع العواطـف، التـي مـن أخسـها وأسـوئها، الافتتـان بما كان عليه بعض المشـركين مـن ثـراء وقـوة، وأعلمهـم أن تلكـم المظـاهر هـي

اختبار يتميز به الصادقون من الكاذبين . ثم إن الله مظهر يوم القيامة ما اختلفتم فيه في الدنيا، يظهر سبحانه صلاح عاقبة الثابتين على عهودهم وسوء مآل الناكثين.

93- ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...ولتسألن عما كنتم تعملون .

لقد مضى شأن البشر مع المواثيق والعهود على منهجين : منهج المتمسك بعهده الثابت عليه، له ميزان واحد هو الوفاء ؛ ومنهج الذين لا أيمان لهم ولا عهود يبحثون عن مصالحهم العاجلة فلا يعيرون لأيمانهم وعهودهم أي قيمة، بل يطرحونها كأن لم تكن، ثم يندمجون مع من يظنون أنه يحقق مصالحهم العاجلة .

إنه لو شاء الله أن يكون البشر نمطا واحدا من الخير والوفاء بالعهود والأيمان، لركب خلقتهم تركيبا لا تستطيع معه أن تخرج من الفضيلة إلى الرذيلة ولا من الوفاء إلى الغدر. ولكن خلقهم مؤهلين للمنهجين يختارون ما يشاؤون دون ضغط عليهم أو إلجاء، وإن الله بحكمته، التي يعجز البشر عن إدراكها إدراكا حاصرا وكاملا، يحيط سبحانه البعض بالألطاف التي بها يسبق إلى الإيمان وإلى الأعمال الصالحة، فتتعلق إرادة الفرد بالثبات على الطريق المستقيم، ويجاهد وساوس الشيطان، وتعظم أشواقه إلى الطاعة و يشرق في قلبه حب الخير. كما يحرم البعض الآخر من تلكم الألطاف فإذا هو يجنح إلى الإلحاد وما يتبعه من فساد.

إنه إذا ما اختار الإنسان طريق الهدى وكل عمل جزئي يدخل في نطاقه وتوجه إليه، فإن الله يقدره عليه ولا يحول بينه وبين مراده ويأذن الله بتحقق ما أراده المُوَفِّقُ . كما أنه في الجهة المقابلة إذا اختار مسلك الضلالة وكل عمل جزئي يدخل في نطاقها فإن الله لا يحول بينه وبين مراده ويأذن بتحقق ما أراده المَخْذُولُ . وحسبما أفهم ختمت الآية بالتأكيد على أبلغ وجه أن الإنسان مسؤول عن أعماله في الدنيا. ويتحقق من ناحية أخرى العدل الإلهي. لقد نفى الله عن نفسه خمس مرات في القرآن أن يكون ظلاما للعبيد.

94-ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ...ولكم عذاب عظيم .

أولى القرآن عناية شديدة بالوفاء بالعهود والحفاظ على الأيمان وعدم نقضها؛ فأمر بذلك في الآية91 أمرا أحاطه بتأكيدات متنوعة، ثم صور في الآية 92 بشاعة الناكثين المتحللين. وفي هذه الآية صرح بالنهي عن نقض الأيمان قارنا للنهي بما يؤثر في التالين تأثيرا يبلغ بهم حد الاشمئزاز من عدم الوفاء بالأيمان .

إياكم أيها المؤمنون أن تتوسلوا بالأيمان إلى إدخال الفساد في بنائكم الاجتماعي، لما يعقب نقض الأيمان من البغض والكراهية والنزاع، وبالتالي ارتفاع الثقة فيما بينكم.

إن اتخاذ الأيمان سبيلا للخداع والغش يزعزع قبل كل شيء ضمير المخادع فيجعله غير واثق من نفسه متقلقلا غير ثابت، ومن إعجاز القرآن أنه مثل المخادع بمن يسير ثابتا في الطريق فتزل قدمه، ويفقد توازنه. وهذه الصورة الحية المتحركة تثير في الخيال ما ينفر منها، إذ زلل القدم بعد ثبوتها كثيرا ما يعقبه تهشم العظام وتسلخ الجلد وتلوث المظهر العام، إن نقض الأيمان نهايته إحساس شديد بالألم لما يصحبه من تفكك الروابط وتقلص المعاملات، ويتبعه خراب اقتصادي ووفرة البطالة في الدنيا، وخاتمته اعتبار الناكثين من المعرضين عن طريق الله، خاصة إذا كانت العهود والأيمان على الالتزام بالإسلام وتطبيق شرع الله. وإنذار بالخسران العظيم يوم القيامة، بأن المآل هو عذاب عظيم لا يقدر قدره إلا الله.

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

ثمنا : عوضا.

ما عند الله : ما ادخره الله للمسلمين في الدنيا والآخرة .

ينفد : ينقرض ويفنى.

باق : مستمر لا يفنى.

بيان المعنى الإجمالي :

تواصلت عناية القرآن ليكون المسلمون أوفياء لعهودهم وخاصة ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ من الالتزام بعقيدة الإسلام وبشرعه. وكان المشركون يعملون على فتنة بعض المسلمين، ويُغْرُونَهُمْ بشيء من أعراض الحياة الدنيا. فنهاهم الله أن يدخلوا في هذه الصفقة الخاسرة وأن يبيعوا ما رزقهم الله من نفيس الهداية للإيمان بثمن قليل مؤكدا: أن ما ادخره الله للمؤمنين هو خير من كل مقابل يبذل في سبيل التفريط فيه. يتضح لكم ذلك أن ما يملكه البشر يزول ويفنى قريبا. أما ما ادخره الله وما يملكه سبحانه فهو باق لا يفنى . وإنه سبحانه لكرمه سيجزي الصامدين الذين أقاموا على ما عاهدوا الله عليه، سيجزيهم جزاء على جميع أعمالهم الصالحة ويكون الجزاء لكل عمل على مستوى أحسن الأعمال .

ويؤكد القرآن أن من يتوجه إلى صالح الأعمال بميزان الشرع، يكتب الله له جزاءين، جزاء في الدنيا هو الشعور بالسعادة والرضا . وجزاء في الآخرة بتسجيل جميع أعماله بميزان أحسن الأعمال، فضلا من الله، يستوي في ذلك الذكر والأنثى.

بيان المعنى العام :

96/95- ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ...أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

يواصل القرآن حث المؤمنين على الوفاء بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم، وأهمها العهد على الإسلام.

بذل المشركون بمكة كل طاقاتهم لتحويل من أسلم عن الإيمان، وكانوا يعتمدون الإغراء تارة، والتهديد تارة، والتعذيب تارة أخرى، حسب ما يظنون أنه يؤثر في الشخص الذي يرومون فتنته . فكانوا يغرون ضعفة المسلمين بالمال أو المساعدة في نشاطه إن هو أقلع عن الإسلام وعاد إلى الشرك .فاهتمت الآية بهؤلاء المُعَرّضين للفتنة وأيقظتهم بالنهي أولا عن نقض العهد، وثانيا بتنبيههم أن ما يبذل لهم من المشركين هو عوض قليل تافه لا قيمة له مهما غلا في مقابل ما يبغونه منهم من الكفر، لأن المبذول يخرجهم من رحمة الله وما ينعم به المؤمنون من خيرات وفضل من ربهم . وأخرج النهي في صورة صفقة خاسرة لمن بذل دينه في مقابل إغراءات المشركين .

إنه إذا حركتم عقولكم ونظرتم نظرة معمقة فإنه يحصل لكم العلم اليقيني بأن ما ادخره الله للمؤمنين خير لا يقارن بما يبذله المشركون. إنه الوعد المبطن بنصر دينه وانهزام الشرك، والفوز يوم القيامة. وَجَلتْ الآية96 ذلكم المفهوم بأن ما عند المشركين هو محدود يسرع إليه الذوبان والفناء، وأما ما ادخره الله لكم فهو باق مستمر لا ينفد. إنه عطاء الدنيا بما وعد الله به من نصر دينه وهزم الشرك والقضاء عليه، وإنه الفضل الإلهي الذي ينعم به المؤمنون في الحياة الدنيا بما يسكبه في بواطنهم من السكينة والطمأنينة والرضا، وفي الآخرة بالنعيم المقيم في جنة الخلد . وكل ذلك نعيم باق مستمر. وتؤكد الآية في نهايتها تأكيدا بالغا الوعد الإلهي وتفصله: إن الله سيجزي الذين صبروا على الوفاء بعهودهم وصمدوا لفتنة المشركين بأحسن ما قدموه من أعمال . إنه لا شك أن الأعمال الخيرة تتفاوت في قيمتها من حيث الإخلاص وتبعا للآثار الطيبة المترتبة عليها. وفضل الله عظيم، إنه يجزي المؤمنين عن جميع أعمالهم بمقياس الأعمال البالغة درجة الكمال في الحسن.

97-من عمل صالحا من ذكر أو أنثى...ما كانوا يعملون .

هذه قاعدة من القواعد التي يمضي عليها الله جزاء من صلح عمله من المؤمنين صرحت بها الآية. قضية عامة تتناول كل ذكر وأنثى، تفيد التسوية التامة بينهم في ما ينالهم عن صالح أعمالهم. إن جزاءهم يتحقق في تيسير الله لهم الحياة الرضية الآمنة في الدنيا. هي الحياة التي يشعر فيها صاحب العمل الصالح بالرضا وذهاب اللهفة على المفقود. نعم إن ما يرزقه الله للمؤمنين يتفاوت في متاع الحياة الدنيا. والهناء والسعادة الحقيقيّان، محصوران في القناعة بما يحصل الإنسان عليه. إن المؤمنين الذين صلحت أعمالهم بمراقبة الله وتطبيق شرعه، وتعلقت أشواقهم بما ادخر لهم في الآخرة من كرامة في جناته، لا تجد الغَنِيّ منهم أسعد من الفقير، ولا من يسكن القصر أبلغ هناء ممن يسكن الكوخ، تجد الاستقرار يسري في بواطنهم فلا هم يشعرون بالنقص المؤلم، ولا بدوافع الحاجة الحارقة ولا بالنهم الذي لا يشبع صاحبه. فهذه هي الحياة التي يجد صاحبها من نفسه أنه منعم. وفوق ذلك أن ما أعد لهم من الأجر هو أجر مضاعف بتقديره على ميزان أحسن الأعمال وأتمها. والله ذو الفضل العظيم. وهذه الآية تفيد أولا أن العدل في الجزاء عن الأعمال، فالعمل لا تتأثر قيمة جزائه بالجنس، فأجر الذكر وأجر الأنثى واحد ما دام العمل المقدم واحدا. كما تثبت ثانيا أن السعادة في القناعة، وأن التكالب على جمع الثروات الكبيرة يسبب لصاحبها التعاسة ما دام محروما من القناعة .

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

استعذ : اطلب التحصين.

سلطان : التسلط والتصرف المكين.

يتولونه : يتخذونه وليا ونصيرا، يطيعونه .

بيان المعنى الإجمالي :

خلق الإنسان ضعيفا ؛ إنك إذا وزنت قوته البدنية، وجدت أن جرثومة لا ترى إلا بالمجهر تهد قواه بل قد تقضي بإذن الله على حياته . وكذلك الأمر في قواه العقلية

وتحكمه في مداركه. يتسلط عليه الشيطان فيذهله عما هو فيه، يفرق بينه وبين كتاب الله. فأمرت الآية المؤمنين ليتحصنوا من وسوسته، ويهزموا سلطانه وقوته على النفوس بأن يفتتحوا تلاوة القرآن بقولهم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

إن الشيطان مهزوم بقوة الإيمان، يرتد خاسئا حقيرا ذليلا إذا ما كان المؤمن صادق التوكل على الله، وإعلانُه بالاستعاذة مظهرُ حسن توكله. إن الشيطان ليس له سلطان يتحكم به في النفوس، إلا النفوس التي وجد منها ميلا لإغوائه وإسلاس القيادة لما يزينه من الشهوات، وكذلك النفوس الذين بلغت بهم طاعته إلى الشرك .

بيان المعنى العام :

98-فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**-89- والتي أتبعت بما يؤكد مضمونها في الآية الجامعة-90- **إن الله يأمر بالعدل ....** كما أكد مضمونها بالتشديد على الوفاء بالعهد الذي فصله القرآن واهتم به. وإنه إذا أرادت معرفة ما يعينك على أن تنفتح روحك فتتأثر بما تضمنه القرآن من البيان والهدى والبشرى، فاستعد بتطهير نفسك، وتحريك انتباهك، واستعن لذلك بأن تقول عند إرادة قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقوله تعالى فإذا قرأت، أي: إذا أردت قراءة القرآن. هو على وزان قوله تعالى: **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا**: أي إذا أردتم القيام. ونحوه كثير في القرآن. وكقولك إذا أحرمت فاغتسل .

استعذ بالله: أي تحصن بقدرة الله، واطلب منه أن يسعفك بتأييده ليحميك من وسوسة الشيطان الصارفة لمداركك عن التأمل فيما تتلوه، وعن الذهول عن إرشاده وأوامره ونواهيه . قد تجد القارئ إذا لم يصحبه عون من الله على التغلب على وساوس الشيطان يتحرك لسانه ولا ينفعل عقله ومشاعره، لا بالوعد ولا بالوعيد، ولا بالبشارة ولا بالنذارة، ولا بما في القصص من عبر زيادة على ما فصل فيها من صادق الخبر، إلى غير ذلك من محتويات القرآن التي لا يحد عطاؤها. وقد قدمنا بعض ما يتعلق بالشيطان الرجيم في الآية 17 من سورة الحجر.

والاستعاذة مأمور بها عند إرادة قراءة القرآن، في غير الصلاة، وأما في الصلاة فالذي عليه الإمام مالك أنها غير مندوبة، ذلك أن الصلاة قد جمع المصلي لها فكره وقلبه بالإقامة فلا تندب الاستعاذة. وبعض العلماء ندب إليها في كل ركعة وبعضهم ندب إليها مرة واحدة في الصلاة. وحمل الإمام الثوري الأمر على الوجوب في الصلاة وفي غيرها.

100/99-إنه ليس له سلطان ... وعلى ربهم يتوكلون .

علقت الآية الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، بأنها تصرف الشيطان فلا يتمكن من التسلط على الذين آمنوا بالله وتوكلوا عليه .وإفصاح المؤمن بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم تصريح بالتوكل . وقد ضمن الله بفضله منع الشيطان من التسلط بالتشويش على المؤمن لفكره وروحه وتركيزه، إذا هو افتتح قراءته بالاستعاذة. وفي المقابل فإن الشيطان لا يكون له سلطان وتأثير إلا على الذين يطيعونه و يتخذونه وليا، من أهل الكتاب ومن الفسقة، وكذلك الذين استولى عليهم فأصبحوا مشركين بسبب إغوائه .

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الآية : الكلام الموفي بالغرض من القرآن.

المفتري : المختلق للكلام .

روح القدس : جبريل .

القدس :المطهر.

يلحدون : مضارع ألحد بمعنى مال.

لسان : كلام.

الأعجمي : الذي لا يبين عن مارده .

بيان المعنى الإجمالي :

يتصيد المشركون الشبهات ليشككوا بها في القرآن يهدفون من وراء ذلك إلى تكذيب رسول الله ﷺ ، فإذا بدل الله حكما رعاية لمصلحة البشر ولطفا بهم، أعلنوا أن ذلك دليل على أن القرآن من تأليف محمد وليس من عند الله. ولله حكمة فيما ينزله من الحُكْمِ الأول والحكم الذي حوله إليه. ولكن أكثر المشركين جهلة تغيب عنهم حكمة

الله في ما ينزله. ولذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم وأن يجاهرهم : إن الذي أنزل القرآن على قلبك وأتى به من عند ربك مصاحبا للحق الذي لا باطل فيه هو ملك الوحي المطهر جبريل عليه السلام . وأن نظم القرآن وترتيب ما يأتي به وتوقيته كل ذلك ملتبس بالحق لا باطل فيه، يثبت المسلمين على الإيمان، ويمكن للهداية في نفوسهم، ويبشرهم تبعا لذلك بحسن العاقبة. ومن الباطل الذي روجه المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن من غلام رومي مسيحي، وزيف القرآن ما روجوه .ذلك أن هذا الغلام كان غير فصيح فكيف يمكن أن يصدر القرآن البالغ أعلى درجات الفصاحة عن رجل عَيِيٍّ لا يكاد يستطيع إبلاغ مراده .

ثم بالغ القرآن في الرد على المشركين بأنهم هم وحدهم الذين يفترون الكذب ولا يقصرون عن ترويجه، لأنه لا ينشئ الكذب ويروجه إلا الذين خلا قلبهم من الإيمان بآيات الله، وهم وحدهم الكاذبون . فالكذب مقصور عليهم .

بيان المعنى العام :

101-وإذا بدلنا آية مكن آية ...بل أكثرهم لا يعلمون.

في هذه الآية إبطال لما كان يقوله المشركون في القرآن إذا حصل ما ظاهره الاختلاف فيه، وإن كان هذا الظاهر مرده إلى قصر النظر وقلة التأمل، مع أنه لا اختلاف فيه لمن كان يرغب في الوصول للحقيقة، ويتعمق .

إن القرآن يربي أمة، ويوجد تشريعا، ويبني عقيدة . أما العقيدة فهي واحدة لا تراعي ظروفا ولا تنتقل بالمرسل إليهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها، إذ الحق العقدي واحد، ولم يتبدل ما أنزل على رسول الله ﷺ في هذا الباب لا قليلا ولا كثيرا. وما كان بالتشريع فإن معظمه ثابت، وتارة يكون تحويل المرسل إليهم مما كانوا عليه إلى التشريع الجديد فيه نوع من الصعوبة، فيتم التشريع على مراحل، تصل بالمؤمنين من درجة إلى درجة أكمل. وما كان من باب التربية فقد يكون بواسطة القصص القرآني. وطريقة القرآن في قصصه أنه يعيد القصة وفي كل مورد يكون العرض غير العرض السابق يحقق موعظة ويفصل حدثا يتناسب مع الجو العام للنسق الذي ورد فيه. فاعترض المشركون على هذا واتهموا الرسول ﷺ ، بأنه يختلق القرآن من عنده، إذ لا يمكن أن يكون الاختلاف في كلام الله. فرد القرآن عليهم: بأن الذي نزله على قلب رسول الله هو الله، والله أعلم بما ينزل لهم فيصلحهم به، فيراعي ظروفهم شيئا فشيئا حتى يبلغوا في النهاية درجة ما أراد الله أن يثبت عليه التشريع. وعند ذلك لا يقع التبديل. كما أن القرآن ليس كتاب قصص

حتى يكون نسج قصصه واحدا، بل يحقق أمرين : أولهما أن لا يخالف الحقيقة، وثانيهما: أنه يبرز في كل مناسبة المقطع الذي يتلاءم . فتجرأ المشركون لقصر نظرهم على رسول الله وقالوا هذا اختلاف، والقرآن من عندك وليس من عند الله . مع أن التغيير في التشريع هو لمصلحة الناس الذين يسمو بهم شيئا فشيئا إذا انتقل التشريع من الأخف إلى الأشد، أو لإظهار الفضل والرحمة الإلهية بتحويل التشريع الأشد إلى الأخف بعد أن تبين المسلمون ثقل التشريع الأول الذي كانوا لقوة إيمانهم يرغبون فيه .

وحقق القرآن أن أكثر المشركين جهلة لا يعلمون، فاستندوا لجهلهم ونسبوا لك الافتراء، وفي التعبير، بأكثرهم. ما يفيد أن بعض المشركين يجدون في قرارة نفوسهم أنهم يشاغبون وأن ما رفعوه كاختلاف هو لا اختلاف فيه، ولكنهم فعلوا ذلك مكابرة منهم .

102-قل نزله روح القدس من ربك بالحق ...وبشرى للمسلمين .

قل لهم قولا يرد شغبهم ويقمعهم ويرفع تلبيسهم: الذي نزل بالقرآن فبلغه هو جبريل (روح القدس) وسمي جبريل بروح القدس، المضاف "روح" باعتبار أن الله فضله فجعل مكانته من الملائكة مكانة الروح من الجسد، وأضيف الروح الموصوف إلى "القدس " الصفة أي المطهر بإطلاق . مقترنا وملابسا بالحق الذي لا باطل فيه . فالمنسوخ حق وقت نزوله، وكذلك الناسخ. وما اقتصر عليه من مقاطع القصص حق. ومما يمتع التالي قوله تعالى " من ربك " فهذا التعبير جمع بين الإفصاح عن عناية الله برسوله بما تدل عليه كلمة الرب حسب اشتقاقها الأصلي، وبين قوة الارتباط بين الله ورسوله بإضافة الرب إليه، وبين الإشارة إلى ما يقتضيه اسم الرب من مراعاة الصلاح في التبديل والاقتصار .

ونبهت الآية إلى أن ما اعترض به المشركون وقدروه نقصا في القرآن هو على العكس من ذلك، فإنه يثبت الذين آمنوا بما في التدرج من تأليف بين المؤمن وبين ما هو مطالب به من ربه، ويقوى إيمانه بأن الله يرعى ما يصلح به . وهو أيضا تيسير لاتباع الهدى والتمكن من السير على طريقه . ولا شك أنه بحصول الثبات واتباعه بيسر ورغبة تتحقق البشارة بحسن العاقبة .

103- ولقد نعلم أنهم يقولون ...لسان عربي مبين .

نوع آخر من التزييف والشغب الذي يقوم به المشركون ؛ ذلك أنهم أشاعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ القرآن عن غلام رومي مسيحي يحفظ شيئا من

الأدعية التوراتية . وكان هذا الغلام قد مال إلى الإسلام فكان النبي ﷺ يعلمه عقيدة الإسلام وأحكامه. فرد القرآن عليهم ما روجوه بأنه سخيف يرفضه كل عاقل متبصر. إذ الغلام المسيحي كان معروفا ببعده عن الفصاحة، ضعيف البيان عن مراده، والقرآن قد بلغ أسمى مستوى في البلاغة، فلا يعقل أن يصدر عن رجل عيي، والقرآن قد تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا .

105-إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ...هم الكاذبون.

ردت هذه الآية على المشركين ردا فألبستهم خزي ما رموا به الرسول ﷺ، وذلك بذكر قاعدة حاصلها : أنه لا يفتري الكذب، ولا ينشئ كلاما غير صادق يزوره ويشيعه إلا الذين خلت قلبهم من نور الإيمان وأظلمت بالكفر ورفضوا النظر في آيات الله التي تستجيب لها الفطرة السليمة، إنهم هم المنفردون بالكذب، ويفهم من ذلك انتفاء الكذب عن رسول الله ﷺ.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإكراه : هو الضغط على الإنسان لكسر إرادته ضغطا فيه إيلام كالسجن والقيد.

الغضب : هو الانتقام إذا اسند إلى الله.

الطبع : حجاب مختوم بختم بحيث لا يصل إليه أي خارج عنه.

لا جرم : لا محالة، لابد.

هاجروا : خرجوا من موطنهم محافظة على دينهم.

فتنوا : الفتنة العذاب والأذى المتكرر الذي يتجاوز حدود الصبر عليه.

المجاهدة : المقاومة بكمال الطاقة .

الصبر : الثبات على الأمر مع تحمل المكروه.

تجادل : تدافع. وتُطْلَقُ بمعنى تناقش.

توفى: تعطى شيئا كاملا غير منقوص.

بيان المعنى الإجمالي :

قاوم المشركون الإسلام كما دلت عليه الآيات السابقة، وتسلطوا على المسلمين الذين ليس لهم قوة عصبية تمنعهم من بطش الكفرة. فمنهم من قاوم وصمد وتحدى، ومنهم من خلص نفسه بكلمة كفر ترفع عنه العذاب، ولكن قلبه مطمئن بأن الإسلام هو الدين الحق. فبينت الآية أن من كفر بلسانه لا بقلبه، ليخلص نفسه من العذاب، فإنه لا يأثم على ما نطق به وهو ناج عند الله .ولكن من ارتد وعانق الكفر واطرح الإسلام ظاهرا وباطنا فإن مقت الله سينزل به وله عذاب عظيم . إنه جزاء عدل لأنه أحب حبا شديا نعيم الحياة الدنيا ورفاهية العيش وقدمه على الآخرة . وسيهمله الله فلا يفتح له شيئا من ألطافه التي تعيده إلى الحق. لأن الله يحرم الثابتين على الكفر من الألطاف المساعدة. إن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فانقلبت لا ينفذ إليها شيء من الهدى على قوته ونصاعته، وكذلك على سمعهم فلا ينقل لهم المسموعات من القرآن والسنة ما يحرك القلوب والأرواح إلى الخير، وكذلك أبصارهم طبع عليها فلا تنقل المبصرات التي تبعث في العقل التأمل الذي يعقبه الاهتداء . ولا محالة أنهم كانوا في الآخرة أعظم الناس خسرانا. ثم إن ربك يا محمد ضمن لمن أسلم وفتنه المشركون بأنواع التعذيب فقاومهم ودافع ليثبت على إيمانه وصبر على تحمل المشاق والأذى، وترك دياره وأهله وماله وخرج بعد فتنته فخرج مهاجرا إلى أرض الحبشة ليسلم له دينه، إن ربك بعد تحقق الهجرة منهم ضامن مغفرة ذنوبهم ورحمتهم . يجدون فضله يوم القيامة وهو اليوم الذي يمكن الله كل إنسان من الدفاع عن نفسه، الذي ينتهي بإدراك الكافرين والمذنبين بكفرهم وذنوبهم عدالة ما يحكم به عليهم. ويدرك المؤمنون فضل الله عليهم وحسن جزائه .

بيان المعنى العام :

106- من كفر بالله من بعد إيمانه ... ولهم عذاب عظيم .

يضاف إلى ما تقدم من محاولة المشركين فتنة المسلمين بالتكذيب وترويج الباطل وتزييف الحقائق، يضاف إلى ذلك التجاؤهم إلى إكراه من هو تحت سلطانهم كالمستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم قبيلة تحميهم أو الأرقاء الذين كانوا في

ملكهم. كان لما روجه المشركون من تشكيك قد أثر في البعض فاستجاب لهم وارتد عن الإسلام، وهؤلاء قد بين القرآن مآلهم، كما سنشرحه في ختام الآية .

وطائفة أخرى من المؤمنين تسلط عليهم المشركون فأكرهوهم على العودة إلى الكفر، فمنهم من تحدى التعذيب وصبر، وكانت إرادته أصلب من أن يهزمها الألم، ومنهم من نطق بما أكرهه عليه المشركون. فبينت هذه الآية أن من أكره على قول كلمة الكفر، لكن قلبه مطمئن بالإسلام غير رافض لدينه، فإن الله، بفضله ورحمته بعباده المؤمنين، أعلم أنه لا يؤاخذ من لم ينفذ الكفر إلى قلبه وبقي قلبه مطمئنا بالإيمان وبصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن الذين ارتدوا ونطقوا بكلمة الكفر رافضين للإسلام، وعقدوا قلوبهم على الكفر، سواء أكان ذلك تحت التعذيب أم بمجرد الخوف منه أو بإغراء الكافرين أو بتلبيسهم، فإن الله يؤاخذهم بما استكانت إليه قلوبهم ورضوا به، وذلك بانتقامه منهم.

والغضب إذا أسند إلى الله فالمراد منه الانتقام لا غير، كما حققه الراغب. وأكدت الآية الغضب بأن الله سيعذبهم العذاب العظيم.

وهذه الآية أثبتت رفع الإثم عمن أكره بالتعذيب الجسمي أو السجن أو التقييد، أو كشف عورته ونحو ذلك. ومن أكره على فعل ما يعد كفرا كالسجود للصنم فالجمهور على أن الفعل والقول سواء إذا كان قلبه رافضا لما فعله، ورأى بعضهم أن الإكراه يسلم به الفاعل بينه وبين الله، ولكن تجري عليه أحكام الكفر في الدنيا فلا يرث أباه المسلم مثلا ولا يصلى عليه إن مات ولا يدفن في مقابر المسلمين . ومن أكره على قتل غيره فإن الإكراه لا يرفع عنه الإثم ولا الحد. وأحكام الإكراه مفصلة في كتب الفقه.

107- ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا ....لا يهدي القوم الظالمين .

تعليل وتوجيه لما تضمنته الآية السابقة : إنهم استحقوا الانتقام والعذاب العظيمين، لأنهم بانشراح قلوبهم للكفر قد أحبوا حبا كبيرا متاع الحياة الدنيا، فتحولوا عن التعلق بالحق، وعما يوجب النجاة يوم القيامة، إلى ما يجلبه إليهم الكفر من رفاهية العيش في الدنيا .ثم هددتهم الآية بأنهم لا يترقبون أن يسعفهم الله بألطافه ليعودوا إلى الإيمان، بل يتركهم لأنفسهم التي انحرفت فضلت .

109/108- أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ...هم الخاسرون.

هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد أن آمنوا، والذين هم بذلك أسوأ حالا من المستمرين على الكفر، لأنهم قد عاشوا مع الإيمان وجربوا ما فيه من صلاح،

ثم أعرضوا عنه ترجيحا لمصالح دنيوية على النعيم الأخروي. هم في الحقيقة قد كونوا على قلوبهم حجابا لا يفتح ولا ينفذ إليه شيء من نور الهدى؛ فقلوبهم كالرسالة التي يكتبها صاحبها ثم يطويها ويضع عليها شمعا يطبعه بطابع حتى لا يتجرأ أحد على فتحها. فالقلب المطبوع هو قلب لا ينفذ إليه شيء من الإيمان وأدلته. فقلوبهم لا تعقل شيئا من الحق الذي جاء على لسان رسول الله، ذلك أن العقل إذا أغلقه صاحبه عن التأمل، وصرفه لمعاداة الدين، فإنه ينتهي بأن لا ينفذ إليه شيء من الوحي ولا يلتفت إلى النذر. وكذلك السمع، فإن السمع حاسة لا تعقل المسموع إلا إذا وجه العقل الحاسة للإحساس، ولذلك تجد اللاهي يحدث حوله من الأصوات والكلام ما يحدث، ثم إذا سألته عما كان يضج حوله يجيبك بأنه لم يسمع شيئا. فهم بإعراضهم عن استماع القرآن وهدي الرسول صلى الله عليه وسلم يكونون قد أقفلوا سمعهم، وكذلك الأبصار لا تنقل لهم ما وراء المبصرات من نظام ودلائل يعقولهم. ومن إعجاز القرآن قصر الغفلة عليهم، إذ الغافل لا يدرك ما حوله: أولئك هم الغافلون. ولا بد أن يكون حظهم في الآخرة الحظ الأعظم من الخسران.

110-ثم إن ربك للذين هاجروا...بعدها لغفور رحيم .

كان للبشر من الرسالة المحمدية في مكة مواقف مختلفة :

1)الكافرون الرافضون وقد فصلت آيات من هذه السورة تركيبهم الفكري وعنادهم.

2)من أسلم ثم فتنه المشركون فارتد ورضي الشرك دينا.

3) من أسلم وكان له من مكانة قومه ما دفع عنه أذى المشركين.

4)من أسلم وعذبه المشركون وصبر على الأذى وهو صامد لم يتزحزح.

5)من أسلم وعذبه المشركون، فقال كلمة الكفر لينقذ بها نفسه من العذاب وقلبه مطمئن بالإيمان.

وهذه الأنواع الخمسة قد فصلت الآيات أحوالهم . وبقي صنف سادس اعتنت به هذه الآية. وهم الذين أسلموا وحسن إسلامهم وفتنهم قومهم بأنواع من العذاب والأذى والمقاطعة، ولم يلينوا لإرضاء المشركين بلسانهم وبقيت عقيدتهم ثابتة على دين الله. ولكنهم لدرء الفتنة المتواصلة من قريش، تركوا موطنهم وخرجوا إلى الحبشة ليعيشوا الغربة عن الأهل ومرابع الصبا، ويقيمون دينهم في أمن . فعطفت الآية هذه الفئة بما يدل على علو مرتبتها. والمعنى إن ربك يا محمد محقق رعايته بواسع المغفرة وعظيم الرحمة للذين هاجروا فتركوا ديارهم وأموالهم ليسلم لهم

دينهم من بعد ما فتنهم المشركون، وقاوموا الكفر بما أوتوا من قوة وجهد (وجاهدوا) وأحبطوا كل المؤامرات التي أعدها المشركون ليفتنوهم عن دينهم ابتغاء مرضاة الله . وليس الجهاد بالجهاد الحربي، لأن الآية مكية ولو يشرع الجهاد وقتها. وقد تحلوا بالصبر على تحمل المكاره والمشاق، والعزيمة على المضي على إيمانهم . إن ربك من بعد الهجرة، التي كانت مظهرا واضحا على التزامهم السير على الصراط المستقيم، لغفور رحيم.

111-يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها...وهم لا يظلمون.

هذه الآية مرتبطة بما ختمت به الآية السابقة، أي إن الله لغفور رحيم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها. فتكون هذه الآية مبشرة للمهاجرين إلى الحبشة أن ربهم سيكون غفورا لذنوبهم رحيما بهم يوم القيامة، إذا كل إنسان مهما كان صالحا لا بد له من فلتات، فيقدمون على ربهم في ذلك اليوم وقد امحت ذنوبهم ودخلوا تحت مظلة غفران الله ورحمته .

وتفيد الآية: أن كل إنسان مؤمن أو كافر يُعْرَضُ على ربه يوم القيامة، ويمكنه الله من الدفاع عن ذاته. وينتهي الدفاع بإقرار المشرك بشركه والكافر بكفره والمذنب بذنوبه، ولا يبقى له حجة. وعندها يعطي الله لكل نفس جزاءها المقرر الجزاء العادل الذي لا يشوبه نقص من الإكرام أو زيادة من العذاب والمهانة. والله لا يظلم أحدا. والشعور بالعدالة الإلهية في ذلك اليوم يقتنع به من استحق العذاب، فيجد في نفسه أن الله لم يظلمه ولم يعذبه إلا العذاب الذي هو جزاء عادل لما قدمه في الدنيا. كما يقتنع به المنعمون الذين يضفي عليهم ربهم من فيوض رحمته وغفرانه ما ترتفع به درجاتهم.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمن : السلامة من تسلط العدو.

مطمئنة : غير خائفة مطمئنة البال.

رزقها : أقواتها.

رغدا : وافرا هنيئا.

أنعم : نعم .

أذاقهم : أصله الإحساس بالطعم. والمقصود بها هنا الإحساس بالألم .

لباس : أصله ما يلبس من الثياب. والمقصود به المحيط الملازم.

الأخذ : الإهلاك

الحلال : المأذون فيه شرعا.

طيبا : تميل له النفس لملاءمته للذوق .

بيان المعنى الإجمالي :

في هذه الآية إيقاظ لأهل كل بلد ليتأملوا في هذا المثل الذي قدمه القرآن للناس كي يتعظوا به. قرية تفضل الله عليها بالأمن، وهناء العيش فلا خوف ولا قلق، وحقق لها الأمن الغذائي الذي يأتيها واسعا من مختلف الأماكن ؛قابل سكانها النعم بالكفر وجحود الفضل الإلهي، فسلط الله عليها الجوع فتمكن منهم وأحسوا به إحساسا بليغا وبدل أمنهم خوفا .فكان جزاء عادلا بسبب ما صنعوه بأنفسهم . ومع ذلك فقد بعث الله لهم رسولا منهم يعرفونه وكان قبل بعثته محل تقدير لكمالاته الخلقية، فلما دعاهم لما أمره الله أن يدعوهم إليه، بادروا بتكذيبه، فأهلكهم الله بالعذاب، وهم منغمسون في ظلمهم .

أذن الله بأن يأكل الناس مما رزقهم إذا كان حلالا في ذاته وكسبه لا قذارة فيه، وأن يشكروا الله على نعمه فإن الشكر قرين العبادة.

وبين القرآن ما هو محرم وقت نزول الآية في العهد المكي، فعدد المحرمات في ذلك الوقت: الميتة والدم ولحم الخنزير وشحمه وغضاريفه وجلده، وكذلك ما ذكر عليه عند تذكيته غير الله تعالى. ولما كان الإسلام مبنيا على التيسير فإنه رفع الإثم عن المضطر الذي يخشى على نفسه الهلاك أن يأكل من هذه المحرمات ما دام مضطرا

بيان المعنى العام :

112- وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة ...بما كانوا يصنعون .

تعرض الآية صورة تتبع القرآن جزئياتها وتفاصيلها، وأحكم نسجها لتكون مجسمة لمضمونها، تنفذ إلى المشاعر وتحرك الحس، وتُجلي ما قصد بها جلاء معجزا .

هي قرية لم يعينها القرآن فالأولى أن تبقى منكرة غير معينة، إذ تعيينها لا يزيد في الموعظة شيئا. خلافا لما اعتمده كثير من المفسرين أنها مكة . قرية كانت السعادة تغمر سكانها، أنعم الله عليها بالأمن على مالها وعلى حياتها، لا تخاف غزو عدو، والأمن هو الركن الأول للتنعم بالحياة. ومع الأمن حلت الطمأنينة في قلوب سكانها، والطمأنينة بما تدل عليه من ذهاب القلق والخوف، وقد استقر النظام الاجتماعي بما يوفر راحة البال، وذلك نعمة فوق نعمة الأمن وإن كانت لا تحصل إلا تبعا له. وقد تحقق لها الأمن الغذائي، فترد عليها ما تحتاج إليه من الطعام وافرا هنيئا، بما يذهب اللهفة وتوقع الجوع والخصاصة. ليذهب الفكر في تصور نعمة الحياة في هذه القرية كل مذهب. ويعقب هذا النعيم المتعدد الجوانب فساد روحها وعقلها، إذ قابلت ذلكم الفضل بجحدها لنعم الله عليها، فبرز في المشهد جانبان متناقضان، جانب كله إشراق وخيرات متتابعة، جانب كالح هو كفر وجحود .

ويتم المشهد بإبراز نتيجة ذلكم التناقض المقيت. إن الله رفع ما كان يرسله إليها مما تقدم في الصورة الأولى، فأثر فيها الجوع وأحاط بها ولازمها كما يحيط اللباس بصاحبه وهو على مقاسه. واستولى الخوف على النفوس والمشاعر. وتؤكد الآية مظهرة أن ذلك كان نتيجة لما صنعوه، ومن شأن النتيجة أن لا تتخلف عن المقدمات فهي نتيجة ملازمة لهم .

113- ولقد جاءهم رسول منهم ....وهو ظالمون.

وواصل القرآن تشنيع أهل هذه القرية. ذلك أن الله بعث لهم رسولا يعرفونه، خبروه قبل دعوتهم لدين الله، فكان محل تقدير لكمالاته الخلقية واستقامته، لم يجربوا عليه كذبا ولا موقف خسة . ومع ذلك فإنه بمجرد ما دعاهم لاتباع الدين الذي يرضاه الله لهم، سارعوا بتكذيبه ورفض ما يدعو إليه. فأهلكهم الله بالعذاب، في الوقت الذي هم فيه مقيمون على ظلمهم.

إن هذا المثل ينطبق تمام الانطباق على أهل مكة دون أن تكون قاصرا عليهم، ففيه لذلك أشد التحذير لهم من مواصلة الإعراض عن الاستجابة للإسلام، وأن مصيرهم إذا لم يتوبوا ويقلعوا عن عنادهم، هو مصير أهل تلكم القرية.

114-فكلوا مما رزقكم الله حلالا....إياه تعبدون .

بعد أن تابع القرآن مراحل القرية المنعمة التي من الله عليها فيما من به الأمن الغذائي، وأنها انتهت إلى الكفر بنعم الله وحل عليها العقاب. أتبع ذلك بالتأكيد على أن التنعم بما يتفضل به الله من الخيرات مأذون فيه بشرط أن يكون حلالا في ذاته

وكسبه، وأدمج في التوجيه أن لا يكون مستقذرا بقوله (طيبا) وكان هذا الإذن مدخلا للمقصود من الآية، فأمر المنتفعين بما يتفضل الله به عليهم من الحلال الطيب أن لا يغفلوا عن شكر الله على نعمه . وأول مراحل الشكر الاعتراف للمنعم بفضله على ما يسره ومكن منه، وحرض على الشكر بأنه من موجبات العبادة الحق لله، وأنه مقترن بها، ومن يغفل عن شكر ربه فهو غافل عن حقوق المعبود على العابد. قال تعالى: وسنجزي الشاكرين[1] –

115-إنما حرم عليكم الميتة ...فإن الله غفور رحيم .

هذه الآية شديدة الاتصال بالآية التي قبلها. إذ كانت الآية سابقة تتضمن إذنا من الله تعالى في أكل الحلال الطيب، ولما كان الحلال هو القاعدة فيما رزقنا الله، حصرت هذه الآية المحرمات، ليبقى ما سواها في نطاق الحلال على سعته.

المذكور في هذه الآية من المحرمات نوعان: ما كان تحريمه لأنه خبيث مضر للإنسان بخلقته؛ الميتة وهي ما مات من الحيوان البري الذي له نفس سائلة (ترتبط حياته بالدورة الدموية) وذهبت حياته بغير تذكية. وكذلك الدم الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه أو يخرج منه أومن الإنسان إثر الجراحة . ولحم الخنزير وعظامه وغضاريفه وجلده. وقد قدمنا تفصيلا أوفى . انظر الآية 173 سورة البقرة والآية 4/3 من سورة المائدة– والنوع الثاني ما كان تحريمه بسب التوسل به لغير الله. وقد قدمنا أيضا في سورة المائدة ما يتعلق بخبث تناول هذا النوع من اللحوم.

ونذكر بأن هذه السورة مكية، وأن الاقتصار على هذه المحرمات معناه أن لا يوجد محرم غيرها عند نزول الآية، والتشريع الإسلامي يرتقي بالمسلمين من مرتبة إلى مرتبة أسمى منها. فإذا أبقى ما عدا المذكور في هذه الآية على الإباحة الأصلية، فإنه يتمم بقية المحرمات في الوقت المقدر لتحريمها وعندها ترتفع الحلية. فاحتجاج بعض الفسقة أن الخمر ليس محرما بناء على أنه لم يذكر تحريمه في الآية ضلال وفسق ينتهي بصاحبه إلى الكفر لأنه يحل ما ورد تحريمه في نصوص أخرى؛ فكان مسلكه مسلك اليهود الذين قال الله فيهم : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون)[2] .

---

[1] سورة آل عمران آية 145

[2] سورة البقرة آية84

وعقب الآية بتقرير التيسير في الإسلام على الإنسان الذي كان في ظروف حرجة جدا: إما أن يأكل من المحرمات ما يبقي به على حياته، وإما أن يموت جوعا، فرخص له القرآن أن يبقي على حياته، وأن تناوله من المحرم لا يترتب منه عليه إثم . وقد قدمنا في سورة البقرة والأنعام تفصيل المراد من قوله تعالى غير باغ ولا عاد، في المرجع المذكور أعلاه مما يغني عن إعادته.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لما تصف ألسنتكم : عن الذي تذكرونه مفصلا بألسنتكم.

لا يفلحون : لا يبلغون آمالهم.

بجهالة : ملتبسا بعدم علم، أو بالتحدي وركوب الرأس .

بيان المعنى الإجمالي :

نهى الله المشركين أولا ويسري النهي لجميع الناس بعدهم، أن يحكموا بحرمة أو تحليل مأكول أو مشروب، وأن يعبروا عن ذلك بأقوال لا تستند لحقيقة، وإنما هو اختلاق. إن الذين يفترون تلكم الأحكام ويروجونها مآلهم الخسران. ولا يغرنكم ما تمكنوا منه من خير فإن ذلك هو نفع زائل غير ثابت، خصهم الله بعذاب أليم .

ولا يصح الاستناد في التحريم على شريعة موسى لبني إسرائيل مما ذكر القرآن أن الله حرمه عليهم. لأن ذلك التشديد القصد منه تربيتهم لتلين قلوبهم بعد قسوتها، فهم الذين ظلموا أنفسهم بتمردهم على نبيهم فشدد الله عليهم، وما ظلمهم الله.

ويخاطب الله نبيه مخاطبة الإيناس إظهارا لفضله على البشرية فيعلمه : أن الذين عملوا عملا سيئا من قول أو فعل، وكانوا عند اقترافهم للإثم جاهلين لم يعلموا أو متحدين مستكبرين، ثم استيقظوا بما أتاهم عن طريق، فأصلحوا أنفسهم وأصلحوا أعمالهم وتابوا راجعين إلى الله، فإن الله الكريم يتفضل عليهم أولا بستر ذنوبهم كأنها لم تصدر عنهم، ويرحمهم بفضله ثانيا بما يغدق عليهم من خيرات .

بيان المعنى العام :

116-117-ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ...ولهم عذاب أليم .

لما حددت الآية السابقة ما حرمه الله، ويفهم من ذلك أنها أبقت سوى ما نصت عليه على حكم الأصل، وهو جواز الأكل منه ؛ جاءت هذه الآية موضحة لهذا المفهوم مبينة حكم التعدي بتغيير الحكم الذي حكم الله به .

فنهى سبحانه كل إنسان أن يغير ما حكم الله بتحريمه فيحله، أو ما حكم بحليته فيحرمه، ذلك أن الحكم على الأشياء هو من خصائص الخالق، فهو الذي خلق وهو الذي يبيح ما يشاء ويحرم ما يشاء تبعا للحكمة التابعة للعلم المحيط بالماضي والحاضر والمستقبل .ولما كان علم الإنسان قاصرا لا يبلغ إدراك جميع الجوانب التي يعتمدها ليكون حكمه صالحا وصحيحا ومؤثرا، حُرِمَ عليه تغيير ما حكم الله به. وليس النهي منصبا على الأكل، ولكنه على إعطاء حكم موهوم للأكل، مفصح عنه بتوضيح وبالغ بيان، كأن المتكلم به يصفه وصفا يخيل لمن توجه إليه أنه حقيقة، ولكنه وصف كاذب، فقوله تعالى:" الكذب" مُسَاوٍ : لتصف ألسنتكم. ولا تقولوا قولا منمقا هو كذب، عن أي شيء يمكن تناوله بالأكل أو الشرب، هذا حلال أو هذا حرام. لأن الوصف بالحلية أو الحرمة هو لله وليس لأحد غيره، فمن تجاوز قدره وحلل أو حرم بقوله قد حصل منه الكذب على الله. ويؤكد القرآن أن مآل هؤلاء الكذبة المفترين :الخسران، لا يفلحون . ولا تعجب من نجاح بعضهم فإنما هو نفع قليل أمد الانتفاع به، سيزول عن قريب، وقد اختصوا بعذاب أليم .

118- وعلى الذين هادوا حرمنا....كانوا أنفسهم يظلمون .

نفت الآية صحة اعتماد التحريم على ما هو محرم على اليهود واتباع الأحكام التي خصوا بها . فقد حرمنا على بني إسرائيل ما ذكر في سورة الأنعام في قوله تعالى: وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر.....[1] – فما حرمناه عليهم ليس من سنة إبراهيم، ولا من الأحكام التي أردنا أن يكون معمولا بها أبد الدهر. ولكن كان تأديبا لهم، فأردنا تقويمهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وتمردهم على التوراة وعلى نبيهم موسى عليه السلام . والله لا يظلم أحدا، فهو الذي يعلم انحراف البشر وما هو أفضل ليعودوا إلى الصراط المستقيم. ولذا كان من مهام المسيح عليه السلام أن يخفف على بني إسرائيل بعض الأحكام التي شددت عليهم لتلين قلوبهم بعد قسوتها.

---

[1] سورة الأنعام آية 146

119-ثم إن ربك للذين عملوا...من بعدها لغفور رحيم .

لقد شددت الآيتان -118/117-التحذير من القول على الله بغير علم في التحليل والتحريم، وأبرزت صورة من معاملة اليهود المتمردين معاملة شديدة تكسر عنادهم، وشأن القرآن أنه يصحب التحذير بالترغيب، والشدة بالتيسير، بل يؤكد في التيسير ليجلب الناس إلى الخير ويحولهم عن الفساد إلى الصلاح . وهنا يلين الخطاب فيأتي بكلمة الرب، بما توحي به من العناية والألطاف، ويسندها إلى النبي ﷺ إبرازا لإكرامه وأنه سبب الخير للناس، إذ كان عِلْمُهُمْ قبل بعثته بالحلال والحرام غير مستند إلى أصل، كما أن تركيبهم النفسي فيه كثير من التحدي وعدم الانصياع للحق ؛ فألان الله من غلظ تلكم الطباع، وقرر ما هو دين يرضى الله عنه، فأزال عنهم الجهل بمعنى عدم المعرفة، وأزال عنهم الجهل بمعنى الجهالة؛ ثم إن الذين عملوا ما هو سيء من قول أو من فعل، عن جهل أو عن جهالة، ثم أعقب ذلك بتيقظه لسوء فعله، وعدم رضاه به، وأصلح سلوكه في المستقبل، وسار في طريق الخير وتنكب طريق الشر، تؤكد الآية تأكيدا بالغا: إن ربك يا محمد بعد ذلك التحول من الضلال إلى الهدى غفور للذنوب السالفة، ينزل رحمته العظيمة عليهم فيسعدهم بحسن المآل .

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أمة : كمالاته كثيرة كأن جمع منها ما تفرق في أمة .

قانت : مطيع.

حنيف : مائل عن الباطل إلى الحق.

أنعمه : نعمه.

اجتباه : اختاره.

بيان المعنى الإجمالي :

أثنى الله على إبراهيم ثناء يبطل كل ما ألصقه المشركون به. أثبت أنه كان جامعا لأوصاف النبل والفضل فكأنه ضم ما تفرق في أمة، مقدما لطاعة ربه خاضعا له، مائلا عن الطرق الضالة التي كانت عليها البشرية في عهده منفردا عنهم، ما تلوث بالشرك، ومبعدا كل صلة له بالمشركين. كان يذكر نعم ربه عليه ويثني الثناء الذي يستحقه واهبها. كل ذلك يشهد على أن الله تخيره من بين البشر في زمنه. حفت به ألطافه فهداه إلى الصراط المستقيم المبلغ للغايات الشريفة الحق من أقرب طريق. وجازاه ربه بأن يسر له الحياة الطيبة الآمنة في الدنيا وبارك له فيها، وهو في الآخرة في الزمرة الممتازة من عباد الله الصالحين.

بيان المعنى العام :

120←122 : إن إبراهيم كان أمة ....وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

كان المشركون بمكة يدّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، ونسبوا ما صَوّرَتْه خيالاتهم وأوهامهم الدينية إليه. وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة صورة إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام، كما نسبوا بعض ما حرموه إليه عليه السلام. فَلِيَتضح الأمر اتضاحا كاملا بين القرآن ما حرمه على اليهود وأن ما حرمه عليهم لا يسري على من بعدهم، وأن عيسى عليه السلام خفف كثيرا مما شدد الله به عليهم ؛ وإذ انتفى الاقتداء باليهود فيما حلل وحرم، فكذلك تَحَتّمَ نفي ما نسبوه إلى إبراهيم عليه السلام. فعرض القرآن ما يتميز به إبراهيم وأن سنته عليه السلام إنما أقامها محمد ﷺ.

وصفت الآيات وأثنت على إبراهيم :

أولا: إن إبراهيم كان أمة، وأصل الأمة الجماعة الكثيرة من الناس التي تجمعها رابطة، والمقصود أنه كان جامعا لكمالات كثيرة، فيصدق من يصفه أنه جمع ما تفرق في أمة كاملة من الفضل والخير والفتوة . كما تقول رجل كألف. كما أن جهاده لتقرير التوحيد وثباته رغم ما لاقاه من المشركين من إذاية وتألبهم عليه كان بمثابة جهود أمة كاملة .

ثانيا : قانتا مطيعا لربه خاضعا له . فليس إبراهيم هو الذي صوره المشركون على صورة من يستقسم بالأزلام، ولكن حضوره مع ربه كان حضورا ملازما له، يربط كل فعل وحركة وكل جسم وكل ما هو مبثوث في الكون بالله.

ثالثا: حنيفا أي منحرفا عن كل المذاهب التي تاهت وضلت في عقيدتها. فالآية تكذب المشركين في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم.

رابعا: وتأكيدا لكذبهم في دعواهم لصلتهم بإبراهيم صرح القرآن بأنه عليه السلام لم يكن بينه وبين المشركين أي صلة، وذلك أبلغ من: لم يكن مشركا.

خامسا: شاكرا؛ مدركا فضل الله مثنيا عليه، لا يحجب عن بريق ذهنه تواصل النعم، رغم أن النعم إذا ما تتابعت خف الشعور بها. أما إبراهيم فإن صلته القوية بالله جعلته يقظا لأنعم الله عليه يواصل شكره وثناءه.

إن تجمع تلكم المزايا كان شاهدا على أن الله قد اختاره فوفر فيه ما تفرق في غيره من معالي الأمور، والله أعلم حيث يجعل رسالاته. وفوق ذلك أحل الله الهداية في قلبه فأسرع إلى التوحيد، وسلك الطريق الذي يرضى الله عن سالكها فلم يحد عنه.

وأتبع ذلكم الثناء ببيان ما أغدق الله على رسوله إبراهيم من حسن الجزاء، فقال تعالى: لقد آتيناه في لطف ويسر الحسنة في الدنيا بما يشمل طمأنينة القلب وكفاية الرزق، وصلاح الذرية، وجمال الذكر، وتعلق الناس بالقرب منه على أنه مثال الخير والتقوى والفضل . وهو في الآخرة منضم إلى زمرة الصالحين المقربين من الله، وأجاب دعاءه الوارد في سورة الشعراء (**رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين**) [1].

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

اتبع : أصل الاتباع في السير على خطى السابق، والمقصود بها العمل على النهج والطريقة التي سار عليها إبراهيم.

الملة : الطريقة العقدية .

بيان المعنى الإجمالي :

مزية هي أعظم من المزايا السابقة لإبراهيم أن أوحى الله لمحمد ﷺ الحقائق التي أحيت صفاء العقيدة الإبراهيمية والمنهج الذي سار عليه في الاحتجاج على الوحدانية لله. فإن العقيدة التي كان يدعو إليها إبراهيم كانت سائرة على نهج مخالف لجميع المناهج المعروفة في عصره (**حنيفا**) وهو أبعد ما يكون عن الشرك فلم يخالط الشرك قلبه ولا دعوته من يوم عقل إلى أن توفاه الله.

---

[1] سورة الشعراء الآية 83

بيان المعنى العام :

123-ثم أوحينا أليك أن اتبع ملة...وما كان من المشركين .

كلمة ثم، أصلها أنها تعطف لاحقا على سابق متراخيا عنه، تقول جاء محمد ثم صالح، فيفيد العطف بكلمة ثم أن مجيء صالح كان بعد مدة زمنية من مجيء محمد. وقد تكون للتفاوت في الرتبة فتدل على أن ما عطف بها هو أعلى مرتبة. وبناء على ذلك فقوله تعالى ثم أوحينا إليك يقتضي أن فوق المزايا التي ذكرت في الآيات السابقة، والتي خص الله بها إبراهيم: أن أوحيت لك يا محمد التشريع الذي يقوم في أصوله على ما يوافق أصول ملة إبراهيم. فيكون إحياء ملة إبراهيم إحياء يمضي مع الزمن دون أن تفسده شبهات أو تحريف، لم يتحقق إلا في الإسلام الذي حُمّلت نشره في العالمين، وهذه مزية لإبراهيم فوق المزايا التي سبقت إذ كان الذي خلص ملته مما اختلط بها عبر الأزمان، وصفاها تصفية لا يلحقها بعد ذلك أي خلط، هو محمد بما أوحى الله إليه. وليس معنى ذلك أن التشريع الذي أوحى الله لإبراهيم هو عين التشريع الإسلامي، ذلك أن تشريع الإسلام هو التشريع الذي ارتضاه للبشرية من عهد محمد إلى قيام الساعة. ولكن الاتفاق هو في ناحية العقيدة التي انحرفت من بعد عهد إبراهيم، فاليهود حرفوا التوراة تحريفا وصل بهم إلى أن جسموا الله تجسيما قربه من البشر، والنصارى حرفوا الإنجيل وجعلوا الله أبا. فأوحي الله لنبيه محمد أن يعلن في العالم التوحيد صافيا كما أعلنه إبراهيم من قبل وأن يؤيده بالأدلة والبراهين تأييدا ينفي كل شرك لله . وأكد ذلك بقوله: وما كان من المشركين، بما يقتضيه من نفي أي صلة في تصور مفهوم الألوهية بين إبراهيم وبين اليهود والنصارى والعرب، فقد لصق بكل واحد منهم لوثة من الشرك.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

السبت : يوم السبت .

اختلفوا فيه : في الطريقة التطبيقية لاحترامه.

بيان المعنى الإجمالي :

ادعى اليهود أن تقديس السبت من الثوابت العقدية التي كان عليها إبراهيم. فرد القرآن زعمهم هذا بأن تقديس السبت فرض على اليهود الذين اختلفوا في ما يجب

لتقديسه. وبقي الأمر مشتبها عليهم .وسيكشف الله لهم الحقيقة يوم القيامة لترتفع الأوهام وينجلي الحق .

بيان المعنى العام :

124-إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه...كانوا فيه يختلفون .

تحقيقا لما تضمنته الآية السابقة: أن أعظم مزايا إبراهيم عليه السلام هو وحي الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يكون متبعا لصافي العقيدة التي دعا إبراهيم عليه السلام البشر إليها. وجاءت هذه الآية ترد مزاعم كان اليهود يشغبون بها على المسلمين، بيان ذلك :أن اليهود يزعمون أنهم ورثة الشريعة الإبراهيمية، وأن من القضايا الأساسية التي جاء بها تعظيم السبت، وهم ما يزالون ثابتين عليه إلى اليوم، ويقولون :لو كان محمد وارثا لدين إبراهيم لعظم السبت كما يعظمونه . فكان الرد عليهم بهذه الآية :إن تعظيم السبت لم يكن من شريعة إبراهيم، وما كان دعامة من دعائم العقيدة، وإنما جعله الله على بني إسرائيل الذين اختلفوا في تطبيق تقديسه، إذ كان منهم من استعمل الحيل لينتفع بحاصل ما يأتيه يوم السبت مما أعد له يوم الجمعة، ومنهم من نهى عن التحيل، ومنهم من اعترض على النهي عن هذا المنكر. واختلف أهل القرية في وعظ هؤلاء المتحيلين، حتى انتهوا إلى نسيان ما ذكروا به كما فصل ذلك في سورة الأعراف 166/163- فتقديس السبت فرض على اليهود واختلفوا في الطريقة العملية في تقديسه، وليس من شريعة إبراهيم في شيء، وليس تقديسه من ثوابت العقيدة كما يدعيه يهود. وتكون الآية متصلة بسابقتها وبالآية 118- ثم إنه سيكشف الله يوم القيامة الحقيقة التي اختلفوا فيها، إذ في ذلك اليوم ترتفع الشبه وينجلي الحق غير مختلط بالأوهام والظنون الكاذبة.

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبيل الله : كل عمل من شأنه أن يوصل إلى رضا الله، وهو دين الإسلام.

الحكمة : المعرفة الصواب، الذي لا يشوبه خطأ.

الموعظة الحسنة: القول اللين الذي يخاطب المشاعر فيساعدها على عمل الخير.

المجادلة : عرض الحجة ليثبت الرأي ويسقط رأي المخالف.

المعاقبة : الجزاء على فعل السوء بما يردع المسيء.

الضيق : الجزع والكدر .

بيان المعنى الإجمالي :

هدت الآية للمنهج في الدعوة المحقق لنجاح الداعي في نشر الإسلام وإقامة الناس على طريق الصلاح. فأمر الرسول ﷺ وأمر المسلمين أن يكون القصد الأول للداعي هو الهداية للطريق المستقيم، وأن لا يراعي حظ نفسه ولا حظ قومه، وإنما يخلص قصده لسيادة السبيل الموصل لمرضاة الله. فيعتمد الحكمة المبنية على العلم، ومراعاة حال المدعو والطريقة الأمثل للتأثير فيه، ويعتمد الموعظة التي ترقق القلوب وتحرك الروح، وإن حصل جدال فليلتزم الجدال بالتي هي أحسن، فإن الغلظة تفصل بينهما وتثير إصرار الطرف المقابل على ما هو عليه. وعلى الداعي أن لا ييأس وليواصل هدايته للخير، فإن العاقبة لا يعلمها إلا الله، فعسى أن ينتهي المدعو بعد رفضه الأول إلى اتباع الطريق المستقيم .

وإن أوذيتم فترجح لديكم أن الخير في ردع المعتدي بمعاقبته، فتحروا أن لا تبلغوا بالعقوبة أكثر مما عوقبتم به . والصبر خير إن كان مآله افضل عاقبة

وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه أن الله ثبت قلبه وقواه بعون منه فقدرته على التحمل تفوق الطاقة البشرية. وسكب في قلبه الأمن والتفاؤل فلا يحزن عليهم إذا هم مردوا على العناد والكفر وتدبير المكائد له .

وقوى المؤمنين الداعين للإسلام بأن الله ناصر ومؤيد للذين تمكنت التقوى من قلوبهم، وثبت الإحسان في فعالهم وعزائمهم وقلوبهم.

بيان المعنى العام :

125- أدع إلى سبيل ربك بالحكمة....وهو أعلم بالمهتدين .

ترتبط هذه الآية بمطلع السورة التي افتتحت بأن ما قدره الله من نصره دينه حاصل لا ريب فيه، يحققه سبحانه في أجله فلا تستعجلوه . ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهمة كل مسلم قادر على تبيين الهدى لغيره أن يسير في الدعوة إلى الحق على هذا المنهج الذي حددته الآية .

يتوجه الخطاب في البداية إلى رسول الله ﷺ إذ هو الداعي الأول للإسلام. وينسحب على المؤمنين الذين لهم من العلم ما يستطيعون معه نشر دين الله في آفاق الكون. فلنتتبع هذا المنهج كما فصلته الآية :

أولا : أن يكون القصد من الدعوة هداية المدعوين إلى الطريق الذي يرضي الله، (**ادع إلى سبيل ربك**) وهو دين الإسلام. لاحَظّ لشخص الداعي ولا لقومه فيما يقوم به، تذوب شخصية الداعي لتسمو إلى أفق رفيع هو لسان الحق يؤثر في البشر فيهديهم ويُكَوّن معهم صلة الأخوة في الدين .

ثانيا : اعتماد الحكمة فتكون الحكمة ملابسة للداعي، فلا يدعو إلا بما يتقين أنه حق لا لبس فيه ولا شك، يراعي إصلاح حال المخاطب واعتقاده إصلاحا مستمرا.

ثالثا: بالموعظة الحسنة في مقامات الموعظة . والموعظة هي الطريقة التي يعتمد فيها الواعظ تليين القلوب وتحريك المشاعر، اللطف سبيلها، والتأثير الصالح هدفها، وتقريب الموعوظ من الواعظ مسلكها. وإتباع الحكمة بالموعظة الحسنة فيه إرشاد إلى أن الوعظ ليس نمطا واحدا، ولكن الواعظ الناجح هو الذي يعمل على معرفة من يقصد إصلاحه أولاً، والنفوس مختلفة فيما تتأثر به، فليعمل الواعظ على أن تكون موعظته مناسبة للتركيب النفسي للشخص الذي يعظه. وبصفة عامة ترقيق القلوب واللين في الخطاب، والبعد عما يجرح وعن المواجهة بما يكره، هي قواسم مشتركة تهدي للموعظة الحسنة .

رابعا: المجادلة بالطريقة التي هي أحسن، فإذا كان الغرض من إقامة الحجة يتحقق بطريق حسن وهناك طريق أحسن فالداعي مطالب بأن يسلك الطريق الأحسن من غيره. إن المجادلة تعني أن يبرز الداعي شبه الطرف المقابل ليبطل حجته ويظهر تهافتها، وقد يصرح بقوله مثلا أخطأت، وكلامك متناقض، وينفي ما تقول كذا وكذا، ونحو ذلك مما يثير الطرف المقابل ويحمله على الرد بكل وسيلة دفاعا عن ذاته . ويتحول الأمر من الاستدلال بما يحكم به العقل إلى التمسك بإثبات الذات، ومن الموضوعية إلى الشخصية . وهو ما يضيع على الداعي الهدف الذي يجادل من أجله . وكذلك ما يصحب المجادلة من رفع الصوت، فتحكم الداعي في صوته يجلب الخصم إلى الإذعان للحق. ورفع الصوت يثيره ويضيع الحق في الجلبة. وليس معنى ما قدمناه أن يجمع الداعي بين الطرق الثلاثة الأخيرة في كل مقام، بل الرشد أن يعتمد في كل موقع ما يناسبه، جاعلا قصده أن يعلي الحق لا أن يظهر قدرته.

وصدر الآية يقتضي الأمر بالدعوة إلى الإسلام، وخاتمتها تقتضي مواصلة الدعوة وعدم اليأس. فالداعي مطالب بأن يواصل الهداية إلى الإسلام وإلى السلوك الصالح، وإعراض المدعو في أول الأمر لا يعتبر مبررا للتوقف عن القيام بواجب التذكير والتنبيه والدعوة، ذلك أن العاقبة مجهولة لا يعلمها إلا الله، والوقت الذي تنفتح فيه الروح للهداية وللسلوك الراشد غير معلوم فالله هو وحده العليم بمن يلازم الضلال عن سبيله، ومن سيهتدي إليه .ولما كان العلم المستند إلى القرائن ليس علما يقنيا وصف الله بأنه أكمل علما لأن علمه علم ثابت لا يتغير، والحاصل الذهني لغيره علم قد يثبت وقد لا يثبت .

126-وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ....لهو خير للصابرين .

موقف المسلم من المخالفين له في الدين هو ما فصلته الآية السابقة من الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. ولكن بعضا من المخالفين قد تحملهم العنجهية على استعمال العنف ومحاولة إخضاع المسلم لإرادتهم الخبيثة فيعتدون، والعنف المادي يصحبه غالبا قصد إذلال وسحق للشخصية، والمؤمن عزيز فيأذن له ربه إما، أن يرد الاعتداء بالمثل ولا يفرط في العقاب عند القدرة، ولا يتجاوز فينقلب معتديا . كما يرشده إلى الصبر على الأذى إذا كان يعلم أن صبره سيترتب عليه ما هو خير وأفضل عائدة. كما جاء في قوله تعالى (**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**)[1] - والمعول عليه في التفضيل بين رد الاعتداء بمثله أو الصبر والتجاوز، النظر في المآلات فإذا علم المعتدى عليه أن رد الاعتداء بمثله هو الطريق الأمثل لإيقاف الاعتداء، وتثبيت المهابة فليفعل، وإن ترجح عنده أن الصبر ينتهي إلى تأليف القلوب ولا يفهمه المعتدي على أنه ضعف وخوف فليصبر والصبر يكون خيرا .

127- واصبر وما صبرك إلا بالله ....في ضيق مما يمكرون .

الآية السابقة كما قدمناه تتناول النبي ﷺ وتنسحب على كل من تصدر للدعوة. سواء فيما يخص المنهج أو رد الفعل. وهذه الآية تخص النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كانت حياته تمثل الدعوة إلى الله. ولذا فإن ما لقيه النبي ﷺ من الأذى المعنوي والمادي من قومه كان على وزان المهمة التي كلف بها، ولم يتحملها غيره. وقد ذكر القرآن، كما فصلت كتب السيرة قوة شخصيته ﷺ ومواصلته للدعوة، ومثابرته

---

[1] سورة فصلت آية 34

على إبلاغ ما أوحي إليه ؛ بالرغم من عناد قريش وتفننهم في إذايته . إن المهمة مهمة ثقيلة لو لم يؤيد بتوفيق من الله، وتقوية لعزمه، وما ركزه في قلبه من يقين بأن كل ما يلقاه في سبيل نشر الإسلام وتركيز التوحيد يهون عليه كل ذلك، وأن مهمته أعظم وأنبل من أن يؤثر فيها المشركون بوقاحتهم وصلفهم وكبريائهم . إنه الصبر الذي أفرغه الله في قلبه، فكلما ضاعفت قريش من إذايتها زاده ذلك تصميما وصلابة وقوة . إنه يجد في نفسه الشريفة مدد هذا التأييد فأكد له القرآن ذلك بقوله: (وما صبرك إلا بالله) بعون من الله. وكان هذا التأييد الذي يحس به ضاعف إحساسه وحبه لدخول المدعوين كلهم في دين الله، وكان يأسف شديد الأسف إذا تغلب العناد على ما يبشر به من حق، فسلاه ربه ودعاه أن لا يبلغ به التأثر على كفر من كفر مبلغ الحزن المقيم، وأن لا يجزع ولا يتكدر بسبب ما يطلع عليه من مخططاتهم التي يُعِدُّونها لتعطيل ما حققه من نجاح في الدعوة إلى الله ، المعبر عنه ولا تك في ضيق مما يمكرون . على معنى أن عليه مواصلة الدعوة بقوة وأن الهداية في النهاية مرتبطة بألطاف هي من حكمة القدر الإلهي.

128-إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

تنعطف هذه الآية على ما سبقها تؤكده وتثبته، وتسكب في قلوب الدعاة، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ، الثقة بالنصر والتأكد من أن العاقبة لهم. ذلك أن الله ينصر ويؤيد الذين تحقق منهم تقوى الله، وكانوا ملتزمين بالإحسان في سلوكهم وضمائرهم .

أكملت بحمد الله وحسن عونه وجميل توفيقه ما فتحه علي بمنه وفضله في بيان سورة النحل هذه. أسأله في ضراعة أن يوفقني لإكمال بيان ما يشرح له قلبي من فهم لآيات كتابه - وذلك يوم الثلاثاء 20 صفر الخير 1433- 2011/12/27.

ســـورة الإســراء

لهذه السورة أسماء – كتبت سورة "الإسراء" في المصاحف، واشتق لها هذا الاسم من افتتاحها بذكر إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي لم يذكر في غيرها من سور القرآن. كما سميت بسورة "بني إسرائيل" إذ ذكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرها. وسميت أيضا بسورة "سبحان " لافتتاح السورة بذلك. هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف. وعدت حسب ترتيب النزول السورة" الخمسين ". نزلت بعد سورة القصص وقبل سورة يونس. وهي من السور المكية عند الجمهور. واستثنى بعضهم آيات نتعرض لها عند شرحها إن شاء الله تعالى .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبحان: أصل سبحان أن تكون للدلالة على التنزيه من النقائص.

أسرى : سار في الليل.

بعبده : بمحمد ﷺ.

باركنا : البركة نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة.

حوله: تفيد سعة بركته إذ تتعدى المسجد إلى ما يحيط به.

بيان المعنى الإجمالي :

تنزه الله أن يعترض قدرته معوّق، فهو الفاعل لما يشاء. وقد شاء أن يحيط محمدا بألطافه فيحقق له السرى في جزء قليل من الليل ليصل من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بأرض فلسطين ثم يعود إلى فراشه قبل أن يبرد. وعبر عن محمد بعبده فأضافه لنفسه تشريفا له.

وفي جمعه في وقت قليل من الليل، بين المكان الذي انطلقت منه الدعوة إلى التوحيد على لسان إبراهيم وإسماعيل، وبين المكان الذي تجددت فيه الدعوة

للتوحيد وعميت على الناس بعدهم، ثم العـودة إلـى المنطلـق الأول مـا يشـير إلـى أن الله جمع لمحمد الكمالات التي تفرقـت فـي غيـره والتـي مكنـه مـن تثبيتهـا تثبيتـا لا يلحقها بعده اختلاط. فقد صاحبته عنايـة الله وألطافـه فـي هـذه الرحلـة الليليـة ليطلعـه على مغيبات تجمع بين كونها أدلة وبراهين علـى صـدقه، كإخبـاره عـن قافلـة قـريش ووقت بلوغها مكة، ووصف بيت المقـدس لقـريش فلـم يجـدوا فـي وصـفه أي خلـل، وإمامته المرسلين في بيت المقدس، وما كشف له مـن أحـوال يـوم القيامـة .وفرضـه الصلاة عليه في السماء خمسين صلاة، ثم اسـتجابة الله سـؤاله التخفيـف فكانـت خمـس صلوات في اليوم، يتضاعف ثوابها عشر مرات فتساوي الخمسين المفروضة أولا.

بيان المعنى العام :

1-سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ... هو السميع البصير.

افتتحت السورة بقوله تعالى : "سبحان" والشأن أن يـرد لفـظ التسـبيح لرفـع التبـاس أو وهْمٍ يتعلق القصد بنفيه كقول الملائكة في سـورة البقـرة: (سـبحانك لا علـم لنـا إلا مـا علمتنا)[1] – لنفي ما في إجابتهم السابقة أتجعل فيها مـن يفسـد فيهـا مـن التعجُّـل فـي الحكم على خلق آدم .وكقوله تعالى: (وقـالوا اتخـذ الله ولـدا سـبحانه)[2] إبطـال اتخـاذ الولد لمنافاته للتنزيه . أما افتتاح السورة بـ" سبحان" فنبينه فيما يلي:

أولا: قال سيبويه: سبحان، علم على التنزيه: أي إنـه كثـر اسـتعماله فـي الدلالـة علـى التنزيه حتى تفرد بالدلالة على ذلك المعنـى شـأنه شـأن الأعـلام كمحمـد وصـالح ولا يلحقه التنوين لاجتماع الألف والنـون فـي آخـره مـع العلميـة . فافتتحـت الآيـة ب " سبحان " دون أن يتقدم ما يقصد نفيه.

ثانيا: لما لم يتقدم لفظ "سبحان" شيء فقد خرجـه فـي التحريـر والتنـوير علـى أنـه للتعجيب من خبر الإسراء .

ثالثا: إن الذي ترجح عندي : أن الإعـلان بالإسـراء وإشـاعته فـي المجتمـع القرشـي يوم وقوعه، ثم إثباته قرآنا يتلى ليستقر في العقـل البشـري، كـان وسـيبقى للنـاس منـه موقفان :

أحدهما: الرفض له على أنه من المستحيل أن ينتقـل الإنسـان فـي لحظـات مـن الليـل من المسجد الحرام إلى فلسطين ثم يعـود مـن حيـث خـرج. والاشـتباه الـذي جعلهـم يسرعون بالرفض هو الخلط بين المستحيل عقـلا والمسـتحيل عـادة. إن العقـل لا يمنـع

---

[1] سورة البقرة آية32

[2] سورة البقرة آية116

انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بسرعة تتجاوز سرعة الضوء. ولكن الذي يمنع من ذلك هي القوانين العادية التي يظهر في الحياة تمكُّنُ الإنسان من التغلب على بعضها بقوانين أخرى. خذ لذلك مثلا رؤية ما وراء الحواجز الكثيفة والكثيرة والمسافات البعيدة، وسماع الأصوات الصادرة عنها . كان ذلك مستحيلا عادة وأصبح اليوم واقعا في أجهزة التلفاز، والسكايب .و سينبئنا العلم مستقبلا عن أمور هي الآن من فروض الخيال . ولكن العلم لا يأتي بما يناقض العقل ويقلب المستحيل عقلًا جائزا، وإلا لَفَقَدَ ذاتَهُ. إن أولئك الذين وقفوا من الإسراء موقف الرفض، عجَّل لهم القرآن في مفتتح السورة بتنزيه الله سبحانه عن العجز، أو أن تكون قدرته محدودة بما تعارف عليه الناس، ليكون هذا المفهوم هو المنطلق للنظر فيما يأتي بعد مما أكرم به نبيه . وعندي أيضا في قدرة انطلاق الفكر من حدود الزمان والمكان الضيقة ما يفتح له تصور الإسراء. تجد أحدنا وهو في بيته يتابع عرضا لوقائع بعيدة عنه في الزمان والمكان من كتاب في التاريخ، ومع ذلك هو يستطيع أن يعيش مع تلكم الأحداث كأنه يراها بمقدار ما وُفِّق الكاتب في حسن العرض. فانطلاقة العقل إلى الأبعاد الفسيحة زمانا ومكانا يرينا إمكان انتقال الإنسان متى توفرت المساعدات.

ثانيهما: أن المؤمنين زادهم خبر الإسراء إيمانا بصدق رسول الله. ذلك أن النبي ﷺ، لما أراد الخروج من بيت أم هانئ إلى المجتمع القرشي ليخبرهم، مسكته أم هانئ من طرف ثوبه متوسلة أن لا يخبر قريشا فيتخذوا ما يحدث به مطعنا في نبوته ؛ وذلك ما تم فعلا فإنه بمجرد ما دخل جلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هَلُمّ! فحدثهم فمن بين مصدق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك: لقد صدق. قالوا أتصدقه على ذلك ؟ فقال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق رضي الله تعالى عنه[1]. وهذا من فيض النور الذي غمر روح أبي بكر. فإن قطع المسافة بين المسجد الحرام وفلسطين أقل قيمة بكثير من تلقي الوحي عن الله، فتلقي الإنسان الوحي عن الله أعظم درجة، وأبعد منالا، ولم يتَأتَّ لأحد بعد رسول الله ﷺ . أما قطع تلك المسافة في جزء من الليل فقد أصبح اليوم واقعا . فيكون الافتتاح بكلمة "سبحان"

---

[1] البحر المحيط ج5ص9

تعبر عما مكنته حادثة الإسراء من نصاعة إيمان المؤمنين الصادقين. وتنزيه الله من أن يحول بينه وبين تنفيذ إرادته أي معوق من المعوقات التي تحول بين البشر وتحقيق ما يريدونه.

وأضيف "سبحان" إلى اسم الموصول وصلته سبحان الذي أسرى دون " الله" فلم يقل "سبحان الله " للتعجيل بموجب التنزيه.

والذي أسرى مساوية لسرى، وزان ذهب به ليلا، وأسرى أعمق دلالة على العناية الربانية، فإنه لو قيل سرى عبدُه فإنه يفوت ما يدل عليه التعبير القرآني" بعبده"، من أن سراه عليه السلام صحبتْه فيها ألطاف الله ورعايته. ومن أكرم ما يدل على ذلك إضافة الرسول ﷺ إلى نفسه إضافة تشريف[بعبده].

والسرى لا يطلق إلا على السفر ليلا، فيكون التصريح بقوله " ليلا" منكرا يفيد أنه وقع في جزء من الليل قليل .

وعين مبدأ السرى ومنتهاه . فالإسراء مبدؤه المسجد الحرام؛ والنهاية كانت بأرض فلسطين في موقع المسجد الأقصى اليوم. ثم تمت العودة في زمن غير طويل؛ إذ ذكر في السيرة أنه عاد قبل أن يبرد فراشه.

والمسجد الحرام هو الكعبة وما حولها. سمي مسجدا لأنه المكان الذي ميز الله الصلاة فيه بمضاعف الثواب مما جعل المسلمين يتنافسون في أداء الصلاة به. وتحصل تلك المزية إلى الحدود التي يتسع إليها. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من حوط المسجد الحرام بجدار يحفظه سنة سبع عشرة من الهجرة . ووُصِفَ المسجد بالحرام تنويها بشأنه ومنعا من الاعتداء فيه بالقتل أو الغزو أو عمل السوء. إذ تتضاعف عقوبة من ينتهك حرمته. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: ولا أعرف أنه كان يعرف في الجاهلية بهذا الاسم.

والمسجد الأقصى هو المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام ببيت المقدس، في المكان الذي بناه فيه إبراهيم. ثم إن نبي الله داود عليه السلام توخى أن يضع عليه الخيمة ، وأوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد . ثم إن الملكة هيلانة أم إمبراطور بيزنطة قسطنطين لما تنصرت، وزارت مدينة أورشليم، وكانت متعصبة لدينها ومتعصبة ضد اليهود لاعتقادها أنهم قتلوا المسيح عليه السلام، أمرت بهدمه ونقل أساطينه إلى الموضع الذي ظنت أن المسيح دفن فيه، وبنت فيه معبدا سمته : كنيسة القيامة .ومبالغة في النكاية باليهود أمرت أن يحول موضع المسجد إلى مجمع أزبال البلد . ولما عقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصلح مع أهل تلك المدينة، وكانوا نصارى قال

لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) : دلني على مسجد داود، فانطلق به حتى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على درجه ؛ فتجشم عمر حتى دخل، ونظر وقال : الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داو د الذي أخبرنا رسول الله أنه أسري به إليه . ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتى ظهرت كلها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه . ثم إن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وبناء المسجد، ووكل عليه رجاء بن حيوة الكندي سنة ست وستين وكان الفراغ منه سنة ثلاث وسبعين [1].

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام ففي الصحيحين أن أبا ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام؛ قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة[2].

وحسب قواعد اللغة فإن الأقصى صيغة تفضيل، فالمبدأ هو المسجد الحرام، والنهاية المسجد الأقصى، وذلك يقتضي أن يكون هناك مسجد بينهما هو القصيُّ. ووقت نزول الآية لم يكن هناك مسجد آخر، فعد هذا التعبير من إخبار القرآن بالغيب، إذ بني مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك بينهما فكان المسجدَ القصي، ومسجد فلسطين المسجد الأقصى. وقد يكون من الحكمة في جعل طرفي الإسراء المسجد الحرام والمسجد الأقصى الإيماء إلى أن الإسلام جدد شرائع التوحيد من عهد إبراهيم عليه السلام، الذي بنى المسجد الحرام كما بيناه في سورة البقرة 124/134- ثم تتابعت الأنبياء بأرض فلسطين. فقد هدى الله البشر إلى الحنيفية ببعثة إبراهيم وابنه إسماعيل، ثم تأكدت بالرسل الأكرمين عليهم السلام الذين قاموا بذلك في أرض فلسطين ثم عادت إلى منبعها الأول على يد خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه .

والبركة التي أنزلها الله حول المسجد الأقصى تدل على أن البركة تشمل المسجد الأقصى أولا، وكذلك ما حوله، والبركة هي ما أنزل في تلكم الأرض من الوحي على رسله، وما خص الصلاة فيه بمزيد من الثواب. فإن جميع الأماكن تتساوى في الثواب على الصلاة فيها إلا المسجد الحرام أفضلها، ثم مسجد رسول الله بالمدينة المنورة، ثم مسجد بيت المقدس .

---

[1] التحرير والتنوير ج15ص 19/14، والبداية والنهاية ج9 ص657/655-

[2] اللؤلؤ والمرجان ح 298-

وحِكَمُ الإسراء، وما نال النبي ﷺ من عناية وتقريب، خُـص ذلـك بعنايـة العلمـاء الـذين توسعوا فيه وكشفوا أبعاده. ونصت الآية على أن الله تفضل علـى نبيـه فـأراه فـي تلكـم الليلة من الآيات الشيء الكثير، الدالة على تقريبـه وتكريمـه ، فقـد أمَّ الرسـل، ومكنـه من الرقي إلى السماوات العلى وفرض عليـه وعلـى أمتـه الصـلاة، وكشـف لـه عـن مآلات الصالحين، وعن بعض ما يلقـاه المشـركون والمسـيؤون ممـا هـو مـن أحـوال يوم القيامة . وأطلعه على ما هو خارج عن مقدور البشـر، فكـان الإسـراء معجـزة لـه. إذ أن قريشا لما طلبت منه أن يصف لها مسراه وبيـت المقـدس، رفعـه الله أمامـه فأخـذ يفصل جزئياته المميزة، وطلبت منه أيضا أن يخبرهـا عـن قافلتهـا العائـدة مـن الشـام، فأخبرهم أن عيرهم ستصل إلى مكة عند شـروق الشـمس يتقـدمها جمـل أورق، وكـذلك كان .

وإذ انتقل الرسول ﷺ في تلك الليلة إلـى مشـاهد تفـوق الطاقـة البشـرية، فـإن وعيهـا وتقررها في سمعه وبصره ﷺ، كان بإقدار الله له بجعل بصـره وسـمعه يسـجل كـل مـا رأى وما سمع في تلكم الليلة .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : التوراة.

الوكيل :من يفوض له الأمر. والمعنى لا تتخذوا شريكا

قضينا : حكمنا وقدرنا مع تبليغ.

لتعلن : العلو بمعنى الطغيان في العصيان.

بعثنا عليكم :سيرنا من يتسلط عليكم .

أولو بأس : أصحاب قوة في الحرب .

جاسوا : تتبعوا المهزومين في كل مكان في الطرق والأزقة والمنعطفات، وهوما يعبر عنه في لغة العصر بالتمشيط.

خلال الديار : جميع المسالك المؤدية إلى الديار .

رددنا لكم الكرة : أعدنا لكم الغلبة.

النفير : المسرع للمساعدة في الحرب.

تبر : أهلك وأفسد.

ما علوا : ما تغلبوا عليه.

الحصير : المكان الذي يحصر فيه

بيان المعنى الإجمالي :

اعتنى الله بمحمد ﷺ فأسرى به وأراه من الآيات التي ما لم يطلع عليه نبي ولا رسول في حياته. وآتى موسى عليه السلام كتاب التوراة الذي جعله القبس الذي يقتبس منه بنو إسرائيل الهداية، ويقيم من يعمل منهم بما جاء فيه على الصراط المستقيم .ونبه إلى أن أهم ما تضمنته التوراة أن يخلصوا لله في العبادة ولا يتخذوا من دون الله شريكا يعتمدون عليه. ثم حركهم بندائه لهم مذكرا لهم أنهم من ذرية نوح عليه السلام الذي أخذ أباهم سام معه في السفينة، في الوقت الذي أهلك الله من كان على الأرض من الذين اتخذوا شركاء من دون الله. نوح هذا النبي الذي كان شعوره بأنه عبد لله شعورا حيا قويا جدا، فاهتدى إلى شكر الله على كل نعمة أنعم بها عليه.

أخبرهم الله في التوراة أنهم سينحرفون عن التعاليم التي بلغها إياهم موسى عليه السلام، وأنهم سيطغون في الضلال طغيانا كبيرا. فتذوب مقومات القوة والمناعة، ويصبح وضعهم قابلا للغزو والتنكيل، وأنه سيسلط عليهم بسبب مروقهم من الدين وفساد سلوكهم المشين مخلوقات لله تمرسوا بالقتال وعمرت قلوبهم بشجاعة لا تعرف سوى الإقدام، وخبرة قتالية قاسية ؛ فيدخلون دياركم ويتبعون فلولكم المهزومة في كل مكان ويخربون مبانيكم، ويتمكنون منكم أشد تمكن .وسيتم ذلك فعلا في الأجل المحدد . وكذلك كان فبعد الدمار الشامل لمدينتهم أخذ الأشوريون الغزاة البقية الباقية منهم أسرى إلى بابل، وهناك ضاعت جميع مقوماتهم حتى اللغة العبرية التي كانت التوراة مكتوبة بها اختلطت بالبابلية، فأصبحت لغتهم لغة هجينة هي أصل

اللغة العبرية التي يتحدث بها اليهود في عصرنا، وتبعا لذلك حرفت التوراة بعد أن عم الجهل باللغة العبرية القديمة التي كتبت بها.

ثم إنهم بعد هذا القهر أصلحوا ما فسد من سلوكهم واستقاموا، فكثَّر الله نسلهم وبارك في أرزاقهم، ويسَّر الله من أخذ بيدهم فتغلب ملك الفرس على البابليين ومكن اليهود من العودة، وعمارة فلسطين في سنة 530 قبل المسيح.. ومما قضاه معلِمًا به في التوراة، أن ذكرهم بسنة الله: أنهم إن أحسنوا غنموا نتائج إحسانهم فكانت لهم، وأنهم إن أساؤوا فإن شر فسادهم سيكون عليهم . كما أعلمهم أنه تحقيقا لهذه السنة فإنه بعد رجوعهم وقيام حضارتهم في أرض فلسطين أنهم سيفسدون فيسلط الله عليهم كما سلط عليهم في المرة الأولى من يقهرهم فيظهر أثره البين على وجوههم كآبة وذلة، وليدمروا مسجدهم، ويخربوا كل ما تغلبوا عليه تخريبا مظهرا استئصالهم من بيت المقدس فيتشتت الباقون منهم في أرجاء الدنيا . والرجاء في ربكم أن يرحمكم، وستمضي سنته في الاجتماع أن العزة والأمن، مرتبطة بقوانينه فإن عدتم إلى الخير عدنا لكم بالتأييد، وإن فسدتم وغلب شركم خيركم انتقمنا منكم في الدنيا. وفي الآخرة يكون مصيركم مع مصير أمثالكم في جهنم التي لا يجد من دخلها منفذا للخلاص. (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا).

بيان المعنى العام :

2- وآتينا موسى الكتب وجعلناه هدى... من دوني وكيلا.

هذه الآية معطوفة على ما يفهم من الآية السابقة، التي هي في قوة : أسرينا بعبدنا، وآتينا موسى الكتاب . وعطفت على ما تضمنته الآية الأولى بجامعين:

الجامع الأول: أن الآية (1)ذكر فيها المسجد الأقصى وقد ارتبط به موسى عليه السلام، إذ قال لقومه ادخلوا الأرض المقدسة، وأنهم تمردوا على موسى فبقوا تائهين في صحراء سيناء. وأنهم عاشوا في جواره بعد ذلك، ثم أخرجوا من فلسطين على ما ستفصله السورة.

الجامع الثاني: أن الله قد امتن على موسى بإيتائه الكتاب (التوراة) في المقام الذي ابتدأ بالامتنان على محمد بالإسراء .والمقابلة بين المِنَّتَيْنِ تبرز ما حظي به محمد من فائق العناية، ومضاعف المنن، التي أشير لها بقوله تعالى : لنريه من آياتنا.

تفيد الآية أن الله أوحى بالتوراة لموسى عليه السلام، وجعل ذلك الكتاب سببا لهدى بني إسرائيل، باتخاذ نصوصه أساسا للعقيدة، ودليلا على أحكام المعاملات ومنهجا للسلوك. وفي جعل

الاهتداء به قاصرا على بني إسرائيل ما ينبه إلى مزية ثالثة لسيدنا محمد ﷺ: إذ شريعة موسى قاصرة على بني إسرائيل، بينما الإسلام هدى للبشرية جميعا.

ثم وقع التنصيص على أهم ما جاءت به التوراة، وهو التوحيد الخالص : **ألا تتخذوا من دوني وكيلا** ؛ المفتتحة بأنْ المدغمة في "لا"، أن لا، فتكون أن مفسرة لما تضمنه (الكتاب) تسجيلا لما بالغ موسى عليه السلام في التأكيد عليه، ذلك أن بني إسرائيل قالوا لما أتوا على قوم يعبدون أصناما لهم: **يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**. سورة الأعراف آية 138 -وعبدوا العجل لما ذهب موسى للميعاد. مما يدل على أن تربيتهم طبعتهم على التعلق بالمحسوسات فلا يرتفعون بسهولة، إلى عقيدة التوحيد المبني على التجريد، ولذلك فسرت مهمة التوراة الأولى أن لا يتخذوا أحدا غير الله يعتمدون عليه، ويفوضون له أمرهم .

3- ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا.

راعت الآية غلظ قلوب بني إسرائيل من شدة تعلقهم بالمحسوسات كما بيناه، فنادتهم بوصف عَلَّهُ يحركهم فيخلصوا في توحيد الله والتعلق به ؛ فقوله تعالى : **ذرية من حملنا مع نوح**، منادى حذف منه حرف النداء أي يا ذرية من حملنا مع نوح وهو سام بن نوح . وأدمج في النداء تذكيرهم بأنهم تناسلوا من نوح عليه السلام الذي نجاه الله من الغرق وبارك في نسله لإخلاصه في عبادة الله أولا، وثانيا لأنه كان شاعرا شعورا ملازما، بأنه عبد لله، شَرَفُهُ في هذه العبودية، وأن شعوره هذا وقوة إحساسه به جعله لا يغفل عن شكر ربه عن كل نعمة باللسان وبالعمل .إذ كمال الشكر في صرف النعمة فيما خلقت له .ولذا فالآية تحرك بني إسرائيل ليسيروا على النهج الذي سار عليه أبوهم نوح من التوحيد الخالص الذي ضعفت التوراة بما أدخل عليها من تحريف عن الوفاء به، ومن لوازم ذلك أن يدخلوا في دين الإسلام الذي جلَّى التوحيد وقام على بيانه قياما تفرد به، وهو دين الفطرة التي كان عليها نوح أبو البشرية الثاني، ومن شأن النفوس الزكية أن تلازم المنهج الصالح لأصولها .

4←5: وقضينا إلى بني إسرائيل .....وكان وعدا مفعولا.

مع إيتاء موسى التوراة، كَشْفٌ من الله في هذا الكتاب إلى بني إسرائيل (اليهود) ما سيؤول إليه حالهم من الفساد وما سينالهم من العقاب أولا وثانيا.

فقد سجلت التوراة على اليهود أنهم سيفسدون في أرض فلسطين مرتين.

أما المرة الأولى فسيبلغ بهم العصيان ما تقسو به قلوبهم، ويتمكن منهم الطغيان والإسراف في اقتحام حدود الله مبلغا كبيرا. ثم فصلت ما يلحقهم من العقاب .

فعندما يحل الأجل الذي يمهلهم الله إليه في هذه المـرة، يسـلط الله علـيهم مـن مخلوقاتـه أصحاب شدة في الحرب ومران علـى القتـال، وشـجاعة عظيمـة، فـلا يسـتطيعون أن يوقفوا زحفهم . أقدرهم علـى القيـام بمعـاقبتهم فهزمـوهم وتتبعـوهم فـي كـل مكـان، واستباحوا ديارهم وأمـوالهم، وهـدموا المسـجد، وأخـذَهُم بختنصـر القائـد الأشـوري أسرى. ونقلهم إلى بابل. وفي مـدة أسـرهم اختلطـت لغـتهم باللغـة البابليـة وأضـاعوا اللغة العبرية التي كتبت بها التوراة. وحرفت التـوراة تبعـا لـذلك كلـه، وانقطـع السـند بينهم وبـين موسـى عليه السلام. فـدمرت حضـارتهم، ومعابـدهم، وانقطعـت صـلتهم ببيـت المقدس.

6←7، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ...وليتبروا ما علوا تتبيرا.

وأعلمهم الله في التوراة أنهم بعد تدميرهم في المـرة الأولـى، سينهضـون مـن كبـوتهم وأنهم ستكون لهم الدولة علـى الـذين أخرجـوهم. وعبـر عـن هـذا الطـور بالماضـي "رددنا" دون "ترد" مع أن الأمر لم يقـع بعـد باعتبـار أنـه إخبـار بمـا فـي علـم الله، ويستوي في علمه سبحانه الماضي والحاضر والمسـتقبل فـي مفاهيمنـا . وقـدتم فعـلا ذلك، إذ أن ملك الفرس (داريوس) غزا بابل وانتصـر علـى ملكهـا، وقـد كـان اليهـود أعوانا لجيشه في غزوهم للبابليين. ويفهم مـن الـنص أن اليهـود بعـد أذلهـم البـابليون غيروا ما فسد من سلوكهم، واستقاموا فأنزل الله البركة فـي أمـوالهم وفـي بنـيهم وأكثـر عددهم، وربوا بنيهم تربية حربيـة يسـرعون إلـى نصـرة الـداعي لهـم مـن قـومهم، فتجمعت الممهدات لعودتهم إلى بيـت المقـدس، وفعـلا أذن لهـم كـورش بـالعودة إلـى بيت المقدس سنة 530قبل المسيح.

وذكر في التوراة خطاب الله لهم عقب عودتهم إلـى بيـت المقـدس بقولـه : إن أحسـنتم أحسنتم لأنفسكم، على معنى أن الإحسـان يتوجـه مـنكم إلـى ذواتكـم، ذلـك أن أصـل الإحسان أن يمضي من المحسن لغيره، ولكن الله حـرك بنـي إسـرائيل ليسـمو إدراكهـم فيعلموا أن الإحسـان والعمـل الصـالح ينتفعـون بـه فكـان سـببا لعـودتهم واسـتقرار أحوالهم بعد الشتات والقهر . وكـذلك بالمقابـل إن أسـأتم وتمـردتم علـى النظـام الـذي كلفتم باتباعه وبالحفاظ عليه أسـأتم لأنفسـكم . فـدل التعبيـر القرآنـي علـى أن الـنفس تصبح فاعلة ومنفعلة، وهو من بالغ التحريض على الامتثـال. وأفهـمُ مـن هـذا: تكـذيب اليهود فيما يشيعونه من أنهم شعب الله المختار وأنهم أحبـاء الله. فـأظهر مـا قضـاه فـي التوراة وأنبأهم به: أن سنة الله في الاجتماع واحـدة، وأنهـم إن أحسـنوا جنـوا ثمـرات إحسانهم، وإن أساؤوا خسروا بسبب إساءتهم.

كما أعلمهم أنهم سيعودون بعد الفرج إلى ما كانوا عليه من الفساد وطغيان الشر فيهم، كما أشار إليه قوله : (وإن أسأتم فلها). وأن الله سيسلط عليهم في المرة الثانية من عباده الذين لهم من صفات القوة وشدة البأس مثل ما كان في المرة الأولى(فإذا جاء وعد الآخرة) من يذلهم ويخزيهم ويقتلعهم من بيوتهم ويشردهم. وجسم القهر: أنه سيظهر على وجوههم كآبة وحزنا وذلة، وأن القاهرين سيدخلون المسجد كما دخله من قبلهم ويخربونه، وأنهم سيُهلكون ويفتتُون ما استولوا وغلبوا عليه من ممتلكات اليهود ومعالمهم الحضارية فيدمرونها تدميرا. وتم تدمير بيت المقدس وإجلاء جميع اليهود منها سنة 155بعد الميلاد على يد الامبراطور الروماني أدريانوس، وبقيت تحت سلطان الرومان إلى أن فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ.

8-عسى ربكم أن يرحمكم.... وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.

لم يذكر في التوراة أنه من بعد تشريدهم وتخريب عمارتهم، أن الله سيمكنهم من العودة إلى ما كانوا عليه، وغاية ما ورد في القضاء في الكتاب، التحذير من أنهم إن فسقوا وفسدوا، في البلدان التي تأويهم، أنه سيسلط عليهم من ينتقم منهم كما تم في المرتين الأولى والثانية . فتضمَّن ختام الآية إعلان رجاء أن تشملهم رحمة الله فيعيشوا في الأماكن التي يقيمون فيها عيشة عادية لا خوف فيها. وأنهم إن فسدوا وطغوا في الشر فإن القهر يترصدهم وسيحل بهم ما مثل ما سلطه الله عليهم لما عمروا بيت المقدس . وقد تمردوا وحبكوا المؤامرات بعد ذلك فكان آخر ما أوعدهم الله أن سلط عليهم في النصف الأول من القرن العشرين الحكم النازي، الذي ضخموه بعد الحرب العالمية الثانية، واستدروا عطف العالم عليهم، ورجعوا إلى إجرامهم واستلبوا أرض فلسطين من أهلها وشردوهم، وحرموهم من العودة إلى ديارهم، ومكنوا كل يهودي من الاستقرار في ممتلكات الفلسطينيين، ومنعوهم من تكوين دولتهم، ثم تابعوا التنكيل بهم والتقتيل والاغتيال، وتسلطوا على العالم بقوة إعلامية خبيثة، فصاغوا العقول صياغة منحرفة تخدم مخططاتهم .وسينفذ الله ما أوعدهم لا محالة . هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فالمآل هو ما جعله•الله من أن جهنم ستكون جامعة حاصرة للكافرين لا يجدون عنها مخرجا. وهم قد كفروا برسل الله في تاريخهم، واستباحوا دماء بعضهم، ثم كفروا بمحمد، فختام الآية يشملهم أولا وينسحب على من كان مثلهم.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

معاني الألفاظ :

للتي هي أقوم : للطريقة للتي هي أقوم.

الأجر الكبير : هو الجنة أولا ويصحب ذلك الرضا في الدنيا والآخرة .

أعتدنا : أحضرنا وأعددنا

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد إن القرآن الحاضر في قلوبكم المتمكن هداه في بصائركم الذي لا يشتبه بغيره، يسير بكم إلى الطريقة التي هي أقوم من جميع الطرائق .وينبني على ذلك تقديم البشارة للمؤمنين الملتزمين بالعمل الصالح بأن الله كتب لهم أجرا لا تحد حدوده. ويبشرهم بأن الذين يسيرون في طريق معاكس فيكذبون بالبعث أن الله هيأ لهم عذابا يحسون بألمه العظيم .

بيان المعنى العام :

9←10إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم... أعتدنا لهم عذابا أليما.

ذُكِرَتْ التوراة في الآيات السابقة، وسجل القرآن بعض مضامينها، وقد نبهنا فيما مضى أن الله ادخر للإسلام ولنبيه من المزايا ما لم يجمعه لأحد قبله. وجاءت هذه الآية معلنة بما استنبطناه، فأُحضِر القرآنَ حضور المشاهد المرئي الذي لا يختلط بغيره (**إن هذا القرآن**) وأجرى عليه الأوصاف المميزة:

أولا: هو يرشد البشر، جميعهم من حضر منهم زمن الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، ويدعوهم إلى الطريقة التي هي أقوم الطرق، وأبلغها سدادا وخيرا. ومعنى تفضيلها (أقوم) أي من كل الطرق الأخرى. فتلألأ القرآن مفضلا مشرقا وهاجا تلألؤ النجوم التي تهدي السائرين أينما كانوا. وتزداد المقارنة بين القرآن وبين التوراة وضوحا باعتبار أن القرآن يحمل إلى المؤمنين به الذين يعملون الصالحات بشارة هي أجلُّ من أن توصف أو تحدد أبعادها، هي أجر وثواب كبير. واستحضرْ أيها التالي ما قُضي به في التوراة: **وقضينا لبني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ... وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.** تكشف لك المقارنة بُعْدَ ما بين الأمة الإسلامية وبني إسرائيل.

وما ذكر في الآية (9) هو بشارة للمؤمنين، إذ أعلن القرآن عاقبة الذين يقصِرون تصورهم للحياة على الحياة الدنيا، الذين يتساندون في قيادة موكب الشر والفساد،

ويتجهون إلى الشهوة واللذة ولا يقيمون للبعث حسابا، يبشر الله المؤمنين بأن هؤلاء الذين يسيرون في خط معاكس لهم أن الله قد أعد لهم عذابا أليما، هم ناجون منه .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا

بيان معاني الألفاظ :

دعا بالشيء : طلب إحضاره.

المحو : الطمس بمعنى انعدام النور.

مبصرة : مساعدة على إدراك المبصرات .

التفصيل : التبيين والتمييز .

طائره : حظه، وما قدر له .

كتاب : ما سجل من عمله.

الحسيب : الحاسب.

تزر : تحمل ثقل تباعة المعصية أي الإثم .

بيان المعنى الإجمالي :

رَغْمَ أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فإن العجلة التي خلق عليها الإنسان، تجعله لا يتريث في أخذ قرار الاختيار ولا يعمق النظر فيما يريد أن يحصل عليه بتَبَيُّنِ المآلات البعيدة في الدنيا والآخرة. فتدفعه السرعة إلى العمل على تحقيق ما يطلبه، فيستولي عليه عامل الجهل بالعواقب وعامل السرعة، فينتهي إلى أن يكون طلبه للخير مساويا لطلبه للشر في المآل. وجعل الله الليل والنهار يتعاقبان على الكون وفي كل منهما دليل على الحكمة والدقة ورعاية مصلحة الإنسان في الوجود. إن الليل يستر الكون بظلامه وتسكن فيه الحركة سكونا يُمَكِّنُ الإنسان من الاستجمام،

ومن التأمل العقلي والروحي في عمق وهدوء، والنهار تكون قدراته على العمل والحركة والإنجاز أتم وأكمل.

ومن أسرار هذا التعاقب بين الليل والنهار، أن ملاحظتهما مكنت الإنسان من ضبط المواقيت والآجال في المعاملات وفي الزراعة وفي التقديرات بمختلف أنواعها، كما ارتقى بتلكم الملاحظة إلى اكتشاف قوانين الحساب التي ما تزال تتطور تطورا جعلها الركن في كل تقدم للعلوم الصحيحة، وما تبعها من خيرات .

ويثبت القرآن أن حظ كل إنسان من العمل الصالح أو من عمل السوء ومن الطاعة أو المعصية ثابت في علم الله، وعلم الله لا يقبل التبديل فذلك الحظ كالقلادة المحيطة بالعنق، لازمة له خاضع لها خضوع من يُمْسَكُ من عنقه. هذا في الدنيا، وفي الآخرة سيجد كل ما قدمه حاضرا أمام عينيه بينا واضحا، فيحكم على نفسه؛ إنه لا يوجد حساب مقنع كحساب الإنسان نفسه. ومن ألطافه سبحانه أنه كتب على نفسه أنه لا يعذب البشر بالعذاب الماحق على كفرهم، إلا بعد أن يبلغهم وحيه عن طريق رسله. فله الحمد والشكر على ألطافه.

بيان المعنى العام :

11-ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا.

هذه الآية مثار تساؤل من المفسرين في موقعها وفي المراد منها. يقول الشيخ ابن عاشور: موقع هذه الآية غامض، وانتزاع المعنى من نظمها وألفاظها أيضا. ولم يأت المفسرون بما ينشرح له الصدر [1].

قد يكون ذلك تابعا لفهم الكلمة التي افتتحت بها الآية "يَدْعُ" المكتوبة بدون واو تبعا لخط المصحف الأول. إذ حملوها على الدعاء بمعنى الطلب من الله . ولا أريد أن أطيل بجلب كلامهم، ولكني أعرض ما لاح لي في الآية.

جاء في تاج العروس: ودعا بالكتاب :استحضره [2] فيكون المعنى : إن من شأن الإنسان أنه يدعو، يطلب تحصيل ما ليس عنده، وهذا المغيَّب عنه قد يكون فيه الخير وقد يكون فيه الشر، فهما مستويان في علمه لجهله بالعاقبة، وإن كان الأمر معلوما على الحقيقة عند الله. ولما كان من طبع الإنسان أنه حريص على الوصول سريعا إلى ما مال إليه. فإن هذا الحرص الذي جبل عليه البشر من العجلة يجعل

---

[1] التحرير والتنوير ج15ص41

[2] ج38ص52

تأملهم قاصرا في موضوع ما هو مفقود عندهم ومطلوب لهم، تغلبهم الشهوة لنيله فلا يتبينون المآلات البعيدة، فيستوي الشر والخير. وقد ألْمَسُ أن داعية هذه العجلة مترتبة عن استحضار الإنسان قصر عمره في الكون، وأن كل لحظة تذهب لا تعود، وأن الفناء يلاحقه. فإذا أردنا ربط هذا المفهوم بالآية السابقة يلوح لنا: أن الآية السابقة حققت أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، أي للمسلك الذي هو أقوم من جميع المسالك الأخرى، ويتفرد بأنه يقيم التفكير البشري على الموازنة بين الدائم الباقي من رضا اللهوبين البرّاق الفاني الذي تدفع إليه العاطفة والشهوة. فيدعو القرآن بذلك اتخاذ قرار الاختيار على التأمل والنظر البعيد، والتؤدة لا على العجلة ويحذر منها. فتكون هذه الآية متممة لمضمون سابقتها، تكملها من حيث أن القرآن إذا كان يهدي للتي هي أقوم، فما يقع الناس فيه من شر رغم هداية القرآن، هو مسبب عن اندفاعهم لتحصيل ما يطلبونه بسرعة، دون أن يتريثوا حتى يتبين لهم ما يكمن فيما يطلبونه من عواقب مشتملة على شر توجب انصرافهم عنه.

12- وجعلنا الليل والنهار آيتين ....فصلناه تفصيلا.

التقابل في بناء الكون كالتقابل في قيم الأشياء، يهدي القرآن لتبين كل ذلك. كان القرآن هاديا للإنسان هداية عامة، وأنه إذا تُرك لنفسه قد يختلط عليه الخير بالشر. وعلى هذا الوزان ظاهرة تقلب الليل والنهار. توالي الليل والنهار جعل الإنسان يغفل عما في ذلك من صنع الله العجيب. وعمل القرآن على إيقاظ الذهن وتكرَّرَ لفت النظر إلى هذه الظاهرة ليقوده النظر إلى الإيمان بالخالق وحكمته.

الليل والنهار وهما يتعاقبان على الإنسان والكون: التأمل فيهما يقيم دليلا على بديع الصنعة والتقدير المحكم. فإذا تأملت أيها الإنسان في الليل تجده يلف الكون بظلامه، فتتأثر علاقتك به، ويحجبه عنك فيختفي كأنه غير موجود. فيكون الليل مؤثرا في الكون وفي علم الإنسان به في وقت واحد. وبالمقابل فإن النهار يجعلك تحس بما أودعه الله في هذا الكون حسب قانون الرؤية الدقيق. فتبصره ويصل بينك وبينه.

ومن بالغ الهداية القرآنية إظهار الغاية من تقلب الليل والنهار في قوله:

أولا: **لتبتغوا فضلا من ربكم** - ففي النهار ينشط الإنسان ويُولّد بعمله الخيرات، وذلك فضل، وفي الليل يستريح فتتجدد طاقاته من ناحية، ويجد العالِمُ في سكونه عونا على التعمق في النظر، وكثيرا ما تفتح له مغالق كان باب الولوج إليها مسدودا. وفي قيام الليل فضل عظيم لمن يوفقه الله وييسره له. ولذا فإني أرجح أن يكون التعليل (**لتبتغوا فضلا من ربكم**) في النهار والليل.

وثانيا: لتعلموا بمتابعة التحول بين الليـل والنهـار علـى نظـام دقيـق لا يختـل، تعلمـوا عدد السـنين، أي والشـهور والأيـام، فتضـبطوا أعمـالكم وتربطـوا علاقـاتكم بمسـار الكون كله. وهو باب مادي ملحوظ تجاوزه الإنسان إلـى التجريـد، فبلـغ علـم الحسـاب الذي طوره الإنسان عبر الأحقاب، وما يزال البشـر يكتشـفون مـن قواعـده مـا ينفـذون به إلى المعرفة الصحيحة لا التقريبية.

وما لفت إليه الأنظار يدخل تحت قاعـدة أساسـية تـربط تلكـم المظـاهر كلهـا بالنظـام الصارم الذي لا تداخل فيه، فَصَّلَهُ متميزا صادرا عـن علـم. وتجـد فـي القـرآن منهجـا يحقق لهذا التفصيل بلوغ الغايات التي ترقى بها المعرفـة، ولا يعزلهـا عـن خالقهـا ممـا يتبعه نجاح الإنسان في خلافته. فارتبطت الآيـة بقولـه تعـالى: **إن هـذا القـرآن يهـدي للتي هي أقوم.**

13←14: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه... عليك حسيبا.

وهذا من هداية القرآن، إذ كشف لكل فرد أن عمله في الـدنيا وحظـه مـن الأجـر علـى صالح عمله والإثم على ما قارفه من سيئات، موثـق مـلازم لـه لا يفارقـه. هـذا هـو معنى الجزء الأول من الآية . ولـربط هـذا المعنـى بصـياغة الآيـة أقـول :إن كلمـة طائر مرتبطة بما جرت عليه الحياة العربيـة، إذ كـانوا كلمـا أرادوا سـفرا، أو رغبـوا في التعرف على الغيب، نظروا في أول طائر يأتيهم فإن كـان مـن جهـة اليمـين تيمنـوا بذلك ومضوا، وإن أتاهم من جهة الشمال تشـاءموا وأعرضـوا . وكـذلك كـانوا يفعلـون إذا اقتسموا ما هم فيه شركاء رمـوا بقـراطيس مكتـوب فـي كـل واحـد منهـا اسـم صاحبه، ثم يرمون بها، فكل واحد يأخـذ السـهم الـذي وقـع عليـه القرطـاس المرقـوم باسمه. وقد يفعلون ذلك بسهام مكتـوب عليهـا فيطيـر السـهم الـذي ركـب فـي قناتـه الريش ليساعده على الطيران . ومن ذلـك توسـعوا فـأطلقوا علـى حـظ الإنسـان مـن خير أو شر طائره. وقوله: في عنقه يقصد منه عـدم مفارقـة حظـه لـه، هـو كـالقلادة المحيطة بالعنق فما عمله من خيـر أو شـر ثابـت مقـرر لا يسـقط بحـال. ثـم إن مـا تطوق به عنقه، سينكشف في كتاب يقرأه صـاحبه، سـواء أكـان أميـا أم قارئـا، يظهـر فيه جميع أعماله خيرها وشرها. وإن كان التعبير بكتـاب فـإن الـذي أرجحـه أنـه لـيس من نوع الكتابة المعروفة في الـدنيا بحـروف فـي قرطـاس، ولكنـه ثبـت مـن أمـور الآخرة يختص بالشمول والوضوح، يجده كل إنسـان حاضـرا بـين يديـه، فينظـر فيـه فيتبين كل عمل قام به في الدنيا. وأطلق النشر: منشورا لتأكيد مـا فهمتـه مـن أنـه لـيس قرطاسا يطوى أو يمكن إخفاء صفحة من صفحاته. ثـم يقـال لـه: اقـرأ كتابـك وتثبـت

فيه وكن حاسبا لنفسك ما قدمت من خير أو مـن شـر. ومحاسـبة الإنسـان لنفسـه بنـاء على الثبت المنشور أو ضح محاسبة فلا مراوغة ولا معاذير.

15-من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ...حتى نبعث رسولا.

عقبت الآية السابقة بما يؤكد مضمونها فـي صـورة قاعـدة عامـة توقـف كـل إنسـان أمام مسؤولياته مع جريانها على العدل الإلهي .تقـول الآيـة : مـن سـار علـى طريـق الهدى والتزم مطبقا ما بلغ إليه عن طريق رسله، ولـم يطـع هـواه وحكـم شـرع الله ، فإن صلاحه ينتفع به، زكاءً في نفسه وطمأنينة في قلبه وراحـة فـي ضـميره، ثـم ثوابـا في الآخرة، ورضوان من الله أكبر . وفي المقابـل فمـن أضـاع طريـق الهـدى وسـار في منهج الضلال من الكفر والمعاصي، فإن ضلاله سـيجد نتائجـه فـي الـدنيا والآخـرة عكس ما يلقاه المهتدي. إن العدل الإلهي فوق ذلـك : قضـى الله أن لا يحمـل أحـد ثقـل الإثم الذي يرتكبه غيره، وكل إنسان مسؤول عن عملـه .نعـم مـن تسـبب فـي الشـر ونهج للناس طريق الفسـاد وضـللهم، فإنـه يتحمـل وزرهـم باعتبـاره متسـببا . وفـي المقابل فإن الإنسان لا ينتفع من أجر ما عمله غيره مـن خيـر إلا إذا كـان متسـببا فيـه، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي عـن أبـي هريـرة رضـي الله عنـه : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جاريـة، وعلـم بثـه فـي صـدور الرجـال وولد صالح يدعو له[1].

وختمت الآية بإعلان اللطف الإلهي الذي اقتضـى أنـه سـبحانه لا يسـلط عذابـه علـى البشر عذاب استئصال في الدنيا، وعذاب جهـنم فـي الآخـرة إلا بعـد أن يبعـث رسـله ويبلغ وحيه للذين أرسل إليهم.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

---

[1] إكمال الإكمال ج 5 .

وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرية : المجتمع السكاني الذي يسكن الدور المبنية.

المترفون : أهل النعمة وسعة العيش.

فسقوا: خرجوا عن المنهج المسطر لهم.

القول : الوعيد الذي أنذرهم به رسولهم.

التدمير : أصله هدم البناء وإزالة آثاره، والمراد به الاستئصال.

العاجلة : متاع الحياة الدنيا.

ما نشاء : ما نختار إعطاءه .

يصلاها : يحترق بها.

مدحورا : مطرودا.

السعي : أصله، مرتبة في المشي أقل من العدو. والمقصود: مواصلة العمل.

الإمداد : استرسال العطاء وتتابعه.

محظورا : ممنوعا.

النظر: الرؤية البصرية التي يعقبها التدبر فيما وراء المبصرات.

الدرجات : مراتب المؤمنين في الجنة.

المذموم: المذكور بالسوء والعيب.

مخذولا : الذي تخلى عنه ناصره.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه هي سنة الله: أنه يبعث الرسول لأهل أي قريـــة مـــن القـــرى ليهـــديهم إلـــى التوحيـــد ويقرر التشريع الذي يصلح الأفراد والمجتمـــع، فيقابلـــه المترفـــون الـــذين أفســـد فطـــرتهم النعيم بالرفض ويتـــبعهم الـــدهماء. وبعـــد أن كـــانوا غيـــر عـــالمين بـــالحلال والحـــرام والصلاح والفساد، ينقلبون بما بلغهم الرســـول مكلفـــين بمـــا جـــاءهم عـــن ربهـــم، فمـــن أطاعه كان صالحا ومن عصـــاه كـــان فاســـقا. فـــإذا ظهـــر الفســـق فـــي القريـــة وعـــم واستشرى الفساد، يحقق الله مـــا أنـــذروا بـــه، فتتعلـــق الإرادة الإلهيـــة بإنجـــاز إهلاكهـــم فيدمرهم تدميرا يأتي علـــى جمـــيعهم. ويحقـــق القـــرآن أن هـــذه ســـنة الله مضـــت مـــع القرون التي تتابعت بعد نوح، فكلما تمرد قـــرن علـــى رســـوله تعـــرض للانتقـــام. وربـــك

يا محمد يكفيك شرهم فلا حاجة لك بمن ينصرك، إنه يعلم ما تكنه صدورهم وما يقومون به من أعمال شريرة يحصيها عليهم، ليجري عليهم سنته في القرون التي أهلكها قبلهم.

إن القانون الذي بنى عليه الله أمر الخلق أنه جعلهم مختارين. فمن اختار متاع الحياة الدنيا، وقصر همه على المنظور القريب من ذلك، فإن الله يُقْدِرُ من يشاء ذلك ولا يجعله عاجزا عن تحصيل ما لا يريد الله منعه منه، وستكون عاقبته عذاب جهنم مع ذمه وطرده من رحمة الله . وبالمقابل فإن من تعلقت همته بالفوز في الحياة الآخرة فآمن وعمل بما يقتضيه الإيمان فإنه ينال جزاءه ثناءً على عمله في الدنيا والآخرة.

إن رحمة ربك يا محمد يتتابع بها إمداد من وقف حرصه على متاع الحياة مما قدره له، ويواصل إمداد المؤمنين بخيرات الدنيا والآخرة. إن سعة رحمته لا يحرم منها كافر ولا مؤمن. كل ينال حظه منها حسبما قدره ونظمه بعلي حكمته.

انظر يا محمد متدبرا فيما يجري في الكون أمامك، تجد مؤمنا صالحا موسعا عليه وآخر مضيقا عليه، وإن كان نشاطهم واحدا. وكذلك مقابلة رزق الكافر بالمؤمن أو بالكافر. مما ينادي أن ما يمكّن الله منه الإنسان من حظوظ الدنيا هو من صنع الله وحكيم تدبيره. يعجز البشر عن إدراك أسراره. ولكن الأمر في الآخرة تتفاوت في الدرجات التي يرقى إليها أهلها، كما يختلفون في الفضل الذي يتفضل به ربهم عليهم، وللصلاح أثر في ذلك.

ثم توجه القرآن لكل من يمكن أن يتخذ إلها من دون الله ناهيا له أن يفعل ذلك، مبينا العاقبة: أنه سيكون أسير الذم مذكورا بسوء تدبيره وخسة عقله، وأن من اتخذه إلها فعبده لا يعينه ولا يدفع عنه سوءًا ولا يجده عند الأزمات .

بيان المعنى العام :

16- وإذا أردنا أن نهلك قرية...فدمرناها تدميرا.

هذه الآية تعطي صورة تطبيقية لما جاء في الآية السابقة -15- وحاصل ما تفيده: أن الله إذا أراد أن يهلك أي قرية فلا دافع لما أراد. فكيف يتحقق ذلك في الوجود وما هي سنته في ذلك؟ إن الله يبعث من يبلغ رسالته التي يعلن المترفون من أهل القرية، وهم الأغنياء الذين انغمسوا في ملذاتهم واتبعوا شهواتهم، يعلنون عن رفضها ويؤثرون في أتباعهم وفي الدهماء ليسيروا على طريقتهم، فيصُمُّ المترفون وأتباعهم آذانهم عن قبول ما جاء على لسان الرسول، ويرفضون الإيمان بالله

وباليوم الآخر وبالحساب، ويعلو المنكـر ويستفحل، ويعـم الفسـاد وانحطـاط الأخـلاق، وعند ذلك يحين أجل مـا أنـذرهم بـه الرسـول فتتعلـق إرادة الله بإنجـاز مـا أوعـده، ويدمر القرية تدميرا لا يبقي لها أثرا.

فالإرادة معناها تعلق إرادة الله بإنجاز وعيده وتحقيقه مـن إهـلاك القريـة التـي عصـت وأعرضت عن قبول ما جاء به الرسول.

أمرنا مترفيها : هو الأمر باتباع كل مـا جـاء بـه الرسـول، وهـو فـي الحقيقـة أمـر لجميع سكان القرية، ولكن الذين يتقدمون لمحاجة الرسـول وتحديـه، هـم الـذين أفسـدهم النعيم ووفرة المال، وبرزوا في المجتمـع قـادة يُتَّبَعُـونَ، لأن شـأن الاجتمـاع البشـري أن الدهماء لا يسبقون بعرض آرائهم ولا يعلو صـوتهم بـالرفض فـي البدايـة، إذ يقـوم بهذا الدور أصحاب الثراء المنهمكون في اتبـاع شـهواتهم، الـذين يشـرِّع الرسـول مـا يلجمهم عن الاستمرار، ويقيِّد حـريتهم الفوضـوية بقـانون الـوحي المحقـق للمصـلحة . ثم يتبعهم الضعفاء .

ولما كانوا غير مسؤولين عن أعمـالهم قبـل بعثـة الرسـول، لقولـه تعـالى فـي الآيـة السابقة: **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**- فإنهم بعـد بعثتـه وقيامـه بتبليـغ شـرع الله يعتبر من لا يطبق ما أمر به فاسقا : أي خارجا عـن هـدي الله . ويعمـل الرسـول فـي صبر على إقناعهم، وتوضيح أن صلاحهم هو في التحـول عـن الرذيلـة إلـى الفضـيلة، وعن الكفر إلى الإيمان. ولكنهم في النهايـة يصـرون علـى مـاهم عليـه ، فيعـاجلهم الله بما أوعدهم وتدمر مساكنهم ويستأصلهم العذاب استئصـالا لا قيـام بعـده . فقطـع دابـر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

17- وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح...خبيرا بصيرا .

تأكيدا لسنة الله في تدمير قرى الفاسـقين المتمـردين بعـد الإنـذار، يـذكر القـرآن أن الله قد أهلك أقواما في قرون كثيرة متلاحقة، بعد أن أهلـك قـوم نـوح بالتـدمير الـذي أتـى على الأرض كلها فأغرقها ومحق الكافرين منهـا. فقولـه وكـم أهلكنـا: يفيـد أن الـذين سُلِّط عليهم التدمير بعد نوح كانوا كثيرين فـي قـرون عديـدة؛ والقـرن المـدة الطويلـة اختلف في تقديرها من أربعين سنة إلى مائة وعشـرين. ولكـن معناهـا فـي الآيـة مـدة طويلة غير محددة بعدد من السنين.

وختمت الآية بما جرى عليه القرآن فـي مناسـبات كثيـرة مـن إظهـار عنايـة الـرب برسوله وتثبيته. إنه سبحانه عليم بما تكنه صدور الكـافرين، ومـا يدبرونـه فـي خفـاء، وما يقومون به من الأعمال الخبيثـة لتوقيـف مـد الـدعوة .لا يغيـب عـن علمـه مـا

يجري في بواطنهم، ولا يخفى عنه أي شـيء صـدَر للوجـود .إن ذلـك التأييـد يكفيـك عن طلب العون من غيره سبحانه، فأنت غير محتـاج لمـن ينتصـر لـك ويـدافع عنـك، فقد تولى أمرك ربُّك. وفي ذلك تلـويح بالتهديـد للمشـركين بـأنهم معرضـون لتنسـحب عليهم سنة الله في القرون المكذبة التالية لعهد نوح.

18←19:من كان يريد العاجلة عجلنا له...سعيهم مشكورا.

بين القرآن من الآية13 عاقبة المكلفين تبعـا لصـلاحهم أو فسـادهم، وصـرح فـي هـذه الآية بحقيقة: هي أن الإنسان مختار لا مجبر. وأنـت إذا تتبعـت أحـوال الخلـق وجـدتهم على نوعين :

النوع الأول: الذين اختاروا نعيم الحياة الـدنيا، وجعلـوه كـل همهـم والمقـدم علـى مـا سواه، ونفوا من تقديرهم ومن سلم قـيمهم مـا يتعلـق بمـا وراء الحيـاة العاجلـة التـي يعيشونها. هـؤلاء لا يحققـون طموحـاتهم الدنيويـة بقـدراتهم، ولكـن الله هـو الـذي، لحكمة مستورة عنا، يعطي من متـاع الـدنيا لـبعض أحبـاء الـدنيا مـا قـدر أن يصـل إليهم. فهم لا يحققون من طموحاتهم تلـك إلا مـا قـدر الله أن لا يحـول بيـنهم وبينهـا. ثم هم في النهاية يوم القيامة سيصلون نـار جهـنم مـذمومين، تُعلَّـنُ مخـازيهم ويُـدْفعون عن منازل الكرامة.

النوع الثاني: الذين تعلقـت همـتهم سـامية إلـى الفـوز بالسـعادة فـي الـدار الآخـرة. يتمتعون بعزيمة ماضية، تقاوم مغريات الحيـاة الـدنيا، ونـوازع الشـهوة، وتعمـل بجـد ملتزمة بتطبيق شرع الله، وتجد لذتها في جمال الطاعـة. هـم يسـيرون سـيرا موصـولا بدون إبطاء، السير الموصل لمـا يحقـق الفـوز فـي الحيـاة الآخـرة. الإيمـان الفاعـل واضح في عقولهم وأرواحهم. ولـيس الإيمـان بـالتمني ولكـن الإيمـان المحـرك لفعـل الخير والابتعاد عن الشر، هو معنـى وسـعى للآخـرة سـعيها، الخـاص بهـا الـذي لا تغشاه لوثة من الغرور والفساد والرذيلة. هم متميـزون إذن، ولـذلك أشـير إلـيهم بقولـه تعالى: **أولئك كان سعيهم مشكورا**. سعيهم مقوَّم بقيمة الشـكر عليـه والرضـا عنـه مـن مَبْدئه في الدنيا إلى يوم القيامة.

20- كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا.

هذه الآية مؤكدة لمضـمون الآيتـين السـابقتين لطـرد أي تصـور ينـافي مضـمونيهما فبالنسبة للنوع الأول، فإنه وإن كان منحرفا عـن طريـق الهـدى، تغلـب عليـه الأنانيـة والنظرة القصيرة، ويشيع الفساد بسلوكه ؛ فـإن الله رغـم ذلـك يواصـل إمـداده حسـبما

قدره وثبت في سابق علمه فلا يحول بينه وبين التحصيل على متع الحياة الدنيا، ولا يعاجله بقطع الأرزاق.

وكذلك النوع الثاني هو يستمد من فضل الله أيضا سعادة في الدنيا، وسعادة في الحياة الآخرة. إن عطاء ربك يا محمد وفضله على خلقه عام شامل لا يحرم منه أحد حرمانا كاملا. ولا مقايضة في الحياة الدنيا ونعيمها بين فعل الخير والتفضل، وبين فعل الشر والحرمان. إنه لوكان الأمر كذلك لترتب عنه انتهاء التكليف والاختيار، لأنه إذا كان كل من ضل الطريق يحرم سريعا حظه في الدنيا، وكل من يفعل الخير يعطى العطاء الوفير في الدنيا، لكان البشر كلهم يسعون إلى الخير .

21-انظر كيف فضلنا ...وأكبر تفضيلا.

أمر الله رسوله أن يستعرض أحوال الناس استعراضا يفضي إلى إدراك ما جاء في الآية السابقة. راقب ما تفضل الله به على البشر تجد أنه لا يوجد محروم، وأن حظوظ الناس مختلفة، فبعض المؤمنين قد وسع الله عليه وبسط له في الرزق، وبعضهم قد ضيق عليه، وكذلك عندما تقارن بين الكافرين فيما بينهم وفيما بينهم وبين المؤمنين. مما يخلص منه الناظر إلى أن الغنى أو الفقر على مختلف درجاتهما لا يرتبط شيء من ذلك بالصلاح أو الفسق.

وينطلق التدبر في ذلك إلى قضية من قضايا الآخرة التي يظهر فيها التفاضل المرتبط بالتقوى وبالعمل الصالح. فجزاء الآخرة وما يناله كل فرد من نعيم الجنة تختلف فيه درجات النعيم بصفة أكبر، كما تكون مراتب الفضل التي يعطيها الله متفاوتة تفاوتا عظيما. أخرج البخاري ومسلم بسندهما إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم .قالوا :يا رسول الله تلك منازل الأنبياء . قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا وصدقوا المرسلين [1].

22-لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا.

قرر معظم المفسرين أن الخطاب أولا لرسول الله ويتناول كل البشر. والذي اطمأننت إليه أنه خطاب لكل من يتأتى خطابه ويسمع هذا النص القرآني . كقولك لا تكثر الكلام فيكثر سقطك، وعلى هذا تجري صياغة النصح .

---

[1] إكمال الإكمال ج 7 ص211

فالآية نهي لمن يمكن أن يتأتى منه فعل المنهي، أي الإشراك بالله وإعطاء صفة الألوهية لغيره سبحانه. لأن ذلك مما يتبعه أن يتسلط عليك تسلطا لا تستطيع الانفكاك عنه، اللوم والخذلان. أما اللوم فهو الذم وما يصحبه من استهزاء بمن أشرك بالله ما لا يبصر ولا يسمع وهو أضعف من أن يدفع السوء عن نفسه. وأما الخذلان فإن من أشرك بالله واتخذ إلها من دونه فقد اعتمد على من لا يقدر على نصره، ولا يسعده بالعون عند ضعفه.

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ
أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾
رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾
وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ
نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ
جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ
ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ

ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

بيان معانى الألفاظ :

قضى : أمَرَ أمْرَ إلزام.

أف : اسم فعل يدل على الضجر أو التقذر.

النهر : إظهار الغضب في الصوت، أو في صيغة الخطاب.

القول الكريم : الجامع بين اللين وجمال اللفظ والمعنى.

جناح الذل :لا تتعاظم عليهما، بل ليكن مظهرك مظهر الذليل الراحم لهما.

صالحين : الصلاح في هذه الآية يدل على الامتثال لما سبق بسطه في الآية.

أواب : كثير الأوبة بمعنى الرجوع إلى الله.

التبذير : إنفاق المال في غير الوجوه النافعة الصالحة.

الإعراض : ضد الإقبال قصد به عدم الإيتاء.

الميسور : اليسر بمعنى اللين المقبول .

مغلولة : مقيدة بالغل وهو السير الذي تقيد به يد الأسير.

المحسور : المنهوك القوى .

يبسط الرزق : يوسع فيه.

يقدر : ضد يوسع: يضيق.

الإملاق : الفقر.

الخِطْءُ : الإثم .بالحق : بالعدل .

سلطانا: قوة .

السرف : الزيادة على ما يقتضيه الحق .

أشده : قواه في العقل والتجربة والنظر لنفسه.

وفى: أعطاه كاملا غير ناقص.

القسطاس : آلة الوزن .

المستقيم : السوي. المعتدل .

لا تقف : لا تتبع.

مسؤول : محاسب.

مرحا: مشية تنبئ عن زهو المر بنفسه، وتكبره .

تخرق : لن تمزق أديم الأرض.

الحكمة : معرفة الحقائق معرفة عميقة كاشفة لا خطأ فيها.

تلقى : تطرح في الأسفل مهانا.

مدحورا : مبعدا من رحمة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

لقد ألزمكم ربكم بأمور لا مثنوية فيها تشمل :

أولا: إفراده بالعبادة فلا تعلّق الآمال إلا به ولا يخضع أحد إلا لشرعه.

وثانيا طاعة الأبوين ومعاشرتهما بالطريقة التي هي أحسن من غيرها. وخاصة عندما يبلغ الكبرَ أحدهما أو كلاهما، فيضعف الكبير عن القيام بما كان يستطيع أن يستقل به قبل ذلك. فلا يباشرهما بكلمة أو إشارة تدل على التضجر أو خارجة عن حدود الاحترام. وليتلطف في توجيههما إلى التي هي خير فلا ينهرهما، وليختر من الصيغ ما يعتبر من الأدب في عرف التخاطب. ولـيكن لينا معهما غير متغطرس تبدو الرحمة من مجلسه وخطابه وطريقة تعامله. ثم إنه يدعو لهما بالرحمة، الرحمة الصادرة عن الطبع كما ربياه ورحماه عندما كان صغيرا. والله يعلم ما هو كامن في صدوركم أكثر من علمكم به . وأنه سبحانه لعظيم فضله يقبل من التوابين العائدين إلى السلوك الراشد ويغفر لهم تقصيرهم. ويشمل هذا حالات التقصير مع الأبوين وحالات الانحراف الأخرى عن الجادة.

ثالثا: مساعدة الأقرباء، الواجب منها كالإنفاق على الوالدين والزوجة والأولاد، والمندوب إليه ممن تتصل بهم بنسب أو قرابة.

رابعا : مساعدة المساكين والمسافرين المنقطعين عن أموالهم.

ويتولى القرآن إرشاد المؤمن إلى المسلك الذي عليه أن يتبعه في بعض الظروف الاستثنائية. في صورة ما إذا كانت إمكاناتك لا تقدر معها أن تقوم بما ينبغي نحو ذوي القربى والمساكين، فلتكن راجيا أن يسعدك ربك من رحمته الواسعة بفضله، وخاطبهم بالقول اللين الذي يفسح في أملهم ويعوضهم عن مرارة الحرمان من العطاء بالأمل في المستقبل .

خامسا: التوسط في التصرف في المال بين الشح والتبذير. إياك أن يستولي الشح على قلبك فتكون صورتك صورة الأسير المقيدة يده إلى عنقه، فينصب عليك اللوم بما لا تجد له مدفعا. ولا تبذر مالك تبذيرا فتنتهي إلى وضع تعجز فيه عن القيام بحاجاتك .

ولتعلم أن الشح لا يغنيك، وأن التبذير لا يقلب من تتولى عطاءهم إلى أغنياء غنى لا تلحقهم الحاجة بعده ؛ ذلك أن الغنى والفقر والعطاء والمنع، بيد الله وحده

يصرِّف ذلك بحكمته، فهو العليم أزلا بما يخفى عليكم، البصير بكل حالة على الوضع الذي تتم فيه قبل حصولها.

سادسا: النهي عن قتل الأولاد خوف الفقر. إن احترام الحياة والحفاظ عليها من الأسس التي جعلها الإسلام في مقدمة ما اعتنى به. والنهي قوي رادع لمن قسا قلبه فحدثته نفسه بقتل ولده خوفا من الفقر، إن الله واسع الرحمة كبير الفضل فهو يرزق الولد كما يرزق والديه وليس رزقه مكفولا من والده، فالله أرحم بعباده ممن تحجر قلبه .إن قتل الولد خطيئة عظيمة .

سابعا : تحريم الاتصال الجنسي غير المشروع – فنهى القرآن في أكثر من مناسبة عن الزنا وأدخله في هذا الميثاق وعلل النهي بأن الزنا قبيح جدا مناقض للفطرة وهو أسوأ طريقة للإشباع الجنسي.

ثامنا: المحافظة على الحياة: نهت الآية عن قتل النفس التي أعزها الله فحرم التعدي عليها بغير حق. والحق المسوغ لذلك هو لسلطة القضاء وحدها، وهو مفصل في كتب الفقه. ثم إن ولي المقتول ظلما قد مكنه الله من المطالبة بالقصاص، أو الرضا بالدية. ولما كان مُمَكَّنًا من رفع الأمر للقاضي الذي يتولى الإثبات ويقتص له من الظالم الذي قتل وليه، فلا يتعدى ما مكنه منه الإسلام فيعمل على قتل القاتل وغيره لوهم أن المقتول له مكانة اجتماعية أرفع من قاتله.

تاسعا: حفظ مال اليتيم. أمر القرآن بالحفاظ على مال اليتيم، ولا يتصرف فيه إلا بالوجه الذي هو أفضل لليتيم، لينميَه له حتى يصل إلى سن الرشد المفصلة في الفقه

عاشرا: الوفاء بالالتزامات الموثقة . أمر بالوفاء بالعهود التي وثقها المؤمن مع غيره وأنه مسؤول عن الوفاء بها في الدنيا والآخرة . إن الحفاظ على العهد إذا أصبح ظاهرة عامة نجحت الأمة خلقيا واقتصاديا.

حادي عشر: إيفاء الكيل والميزان. يتلاعب بعض الناس بحق المتعاملين معهم، فيُنْقِصون بحيل متنوعة ما يجب عليهم دفعه لهم. فنهت الآية نهيا مؤكدا عن هذا الخلل في التعامل وعن غش الطرف في الآخر بإعطائه أقل مما يستحق، وتخييل أنه اقتضى حقه كاملا . يدفع إلى هذا الفساد استعجال الربح، فنبهت الآية الناشطين في هذا الميدان إلى أن إعطاء المكيل والموزون وافيا غير منقوص هو خير لهم في الحقيقة ؛يدركون هذه الخيرية ببركة وإقبال من الحرفاء وطيب سمعة لهم ولوطنهم، كما أن مآلهم في الآخرة مآل حسن.

ثاني عشر: ليكون المؤمن يقظا لمسؤوليته فيما يتخذه من قرارات بناء على حاصل ذهني أو سمعي أو بصري. فالمقوم الأول العلم بأن لا يعتمد المؤمن الأوهام والخرافة والخيالات في الميادين العلمية والتجريبية والقضائية. والمقوم الثاني، تقويم أعماله بعد اليقين بميزان المسؤولية ومآلات أفعاله.

ثالث عشر: التواضع والنهي عن التكبر. وجلب القرآن الصورة المقيتة أن يتصور الشخص نفسه أعظم من الناس، فيمشي مِشْيَة فيها خيلاء وتحد واحتقار .هذا المغرور وهو يطأ الأرض بشدة واهمٌ، لأنه لا يستطيع أن يخرق أديم الأرض، يَمُرُّ عليها كما سيمر عليها من يأتي بعده، ويرفع رأسه معرضا عن الناس، وهو قزم بالنسبة للجبال .

كل ما بيَّنه هذا الميثاق مما نهى الله عن إتيانه أو عدم القيام به، يتحتم الابتعاد عنه بترك المنهي وفعل المأمور به. وينبه القرآن إلى أن التهاون بأي منها يُحْصَى على صاحبه ويسجل في كتابه عملا سيئا ومكروها عند الله يترتب عنه البعد عن رحمته.

إن تلكم الوصايا التي وردت في الميثاق هي من الحكمة الكاشفة عن الحقيقة في أعمق أبعادها، ما كان للأميين أن يدركوها إلا بفضل الوحي الإلهي إلى رسول الرحمة ﷺ . وإياك أيها الإنسان أن تتخذ إلها من دون الله فإنك ستقضي على مستقبلك قضاء مبرما، وتُلقى في جهنم يوم القيامة مذموما مبعدا من رحمة الله .

بيان المعنى العام :

23←24: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه.... كما ربياني صغيرا.

هذا المقطع من القرآن يهدف إلى بيان الأسس التي يُبنى عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع النظيف القوي الذي يستطيع أن يقوم بدوره في الخلافة بنجاح في الأرض. ويتواصل التركيز على تلكم الأصول من هذه الآية إلى الآية 39. وهو بمثابة الميثاق الاجتماعي العام الذي يتعين على كل مسلم مراعاته، ويتعين على من يتولى أمور الأمة الإسلامية أن يكون منه على بصيرة يصدر منه ويعود إليه، ويحمل تربية الأمة على منهاجه الراشد. فلنتتبع ما تضمنه الهدي القرآني في هذا المقطع:

-أولا: أمرك ربك أيها الإنسان أمرا مؤكدا لازما لزوم القضاء الواجب التنفيذ، أن تفرده بالعبادة. وأتت صياغة هذا الأمر على صورة في الكشف عنها ما يثبتها ويبرز بلاغتها المعجزة. تخير القرآن لفظ (ربك) ليحدد من أول العرض المسار الذي تهدف إليه هذه الأوامر الملزمة. إنها صادرة من ربك الذي أحاطك بألطافه

وعونه ونمّى قدراتك ويسر لك ما بلغت به الدرجة التي تستمع بها إلى هذا الأمر، وكل ذلك مما يوجب على المخاطب الطاعة والامتثال. أمرك أن تفرده بالعبادة، وإفراد الله بالعبادة مرتبة فوق العقيدة بالوحدانية، ذلك أن العبادة هي المظهر لما يجري في الفكر من تصور لمنزلة الإنسان في الكون، وهي الصورة العملية للعقيدة الباطنة، وهي المطوّعة للسلوك . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر[1] إن الفكر الذي يخضع لغير الله ويعبده هو فكر مختل، أسند العبادة لمن لا يستحقها وليس له على الفرد أي مزية تدعو للخضوع له. وإفراد الرب بالعبادة يتبعه القيام بكل ما جاء من تشريع وأدب وعلاقات اجتماعية وإنسانية.

ثانيا بناء الأسرة. المجتمع المتماسك الصالح للحياة، هو المجتمع الذي يكون فيه بناء الأسرة بناء قويا، تقوم العلاقة فيه على قيم خلقية. والأسرة تتكون أولا من الأبوين فأمرت الآية بالإحسان لهما، وفي اختيار التعبير عن الأبوين بالوالدين حكمة التذكير بمنتهما عليك، فكما أن الحياة التي هي أعز ما يملكه الإنسان هي عطية الرب الذي يرعاك في جميع تقلباتك، فإن الواسطة لحياتك الوالدان. فيختار في التعبير عنهما بما يربط بين الإنسان وبينهما (الولادة) وهنا يكون الأمر بالإحسان الذي هو مرتبة فوق القيام بالواجب. فأنت مطالب في كل مناسبة، بالتعامل الذي هو أحسن . وهنا يدخل الاجتهاد في التطبيق لينساق إلى الأفضل والأكمل. ولمزيد من البيان في هذا الركن يعرض القرآن أوضاعا قد تذهل الولد فلا يوفي فيها بحقهما. فمن ذلك حالة الضجر، سواء أكان ذلك مسببا عن ضعفهما كحالة الكبر التي تقتضي من العناية بمقدار ما ينتاب المعمَّر من الأسقام، وضعف الذاكرة، ووهن العظام وتراخي المواسك. أوعن أحوال غير طبيعية في الولد كالضغوط النفسية من متاعب الحياة، فينبهه القرآن إلى أن لا يبلغ به الضجر التصريح بما يدل على عدم احتماله لهما ككلمة : أف- ونحوها مما يؤذيهما نفسيا، ومن باب أولى وأحرى ما كانت الإذاية أشد .

-كما صرحت الآية بتحريم زجرهما، إن رأى من أي منهما ما هو غير مقبول، فإن ذلك لا يبرر العنف في النصح بقوة، وإن ظن أنه يحقق الردع. وجسم حسن المعاملة بتصوير العلاقة بين الولد وأبويه بالطائر الذي يخفض جناحه أمام الطائر الذي هو أقوى منه. وهذا التذلل لهما ليس ناشئا عن الخوف أو المداهنة، ولكنه

---

[1] سورة العنكبوت آية45

وليد الرحمة لهما والعطف عليهما. وهو ما يدعو الولد إلى الترحم عليهما والدعاء لهما بعد موتهما، وبر أصدقائهما. والدعاء من الولد لأبويه بالرحمة بعد وفاتهما مرجو القبول، لأن الله أذن فيه وأمر به: **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا-** ولما أكده حديث رسول الله ﷺ، أن دعاء الولد الصالح لوالديه يصل إليهما بعد موتهما. وبقيام الولد بذلك ينتفع الوالدان بالدعاء وينتفع الولد الداعي بامتثاله للأمر الإلهي.

25- ربكم أعلم بما في نفوسكم...للأوابين غفورا.

لا شك أن العناية الكبيرة بشأن الأبوين التي أمر بها القرآن، والبساط التي ذكرت فيها، وقرنها بعبادة الله، ثم ما يلحق الإنسان من الضعف في حسن القيام على أبويه، خاصة إذا كان في طبعهما أو في طبع أحدهما حزونة، وسرعة انفعال، فقد مهدت هذه الآية إلى أن ما يبدر من الولد نحو أبويه قد يكون ناشئا عن ضعف بشري، ولكنه يكن لهما الحب والتوقير، فتلطفت الآية ببيان أن الذي يحاسب عليه الإنسان أولا وبالذات في هذه العلاقة هو ما وقر في قلبه من تقدير واعتراف بفضلهما. فربكم لا يخفى عنه شيء مما انطوت عليه نفوسكم وهو أعلم بها منكم، وإنه لعظيم وفضله يغفر ذنوب من تاب فآب ورجع إلى ربه وتذكر تقصيره وتفريطه، فعمل على تدارك ما فات واهتدى بهدي القرآن. وهذه الخاتمة تعم التقصير الذي وقع فيه المكلف في علاقاته مع أبويه، أو في التزامه بشرع الله.

26←27: وآت ذا القربى حقه والمسكين...وكان الشيطان لربه كفورا.

في إطار العناية بالأسرة يطلب القرآن من المكلف أن يعطي لكل قريب حقه بموجب القرابة. وحقوق الأقارب تشمل الحقوق المادية والحقوق المعنوية، وتشمل الواجب والمرغب فيه. فمن الحقوق الواجبة ماديا النفقة على الوالدين والزوجة والأولاد في الحدود التي حددتها الشريعة، ودَوَّنَ تفاصيلها الفقهاء.

ومن المرغب فيه الإحسان لمن تربطك به آصرة قرابة أو نسب بما يشمل العون المادي للمحتاج والهبة للغني والفقير. وللصلة المادية أثر كبير في تمتين العلاقات وتعميق الود. ومن مجموع الوصاية بالوالدين، وبر ذوي القربى، يبرز حرص الإسلام على تمتين الروابط في قاعدة البناء الاجتماعي "الأسرة" وهو المقوم الثاني للميثاق الاجتماعي.

ثالثا: السماحة بإعطاء الفقراء والمحتاجين ما يساعدهم على تجاوز الظرف العسير الذي هم فيه. والإيتاء إعطاء عن طواعية وسماحة نفس وشعور بالتضامن بين

الغني المرفه، والمحتـــاج الـــذي عضـــه الفقـــر. وفـــي ذلـــك قـــوة للمجتمـــع باستئصـــال مرضين خطيرين من الأمراض الموَهِّنة لـــه : مـــرض الحســـد مـــن الفقـــراء، ومـــرض القسوة وعدم الإحساس بآلام المحاويج من قلوب الأغنياء .

رابعا: يكاد التشريع الإسلامي ينفـــرد بالتأكيـــد علـــى حـــق المســـافر الـــذي تقطعـــت بـــه السبل وبعد عن بلده وأهله وعشيرته، ولم يكن معـــه مـــن المـــال مـــا يســـتطيع بـــه تلبيـــة مطالبه الحياتية ليواصل سفره ويعود إلى موطنـــه، وإن كـــان غنيـــا فـــي بلـــده. فيعطـــف القرآن هذا النوع من الناس على ذوي القرابة والفقـــراء، مؤسســـا مفهـــوم التواصـــل بـــين أعضاء المجتمع الإسلامي، الداخل تحت قوله تعـــالى: **إنمـــا المؤمنـــون إخـــوة**[1]. فـــأخوة الإيمان دائرةٌ وراء دائرة الرابطة الموطنية التي تتلو دائرة الأسرة.

-خامسا: النهي عن الإســـراف فـــي الإنفـــاق. وهـــو أحـــد الأســـس فـــي بنـــاء النظـــام الاجتماعي في الإسلام . نعم تختلف طبائع الناس فـــي تصـــورهم للمـــال، فبعضـــهم يشـــح بالقليل فضلا عن الكثير، ويحرم نفسه ويحرم أسرته ممـــا آتـــاه الله، ويقـــدم المـــال علـــى صلته بأقرب الناس إليه، وكثيرا ما تجـــدونهم ينتظـــرون موتـــه . وبعضـــهم يـــرى المـــال وسيلة لإشباع الرغبات في توسع مفرط، فلا يعطـــي للمـــال أي قيمـــة، ويشـــعر بالراحـــة واللذة عندما يسرف في الإنفاق. إنـــه إذا كـــان التقتيـــر ينقلـــب بـــه الموســـع عليـــه إلـــى حارس لئيم، فـــإن الإســـراف يـــؤول بصـــاحبه إلـــى أن يكـــون حليـــف الشـــياطين .إذ الإسراف يقترن بتراخي العزيمة، والضعف عـــن إلجـــام الشـــهوة وإدخالهـــا تحـــت التقيـــد بميزان المصلحة والخير . والمسرف تطغى شـــهواته وتكـــون لهـــا القيـــادة وينتهـــي بـــأن يصبح الإسراف له خلقا والشهوة العارمـــة قائـــدا. إن البـــاب الـــذي ينفـــذ منـــه الشـــيطان فيقود بوسوسته إلى الشر والرذيلـــة، هـــو العاطفـــة لا العقـــل، فبتنـــويم صـــرامة العقـــل والروح، يجد إبليس مسرح التأثير بدون حارس، والمقاومـــة للشـــر هزيلـــة، فتنعقـــد بينـــه وبين الغاوي المسرف المتراخـــي صـــلة فيهـــوِّن عليـــه الخـــروج عـــن حـــدود الله. وإذا انزلق المرء في المهواة فكل مرحلة سوف تتبعها مرحلـــة أشـــد فســـادا . ويبلـــغ التحـــذير أرقى مداه بالتذكير بأن الشيطان الذي آخاه المســـرف وأســـلس لـــه قيـــاده، وانســـاق إلـــى مسارح فساده، هذا الشيطان هو كفور شديد الكفر. لعـــن منـــذ الأزل وحقـــت عليـــه كلمـــة الطرد والخسران. فأي رفيق اتخذه المسرف !

---

[1] سورة الحجرات آية10

تبتلى بمرض الإسراف الدول والقائمون على توجيه الاقتصاد كما يبتلى به الأفراد. أخذت الدول الغنية بسياسة التوسع المفرط في الإنفاق مبررة سياستها تلك بأنه بذلك تدور عجلة الاقتصاد، ويتم استيعاب اليد العاملة ، وكان لهذه السياسة التأثير السلبي على الوضع المالي العالمي، ثم تأثر به الاقتصاد تبعا .ودخل العالم في أزمة شديدة لمَّا يظهرْ نفق الانفراج إلى اليوم، واهتزت أنظمة وتخلخل الاستقرار، وذهبت الطمأنينة، وبصفة عامة لم يستطع هذا التوجه أن يعمر طويلا. ثم تعرَّض القرآن لأوضاع استثنائية وبين طريقة معالجتها لتحقيق ما اعتنت به الآيات السابقة من تماسك المجتمع.

28-وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك....قولا ميسورا.

شأن السائل أنه يعتمد المظاهر فهو يتوجه لمن مظهره يدل على أنه واجد قادر على مساعدته. ورده بدون شيء قد يؤثر في نفسه انكسارا وبالتالي انفصالا عن المسؤول، ووهن في العلاقة . فوجه القرآن من كان وضعه لا يسمح له بالعون أن يتخير عند الرد القول اللين الميسور الذي يجبر انكسار الرد، ويبعث الأمل بأنه مستعد في ظروف أخرى ينتظر فيها من ربه أن يوسع عليه برحمته .فالإعراض في الآية معناه عدم الاستجابة للسائل، أو عدم إيتاء ما تعودتَ إيتاءهم من الهدايا، وأن هذا الإعراض ليس مسببا عن شح مطاع، ولكن هو نتيجة عدم الوَجد، مع أنك آمل في رحمة الله أن تمكنك من القيام بما يُمَتِّنُ روابط القرابة والأخوة الإسلامية لمن قربت داره أو بعدت.

ولا تغفل أيها التالي إلى ما تشير له الآية (ابتغاء رحمة من ربك ترجوها) أن تكون في حالات العسر آملا في رزق الله، وأن تتفقد أحوالهم إذا ما تفضل عليك ربك فأجرى لك من الرزق ما كان أحد أسبابه حسن أدبك، ورجاءك في فضله.

29←30-ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك....بعباده خبيرا بصيرا

ان قضية السماحة بالمال في حدود التوسط قضية أعاد القرآن العناية بها ليقيمها على العدل في الآيتين 29/30- فتوجه الخطاب مباشرة لكل من يتأتى منه سماعه بالنهي عن طرفي التفريط والإفراط في التصرف في المال.

الطرف الأول المنهي عنه: التقتير ومَثَّلَهُ: أن المقتر جعل يده، وسيلة الإنفاق التي تتولى البذل، كأنها شدت بقيد إلى العنق، فتعطَّلت ولا تستطيع مدها إلى غيرك بالعون والمساعدة، وهي صورة بشعة يزيد في بشاعتها أنها صورة الأسير الذي فقد الحرية وربطت يده بسير من جلد إلى عنقه .

والطرف الثاني المنهي عنه: الإسراف الذي مثله بمن بسط يده بسطا كاملا لا يستقر فيها شيء وفتحها فتحا لا تمسك معه لا ماء ولا مالا.

ثم جسمت الآية عاقبة كل منهما، فصورت مآل المقتر بهيئة زريَّةٍ :أنه يكون قاعدا ينصب عليه اللوم والعتاب وتهون مروءته . وصورت المسرف بالقاعد المنهوك القوى، غير القادر على القيام بشؤونه.

ولتثبيت هذه الهداية في ضمائر البشر، عرَّف القرآن أن الشح لا يحقق السعة في الرزق والوفر في المكتسبات ولا يجلب الغنى لصاحبه. وكذلك الإسراف في الإنفاق لا يقلب الذين يتوسع في تمكينهم من العطاء أغنياء، ولا يرفع عنهم الخصاصة رفعا أبديا. ذلك أن ربك المتولي لرعايتك أيها الإنسان، الذي حولك من الوضع الأول الذي ولدت عليه بفضل ألطافه، لا يتحكم أحد في أرزاق الناس سواه، فهو الذي يوسع على من يشاء، ويحرم من يشاء . وكل ذلك تابع لحكمته لأنه الوحيد الذي يعلم بواطن الأمور ومآلاتها . فهو يعلم مقدما الأشياء على حقيقتها علم من امتحن الشيء حتى انكشف له تمام الانكشاف، وهو البصير فلا يخفى عنه شيء. فكل ما يتم وجوده هو ثابت في علمه بالصورة التي سيتم وجوده عليها في المستقبل.

31-ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...كان خطئا كبيرا .

سادسا: تحريم قتل الذرية وخاصة الأنثى خوف الفقر. وحمله جميع المفسرين على أن الآية تعالج وضعا مقيتا كان عليه أهل الجاهلية: أنهم كانوا يقتلون البنات ويبقون الذكور، لأن البنت عندهم لا تعين على القيام بتوفير أرزاق الأسرة، وهي مظهر ضعف لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وخوف عار لو سُبِيَتْ . يقول أحدهم :

أحب بنيتي وأود أني *** دفنت بنيتي في قعر لحدي

وما هذاك عن بغض ولكن *** مخافة أن تذوق الذل بعدي

فربتما تزوجها لئيم *** فيلعن والدي ويسب جدي

وربتما يموت الزوج عنها *** فترجع بيتها وتذوق فقدي

دعوت الله أن تكسى بلحد *** ولو كانت أعز الخلق عندي

هكذا تصوروا الأناث أحط قدرة من الذكور، عاجزة لا تستطيع القيام بأمرها خِلْقيا، وما دروا أن تربية الأسرة، وكذلك المجتمع، هوما صيرها إلى الوضعية التي هي عليها .

والذي ترجح عندي أن الآية عامة في الذكور والإناث، وأنها غير قاصرة على أهل الجاهلية، ولكنها تعالج انحرافات تتشكل في كل عصر بحسبه، ففي عصرنا هذا تحللت الأخلاق، وتضاءلت قيمة العفاف عند الذكور والإناث، فبعض الزانيات إذا حملت تقتل ولدها بمجرد ما تضعه خوف انتقام الأسرة، وبعض النساء تبعا للأنانية المفرطة، وعدم تقبلهن متاعب الحمل والتربية، أو للفقر وضيق المسكن، تسقط الجنين. والجنين إنسان يحمل جينومه من أول يوم تلقحت فيه البييضة، جميع الخصائص الخلقية والنفسية، والذي يتحقق بعد إنما هو ظهور ما هو كامن. فوأد البنات صورة من صور التعدي على حياة الأولاد. وما يجعلني أكثر اطمئنانا للتعميم أن الله عبر بالأولاد الشامل للجنسين، ولم يقل بناتكم.

ولدفع الخوف من الفقر، نبه الله الأبوين :أنه سبحانه تكفل برزق المولود كما تكفل برزق الأبوين . وهذا المفهوم وإن كان سبق في سورة الأنعام: نحن نرزقكم وإياهم. فإنه من بلاغة القرآن: أن العبارة في سورة الأنعام نحن نرزقكم وإياهم، وفي هذه السورة نحن نرزقهم وإياكم. والسر في ذلك أن سورة الأنعام كان الفقر حاصلا للأبوين فقدم إيصال الرزق لهما وعطف المولود، وفي هذه الآية لم يتحقق الفقر بعد ولكنه الخوف من حصوله، فكان التعبير أن رزق المولود على الله، فلا موجب للخوف.

32-ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا.

سابعا : تحريم الزنا تحريما صريحا معللا بما لا يقبل أن يكون فيه اختلاف، إذ ورد النهي عن القربان منه، على أنه فعل مستقذر يتحتم البعد عن القرب منه بالنهي عن الدائرة المحيطة به حتى يتم التحصن من الوقوع فيه . ثم قَوَّى التأكيد ببيان وجوه رفضه:

أولا أنه استقر استقرارا ثابتا كونه عملا قبيحا شديد القبح (فاحشة) وهو أمر مركوز في الفطرة، ولكن قوة الشهوة قد تغطي على الزّاني قبح فعلته . روى الإمام أحمد بسنده إلى أبي أمامة قال : إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا مه ! مه ! فقال : ادنه،فدنا منه قريبا فجلس حتى قال : أتحبه لأمك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك . قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم .قال : أفتحبه لابنتك ؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك .قال : ولا الناس يحبونهم ببناتهم قال : أتحبه لأختك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك .قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم . قال أتحبه لعمتك ؟ قال :لا والله جعلني

الله فداءك .قال : وكذلك الناس لا يحبونه لعماتهم .قال: أتحبه لخالتك ؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم . قال: فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1]. ثانيا : أنه طريق سيء وسلوك مرفوض لقبحه .

إن الزنا من أكبر الكبائر وأقبح الآثام المناكر وأشدها تأثيرا في اختلال المجتمع .لأنه إذا كان مع متزوجة فهو عرضة لاختلاط الأنساب، ومعرض للذود عن الشرف بما يصل إلى القتل، وفساد العلاقة بين الزوجين وهدم البيت والأسرة، ولصق عار بذريتها. وإن كان مع عَزَبَةٍ فإنه قضاء شهوة لحظة يتبعها عار يصاحبها كامل حياتها، وإثارة للذود عن الشرف من أهلها، وكثيرا ما أزهقت فيه أرواح. وقد ينشأ عنه حمل تكون جناية الزانيين عليه لاتقف آثارها السيئة عند حد، فقد يقتل بمجرد ولادته، وقد يرمى به، وهو البريء، في القمامة أو في أي مكان للتخلص منه ويلقى حياة نكدة .

33-ولا تقتلوا النفس التي حرم الله .....إنه كان منصورا.

ثامنا : حفظ الحياة وتحريم القتل وتفظيعه . هذا التشريع من أعظم ما اهتم به الإسلام . كانت الحياة رخيصة في الجاهلية فشاع الإقدام على القتل بما يتراءى للقاتل أنه حق له .وقد تكون صلة بين القاتل وشخص آخر مبررة لقتله. وقد يستبيح القاتل دم المقتول بسبب كلمة. وجرى المستبدون الظلمة بعد العصر الجاهلي على بسط سلطانهم بالقتل والإرهاب منه. نهت الآية عن ارتكاب جريمة التسلط على الغير بسلب حياته هذه الحياة التي هي من خلق الله هو الذي أعطاها، وهو الذي يسلبها متى شاء، هي النفس التي حرم التعدي عليها (التي حرم الله) فكان نهيا مستمرا عاما، واستثنى من ذلك القتل الملتبس بالحق. وقد بين رسول اللهﷺ الحالات التي يكون الإعدام فيها حقا . روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة [2].- ولا ينفذ حكم القتل بهذه الموجبات إلا القضاء، بعد التثبت التام مائة في المائة، وأدنى شك يحرم معه الإقدام

---

[1] المسند ج5ص257

[2] اللؤلؤ والمرجان ح1091ص417

على القتل لقوله ﷺ :ادرؤوا "ادفعـوا" الحـدود بالشـبهات. ونيـة القتـل أو الإعـداد لـه دون تنفيذ لأي حائل كان، لا يحل قتل المُعِدُّ لذلك.

وقد جعل الله لولي القتيل الحق الذي يتحتم تنفيذه تبعا لاختيـاره. والـولي هـو مـن ولـد القتيل أو ولده أو جمعه وإياه أب علـى تفصـيل عنـي بـه الفقهـاء وضـبطوا مـا هـو مجمع عليه وما هو مختلف فيه. فلولي القتيل ظلمـا أن يطلـب بالقصـاص مـن الجـاني، ويقتل بعد الإثبات من طرف القضاء. كما له الحق في العفـو عـن الجـاني وأخـذ الديـة. جعل الشرع لـه هـذا السـلطان بالمطالبـة بالقصـاص أو الرضـا بالديـة. وإذا رضـي بالقصاص فلا يتجاوز فيه ويقتل غيـر القاتـل، أو يتعلـل بشـرف القتيـل وأنـه يسـاوي أكثر من شخص واحد فيطلب تنفيذ الحكم فـي القاتـل وفـي مـن لـه صـلة بـه، أو أن يعجل بالقتل قبل أن يحكم به الحاكم. ولمـا كـان التشـريع قـد ضـمن القصـاص مـن القاتل، فهو قد نصر الولي، وكفاه ما يجده من اعتداء القاتل.

وقد ظن بعض المفسرين أن هذه الآيـة مدنيـة لمـا جـاء فيهـا مـن تفصـيل للتشـريع الملائم فقـط حسـب ظنـه للمجتمـع الإسـلامي بعـد أن بـرزت الجامعـة الإسـلامية المستقلة. وهذا التوجيه لا يوجب الحكم عليهـا بكونهـا مدنيـة لأن السـورة نزلـت بعـد الإسراء وبعد أن كثر المسلمون وتاقت نفوسهم لمثل هذا البيان التشريعي.

34-ولا تقربوا مال اليتيم ....إن العهد كان مسؤولا.

تضمنت هذه الآية نهيا، وأمرا:

تاسعا: النهي داخل تحـت مقـوِّم حفـظ المـال الضـروري للاجتمـاع البشـري. وهـذا يتصل بما سبق في الآيتين 27/26- من النهي عن التبـذير. وتخـتص هـذه الآيـة بنـوع آخر من حفظه. وهو حفظـه لمـن يملكـه ويضـعف عـن منـع الأيـدي الظالمـة مـن الاستحواذ عليه. هو وضع اليتيم الذي فقد الوالـد الراعـي والحـامي، كـانوا يستسـيغون قبل البعثة، أن يستحوذ بعض أقارب اليتيم علـى مالـه زمـن صـباه، ويسَّـر لهـم ذلـك فقدان من يفضح الخائن والسارق فـلا يجـدون حاميـا ولا لهـم وازع بـاطني يُقصـيهم عن الظلم لليتيم. فأقام الإسلام هذا الـوازع البـاطني المسـتند إلـى النهـي الإلهـي فـي جملة الميثاق .وكان النهي عن قربان مال اليتيم فضلا عـن أخـذه، مبالغـة فـي التشـنيع على الذين يستسيغون الاستحواذ على أموالهم . ولمَّا كان لا بـد لمـن يتـولى أمـر اليتـيم أن يتصرف في ماله تنمية وإنفاقا حـدد القـرآن ذلـك التصـرف بـأن يكـون بالطريقـة التي هي أحسن من غيرها، حتى يبقى له ماله عندما يشـتد عـوده ويرشـد. وبنـاء علـى

ذلك فإن عليه أن يثمّره حتى لا تأكله الزكاة، ولا يحبس منه شيئا ينتفع به . ثم يسلمه له عند رشده.

عاشرا : الأمر بالوفاء بالعهد ؛كل مؤمن مسؤول عن الالتزامات التي عقدها مع الآخرين .وتوجه الطلب للجماعة لما في حفظ العهود على نطاق الجماعة من ائتمان الأمة والتعامل معها بثقة، يتبعها نفاق تجاراتها وصناعاتها وازدهار اقتصادها . كما أن اللحمة بين أعضاء الأمة تقْوَى بحفظ العهد وتتراخى حتى تبلغ حد الانفصال بعدم احترام العهود.

35-وأوفوا الكيل ...وأحسن تأويلا.

حادي عشر: احترام المقاييس التي يتم بها التبادل، والتي تكون المعيار لحق الطرف المقابل، وهي الموازين والمكاييل . والمكاييل تشمل المقياس المتعارف عليه في نوع السلعة كاللتر والصاع، في الحبوب والزيوت ونحوها، وكالمتر والقدم في الأقمشة والأرضين ونحو ذلك . فأمرت الآية جميع المؤمنين أن يعطوا الطرف المقابل حقه بالمعيار الذي يتم به التبادل . ومن الضبط القرآني ما وصف به آلة الوزن بالحرص أن تكون مستقيمة لا خلل فيها. وتم التحريض على الالتزام بأن عدم التطفيف خير للوازن في الدنيا، يتمثل هذا الخير فيما كتبه الله من البركة للمحافظ على الميزان العادل، وما يترتب عليه من الثقة فيكثر زبائنه وتنفق تجارته. وخير في الآخرة بما سيجده من كرم الله وفضله في الآخرة. وهو معنى قوله تعالى: **وأحسن تأويلا**. نعم قد استعجل فاقدو الثقة ما يوفره لهم أكل أموال المتعاملين بالطرق الخبيثة والاحتيال بالتطفيف ؛ وهم خاسرون في المآل، لأن التطفيف يمحق البركة، ويطرد المتعامل معهم فلا يعود، ويقلل الثقة في المجموعة فيؤول أمرها إلى كساد، فتنتشر البطالة .

36- ولا تقف ما ليس لك به علم ....كل أولئك كان عنه مسؤولا.

ثاني عشر: هذه الآية تمثل منهج فكر ومنهج حياة. العقل في نشاطه الدائم، والحواس في علاقتها الموصولة بالكون، يمثل هذا وذاك مباني للقرارات التي يتخذها الإنسان. وينجز تبعا لها ما استقر عليه نظره فيها.

إن الحاصل الذهني قد يكون مبنيا على أوهام وخيالات، يتكرر استحضارها إلى أن تستولي على العقل فتدفعه إلى مواقف والقيام بأعمال، ثم ينكشف فسادها وزيفها بعد التنفيذ.

وكذلك ينقل السمع للدماغ مسموعات، فتتركز فيه، ثم يتحرك بناء على ما استقر فيه إلى اقتناع، فيسلك مسالك يمليها عليه فكره بناء على الحاصل السّمعي.

وكذلك يبصر أشياء فيجري الأمر على نفس الطريقة في السمع.

السؤال المطروح :هل ترتفع المسؤولية عن الإنسان في سلوكه إذا اتبع الحاصل الذهني، أو السمعي، أو البصري ؟

أجابت الآية عن هذا السؤال، فبينت أنه لا يرفع المسؤولية عن الإنسان إلا ما قبله أولا بناء على يقين لا على وهم، وثانيا بناء على شعور بالمسؤولية عما يترتب على أفعاله .ولا يعتبر الحاصل المستقر مبررا رافعا للمسؤولية .

إن الحاصل الذهني إذا لم يكن نتيجة علم ويقين يجب طرده من الذهن على أنه وساوس وخيالات. يبين هذا أن كثيرا من العواطف تدفع إلى مواقف من الحب أو البغض وتنمو مترددة داخل العقل الباطن حتى تنقلب حقائق يؤمن بها صاحبها ثم تسوقه إلى نوع من السلوك يعقبه الندم . قال تعالى: **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** [1]- وقال تعالى :**وعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** [2]- إذن فالتثبت وإدخال البارقة الأولى في مخبر النظر تحصّن المؤمن من الخرافة والأحكام السطحية المضللة، وتفضي في ميدان العلوم والتجارب إلى الظفر بالمعلومة الصحيحة وفي ميدان القضاء إلى الحكم الصحيح العادل .

وكذلك السمع : إن من أشد ما يفسد المجتمع وينشر فيه الخوف وعدم الثقة الإشاعات التي تتناقلها اللهوات فتكتسب من الشيوع قبولا واطمئنانا. ترشد الآية مؤكدة أن الواجب على من يسمع خبرا، أن لا ينقله إلا بعد أن يثق بصدقه، ولا ترتفع المسؤولية بذلك فقط، بل حتى يطمئن إلى أن نقله لا يترتب عنه ضرر. قال تعالى: **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**[3] -ومن الأحكام المقررة أن من سمع بأن فلانا وفلانة بينهما علاقة مشبوهة، ثم أشاع ذلك أنه يجلد ثمانين جلدة ويسقط سقوطا لا تقبل بعده شهادته. وكذلك البصر لا يعتمد ما لم يتحقق تحققا يقينيا وكم من شخص شهد برؤية الهلال دون أن يتحقق، فأفطر الناس بشهادته أو صاموا أو بنوا عليها ووقفوا بعرفة في اليوم التاسع من شهادته، فتحمل وزرا عظيما.

---

[1] سورة البقرة آية 216

[2] سورة النساء آية 19

[3] سورة النساء آية 83

37-ولا تمش في الأرض مرحا....ولن تخرق الجبال طولا.

ثالث عشر :أسست الآيــة الســابقة للواقعيــة باعتمــاد الإنســان علــى صــحيح العلــم، وتقويم المبصــرات والمســموعات بميــزان الآثــار العمليــة المترتبــة عنهــا، وإبطــال الأوهام، ومن الأوهام ما يحصل في نفوس بعض الناس مــن كبْــرٍ وزهــو بمــا جمعــوه من مال أو سلطان، أو أتباع، يؤثر ذلك فــي تفكيــره كمــا يــؤثر فــي ســلوكه وطريقــة حياته، وصورت الآية مظهرا مــن ذلــك فــي المشــي الــذي يصــحبه خــيلاء ونظــرة متعالية لمن يلقاهم من النــاس وبعضــهم تصــل بــه ســخافة تفكيــره إلــى التمايــل . إن إظهار الكبر على البشر يعبــر عــن احتقــار للآخــرين وتحــد، وهــو جنــون بالعظمــة وتصور زائف، لا يزيد المتكبر إلا انفصالا عــن المجتمــع، وشــماتة بــه عنــد ســقوطه. والضــعف يصــاحب الإنســان، وإن حــاول إخفــاءه، فــأديم الأرض ثابــت لا يســتطيع خرقه وهو يمر هو عليه، ويمر من يــأتي بعــده كــذلك. وقامتــه تتضــاءل أمــام طــول الجبال . وفي الإشارة إلى هاتين الناحيتين نوع من الــتهكم والســخرية مــن هــذا الــنمط من الناس .

38- كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها.

تمثل هذه الآية فذلكة للنواحي الثلاث عشرة التي مضت فــي تلكــم الآيــة الجامعــة، فكــل ما تقدم من نواهٍ، أو من أوامر تدل على النهي عن ضــدها، نهــي عنــه زيــادة علــى مــا فيه من المفاسد، لأنه سيئة حسب تقويمــه عنــد الله الــذي يمســك بــالميزان الحــق. والله يكرهه ، وكراهة الله للأشياء تدل على أنها تُهَوِّن صاحبها وتبعده عن الله.

39-ذلك مما أوحى إليك ربك....في جهنم ملوما مدحورا.

لقد تجمعت صورة مرتبة من الأوامر والنــواهي تمثــل كمــا قلنــا ميثاقــا، فمــن بلاغــة القرآن أنه ختمها بلفت النظر إلى نفاســتها، ليتأمــل فيهــا المــؤمن تــأملا يوجــب تفهــم أبعادها وتطبيقها عمليا، فهي من الحكمة التــي أنزلهــا الــذي يعلــم الســر، ولا يــدركها الأميون لولا فضل الله عليهم بإرســال ســيدنا محمــد ﷺ برســالة الإســلام التــي تســمو بمعتنقيها وترفع مداركهم . وإن أحط ما ينزل إليــه الإنســان هــو الشــرك بــالله، فنهــى القرآن في الختام نهيا عاما لجميع البشر موجها لكــل فــرد بخصوصــه أن لا يتخــذ إلهــا آخر، وليحذر العاقبة المهينة الســيئة للمشــركين، التــي لا مفــر منهــا، والتــي لا تقبــل غفرانا ولا عفوا، إنه سيطرح مهينا في جهنم يتبعه التشنيع، و البعد عن الرحمة .

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ
ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفأصفاكم: جعل البنين خالصين لكم .

عظيما : قوي الفساد.

صرفنا : نوعنا البيان.

النفور : شدة الإعراض .

بيان المعنى الإجمالي :

اعتقد بعض العرب أن الله اتخذ بنات من الملائكة، وهذا نوع من الشرك بالله يدل على غباء قائله، وجراءته، إن هؤلاء المعتقدين لذلك يقدرون أن الذكور أفضل من الإناث ويخصون أنفسهم بالذكور ويجعلون الصنف الأدون لله . ومن ناحية أخرى فإن ابتغاء النسل لا يكون إلا ممن يخشى من العَدَم أن يلحقه، فهو يريد أن يبقى في نسله لما كان هو فانيا.

نوع الله سبحانه في القرآن بيان الحقائق بمختلف ضروب البيان، فارتفع الغموض واللبس، وذلك ليساعد البشر على الإدراك الصحيح لمفهوم الألوهية وما تقتضيه، وليذكروا ما نزل إليهم، والعجب أن المشركين مع ذلك مقيمون على شركهم كأنهم دواب كلما حُرِّكوا أمعنوا في النفار وتملكهم الخوف والجزع.

قل لهم يا محمد إنه لو وجد مع الله آلهة، كما تقولون دون روية ولا نظر، فإن هذه الآلهة المزعومة لو وجدت لسعت إلى التقرب من الله والخضوع له. إنه يترتب على افتراض المستحيل الذي تدعون أن تكون تلكم الآلهة خاضعة له. سبحانه تنزه تنزها عما نطقت به ألسنتهم وهو أعظم وأسمى من أقوالهم السخيفة .

كيف لا، وكل الكائنات الحيوان، والجماد الكبير جدا الذي لا تبلغ معرفة حدوده الطاقة البشرية، والتافه الذي لا تدركه الحواس، كلها تنطلق في موكب واحد بتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص ومنها الشرك. ولكن مداركم عاجزة عن إدراك ذلكم

التسبيح. ولم يعاجل المشركين بالعقوبة لأنه يمهل تبعا لأنــه حلـيم، ومـع قـولهم المنكـر فإن الله يغفر الذنب لمن تاب.

بيان المعنى العام :

40- أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ .....قولا عظيما.

هذه الآية مفرعة على إفراد الله بالألوهية . فإن بعض العـرب ذهـب بـه خيالـه إلـى أن الله اتخذ الملائكة الإناث في زعمهم بناتا له .وهذا الزعم يدل على سذاجة وغباء.

أولا: إنه حسب سلم القيم عند العرب، البنون أفضل مـن البنـات، والأنثـى أحـط رتبـة من الذكر كما بيناه في الآية (31) فمن الغبـاء أن يـدَّعوا اختصاصـهم بـالبنين الجـنس الأفضل، وأن الله يختص بالإناث فقط الجنس الأسفل .

وثانيا: إن تصور بنات لله مـن الملائكـة تصـور فيـه تجسـيم واسـتنقاص، لأن ابتغـاء النسل لا يكون إلا ممن كان مجسَّـما، مركـبٌ فيـه داعيـة التناسـل، وإلا ممـن يلاحقـه الفناء، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فإن مقـالتهم تلـك التـي لا ترتفـع إلـى مسـتوى أرفع من الهذيان اللفظي (قولا) هي مقالة قوية الفساد والبطلان .

41-ولقد صرفنا في هذا القرآن ...وما يزيدهم إلا نفورا .

إن أمر المشركين لأمر عجب، فقد بين الله في القرآن بيانا نوعه بمختلف ضروب التوضيح، لينفي كل لبس وغموض وليساعدهم على التأمل وعلى تذكُّر ما أفهمهم إياه من اختصاه بالوحدانية، ومع ذلك فهم ما يزالون يكررون مقالاتهم الزائفة، فكأن البيان القرآني زادهم بعدا ونفورا من الحق . هم كالدواب الذين إذا حصل ما يحركهم أسرعوا إلى الفرار وقد تملكهم الخوف والجزع . هم يخشون أن يغلبهم على عقائدهم الفاسدة.

42-قل لوكان معه آلهة كما تقولون ....ذي العرش سبيلا.

الله رحـيم بعبـاده، ولا يرضـى لعبـاده الكفـر، فهـو يـوقظهم إلـى إدراك الحقيقـة والتزامها بمتنوع الأدلة التي تثير الفكر والضـمير والمشـاعر. ينبـه المشـركين إلـى أن ما اتخذوه من آلهة لو كانوا آلهة لسعوا ليتقربوا مـن الله، وعبـر عنـه بصـاحب العـرش لإفادة أنهم يدركون أنه المتصرف فـي الكـون، فهـم علـى فـرض المحـال لا يقـدرون على الاستغناء عن التقرب إليه. ويمكن حمل الآية على أنه لـو كـان معـه آلهـة لقـاموا بمقاومته، فيشتغل بمحاربتهم ويشتغلون بمحاربتـه عـن تـدبير الكـون، كمـا هـو شـأن القائمين حول ملك الملوك في الأطـراف، همهـم فـي انتقـاص ملكـه والاسـتبداد بمـا يمكنهم الاستبداد به . وسيرُ العالم بانتظام كامل لا خلل فيه ينـادي بـأن مـا عشـش فـي أذهان المشركين من وجود آلهة مع الله فـرض لا أسـاس لـه. وهـذا التركيـب المفتـتح

بكلمة (لو) يفيد أن الجواب غير متحقق، لأنه مرتبط بما بعد - لو - الذي هو غير متحقق .فقولك: لو طلعت الشمس لعم الضياء. يفيد الكلام أن الضياء لم يتحقق لأن الشمس لم تطلع. فهم لم يبتغوا طريقا إلى ذي العرش (الله) على فرض التقرب إليه مما يفيد عجزهم وعدم ألوهيتهم، أو على فرض محاربته مما يقوم انتظام الكون على نفيه، فعلى الفرضين في فهم (إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا) منتف فانتفى أن يكون معه آلهة كما يقولون .

43- سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

تنزه الله عما تلوكه ألسنتهم، من أن يكون له شركاء، فهو المتعالي الرفيع المقدار الذي هو فوق أن يتصور له شريك، إن البعد بين ما نسبوه لله وبين ما يجب لله من الوحدانية والتفرد، البعد بينهما بعد ينفي ما قالوه.

44-يسبح له السماوات السبع....إنه كان حليما غفورا.

التنزيه الذي افتتحت به الآية السابقة يجد توضيحه في هذه الآية. يثبت القرآن أن السماوات والأرض، وكل كائن على سطح الأرض أو كامن في طبقاتها أو في أي مجرة من مجرات السماوات، ما كان عاقلا وما كان غير عاقل، ما كان حيا متحركا وما كان جمادا، ما كان كبيرا جدا وما كان ضئيلا يدرك حسابيا لا حسيا، الكل يسير في موكب واحد يسبح لله وينزهه .ذهب بعضهم إلى أن كل كائن يهدي بالتأمل فيه إلى أنه مخلوق لله، فيه من الإبداع والإتقان ما يدعو المتأمل إلى التسبيح، وخص بعضهم التسبيح بالنامي كالنبات والحيوان. وذهب فريق آخر إلى أن كل الكائنات الجامدة والمتحركة تنطلق في موكب تمجده وتنزهه عن كل نقص. وهو ما أميل إليه. إني أعتبر أن هذا من الأسرار التي أطلعنا الله عليها ونبهنا إلى أن قوانا تضعف عن إدراك هذه التسبيحة، لكن لا تدركون هذا السر الخفي. وهذا التنزيه ملتبس بإعلان حمده. فكل الكائنات مسبحة حامدة. وهذا الفهم يتلاقى مع ما مر لنا في قوله تعالى: ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته [1].

وانفرد المشركون والكفار عن الموكب، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة لأن من أوصافه الثابتة الدائمة أنه حليم فلا يعاجل بالعقوبة. غفور يقبل توبة من أخلص في توبته.

---

[1] سورة الرعد آية14

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحجاب : الساتر عن الأعين .ومعناه في الآية الحيلولة بينه وبين الإضرار به.

أكنة : جمع كنان وهو ما غطى الشيء .ومنه كنانة النبل .

الوقر : الثقل المانع من السمع، الصمم.

النجوى : الحديث بين القوم سرا.

ضربوا لك الأمثال : حاولوا أن يقارنوك بما يجسم حالك.

فضلوا : تحيروا ولم يهتدوا.

بيان المعنى الإجمالي :

صور القرآن شدة إعراض المشركين، الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، عن القرآن، وأن الله جازاهم بما وطنوا نفوسهم عليه، فَبِجَعْلٍ منه سبحانه كوَّن حجابا فاصلا بينهم وبين النبي ﷺ، وأن هذا الحجاب يؤثر في حواسهم وقد ستره الله عن أعينهم. وكما منع حواسهم فكذلك حرم قلوبهم من التعمق في هديه، فكأن عليها غلافا صفيقا لا يستطيعون معه أن يفهموا أسراره. وكأنهم صم لا تتحرك قلوبهم بما يتلوه ﷺ. كان الظالمون الكفرة يجلسون حول البيت في الوقت الذي كان فيه الرسول يدعو إلى الإسلام ويتلو القرآن، وكان ما يسمعونه من هديه يحرجهم فيتهامسون فيما بينهم، قولوا للذين يتبعونه: إنكم تتبعون رجلا اختلط عقله بعد أن سحر فابتعدوا عنه.

افتضح أمرهم وتجسم كأنه مشاهد لك، إنهم حاولوا أن يقرنوا بينك وبين ما تخيلوه من قلب حقيقتك، فتحيروا ولم يجدوا طريقا يبلغهم ما أرادوا، وكلما ضربوا لك مثلا كان زيفه مكشوفا لا يؤثر ولا يضرك فهم لا يستطيعون أبد أن يشككوا الناس في صدقك .

بيان المعنى العام :

45- وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك ....حجابا مستورا.

بينت الآية السابقة أن تسبيحة الكون تنطلق دون أن يدركها الناس، و قريب من ذلك، أنك يا محمد عندما تقرأ القرآن، أمَّنَّاك من اعتداء المشركين، وجعلنا بينك وبينهم حاجزا يحجبك عنهم، ويحجبهم عن إدراك ذلكم الحاجز. أفلا يقوم هذا مساندا لما بيناه في الآية السابقة أن الكون كله ينطلق في موكب تسبيح لله وتنزيه لا ندركه، وعدم إدراكنا له لا يدل على نفيه كما أن الله حجبهم بحجاب عندما يقرأ الرسول ﷺ القرآن، وحجبهم عن الإحساس بذلك الحجاب .

46-وجعلنا على قلوبهم....وولوا على أدبارهم نفورا.

بينت هذه الآية وجه عدم تأثر المشركين بالقرآن على شدة وضوحه، وإعجازه. فبينت أن الله حرمهم ألطافه التي بسببها يستمعون للقرآن سماعا يتدبرون به في مضامينه؛ فكأن قلوبهم قد غطاها غطاء مانع من حركة التدبر والتفكر في آياته تفكرا يفضي بهم إلى إدراك ما انطوى عليه من المفاهيم. وكأن آذانهم قد أصيبت بالصمم، فتمر الأصوات المرتلة له دون أن تحرك فيهم داعية التأمل والتدبر. إنهم لا يسمعون. لقد نفذ الشرك إلى قلوبهم فتأصل، وأثر في أرجاعهم فهم لا يتحملون سماع ما ينفي ذلك الباطل .صور القرآن هذا، بأنهم إذا نفذت إلى أسماعهم الآيات المثبتة لتوحيد الله المحطمة للشرك الرافعة للشبه لم يصبروا على الاستماع وفروا نافرين كما تنفر الدواب من أي منفر لها .

47- نحن أعلم بما يستمعون به ....إن تتبعون إلا رجلا مسحورا.

كان المشركون يأخذون منازلهم في المسجد الحرام حول البيت، وكان النبي ﷺ يُعَلِّمُ المؤمنين ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن. وكانوا يتهامسون فيما بينهم في أكبر أمر أهمهم، وهو ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد ونقض أسس الشرك، وإثبات البعث والحساب. وكان عُظْمُ همهم نقضَ دين الإسلام، ولكنهم قد عجزوا عن ذلك، لأن الإسلام يقوم على ما يؤيده العقل والمنطق . فولّوْا اهتمامهم إلى الطعن في الرسول والتشكيك في أنه سما سموا بلغ به نقل خبر الله إلى البشرية. كانوا يتحدثون سرا فيما بينهم، والله مطلع على ما يتحدثون به، وإن كان لم يبلغ صداه مدى أوسع من الحلْقة المتناجية. تقول الآية: نحن على تمام العلم بالطريقة التي يستمعون بها إليك، على معنى أنها طريقة تهدف إلى التشكيك لا إلى المعرفة، كما تقول: فلان يستمع باستخفاف. هذا الاستماع الحاصل وهم يتناجون فيما بينهم سرا. ولما لم يجدوا مطعنا في القرآن يمكن أن يروجوه لينفروا الناس منه، حولوا مكرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الظالمون بالشرك، وبالاعتداء عليك باطلا : نعلن أن المؤمنين إن يتبعون إلا رجلا خلط السحر عقله فأتى بما لا يقبل .

48-انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا.

تبدأ الآية بقوله تعالى: انظر. إن الذي يروجونه فيك، بلغ حدا من ظهور فساده ووضوح كذبه، أن أصبح وكأنه شيء مجسم ينظر إليه الناظر فيراه ببصره. افتضحوا في محاربتك فحاولوا تشبيهك ومقارنتك بأمثال لم يستقم لهم منها واحد؛ فضربوا لك المثل بالمسحور في الآية السابقة، وبالكاهن وبالمجنون في أخرى، وبأن القرآن أساطير الأولين، وبالشعر المتخيل. فكان شأنهم شأن الضائع في الصحراء وقد عميت عليه المسالك، فلا يدري الطريق الذي يبلغه قصده. ولا يستطيعون أبدا أن يؤثروا بأقوالهم الزائفة السخيفة، أن يؤثروا فيمن يستمع إليهم.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا إِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

البعث : إحياء الموتى .

رفاتا : فُتاتا .

الخلق : المخلوق .

يكبر : يعظم.

الإنغاض : تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه استهزاء.

يوم يدعوكم : يناديكم بواسطة ملائكته فتساقون إلى المحشر .

تستجيبون : مطاوعة الدعوة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من ضروب التكذيب والمحاجة بالباطل، فقالوا: إنك تدعي أننا سنبعث من جديد يوم القيامة . أيكون ذلك بعد أن تحولنا إلى عظام ثم تفتّتْ عظامنا وأصبحْنا هباء؟ وتولى الله إفحامهم فأمر رسوله أن يقول لهم: سواء أتحولتم إلى تراب أو إلى حجارة صلبة، أو إلى حديد صلب، أو إلى ما تتخيلونه أكبر من ذلك، فإن الله الذي خلقكم أول مرة بأمر التكوين قادر على أن يعيدكم كما كنتم. والإعادة أيسر حسب العرف. وإن كان ذلك بالنسبة لله سواء. إن

هذا الجـواب أفحمهـم ولكـن بقـي العنـاد مستوليا علـيهم فهـزوا رؤوسـهم إنكـارا واستهزاء. وإمعانا في العناد بعد أن أفْحِمُوا. يقولون متـى يحِـل موعـد البعـث ؟ وكـان الجواب حاضرا :يوم يدعوكم الله بواسـطة ملائكتـه إلـى المحشـر فـلا يسـتطيع أحـد منكم أن يتخلف عن تلبيـة النـداء، سـتلبُّون الـدعوة وتسـتجيبون لهـا حامـدين الله، إذ تنتفي في ذلك اليوم كل الشبهات ويظهر الحق جليا لاشك فيه.

بيان المعنى العام :

49-وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا.

مما ظنوا أنهم قد ظفروا به لمواجهـة الـدعوة المحمديـة، قضـية البعـث يـوم القيامـة وإحياء الناس للحساب والجزاء. وإذا كان ادعـاء كونـه مسـحورا ممـا يتهامسـون بـه، فإن إنكار البعث مما أعلنـوه وصـرحوا بـه، ولـذلك فصـلت هـذه الآيـة عـن الآيـة السابقة. قالوا منكرين معلنين: إذا تحولنا إلـى عظـام متفرقـة وانحـل الهيكـل العَظْمِـي، ثم تفتت عظامنا فاختلطت بالتراب، أبعد هذا الوضع مـن التحلـل نُخْلَـقُ مـن جديـد ؟ إن هذا أمر لا يقبل.

50←52: قل كونوا حجارة أو حديدا...قل عسى أن يكون قريبا.

تولى القرآن هدم ما اعترضوا به مـن بعـث ذرات العظـام، ظـانين أنـه لقوتـه مفحمـا ؛فتوجه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يقول لهم: كونـوا حجـارة أو حديـدا أو أي نـوع مـن أنواع المخلوقات التي تتصورونه عظيما عصـيا عـن التـأثير فيـه، فـإن عـودتكم إلـى الصورة التي كنتم عليها في الدنيا ممكنة. ومعنى كونـوا تصـوروا أنفسـكم بعـد مـوتكم كما تشاؤون ذرات من العظام أو حجارة صـلبة أو حديـدا شـديد البـأس فـإن أي حالـة ستكونون عليها يتحقق معها عودتكم إلى الحياة مـن جديـد. وإذ يواجَهـون بهـذا التحـدي سيقولون: من الذي يسـتطيع أن يعيـدنا إلـى الحيـاة مـع جميـع خصائصـنا؟ وكـأنهم يستبعدون وجود قدرة تُنفّذ هذا الأمر المسـتحيل فـي مجـاري العـادة ؟ ويـأتي الجـواب من الله جاريا على النسق العقلي: إن الذي أوجـدكم مـن عـدم وصـوركم علـى الهيئـة التي أنتم عليها الآن، هو الذي سيتولى إعادتكم للحيـاة مـن جديـد. ولا شـك أن الإعـادة أقرب في مجرى العادة وفي نظام العقل. والنقطة التـي انبنـى عليهـا الجـواب واضـحة معقولة ما كان ينبغي أن تخفـى . وهنـا لا يجـدون مـا يحاجونـك بـه إلا أن يحركـوا رؤوسهم حركة استهزاء واستبعاد .

ويتحولون إلى السؤال عـن الموعـد، سـؤالا يحتمـل الـتهكم، كمـا يحتمـل أن يكـون عنادهم قد اهتز . ويعاجلهم الله بالجواب مُلَقِّنًا رسـوله أن يقـول لهـم: أرجـو أن يكـون

الموعد قريبا. إنه اليوم الذي تدعوكم فيه ملائكته الـذين يسـوقونكم إلـى المحشـر وأنـتم طائعون، وتنكشف لكم الحقيقة التـي كنـتم تجـادلون فيهـا فتنطقـون حامـدين لله مثنـين على كماله . وتحسبون أن مدة بقائكم فـي الأرض كانـت مـدة قليلـة ؛ ذلـك أن عمـر الأرض وعمر ساكنيها هو عمر قليل بالنسبة لأيام الله كما قـال تعـالى : **فـي يـوم كـان مقداره خمسين ألف سنة**[1] .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ينزغ: يدخل بينهم ليفسد علاقاتهم .

الوكيل : المسؤول عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

قل يا محمد معلما عبادي ومربيا لهم على المنهج الـذي يقـوي رابطـة الأخـوة بيـنهم : أن يتخيروا في كلامهم الطريقة التي هـي أحسـن مـن غيرهـا التـي بلينهـا وسـماحتها وحسنها تجلب المخاطَب وتربط بين الطرفين علاقـة الـود .ذلـك أن الشـيطان يتـربص بالبشر أي منفـذ يـدخل منـه بيـنهم بالفسـاد فيحرضـهم علـى القطيعـة والبغضـاء .واللسان هو أعظم باب يدخل منه ليقطع التقـارب بيـنهم. إن عداوتـه للجـنس البشـري عداوة ملازمة متأصلة في طبعه.

إن ربكم أيها المشركون الذي تولاكم بعنايته حتى اسـتمعتم لمـا أنـذركم بـه محمـد هـو وحده الذي علِم خفايا صدوركم، وأنه هو الفاعـل المختـار حسـب حكمتـه وعلمـه . إن يشأ بسبب رحمته أن يحيطكم بألطافه فتهتـدوا، وإن يشـأ أن يحـرمكم مـن ذلـك تبعـا لما وطنتم عليه أنفسكم من العصـيان فتعرضـوا ويعـذبكم. ولا تـأس يـا محمـد علـى خاتمة الضالين فإنك مرسل لتبلغهم وَحْيي ولست مسؤولا عن اهتدائهم.

إن ربك يا محمد عالم العلـم الكامـل بجميـع الكائنـات فـي السـماوات وفـي الأرض، وتبعا لعلمه وحكمته يتخير من البشر من هو أقـدر علـى تحمـل مهمـة الرسـالة، كـذلك

---

[1] سورة المعارج آية 4

يتخير من بين ملائكته من يقوم بالمهمة على أفضل الوجوه. وكما فضل الرسل على غيرهم من الناس، فكذلك فضل بعض النبيين على بعض، وخص محمدا بما لم يبلغ إليه غيره إذ ختمت به الرسالة، وكانت رسالته عامة للعالمين، وتولى الله حفظ الكتاب المنزل عليه. وما يدعيه اليهود من أن التوراة آخر كتاب لا حقَّ بعده، كذب وتهويش. ذلك أن اليهود يعترفون بأن الله بعث سيدنا داود عليه السلام وأعطاه الزبور كتابا أدمجه اليهود في نص التوراة .

بيان المعنى العام :

53- وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن....عدوا مبينا.

يعمل المشركون بكل ما أوتوا من أساليب المكر ليقاوموا المد الإسلامي .ومن أنجع ما يخيبهم ويرد كيدهم في نحرهم، قوة مجتمع المؤمنين. فطلب القرآن من الرسول أن يعلمهم ويحوّل التربية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي إلى منهج جديد يضمن وحدتهم وتكاتفهم، حتى يكونوا سدا في وجه الشرك العاتي أولا، ويعطي من جانب آخر صورة للإصلاح. إن الإصلاح يقوم أساسا على تقويم سلوك الأمة وتعميق روابط الأخوة، ومنع كل ما يمكن أن يفرق الكلمة.

لذا أمر القرآن النبي ﷺ أن يدعو المؤمنين إلى أن يكونوا حراسا على ألسنتهم حراسة تحصنهم من البذاءة وقول السوء، وتمكن فيهم عادة تخير القول الأحسن . فكلما كان لطريق التخاطب وجه حسن ووجه أحسن فالمؤمن مطالب بمقتضى إيمانه أن يتخير الوجه الأحسن الجالب للقلوب المؤكد للرابطة الأخوية . كان المجتمع الجاهلي في هذا يمثله قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا-

وكانوا يرون في اللطف والعفو ضعفا وخورا. ولذا كثر القتال بينهم، وتمزق المجتمع إلى وحدات صغيرة قبلية لا تبني أمة، ولا تستطيع أن تحمي نفسها، ولا أن تقيم حضارة. والإسلام عني بغرس المبادئ التي تحقق حضارة إنسانية رفيعة،وتبني المجتمع على أساس السلم والتعاون بين أفراده وشعوبه ليتوفقوا فيما أوكله الله إليهم من الخلافة الصالحة في الأرض .

لينتبه المؤمنون أن الشيطان يتربص الخلل الذي يستطيع أن يدخل منه ليمزق نسيج المجتمع، ويفرق بين الإخوة. وفي الكلمة النابية والقول السيء ما يفتح له المنافذ ليضخم ذلك ويحفر هوة البغض والكراهية، ولا يتبعهما إلا الشر. اعلموا أن الشيطان قد محض كل خبثه، وهو الخبيث الذي ليس وراء خبثه ما يساويه فسادا،

محض خبثه بناء على عداوته المتأصلة للبشر البينـــة والواضـــحة، ليفســد علـــيهم حيـــاتهم في الدنيا وفي الآخرة.

54- ربكم أعلم بكم ...وما أرسلناك عليهم وكيلا.

ربكم الذي تولاكم فأعانكم بألطافه حتـــى بلغـــتم المبلـــغ الـــذي أنـــتم عليـــه، والأرجـــح أن الخطاب للمشركين. يقول الله محركـــا ضـــمائرهم بإضـــافتهم إليـــه مـــن ناحيـــة، وليثبـــت تبعا لذلك أنه لا يخفى عليه من أمرهم شيء. وأنه كما حـــولكم مـــن وضـــع إلـــى وضـــع حتى بلغتم المستوى الذي أنتم عليه الآن، فإنه عـــالم العلـــم الكامـــل بكـــم. وأنـــه يســـعدكم بألطافه إن شاء ذلك، تبعا لحكمته فيتيسر علـــيكم برحمتـــه تلـــك طريـــق الاهتـــداء إلـــى الحق، كما يحرم من شاء منكم من تلكم الرحمة ويحجـــب تلكـــم الألطـــاف ويتـــرككم لمـــا وطنتم عليه أنفسكم، فتكونون مؤهلين للعـــذاب فيعـــذبكم . ولا تحـــزن يـــا محمـــد لمـــآل الصادين عـــن ســـبيل الله الممعنـــين فـــي العصـــيان، فمـــا أرســـلناك إلا مبلغـــا، ولســـتَ مسؤولا عن عدم اهتدائهم .

55-وربك أعلم بمن في السماوات ...وآتينا داود زبورا.

تتابعت الآيات من قوله تعالى: **وإن مـــن شـــيء إلا يســـبح بحمـــده** كاشـــفة عـــن علمـــه سبحانه الذي لا يغيب عنه أي شيء، وعـــن أســـرار لا يعلمهـــا إلا هـــو ســـبحانه، منهـــا جعله حجابا مستورا لا يدركه الجاحدون، وكون قلـــوبهم عليهـــا غـــلاف حاجـــب، وصـــفة استماعهم للقرآن، وبيان معقوليـــة البعـــث وكيـــف يـــتم، وطريقـــة الشـــيطان فـــي هتـــك النسيج الاجتماعي بـــين المـــؤمنين، وكيفيـــة التحصـــن منـــه بحفـــظ اللســـان، وعلـــم الله بأحوال النفوس هو علم ارتبط بحكمته فهدى من شاء وحرم من ألطافه من شاء.

وفي هذه الآية يتوجه الخطاب من الله إلـــى رســـوله رافعـــا لـــه إلـــى مرتبـــة التقريـــب، بربط رب العباد جميعا برســـول الله بصـــفة خاصـــة **(وربـــك)** ليعلمـــه بســـر غُـــمَّ علـــى الناس فلم يهتدوا لسره: ما هو السر في اختيار الـــذين اختـــارهم لتبليـــغ رســـالاته ؟ فكـــان ما يذيعه عليهم يذهب بالتساؤل والعجـــز عـــن الإجابـــة .حاصـــله : أن الله يعلـــم أســـرار مخلوقاته في السماوات، وأسرار مخلوقاته فـــي الأرض علمـــا دقيقـــا، فهـــو تبعـــا لـــذلك يتخير من بين عباده من يوكل إليه أمـــر إبـــلاغ وحيـــه، وشـــرحه، وهدايـــة النـــاس إلـــى المنهج الذي يرضى عنه. فَتَخَيُّر شخص معـــين مـــن بـــين ســـائر البشـــر لـــيس اعتباطـــا ولكنه صادر عن علم. فكشف أن المختار هـــو أفضـــل النـــاس للقيـــام بالمهمـــة، وكـــذلك يصطفي من ملائكته من يوكله بإبلاغ ما يريد إبلاغه، وكل ذلـــك هـــو صـــادر عـــن علـــم كامل وحكمة، لا يدخلها زيـــغ. قـــال تعـــالى: **الله يصـــطفي مـــن الملائكـــة رســـلا ومـــن**

الناس[1] - فاعتراض المشركين على اختياره تعالى لمحمد ليكون خاتما لرسله اعتراض مبني على جهل بأسرار الاختيار التي لا يعلمها إلا هو. وهو على نفس المستوى في اختياره الرسل الذين جاؤوا قبله. وأدمج في الآية مع ذلك أن الله لم يجعل رسله على مرتبة سواء، بل فضل بعضهم على بعض. فتفضيل محمد ﷺ بختم الرسالة وإرساله للعالمين جميعا، هو تابع أيضا لعلمه المحيط. وما اعترض به اليهود: إن آخر كتاب هو التوراة المنزل على موسى، اعتراض لا سند له ودعوى كاذبة، لأن اليهود يعترفون بأن الله آتى داود الزبور وهو بعد موسى ويعتبرون كتابه جزءا من التوراة.

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يستطيعون.

كشف: إزالة .

تحويل : نقله عن موقعه.

الكتاب : علم الله .

مسطور : ثابت لا يتبدل .

ما منعنا : الحكمة التي من أجلها لم نظهر ما طلبوه من الآيات.

نرسل : نظهر الآيات.

مبصرة : واضحة الدلالة.

---

[1] سورة الحج آية 75

بيان المعنى الإجمالي :

من الحجج التي مكن الله منها رسوله ﷺ ليتحداهم ويظهر بصفة واضحة خطأهم. قل لهم يا محمد: ادعوا البشر والملائكة الذين زعمتم أنهم آلهة ليكشفوا عنكم أي ضر يصيبكم، بكل تأكيد لا تجدون منهم جوابا أبدا. إن الذين تدعونهم هم فقراء إلى الله يبتغون مرضاته، والأشد قربا منهم من الله يطلب الوسيلة التي تزيده قربا منه فكيف بغيرهم. وهم جميعا متعلقون برحمته التي هي خير ما يتمسكون به للنجاة، ويخشون عذابه، وعذاب ربك حقيقٌ بأن يحذره العارفون بجلاله وقدرته.

وليحذروا فإن كل قرية ظالمة سيهلكها الله قبل يوم القيامة، أو يسلط عليها عذابا شديدا. إن هذا الحكم ثابت في علم الله لا يتغير ولا يتبدل.

والحكمة التي من أجلها لم نستجب لما طلبوه من الآيات، أن الآيات التي يقترحها المصرون على الكفر لا تفيد ولا تفتح بصائرهم إلى الإيمان. على هذا جرى المكذبون من الأمم السابقة. وقرى ثمود المدمرة، التي تمرون عليها في رحلاتكم إلى الشام، تكشف لكم نهاية من جاءته آية واضحة فكذب بها. فإنا قد أعطيناهم الناقة آية مع أخيهم صالح عليه السلام فظلموها وعقروها.

بيان المعنى العام :

56-قل ادعوا الذين زعمتم من دونه...ولا تحويلا.

تتابعت الآيات السابقة من قوله تعالى : **قل لوكان معه آلهة** (42) وما بعدها تبطل الشرك بصفة عامة، أو تبطل مقالاتهم أوتبين إعراضهم عن الحق تعصبا. وانتهت إلى ضرب مجموعة من مقالاتهم ضربة واحدة، عندما بين في الآية السابقة أن تخير محمد والمرسلين من قبله كان مبنيا على علم شامل لمن في السماوات والأرض، وأن كل واحد في وقته هو أفضل من جميع معاصريه. ويتفق كل المرسلين على التوحيد، واقتلاع الأوهام التي عششت في العقول فأفسدتها. تولت هذه الآية ردا عاما شاملا لكل انحراف جعل من هؤلاء آلهة يعبدون؛ فقد ألّهوا عيسى عليه السلام، وادعى آخرون أن عزير بن الله، واتخذ بعضهم الملائكة آلهة. فأفادت الآية السابقة أنهم عباد لله تخيرهم الله لتحمل ما حملهم إياه. وأفادت هذه الآية أنهم لضلالهم رفعوهم لمرتبة الألوهية وهم براء منها. ينفي ألوهيتهم أن عبَّادَ الرسل والملائكة كلما دخلوا في أزمة واستغاثوا بهم لم تفرج كربتهم، إذ ليست لهم قدرة تسعدهم بإزالة الضر النازل بهم عندما تضيق بهم سبل العلاج . وكلما دعوهم لِغَوْثِهِمْ ما من مجيب، بل لا يستطيعون حتى تحويل ما نزل بهم إلى موطن آخر. وبذلك انتفت الوهيتهم، لأن شأن

المعبود أن تكون له القدرة على إنقاذ عابديه من الضر النازل بهم إذا استغاثوا به . فإذ لم تتحقق منهم إجابة ولو مرة واحدة فهم ليسوا آلهة.

57-أولئك الذين يدعون يبتغون ...إن عذاب ربك كان محذورا.

بعد أن أبطلت الآية 56 كونهم آلهة، بدليل أنهم لا يستطيعون نصرهم في الأزمات عندما يدعونهم، تأتي هذه الآية مبينة لحقيقة أمر أولئك المتميزين من خلق الله الذين عبدوهم، فيقول القرآن لعَبَدَتِهم :إن الذين تدعونهم من دون الله، هم يسيرون في خط معاكس لتصوراتكم، فهم يعملون جاهدين للظفر بالوسيلة التي يكونون بها أقرب إلى الله، هم عبيد له خاضعون، وكل همهم أن يتفضل الله عليهم برحمته، وهم يخشون عذابه. وكيف لا يخشون عذابه ! فإن العذاب الذي يسلطه ربك يا محمد عذاب يعرفون شدته ويحذرونه أشد الحذر.

وبنا أن نفصل في نسج الآية لرفع بعض ما يعترض التالي من غموض، فأقول: أولئك الأنبياء والملائكة الذين يدعونهم من دون الله، هم يطلبون راغبين إلى ربهم بالوسيلة التي يرون فيها أنها تكسبهم رضاه، يفعل هذا أي واحد منهم هو أقرب منزلة من الله، وإذا كان هذا حال الأقرب فإن غيره أشد رغبة في ذلك . ويجمعهم كلهم أنهم يرجون رحمته، لأنهم يدركون أتم الإدراك شدة حاجتهم لهذه الرحمة التي لا يستغنون عنها، بل هي غاية ما يسعون إليه . وهم وجلون من عذابه، فإن من يعرف مكانة المعبود من العابد، ومكانة الإنسان الضعيف بالنسبة إلى الله العلي الأعلى الكامل القوي المتين، لا يكون إلا حذرا من غضبه وعقابه. فاستقام بذلك حصْدُ ما استقر في تفكيرهم، من أن الملائكة والأنبياء أحرياء بأن يقدسوا تقديس العبادة. وفي هذا ما يدعو المسلمين أن يفردوا الله بالتوجه وأن لا يتخذوا وسيلة إليه إلا دعاء هو الإخلاص في عبادته ، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

58- وإن من قرية إلا نحن مهلكوها....في الكتاب مسطورا.

كل أهل قرية فشا فيها الظلم، وخرج أهلها عن حدود الله، ولم يحصِّنوا أنفسهم بما شرعه الله من التحصينات الخلقية والمادية، يسلط الله عليهم ما يهلكهم بشرا أو بشرا ومباني . أو يسلط عليهم عذابا شديدا . فليس المراد من الآية إهلاك جميع القرى، فإن ذلك الإهلاك يكون عند قيام الساعة عندما تتعلق الإرادة الإلهية بإفناء الأرض. والله يقول: **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** [1] – هذا

[1] سورة يونس آية 117

محقَّق لا يتخلف، إنه مسجل في علم الله الأزلي الذي لا يتغير. وفي هذه الآية تهديد للمشركين بأن استئصالهم قد يكون محققا إذا هم لم يؤمنوا.

59- وما منعنا أن نرسل بالآيات....إلا تخويفا.

يواصل القرآن محاجة المشركين ونقض ما يستدلون به. فمن ذلك أنهم برَّرُوا عدم إيمانهم بعدم الاستجابة لما طلبوه من رسول الله ﷺ : أن يأتيهم بمعجزات عيَّنُوها كقولهم : لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء نقرأه حتى يكون لك بيت من زخرف . حتى يكون معك ملك. وهذا رشح شدة كفرهم وجهلهم بالعزة الإلهية التي لا تنزل إلى استجابة المطالب التي يقترحونها، كما قال تعالى : (**وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء**)[1] ولم يجبهم الله لما طلبوه أيضا، لأن المعاندين شأنهم شأنٌ واحد في الحاضر والماضي . وقد طلبت الأمم الرافضة من أنبيائهم معجزات لم تصرفهم عن كفرهم لما جاءتهم . من أمثلة ذلك قوم ثمود الذي يمر القرشيون على ديارهم الخربة المدمَّرة في طريقهم إلى الشام. فقد أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام وأيده بالناقة التي كانت آية واضحة، فما كان منهم إلا أن ظلموها فعقروها ودمَّرُوا إثر ذلك تدميرا.

لتعلموا أنا لا نرسل آياتنا بإظهارها إلا تخويفا بالعذاب الملازم لظهورها وعدم الإيمان بها. والله قد قدَّر أن يُبْقِيَ على قريش، لأن من حكمته الأزلية قدَّر أن يلينوا للإسلام بعد عنادهم، ويكون منهم ومن ذرياتهم دعاة لدين الله ناشرين له في الآفاق، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، وبشارة للمؤمنين معه وقت نزول الآية.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم

---

[1] سورة الأنعام آية 91

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أحاط بالناس : غلبهم فلا يستطيعون الانفلات مما قضى به عليهم.

الفتنة : اضطراب الرأي .

الملعونة : المذمومة. أو التي هي مكان ملعون لا يطعمها إلا الملعونين.

لأحتنكن : أصله لوضع الفارس اللجام في حنك الفرس ليتحكم في تسييره. كما يطلق على الاستئصال ومنه احتنك الجراد الأرض إذا أكل ما عليها.

موفور: كثير.

الاستفزاز: الإثارة إثارة تمنع التثاقل.

الصوت : الوسوسة.

أجلب : أجمع وألَّب.

الخيل : أصله الأفراس، والمقام يصرفه للقادة الذين هم تحت إمرتك.

الرجل : اسم جمع للرجال.

عدهم : أمر بتقديم الوعود التي تطمعهم.

الغرور: إظهار المكروه في صورة المحبوب

السلطان: الملكية والتغلب.

وكيلا: حافظا وقيما على هدايتهم.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد ما أخبرناك به: أن ربك أحاطت قدرته بالناس فهو يتصرف فيهم تصرفا لا يجدون عنه محيدا، فلا تأسف لما تلقاه منهم فإنهم في قبضتنا. وتسَلَّ ولا تحزن من تكذيبك لمَّا أخبرتهم بما أكرمناك به في الإسراء والمعارج، فقد جعلنا ذلك سببا لتعميق فتنتهم . وكذلك ما كشفناه في القرآن من شجرة الزقوم في جهنم واستبعادهم مكذبين أن تنبت النارُ شجرة وهي توقد بالشجر. فقد كشفنا عن ذلك لتخوفهم ليرتدعوا، ولكن لكون الكفر قد طبع على قلوبهم،فقد زادوا استكبارا وطغيانا شديدا.

وهذا الاستكبار انجر إليهم من إبليس الذي أمره الله بالسجود مع الملائكة لآدم فأطاعت الملائكة وعصى إبليس. وخاطب رب العزة وقد ملأت نفسه شحنةٌ من الحسد والاستكبار، فصرح معترضا كيف أسجد لمن هم مخلوق طينا! فأسقط ما

تميز به آدم من العقل والروح والتحولات التي دخلت في الطين وحولته إلى الخلقة الإنسانية الجميلة، وواصل: أخبرني ما هي ميزة هذا المخلوق التي بها كرمته علي! أؤكد تأكيدا كبيرا أنك إن لم تقض عليَّ وأخرتني إلى يوم القيامة لأتسلط على ذريته تسلطا يمكنني من التحكم فيهم وقيادتهم إلى حيث أشاء، إلى الكفر والعصيان، كما يقود الراكب دابته بلجامها، وينفلت قسم قليل من قيادتي يكون صالحا.

أثِرْهم إثارة قوية يتبعونك بها بواسطة وسوستك وبالناشطين من أتباعك المتمرسين بالإغواء، وبرجالك، وليبلغ تأثيرك أن لا يتصرفوا في أموالهم إلا في الوجه الذي يرضيك شأن الشريك مع شريكه، كذلك اصْرِف إنجابهم لأولادهم إلى ما يناقض صفاء الانتساب ويقربهم من الأصنام .وأخرجهم عن الواقع إلى الخيال فعدهم الوعود التي لا تتحقق، والوعود التي ظاهرها محبوب وباطنها خراب لهم ولمجتمعهم . والشيطان لا يعد أتباعه إلا وعدا يَغُرُّهُمْ به.

ويختم المقطع بمخاطبة إبليس ما يفيد أنه عاجز عن إغواء من تعلق بربه تعلق العابد بالمعبود، وأنه لا يتغلب على من عمَّر قلوبهم ضوءُ الإيمان بالله وتقواه، وإن ذُهِلَ بعضهم لفترة قصيرة فإنه يستيقظ سريعا ويعود إلى ربه تائبا ضارعا. وكفي بربك يا محمد حافظا للمؤمنين.

بيان المعنى العام :

60-وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس.....إلا طغيانا كبيرا.

واذكر ما يخوف المشركين، أو كن ذاكرا، ما ثبتناه في قلبك: إن ربك أحاطت قدرته بالناس فلا يستطيع أي منهم أن ينفلت من نفاذ ما قدره سبحانه. وفي ذلك تأنيس لرسول الله ﷺ، وتقويةٌ لعزيمته على الصبر، وبشارة بنصره. فلا تحزن من مواقفهم التي فصلتها الآيات السابقة والتي أتت عليها من القواعد.

وبناء على أن الجملة الأولى ترمي إلى تثبيت النبي ﷺ وتأكيد نصره، فقد عطف عليها ما لقيه النبي ﷺ بعد أن أخبر قريشا بإسرائه وما شاهده عندما عُرِج به إلى السماء. اتخذ المشركون ما رآه وما أخبر به مغمزا في صدقه، وقالوا : إن المسافة بين مكة وبيت المقدس لا يقطعها التجار إلا في شهر ذهابا وشهر إيابا، فادعاء محمد أنه قطعها في فترة قليلة من الليل دعوى لا يمكن تصديقها. وفُتِنَ بعض ضعفة الإيمان .فيقول الله لنبيه لقد رأيتَ رأي العين ما حققته لك في الإسراء والمعراج. وكانت هذه الرؤيا رؤيا في اليقظة لا في المنام كما ذهب إليه المحققون. ذلك أنها لو كانت رؤيا منامية فإنه لا موجب لاستبعادها ولا للافتتان بها . والقرآن

يثبت أن المشركين فُتِنوا وفَتَنوا ضعفة المؤمنين. فما كانت هذه الكرامة التي أكرمناك بها إلا السبب في عمق فتنة المكذبين الكافرين.

وكذلك ما جاء في القرآن من إثبات أن شجرة الزقوم شجرة في جهنم قال تعالى في وصفها (**أذلك خير أم شجرة الزقوم *إنا جعلناها فتنة للظالمين *إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم *طلعها كأنه رؤوس الشياطين**)[1] فأخذ المشركون هذا الخبر مثارا للسخرية والتكذيب والاستهزاء، ونسب إلى أبي جهل أنه قال : إن محمدا يتوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر، والنار تأكل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر جارية له فأحضرت تمرا وزبدا وقال لصحبه : تَزَقَّمُوا، استهزاء . ووصفت الشجرة في هذه الآية بالملعونة، باعتبار أن مكانها مكان اللعنة، أو بالنظر إلى أنه لا يأكل منها إلا الملعونون المطرودون من رحمة الله. وبالجملة فقد زادهم هذا الخبر من الغيب فتنة.

إن ما أخبر به القرآن من وصف النار ومن بعض أحوال القيامة، ومما يترصدهم من عذاب الدنيا والهوان إن هم لم يؤمنوا، الغرض منه أن يكسر شيئا من طغيانهم، ويعرّفهم بما يخوفهم ليسرعوا إلى تحصين أنفسهم بالإسلام. ولكن العناد المتأصل والكفر الشديد جعل قلوبهم قاسية لا تلين، بل كان إصرارهم يضاعف طغيانهم.

61←62، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا.... لأحتنكن ذريته إلا قليلا.

لما ذكر في الآية السابقة أن تخويفهم ما يزيدهم إلا استكبارا وطغيانا، وصل ذلك بأصل هذا الاستكبار، الذي سرى إليهم من إبليس. فأمر نبيه بأن يذكر لهم قصة إبليس التي قد تقدمت في سورتي البقرة والأعراف. ونخص بالبيان هنا مالم نتعرض له في الموقعين السابقين. سجل القرآن أن إبليس عزم على الاعتراض على الأمر الإلهي بمجرد ما سمعه، وبوقاحة قبيحة استفهم كيف أسجد للذي خلقته طينا، فمن شدة تغيظه واحتقاره لآدم لم يَرَ فيه إلا العنصر الترابي وتجاهل ما رُكِّز فيه من سلامة الفطرة وتفتح الروح للسمو. ثم واصل بقوله أخبرني ما وجه تكريم هذا الكائن وتقديمه علي؟ فهو يحتقره ولا يسميه باسمه ويشير إليه كشيء لا قيمة له ولا تميز. ثم يواصل: بكامل التأكيد لئن لم تَقْضِ عليَّ وأمهلتني فسوف أقود بالإغواء ذريته وأطوع الكثرة الكاثرة لما أريده منهم من العصيان والكفر، أو لأستأصل منهم جوانب الخير، ولا يسلم مني إلا القليل .وما أعلنه إبليس هو ما

---

[1] سورة الصافات 65/62

سيقع فعلا، ولكن لا يُظَنُّ أنه مطلع على الغيب، فإنه أحقر من ذلك، ولكن العلم الإلهي: أن أغلب بني آدم سيضعفون أمام وسوسته الخبيثة، ويفضلون ما يدعوهم إليه، فألقى الله في نفس إبليس ما نطق به .

63-قال اذهب فمن تبعك منهم ... جزاؤكم جزاء موفورا.

افتتحت الآية بكلمة: اذهب التي هي بمعنى انصرف، وهي مضمَّنة معنى الطرد والاحتقار. يقول الله : قدَّرتُ أن من تبعك منهم وخضع لإغوائك، أن تكون عاقبته كعاقبتك وأن جزاءكم جميعا جهنم جزاء وافيا غير منقوص .

64- واستفزز من استطعت....وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

تسلطْ عليهم بكل قوتك وإمكاناتك، وفصل ذلك : أثِرْ مَنِ استطعت أن تتسلط عليه منهم إثارة تحركهم فيندفعون في متابعتك غير متثاقلين ولا مترددين، بوسوستك التي تبلغ أعماق شعورهم (**واستفزز من استطعت منهم بصوتك**) واهجم عليهم بالقادة من أعوانك وبأولي البأس منهم المدرَّبين الذين يحسنون الكر والفر، ويحيطون بهم من حيث لا يدرون .(**وأجلب عليهم بخيلك ورجلك**) تجسيم لمعركة شرسة بين ما استقر فيهم من الفطرة، وبين نوازع الشهوة وظلام العواطف. ووجِّهْهُمْ توجيها في التصرف في أموالهم، تطوعهم به تطويعا لايخرجون معه عما تحدده لهم كأنك شريك لهم، فتسلبهم الاختيار بين الإنفاق الصالح فيبتعدون منه، وبين الإنفاق الخبيث فيقدمون عليه . فيجعلون نصيبا منها لأصنامهم، ولقضاء شهواتهم، ولمقاومة الإسلام. وتشاركهم في أولادهم، فقد سَوّلَ إبليس للعربي الذي يرغب في نجابة الولد أن يمكن الفتى الذي يراه قد جمع صفات الرجولة من زوجته ويعتزلها حتى تحمل منه، ومن تيسير الزنا بالبغايا، وأن من ألحقت البغي مولودها به من الذين ضاجعوها التحق به . وسموا أولادهم عبد العزى وعبد اللات. ومن ذلك الوأد خوفا من العار، وقتل الأولاد خوفا من الفقر. فإبليس يوجههم إلى طريق الشر بقوة تأثيره فيهم فيتبعونه. وتسلط عليهم بسعة الأماني فيبتعدون عن الحياة الواقعية الخاضعة لصرامة التفكير. وتختم الآية بقولٍ فصلٍ من الله، يصلح أن يكون مثلا يجري على كل من كان غير واقعي[**وما يعدهم الشيطان إلا غرورا**]. فالشيطان يعدهم بما تكون عاقبته فسادا. فيحبب لهم القتل لشفاء غيظهم، والزنا لإشباع الشهوة، والغارة للاستيلاء على الأموال والنساء، فيغترون بالصورة الظاهرية المحبوبة، ويوقع بينهم بذلك البغضاء وسفك الدماء، والاستكبار، ونحو ذلك.

65- إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا.

هذه الآية تختم الخطاب الذي توجه به الله إلى إبليس ليقمعه، ويعلن رب العزة أن البشر الذين ربطوا عقولهم وأرواحهم بالله مستشعرين دوما أن شرفهم في كونهم

عبادا له، الذين لم ينقطع الخيط النوراني الذي يصلهم بخالقهم. هؤلاء أنت عاجز عن إغوائهم أو التغلب على مقاومتهم للرذيلة وللكفر. هم متحصنون بعبوديتهم لي فأنت مهزوم أمامهم. وكفى بربك يا محمد قيما على هدايتهم. وليس معنى هذا أن عباد الله معصومون من الوقوع في الإثم، ولكن معنى ذلك أنهم يستيقظون سريعا إذا انجذبوا إلى وسوسته فيبادرون بالتوبة التي تطفئ ظلمة الخطيئة وغبش الإثم. قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)[1]

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يزجي : يسوق سوقا بطيئا.

البحر : الماء الكثير بما يشمل الأنهار الجارية كالنيل.

الابتغاء : الطلب.

فضله : رزقه.

ضر البحر : خوف الغرق.

ضل : فقد.

أعرضتم :تركتم دعاء الله.

كفورا : جاحدا للنعم. غير شاكر.

الخسف : انقلاب ظاهر الأرض في باطنها.

الشق : الجانب .

---

[1] سورة الأعراف آية 201

الحاصب : الرامي بالحصباء .

الوكيل : المدافع عن موكله.

تارة : مرة .

القاصف : المكسر.

تبيع: من يتبع الأخذ بثأركم .

بيان المعنى الإجمالي :

لفت القرآن الأنظار إلى بعض المنن الإلهية وموقف بعض الناس منها. فمن ذلك أن الله هو الذي سخر لكم الفلك في البحر فسيَّرها سيرا هادئا رقيقا تساعدكم على نيل فَضْلِ الله عليكم من تجارة وتواصل بشري وأسفار. كان ذلك بفضله رحمته. وقد يهيج البحر فتخافون من الغرق، وتجأرون بالدعاء طلبا للألطاف وللعون ولا تجدون مجيبا لكم إلا الله . أما معبوداتكم فهي مغيَّبَة، تدركون أنها لا تستطيع مساعدتكم .وعجب لأمركم أنه بمجرد ما نزلتم إلى البر تركتم دعاء الله وعدتم إلى ماكنتم عليه . والإنسان من طبعه كفر النعمة التي تتردد بين السهو عن شكر مسديها وبين الإنكار له ولما يمنحه.

أجهلتم أن الله قادر على أن يخسف بكم الأرض التي ظننتم أنكم تكونون في أمن على ظهرها ؟. أو أن يرسل عليكم حصى من السماء يحصبكم بها فتمزقكم، ثم لا تجدوا من يدافع عنكم؟ هل تأمنون أن يجلبكم مرة أخرى للسفر في البحر فيرسل عليكم ريحا شديدة تكسر صواري سُفُنِكُمْ وتحطمها فيبتلعكم البحر وتذهبون لا قيمة لكم ولا من يتبع زوالكم يطالب بتعويضٍ عن ذهابكم .

لقد كرمنا بني آدم من خمسة أوجه : أنا كرمناهم، وجعلنا لهم حرمة تمنع إذلالهم، وسخرنا لهم البحر لتحملهم السفن، وسخرنا لهم ما يركبون من الحيوانات، ومكناهم من أطايب المأكولات والمشارب، وجعلناهم مفضلين على كثير من مخلوقاتنا . فهي منن تدعو إلى شكر المنعم باللسان، وبصرف النعم فيما خلقت له بالوجه الحلال.

بيان المعنى العام :

66- ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر...إنه كان بكم رحيما.

لَفْتٌ لأنظار الناس جميعا إلى نعمه المتنوعة، وألطافه الميسرة للانتفاع بما في الكون، فمن ذلك أنه بعنايته قدر الأسباب التي بها تسير الفلك على سطح البحار والأنهار سيرا هادئا ؛ وبذلك أوجد لكم طريقا من طرق طلب الرزق بالتجارة والاتصال بين القارات، وبلوغ مقاصدكم العبادية والدنيوية .إن ذلكم الترتيب الذي

شمل كل جزئية من جزئيات الرحلات البحرية، كدفع المـاء للثقـل الـذي تحويـه السـفن بمقادير محددة مضبوطة، والريـاح المسـيرة والطاقـة المحركـة، والعلامـات الضـابطة للاتجـاه، وغيـر ذلـك، كـل ذلـك لتعلمـوا أن الله رحمكـم رحمـة تشـمل ماضـيكم وحاضركم ومستقبلكم.

67- وإذا مسكم الضر في البحر ...وكان الإنسان كفورا.

بعد أن بسط نعمة السير في الفلك، ذَكَّرَ البشـر بـأحوال اسـتثنائية فـي ركـوب البحـر. ذلك أن ركاب البحر قـد يتعرضـون لهياجـه وتلاطـم أمواجـه، ويسـري فـي قلـوبهم الخوف من الغرق. وفي هذه الحالة يُذَكِّرُ، بصفة خاصـة، المشـركين فيقـول لهـم: إنكـم تدعون الله وحده لكشـف كـربتكم، وغـاب عـنكم كـل الـذين تتوسـلون إلـيهم عـادة. والعجب أنكم إذا أَبْلَغْتُكُمْ ساحل النجاة ونزلتم إلى البر عـدتم لمـا كنـتم عليـه مـن دعـاء الأصنام. ركب في طبع الإنسان كفره بالنعم. هـذا الكفـر الـذي أدنـى درجاتـه نسـيان النعمة ويتبع ذلك الذهول عن شكرها. وأعلى درجاته فـي السـوء الكفـر والعيـاذ بـالله . إن الإنسان لضعفه يكون شعوره حـادا بالنعمـة فـي أول أمرهـا، فـإذا اسـتمرت معـه ضَعُف شعوره بها إلى حد نسيان شكر الله عليها. إنه مـن أعظـم المـنن علـى الإنسـان نعمة الإيمان، ثم نعمة العقل، وتتوالى النعم فـي كـل لحظـة بمـا ييسـره للإنسـان مـن التنفس إلى استقامة الحواس إلى ما لا نُحْصِي له عـدا. ومـا منـا إلا وهـو غافـل عـن الفضل الإلهي بتفاصيله. فليُعَوِّدْ كـل مـؤمن نفسـه علـى شـكر الله فـي جميـع أوقاتـه بلسانه وبصرف النعم فيما خلقت له. وصدق الله: وقليل من عبادي الشكور[1]-

68- أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر..ثم لا تجدوا لكم وكيلا.

نبَّههم إلى غفلتهم بظنهم أنه إذا بلغوا الساحل ونزلوا فقـد نجـوْا نجـاةً لا خـوف بعـدها ؛ نبههم إلى أن هـذا وهـم وسـألهم سـؤال إنكـار : كيـف تـأمنون أن يخسـف الله بكـم الرصيف الذي نزلتم به فتبتلعكم الأرض، فيكـون إهلاكهـم مـن الأسـفل ؟ أم أمنـتم أن يسلط الله عليكم بَرَدًا شـديدا يضـربكم ضـرب الحصـباء المتتابعـة، وفـي الحـالتين لا تجدون وكيلا يدافع عنكم بما يحميكم من قدر الله؟

69-أم أمنتم أن يعيدكم فيه...ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا.

بل هل أنتم في أمن من أن ييسر لكم الأسـباب فتعـودون مـرة أخـرى لخـوض عبـاب البحر، وفي لحظة يرسل عليكم الـريح التـي تكسـر الصـواري وتـدفع أمـواج البحـر

---

[1] سورة سبأ آية13

دفعا يحطم سفنكم وتغرقون؟ إن غـرقكم ورفـع الألطـاف عـنكم هـو بسـبب كفـركم، وأنتم في هذه الحالة عاجزون عن رد البلاء، كمـا أنـه لـيس لكـم مـن يأخـذ بثـأركم، فيبتلعكم البحر وتذهب آثاركم. هذا جزاء مـن يغفـل عـن النعمـة ولا يشـكر عنهـا ربَّ العالمين المنقذَ اللطيف الكريم.

70-ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم....ممن خلقنا تفضيلا.

عموم بعد خصوص إذ أبرزت الآيات السابقة تمكين الإنسـان مـن قطـع البحـار فـي رفق ولين، وإنجائهم عند ما تتلاطم الأمواج وهم يستصـرخون ربهـم، ومـن لطفـه بهـم لم يخسف بهم الأرض بعد أن نزلوا إلـى البـر .وأدمـج تهديـد المشـركين بـأنهم فـي قبضة الله . أما هذه الآية فقد بسـطت خمـس مـنن جليلـة أنعـم الله بهـا علـى البشـر جميعا:

أولا: تكريم الإنسان. ويشمل ذلك أمورا منها -أ- تحريم إذلاله نفسيا أو بدنيا - ب-الصورة التي خلقه عليها في شكله، فهو أجمل المخلوقات على الإطلاق - جـ-في تقلبه في الحياة في مشيه وأكله وشربه -د ـ في ذوقه ورقي حاسة الجمال فيه - هـ -في ارتقائه حضاريا في لباسه وسكنه وأثاثه وفي أنواع طعامه ، وفي نظافته ونظافة محيطه -و- في قدرته على المزج بين قوانين العقل وتجليات الروح، ونبل المشاعر وغير ذلك مما لا يحصى عدا.

ثانيا :الحمل في البر بتسخير الحيوانات ليركب ظهورها فتحمله وتحمل متاعه، ثم ما وَلَّدَ بفضل اكتشافه لقوانين القوة من أنواع المركوبات .

ثالثا: الحمل في البحر بإلهام قوانين بناء السفن، والطرق المساعدة على تسييرها من المجاديف إلى المحركات الصغيرة والعملاقة.

رابعا : ما يسره الله للإنسان من التعرف على مختلف أنواع المطعومات، التي تجتمع فيها لذة الطعم وطيب الرائحة المثيرة للشهية .

خامسا : تفضيله على كثير من المخلوقات التي تشرفت بخلقه سبحانه إياها، فجعل الإنسان أفضل منها يستطيع أن يتحكم فيها ويطوعها لتحقيق أغراضه .

وإن كان التكريم يشمل التفضيل، إلا أن التفضيل أخص من التكريم لأن التفضيل منظور فيه إلى جعل مرتبته فوق مرتبة بقية كثير ممن خلق الله. وفي التعبير بكلمة [كثير] تدقيق يشير إلى أن بعض مخلوقات الله قد لا يكون الإنسان مفضلا عليها. قد تكون مساوية له في التفضيل. وهذه الناحية تؤخذ من تنصيص الشارع إذ هو وحده الذي بيده التفضيل. والتعرض للتفاضل بين الملائكة والبشر أعتبره خارجا عن مهمة المفسر ولا دليل عليه يبلغ درجة اليقين.

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإمام : مبين الدين.

يظلمون : يُنْقَصُ من جزاء أعمالهم.

الفتيل :الخيط في شق النواة، تمثيل للتافه.

في هذه أعمى: ضال عن الحق في الدنيا.

يفتنونك : الفَتْنُ معاملة يقصد منه إدخال ضر على النفس يعسر دفعه.

الخليل : الصديق الخالص.

ثبتناك : جعلنا اقتناعك ثابتا باقيا على ما أنت عليه.

تركن : توافق.

الضعف : المماثل للمقدار .

يستفزونك : يضيقون عليك ليخرجوك من مكة.

يلبثون : لا يستقرون في مكة.

خلفك : بعدك.

سنة : العادة التي جرى عليها الأمر.

تحويلا : تبديلا وتغييرا.

بيان المعنى الإجمالي :

يأمر الله نبيه أن يعرف البشر بشأن من شؤون يوم القيامة. ينادي المنادي كل الناس باسم قائدهم الديني الذي اتبعوه في الدنيا. فالمسلمون ينادون : يا أمة محمد، والنصارى، يا أمة عيسى، والزرادشتيون يا أمة زرادشت، والمزدكيون، يا أمة مزدك، والبوذيون يا أمة بوذا.

وهكذا ... ويتلقى كل مبعوث صحيفته، يلهم الصالحون تلقيها باليمين فيسرعون إلى قراءة ما هو مثبت فيها، فيجدون كل أعمالهم الصالحة جليلها وصغيرها مسجلا لم ينقص منه شيء. وبالمقابل فإن القسم الآخر الذي عَمِيَ في حياته الدنيا فلم ينظر في الآيات البينات وصمم على الرفض، فإنه يجد عماه مصاحبا له يوم القيامة فهو في حالٍ من التردد والحيرة أشد مما كان عليه في الدنيا لا يأمل أن يجد منه مخرجا .

لقد قوي مكر المشركين بك فقاربوا في ظنهم أن يفتنوك عن بعض ما أوحاه الله إليك من الهدى فتحوله إلى ما يرضيهم مما يناقض صراحة الحق المنزل، قصد أن يتخذوك صديقا خالصا، يقربونك منهم وينتهي الجدل بينك وبينهم .

لقد كانت الشبكات التي دبروها لإنزالك على ما يريدون قوية جدا، ولكنك أقوى من مكرهم وتدبيرهم، فإنني أنا الله القوي العزيز، قد ثبتك فرددت مكرهم في نحرهم، ولولا هذا التثبيت فإن الناظر فيما دبروه يكاد يجزم أنهم سينالون مبتغاهم فتميل إليهم ميلا قليلا. ولكن عصمة الله كانت لها الكلمة العليا وسقط ما مكروا به .

ومصانعة الكافرين في الثوابت غير مقبولة، فلو ملت إلى ما يرغبون منك ولو قليلا لسلطنا عليك عذابا مضاعفا في الدنيا وعذابا مضاعفا أيضا يصحبك من الممات، والمقصود تنبيه المؤمنين أن لا يتهاونوا مع الكفرة في الدين، وأن لا يبرروا تخاذلهم بمبررات مرفوضة من رب العالمين. وفوق ذلك لا تجد نصيرا ينصرك ويخلصك من العذاب.

ومن تأييد الله لك أن مشركي مكة عملوا على إلجائك للخروج من مكة ضعيفا فريدا، فسلطوا عليك ضروب الإيذاء لينفد صبرك وتترك الدعوة وتترك لهم مكة . وما علموا أنه لو تحقق لهم ما أرادوا، لحل بهم الهلاك المدمر بعد زمن قليل من خروجك. ذلك أن سنة الله التي لم تتغير: أن كل الذين أخرجوا رسولهم الذي بعث فيهم قسرا، أنهم لا يبقون بعده إلا قليلا ليعاجلهم العذاب المستأصِل .

بيان المعنى العام :

71- يوم ندعو كل أناس بإمامهم ...ولا يظلمون فتيلا.

تأتي هذه الآيات رابطة لمظاهر سلطان الله في الآخرة على مظاهر سلطانه تعالى في الدنيا. فيقول القرآن لنبيه : اذكر يوم ينادي المنادي كل الناس مجموعات مجموعات باسم إمامهم الذي كانوا يتبعون هديه في تصوراتهم الدينية، فتدعى أمة الإسلام بأمة محمد، وبنو إسرائيل بأمة موسى، والبوذيون بأمة بوذا. والأحمديون باسم ميرزا أحمد . وبعد أن تنقسم الخلائق إلى مجموعات، يعطى كل فرد كتابه الجامع لأعماله في الدنيا وينقسمون إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: من يلهمه الله أن يأخذ كتابه بيمينه، وأخذ الكتاب باليمين فيه بشارة أولى بإقدامه على تناول كتابه بقوة واطمئنان وبدون خوف، شأن الإنسان في تناول المحبوب بيمينه. ويميز الله هؤلاء(أولئك) بتكوين داعية فيهم تُسْرِعُ بفتحه وقراءة ما سجل فيه. وكم يعظم سرورهم عندما يجدون أن ربهم سجل لهم كل صالح أعمالهم ولم يهمل حتى البسيط منها والتافه الذي لم يُلْق له صاحبه بالا في الدنيا!

72- ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

القسم الثاني هو مقابل القسم الأول، ولم يذكره القرآن بوصف معاكس لفظا للقسم الأول، ولكن من بلاغة القرآن أن ذكره بوصف معبر عن سبب وضعه الخاسر، وهو أنه كان في هذه الدنيا ضالا لم يبصر الحق الذي جاءه من عند الله، فيكون ذلك دالا على أنه أوتي كتابه بشماله بسبب اختياره الإعراض عن الحق، ويكون وضعه في الآخرة مناسبا لسلوكه الدنيوي، فهو أيضا أعمى في الآخرة .وليس عماه عمى العيون ولكن ما ينشأ عن العمى من الحيرة والتخبط، بل هو أشد ضلالا في وضعه هذا من وضعه في سابق حياته الدنيا؛ فتختلط عليه السبل وتتملكه الحيرة وبالتالي الخذلان، فعماه في الآخرة أشد من عماه في الدنيا إذ يكون عماه السابق عمى يمكن له أن يرفع الحجاب، فيرى الصواب . وأما عماه في الآخرة فهو لازم، وهو النتيجة السيئة لعماه الدنيوي .

73- وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ...خليلا.

تضيف هذه الآية لضلال المشركين في أنفسهم تطاولهم بما مهدتْ لهم نفوسهم الخبيثة، أن يؤثروا في رسول الله ﷺ بما يحوله عن الطريق المستقيم الذي هو سائر فيه، وعن الخط الواضح البين الذي هو سالكه لا يحيد عنه . كان قصدهم أن يغروه بمختلف الإغراءات ليتحول قليلا عن منهجه، وأن يصرح أو يفعل ما يرضي شركهم وكبرياءهم. علموا أن كل هم النبي ﷺ أن يجلب البشر إلى الدين الإسلامي، فعرضوا عليه، أنه إذا فعل ما يقترحونه عليه يدخلون في دينه، فمما روي :أن يبعد ضعفة المؤمنين من مجلسه، إرضاء لتعاظمهم وكبريائهم، أو أن لا يقبل الحجر الأسود إلا بعد أن يتمسح بآلهتهم ليظهر عظمتها وإقراره بمكانتها، أو أن لا يذكر الآيات التي تحطم قداسة آلهتهم. وألحُّوا في عروضهم تلك، وبالغوا في اللف والدوران حتى قاربوا في ظنهم أن يصرفوك عن النور الذي أوحيناه إليك . ليس معنى هذا أنهم قاربوا التأثير عليه ﷺ فعلا، ولكن هو حاصل ما استقر في نفوسهم لقوة إغراءاتهم، ودخولهم عليه من الناحية التي يعتقدون أنها تؤثر فيه . هم لم

يرغبوا في الصدق، وإنما رغبوا أن يحولوك عما طُبِعْتَ عليه من الصدق والثبات، إلى مستواهم بالكذب على الله وتغيير ما أنزل عليك أو كتمانه أو الرضا بمنهج غير المنهج الذي أنت ملتزم به. ولو أثروا عليك فصرفوك إلى اللين بقبول بعض مقترحاتهم لأقبلوا على تقريبك تقريب الخليل الصديق القريب.

74←75: ولولا أن ثبتناك لقد كدت...لا تجد لك علينا نصيرا.

من الذي حمى محمدا من أن يلين ويضعف، أو أن يميل إليهم، ما الذي جعله يرفض كل الإغراءات كدخولهم في الإسلام، و إقامة السِّلْمِ بينهم وبينه واعتباره خليلا مصافيا لهم؟

جاء الجواب في هذه الآية؛ والمقصود الأول هو التأكيد على قوة الإغراء، وأن انتفاء تأثيره كان بتأييد من الله الذي بيده الأمر.

يقول الله تعالى: **لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن**: معنى الآية والله أعلم لولا أنا معك نؤيدك وتثبتك ونحصّنك من التأثر لاستطاع المشركون أن يقربوك منهم قربا قليلا. إن كلمة [لولا] في التعبير العربي تدل على أن جوابها لم يقع لوجود الشرط الملاصق لها. تقول : لولا الجفاف لنبت الزرع. فهي تدل على أن الزرع لم ينبت وسبب ذلك الجفاف. وفي الآية أن النبي ﷺ لم يمل إليهم ولم يركن، لأن الله معه ثبت عقله وفكره وعقيدته. فالمنفي الميل القليل، وهو ما يحقق أن إغراءاتهم لم تؤثر فيه ولم يعلَق بفكره ﷺ ما يؤثر في اختياراته ليحيد عن منهجه ولو كان ميلا قليلا، فكانت حصانته بفضل التثبيت الإلهي سدا منيعا من بلوغهم ما خططوا له ودبروا.

ثم يواصل القرآن التأكيد على التأييد مع تنبيه المؤمنين إلى أن الثوابت لا تقبل التهاون بها ولا النزول عنها مهما كانت الأسباب .

إنه لو مِلْتَ إلى ما يدعونك إليه، وتراخيت فقبلت تفريق مجالسك بين كبراء قريش والمستضعفين من المؤمنين، مبرِّرا أن الضعفة لا يحرمون من هدايتك، ولكن تكون لهم مجالس خاصة بهم فقط، أو أن تمسح بيدك على أصنامهم مع أن قلبك مبغض لهم محتقر غير راض، أو أن تُبقِيَ في سرك بعض ما أنزل إليك من تقريعهم على الشرك، حتى يألفوا الإسلام ويستقر في قلوبهم فتعلن عندها ما كنت أخفيته. إن انهزامك بقبول شيء مما يتناقض مع ثوابت الدين بتعِلَّاتٍ، يتبعه حتما العذاب المضاعف في الدنيا، فتتراكم عليك المصائب ويخطئك التأييد الذي وعدتك به من انتشار دعوتك، وحمايتك من أن يصل أعداؤك إلى الإضرار بك كما في قوله

تعالى: **واصبر لحكم لربك فإنك بأعيننا**[1]- وكذلك العذاب المضاعف عند الممات، وعذاب الممات المضاعف يبدو في الكمد التابع للانهزام . وفوق ذلك لا تجد من ينصرك من الغضب الإلهي، واليأس من الخلاص أقوى من العذاب الأول.

ولقد تحير بعض المفسرين في تأويل هذه الآية. والراجح عندي أن القرآن يهدف من تهويل عقاب الميل إلى الكفار بالإغضاء عن ثوابت الدين، وقبول الحلول الوسطى، إلى أنه أمر مرفوض قطعا، حتى إنك يا محمد، على علو منزلتك وقربك مني، لو فعلت ذلك لواصلت عقوبتك في الدنيا وعند الممات وبعده . فالفرض يقصد به تفظيع مثل هذا الاجتهاد، وتنبيه المؤمنين إلى الخطوط الحمراء التي لا يقبل تجاوزها بأي مبرر كيفما كان حاله . وكتنظير، ولله المثل الأعلى ولكنه لتقريب الفهم، كأن يقول الملك لوزيره إنك لو هادنت عدوي لعلقت جثتك حتى تأكلك الطيور الكاسرة، وهو لا يقصد ولا يخطر بباله أن وزيره وصفيَّه يقوم بمثل ذلك، ولكن ليبين لكل فرد من أتباعه والداخلين تحت سلطانه المآل الذي ينتظره إذا هو خانه وهادن عدوه. وعلى هذا أفهم قوله تعالى : **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين**[2]- أفهم منها شدة الزجر وعدم غفران القول على الله بغير علم.

وقد رأينا في عصرنا هذا تغيير الشريعة والتساهل في الثوابت بتعلات، كإعمال قاعدة التيسير في غير مواضعها، وكاعتماد القول باختلاف الأحكام **كلها** باختلاف الزمان، حتى انقلبت الشريعة عند بعض المتفقهين إلى هيولى قابلة للتشكل حسب الهوى .

76←77 وإن كادوا ليستفزونك من الأرض...ولا تجد لسنتنا تبديلا.

سجل القرآن ما عزم عليه المشركون وما هيأوا له من إلحاق الأذى برسول الله ﷺ،حتى يضطروه لمغادرة مكة قسرا، بالتضييق عليه وعلى أصحابه، ومنعه بكل الوسائل أن يقوم بمهمة التبليغ .وقد تفنن المشركون في ذلك ما شاء لهم التفنن. وثبَّت الله نبيه فغرس في عالي نفسه التصميم على تحدي الشرك والمثابرة، ولم يستطيعوا أن يخرجوه كما أرادوا مضطرا بدون ترتيب لما يستقبله من أمره. إنهم لو أخرجوك منها مضطرا مدفوعا، ما بقوا بعدك في مكة إلا قليلا من الزمان ويستأصلهم الله بعد خروجك. على هذا مضت سنة الله في المرسلين من قبلك، أن

---

[1] سورة الطور آية 46

[2] سورة الحاقة آية 46

المبعوث إليهم كلما ضيقوا على رسول وأخرجوه إلا وتبع ذلك إهلاكهم، وهذه السنة هي سنة ماضية طريقة مسترسلة وعادة لا تتخلف، ولا تتحول.

إن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليست الخروج الذي تحدثت عنه الآية. ذلك أن الخروج الذي كانوا يسعون لتحقيقه بمختلف أوجه الضغط أرادوه خروجا قسريا، فيغادر مكة وهو ضائع لا يدري ما يفعل، خروجا يقف معه مد الدعوة . وهذا ما لم يحدث، ولذلك لم تعقب هجرته ﷺ إلى المدينة بإبادة قريش. لقد كانت الهجرة إلى المدينة تحولا راشدا في مركز الإشعاع الديني، فقد انتظم أمر المسلمين بها وأصبحوا قوة ولم يكونوا مشردين ضعفاء.

ولذا فإن ما ذهب إليه بعضهم من أن الآية مدنية بعيد عن مضمونها الحقيقي.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإقامة : الأداء على الوجه الأكمل، مع المواظبة.

الدلوك :حالة من حالات مسير الشمس، تطلق بمعنى ميل الشمس عن كبد السماء بما يتبعه من زوال الظل، و تطلق بمعنى وقت بلوغ ظل كل شيء مثله، وتطلق بمعنى غروبها .

الغسق : الظلمة، عند انقطاع شعاع الشمس.

التهجد : الصلاة أثناء الليل.

نافلة : زيادة في الأمر المحبوب.

المقام المحمود : المكان الذي تميز بخلوص الثناء للقائم فيه.

المدخل والمخرج : مكان الدخول ومكان الخروج.

صدق : هو أكمل ما يكون عليه في نوعه. فيرتفع الذم ويعم المدح.

السلطان : يجمع السلطة، والحجة، والقيادة.

النصير : القوي النصرة.

الحق : كل ما جاء على لسان الرسول من الهدى .

زهق : اضمحل.

الباطل : ضد الحق مما محض النبي ﷺ جهده لهدمه.

شفاء : ذهاب الداء الجسدي، ومثله الداء العقدي والتصوري.

الظالمين: المشركين.

بيان المعنى الإجمالي :

أوجب الله على الأمة خمس صلوات في اليوم وذلك ليلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقات الصلوات. فجمعت أوقاتا لثلاث صلوات هي الظهر والعصر والمغرب، من دلوك الشمس، أي من ميلانها عن وسط السماء إلى أن تغيب في الأفق الغربي . ووقت العشاء عندما تتم ظلمة الليل بمغيب الشفق (غسق الليل) ووقت الصبح عند طلوع الفجر وعبر عنها بقرآن الفجر، لطول القراءة فيها وكثرة من يحضرها مع نشاط يستقر به القرآن في نفوسهم. وهو وقت يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. وأمر ﷺ أن يتهجد في وقت من الليل. والتهجد واجب عليه ﷺ، مرغب فيه لأمته، وَوَعَدَهُ جزاء على صلاة الليل: أنه سيبعثه يوم القيامة في المقام الذي يحمده البشر جميعا ويثنون عليه من آمن به في الدنيا ومن لم يؤمن . من جاء معه ومن يجيء بعده، ومن مضى قبل ذلك في تاريخ البشرية، عندما يشفع فيهم فينتقلون من المحشر إلى الحساب بعد العناء الشديد من طول الانتظار.

ويلقن نبيه دعاء جامعا للخير : أن يؤيده كلما دخل مكانا وكلما خرج منه ليكون في رعاية الله وتيسر أمره حتى يلازم الحق. وأن يقوي جانبه في الهدى وينصره فيمكنه من نشر الإسلام والنجاح في مهمته الشريفة. وقل معلنا في وثوق: إن جولات الكفر وما يقوم عليه قد انهزم، وإن الله أظهر الحق الذي جئت به. وهذه سنته في الكون: أنه كلما نشبت المعركة بين الحق والباطل وقام أهل الحق بحقهم، أن يتغلبوا على الباطل ويهزموه. لأن الباطل هو عكس لطبيعة الكون فلا يستقيم له وجود إلا بقوة خارجية، فينحل ويذهب بمجرد ما يضعف التأييد له. وبذلك يكون ما ننزله متتابعا عليك من القرآن يذهب الحيرة والشك والخوف من قلوب المؤمنين. وتشملهم من آياته الرحمة والطمأنينة. ويكون في المقابل زيادة في خسارة المشركين بتضاعف آثامهم وإغراقهم في الضلال.

بيان المعنى العام :

78- أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق ...كان مشهودا.

بعد الآيات التي أفادت عناية الله برسوله، توجه إليه الأمْر بالمواظبة على الصلاة، وأدائها على أكمل الوجوه، من الإقبال على الله، والطهارة الجسمية والمكانية، وإتمام أركانها وشرائطها، ليزداد بها سموا وقربا من الله. وكل خطاب توجه به القرآن إلى النبي ﷺ، هو شامل لأمته إلا ما قام الدليل على أنه من خصائصه. والصلاة فرضت ليلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقاتها بعد الأمر بها:

أولا : دلوك الشمس، وهو ميلان الشمس إلى أن تغرب في الأفق وقسم هذا التوجه إلى الغرب بثلاثة مراحل :

المرحلة الأولى: عندما تزول الشمس عن كبد السماء، وهو الوقت الذي تبدأ فيه مسارا عكسيا لوقت شروقها، وهذا وقت الظهر.

المرحلة الثانية: من الزوال إلى أن يبلغ ظل ما على الأرض مثله، وهو وقت العصر.

المرحلة الثالثة: عندما يختفي الحاجب الأعلى لقرص الشمس، وهو وقت صلاة المغرب. فشمل قوله تعالى لدلوك الشمس أوقات ثلاثٍ من الصلوات حسبما بينه النبي ﷺ قولا وعملا. وإن اتفقت كلمة علماء السنة على وقت الظهر والمغرب، فإنه في ضبط دلوك الشمس الذي يدخل به وقت العصر خلاف.

ثانيا: إلى غسق الليل. وغسق الليل هو اشتداد ظلامه بمغيب الشفق، وهو وقت دخول صلاة العشاء، المعبر عنها بصلاة العَتَمة.

ثالثا: وقرآن الفجر. أي أقم قرآن الفجر. وهو وقت دخول صلاة الصبح. وأسندت صلاة الصبح للقرآن لما اختصت به من عدم الإسرار بالقرآن فيها، ولأن السنة إطالة التلاوة فيها. وشهوده، يفسره ما رواه مالك والشيخان وأحمد وغيرهم، واللفظ لمالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين أتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون[1] ولأن الصفاء الروحي الذي يكون عليه المصلون بعد أن استجموا بالنوم، يجعل استقرار القرآن المجهور به والمطول في صلاة الصبح أكثر نفاذا وتأثيرا.

79- ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا.

عطف بالأمر بالتهجد على الأمر بالصلاة في أوقاتها الخمسة . وأبرز القرآن من أول الآية الوقت (بعض الليل) لأنه وقت يدفع فيه النبي ﷺ وكذلك من يتهجد من

---

[1] ح 472-ج 1 ص 241

المؤمنين، يدفعون داعية النـوم القويـة وينشـطون للقيـام بالصـلاة. فالتهجـد إذن تـرك الهجود أي النوم والتقرب إلى الله بالصلاة. وهـذه صـيغة فـي اللغـة العربيـة نظيرهـا تحنث أي ترك الحنث، وتأثم ترك الإثم، وتحرج تـرك الحـرج. والتهجـد واجـب علـى النبي ﷺ، مرغب فيه للمسلمين.

وقوله تعالى: **عسى أن يبعثك ربـك مقامـا محمـودا** – صـيغة الرجـاء مـن الله تفيـد الوعد، فهو في قوة أعدك أن يبعثك ربك. والبعـث هـو التوجيـه إلـى المقـام المحمـود الذي يكون من حل به محل الثناء والتقدير. وفسـر المقـام المحمـود بالشـفاعة العظمـى، وقد ثبت في الصحيح أن الناس يستشفعون بالمرسـلين واحـدا واحـدا فكـل يحيـل علـى غيره حتى يستشفعوا بمحمد ﷺ فيؤذن ويقبـل الله شـفاعته فينتقـل البشـر مـن المحشـر إلى الحساب . فيثني عليه البشر جميعا .

80-وقل رب أدخلني مدخل صدق ...سلطانا نصيرا.

تتوالى عناية الله برسوله فبعد أن شرع له الصلاة التي بهـا يسـمو إلـى أعلـى مقامـات القرب كما قال الشيخ ابن أبي زيد ﷺ: والمصـلي يناجي ربـه. أرشـده للـدعاء الـذي يثبته في جميع الأحوال. قل يـا محمـد داعيـا متوسـلا إلـى ربـك : رب أدخلنـي .... إنه من شأن الإنسان أن تكون حياته سلسلة من التنقلات فـي الأمكنـة، فمـا يـدخل مكانـا حتى يخرج منه إلى غيره. وكلما ضاقت مسـافة التنقـل بـين المـدخل والمخـرج فهـو السجن أو المرض أو العجـز. وكـل مـدخل مجهـولٌ عاقبتـه، فـيلقن الله نبيـه مـوالاة الإنعام عليه أن يجعل تنقلاته مصحوبة بالألطاف الإلهيـة والعنايـة الربانيـة ليكـون مـا يجده في كل مكان يدخله من الخير واليسر والنجـاح أحسـن تقـدير، ويجعـل مـا يجـده في المكان الذي يخرج إليه نفس التوفيـق والعنايـة. وحقيـق بـالمؤمن أن يواظـب علـى هذا الدعاء، فهومن مجامع الكلم التي تتسع آفاق مشمولاته إلى الحياة كلها .

ويختم الدعاء بطلبه أن يهيء له من عنده مـا يؤيـده بسـلطان مـن الحـق، ومـن قـوة الحجة، ومن التمكين في الأرض بقيـادة الأمـة إلـى مـا يعـزز جانبهـا ويعلـي ديـن الإسلام وينصر جيوشه، فيبث الرعب في قلوب أعدائه .

81-وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

أمْرٌ من الله لنبيه أن يعلن في وثـوق أن الله اسـتجاب دعـاءه، ونصـر الإسـلام فعـلا. وفي هذا الإعلان ما يثبت المؤمنين ويقـنعهم بـأن كلمـة الله هـي العليـا ؛ وأن المعركـة الدائرة بين ما أتى به النبي ﷺ من العقائد ومن التشريع أنـه حضـر حضـورا ثابتـا فـي الكون، وبين ما عمل على هدمه ونقضه من العقائـد والأحكـام قـد تـم القضـاء عليـه .

وتختم الآية بإعلان إلهي هو سنته في الكون وفي الصراع الذي ينشب بين الحق والباطل؛ أن الباطل ينتهي بالاندحار والهزيمة ويتغلب الحق.

وهذه الآية هي التي كان ﷺ يرددها يوم فتح مكة، عندما دخل الكعبة، فأسقط كل الأصنام وأكبَّها على الأرض وهو يتلو هذه الآية. لقد كانت تمثل ما أنعم الله به عليه من نصر التوحيد والقضاء على الشرك.

82-وننزل من القرآن ما هو شفاء ...ولا يزيد الظالمين إلا خسارا.

إن حضور الحق وظهوره مستند أولاً وبالذات، إلى الوحي الذي أنزل من الله على قلب رسوله، وأعلاه القرآن . فتُثبِّت الآية أن الله يواصل إنزال القرآن على قلبك، الذي هو شفاء للنفوس من انحراف الضلالات والأوهام، وتبديد للشكوك والقلق والخوف. فيجد تاليه من الحكم والتشريع والتذكير وإحياء الروح وتوضيح المنهج ما يأنس به العقل والضمير . وبمقدار ما يزداد المؤمنون به قربا من ربهم وطمأنينة واستقامة، بمقدار ما تبعد الشقة بينهم وبين المشركين في ذلك، فيزدادون خسارة في دنياهم بعمق الضلال، وخسارة في آخرتهم بالخزي والعذاب يوم القيامة.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنعمنا : مكناه من النعم الدنيوية .

أعرض : صد.

ونأى بجانبه :صد عن العبادة والشكر.

الشاكلة : الطريقة التي ألفها الإنسان في حياته .

الوكيل: المدافع والشفيع .

بيان المعنى الإجمالي :

بني الإنسان على ضعف يفقد معه التوازن فيخسر إذا لم يتحصن بالإيمان . فهو إذا نال النعم أبطرته النعمة أعرض وصدَّ عن السبيل الرابطة بينه وبين الله، ومضى لا

يشكر ولا يعبد. وليس وضعه خيرا إذا مسه الشر وسلبت منه النعمة، يحل اليأس في كيانه ويقنط وتضيق الدنيا في ناظره رغم سعتها. قل لهم يا محمد: كل فرد من المؤمنين يسير في حياته على الطريقة التي اختارها وألفها، وهو مسؤول، وربك عليم بالمنهج الصالح الذي بعث به رسله لهداية البشر.

سجل القرآن أنهم سألوا النبي ﷺ عن ماهية الروح فأوحى الله لرسوله: إن الروح مخلوق لله، ثم إن المستوى المعرفي للبشر في ذلك الوقت لا يسمح لهم بإدراك ماهية الروح إدراكا كاملا.

وكما أن معرفة ماهية الحياة متوقفة على مستوى علمي، فكذلك ما عند الإنسان من العلم لا يستمر معه إلا بفضل من الله. ويقول القرآن إننا لو شئنا أن نرفع من قلبك القرآن الذي أوحيناه إليك لفعلنا، ولا تجد من يدافع عنك ليعيده. ولكن الرحمة العظيمة من ربك هي التي ثَبَّتَتْهُ في نفسك نصا وفهما. وإن فضل الله عليك لكبير.

بيان المعنى العام :

83- وإذا أنعمنا على الإنسان...يؤوسا.

يعتني القرآن بتحليل أحوال النفس الإنسانية، ليكون في ذلك الكشف ما يوقظه إلى تحصين نفسه مما يضر به عن غفلة منه. والإنسان يتقلب في حياته بين أوقات المسرات والتوفيق، وبين أوقات الشدة والبلايا. ينال من نعم الله عندما يفتح له من خيرات الدنيا وتنسيه ضروب الإنعام ربه الذي أنعم عليه. ويجسم القرآن صورة إعراضه بالذي يلتفت سريعا بعد أن كان مقبلا، ويمضي إلى حال سبيله فلا ترى منه إلا جانبه. وهذا ضعف في الإنسان. ذلك أنه عندما تأتيه النعمة تستولي عليه وتغطي عنه وضعه الحقيقي: أنه محتاج إلى واهبها ليوالي عليه فضله، ويمكنه من الاستمتاع بما أنعم عليه، بشكر النعمة والعبادة. فيجمع بين البعد عن ربه وبين عدم القيام بما يقتضيه الفضل الإلهي من إخلاص العبادة والشكر.

وكذلك تضيق النفس الإنسانية إذا لم يعمِّرها الإيمان، فإنه إذا مسه الشر وذهبت عنه النعمة لا يستيقظ بل يثقل عليه وضعه ويعمر اليأس قلبه. فهو في الحالتين منفصل عن المدد الرباني الذي يمكن النفس من توازنها.

والنبْع الذي ترتوي منه النفس ويشفيها من سقامها هو القرآن، فظهر بهذا صلة هذه الآية بقوله تعالى في الآية السابقة: **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة.**

84- قل كل يعمل على شاكلته ....أهدى سبيلا.

هكذا افترق البشر إلى مؤمن تزيده النعمة إقبالا على ربه وشكرا له، ويبتلَى فيقوى تعلقه بالرحمة ويعظم رجاؤه، فهو في الحالين أقرب إلى ربه . وإلى كافر بينت

علل نفسه الآية السابقة . فيوجه الله خطابه لنبيه ﷺ، قل للناس جميعا : كل فرد يسير على الطريقة التي اختارها لنفسه، أي إنه مسؤول عنها . والله هو العليم بمن كان سائرا على طريق الهدى، ومن كان سائرا على طريق الضلالة. وتبعا لعلمه ولطفا بخلقه أرسل رسله لهداية الناس إلى الحق.

85- ويسألونك عن الروح ....وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

يتابع القرآن الكشف عن طبيعة الخلق الإنساني. فيصل ما طبع عليه من بطر النعمة وشدة الجزع من النقمة، وتأثير الإلْفِ فيه، يصل ذلك بالجواب عن سؤال أَهَمَّ الناس ولم يجدوا له جوابا، وذلك تابع لما فطر عليه الإنسان من حب المعرفة، وجهاده لينكشف له كل شيء. وهذه الفطرة في الإنسان هي سر استخلافه، وبها استطاع أن يمضي فاتحا مجاهيل الكون، ثم يمضي بما حصل عليه من معلوم لينفذ إلى حقيقة المجهول عنده . فسجّل القرآن أنه سئل ﷺ عن الروح، قَبِلَ السؤال ولم يعنف السائل، ولكنه أجابه بما أتاه من ربه، ولنتابع النص الدقيق:

أولا: من السائل؟ اختلفت الروايات : فذهب بعضهم إلى أن قريشا اتصلت باليهود في المدينة لِمَا كان بين الفريقين من صلات، وطلبوا منهم أن يساعدوهم بمغلقات من العلم الذي عندهم ليسألوا عنه النبي ﷺ ليشككوا في صدقه. وذهب بعضهم إلى أن اليهود سألوه عن الروح في المدينة فأجابهم بما أنزل عليه في هذه الآية. وهذه الرواية تفهم على أن اليهود سألوه في المدينة بعد أن سأله القرشيون وأجابهم بهذه الآية، إذ الآية مكية. وفي إبهام السائل في النص القرآني ما يغنينا عن تعيينه إذ تعيينه لا يزيد ولا ينقص لا في تصور الواقع ولا في الجواب.

ثانيا : ما هي الروح المسؤول عنها ؟ وردت الروح في القرآن بما يفيد القوة الخفية المنبثة في الجسم التي تقترن بها الحياة بما يصحبها من آثار في الإرادة والحركة، وتسلب من الجسم فيفارق الإنسان الحياة . وأطلقت الروح أيضا على أشراف الملائكة ومنه قوله تعالى : **يوم يقوم الروح والملائكة صفا**[1]- **تعرج الملائكة والروح إليه**[2] - وأطلقت على جبريل -ومنه قوله تعالى : **نزل به الروح الأمين**[3] .

والأرجح أن السؤال كان عن ماهية الروح بالإطلاق الأول.

---

[1] سورة النبأ آية 38

[2] سورة المعارج آية 4

[3] سورة الشعراء آية193

ثالثا: ما هو الجواب الذي أجاب بـه القـرآن عـن هـذا السـؤال ؟ الجـواب، قـل يـا محمد: الروح شيء مخلوق لله اختص بعلمه. ويكون القـرآن لـم يسـعفهم ببيـان ماهيـة الروح، ولكن الآية أفادت أن الروح ليس شـيئا متخـيلا، ولكنـه حقيقـة موجـودة فعـلا. ثم أضافت الآية قوله تعالى : **وما أوتيتم من العلـم إلا قلـيلا** . ومـا اطلعـت عليـه مـن كلام المفسرين في بيان المراد من ذلك لم ينثلج لـه الصـدر، ولـم يصـل إلـى الكشـف عن سره. والذي تفتّح لي من تأملي والله أعلـم : أن القـرآن يشـير إلـى مـنهج علمـي، حاصله أن الإنسان ممكن من المعرفة، ولكن بلوغه للتعـرف علـى مـا هـو مجهـول لا يحصل دفعة واحدة، ولكنه بناءٌ متتابعٌ، تكـون كـل مرحلـة تُعِـدُّ لمرحلـة أسـمى منهـا وأعمق .وكلما بلغ العقل البشـري مسـتوى تطلـع إلـى مـا وراءه . خـذ لـذلك مـثلا مجهود العلماء للتعرف على كوكب المـريخ. خطـت العلـوم الفيزيائيـة مراحـل هامـة، واندمج العلم الإلكتروني فـي البحـوث، ونجـح المسـبار الأول فوصـل إلـى القمـر، ونزل الإنسان على سطحه، فكان ما تحقق فعليا فاتحـا للقيـام بالتجـارب للوصـول إلـى المريخ، ثم إنه بعد النزول عليه، وأخذ عينـات منـه وتحليلهـا، ومتابعـة تطوراتـه، قـد يصل العلم في يوم من الأيام للكشف عـن جميـع أسـراره. فـأقول : إن السـؤال عـن ماهية كوكب المريخ كان مطمحا للعلماء منذ أكثـر مـن قـرن. وجـواب تسـاؤلاتهم فـي بداية البحث: ما أوتيتم من العلم إلا قلـيلا. ويكـون الكشـف عـن أمـر الـروح، كـذلك متوقفا على بلوغ مستوى علمي، وليس أمرا مستحيلا.

والذي أعتقده أيضا أن الروح ليس كائنا أزليا، بـل هـو مخلـوق لله ؛ تـاريخ خلقـه مـن عالم الغيب، وكذلك ما يجري على الروح قبل اتصـاله بالجسـد وبعـد فراقـه لـه مـن عالم الغيب، ولا يمكن أن نجد تعبيرا أدق على كل هـذا مـن قولـه تعـالى : **مـن أمـر ربي**- فكل المحاولات لتجاوز مـا هـو فـي مقـدور الإنسـان بالمقـدمات المبلغـة هـو تجديف وإسقاط للخيال الذي لا يقوم على أساس .

86←87: ولئن شئنا لنذهبن بالذي...إن فضله كان عليك كبيرا.

الذي ظهر لي في هذه الآية والله أعلم أنهـا مـع سـابقتها تـدعو العلمـاء أن لا يزدهـوا بما عندهم من العلم، وأن يتواضعوا، لأن ما آتاهم الله من العلـم هـو قليـل بالنسـبة لمـا يجهلونه. يتبين ذلك أن كل عبقري مختص في باب من العلـم يـدرك أفضـل مـن غيـره أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، ويقضي حياتـه قبـل أن يـتمكن مـن الإجابـة عـن جميـع تساؤلاته. وإذا كان هذا حاله في ميدان اختصاصـه، فـإن جهلـه ببقيـة الفـروع العلميـة أظهر وأعظم. وفي السؤال عن الروح والإجابـة عنـه بالإجابـة القرآنيـة الحكيمـة مـا

يهدي إلى ما ذكرناه. ثم يزيد القرآن تأكيدا لهذه التربية التوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ، وقد آتاه القرآن الذي ينقضي الكون ولا تنقضي عجائبه، فيقول لنبيه: إن ما عندك من علم الوحي ثبت في نفسك بفضل مني، ولو شئنا أن نحول بينك وبينه فلا تجد له أثرا في نفسك لفعلنا، وفوق ذلك لا تجد من يمكنه أن يدافع عنك فيعيد لك ما كنت مالكا له، ولكن الرحمة من ربك الذي تولاك هو الذي يثبته في صدرك. وما أجمل هذا الامتنان الذي ختمت به الآية : **إن فضله كان عليك كبيرا**. فموقع كلمة كان تفيد دوام هذا الفضل.

وهذه النسق القرآني يتكرر أكثر من مرة، فيخاطب رب العزة رسوله بهذا النوع من الخطاب الوارد في هذه الآية : **ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك**- وكقوله: **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين**[1] . والذي استقر في فهمي والله أعلم أنه محقق لهدفين :

الهدف الأول: أن يقضي على كل ظاهرة تطلع في الحاضر أو المستقبل تغلو في تقديس الرسول ﷺ تقديسا يرفعه إلى مقام العبادة أو الألوهية، فهي تأكيد لبشريته، وأن ما هو عليه من سامي المقام لا يخرجه عن كونه عبدا لله، وبهذا يتحقق النقاء في التوحيد، ولا تسقط أمته فيما سقط فيه النصارى.

الهدف الثاني: إبراز أن مضمون النصوص على تلك الطريقة من الصياغة تحقق عظم الأمر الذي يريد القرآن اجتثاثه، فهو مرفوض إلى درجة أن محمدا لو فعله لكانت عقوبته شديدة، وفي هذا أشد التحذير. وفي هذا المقام يقوم النص القرآني بتحسيس العلماء سوء آثار زُهُوِّهِمْ بما عندهم، واستكبارهم بمعارفهم، لما يؤدي إليه من توقف سير العلم من ناحية، ولأنه يقطع الصلة بينهم وبين الناس فلا يؤدون دورهم في الإصلاح. ولهذا نجد الآية تختم بالتنويه بمقام رسول الله عند ربه .

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ

---

[1] سورة الحاقة آية 45

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

ظهيرا: تعاون الإنس والجن.

صرفنا : نوعنا في البيان.

لن نؤمن لك : لن نصدقك .

الأرض : أرض مكة.

تفجر : تحدث شقا كبيرا ينساب منه الماء بقوة.

كسفا : جمع كسف وهو القطعة من الشيء.

زعمت : قلت قولا نستبعده.

القبيل : الجماعة الذين هم من جنس واحد.

الزخرف : الذهب .

بيان المعنى الإجمالي :

أعلن الله في كتابه أن القرآن معجز سما لفظا ومعنى، وطاقات المخلوقات من الإنس ومن الجن عاجزة عن الإتيان بكلام مثل القرآن في نظمه ومضامينه. بل إنهم لو تركوا كل شيء وتعاونوا على معارضة القرآن بمثله لفشلوا فشلا ذريعا. فمما اختص به هذا القرآن، أنه عرض بمتنوع العرض للمقصد الواحد، فكان في كل موقع يأتي تعبيره بطريقة تتناسب مع الموضع الذي هو فيه ومع ما تقدم عنه أو تأخر، ويأنس التالي والسامع بما يسمعه .ومع ذلك فإن أكثر الناس امتنعوا من الإذعان لما جاء به ورفضوا كل شيء إلا الشدة في الكفر .

فما كان جوابهم عن حثهم للتأمل في القرآن والاهتداء به ؟ قالوا : لن نؤمن لك ولن نصدقك أبدا حتى تحقق لنا ما نعرضه عليك : أن تتشق الأرض فيتدفق منها نبع فياض لا ينقطع ماؤه. أو أن تنقلب طبيعة جبال مكة فيكون فيها جنة من نخيل وأعناب تتخللها المياه الجارية، نرضى بهذا وإن كنت أنت الذي تملكها. أو أن تنزل علينا، كما ادعيت، قطعا من السماء التي هددتنا بها. أو أن يأتينا وفد من الملائكة يصحبهم الله. أو أن تتميز علينا ببيت من ذهب مزين بأنواع الزخارف. أو أن تصعد إلى السماء، ولا نؤمن بأنك بلغت السماء إلا إذا عدت تحمل كتابا كاملا نستطيع أن نقرأ محتوياته.

أوحى الله لنبيه ما يجيبهم به جوابا بشقين:

أولهما: أنزه الله عما قلتم تنزيها من يأتي مـع الملائكـة، أو أن يكـون تقـديره لمجـاري الأمور في الكون على مقياس ما تطلبون.

وثانيهما: إن ما دعوتكم إليه لا يعدو أنني بشر مرسل من عنـده لأبـين لكـم مـا ينقـذكم من الضلال ويهديكم سبل السلام.

بيان المعنى العام :

88- قل لئن اجتمعت الإنس والجن ..لبعض ظهيرا.

تفتتح هذه الآية مجموعة الآيات في هذا المقطع لتكـون المُتَوِّجَـةَ لـه .فـي هـذه الآيـة تنويه بالقرآن بإثبات أنه من عند الله، لا مدخل لأي كان فـي نظمـه. ويقـيم دلـيلا علـى ذلك من أول الأمر فيقول : بأعظم تأكيد وأكملـه لـو اجتمـع كـل المكلفـين مـن البشـر ومن الجن وبذلوا كل طاقاتهم ليتغلبوا على جميـع المشـاكل ويحـاولوا أن يقـدموا نصـا يبلغ مستوى مماثلا لمستوى القرآن، ما اسـتطاعوا أن يـأتوا بمثلـه فـي الـنظم والسـعة في المضامين التي لا تقف عند حدود الزمان الذي أنـزل فيـه، بـل تمضـي مـع حيـاة الإنسان ليجد فيها كل جيل حلا لمشـاكله، وخطابـا غيـر بعيـد عنـه. إنهـم عـاجزون؛ ولو تعاونوا على ذلك الأمر فإن تعاونهم يؤدي بهـم إلـى الفشـل الـذريع. فصـدر الآيـة يتعلق بإثبات العجز لجنس الإنس ولجنس الجـن بـدون تعـاون وخاتمتهـا تثبـت العجـز مع التعاون.

89- ولقد صرفنا للناس ....أكثر الناس إلا كفورا.

إعلان لبعض وجوه إعجاز القرآن؛ يبدو ذلك فـي ترديـد التصـوير للمقصـود بضـروب من البيان تكون خصائصها في موقعها أوفق وأكمل وأرشـق، بصـفةٍ لـو حاولـت تقـديم أو تأخير أو إبدال كلمة بأخرى لاختل الـنظم وسـقط عـن حـد البلاغـة . ومـن ذلـك ورود مضمون القصة الواحدة في أكثر من سورة، وهي فـي كـل موقـع يـأتي نظمهـا وخصائصها التعبيرية متسقة مـع مـا تقـدمها ومـا لحقهـا، دون أن تغمـط الحقيقـة، أو تجد مللا من عودة عرضها .

ورغم هذه المعجزة الظاهرة التي تنادي بصدق الرسـول ﷺ،فـإن أكثـر النـاس امتنعـوا عن أي شيء إلا عن شيء واحد هو العناد والإصرار على الكفر.

90- وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا.

هذه الآية وما يتلوها محققة لمـا ختمـت بـه الآيـة السـابقة مـن أن إصـرارهم علـى الرفض جعل القرآن ما يزيدهم إلا كفرا، يوضـح ذلـك الإصـرار مـا سـجلته الآيـات التالية من المقترحات التي ربطوا إيمانهم بتحقيقها فقالوا له :

أولا: لن تطمع في الإيمان بما تدعونا إليه، ولـن نصـدقك فـي أنـك مرسـل مـن عنـد الله، حتى تتشق لك الأرض فيتفجـر منهـا نبـع غزيـر متـدفق فـي الأرض لا ينقطـع نميره، في أرض مكة المعروفة بتضاريسها الجبلية وعدم وجود أي نهر فيها .

91-ثانيا: أو أن تحول شيئا من تضاريس الجبال إلى سهل، وإن كنت أنت الذي تملكه، فيكون لك منه جنة تتكاثف فيها أشجار النخيل والعنب، وتتخلل أرضها أنهار لا تنضب، تنساب خلالها فتسقي جميع الأشجار، مما يبقي على خضرتها ونضارتها. وكلا المقترحين يصب في معنى واحد، هو تحويل طبيعة أرض مكة إلى ما عرفوه في أرض الشام. وهما معا يدلان على شدة تعلقهما بالمادة والأرض. ومن ضعف مستواهم العقلي جعل الدليل على صدق الرسول ﷺ أنهارا تجري وجنات من نخيل وأعناب، التي هي منبثة في أرض الله، دون أن يكون لوجودها أثر في سمو البشر من المادة الميتة إلى آفاق التوحيد، والمبادئ السامية، والسلوك الذي يهدي البشر إلى حسن الاستخلاف في الكون .

92- أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا.

ثالثا: أو أن تحقق فعلا مـا زعمتـه، والـزعم يطلـق بمعنـى القـول المسـتبعد صـدقه وتحققه، وأوعدتنا من إسقاط قطع من السـماء علينـا، كمـا جـاء فـي قولـه تعـالى :**إن نشأ نخسف بهم الأرض أو ننزل عليهم كسفا مـن السـماء**[1] . وهـذا الوعيـد المـذكور في الآية قد يكون أوعد به النبي ﷺ قبل نزول الآيـة إن كانـت سـورة سـبأ نزلـت بعـد سورة الإسراء كما هو عند البقاعي وغيره .

رابعا: أو أن تأتي بفوج من الملائكة مـع الله، يقـدمون علينـا ونـراهم ويثبـت صـدقك بأنك مرسل من عند الله مؤيد بملائكته الذين منهم جبريل الذي ينزل عليك بالوحي.

93-أو يكون لك بيت من زخرف...هل كنت إلا بشرا رسولا.

خامسا: أو أن يكون لك بيت من ذهب، واختار القـرآن التعبيـر عـن طلـبهم بـالزخرف عوض الذهب، لأن الشأن في الـذهب أن لا تتخـذ سـبائكه علـى طبيعتهـا، بـل يعمـل فيها الفن أجود ما يؤثر به في المعادن لتقبله لـذلك، ولأن المهـرة مـن الفنـانين يجـدون من قيمة الذهب ما يضمن لهم وفاء قيمة صناعتهم .

سادسا: أن تخترق الأبعاد فترقى إلى السـماء. وادعـاؤك أنـك ارتقيـت إلـى السـماء لا نصدق به إلا إذا أتيتنا بكتاب كامل مـن السـماء نسـتطيع قراءتـه. وفـي هـذا إظهـار لطعنهم في القرآن بأنه ليس من عند الله لَمَّا نزل منجما.

---

[1] سورة سبأ آية 9

أجبهم يا محمد جوابا قاطعا للجاجهم وعنادهم: مفتتحا بتنزيه الله أن يكون طوع مقترحاتهم ينفذ ما يرغبون فيه، أو أن يتحرك كتحرك الناس ويضم إليه ملائكته فيقبل عليهم ويخاطبونه. ثم من ناحية أخرى أعرفكم بأني بشر كسائر البشر، طاقاتي هي الطاقات البشرية، والذي يأمر الأشياء فتستجيب لأمره هو الله وحده، ولكن الله فضلني على البشر بتحميلي رسالة الهداية إليكم.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾
قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا
خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا
كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مطمئنين :غير مضطربين عليهم السكينة.
الشهيد : المخبر بالأمر الواقع كما وقع.
خبير : عليم بما يجري في بواطنكم.
بصير : لا يخفى عليه شيء من ذواتكم وأفعالكم.
أولياء : أنصارا.
الحشر : جمع الناس من أماكن متفرقة إلى مكان واحد .
مأواهم : منزلهم ومقرهم.
خبت النار: نقص لهيبها.
السعير : لهب النار .
الجزاء : العوض عن العمل.

يروا : يعتقدوا.

قتورا: شديد البخل .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم ما يقتضيه النظر بعد التأمل في مضامين الرسالة المتناسقة مع العقل والفطرة يثور سؤال : ما الذي منع الناس قديما وحديثا من الإيمان؟ إنهم لم يقبلوا أن يكون الرسول بشرا مثلهم . ولوكان المرسلون غير بشر لكانوا ملائكة، والملائكة لا يستطيعون القيام بدور الرسالة التي تقتضي من الرسول أن يختلط بالناس ليبلغهم وليبين لهم وليكشف لهم الشبه التي تعترضهم، ويعيش معهم كما يعيشون ويتنقل كما يتنقلون . ولو كان الملك هكذا لما آمنوا به ووقعوا في لَبْسٍ هل هو ملك أو بشر؟ وفوق كل ذلك فإنه يكفيني أن يكون الله حاكما بيني وبينكم، فإنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه الصدور، ولا يغيب عنه أي عمل يقوم به الإنسان. فهو يعلم المبطل من المحق والمصلح من المفسد. والناس قسمان مهتد وضال .أما المهتدي فهو الذي أقبل على ما جاءه من ربه فأعمل فيه عقله وسار فيه فرزقه الله ألطافه فكان هو المهتدي بحق. والضال هو الذي جاءه الهدى فأعرض عنه وجعل بينه وبين الحق حجابا من العناد والمكابرة فحرمه الله ألطافه فكان من الضالين لأنك لا تجد لهم نصيرا من دون الله يحولهم عما محضوا أنفسهم إليه . ثم يوم القيامة يحشرهم ماشين من كل مكان على وجوهم وقد فقدوا جميع حواسهم فهم عمي وبكم وصم، ينتهي بهم السير إلى جهنم التي من جملة وقودها جلود هؤلاء المحشورين. كلما خفتت نارها باحتراق الجلود يعيد الله لهم جلودا فيزداد لهبها. إن جزاءهم هو الجزاء العادل يوازي كفرهم بالآيات والأدلة الواضحة، ولتصريحهم باستحالة البعث خلقا جديدا بعد أن تتحلل أجسامهم فينقلبون إلى كتل من العظام، أو إلى مسحوق متناثر.

وعجب من أمرهم ألم يتأملوا في حقيقة يعترفون بها، وهي أن الله هو خالق السماوات والأرض على عظمها ودقة قوانينها وانتظام سيرها، أفلا يكون قادرا على أن يخلق مثلهم بعد انحلال أجسامهم ؟ فإن خلقهم من جديد أهون بكثير بمقاييس العقل البشري من خلقها أوّلا. وثانيا إن الله قد جعل لهم أجلا تنتهي فيه حياتهم، وهذا مما لا يرتاب ولا يشك فيه أحد، فإذا كانت حياتهم التي بين جنوبهم لا يتحكمون فيها ويسلبها الله متى يشاء فإن إعادتهم للحياة أمر معقول جدا. ولكنهم رفضوا كل شيء إلا أمرا واحدا هو التصميم على الكفر بنعم الله وعدم شكرها.

قل لهم يا محمد: إن نفوسكم طبعت على الشح حتى إنكم لو ملكتم خزائن رحمة الله، لقام مرض الشح في نفوسكم فحملكم على الإمساك عن العطاء خشية من نقصان ما

تملكون بالإنفاق منه. فتخيلكم أن مـا اقترحتمـوه شـيء لا يمكـن تحقيقـه لكثرتـه هـو ناشئ عن النقص الذي جبلتم عليه، فإن الإنسان من طبعه أن يشح بما عنده.

بيان المعنى العام :

94- وما منع الناس أن يؤمنوا...أبعث الله بشرا رسولا.

يواصل القرآن الكشف عن أغوار النفس، وإظهار مـا كمـن فيهـا، ليجلـي الأوهـام ثـم ينفيها. إن المتأمـل ليعجـب مـن إصـرار المشـركين علـى شـركهم وانحـرافهم إلـى مقترحات لا تمت إلى جوهر الدين الـذي يبشـر بـه رسـول الله ﷺ، والتـي لا تعـدو أن تكون قلبا لسنن الكون أو نقضا لمقتضيات العقـل. فمـا الـذي حـولهم عـن التأمـل فـي طبيعة ما يدعو إليه، ووزنه بميزان الفطرة والعقـل؟ أتـى الجـواب مـن القـرآن؛ بـأنهم يعجبون من تكليف بشر مثلهم يَحمِـلُ رسـالة الله إلـى العـالمين، ويقـدمون اسـتبعادهم هذا في صورة سؤال إنكاري. هذه سنة الكافرين المكـذبين للرسـل حكاهـا القـرآن عـن قوم نوح وعن كثير من الرسل الذين جاؤوا بعده .

95-قل لو كان في الأرض ملائكة...ملكا رسولا.

تولى القرآن تأييد رسوله بالجواب المفحم .يقول القرآن : إن الرسول إما أن يكون بشرا، أو يكون ملكا كما تتوهمون. إذ الرسول مهمته أن يتصل بالناس ويعرض عليهم وينفي الشبه التي تعلق بأذهانهم. ولا يقع هذا الاتصال والتمازج إلا إذا كانت الملائكة تعيش على سطح الأرض وتمشي مطمئنة ثابتة لا تجد فرقا بينها وبين الناس في حركاتها تمشي كما يمشي الناس. ومعنى هذا أن تتحول طبيعة الملائكة من الخلقة التي هم عليها إلى خلقة أخرى منافية لخصائصهم، وبهذا لا يكون الملك ملكا.

96-قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ...خبيرا بصيرا.

وحجة ثانية مؤيدة في الرد على مقترحاتهم وعنـادهم. قـل لهـم: يكفينـي دلـيلا علـى صدقي وعلى مخالفتكم لمـا تقتضـيه الفطـرة والعقـل، يكفينـي الله الـذي يحـق الحـق ويبطل الباطل حاكما لا ترد حكومته ولا يطعن فـي علمـه. إننـا جميعـا عبـاده، وهـو العليم بما يجري في النوايا وما يختلج في الضمائر، يعلم مـن هَمّـهُ نشـر الخيـر والحـق والعدل، ومن هَمّهُ المراوغـة واتبـاع الشـهوات، والمجادلـة بالباطـل لـدحض الحـق . وحكمه سبحانه حكم حق عادل لأننا جميع من خلقـه، هـو العلـيم العلـم الكاشـف عمـا تخفيه النوايا وعما تستبطنه العقول، ولا يخفى عنه شـيء مـن الفعـال ومتقلـب جميـع الأحوال.

97- ومن يهدي الله فهو المهتدي .ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا.

ولما وسع علمه كل ما احتضنه الضمير من خير أو شر، فإن الناس على قسمين : قسم جاءه الهدى من ربه فأعمل فيه عقله، وأرهف سمعه، ووزن ما جاءه بالتعمق في مضامينه، فأسعفه الله بالألطاف المساعدة على تمكن ما هيأ نفسه لقبوله من الهدى، فكان المهتدي بما قام به من جهود، وبعون من الله على أن تكون جهوده منتجة. وقسم بمجرد ما جاءه الهدى أعرض عنه، وكوّنَ بينه وبين الحق حجابا من العناد والرفض، وعطل عقله فلم يتدبر شيئا مما جاءه، فحرمه الله ألطافه ولم يرفع عنه ما اكتسبه، وخلّاه لما اختاره لنفسه من الضلال، ومن يخذله الله فلن تجد له نصيرا يأخذ بيده ويساعده على الإيمان . ثم إن هؤلاء سيجمعهم الله يوم القيامة من جميع الأمكنة الذين هم فيها، ويأتون ماشين على وجوههم، فجمع الله لهم بين الإهانة وبين العذاب، إذ الرجل تتحمل من الأرض ما لا يتحمله الوجه اللطيف في تركيبه، وكون المحشور ساقطا منكبا على وجهه مظهر إهانة. وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ : كيف يمشون على وجوههم ؟ فقال: إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم. وأضافت الآية إلى الحشر على الوجوه سلبَ أبصارهم فيحشرون عميا حيارى لا يميزون طريقهم، ولا ينفسون عن آلامهم بالنطق لأنهم بكم، ولا يتصلون بغيرهم لأنهم صم. فيكونون في المحشر مسلوبي الحواس، ثم يساقون إلى منزلهم المقدر لهم الذي كتب لهم الخلود فيه: جهنم، هي تضطرم نارا، كلما احترقت جلودهم فخمدت نار جهنم من وقود الجلود بدلهم الله جلودا غيرها فتزداد تأججا واشتعالا.

98- ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ...لمبعوثون خلقا جديدا.

يثبت القرآن العدل الإلهي الكامل، فإن الذين كفروا بالآيات الواضحة واطرحوها، وقابلوا عناية الله بهم ببعث الرسل إليهم وتأييدهم بالحجج والمعجزات، بالإنكار للحق ومواصلة الكفر، ثم نفوا نفيا قاطعا أن يحاسب الناس على ما قدموا ببعثهم يوم القيامة، مستبعدين ذلك بأنه لا يتصور أن تعود لهم الحياة بعد أن تحولوا إلى كتلة من العظام أو إلى أجزاء دقيقة متناثرة . مما يفيد حسب قصورهم الفكري عجز الخالق على إعادة الخلق من جديد.

99- أولم يروا أن الله الذي خلق ....فأبى الظالمون إلا كفورا.

إن استبعادهم للبعث استبعادا بلغ درجة إنكارهم له قد صيرهم كحالة النعامة التي تدس رأسها في التراب إذا أطْبَق عليه الصيادون. عجيب أمرهم ألم يقنعهم ما يوجبه النظر من أن الله خلق السموات والأرض، وهم لا ينسبون خلقها إلى آلهتهم

ويعترفون أنه من خلق الله .وخلق السماوات والأرض بعظم أحجامها ودقة قوانينه، وانتظام حركاتها انتظاما سائرا دون اختلال، إذا تأمل العقل في ذلك فإنه لا يستطيع أن يستبعد قدرة الله على أن يخلق عبادا مثلهم يحشرون إليه يوم القيامة . وكلمة مثلهم تحتمل أنها مخلوقات جديدة لا تختلف عنهم(صورة كالأصل) ويحتمل أن يخلقهم مما بقي من أجسامهم فيجمعها بأمره ويعيد لها الحياة، والأول أولى في نظري. لأن بقاء أجزاء لا تفنى بعيد في نظري سواء أكان عجب الذنب (أسفل عظم في العمود الفقري) أو غيره من الأجزاء .

هذا من ناحية، ودليل آخر لم يلحظوه من أنفسهم: أن الله جعل بتقديره لكل نفس أجلا لا تتعداه، وزمانا تنتهي فيه الحياة. وهذا أمر لا شك فيه، إذ أنه لا يعرف أحد متى يموت، فإذا كانت الحياة في ظاهر الأمر ملكا لصاحبها ولا يدري متى تسلب منه، أفلا يدل ذلك على أن المالك الحقيقي لها ليس صاحبها وإنما هو الله خالقها ؟ وإذا كانت مملوكة ومخلوقة له فلا ريب أن تكون طوع أمره فمتى أراد أن يعيدها للجسم أعادها إليه والبناء المادي هو أهون بالتقدير الإنساني من الروح.

ومع وضوح الدليلين وقوتهما في إثبات البعث، إلا أن المشركين رفضوا كل دليل وامتنعوا من قبول أي حقيقة إلا حقيقة واحدة وهي الكفر بالنعم لا الاعتراف بها ولا شكرها. وأقاموا على عبادة أصنامهم .

100-قل لو أنتم تملكون خزائن ...وكان الإنسان قتورا.

جواب جامع لما عرضه القرآن من وجوه عناد المشركين وإسقاط شبهاتهم واحتجاجاتهم، هو أن ما اقترحوه على رسوله كان نابعا من تصورهم الفاسد وما طبعوا عليه من خوف الفقر وحب الكنز فظنوا أن ما اقترحوه لا يمكن تحقيقه ويعجز الرسول لأن ما اقترحوه شيء كبير جدا . فالأنهار والجنات والبيت من الذهب المزخرف والاحتجاج بخلق السماوات والأرض وإمدادها بما تواصل به مسيرتها، كل ذلك مبني على ما طبعوا عليه من خوف الفقر، الخوف المتمكن من نفوسهم، حتى إنهم لو ملكوا خزائن الرحمة التي لا تنفد والتي في تواصلها من مبدأ الخليقة حتى وصلت إليهم، وسينال منها من بعدهم شاهد على سعة الرحمة الإلهية سعة لا يحيط بها الوصف ولا يحدها حتى الخيال . ومع ذلك فهم لو قدر لهم أن يملكوا خزائن الرحمة لأمسكوا عن العطاء، وخافوا من الإنفاق. فأين الإنسان المبني على الشح وخوف الفقر من سعة الرحمة الإلهية والفضل الذي لا تحده حدود. وإنه من طبع الإنسان أنه شحيح شديد البخل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

البصائر : الحجج المفيدة للعلم.

المثبور : الذي أصابه الثبور وهو الهلاك .

يستفزهم : يستخفهم ويقلقهم.

اسكنوا الأرض : أرض الشام.

وعد الآخرة : يوم القيامة.

لفيفا : الجمع المختلط الذي لف بعضه ببعض.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما اقترحته قريش من المعجزات ليؤمنوا، لا يحقق إيمانهم .ذلك أن موسى ﷺ أوقف فرعون على تسع آيات، ومع ذلك كان جوابه : أنك يا موسى مسحور مختلط العقل . إن بني إسرائيل يعلمون ذلك، فاسألهم إن أردت . كان جواب موسى: إنك يا فرعون متيقن من أن الآيات التي شاهدتها لا يمكن أن تأتي إلا من رب السماوات والأرض لأنها آيات واضح صدقها وإعجازها، لكنك يا فرعون مُهْلَكٌ. فدفعه استكباره إلى التسلط على موسى وقومه، وأراد أن يقلقهم بإخراجهم من أرض مصر. فعاجله الله بالعقوبة وأغرقه مع جنوده، ونصر الله بني إسرائيل وأباح لهم سكنى أرض الشام، وأعلمهم بأنهم سيحاسبون على ما يفعلونه وسيأتي بهم جماعات لا يربط بينها نسب ولا قبيلة .

إن هذا القرآن الذي رفضه المشركون هو كتاب حق صدق لا باطل فيه ولا ريب ولاشك، هو منزل من عند الله. ومضامينه كلها حق تهدي إلى الصراط المستقيم، ولست بقاهر أحدا على الإيمان به، ولكنك تبشر به المؤمنين ليزدادوا طمأنينة وانشراحا، وتنذر به الكافرين حتى يكونوا على علم من مصائرهم الخاسرة.

بيان المعنى العام :

101←102: ولقد آتينا موسى تسع آيات....وإني لأظنك يا فرعون مثبورا..

قصة موسى مع فرعون مواصلة للرد على المشركين بطريقة أخرى، حاصلها : أن الخوارق والآيات على كثرتها لا تنشئ الإيمان في القلوب التي استكبرت عن الحق، وأبت النظر فيها . وهذه هي السنة الماضية مع المرسلين في أقوامهم . فهذا موسى عليه السلام آتاه الله تسع آيات معجزات، ظاهرٌ أنها بتقدير الله لخروجها عن طوق البشر : 1 - بَيَاضُ يَدِهِ كلما أدخلها وأخرجها من جيبه -2-انقلاب العصا حية -3-الطوفان - 4- الجراد - 5- القمل - 6- الضفادع -7-الدم - 8-الرجز " الدمل "- 9- القحط .وقد تقدمت في سورة الأعراف .

ونظمها الفيروزآبادي في قوله :

عصا، سنة، رجز، جراد، وقمل *** يد، ودم، بعد الضفادع، طوفان -

هذه المعجزات التسع قدم بعضها موسى دليلا على كونه مرسلا من عند الله، إلى فرعون وملئه من أول الأمر. وبعضها أخبر به قبل حصوله ليرتدعوا ويحذروا من التكذيب بآيات الله، وحصلت. وهي من الأمور التي ما يزال بنو إسرائيل يروونها متيقنين حصولها، فاسألهم إن أردت يخبروك بذلك . وفي هذا تعريض بهم، إذ أنهم عملوا على غش أهل مكة لما سألوهم عن نبوة محمد ﷺ، كتموهم الحقيقة وعملوا على الدس وتلقين الشبه والإمعان في التضليل.

إن تلكم الآيات التسع لم تهد فرعون، بل أمعن في المكابرة وقال: إني لأظنك يا موسى رجلا قد أثر فيك السحرة فاختلت مداركك، وهذا ما بدا لي فيك بعد التأمل فيما جئتَ به. أجابه سيدنا موسى عليه السلام: لقد تيقنتَ يا فرعون أن المعجزات التي شاهدتها يستحيل أن تكون من تأثير السحرة، إذ لا يقدر عليها غير الله. والذي دفعك للقول: بأن تظن أني مسحور مغالطة. إنها حجج مفيدة للعلم اليقيني أنزلها المتصرف في الكون كله سماواته وأرضه، ولا تدخل تحت قدرة من قدرات المخلوقين .والذي أظنه أن الله سيهلكك، جزاء تضليلك نفسك واستكبارك عن قبول الحق النازل من الله . والظاهر أنه لم يجزم بأن الله سيهلكه بناء على أنه لم يتلق وحيا من الله بأنه هالك لامحالة، ولكن ظن موسى تبعا لسنن الله في الذين يستكبرون عن هداية الله أنهم آيلون إلى الدمار . وفي ذكر هذا وعيد مبطن للمشركين: أن سنة الله ستنفذ فيهم.

103←104: فأراد أن يستفزهم من الأرض ....جئنا بكم لفيفا.

أفحم موسى عليه السلام فرعون، وزال ما كان في نفسه من حذر من بطشه، وواجهه بأنه مهلك. فاستشاط غضبا وعزم على إجلائهم من أرض مصر . وتأتي النهاية عاجلة: أغرق الله فرعون وجنده الذين كان يتقوى بهم ولم يبق منهم أحد. ثم إنه بعد أن طهرت الأرض من المتمردين المستبدين الذين أخافوا المؤمنين، توجه الخطاب لهم خطاب الأمن، كأنه تهنئة بالنصر فقال الله لهم: امضوا إلى أرض الشام واتخذوا منها سكنا وإقامة. ولا تظنوا أن ما أنعمت به عليكم يعفيكم من الحساب يوم القيامة، إنا بعظمتنا نحضركم جماعات، لا تقوم بينها رابطة نسب ولا قبلية، وسيجزى كل فرد بما قدم .

وإذا كانت قصة بني إسرائيل وقصة موسى مع فرعون تكرر ذلك في القرآن، ولكن الذي نلفت إليه الأنظار أن القرآن يصوغها في كل مرة حسبما يقتضيه المقام دون أن يكون بين مختلف طرق العرض أي تناقض. بحيث تؤدي القصة الغرض الذي وردت من أجله . وذلك من إعجاز القرآن . وفي هذه السورة تهدد القصة المشركين الذين عزموا على إخراج الرسول ومن معه من مكة كما تقدم في قوله:(أو يثبتوك) بأن مصيرهم سيكون كمصير فرعون وجنده.

105-وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ...إلا مبشرا ونذيرا.

ثم رجع الكلام إلى القرآن المنوه به في الآيتين 87/88- والذي أتبع بإنكار المشركين الاقتناع به مؤيدا ومنا قشتهم في ذلك. فأثبتت هذه الآية شدة ارتباط القرآن بالحق من ناحيتين : الأولى أنه أنزله ملتبسا بالحق،هو والحق شيء واحد، فلا شك فيه ولا ريب ولا مخالفة للواقع ؛ والثانية أن مضامينه هي الحق الذي ينفع الناس في الدنيا والآخرة . وهذا القرآن الذي أيدك به لا يقهر الناس على اتباعه، ولكنك تبشر من اتبعه باستقامة أمره في حياته وبحسن العاقبة يوم القيامة، وتنذر الذين رفضوه بالخسران المبين في الدارين .

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ

ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرٗا ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مكث :متمهلا .

خروا : سقطوا سجدا، مع صوت هو التسبيح

وعد مفعول: وعد منجز .

بيان المعنى الإجمالي :

نزل القرآن ملتبسا بالحق، ونزله رب العزة مفرقا لا جملة واحدة لتتلو يا محمد آياته على الناس، لتقرأه مؤديا له حق الأداء في غير عجلة. وبعنايتنا نزلنا ه متتابعا.

والتفت القرآن إلى المشركين معرفا لهم حقيقتهم بقوله : سواء آمنتم بالقرآن أو لم تؤمنوا به، فإنكم جهلة لا وزن لكم، ولا يزيد إيمانكم القرآن قوة وصدقا ولا ينقص منه كفركم . وإن العلماء الذين تمكنوا من الكتب السابقة وتحقق عندهم ما وعد الله به من بعثة محمد ﷺ ومعه القرآن، إنهم إذا سمعوا القرآن امتلأت نفوسهم بهجة فيخرون ساجدين مسبحين تفيض ألسنتهم بالتسبيح لله والحمد له على ما أنعم عليهم، فبلغهم الوقت الذي ختم فيه رسالاته للعالمين، وتفيض عيونهم بدموع الفرح. ويواصلون تلاوته والتأمل فيه فيتضاعف خشوعهم به.

بيان المعنى العام :

106- وقرآنا فرقناه....ونزلناه تنزيلا.

ومع إنزال القرآن كما جاء في الآية 105- – فرقنا القرآن فرقناه، بحكمتنا أنزلناه منجما، لم ننزله عليك مرة واحدة، فاستطاع المسلمون أن يألفوه شيئا فشيئا، وأن يسيروا معه وأن يسير معهم في حياتهم، وأن يحولهم من الوضع الجاهلي الذي كانوا عليه، إلى وضع جديد في غير إرهاق، بنى صرحه العقدي والتشريعي والتهذيبي موزعا على السنوات التي قضاها ﷺ والتي سيقضيها بعد نزول الآية . فكان وعيهم له ميسرا، ومن ناحية أخرى لتقرأه عليهم وهم آخذون عنك طريقة أدائه، فتقرأه متمهلا بدون عجلة على النحو الذي ينبغي أن يتلى به، كما جاء في قوله تعالى: (كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)[1] وبذلك يثبت في قلوبهم ويرسخ في حافظتهم. وكان تنزيله على ذلكم النحو بعنايتنا فنزلناه متتابعا.

---

[1] سورة الفرقان آية32

107←109: قل آمنوا به أو لا تؤمنوا...ويزيدهم خشوعا.

تتابعت الآيات تقيم الحجة على المشركين بصدق الرسالة، ومزايا القرآن، وأنه منزل من عند الله، وأنه والحق شيء واحد، وأن تفريقه هو الحكمة إلى آخر ما فُصّل. بعد ذلك تخاطب هذه الآية الثابتين على الشرك : إن كفركم لا يؤثر في انتصار الإسلام ولا يُوَهِّنُ من أمر رسالته شيئا، فسواء آمنتم أو لم تؤمنوا لا يضرك يا محمد ولا يضر الدعوة، وإنما ضرره على أنفسكم أيها المشركون . وماهي منزلتكم الفكرية إن هي إلا منزلة تافهة بالنسبة للذين أسرعوا للإيمان بالإسلام من الذين كان حظهم من العلم موفورا، بل إنهم آمنوا به بناء على ما وجدوه في كتبهم، وما بشر به من قبل موسى وعيسى. والآية على الصورة التي عرضت بها يفهم منها تعريض بالمشركين بأنهم جهلة.

لقد غمر القرآن هذه الصفوة من العلماء بقداسته، ونفذ إلى أرواحهم فعظم شوقها إلى باريها، واهتزوا استبشارا بحضورهم مشهد بعثته، فخروا لله سجدا تعطرت ألسنتهم بتسبيحه مثنين على فضله الذي تم ببعثة النبي ﷺ، لتمتد الهداية الإلهية للعالمين. وابتهلوا معلنين ما استقر في نفوسهم: إن وعد الله لا يخلف تحقق فعلا. وقد اشتد إحساسهم بالبهجة ففاضت عيونهم بدموع الفرح والرضا. وفي التعبير بالخرور الذي أصله السقوط ما يشير إلى اندفاعهم للسجود اندفاعا كان متنفسا طبيعيا عندما يكون المؤثر بالغا من القوة مستوى رفيعا متساميا. وكذلك قوله للأذقان فالأذقان لا تمس الأرض، ولكنه تجسيم لذلكم الاندفاع من المشاعر الباطنية الجياشة . وهم إلى جانب ذلك وجدوا في القرآن النهر المتدفق فعكفوا عليه، ليضاعف خشوعهم لله، إذ هو كلام ربهم الذي تطمئن به القلوب وتخشع. يدل على هذا قوله تعالى ويزيدهم خشوعا، دون وزادهم خشوعا بل مستمر دفقه.

بإجماع العلماء يسن السجود عند تلاوة قوله تعالى: ويزيدهم خشوعا - لينتظم المؤمنون في مظهر واحد، مظهر السجود لله. وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجهر : رفع الصوت بالكلام .

المخافتة : الإسرار

ولي : نصير

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله الواحد له الأسماء الحسنى الدالة على الكمال والجلال، فادعوه بأي اسم من أسمائه التي أذن في ندائه بها. وخذ مستوى وسطا بين الجهر وخفض الصوت في صلاتك، إذ الإسلام يقيم المسلمين على التوسط . وقل الحمد لله، الذي تعالى أن يلحقه نقص، لم يكن له ولد كما يزعم النصارى، ولم يكن له شريك يصرف معه أي شيء من أمر الكون، وليس له نصير يدافع عنه ويرفع عنه الذل والحاجة، واعتقدْ أنه أكبر من كل شيء. وكبره تكبيرا كثيرا.

بيان المعنى العام :

110-قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ...بين ذلك سبيلا.

قل لأمتك إن الله تميز بأسمائه الحسنى التي كنا بيناها في سورة الأعراف آية 180- والتي يجب الاقتصار على ما ورد منها، فإذا تحدثتم عن ذاته العلية، فسواء سميتموه في كلامكم (الله) أو سميتموه (الرحمن) فالكل سواء، لأنهما من أسمائه الدالة على الكمال والجلال. ومعظم المفسرين رأوا أن موقع هذه الآية هنا سببه :أن نزولها كان عقب نزول الآية السابقة . إذ كان النبي ﷺ يتهجد حول الكعبة وذكر في سجوده : " يا الله "يا رحمن " فسمعه أبو جهل وقال : إن محمدا يدعو إلى التوحيد وها هو يدعو إلهين. فنزلت الآية.

والذي وقع في قلبي :أن هذه الآية مرتبطة بفاتحة السورة التي ورد فيها أن الله أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأراه من عظيم آياته مالم يبلغه أحد من رسله الأكرمين في حياتهم، فقد امتزج في المشهد آيات عظمة الله، واسم الجلال والعظمة هو" الله". ثم أنعم عليه بمظاهر التكريم فقدمه للصلاة بالأنبياء، وبلغه مدى لم يبلغه أحد من العالمين، وهذا أوسع مظهر من مظاهر الرحمة، والا سم الدال على هذه الصفة " الرحمن" فكان خاتمة السورة: قل ادعوا الله أو الرحمن .

واصلت الآية بالتوجيه إلى المستوى الصوتي في الصلاة، والإسلام مبني على التوسط، فقال تعالى: **ولا تجهر بصلاتك**، لا ترفع صوتك كثيرا في قراءتك، ولا تخفضه خفضا لا يسمع، بين الرفع والخفض اتخذ طريقك، وبهذا تُسْمع المؤمنين

الذين معك قراءتك، ولا يَصِلُ صوتك للمشركين الذين يتخذون كلام الله هزؤا . روي أن أبابكر رضي الله عنه كان يخافت بقراءته فسئل لما ذا؟ فقال: أناجي ربي، وهو يعلم حاجتي . وكان عمر يجهر فسئل لماذا؟ فقال: أنا أطْرُدُ الشيطان، وأوقظ الوسنان(من أخذه النعاس). فلما نزلت الآية قيل لأبي بكر: ارفع صوتك قليلا، وقيل لعمر: اخفض أنت قليلا. والمناسبة متصلة بأول السورة أيضا إذ أن الصلاة فرضت ليلة الإسراء.

111- وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا....وكبره تكبيرا.

تكرر الأمر بالقول في هذه السورة واحدا وعشرين مرة. والأمر بالقول، مع أنه من المعلوم أن النبي ﷺ مكلف بالتبليغ وإعلام الناس بما ينزل عليه من الله، يدل على شدة الاهتمام بما تبع " قل " وختمت السورة بكلمة " قل" فما هو هذا الأمر المهم الذي ختمت به الآية وأكد عليه بالأمر ؟ هذا الأمر هوما تجيش به النفس فتمتلئ بالمعاني التي كثيرا ما يعجز اللسان عن التعبير عنها، فلا يبلغ المستوى المؤدي للمضمون. فأسعد الله المسلمين بتوفيقهم إلى تعبير يزيد تلكم المعاني وضوحا ونورا ويثبتها في النفوس. ويتضمن أمورا :

الحمد لله : الثناء على الله المنزل للقرآن، والباعث للرسل، والذي ختمها برسالة محمد ﷺ وأنزل معه القرآن، الذي نوهت به السورة أيما تنويه، والمفيض للألطاف التي بها يتم الاهتداء إلى الصراط المستقيم، زيادة على النعم الدنيوية التي لا نحصي لها عدا .

التنزيه عما سوغه الخيال من إلحاق النقائص به سبحانه مما يظن معه أصحابه أنهم يمجدونه به ، كإثبات الولد عند النصارى الذين يقدسون ولده مبالغة في تقديسه، أو إثبات شركاء له يكونون هم الوسطاء بينه وبين عباده باعتبار أن الإنسان الملوث بالآثام غير مؤهل للاتصال المباشر به، وكتقسيم الآلهة حوله، يختص كل واحد منهم بناحية من النواحي كإله النور وإله الظلمة ونحو ذلك من التخيلات الفاسدة، أو ما جَنَحَ به الخيال المريض: أن لله أولياء يمنعونه من أن تتسلط عليه قوة ليبقى على عزته بهم، كالملك الذي يحمي ملكه بالجيش وقادته. وهؤلاء أحط المفكرين في الله، إذ تفكيرهم يؤدي إلى أن الله ذليل غير عزيز بذاته، وإنما يكتسب عزته من حماته، فلذلك قرنت الآية قولهم بلازمه : ولي من الذل .

واعتقِدْ وانطقْ واملأْ نفسك بعظمة الله التي تتظلل بها، وترى آثارها في كل ما يدخل تحت حواسك في هذا الكون المترامي. فإذا شاهدت جمالا متميزا يخلب

نظرك فقل : الله أكبر، وإذا نظرت في السماوات ونظامها فقل: الله أكبر، وإذا كنت عالما فانكشفت لك عجائب الخلق في كبيرة أو صغيرة فقل: الله أكبر. وإذا كنت في ساحة الجهاد فقل الله أكبر من كل القوى التي يتقوى بها عدوك، والزم التكبير هكذا كلما أردت أن تتقوى في جميع المشاهد فبالتكبير يطرد الضعف. وكبره تكبيرا يليق بعظمته وكماله وجلاله.

اللهم لك الحمد كما يرضيك وكما يليق بفضلك وجلالك، والله أكبر كبيرا والشكر لك على ما يسرت –

فقد أتممت ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء بيان ما فتحته علي في فهم سورة الإسراء 5 ربيع الأنور 1433–2012/1/27.

سورة الكهف

الاسم المشهور لهذه السورة **سورة الكهف** وهكذا كتبت في المصاحف وهذا الاسم هو المطابق لما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي. وعند ابن مردويه "سورة أصحاب الكهف" وهي السورة الثامنة عشرة حسب ترتيب المصحف، وحسب ترتيب النزول السورة الثامنة والستون نزلت بعد الغاشية وقبل الشورى عند جابر بن زيد. وعند البقاعي بعد الغاشية وقبل النحل. وهي من السور المكية واستثنى بعضهم آيات منها نزلت بالمدينة.

ورد في فضلها أحاديث كثيرة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: من قرأ بها أعطي نورا بين السماء والأرض، ووقي بها فتنة القبر. وعن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، إن رسول الله ﷺ قال : "ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها من الأجر مثل ذلك " قالوا : بلى يا رسول الله. قال : سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نورا يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجال[1].

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : القرآن

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ج10ص346

عوج : عدم استقامة.

قيم : صفة مبالغة من القيام. بمعنى موالاة التعهد والتوجيه.

ماكثين : مستقرين فيه.

كبرت : تعجب من عظم شناعتها.

كلمة: مقالتهم: اتخذ الله ولدا.

باخع : قاتل.

الأثر : ما يبقى بعد ذهاب صاحبه.

الحديث : القرآن.

أسفا: حزنا.

صعيدا: التراب.

جرزا: قاحلا أجرد.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالثناء على الله، فله الحمد الكامل، توالت نعمه، وأجلها نعمة إنزال القرآن على قلب سيدنا محمد الذي بلّغه للعالمين. إنه الكتاب الهادي إلى الطريق المستقيم فالمهتدي به لا ينحرف عن الحق. وهو الكتاب الذي يكون مع الإنسان في جميع ما يعرض له، فيساعده على الفوز في الدارين. إنه يقيم الإنسان بين قطبين: قطب الخوف من الضلال بإنذاره العذاب الذي يوقعه الله فلا مفر منه، وبين قطب فتح الآمال بالبشارة بالنسبة لمن جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة، وأن الله سيجازيهم بالأجر الحسن الذي لا سوء معه، الأجر الممتد إلى أبد الآبدين يحيط بهم من جميع الجوانب الروحية والجسدية. وينذر الذين قالوا : إن الله اتخذ ولدا، من مشركي مكة وكذلك من اليهود والنصارى. ما أشنعه من قول اختلقوه، وهو صادر عن جهل منهم ومن آبائهم، إن مقالاتهم عن الله أو عن الرسول، أوفي القرآن، أو في الدين الإسلامي أقوال كلها كذب وافتراء. هوّن على نفسك يا محمد ولا تحزن من إصرارهم على الكفر، أبْق على قواك لتواصل الدعوة إلى الله. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ليقبلوا عليها ويعملوا فيها، ونحن نختبرهم بذلك ليظهر المحسن من المفسد وسينتهي الكون وما فيه من جمال، وينقلب ترابا لا حركة فيه ولا حياة، ثم يوقَفون جميعا لمحاسبتهم على عملهم. فلا تحزن عليهم هي سنة الله ماضية فيهم.

بيان المعنى العام :

1←3: الحمد لله الذي أنزل على عبده...ماكثين فيه أبدا.

ترتبط فاتحة السورة بخاتمة سورة الإسراء (وقل الحمد لله) وتُذَكِّرُ من البداية بالتصور والتطبيق الذي يجب أن يعمر نفس المؤمن ويعيش به ومعه: الثناء على الله بما أنعم. وأفضل نعمه وأجلها وأبلغها أثرا في حياته القرآن المنوه به قريبا في الآيات -88/89/106/107/108- من سورة الإسراء. ولذا ربطت الآية بين حمد الله وبين أخص موجبات الحمد: إنزال القرآن على رسوله الذي شرفه بنسبته إليه عبدا. ومقام العبودية يَشْعُرُ بفضله المقربون من خلقه. قال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون)[1] ثم إن هذا القرآن يختص بمزايا :

أولا: أنه الهادي إلى الصراط المستقيم، فلن تجد في هدايته انحرافا، فالملتزم لهداه يتضح له مساره، الآمن والواضح بدون منعطفات، في حياته الدنيا والآخرة "ولم يجعل له عوجا".

ثانيا: أنه يصحب البشر موقظا لهم، مما يجعله واقفا عليهم يحفظهم من الزلل والحيرة والشبهات. ويشجعهم على الاستقامة، ويردعهم عن اتباع سبل الضلال والفساد. "قيما"

ثالثا: أنه يزيل سجوف الغفلة عن مآلهم المحجوب عنهم في الحال، الذي هو حلول العذاب بهم في الدنيا بتسليط جند الإيمان عليهم يهزمونهم ويقيمون عليهم حدود الله، والعذاب الأخروي إذا هم لم يؤمنوا ويستقيموا. إنه عذاب شديد لا يقدرونه حق قدره الآن ولا يستطيعون له ردا، لأنه من لدن الله ذي البطش الشديد.

رابعا: أنه يبشر. والبشارة هي للذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والقيام بالأعمال الصالحة، وبم يبشرهم ؟ يبشرهم بأن الله قد كتب لهم أجرا وثوابا لا نقص فيه ولا خلل يبهج النفس لحسنه وكماله، مع خلودهم فيه يحيط بهم من جميع الجوانب. عبر القرآن عن هذه الإحاطة التي تشمل النعيم المعنوي والنعيم الجسمي بقوله ماكثين فيه.

4←5، وينذر الذين قالوا اتخذ الله...إن يقولون إلا كذبا.

عود لتفصيل أحد موجبات الإنذار بالعذاب " لينذر بأسا شديدا من لدنه" وهو في الآن نفسه مرتبط بالآية التي ختمت بها سورة الإسراء " الذي لم يتخذ ولدا" تصرح الآية بأن من أقبح ما صدر عن المنذرين ادعاؤهم أن الله قد اتخذ ولدا. لما جمع هذا القول من ضروب النقص، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والذين قالوا اتخذ الله

---

[1] سورة النساء آية 172

ولدا معظمهم عند نزول الآية مشركو مكة، وتشمل ما سيقوله النصارى عند مواجهتهم بالدعوة إلى الإسلام، وكذلك اليهود، لأن القرآن لا تقتصر دلالته على الواقع عند نزوله، بل تمتد لما يصلح له النص إلى أبد الآبدين. ثم يبطل القرآن قولهم المنكر هذا، وأنه اختلاق لا أساس له. إن مقالتهم تلك كانت رشح جهلهم. إن ما نسبوه إلى الله من الولد منفي لا أصل له، وما عندهم ولا عند آبائهم من دليل قريب ولا بعيد عنه.

عظم قبح هذه المقالة وما أشنعها، تحركت في لهواتهم دون أن تستند إلى شبهة ولا إلى فكر، ثم أخرجوها من أفواههم. إنهم فارغون لا يؤمنون بقيم ولا يراقبون ألسنتهم، فلا يقولون إلا أقوالا لا أصل لها، كاذبة، سواء فيما صوروا به الخالق، أو فيما يرمون به الرسول ﷺ، أو فيما يروجونه عن الإسلام.

6-فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا.

تحذير للرسول من أن شدة حزنه وغمه من إعراض قومه عن الإيمان قد يصل به ذلك إلى درجة الهلاك. فهو ينظر إليهم وقد تولوا عنه، تشهد آثارهم الدالة على عصيانهم وإعراضهم، فيتجدد أساه لذلك. لقد كان ﷺ محبا للناس حريصا أشد الحرص على هدايتهم، كل همه أن يحولهم من الجاهلية العمياء إلى نور الإسلام.

7←8:إنا جعلنا ما على الأرض زينة...صعيدا جرزا.

تفيد الآية لفت الأنظار إلى ما جعله الله على سطح الأرض من كائنات تشكل فيما بينها صورة جميلة للكون، يظهر ذلك بالمقارنة بين سطح الأرض على ما هو عليه، وبينما لو كان أجرد لا نبات فيه ولا حيوان. إنه في الصورة الأولى حي أنيس تتكون من مجموعه صورة تستهوي الإنسان، فينفعل معها. وهو في الصورة المفترضة الثانية يمثل الموت والوحشة، ينفر منها ويبتعد عنها.

فإذن الصورة الأولى تغريه بالتأثير فيها، ويعمل فعلا. ولكن المهم ليس العمل كيفما كان، ولكنه العمل الذي يؤديه على الصورة الحسنة الكاملة. وهذا الأداء المعتبر حسنا عند الله هو الأداء الذي يجمع بين تقدير الإنسان أنه محاسب على ما استخلف فيه، من ناحيتين:

1) ربط ما يعمل فيه بمبدعه فيشكره على ما يسر له العمل فيه من أجزاء الكون، ويتجنب الإسراف والفساد.

2) الالتزام بقيم خلقية في الانجاز من التجويد والصدق وعدم الغش، والإخلاص ونحو ذلك.

يقول ابن عطية: أن والده رحمه الله كان يقول: أحسن العمل: أخذ بحق مع الإيمان، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وقد يظن الإنسان أن تأثيره في الكون هو تأثير باق مستمر إلى أبد الآبدين. وهذا غرور وخطأ كبير، فإن كل ما على الأرض وما عمل فيه الإنسان سينتهي إلى عدم، يزول كل شيء فلا النبات ولا المباني ولا الحيوانات بباقية. إذ قدر الله أن يتحول سطح الأرض إلى تراب لا يعمره شيء خال من كل حركة حياة.

وقبل أن أنتقل إلى الآية التالية فإن سؤالا يثور، ما صلة هذه الآية بسابقتها؟ أجد في نفسي صعوبة للإجابة عن ذلك، لم يكشفها من سبق من المفسرين كشفا مقنعا. وقد أشار الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلى ذلك. وإن كان تحليله وما تضمنه من معان نفيسة جدير بالاهتمام، فإن الربط لم يتبين لي بعد التأمل في كلامه. ولعل ما انقدح في ذهني بعد التأمل هو أن النبي ﷺ كان متأثرا أشد التأثر لعدم إيمان قومه، وأن ظاهر الآية السابقة تسلية له ﷺ. وهذه الآية تؤكد تلكم التسلية : هذه هي السنة التي يسير عليها الكون، فقد جعلنا ما يحويه الكون زينة يتسابق الناس للنيل منها. ولكن القيمة هي كون العمل حسنا أو سيئا. ولا يخرج قومك عن هذا القانون. فنحن أنزلنا عليك الهدى كما جعلنا ما على الأرض زينة لها، والناس بين مقبل على هدايتك، وبين معرض عنها، كشأنهم في زينة الحياة الدنيا بين محسن ومفسد. وأن الفناء سيلحقهم جميعا وتظهر النتيجة السارة لمن أحسن عملا والخيبة لمن أفسد. فلا تحزن عليهم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكهف : الغار الواسع في الجبل.

الرقيم : كتاب كان مع أصحاب الكهف.

أوى الفتية إلى الكهف : اتخذوه مسكنا.

أمرنا :حالنا.

الرشد : الخير.

ضربنا على آذانهم : جعل آذانهم لا تسمع الأصوات.

بعثناهم :أيقظناهم يقظة المفزوع.

الحزب : الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد.

أحصى : أدق في تقدير الزمن.

نقص : نسرد عليك خبرهم مجموعا، لا مفرقا.

النبأ : الخبر المهم.

زدناهم هدى : قوينا الهدى فيهم.

ربطنا على قلوبهم : ثبتناهم ثباتا لا تردد فيه.

الشطط : الإفراط في مخالفة الصواب.

سلطان بين : حجة واضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إيذان من أول الآية بالانتقال من الغرض السابق لكلمة "أم" لتنبيه السامع كي يستعد لما يلقى إليه. أحسبت أيها المتعجب من قصة أصحاب الكهف والوثيقة الضابطة لشرعهم، أنه أمر عجب حق ؟ إن ما يجري في الكون من التصرف الإلهي لا يعد معه أمر هذه القصة مستغربا. استمع إلى ما تم في هذه الأمر: ذهب شبان أصحاب قوة ورأي وخلق ودين إلى كهف في الجبل واتخذوه مسكنا يأوون إليه، فرارا من فتنة التسلط الغاشم على الإيمان. توجهوا إلى الله أن يؤتيهم رحمة خاصة من عنده وأن ييسر لهم أسباب الخير في إقامتهم تلك. تقبل الله خالص دعائهم وسلب منهم اليقظة فناموا نوما عميقا قُطِعت فيه مداركهم عن الإحساس بالأصوات. ثم إنه بعد المدة المقدرة بعثهم من نومهم فزعين، وسيترتب على ما تم اختلاف الناس في المدة التي قضوها نائمين فمنهم مصيب ومنهم مخطئ، والله يعلم، بمجرد إخبار كل فريق عن وجهة نظره المصيب الذي كان أضبط إحصاء.

أخذ الله بعزته وجلاله يسرد في قرآنه القصة الحقيقية لأهل الكهف فقال : إن أهل الكهف فتية أقوياء نبلاء على خلق رفيع، آمنوا بربهم إيمانا صحيحا وتفضل الله عليهم فزادهم إلى إيمانهم توفيقا في الرأي والعمل. يظهر ذلك عندما أعلنوا في شجاعة بعد أن قوّى الله عزائمهم وثبّتهم، ربُّنا هو رب السماوات والأرض، لن ننادي ولن نتوسل ولن نطلب أحدا غيره، إننا ندرك مقدار الخطأ البين والمناقضة للصواب لدعوة غيره إلها.

ثم التفتوا إلى قومهم منفصلين عنهم مشيرين إليهم بقولهم هؤلاء قومنا جعلوا لأنفسهم آلهة لا تمت إلى الله بصلة. عجب أمرهم! إنه لم يستندوا في دعواهم إلى حجة واضحة ، بل كلامهم مخالف للواقع فهم كذبة، وإنه لا يوجد ظلم أقبح ممن يفتري الكذب على الله.

بيان المعنى العام :

9-أم حسبت أن أصحاب الكهف...من آياتنا عجبا.

افتتحت الآية بلفظ " أم "وهي كلمة يؤتى بها للإضراب أي الانتقال عن الكلام السابق إلى غرض جديد. وتُعِدُّ السامع لما يرد عليه بعدها، بإيقاظه إلى أن ما سيذكر أمر هام. وذلك يحتمل أحد أمرين :

الاحتمال الأول: الاستغراب من بحث الناس في لهفة عن خبر أهل الكهف واعتباره أمرا عجبا، مع أن ما يشاهدونه في الحياة ويتكرر على أنظارهم أشد إثارة للتعجب. ذلك أن أصحاب الكهف استصحبوا الحياة التي كانت فيهم زمنا طويلا، أي إنهم بقوا أحياء مدة طويلة، ومن القواعد المسلمة : الأصل بقاء ما كان على ما كان، إذ الاستمرار لا يقتضي سببا جديدا يحدث أثرَهُ، بينما الانتقال يبحث له عن سبب مؤثر. فاشتغال الناس بخبر أصحاب الكهف هو غفلة عجيبة منهم عما هو أمامهم من الآيات البينات عن قدرة الله بتصرفه في الكون بحكمته، وخاصة بالهدم والبناء. فيكون معنى الآية: أحسبت، المخاطب به كل من يصح أن يتوجه له الخطاب، أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا آية عجيبة من آياتنا. ففي الكون آيات أعجب.

الاحتمال الثاني: السؤال عن علمه بأن أصحاب الكهف والرقيم كانوا أمرا عجبا، أي إثبات أن أمرهم عجب. فيتهيأ لمتابعة خبرهم.

وأصحاب الكهف الذين لزموا الكهف (المغارة الواسعة في الجبل) زمنا طويلا، وكان معهم رقيم. قيل في معنى الرقيم أنه من الرقم، أي الكتابة، إثبات مرقوم عليه أصول دينهم، أو الشرع الذي تمسكوا به، أو أسماؤهم وتاريخ اختفائهم. وقيل هو

اسم مكان الجبل الذي كان فيه الكهف أو البلد المجاور إلخ كما قيل إن الرقم كان على لوح أو على لوحين من رصاص أو من حجر. وكل هذه الاحتمالات تصورات ليس عليها دليل ظني فضلا عن كونه يقينيا. وتدقيقه لا يزيد العبرة وضوحا، ولا ينقص منها. فلنعتمد أنهم لجأوا إلى مغارة في جبل تحجبهم عن أعين الناس، وأنهم كانوا يصحبون كتابا، مدونٌ فيه ما وصلهم من الحق ليكون مرجعا لهم يتدارسونه. وكذلك هم جماعة من الأمم السالفة، قد يكونون نصارى، وقد يكونون من أتباع الديانات السابقة الذين فروا من العسف ورضوا بالعزلة ليثبتُوا على إيمانهم في وقت عمت فيه فتنة المؤمنين. ثم إنه لما جرى في بعض الأعراف دفن الموتى في الكهوف، واشتهرت قصة أصحاب الكهف، أخذ كثير من الناس في مختلف بقاع الأرض ينسبون ما يعثرون عليه إلى هؤلاء الفتية. فقد رأيت مغارة في الأردن يجزم الناس هناك بأنها لأصحاب الكهف، ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : يوجد مكان بضاحية سكرة قرب ضاحية المرسى كهوف صناعية حقق له بعض علماء الآثار من الرهبان النصارى بتونس: أنها كانت مخابئ لليهود يختفون فيها من اضطهاد الرومان القرطاجنيين[1] وكثرت ادعاءات مكان معين لهم من الأندلس إلى مملكة الروم الشرقية.

10-إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا....من أمرنا رشدا.

أخذ القرآن في ذكر قصة أصحاب الكهف، فافتتحها بقوله: اذكر إذ قصد الفتية، عبر عنهم بالفتية، إشارة إلى أنه قد اكتملت فيهم صفات الرجولة من قوة البنية وصلاح التفكير، ونبل الأخلاق. وسجل أول ما سجل ما يعبر عن صفاء عقيدتهم وحسن توكلهم على الله فقالوا : ربنا مكّنا من رحمة خاصة عظيمة تناسب ما هديتنا إليه من التمسك بدينك، وقدّر لنا الأحوال التي نكون فيها آمنين على ديننا تتيسر لنا الأسباب لتكون حياتنا حياة مطمئنة، موفقين للحق. يقول ابن عطية : وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية.

11- فضربنا على آذانهم....سنين عددا.

تقبل الله دعاءهم، فأعقبه بتقدير ما يحقق ما طلبوه من فضله، بتدبير حكيم منه سبحانه. وأول شيء أن الله غطى على حواسهم بنوم ثقيل فصل بينهم وبين الأصوات. وعبر عنه بالضرب على الآذان بالنظر إلى أن الإنسان توقظه

---

[1] التحرير ج 15 ص265/264

الأصوات وينام عندما لا تبلغه المسموعات. واستمر وضعهم على هذا النحو مستغرقين في النوم سنين كثيرة ومعدودة ستتكشف عند قيامهم من نومهم.

12- ثم بعثناهم لنعلم....لما لبثوا أمدا.

وبعد مدة طالت أيقظهم الله فزعين، شأن النائم الذي أفاق بعد أن طال نومه، وهنا يأخذ الناس في تقدير زمن نومهم وانقطاعهم عن الناس في كهفهم، ويختلفون ففريق على صواب في تقديره، وفريق بعيد عن الصواب، مما يدل على شدة اهتمام الناس بأمرهم، و قوة عنايتهم بتقدير الزمن الذي قضوه في كهفهم منقطعين عما تضطرب به حياة مدينتهم. ليظهر في الوجود أي الفريقين المختلفين كان أشد إحصاء، وأضبط للتقدير الصحيح، وكل ما يقع في الكون يعلمه الله في الأزل، كما يعلمه علما واقعيا عند حدوثه.

13-نحن نقص عليك نبأهم بالحق...وزدناهم هدى.

الخبر من الله الذي لا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة، وكل علم سوى علمه منقوص. فابتدأت الآية بكلمة " نحن " المفيدة لعظمة المتكلم، فاستمعوا للحق الذي تولينا تعريفكم به في قصة أهل الكهف. إن الجامع للحديث عنهم: أنهم فتية تحقق منهم الإيمان الواضح النقي بأنهم مرتبطون بربهم الذي تولاهم وأسعدهم بعونه " بربهم" وتفضلنا عليهم فأضفنا إلى إيمانهم توفيقا للرأي السديد والعمل الصالح.

14- وربطنا على قلوبهم إذ قاموا...لقد قلنا إذا شططا.

وثبتناهم ثباتا عصمهم من الشك والتردد، فنزعنا منهم الخوف وقوينا قلوبهم على الجهر بالحق. يبدو هذا التثبيت والتأييد والقوة في الموقف الشجاع الذي وقفوه، فقالوا: ربنا الذي نعبده ونطيعه ونتقرب إليه: هو رب السماوات والأرض، هو رب الكون كله. نحن ثابتون على هذه العقيدة إلى أبد الآبدين، لن نحيد عنها، ولن ننادي ولن نتقرب ولن نتوسل إلى أحد غيره. إننا ندرك ما نقول إدراكا بينا واضحا، لو خرجنا عن ذلك لكنا أفرطنا في القول الخطأ المخالف للحق والصواب.

15-هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة...ممن افترى على الله كذبا.

أشاروا لقومهم مستحضرين لهم باسم الإشارة "هؤلاء" لإظهار الفرق بينهم، اتخذوا بخيالاتهم آلهة من دون الله، أي أصناما لا رابطة بينها وبين الله. يقولون ما لهم انحرفوا إلى هذا الحد، إنه ليس لهم أي دليل من العقل، العقل الذي به البرهان والحجة. وانتفاء البرهان العقلي لا يبقى معه إلا أن إعطاء هذه الآلهة صفة الألوهية

أمر مخالف للواقع كما هو مخالف للمعقول. وإن أشد الناس ظلما للحق من افترى كذبا على الله.

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاعتزال : التباعد عن الشيء.

ينشر لكم من رحمته : يشملكم برحمته.

مرفق : ما ينتفع به.

تزاور : تميل.

تقرضهم : تتصرف عنهم.

الفجوة : المتسع داخل الكهف.

المرشد : من يبين للحيران الطريق الذي يرفع حيرته.

الوصيد : العتبة عند مدخل الكهف.

اطلعت : وقع بصرك عليهم وأنت تشرف عليهم من مكان مرتفع.

ملئت رعبا: عمر مشاعرك الرعب والخوف.

بيان المعنى الإجمالي :

لما قررنا أن ننفصل عن قومنا وعما يعبدونه من دون الله، فلنذهب إلى الكهف نعبد الله فيه ونقيم شرعه، وربنا كريم سيعمنا برحمته، وييسر لنا الأسباب التي تكون حياتنا معها رضية ناجحة.

يصفهم القرآن وهم في الكهف كأنك تراهم، ووضع باب الكهف من الشمس وضع متميز يتقبل النور والدفء والتطهير، دون أن تنعكس أشعة الشمس على أجسامهم، تميل عنهم إلى جهة اليمين عند طلوعها وإلى جهة الشمال عند غروبها. هو وضع من آيات الله. لقد هداهم لاختيار هذا الكهف كما هداهم إلى العقيدة الصالحة

والتوفيق في الأعمال، فهم المهتدون. ومن لم يعنه الله بهدايته فهو ضال لا يجد من يبين له طريق الهدى والرشد.

إنك تظنهم إذا رأيتهم من علو أنهم غير نائمين، والواقع أن النوم استولى عليهم، وتجدهم يتحركون فيتقلبون في وضعهم من اليمين إلى الشمال. ومن ناحية أخرى فإن كلبهم ساكن معهم في مدخل الكهف ماد ذراعيه. إنها صورة لو اطلعت عليها لتملكك الخوف ورعبت منها، ولم يكن لك إلا قرار واحد وهو أن تفر من ذلك المكان.

بيان المعنى العام :

16- وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون...مرفقا.

انتقل القرآن في بيان القصة إلى المستوى الذي تم الانفصال بينهم وبين قومهم بعد أن سجلوا عليهم ضلالهم وكذبهم. عند هذا الحد خاطب بعضهم بعضا بقول هو خلاصة ما انتهى إليه الأمر : إذ قررتم قرارا لا رجعة فيه أنكم تنفصلون عنهم، وأن تقطعوا العلاقة معهم ومع ما يعبدونه من دون الله، فإنه تبعا لذلك لم يبق وجه للمقام معهم، فلنتوجه إلى الكهف ونحن آملون في عون الله فتشملنا رحمته، وتعمنا بصفة لا نخشى معها ضيقا ولا إشكالا. وإنه سيسعدنا في حياتنا بالأسباب التي يصحبنا بها الرفق واليسر.

17-وترى الشمس إذا طلعت...فلن تجد له وليا مرشدا.

يعرض القرآن مشهدهم وهم في الكهف غير متبع للتفاصيل التي لا أثر لها في العبرة، جاعلا التالي كأنه ينظر إليهم، لم تفصله عنهم القرون المتطاولة؛ تراهم في كهفهم وضوء الشمس ينفذ إلى داخل الكهف مع ألطاف، فلا تتكسر الأشعة على أجسامهم فتؤذيها بحرها، ولكن تقوم بوظيفتها المطهرة للداخل مائلة إلى اليمين صباحا وإلى جهة الشمال مساء. ومع الإضاءة المطهرة وغير المؤذية تراهم في فسحة الكهف الداخلية "فجوة منه". ولما كان القصد من القصة ليس التسلية، وإنما الاعتبار والاطمئنان إلى أن رعاية الله تقدر للصالحين الخير والحفظ، لفتت الآية النظر إلى أمرين:

1)إن وضع باب الكهف من الشمس من آثار قدرة الله وحسن صنيعه. وهدايتهم إلى هذا الكهف من آثار عنايته التي تتعدى النواحي المادية إلى التوفيق إلى طريق الرشد والثبات عليه. إنها ألطاف تحف بالإنسان فإذا هو يختار ما هو أوفق له وأفضل عاقبة، وإذا هو منعطف إلى الخير مشمئز من الشر، يجد راحته في طاعة الله والتقرب منه. يسمو في مراتب الكمال بصفة متتابعة. وفي المقابل فإن من

يحرم الهداية أي الألطاف المساعدة، ويُتْرَكُ لنفسه واختياراته لن يُلفِي في حياته من يبين له طريق الرشد ويسعده على اتباعه.

18-وتحسبهم أيقاظا وهم رقود...ولملئت منهم رعبا.

يواصل القرآن عرض المشهد فيعرض صورتهم في الكهف؛ إنك إذا ثبَّتَّ بصرك فيهم، تجد من عجيب أمرهم أنك تظن من ملامحهم أنهم في حال يقظة وراحة، والواقع أنهم نائمون. فلقوة لطف الله بهم يخدعك بصرك. ومما يزيد هذه الصورة بيانا، أنهم يتحركون مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال، لئلا تتأثر أجسامهم تأثرا غير مناسب، إذا هي استمرت على وضع خاص. والكلب ماد ذراعيه بمدخل الكهف على الهيئة التي يكون عليها الكلاب في وقت راحتهم. فالجو كله سكون وطمأنينة.

في هذا الجو الساكن الهادئ، يحرك التصوير القرآني التالي المتتبع للمشهد، حركة سريعة تخرج به من الهدوء إلى التفاعل معه، فيقول: إنك لو قدر لك أن تشرف عليهم فتراهم على تلك الصورة لتملكك الرعب وفررت منهم. ولماذا يرتعد الناظر إليهم خوفا ؟ يرى بعضهم أن صورتهم قد تغيرت تغيرا مرعبا فطالت أظافرهم واسترسلت شعورهم. ولم يرتض المحققون هذا لأنهم لو تحولوا إلى صورة مرعبة لتفطنوا لأنفسهم لما استيقظوا على ما سيأتينا في النص، وهو ما لم يحصل. ويرى الشيخ ابن عاشور أن المطلع عليهم يظنهم جماعة من اللصوص كمنوا في الكهف، لأن من شأن الشطار أن يختفوا في الكهوف، فيمتلئ المطلع عليهم رعبا، ويفر قبل أن يتفطنوا له. ويرى ابن عطية: أن الله أنزل عليهم من المهابة والخوف منهم ما يدخل الرعب على المطلع عليهم ويفر. وتخريج ابن عطية أقرب لروح النص القرآني. وأزيد هذا التخريج بيانا فأقول : إن الجو العام بما فيه من سكون وأخذ النوم من جميعهم أخذا يجعل الناظر إليهم متحيرا هل هم رقود أو أيقاظ، والكلب على مدخل الكهف لا يتحرك ولا يتفطن للمطلع، الكلب الذي له من قوة في حاسة الشم ما يجعله ينتبه لكل وارد، ومع ذلك هو هادئ ساكن لا يتحرك ولا ينبح، هذه صورة عجيبة لم يتعود بها الإنسان في حياته، تثير في نفس المطلع وهو في مكان غير آهل الخوف والرعب، فالاختيار الأوفق: أن يفر. وهو تصوير بديع يتفاعل به القارئ مع المشهد حتى لا يكون العرض القرآني المعجز تصويرا ميتا للمشهد.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى

ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الورق : الفضة.

أزكى طعاما: أطيب طعاما.

وليتلطف : ليكن حذرا حتى لا يتعرفوا عليه.

لا يشعرن : لا يعلمن.

يظهروا عليكم : يغلبوكم.

الرجم: الرمي بالحجارة إلى تحقق القتل.

الملة : الدين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد نومهم الطويل تحركوا متيقظين، وأخذوا يتساءلون كم مدة قضيناها نائمين، قدروها بيوم أو بعض يوم، ثم أعرضوا عن الاستمرار في الاهتمام بهذا الأمر وقالوا: الله أعلم مفوضين الأمر إليه. وتحولوا إلى ما يهمهم وقد أحسوا بالجوع. فاتفقوا على أن يبعثوا أحدهم بما معهم من فضة ليختار لهم طعاما جيدا، وأوصوه أن يكون حذرا فلا يحدث أي مشكلة في تعامله يتبعها إيقافه وبحثه، ولا أن يتكلم إلى أي شخص يلقاه عن أمرهم. وذكَّروا بعضهم بأن الحذر متأكِّدٌ لأن الملك وزبانيته لو عرفوا مكانهم لقتلوهم رميا بالحجارة أو لأجبروهم على ترك دينهم والدخول في ملة الكفر بالله وعبادة الأصنام، وتلك هي الخسارة الكبرى التي ليس بعدها فلاح.

بيان المعنى العام :

19←20: وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم...ولن تفلحوا إذا أبدا.

على ذلكم النحو العجيب مما فصله القرآن في شأنهم، تم تحريك حواسهم فاستيقظوا ونهضوا من نومهم، ليكون هذا التحول مفضيا إلى التساؤل بينهم، فاللام في قوله تعالى "ليتساءلوا بينهم "يعبر عنها بلام الصيرورة وليست للتعليل، كقوله تعالى فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا[1] شأن النائم بعد فترة من يقظته يعود له

---

[1] سورة القصص آية 8

نشاطه الفكري، وأول ما يتساءل عنه ليتبينه، كم طال أمد نومه ؟ قد يكون هذا بين النائم وبين من كان نائما معه، أو مع نفسه. ويسجل الحوار الدائر بينهم، قال بعضهم لبثنا نائمين يوما كاملا، وقال آخرون :لا، بل لبثنا نائمين بعض يوم. ويشير التسجيل إلى جدية هؤلاء الفتية، إذ البحث في هذا أمر لا فائدة منه. وربكم أعلم بالضبط الدقيق للزمن الذي قضيتموه نائمين ؛ أي إن هذا أمر لا يترتب عليه نفع لنا، وهو ما يُلْمع إلى وثوق صلتهم بربهم، واستحضارهم أنه معهم وهو المحصي لما يتقلبون فيه.

ثم إنك تراهم أيها التالي لقصتهم أنهم أعرضوا عن مواصلة الحديث في مدة نومهم، وعنوا بما ينفعهم. قالوا: ليتوجه أحدنا حاملا معه شيئا من الفضة التي معنا إلى المدينة ليكون وكيلنا علينا لشراء ما نحن في حاجة له من القوت، ويبدو أنهم أحسوا جميعا بالجوع عندما استيقظوا. فاختاروا أحدهم، أو تطوع أحدهم للقيام بذلك؛ وأوصوه بثلاثة أمور: أن يتخير من القوت أجوده وأحسنه فيشتري منه ما يكفيهم - أن يتوخى اللطف في التعامل فلا يثير مشاكل قد تعرضه للمساءلة فيفتضحوا - أن لا يعلم أي أحد عنهم. لما توقعوه أن يلتقي بأحد من معارفه فيجره الحديث معه إلى إمكان اكتشاف أمرهم. وهذه الوصايا الثلاث بالتأمل فيها نجد أن أكبر همهم أن يسلموا من الطلب الذي يتوقعونه. ذلك أن شأن المستبدين في الحكم، أنهم لا يرضون إلا بالطاعة العمياء لما يقررون. فهم يعلمون أن الملك الكافر الظالم لا يرضى منهم إلا أن يكونوا مطبقين لما اختاره من عبادة غير الله. فلذلك كان ثلثا الوصايا التكتم عليهم والحذر من كشف أمرهم. وحققوا هذا المعنى بما صرحوا به وهم يتواصون بالحذر من السلطة الغاشمة : إنهم إن يتمكنوا منكم فمآلكم أحد أمرين لا ثالث لهما : إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة، وإما أن يجبروكم على أن تعلنوا بصفة صريحة أنكم تركتم دينكم وعدتم إلى دينهم. وتلك هي الخسارة العظمى والدمار الأبدي.

لطيفة : ذكر الزركشي أن الفاء الأولى في قوله تعالى فليتلطف نصف حروف القرآن التي عددها 340740 حرفا. البرهان ج 1 ص250-

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ

وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

العثور : الظفر بالشيء بعد الطلب له.

وعد الله : إحياء الموتى.

التنازع : الجدال القوي.

رجما بالغيب: إلقاء للكلام من غير مستند.

لا تمار: لا تجادل.

الظاهر : الذي لا يوجب متابعة الاحتجاج.

الاستفتاء : طلب الفتوى بالإخبار عن أمر علمي يعلمه الخواص.

غدا: زمن مستقبل.

الرشد : الهدى والخير.

بيان المعنى الإجمالي :

وعلى ذلكم النحو العجيب الذي مكثوا في كهفهم نياما محفوظين بحفظ الله، تم أيضا انتباه الناس لأمرهم. وقد استفاد الذين عثروا عليهم علما تجريبيا واقعيا مفاده أن ما وعد الله به من بعث الأموات أحياء وعد حق. وأن يوم القيامة سيحصل في اللحظة المقدرة يقينا.

واذكر ذلك المشهد وقد اهتموا بهم اهتماما بالغا فكل يقدم الحل الأمثل في نظره في التعامل مع أهل الكهف، وقد غابوا عن الأنظار. فقال بعضهم: لنبن عليهم بناء يحفظهم، وقال أهل السلطة في البلد: نقيم عليهم مسجدا.

ثم اختلف الناس الذين تتبعوا القصة من القرآن في عددهم، فسيقول بعضهم هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم، وسيقول آخرون خمسة رجال وسادسهم كلبهم، وهم كمن يأخذ حجرا فيرمي به هدفا بعيدا عنه لا يراه فقلما يصيبه. وسيقول آخرون سبعة وثامنهم كلبهم، ولا فائدة من تتبع ما سيقولونه، فالله وحده هو العليم بحقيقة أمرهم وعددهم. وقد يُطلِع الله بعض المقربين على عددهم. ولذا فلا تدخل معهم في جدال لا فائدة من ورائه، إلا إذا كان ردا مسكتا واضحا كقولك: الله أعلم

بعددهم. والمشركون وأهل الكتاب سواء في جهلهم بعددهم، فلا تَعُدْ لأي منهم تطلب منه ما عنده من العلم إذ لا علم لهم. ومن الأدب الذي نزل مع هذه القصة ما أمر الله به نبيه المؤمنين أن يتبعوا كلامهم عن الأمور التي سيفعلونها في المستقبل بقولهم " إن شاء الله " وأن يذكروا الله إذا نسوا التصريح بالمشيئة.

وثنى القرآن بدعوة الرسول أن يقول أيضا: إني راج أن يواصل ربي ما خصني به من القيام بأمر إبلاغ رسالة الإسلام التي هي أقرب إلى الخير وإلى نفع البشرية من معرفة قصة أهل الكهف. وإن كانت قد تضمنت قدرا غير قليل من الحق.

بيان المعنى العام :

21-وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا...عليهم مسجدا.

ينتقل المشهد من الحديث عن أهل الكهف إلى ما اتصل به بعد أن بعثوا أحدهم إلى المدينة. ويطوي القرآن ما وقع للوكيل الذي قصد المدينة ليشتري الطعام. ويبرز المشهد على غير ما كان متوقعا؛ يفجأ التالي أنه على ذلكم النحو العجيب من صنع الله فيهم بإيقاظهم بعد نوم طويل، يتم العثور عليهم من سكان المدينة. تعددت الروايات التي حاول أصحابها الكشف عن الطريقة التي تم بها الأمر، وما وقع لأصحاب الكهف بعد ذلك، وهي روايات تعطي تصورا لتسلسل أحداث القصة، ولكنها لا تستند إلى نص ولا إلى وثيقة. ولذلك أعرضت عنها كما أعرضت عن كثير من التفاصيل التي عمرت بها كتب التفسير، واقتصرت على ما يدل عليه النص القرآني وحده.

إن الحديث عنهم تناقله أهل المدينة الأخلاف عن الأسلاف، وإذا بهم يعثرون عليهم بصنع الله المتصرف في أحداث الكون. وتكون عاقبة العثور عليهم ما حصل لهم من علم مشاهد يقترن إلى ما استقر في عقيدتهم من إحياء الموتى والبعث " **ليعلموا أن وعد الله حق** " كما يعلمون بصورة من مشاهدة أصحاب الكهف كيف إن نومهم المدة الطويلة وهم غائبون عن الحياة تبعه إحياؤهم ليرتب على حياتهم الجديدة ما رتبه سبحانه. فهو أمر قريب من قيام الساعة وبعث الناس لتكون لهم حياة أخرى. وبذلك اجتمع لهم مع العقيدة اليقينية في البعث، وضوح التصور للكيفية التي ما كانت واضحة عندهم. وهذا كما جاء في سورة البقرة مخاطبا لإبراهيم: **قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** -آية260-

وفي هذا الظرف الذي عثر أهل المدينة على أهل الكهف اختلفوا في شأنهم. ويبدو من النص أن أهل الكهف بعد العثور عليهم اختفوا من المشهد، ولا أستطيع أن

أجزم بضبط طريقة اختفائهم، إذ هي حسب فهمي من الأسرار التي طويت في القصة ولم يكشف عنها. ولكن الذي سجله القرآن هو اختلاف الناس حول الوضع الغامض وما يتحتم اتخاذه لعلاجه. فمما سجله القرآن من الحلول المقدمة قول بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا يحفظهم ويحميهم من الفضوليين وممن لا يقدرهم حق قدرهم، والله أعلم بهم فلا نجزم في أمرهم ومقامهم عند ربهم برأي مؤكد. وتقدم أصحاب السلطة برأي أدق حاصله : أن يكون البناء على شكل مسجد، معبد، مكان مقدس بقداسة المدفونين فيه. وهذا ما جرى عليه النصارى وقبلوه.

ملاحظة : إن اتخاذ المساجد على قبور من يظن بهم الصلاح هو كما قلنا ثقافة نصرانية. وكذلك نجده في البوذية، وفي ديانات أخرى. والإسلام قطع مع هذه التقاليد. فقبر رسول الله ﷺ في غرفة عائشة لا في المسجد وبجواره قبر أبي بكر وعمر، وكذلك قبور العلماء كأئمة المذاهب والصالحين. فمالك مثلا، رضي الله عنه قبره بالبقيع كبقية المسلمين. ولكننا نجد معادلة في حياة المسلمين: أنه كلما زاد ضعف الفهم للتوحيد، انتشر بناء المساجد على القبور وظهرت القباب. بل أبلغ من ذلك أن حصل الظن ببعض المعتوهين والمختبلين ومن يسيل لعابهم على صدورهم، ظُن بهم درجات عالية من الصلاح، وبنى الجهلة على قبورهم مساجد، وتقربوا إليهم بالقرابين. ولا أقول هذا شرك، ولكنه إيمان مدخول ومرض في العقيدة،. أخرج البخاري بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره. غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا. علق عليه ابن حجر بقوله : وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوي، ولهذا لما وسع المسجد جُعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة [1] – كما أخرج عن عائشة أيضا أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك التصاوير، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة[2]،وخرج مسلم بسنده إلى جندب ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ألا، وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم **وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك**[3].

22-سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...ما يعلمهم إلا قليل.

---

[1] فتح الباري ج 3ص444

[2] الفتح ج2 ص71/70

[3] إكمال الإكمال ج2 ص234

انتقل الحديث عن أهل الكهف في الزمن الذي تم فيه من أمرهم ما تم، إلى أثر القصة في السامعين لها بعد أن سجلها القرآن. فقد أكسبت بذلك رواجا في المجالس. وأخذوا يتحدثون عنهم، وتساءلوا عن عددهم، وعن الزمن الذي قضوه نائمين، وقدموا فروضا لا تستند إلى دليل فبعضهم سيقولون: هم ثلاثة من الرجال، والرابع الكلب في عدد الذين ضمهم الكهف. وعُد الكلب بالنظر إلى أنه جرى عليه ما جرى عليهم من النوم والحفظ. وسيقول آخرون: خمسة والسادس الكلب، وتقدير الفريقين لا يستند إلى دليل، ولكنه كلام يلقى، كما يرمي الراجم بحجر شيئا بعيدا عنه لا يراه فلا يصيبه إلا قليلا. والغيب مستور لا يعلمون من أمره شيئا. وقد أصبح هذا التعبير" رجما بالغيب مثلا يجسم التخرص. وسيقولون : سبعة وثامنهم كلبهم. ويرشد القرآن النبي ﷺ إلى الموقف الذي يتعين اتخاذه في هذه القضية وفي أمثالها. إن العلم الحق المضبوط هو العلم الإلهي، فالله هو المتفرد بعلم الأشياء على حقيقتها، وإن علم الناس المبني على التخمين لا قيمة له، فلا فائدة من مواصلة عرض أقوالهم. وهو سبحانه يُطلع من يشاء من عباده، وهم قلة، على العدد الصحيح.

22- فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا...منهم أحدا.

ولما كان الله لم يقم دليلا على عددهم، وضبطُه عند الله، وذلك لا ينقص من عبرتها جهله، ووقتك أثمن من أن تناقشهم فيما افترضوه أو ترد عليهم فيما احتجوا به، فأعرض عن متابعة لغطهم ولغوهم، وقف عند ما هو يقيني ظاهر، كقولك الله أعلم بعدتهم ؛ والمشركون يستوون في جهل عددهم مع أهل الكتاب فلا تعد لأحد منهم تسأله عما يعلم من شأنهم. وعلى ذلك تكون هذه الوصايا منهج الإسلام في كل ما لا دليل عليه من العقل أو النقل.

23←24.ولا تقولن لشيء إني....لأقرب من هذا رشدا.

في اتباع ما سبق من قصة أهل الكهف بهذه الآية توقف لإبراز الاتصال. وكل الذين تتبعت كلامهم مجمعون على أن الرابطة، هي أن المشركين لُقِّنوا من أهل الكتاب أن يسألوا النبي ﷺ عن خبر أهل الكهف، وسألوه فعلا فوعدهم: أنه سيخبرهم غدا. وأبطأ عليه الوحي ثلاثة أيام، أو خمسة عشر يوما، ثم أتاه جبريل فأنزل عليه سورة الكهف. فتكون هذه الآية على ما روي عتابا لجزمه بأن موعد الإجابة سيكون غدا. وهذا العتاب هو تعليم لأمته المنهج في الالتزامات: أن لا يلتزم المؤمن إلا بما يعلم أنه مُمكَّن من الوفاء به. فإن كان غير متيقن من ذلك فليقل إثر

كلامه : إن شاء الله. ويكون نسج الآية المبني على الإيجاز ينحل إلى :ولا تقولن لشيء إن فاعل ذلك غدا إلا، تقول : إلا أن يشاء الله. أي إلا مع ذكر المشيئة. وليس المراد من قوله تعالى "غدا" اليوم الموالي ليومك، ولكن هو دال على المستقبل قريبا كان أو بعيدا.

ووسع الله على نبيه وعلى المؤمنين أن يذكروا " إن شاء الله" بعد مدة إن غلبهم النسيان عن ذكرها مقارنة للكلام.

وذكرها بعد مدة ينحل إلى قسمين: قسم مجمع عليه، وهو أن ذكرها بعد مدة يحقق التزام المؤمن بالأدب مع الله المالك لما يستقبل من الأمور. فلا يجزمْ بفعل شيء في المستقبل ليس هو في ملكه ولا في طوقه. وقسم مختلف فيه وهو حل الالتزام إذا أتبع بقوله " إن شاء الله " وخاصة في الأيمان فالذي عليه الجمهور أن الاستثناء ينفع المستثنى وتنحل يمينه إذا وصله بالاستثناء. فإذا قال الحالف : والله سآتيك غدا إن شاء الله، تحلل من يمينه في الوقت. فغدا كأنه لم يحلف وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والشافعي؛ وإن كان المروي عن مالك أن قوله هذا، ليس مستندا إلى الآية التي تنحصر دلالتها على ذكر الله عند طروّ النسيان على الإنسان، ومستند قوله من السنة. وفهم علماء آخرون أن الاستثناء تنحل به اليمين وإن انفصل عنها بزمن، قدره عطاء بحوالي، خمسة عشر دقيقة (قدر حلب الناقة الغزيرة) وعند قتادة: ما لم يقم من مكانه، وعند الإمام أحمد ينفعه ما دام لم يتحول عن الموضوع الذي كان يتحدث فيه عندما أقسم.

كما أمر النبي ﷺ بقول "إن شاء الله" فيما يعد به من الأمور المستقبلية، أضافت هذه الآية إرشادا آخر له ولأمته حاصله : أن ييسر له من أسباب الخير والهدى ما يكون أولى وأنفع. وارتبط هذا الأدب بقصة أهل الكهف التي دعا إليها وعدُه بإجابتهم عنها غدا، وفيها إيماء: أن الوظيفة التي كلف بها من هداية البشرية إلى العقيدة الصحيحة، والتشريع المحقق للعدالة، والأدب العالي في العلاقات البشرية، ذلك أبلغ في الخير من معرفة قصة أصحاب الكهف.

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات والأرض : ما غاب علمه عن الناس فيهما.

أبصر به وأسمع: ما أتم علمه بالمبصرات والمسموعات.

بيان المعنى الإجمالي :

كشف القرآن عن المدة التي قضاها أهل الكهف نياما، فحددها بثلاثمائة سنة، وذكرت الآية أنهم زادوا عليها ثلاثين سنة. ويرى بعض حذاق المفسرين أن ثلاثمائة من السنين هي بالحساب الشمسي، وأن ثلاثمائة وتسعة هي عدد السنين القمرية. وقل للذين يقدمون تقديرات تختلف عن هذا التحديد: إن التحديد الحق هو ما حدده القرآن، فالله العالم وحده بكل ما يجري في السماوات والأرض، فما أشمل وما أوسع ما يعلمه الله من المبصرات والمسموعات. وإن المشركين ليس لهم ولي يعينهم من دون الله. فهو المتفرد بالتصرف والحكم في الكائنات جميعا، وليس لأي أحد نصيب في ما يحكم به وينفذه.

بيان المعنى العام :

25- ولبثوا في كهفهم...وازدادوا تسعا.

في مستوى قيام أهل الكهف من نومهم، تساءلوا عن المدة التي قضوها في سباتهم، وأنهم فوضوا ضبطه لله "لبثنا يوما أو بعض يوم* بل ربكم أعلم بما لبثتم" وهذه الآية تفيد أنهم بقوا في كهفهم على الحالة العجيبة التي كانوا عليها ثلاثمائة سنة بزيادة تسع سنين. وفهم بعض الحذاق من هذا التعبير القرآني المعجز، أن مدة مكثهم ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي للسنين، ولما كانت السنة القمرية تنقص أيامها عن السنة الشمسية، فإنه يضاف لكل مائة سنة ثلاث سنوات، فكان العد إن نظر فيه للسنوات الشمسية ثلاثمائة سنة، وإن نظر فيه للعام القمري كان تسع سنوات وثلاثمائة.

26- قل الله أعلم بما لبثوا...في حكمه أحدا.

لما حقق القرآن مدة لبثهم في الآية السابقة أعقبه برد مقالات أهل الكتاب الذين قدموا مددا أخرى. فأمر الرسول ﷺ أن يقول بوضوح كامل : الله أعلم بالمدة التي بقوا فيها نائمين. وكل أقوالكم المخالفة، أقوال باطلة نشأت عن جهل لاعن علم. والله سبحانه هو الذي تفرد بعلم كل الكائنات والأحوال التي حدثت في السماوات وفي الأرض. وإذا استحضر الإنسان سعة علم الله لكل حادثة في السماوات أو في الأرض، فإنه يعجب لاشكّ من سعة العلم الإلهي. فمثلا كل ورقة عند بروزها وعند

نموها وفي حركتها وعند سقوطها وعند تحولها فتاتا في الأرض، لم تغب أي حالة من تلك الحالات عن بصر الله وسمعه من بداية الكون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فجاء التعبير القرآني عن ذلك في صيغة تعجب: أبصر به وأسمع: ما أوسع معلوماته البصرية والسمعية ! وبهذا العلم الواسع وضبط كل جزئية تحدث في كون الله، فإن المشركين ليس لهم رعاية من غير الله. إن آلهتهم التي عبدوها من دون الله لا تدرك أنفسها فضلا عن أن تدرك غيرها وحاجاته، وأن تسعده بالعون عند الاضطرار. ولا يوجد من يشركه الله في حكمه، فهو وحده المتصرف، لم يفوض شيئا من التأثير والخلق لغيره. وعلى هذا الأساس تفهم قصة أهل الكهف. كلها حدثت عن علم شامل ورعاية لكل جزئية ولكل مرحلة من مراحلها، وكل لطف حف بهم هو من ولايته وفضله، لا شريك له.

وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبديل : التغيير بالنقص أو الزيادة، ومنه إخفاء بعضه.

التلاوة : القراءة.

ملتحدا : ملجأ، ينجيك من عقابه.

اصبر : احبس.

الغداة : ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس.

العشي: المساء.

لا تعد عيناك عنهم : لا تعرض عنهم

أغفلنا: جعلناه غافلا.

فرط: ظلم واعتداء.

أعتدنا : هيأنا.

السرادق : كلمة أصلها فارسية تفيد الخيمة أو ما يحيط بها.

يستغيثوا : يطلبوا الغوث.

المهل : دردي الزيت.

مرتفق : ما هو رفق للإنسان.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القرآن الذي أوحيناه إليك، عليك أن تواصل قراءته على الناس كما أنزل إليك بدون زيادة ولا نقص ولا إخفاء ولا تحوير، إن كلام الله لا يتجرأ أي كان على تبديله. هو كلام من لا يجد أحد ملجأ ينجيه من عقابه.

واحبس نفسك يا محمد مع الذين طهرت عقائدهم من الشرك، وأعمالهم من الخبث، وهم متعلقون بربهم يدعونه صباح مساء يبتغون رضاه. واعص وارفض دعوة الذين طبعنا على قلوبهم فكانوا سادرين في غفلاتهم لا يذكرون ربهم، يقودهم هواهم ويتبعون دواعي غرائزهم، وكانت كل حياتهم ظلما وسبقا إلى الشر.

وقُلْهَا صراحة تقمع بها أطماع المشركين أن يستنزلوك: جاءني الحق الواضح من ربكم، وكل ما سواه باطل. ولست مسيطرا عليكم فمن شاء أن يتبع ما أنزل إلي من الهدى فباب الإيمان مفتوح، ومن اختار الاستمرار على الكفر فله ذلك. ومع ذلك فلتعلموا أن ربنا أعد للظالمين بكفرهم نارا من صفاتها أنها تحيط بهم إحاطة الخيمة بساكنيها، تطبق عليهم فلا يستطيعون الخروج منها. وتحترق أكبادهم عطشا فيستغيثون طلبا للري، فيستجاب لاستغاثتهم بماء ضارب لونه إلى السواد هو كدردي الزيت كَدِرٌ تعلو حرارته على حراة الماء، يشوي وجوههم بمجرد ما تقترب شفاههم منه. ما أسوأه من شراب، وما أسوأ جهنم مكانا يرتفقون فيه ويستريحون!

بيان المعنى العام :

27-واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك...من دونه ملتحدا.

لهذه الآية تعلق بقصة أهل الكهف. بيان ذلك أن الله يقول لنبيه: واصل تلاوة ما أنزلناه عليك من القرآن، على النحو الذي تلقيته عن جبريل بدون زيادة ولا نقصان، ولا تلق بالا لما يعرضونه عليك، ويطلبونه من إجابة عن أسئلتهم في قصة أهل الكهف وغيرها. فإن ما جاءك من القرآن هو ما أردت إبلاغه للناس بواسطتك، وكلامي لا يقبل التبديل. فلا تُضف ولا تُنقص ولا تكتم ولا تحور، إنك لا تجد ملجأ، ولا حاميا ولا من ينجيك سواه، فبلغ ما أنزل إليك بشجاعة وعزم كما أنزل، سواء أرضي به المشركون أم سخطوا.

28- واصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه...أمره فرطا.

يواصل القرآن تأييد رسول الله ﷺ وتثبيته، أُمِر في الآية السابقة بأن يصدع بما أنزل عليه مطابقا لما أنزل عليه، وفي هذه الآية يرشده الوحي إلى حبس نفسه مع الذين أنار الإيمان قلوبهم، وحرر عقولهم، فهم يتصلون بربهم اتصالا لا ينقطع من الفجر إلى العشي. ولا أفهم من هذا أنهم منقطعون عن الدنيا مشتغلون بالذكر فقط، ذلك أن الإنسان ما دام يعمل في الدنيا مستحضرا رقابة ربه عليه ملتزما بأحكام الإسلام فهو في عبادة. إن دواعي الغريزة والأنانية وحب الخير لنفسه تدعوه بطرق عديدة من الإغراء ليسلك المسالك التي ترضي الشيطان، وتدعوه رقابته لربه وعمق إيمانه للاستقامة مستحضرا دوما أنه في حضرة ربه، يطّلع عليه، ويجزيه بالطمأنينة والرضا والسكينة والعون. ولا يشغله عمله عن القيام بما يزيده قربا من ربه من القيام بالفرائض، والنوافل، وحضور مجالس العلم والذكر.

والذين هداهم الله فأسرعوا بالدخول في دين الله، منهم أصحاب الحظ الاجتماعي المرموق كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، ومنهم الفقراء كسلمان وآل ياسر. وكان المجتمع الجاهلي فارغا من كل القيم إلا القيم المادية كالثراء والقوة والجاه. وكانت الطبقة الفقيرة مسحوقة محتقرة، تمنعهم كبرياؤهم من الجلوس معهم. فكان من تعلات رؤوس الشرك أن مركزهم الاجتماعي لا يسمح لهم بالجلوس مع المستضعفين وطلبوا من رسول الله ﷺ : أن يبعدهم من مجلسه حتى يربط أول خيط بهم. ولغلظ حاستهم الاجتماعية ما دروا أن الإسلام قد جاء ليقلب الموازين التي كانت تسود مجتمعهم، جاء ليعيد للإنسان كرامته وقيمته الإنسانية، هذه القيمة التي يتفاوت فيها البشر تبعا لمواهبهم، ولاستقامتهم، ولدورهم الصالح في المجتمع. فلا يعلو ثري معدم من الأخلاق، ولا ينزل فقير من المال غني بخلقه وأدبه. والرسالة التي جاء بها محمد هي إقناع البشر جميعا بأنهم عباد الله، وأن أكرمهم عند الله أتقاهم. فكان مقترح المشركين من قريش بإبعاد الفقراء من مجلسه مقترحا مناقضا لأصل الدعوة ولقيمة الإنسان في الإسلام. فهذه الآية مع غيرها تؤكد تلكم المفاهيم. أمر الله رسوله أن يحبس نفسه ويلازم هؤلاء المؤمنين الصالحين، وإن كانوا فقراء ما دام صفاء أرواحهم قد برزت آثاره في إقبالهم على الله صباحا ومساء. ثم ضاعف التأكيد بالنهي عن ضد موقف حبس النفس ومعهم، فنهاه عن مجاوزة النظر إليهم إلى الذين جمعوا زينة الحياة الدنيا، التي عرفها القرآن في قوله تعالى : (**المال والبنون زينة الحياة**

الدنيا)[1] فيؤول معنى لا تعْدُ عيناك، أي لا تعرض عنهم مفضلا من كان ذا مال وعزة إذا كان خاويا من الفضائل. ولا تطع، واعْصِ ولا تتبع من كان عقله وقلبه لا يذكر الله أبدا، وعنى ذلك أن الأشرار تدعوهم الفطرة في أول حياتهم للتفكر في الله، ثم لا يزالون يواصلون طرد هذه الخواطر الفطرية عنهم حتى تغيب تماما، ويصبحون في غفلة عنها، وعندما ينقطع خيط اتصالهم بربهم ينطلق مارد الهوى فيتولى قيادتهم وتنقلب حياتهم إلى اللهث وراء المتعة المادية كيفما اتفق، فيكون أمركُلِّ فرد منهم فرطا، ظلما لنفسه وظلما لأسرته، وظلما لمن يتعامل معه، إذ هو مأسور لنفعه وشهواته.

29- وقل الحق من ربكم فمن شاء...وساءت مرتفقا.

أمر النبي ﷺ أن يعلن ويصرح تصريحا واضحا يقطع على المشركين كل أطماعهم أن يستنزلوا النبي ﷺ ليذهب فيما يرغبون فيه. قل: إن الذي جاءني من ربكم هو الحق، وكل ما سواه باطل. وإذ تبين الحق وجلا فإن إيمانكم أو كفركم بما جاءني من الحق لا يغير موقفي مما جاءني، فأنتم بالخيار بين قبوله والإيمان به، وبين الإعراض عنه والكفر به. فكونوا يائسين يأسا لا انتظار بعده أن أهادنكم فيما ترغبون فيه من التنازل عما أمرني به ربي في الأصول أو الفروع. واعلموا أن جزاء من أعرض فظلم نفسه، وظلم الحقيقة، مقرر ثابت هو النار التي تطبق عليهم فتحيط بهم كما تحيط الخيمة وما حولها بساكنيها.

ثم عرجت الآية على فعل النار فيهم وهم " تهكما بهم " في السرادق الذي لا مخرج منه، تسمع صوت الاستغاثة منهم، لا تبِحُّ حناجرهم من تكرار النداء طلبا للغوث، لتمكينهم شيئا يخفف عنهم حر النار. وما بقي في أذهانهم من الحياة الدنيا أن الماء هو الذي يخفف النار ويطفئها، فتقع الاستجابة لاستغاثتهم بماء أشبه ما يكون بدردي الزيت في لونه الضارب إلى السواد، وفي خاصيته. تلكم الخاصية هي أن الماء مهما أوقدت النار تحته لا تزيد درجة حرارته عن مائة درجة، أما الزيت والدردي فحرارتهما تعلوان على مائة درجة، فيشويان وجوههم كما تشوى بالنار. وسلط الشيُّ على الوجوه لأن الوجه أشد إحساسا بألم الحرق. وتستأنف الآية كصوت ينطلق في المشهد يعلن النكال بهم، ما أسوأه من شراب! وما أسوأ مكانهم في جهنم! يرتاحون فيها" تهكما بهم ". بئس شرابهم شرابا، وبئس جهنم وسادة يتكئون عليها.

---

[1] سورة الكهف آية 46

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا نضيع : لا نحرم أجر من أحسن عملا. أي نمكنهم منه.

عدن: إقامة.

أساور: جمع سوار حلي يحيط بالمعصم.

سندس : صنف من الثياب رقيق يلبس فوق الجلد.

الإستبرق : ثياب من حرير أغلظ من السندس، أو منسوجة من ذهب وحرير.

بيان المعنى الإجمالي :

إن من جمع بين الإيمان الواضح، والعمل الصالح، يحقق الله له بفضله وعدله كتابة جميع ما قام به من عمل حسن في صورته وقصده ويجزيه عنه.

يميزهم الله بأن جزاءهم سيكون جنات يقيمون فيها إقامة أبدية، من صفتها أن الأنهار تتخللها فترويها ريًّا متواصلا، يزيدها جمالا ولطفا. ويكسوهم ربهم ثيابا من حرير ناعم رقيق " سندس" وفوقه ثياب خضر من حرير مختلط بالذهب. وهذا تقريب للبشر بما يعرفونه في الدنيا، ولكن ما أعِدَّ لهم هو فوق ما تدل عليه الألفاظ بمدلولاتها المعروفة في هذه الدار الدنيا. والجو كله أنس وراحة، فهم متكئون في مجالس رائقة على الأرائك. وبصفة عامة نعم الثواب الذي حصل لهم،ونعمت الراحة التي يستمتعون بها.

بيان المعنى العام :

30-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...من أحسن عملا.

وصفت الآية السابقة جزاء الكافرين، وشأن القرآن أن يزاوج بين التهديد والرجاء، وبين ذكر النقمة للكافرين، والتكريم للمؤمنين. وعلى هذا النسق فصلت هذه الآية جزاء المرضيِّ عنهم، فبينت :إن الذين جمعوا بين صفاء العقيدة فتحقق منهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ثم استقاموا فكانت أعمالهم مطابقة لما شرعه الله فقاموا بما أمروا به، وانتهوا عما نهى الله

عنه، وتخلقوا بما أرشدهم إليه رسول الله ﷺ من رضيٍ السلوك ؛ان الله قد تكفل بإحصاء ما قدموا إحصاءً لا يهمل شيئا منه، وكيف يهمل ما هو حسن في صورته بمطابقته لشرعه، وما كان حسنا في أصله، بصدوره عن صفاء الإيمان. والإحصاء يدل على جزاء ما قدموه صغيرا وكبيرا.

31-أولئك لهم جنات عدن....وحسنت مرتفقا.

فصلت هذه الآية ما أجمل في الآية السابقة، فحققته في نواح ثلاث:

الناحية الأولى: المقر هو جنات يقيمون فيها إقامة لا تنقطع " عدن" ومقابلة جمع المؤمنين العاملين للصالحات بجنات عدن، يدل على اختصاص كل مؤمن بجنته. ومع الإقامة الأبدية، وصفت بالجمال والنضارة تبعا لما تخللها من أنهار تسقيها وتلطف جوها. وتملأ نفوسهم رضى إذ هم ينظرون إليها من مكانهم المرتفع الكاشف، لما تفيده من تحتهم من علوهم علوا تمتد به أبصارهم إلى الآفاق الفسيحة المتناسقة.

الناحية الثانية: المظهر العام للمنعمين في تلكم الجنات. تلحظ أيديهم وقد حلاها الله بأساور من ذهب، وترى لباسهم من حرير أخضر مطعم بالذهب فوق لباس من حرير رقيق يلي الجلد.

الناحية الثالثة :حلت عليهم الطمأنينة والرضى فهم في مجالس راحة وأنس، متكئين على الأرائك وهو جمع أريكة، والأريكة سرير عليه قبة وستائر من نسيج.

وتختم الآية بنظرة عامة تنطق بما أوتوه من نعيم وفضل بلغ أقصى ما يطمح إليه الإنسان من جزاء. نعم الثواب صيغة مدح للثواب الذي أعده الله لهم، وحسنت تلك الأرائك مرتفقا، عكس ما قدر لأصحاب النار في الآية السابقة : وساءت مرتفقا.

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

حففناهما بنخل : أحطناهما بنخل.

أكلها : ثمرها.

لم تظلم : لم تنقص عما هو متوقع.

الثمر : المال الكثير.

الصاحب : الرجل الآخر في المثل.

الحوار : مراجعة الكلام بين متكلمين.

أعز : أعظم عزة. ضد الذل.

النفر : عشيرة الرجل الذين يؤيدونه، والمقصود هنا الأولاد.

ظالم لنفسه : مشرك.

تبيد : تهلك.

أبدا : أمدا طويلا كما يبقى أمثالها.

منقلبا : المكان الذي يرجع إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

لفت القرآن عقول المخاطبين بما يقرّب لهم العاقبة بضرب مثل لرجلين أحدهما كافر مستكبر والآخر مؤمن واثق بربه دار بينهما حوار. كان الكافر ثريا مستغنيا بما يتصرف فيه من أملاك، له جنتان نمت فيهما أشجار العنب وأحاط بكل جنة أشجار النخيل، وبين الجنتين مزارع للحبوب والبقول، أثمرت كل جنة ما هو المأمول منها من غير نقصان. ومع ذلك آتاه الله أموالا كثيرة.

انتفخ كبرياء بما جمعه فخاطب صاحبه المؤمن بقوله: أنا أكثر منك مالا ولي من الأولاد والأتباع ما يمكن لعزتي فلا يستطيع أحد أن ينال مني. ودخل جنته وهو متغطرس محجوب عن الحقيقة بكفره فقال : أعتقد أن هذه الجنة لا يمكن أن تفنى، ولا اعتقد في البعث ولا في يوم القيامة، وحتى على ظنك لو بعثت فسأجد جنتين خيرا من هاتين الجنتين أتقلب فيهما.

بيان المعنى العام :

32←34: واضرب لهم مثلا رجلين....وأعز نفرا.

من أنواع البيان القرآني ضرب الأمثال المعبرة عن واقع متحقق، أو صورة قريبة التحقق، ليكون ذلك أوقع في نفس المخاطبين وأشد تأثيرا. فهذا المثل يمكن أن يكون موجها إلى المستكبرين الذين طمعوا في طرد ضعفة المؤمنين، كما يمكن أن يكون مقصودا به المؤمنين لتثبيتهم، والكافرين لتهديدهم.

هذا المثل يصور رجلين :أحدهما متغطرس بما جمع من مال، وما لَه من أتباع، كافر بالله والمعاد. والآخر مؤمن متعلق بربه. جرت بينهما محاورة. سجلها القرآن للعبرة. يسير العرض حسب المراحل الآتية :

أولا: يصف القرآن ثروة المستكبر: إنه يتصرف في جنتين قامت أشجار العنب فيهما، وكل جنة تحدق بأطرافها نخيل باسقة، وبين الجنتين مزارع تنبت مختلف الحبوب والبقول. ولنلاحظ دقة التعبير القرآني، جعلنا لأحدهما، وجعلنا بينهما، فهو يوحي من طرف خفي إلى أن الجنتين وإن كان يتصرف فيهما صاحبهما إلا أن هذا الخصب الواضح في الجنتين، هو من الجعل الإلهي ولا يملك المتصرف فيهما شيئا من التأثير الباطن الذي يَسَّرَ أن تكونا على ذلك الوضع.

ثم يضيف إلى الصورة الجميلة في تنظيم الجنتين، أن الخصب والإثمار ظاهرة فيهما، فقد أثمرت كل واحدة من الجنتين الإثمار المنتظر منهما، ولم تنقص شيئا عن ذلك المستوى شيئا، إذ انضم إلى خصوبة الأرض مياه متدفقة من نهر يمد العروق بما تتطلبه من رِيٍّ.

ومع هاتين الجنتين كان هذا الرجل يملك أموالا أخرى من الذهب والفضة وغيرهما " وكان له ثمُر "

ثانيا: يُثَنِّي القرآن بعد ذلك ببيان أثر هذه الثروة على صاحبها، فيصوره وهو يخاطب الرجل المؤمن الذي لا يرى قيمة للثراء، ومتاع الحياة الدنيا، وأن القيمة الحقيقية هي في رضا الله. فيلتفت الغني المتغطرس إلى الرجل الصالح، ويقول له في غلظة وكبرياء : أنا أكثر منك مالا، وأنا أعز منك بالعدد الوافر من أولادي وأتباعي الذين يقومون لنصرتي، فلا يلحقني ذل أبدا. وكأنه يشير إلى أن صاحبه مستضعف لا يجد من يدافع عنه ويتقوَّى به إذا طلبه من يريد إذلاله.

35←36: ودخل جنته وهو ظالم...خيرا منهما منقلبا.

ثالثا : سجل القرآن بعد ذلك وقد عظم اعتزازه بما أوتيه وهو داخل لجنته التي ضاعفت إحساسه بثروته وزادت في كبريائه وغطرسته، وحجبه كفره الذي ظلم به نفسه فأعماه عن العاقبة :إني معتقد أن هذه الجنة التي توفر لها التربة الصالحة، والماء النمير، هي جنة باقية خالدة لا تفنى. وأفرد الدخول إلى " جنته" ولم يقل: إلى جنتيه لأن الدخول يكون من إحدى الجنتين. وأكد قِصَرَ نظره بنفي قيام الساعة وطرح هذه العقيدة من فكره، وتهكما من صاحبه أضاف : إنه لو فرض أنا سنعود بعد الموت إلى ربي (أي حسب معتقدك) فإن مآلي لا يختلف عن حاضري، فسأكون في مقام رغد أجد عنده جنتين خيرا من جنتي هاتين أتمتع بهما.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النطفة : اللقيحة التي لقحت فيها البييضة بالحيوان المنوي.

حسبانا : يطلق بمعنى هلاكا مقدرا، أو سهاما قصارا، أو اسم جمع يدل الصاعقة، أو الجراد. والمعاني الأربعة تتلاءم مع الآية.

زلقا : لا تثبت عليها الرجل عند المشي.

غورا: غارقا في طبقات الأرض لا يبلغ وجهها.

بيان المعنى الإجمالي :

رد المؤمن على عنجهية المشرك بثقة فقال له : عجبا لك كيف تكفر بالله الذي خلقك من عناصر التراب التي تحولت في داخل أبويك فأفرزاك نطفة من بييضة الأم ولقاح الأب، وامتزجتا ثم والى عليك عنايته حتى تطورت إلى رجل مكتمل الخلْق والقوة. لكني أنا، أنا مؤمن بأن الله هو ربي لا شريك له. ولا أشرك بربي أحدا من الكائنات. لقد كان الواجب عليك أن يمتلئ قلبك من عظمة الله وتفرده بالتدبير والتصرف، عندما انبهرتَ لجمال جنتك ،وأن تقول : ما كان لهذه الجنة أن تبلغ ما بلغت إلا بفضل مشيئة الله، فإنه لا قوة تؤثر في الكون إلا قوته.

وواصل إن كنت تعتبرني أقل منك ثراء وولدا، فإن هذا لا يضيرني، فأنا آمل في فضل ربي، أرجوه أن يرزقني جنة خيرا من جنتك، وأن يرسل على جنتك من السماء ما يسحقها سحقا فلا يبقي فيها شجرا ولا نباتا، تزلق الأقدام على أرضها ولا تثبت. وعسى أن يذهب الماء الذي كان يرويها في باطن الأرض، فلا تستطيع أن تطلبه فييبس كل ما فيها عطشا.

بيان المعنى العام :

37←41: قال له صاحبه وهو يحاوره....فلن تستطيع له طلبا.

بعد تسجيل القرآن على المشرك المتغطرس مقاله، ودخائل نفسه، ثنَّى برد المؤمن في محاورته له الذي لم يسكت على الباطل، ولم يلِنْ في الحق، فقال له : عجبا لك كيف تكفر بالله، ألم تنظر في خَلْقِكَ ! لقد خلقك الله من عناصر من التراب تحولت إلى نبات وإلى لحوم وألبان ثم دخلت في تركيب والديك فكنت جزءا منها بييضة من الأم وحيوانا منويا من الأب، تم التلقيح بينهما، ثم والى عليك عنايته وألطافه حتى بلغت مستوى الرجولة والقوة التي أنت عليها. لكن أنا أعترف بأن الله هو ربي، ولا أشرك به سبحانه أحدا في الخلق والتدبير والتصرف. وكلمة "لكنا" مركبة من كلمتين "لكن" أنا" فأدغمت الكلمتان وليست لكنَّ ألحقت بها ألف كما قد يتبادر. وتقرأ بدون ألف عند الوصل. ثم واصل كلامه محرضا له على تغيير موقفه منكرا عليه تصريحاته، معرفا له بما كان ينبغي عليه أن يصرح به لما دخل جنته، كان عليه أن يقول: ما شاء الله. هو من باب الاقتصار على معنى ما شاء الله كان. اعترافا بأن النضرة والخضرة، والأشجار المحملة بالثمار، والماء المتفجر الذي عَمَّ ريُّهُ للجنتين ما كان ليجتمع كل ذلك لولا أن الله شاء ذلك، فهو الميسر للأسباب. وإن قواك لتضعف عن إنشائهما، فالقدرة والقوة المسخرة هي قدرته سبحانه.

ثم أضاف: إن استكبرت علي فحسبتني، لما كنت أقل منك مالا وولدا، أقل شأنا منك، فإن ذلك لا يضرني، ولا أراه موجبا لتفضيلك علي. إن ما يعمر به قلبي من الإيمان والتعلق بالخير والتواضع لله هو فضل دائم يصحبني في حياتي وبعد مماتي، وأنا آمل منتظر فضل ربي علي فهو قادر على أن يرزقني جنة خيرا من جنتك. أما ما هزك الطرب لجمعه فأنت مهدد فيه، فالله قادر على أن يرسل على جنتك من الآفات ما يمحقها، صواعق من السماء أو قذائف متتابعة لا تبقي فيها لا شجرا ولا ترابا فتتحول إلى أرض لا تثبت الأقدام عليها. وأن يذهب الماء الجاري في أعماق الأرض بعيدا فتيبس الأشجار والنبات، مما أنت مُزْدَهٍ به. وتعجز عن استخراجه بعد أن ابتلعته الأرض في جوفها.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أحيط بثُمُرِهِ : عم الفساد ممتلكاته.

خاوية : خالية.

العرش : السقف.

الفئة :الجماعة التي يلجأ إليها.

الولاية: الرئاسة. ومَنْ قرأها الوَلاية فهي بمعنى الموالاة والنصرة.

عُقْب :آخرة الأمر. ما يرجوه المرء من سعيه

بيان المعنى الإجمالي :

يبدو المشهد في سرعة وقد ذهب المال وخربت الجنة، وهو قابع في ركن يقلِّبُ كفيه حسرة وندما، ويستحضر ما كان ينفقه فيها راجيا مضاعفة أمواله، فتتضاعف حسرته وأساه، ويقول يا ليتني لم أنزلق إلى الشرك وأتخذ إلها من دون الله. ويتراكم حزنه لما خاب ظنه في القوة التي كان ينتظر منها أن تحميه وتساعده، لم يجد من النفر الذين تبجح بهم أحدا ينصره، لا أمل له في قريب يدافع عنه .في هذا المشهد يتحقق أنه لا ولي إلا الله الحق، وأن ما عداه زائف لا حقيقة له، وأن ثوابه هو الثواب الحقيقي الدائم وكذلك العاقبة التي يمكن منها الصالحين، هي العاقبة الحسنة، وما عدا ذلك باطل وبهرج ليس له ثبات ولا دوام.

بيان المعنى العام :

42←43: وأحيط بثمره فأصبح يقلب..وما كان منتصرا.

بلغ المثل الذي ضربه الله أن كل واحد من الرجلين كشف عما في نفسه، وارتسمت صورة الكافر شامخا بأنفه مستكبرا لا يخشى الله ولا يقيم في حسابه وزنا للتصرف الإلهي. وبدون مقدمات يعم جنتيه وما يملكه من أموال فساد ماحق، فلم يبق له من ممتلكاته شيء. وإذا صورته صورة البائس الحسير الذي يقلب كفيه ندما على ما أنفقه في عمارة الجنتين. ينظر إلى الخراب وقد عم كل ما يملك، مُجَسِّمًا كأنه السقف سقط على الأرض ثم انقلبت الجدران عليه. وبجانب منظر الخراب المفزع نفس تأكل ذاتها ندما على انحرافها وكفرها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا، حقَّ عليه العذاب وذهب المال وعصفت العواصف بالأشجار والثمار فما بقي من ممتلكاته شيء، وغاب ما كان يتبجح به من كثرة أولاده ومواليه، لم يجد منهم جماعة تنصره وقد حلت الكارثة الماحقة. وما كان له أي طريق ينتصر به فهو مهمل للحسرات والكآبة والخسران.

44-هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا.

تتجمع الصورة فيشير إليها القرآن بقوله: هنالك. يبدو للناظر المتتبع لما ساقه المثل من تفصيل كأنه في مكان محصور، تظهر الولاية والنصرة مختصة بالله

الموصوف بأنه حق. بمعنى أن ما عداه زائف لا حقيقة له، وهو أضعف من أن يُمِدَّ بمساعدة. فإن ثواب الله سبحانه أفضل وخير من جميع أنواع الثواب الواردة من غيره، إذ هي منقوصة في ذاتها، لا دوام لها ولا ثبوت. وما يقدره للإنسان في عاقبته أفضل أيضا.

في هذا المثل ما يوقظ المشركين الذين طلبوا أن لا يشرك النبي ﷺ في مجالسه ضعفة المسلمين، وأن يصانع كبرياءهم فيطردهم من مجلسه، فيه تجسيم للعاقبة الخاسرة للمستكبرين، وأن المال بيد الله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، وسيحل بهم من الخسران ما حل بهذا المشرك الغليظ المستكبر.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحياة الدنيا: الأمد الذي يبقى فيه نظام الكون. ومدة حياة كل فرد.

اختلط به نبات الأرض : وفرة النبات والتفاف بعضه على بعض.

هشيما : محطما مفتتا.

تذروه :يتفرق متطايرا.

الباقيات الصالحات : الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها.

بيان المعنى الإجمالي :

جبلت النفوس على حب الحياة الدنيا ونعيمها، وهذا لا مانع منه، ولكن ذلك قد يؤثر في تقدير الأمور تقديرا خاطئا يتبعه التعلق بالحياة الدنيا تعلقا يغفل به الإنسان عن ربه، فأيقظه القرآن بمقارنة بين الحياة الدنيا وبين الماء النازل من السماء الذي يسري في الأرض فتصبح الأرض مخضرة، وما يزال ينمو نباتها وتتشكل ألوانه مع الخضرة بالزهور فيبهج النفس، ولكن بعد مدة لا تطول تجف العروق والأوراق والأغصان، وتفتت ويسفيها الرياح فتتطاير في الجو هباء منثورا. ويكون ذلك مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية. وهكذا الدنيا بالنسبة للآخرة.

إن من أفضل مباهج الحياة الدنيا المال والبنون. فهي نعم تعطي للحياة زينة وجمالا. ولكنها نعم غير باقية تفنى الآمال فيها بفنائها. وفي المقابل فإن الأعمال الصالحة لا يضيع شيء من أجرها، ثوابها عند الله، وصاحبها على أمل العون من ربه في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

45- واضرب لهم مثل الحياة الدنيا....على كل شيء مقتدرا.

يشد الواقع الحاضر الفكر فيظنه باقيا، ويمضي على غفلته تلك، فيوقظه الوحي بضرب المثل القريب ليؤلف منه نظيرا يقرب الحقيقة التي لم ينتبه إليها. إن الذي يحجب العقل عن استحضار المآل هو ما يحيط به من نعيم، فيظن أن ذلك النعيم لا يزول. ولكنه زائل غير باق. فيقرب القرآن ما تقدمه الحياة الدنيا للبشر من ترفيه، وما يحضره من أنواع النعيم، بالماء النازل من السماء، يسري في طبقات الأرض فيخرج بسببه مختلف أنواع النبات، وما زال الريُّ يجري في العروق حتى ينمو ويلتف بعضه على بعض ويكسو وجه الأرض بخضرته اليانعة، وبزهوره المشكلة الألوان، فتراه يحدثك بالحياة وبالجمال.

وفي وجه آخر من هذا المشهد الجميل تذهب الخضرة، ويجف الرواء، وتتكسر الفروع ثم تتفتت، فتطير هباء في الجو. والحالتان تمثلان مظهرا يدل على كمال القدرة الإلهية، والتصرف في الكون بالبناء والهدم، ويخضع النبات إلى الزوال والموت كما خضع إلى الحياة. وهكذا أمر البشر، نعيم الحياة بالنسبة لكل فرد زائل، والأرض وما عليها والسماوات وما تحويه أمرها إلى زوال.

46- المال والبنون زينة الحياة الدنيا... وخير أملا.

إن الذي يغشي على بصائر المشركين هو ما جمعوه من مال، وما رزقوا من أولاد. وقد رأينا صورة ذلك في المستكبر صاحب الجنتين " **أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** " وهذا يبين من ناحية أخرى ما ورد في الآية السابقة التي تمت فيها المقارنة بين الحياة الدنيا وما تنبته الأرض. فلفتت هذه الآية النظر إلى مقارنة بين المال والبنين من ناحية، وبين الأعمال الصالحة من ناحية أخرى. نعم للمال وللبنين قيمة إيجابية في الحياة، ولكنها قيمة ظاهرية غير نافذة إلى الهيكل الحقيقي، هما زينة يلفتان النظر، محبوبان للنفس، وخير منهما الأعمال الصالحة، ذلك أن المال والبنين زائلان لا يتصفان بالبقاء السرمدي، ولا بالنفع الدائم، بينما الأعمال الصالحة ثوابها مدخر عند ربك الذي لا تضيع الودائع عنده، ومن المقرر أن العاملين للصالحات سيلقون عونا في الدنيا ورضا من ربهم. قال تعالى: **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**[1].

---

[1] سورة النحل آية 97

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

بارزة : ظاهر وجهها وقد فني كل ما عليها.

وعرضوا : أُحْضِروا غير محجوبين بحاجب.

الزعم : القول الخاطئ والاعتقاد المخطئ.

موعدا :حياة بعد الموت.

مشفقين : خائفين.

لا يغادر : يسجل ولا يترك.

الإحصاء : العد.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد يوم نُفتّتُ الجبال فتسير هباء، وترى، كأنك تشاهد، مظهر الأرض وقد زال كل ما كان على ظهرها من نبات وحيوان، وجُمع المشركون كلهم فلم يتخلف منهم أحد،؛ ثم عرضوا صفا كحال المجرمين الحاملين لوثائق اعترافاتهم بما فعلوه وما اعتقدوه، ثم يخاطَبون من رب العزة خطاب التقريع والتنديم : ها أنتم قد جئتمونا مضطرين لا خيار لكم ولا قدرة، كحالتكم يوم خلقناكم أول مرة في الدنيا، إذ ما كان لكم اختيار في يوم خلقكم الأول ، بل إنكم كَذَّبْتُمْ بدعواكم أنه لا بعث.

ومن شؤون الآخرة أن الله يضع الكتاب المحصي على البشرية عامة ما صنعت، ويمكن كل مجرم من كتابه الخاص، فيرى كل من تمكن منه الرؤية على وجوه المجرمين الخوف مما حواه، ويقولون في حسرة وتعجب : ما الذي جعل هذا الكتاب بلغ من الدقة في التسجيل أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها ووثقها ! وجدوا كل أعمالهم ناطقة بما صنعوه. والله لا يظلم أحدا، فقد بعث إليهم الرسل وبين لهم الخير والشر، وما سجل في صحائفهم إلا ما صدر عنهم فعلا.

بيان المعنى العام :

47- ويوم نسير الجبال وترى الأرض....فلم نغادر منهم أحدا.

الآيات السابقة تشير إلى الحياة الأخرى. وهنا تصريح ببعض ما يتم يوم البعث. اذكر يا محمد اليوم الذي نسير فيه الجبال مما يفيد أنها تنقلب هباء تتحرك حركة كثبان الرمل، ولا يقف المشهد عند الجبال التي كانت راسية عالية قممها، بل الأرض كلها تبدو جرداء لا نبات ولا حيوان. والحال أننا حشرناهم وجمعناهم من الأماكن التي كانوا فيها، ولم نبق أحدا. دُعُوا فأجابوا الداعي، كما يجلب المغناطيس جزيئات الحديد إليه.

48-وعرضوا على ربك صفا لقد....أن لن نجعل لكم موعدا.

جُلِبوا من مراقدهم ليتم عرضهم على خالقهم، كما يعرض المجرمون على القضاء يحملون وثائق اعترافاتهم. ثم يواجهون بخطاب من الله، فيه تقريع وتهديد وإثارة للندم على ما اعتقدوه من أنهم غير مبعوثين. مع تذكير بأن خلقهم في هذا اليوم هو كخلقهم يوم وجدوا في الدنيا، ويقع الإضراب عن الكلام الأول ليواجَهوا بما كانوا يقولونه معتقدين له: أنه لا حياة بعد الحياة الدنيا.

49- ووضع الكتاب فترى المجرمين...ولا يظلم ربك أحدا.

يتلو الحشر العام والحضور في المجمع المقدر، وضع الكتاب العام الحاوي لجميع ما عمله البشر في حياتهم الدنيا. نسخة من الكتاب مسجلٌ فيها أعمال كل فرد، ويفتضح المجرمون فكل من تصح منه الرؤية يشاهد الفزع الذي عليه المجرمون، وقد استولى عليهم الخوف مما تضمنه الكتاب الحاوي لأعمالهم، هم يقولون في أسف وحيرة وتعجب :ما الذي جعل هذا الكتاب مختصا بتسجيل كل أعمالنا، عجبا له لم يترك صغيرة من أعمالنا التي فعلناها في الدنيا، ولا كبيرة، إلا حفظها ووثقها! ويحقق القرآن أنهم استوعبوا في سرعة عجيبة هي من أحوال الآخرة، إذ وجدوا كل أعمالهم حاضرة أمامهم. ويأتي التعليق المقرر للحقيقة السرمدية التي ذكروا بها في الدنيا فلم يذكروا : إن ربك يا محمد لا يظلم أحدا، أمَرَ ونَهَى وبعث رسله، ويثبت في كتاب أعمالهم ونياتهم ويعرضها عليهم فيقروا بها.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ

عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

فسق: خرج عن الطاعة إلى المعصية.

الذرية : النسل.

الولي : القريب الصديق المعتمد عليه.

ما أشهدتهم : ما أحضرتهم.

المضلين: الشياطين.

العضد : العظم الذي بين المرفق والكتف. وشاع إطلاقه بمعنى المعين على العمل.

موبقا: مهلكا، مكان هلاك.

ظنوا : الظن هنا بمعنى التحقق.

مواقعوها : واقعون فيها.

المصرف : مكان للتخلص.

بيان المعنى الإجمالي :

تذكير بقصة خلق آدم. اذكر يا محمد مجددا ما تم يوم قلت للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم بطريقة تناسب الملائكة، وليست بوضع الجبهة على الأرض إذ الملائكة ليست لهم جباه ولا مفاصل، ولكنه سجود يتناسب مع خلقهم ومع تنزيه الله سبحانه. وأن الملائكة أطاعوا وسجدوا، وأن إبليس الذي كان من الجن وليس من جنس الملائكة وشمله الأمر، عصى ربه ولم يسجد مستكبرا. وحسد آدم حسدا سرى في ذريته، وتمكنت عداوتهم للجنس البشري. فالعجب من الذين يتخذون الشيطان وذريته عمدة يتبعونهم ويأتمرون بأوامرهم، مع هذا العداوة المتأصلة المستحكمة. ما أسوأها صفقة يستبدلون فيها طريق الهدى بسلوك مسالك الضلالة.

كيف يعبدون الشياطين !والشياطين ما كانوا مخلوقين يوم خلق الله السماوات والأرض، وكذلك ما تسلسل من ذرية الشياطين تم خلقهم بقدرة الله وحده، إذ لا يتصور أن يكون الشيطان مصدر الشر والخبث، مساعدا لله مصدر الكمال والخير.

واذكر أيضا عارضًا، مشهدا من مشاهد يوم القيامة. يوم يقول الله يوم الحشر للمجرمين: اطلبوا من شركائي الذين ادعيتم باطلا أنهم آلهة فعبدتموهم في الدنيا

وتقربتم إليهم لنصركم والشفاعة لكم. وصدرت منهم صيحة الفاقد للنصير مستغيثة بهم، ولشد ما كانت خيبتهم لم يسمعوا منهم جوابا، بل جعل الله بينهم فوهات من النار. ثم ظهرت لهم نار جهنم تستعر فحصل لهم اليقين أنهم يقعون فيها ويكونون جُزْءا منها تتوقد بهم، وحل اليأس محل الأمل، وأحيط بهم لم يجدوا عن جهنم أي ملجأ ولا مخلص.

بيان المعنى العام :

50-وإذقلنا للملائكة اسجدوا...للظالمين بدلا.

انقسم هذا التذكير في الآية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أمر الله ملائكته بالسجود لآدم فأطاعوا وسجدوا. وقد تقدم ذلك في سورة البقرة. وكان الأمر شاملا لإبليس، باعتبار أنه كان يعيش مع الملائكة، وإن كان عنصره من مارج من نار، وعنصر الملائكة من نور. وظهر الفرق بينهما بخروجه من الطاعة إلى المعصية " **ففسق عن أمر ربه** " فتم تسجيل موقف إبليس الوقح، الموقف الذي زاد في شناعته أنه كان مدركا لوضعه : إن الذي خلقه وتولاه بعنايته هو الذي أمره "ربه" ومع ذلك خرج من دائرة الطاعة إلى دائرة العصيان والاعتراض.

القسم الثاني :الإنكار على من يعتمد إبليس ونسله مع ما طبعوا عليه من الشر ومن عداوة بني آدم، وخبثهم بالوسوسة ما يوقعونهم به في الضلال والكفر. يتبعونهم معرضين عن الاعتماد على هداية الله، مع أن الله يدعوهم إلى الطريق الراشد الآمن الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة.

القسم الثالث : التقويم لاتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله : هو أسوأ حاضرا وعاقبة، وضلال مبين باستبدال النور الذي يأتيهم من الله باتباع الشيطان وتزيينه. فما أسوأه بديل للذين ظلموا أنفسهم : بئس للظالمين بدلا.

51- ما أشهدتهم خلق السماوات...المضلين عضدا.

استدلال على مضمون الآية السابقة التي تنكر على المشركين تعلقهم بالشياطين وانصرافهم عن هداية الله التي تفضل بتوجيههم إليها عن طريق رسوله ﷺ. وحاصل ذلك : إن الشياطين الذين تتعلقون بهم وتأتمرون بما يدفعونكم إليه من الشرك والضلال، هم محدَثون سبق العدم عليهم، وما وُجِدوا إلا بعد خلق السماوات والأرض، فما كانوا موجودين يوم نفَّذت الإرادة القدرة الإلهية إحداثهما، فضلا عن مشاركتهم لله في الخلق، فما أشهدتهم تدل على نفي مشاركة الشياطين في الألوهية

والخلق على أبلغ وجه. وما كانت الشياطين بمساعدة الله على خلق الشياطين ولا حاضرة، فهم غائبون، لا أثر لهم لا في خلق السماوات والأرض ولا في خلق ما يتتابع من نسلهم.

وكيف يكون الكامل في ذاته وفي تصرفه، الحكيم الذي يقدم لعباده ما يهديهم إلى الرشد والحق، كيف يكون مستعينا بمن محض نشاطه للشر والإغواء ؟وما كنت متخذ المضلين عضدا. على معنى أن مفيض الخير لا يعقل أن يستعين بمن لا ينشط إلا في التضليل والإغواء. إنه لا يتم التعاون إلا بين المتجانسين تعالى الله علوا كبيرا، الله هو الخير المطلق والشيطان هو الشر المطلق. وتكون الآية ردا على المشركين وعلى الطبيعيين وعلى كل متخرص يقول بغير علم ولا دليل.

52- ويوم يقول نادوا شركائي...وجعلنا بينهم موبقا.

واذكر أيضا مشهدا من مشاهد يوم القيامة، هذا المشهد يخاطب الله فيه المشركين بما يحدث فيهم داعية لمناداة شركائهم الذين كانوا يستندون إليهم في الدنيا، هؤلاء الذين كانوا يزعمون أنهم شركاء لله في الخلق، أحقاء بالعبادة والتقرب والاستغاثة ؛ اطلبوا منهم أن يقبلوا عليكم لنصرتكم وليشفعوا لكم. وتنطلق حناجرهم مناديةداعية مستغيثة، وتخيب آمالهم فلا من مجيب، مما يضاعف حسرتهم على الضلال الذي كانوا عليه. ويقترن بذلكم الألم النفسي أن الله يجعل بين المشركين وبين آلهتهم، إثر دعائهم، فوهات من نار جهنم. ستزيد الآية التالية تفصيلا لما يتبع هذا الكشف الحاصل إثر النداء.

53- ورأى المجرمون النار....ولم يجدوا عنها مصرفا.

انفتحت تلكم الفوهات من جهنم، ورأى المجرمون، بالكفر والإعراض عن هداية الله، نار جهنم تستعر، وهي محيطة بهم من كل جانب، وبمن كانوا يعظمونه من الآلهة وهم في مواقع الذل يحيط بهم ما أحاط بهم. فتيقنوا أنهم سيقعون فيها فتحويهم وينقلبون جزءا منها، كما قال تعالى: وقودها الناس والحجارة [1]- وعبر عن تحققهم ذلك بالظن استهزاء بهم. ولم يجدوا في ذلكم الموقف الحرج أي مخلص ولا منفذا للنجاة " ولم يجدوا عنها مصرفا"

---

[1] سورة البقرة آية 24

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

صرفنا : نوعنا ولم نجعلها نمطا واحدا.

الناس : اسم جامع لكل من يبلغه القرآن في الحاضر والمستقبل.

الجدل : المنازعة في القول، قد تكون بحق وقد تكون بالباطل عنادا.

الأولين : الضالين قبل عهد البعثة المحمدية.

سنة الأولين : الحالة المألوفة.

قبلا :جمع قُبُل بمعنى أنواع من العذاب.

دحض الحق : إزالته وإبطاله.

الهزؤ : السخرية.

أكنة: جمع كنان وهو الغلاف الساتر.

ما قدمت يداه : ما قدم من السوء عقيدة وعملا.

القلوب : المدارك.

الأكنة : جمع كنان بمعنى الغطاء الحاجب.

يفقهوه : يدركوا باطنه.

بيان المعنى الإجمالي :

نوع القرآن الأمثلة الواقعية التي تقرب هداية الإسلام إلى العقول وإلى القلوب، وبالنظر إلى طبيعتها فإنه كان من المفروض أن يقبلها المخاطبون بها، ولكن ما فطر عليه الإنسان من النزاع لتثبيت ما هو عليه ولو بالباطل، جعلهم يجادلون ويحاولون رد الحق الذي جاء به الإسلام عقيدة وتشريعا.

إن الذي منع الكافرين من الإيمان والدخول في دين الله، وإدراك أنهم على ضلال يحتم عليهم طلب المغفرة، بعد ما وضح لهم من الهدى بضرب الأمثال، وبيان الرسول والدلائل التي ترفع الشك في صدقه، إن الذي منعهم هو انتظارهم أن يحل بهم ما حل بالأمم السابقة من أنواع العذاب المستأصل الذي ذكره القرآن، أو يستقبلوا أنواعا أخرى لا عهد للبشرية بها.

وما بعث الله رسله إلا ليَعْرِضوا بأتم بيان وأوضحه ما يبشر بالسعادة المتقين، وينذر بالعذاب الكافرين الرافضين. وما بعثوا ليشغلوا أنفسهم بالجدال مع الذين صمموا على الرفض، والجدال بالباطل، والعزم على هدم الحق. وضموا إلى ذلك الاستهزاء بما توعدهم القرآن وما أنذرهم من سوء مصيرهم.

إنه لا يوجد ظلم أشد من ظلم الذين تفضل الله عليهم بعنايته وأرسل لهم رسله، وعرض على عقولهم وحواسهم الآيات البينة، ومع ذلك أعرضوا عن الالتفات إليها وتدبرها. وبلغ من غفلتهم أن ما قاموا به من سيء الأعمال أصبح نسيا منسيًّا لا تلومهم نفوسهم عليه. صمموا على الكفر والعناد فجازاهم الله من جنس تصميمهم أن جعل قلوبهم محجوبة بحجاب لا تستطيع أن تعقل أسرار آيات كتابه، وأصم آذانهم عن الاستماع لدعوة رسوله. ولذلك فإنك وإن بالغت في دعوتهم إلى الهدى فإنهم لا يهتدون.

بيان المعنى العام :

54-ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن...أكثر شيء جدلا.

غير بعيد عن هذه الآية ضرب القرآن مثلا واصل تفصيلاته من آية 32إلى آية 43 وأتبعه بمثل آخر آية 44- وضرب الأمثال طريقة قرآنية تساعد على التأثير على السامعين بالبيان والخوف والرجاء. وهي متنوعة المواضيع مختلفة الأسلوب في العرض تحرك مدارك غير المعاندين الرافضين لقبول ما يقصد إليه القرآن في الغرض الخاص، أو في الهداية الشاملة لاتباع طريق الحق. ونظرا إلى أن الأمثال منغرسة في الواقع تقيم مقارنة بين الواقع وبين الحقيقة التي يعمل القرآن على تركيزها في العقول والقلوب، ونظرا إلى أنها متنوعة، ونظرا إلى أنها تكررت تكرُّرًا يغطي جوانب عديدة، فإنه كان من المنتظر أن يحصل الاقتناع بما يدعو إليه الإسلام من عقيدة وتشريع. ولكن لم ينفع فيهم تنويع الأمثال وتعددها، فثار فيهم ما فطر عليه الإنسان من غريزة الأنانية وحب الذات، الأمر الذي يدفعه إلى رفض ما يرد عليه مما يغير النمط الذي يسير عليه، فكان عامل الغريزة المنحرفة حاجبا عن

تبين ما في هذه الأمثال من تقريب لما ورد على لسان رسـول الله ممـا يغيـر مـا ألفـوه. والمجادلة قد تكون حسنة مقبولة إذا كان هدفها إظهـار الحـق أو دحـض الباطـل، وبهـا يقنع الصالحون المنحرفين وبها تتم هداية الضالين، وقـد تكـون ذميمـة إذا كانـت بـدافع التصميم على الباطل ومحاولة دحض الحق.

55- وما منع الناس....أو يأتيهم العذاب قبلا.

تكميلا لما أفادته الآية السابقة تكشـف هـذه الآيـة : أنـه بـالرغم مـن تعـدد الأمثـال، وتنوع البيان، ومنطقية هـذا الـدين ومسـاوقته للفطـرة واعتمـاده قـوانين العقـل، فـإن السؤال المحير الناشئ هو، ما الذي منع الكافرين من قبـول الـدين الإسـلامي ولمـاذا لـم تستيقظ ضمائرهم فيدركوا فساد ما هم عليه، ويُعجّلـوا بطلـب المغفـرة عـن ذنـوبهم؟ إن الذي منعهم هو الذي منع من كـان قـبلهم مـن الأمـم التـي رفضـت دعـوة الرسـل وأعرضوا عما شـاهدوه مـن الآيـات والـدلائل القائمـة علـى صـدقهم ؛ هـو العنـاد والاستكبار عن قبول الحق إلـى أن يتسـلّط علـيهم العـذاب. علـى معنـى أن الكـافرين بالقرآن ليس لهم ما يبرر امتناعهم من قبول هدايـة الله، إلا أمـر واحـد، هـو أن تتحقـق فيهم سنة الله في الذين كانوا قبلهم من المكـذبين، أي إنـه يستأصـلهم بنـوع مـن أنـواع ما سلطه الله على الأمم السـابقة كالطاغيـة، والعاصـفة، والـريح الصرصـر، والغـرق، والرجة، مما ذكره القرآن جزاء للمكذبين. أو يسلط علـيهم أنواعـا أخـرى مـن العـذاب التي منها القتل كما تم في بدر.

56-وما نرسل المرسلين إلا مبشرين....وما أنذروا هزؤا.

الآيتان السابقتان كشفتا عن داء الجدل المستحكم من الكافرين، كلما قام برهان ورفعت الشُّبَهُ وتجلت الحقيقة. ظهروا بمظهر استيلاء العناد عليهم والمكابرة وعدم الرضوخ للحق، مع أن رسل الله للبشرية لم يبعثهم ربهم للجدل ولا ليصرفوا جهودهم للمعاندين المصممين، وإنما بعث رسله لينبهوا الخلق بعاملي البشارة لمن اتبعهم وعمل صالحا، والإنذار من سوء العاقبة لمن أعرض عنهم وأساء. فوظيفتهم هي إخراج الناس من غفلتهم وبيان العقيدة والتشريع بيانا مقنعا. ولكن الذين كفروا يصرفون جهودهم للجدل، وتقديم أباطيلهم بضروب من التلبيس ليشغلوا الرسل عن مهمتهم، وليقلقلوا الحق الذي معهم حتى ينحرف عن مساره، إذ الدحض في أصل معناه، يقال في الرِجْل إذا انزلقت ولم تثبت في المكان الذي تحولت إليه.

و يجمعون إلى جدلهم بالباطل لإزالة تأثير الهـدى، اتخـاذهم آيـات القـرآن ومـا نـزل فيه مـن النـذر الموقظـة مجـالا للسـخرية والاسـتهزاء والاسـتخفاف، ممـا يصـرف الدهماء والعوام عن الإيمان.

57- ومن أظلم ممن ذكر بآيات...فلن يهتدوا إذا أبدا.

تفتح الآية بالسؤال الإنكاري (من) فكانت صياغتها مثيرة للذهن ليبحث ويتأمل في الساحة ويقارن بين أوضاع البشر ليتبين من أشد الناس إغراقا في الظلم، فينتهي إلى الإقرار بأن أشدهم ظلما لنفسه وللحقيقة، هو الذي تم تحريك ذهنه ومداركه بالأدلة والآيات البينات؛ فأسرع لاتخاذ موقف غريب هو عدم الالتفات إليها، ورفضِ التأمل فيها. ووجه الغرابة أن ما جاءه من ربه ينبهه إلى فساد ما قدمه وسوء عمله. فهي آيات توقظه وتكشف له مآلات أفعاله التي كانت محجوبة عنه. وشأن العاقل أنه إذا نُبه أن ينتبه، فإعراض المشركين عن مراجعة أنفسهم عن قبائح أعمالهم ظلم لنفوسهم، فصورَتْهُم الآية في صورة من بلغت به الغفلة بالناسي، لذاته تقبيحا لشأنهم وتقريعا لهم.

إن هذا الموقف الرافض قد استولى عليهم فأقفلوا عقولهم عن التدبر في آيات الله، وبمجرد ما يقرع أسماعهم صوت رسول الله يدعو إلى ربه ويبلغ آياته وهداه، ينصرفون عنه. جازاهم الله عن تصميمهم على الرفض والعناد أن حرمهم ألطافه، وغطى على عقولهم بغطاء صفيق لا يمكّنهم من النفاذ إلى فهم أسرار القرآن، وأصم آذانهم عن سماع صوت الحق.

إن من سنن الله في الخليقة، أنهم إذا عزموا على منهج في الحياة، وتواصل تطبيقهم له، والعمل به، وصمموا على الالتزام به وأصروا على التمسك به، فإنه مع هذه الخلفية لا يتحولون بعد انغراس ذلك، بالاختيار والعمل والتطبيق. وعلى هذا النحو يعلم الله نبيه ﷺ أن هؤلاء المشركين لا يهتدون لا في الحاضر ولا في المستقبل، وستنتهي حياتهم الدنيا وهم على ضلالهم، فلا تحزن ولا تبتئس، فتلك سنة الله الماضية في البشر.

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفور : شديد الغفران لكثرة ما يغفر ولقوة غفرانه الذي لا يدع أثرا للذنب.

موئلا : منجى.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ربّك الذي تولاك بعنايته، وواصل أمداد إنعامه عليك هو الكريم الذي يغفر ذنوب التّائبين مهما عظمت. و هو الرّحيم بعباده تشمل رحمته ما لا يحصى من النّعم، من الخيرات التي يوصلها لهم، و ما يدفع عنهم من الشرور والآلام. و من عظيم رحمته إمهاله بعدم تسليط العقوبة في الحال، عسى أن يؤمن الكافر و يتوب العاصي.

و لولا رحمة ربّك لسحقهم بمجرّد ما يظهر منهم من الكفر أو المعاصي. دون أن يجدوا منجى ينجّيهم. و تقوم أمام أنظاركم شواهد من القرى التي أهلكناها مع ساكنيها لما صمّموا على الشّرك واستمرّوا عليه. تحقّق إهلاكهم في الموعد المقرر.

بيان المعنى العام:

58-وربك الغفور...لن يجدوا من دونه موئلا.

إذا كانت الآية السابقة حققت أن الله طبع على قلوب المعاندين وأسماعهم، فإنه سبحانه مع ذلك يتولى المذنبين فيستر عليهم ذنوبهم، ويمحو آثارها السيئة من صحائفهم، إذا هم أقلعوا وتابوا. إن مغفرة ربك يا محمد مغفرة عظيمة شملت عددا لا يحصى من المذنبين، وأنواعا مختلفة من الذنوب والتجاوزات ما عدا الشرك بالله. وبهذا تكون هذه الآية مؤكدة لمضمون الآية السابقة، أن ما حل بهم من الطبع على قلوبهم وعلى أسماعهم كان جزاء ما رغبوا فيه وعملوا عليه، إذ أعرضوا عن التعرض لمغفرته ورحمته. ومن ناحية أخرى فإن موقع هذه الآية جار على سنة القرآن في الهداية أن يقرن بين الترغيب والترهيب، والبشارة والنذارة.

ورحمته سبحانه شملت حتى الكافرين، فإنه سبحانه لم يعاجلهم بالعقوبة، بل أفسح لهم المجال، ليقلعوا عن ضلالهم، وعندها يغفر لهم ما سبق. "قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف"[1] فإمهالهم محقق للرحمة، وقبولهم محقق لوصف الغفور.

و ليس الإمهال إلا رحمة منه، لا مطمع لهم في النجاة والانفلات من العقوبة، فإن الله قد ضرب لهم الموعد الذي يجزيهم فيه، عما قدموا. وهو موعد لا يجدون منه نجاة ولا ملجأ يحميهم. يتحقق في الزمن الذي قدره وفي المكان الذي أعده للحساب.

---

[1] سورة الأنفال آية 38

59-وتلك القرى أهلكناهم...لمهلكهم موعدا.

يحقق ما جاء في الآية السابقة، من أن المشركين لا ينفلتون من عذاب الله. ما جرى على أهل القرى الذين أهلكهم الله ومحقهم، وهي معلومة لهم حاضرة في أذهانهم، تبعا لما شاهدوه من خراب ديارهم، ولما تكرر على أسماعهم من أهل الكتاب عن أخبار قوم نوح وفرعون وغيرهم. وحقق أن استئصالهم كان بسبب ظلمهم. وأن الله قد حدد لكل شيء أجله. وما حدده لا يختل ولا يتقدم ولا يتأخر عن موعده.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتى : الشاب، والمقصود به هنا التابع للخدمة.

لا أبرح : أواصل السير ولا أفك عنه.

مجمع البحرين : روايات عديدة في تحديده من أرض فلسطين قد يكون مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية. أو ملتقى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أو هو مضيق جبل طارق.

أمضي : أسيرُ

حُقُبا : زمنا طويلا.

السرب : النفق.

الغداء : طعام النهار.

النصب : التعب.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر هذه القصة العجيبة إذ أعلم موسى عليه السلام فتاه وهما مسافران: أن سفرهما هذا سيستمر حتى يصلا إلى مجمع البحرين. وإذا لم يبلغاه عن قرب فسيواصلان متابعة الطريق حتى يصلا إليه. وبلغا فعلا مجمع ما بين البحرين دون أن يعلما أنه الموعد

الذي سيلقى فيه موسى الخضر عليه السلام الذي سيأخذ عنه العلم الذي فاتته معرفته. ونام موسى وبقي غلامه يقظان.

وتحرك الحوت في ذلك المكان وعادت له الحياة وسلك طريقه إلى البحر وأخذ يعوم في الماء. نسي موسى أن يتفقد الحوت، ونسي الفتى أن يخبر موسى بما حصل. فأنشأ السير من جديد إلى أن لحق التعبُ موسى عليه السلام من السير، وقد ارتفع النهار، فطلب من غلامه أن يعد الغداء وقال له : لقد انهكنا السير. وتذكر الفتى ما كان نسيه، فأعلم نبيه أنه لما اتخذا من الصخرة مكانا استراحا فيه وأخذ موسى فيه حظه من النوم، في ذلك المكان تحرك الحوت وخرج من المكتل وتوجه إلى البحر وعادت إليه الحياة كاملة، وأخذ يسبح في البحر على طبيعته كأنه لم يفارق الحياة أصلا. وواصل : إنه لأمر عجب.

بيان المعنى العام:

60- وإذ قال موسى لفتاه...أو أمضي حقبا.

اذكر للناس هذه القصة العجيبة التي تكشف عن نظام في الكون الذي لا يبلغ إلى الإحاطة به إلا رب العالمين. قد يقربنا من إدراك مشاهدها ما رواه الإمام البخاري رضي الله عنه في صحيحه. آثرت أن أنقله عنه.

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدثني أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا – فعَتَبَ الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه (أي لم يقل: الله أعلم) فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال موسى: يا رب كيف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ. فأخذ حوتا فجعله في مكتل، فانطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر – **فاتخذ سبيله في البحر سربا** – وأمسك الله عن الحوت جِرْيَةَ الماء فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**.– قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله به. فقال له فتاه : **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا**– قال : فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا. فقال موسى : **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا** – قال : رجعا

يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا، فسلم عليه موسى. فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ! قال: أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا- قال : إنك لن تستطيع معي صبرا - يا موسى إني على علم من علم الله علَّمَنِيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه، فقال موسى - ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا- فقال له الخضر :فإن اتبعتني فلا تسألن عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا. فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فعرَفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا. قال : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا -قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا -.قال : وقال رسول الله ﷺ، وكانت الأولى من موسى نسيانا قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينا هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. قال له موسى: أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا- قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا - قال وهذا أشد من الأولى- قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا- فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوها فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض - قال : مائل، فقام الخضر فأقامه بيده. فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا - لو شئت لاتخذت عليه أجرا - قال هذا فراق بيني وبينك - إلى قوله - ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا- فقال رسول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ؛ قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ -وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا - وكان يقرأ - وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين[1].

المشهد الأول: يخاطب موسى عليه السلام فتاه وهما يسيران، فيعلمه من أول الأمر أنهما سيواصلان سفرهما إلى أن يبلغا مجمع البحرين، أو أن يتابعا السير أزمانا. ومجمع

---

[1] فتح الباري ج10ص 25/24

البحرين مكان أوحى الله إلى موسى أنه يجد الخضر عنده، وهذا الرجل الصالح قد حصل على علم من عند الله لا يعلمه موسى. والذي فهمته من هذه الآية أن الله أعلم موسى أنه سيجد الخضر في مجمع البحرين، وأن موسى عليه السلام لا يعلم على وجه الدقة المسافة التي سيقضيها حتى يبلغ ذلك المكان، وأن الله قد أقام له أمارة عليه، هي أن تعود الحياة للحوت الذي تزود به، فيكون المعنى أنه سيواصل السير إلى أن يبلغ مجمع البحرين الذي يحيا فيه الحوت، فإن كان غير بعيد ظفر ببغيته، وإن كان بعيدا واصل السير إلى أن يلقاه. وفي هذا المشهد من العبر:

1)أن علم الإنسان مهما بلغ هو علم محدود، وأن وراء كل منزلة منزلة أسمى تتحرك الهمم الرفيعة لبلوغها، فإن موسى عليه السلام وهو من الرسل أولي العزم المقربين، تاقت همته العلمية إلى الاستزادة من المعرفة، والسفر ليلقى الرجل العالم الذي يكشف له ما جهله.

2) أن السفر مساعد على تحصيل العلم. ذلك أن الله كما خص كل ناحية من نواحي الكون بمنتجات لا تجدها في غيرها، فكذلك المعرفة والذكاء وزعتهما الحكمة الإلهية في الكون، ونال كل قوم ما كتب لهم. والسفر يكشف لطالب العلم ما يضمه لمخزونه المعرفي فيكتمل. وكانت الرحلة في طلب العلم بابا من أبواب النبوغ العلمي في الحضارة الإسلامية.

3) الأدب الذي يستفيده التالي في التعبير عن العلاقات البشرية، فالذي كان يصحبه موسى عليه السلام هو معين خادم له سواء أكان عبدا أو حرا، بدليل أنه طلب منه أن يعد لهما غداءهما مما استُحْفِظَ عليه. وسماه القرآن فتى : أي شاب. ثم إن موسى راعى كرامته البشرية، وأنه إنسان يصحبه لا دابة يركبها، فعرفه بقصدهما، ولم يقل احمل وسر ورائي.

61-فلما بلغا مجمع البحرين....في البحر سربا.

المشهد الثاني: موسى وفتاه يواصلان المسير، حتى توقفا عند صخرة على البحر. ويبدو في المشهد موسى، وقد هدهده النسيم اللطيف البحري فأثقل جفونه ونام. وبجانبه فتاه يقظان لم يأخذه ما أخذ سيده. ما كان أحدهما يظن أن ذلك المكان هو المكان المقصود.

و بينما هو نائم اضطرب الحوت في المكتل، وعادت له الحياة، واتخذ لنفسه طريقا إلى البحر فأخذ يعوم في الماء كشأنه قبل أن يكون زادا. ولما كانت حياة الحوت تمثل النقطة المرجعية في سفرهما، فإنه مع ذلك نسي موسى أن يتفقد الحوت بمجرد ما أفاق.ونسي غلامه أن يعلمه بما حصل.

62-فلما جاوزا قال لفتاه....من سفرنا هذا نصبا.

أفاق موسى عليه السلام، وما كان يظن أنه بلغ المكان الموعود، فنهض مواصلا سيره مع غلامه. وظهر على موسى الإعياء، وصَحِبَه الجوع وقد طلع النهار. فطلب من فتاه أن يعد لهما الغداء. وتلطّف عليه السلام في مخاطبة غلامه معللا طلبه ذاك بأنه قد تعب من مواصلة السير.

63- قال أرأيت إذ أوينا إلى....في البحر عجبا.

أفاق الفتى من غفلته وخاطب سيده قائلا: أخبرني هل أبصرت تلك الصورة الغريبة عندما كنا على الصخرة، فقد استولى علي النسيان وذُهِلْتُ، فنسيت أن أخبرك بما حصل. لقد أثر في الشيطان بما ملأ به مشاعري من المشاغل، والتفكير فيما أحياه في نفسي من الأمور التي حركها لتستولي على مداركي، حتى نسيت أن أخبرك بما جرى للحوت، فقد اتخذ الحوت طريقه عائدا إلى البحر الذي تم اصطياده منه. وإنه قد تملكني العجب مما رأيت وشاهدت.

و قد يتساءل المتابع لهذه القصة كيف يمكن أن ينسى الفتى إخبار سيده بهذا الأمر العجب بمجرد ما أفاق؟ يوضح ذلك أن قانون التذكر قانون معقد. إن اشتغال الذهن اشتغالا يصرفه عن تذكر الأمر المهم غير مستبعد، قد تجد المسافر وقد حزم أمتعته وسار إلى المطار، فلما حضر للتسجيل وجد نفسه قد نسي تذكرة السفر.وقد وقع مرة بحضوري أن الأب دخل إلى المنزل ليلا، ولما سئل عن ابنه الذي يصحبه من المدرسة تفطن عندها أنه نسيه.

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

ارتدا: رجعا من الطريق الذي سلكاه.

قصصا: يتابعون الطريق بانتباه حتى لا يخطئا.

آتيناه رحمة : رحمناه بتوفيقه، وجعلناه سبب رحمة للناس.

علما : وحيا يقينيا.

أتبعك : أصاحبك.

رشدا : خيرا.

تحط: تتمكن.

خبرا: علما.

ذكرا: أبين لك باللسان.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يعنف موسى فتاه، وتهلّل وجهه للخبر، وقال إن المكان الذي عاد فيه الحوت حيا إلى البحر هو المكان الذي نريده. فلنعد ملتزمين الطريق الذي سلكناه بعد نومي، حتى نبلغ مجمع البحرين وسارا. فوجدا عنده رجلا صالحا تخيره الله،وأفاء عليه من القرب ما نسبه به إلى نفسه (من عبادنا) وميزه بما أعطاه من العلم الخاص الذي لم يمكن منه البشر بما أوتوه من قوى العقل والإدراك.

عرض موسى على هذا الرجل الصالح العالم، أن يصحبه ليأخذ عنه العلم الذي خصه به الله والذي فيه خير كثير.

كان رد الخضر: يا موسى إن الشرط الذي يبلغ به طالب العلم المعرفة الواضحة غير متوفر فيك، يا موسى إنه الصبر، وأنت لا تستطيع أن تصبر على أمور تراها أمام ناظرك، ولم يبلغ مستوى علمك إدراك كنهها. إذ شأن الإنسان أن تتحفز جميع قواه أمام المجهول وتنبعث غريزة حب المعرفة قوية دافعة حسب الطبع.

ولما كان موسى من الرسل أولي العزم، لم ير في جواب الخضر ما يحرمه من التعلم منه، فهو من أشد الناس صبرا. فقال له: كن مطمئنا فستجدني بفضل الله وعونه صابرا لا أشوش عليك متعجلا. وأيضا فسأكون لك مطيعا لا أعصيك فيما تطلبه مني، فقد جمعت بحمد الله الوصفين الأساسيين في التعلم " الصبر والطاعة "

كان جواب الخضر بعد هذا التأكيد: أن الشرط بيني وبينك: أنك تسكت ولا تبادر بالسؤال عن أي شيء أقوم به، وتنتظر الوقت الذي أراه أنا مناسبا لأبين لك سر عملي، عِلَلَهُ وغاياته.

بيان المعنى العام :

64- قال ذلك ما كنا نبغ ... آثارهما قصصا.

المشهد الثالث : قبل موسى عذر فتاه ولم يعنفه، بل صرح له أنها بشارة منه لمَا كان يطلبه وسافر من أجله، وبدت علامات الاستبشار على وجهه، لقد تحققت

الأمارة التي أوحى الله بها إليه : أن الخضر تجده في المكان الذي يعود فيه زادكم من الحوت إلى البحر حيا. وتبرزه الآية وقد ولى ظهره وقفل راجعا متبعا الخط الذي سار فيه متثبتا من ذلك حتى لا يخطئ المكان الذي خرجا منه بعدما أخذه النوم.

65- فوجدا عبدا من عبادنا....من لدنا علما.

المشهد الرابع: اللقاء المرتقب عند مجمع البحرين، بين موسى وبين الخضر، ويصوره القرآن بأنه عبد من عباد الله، كرَّمه الله فنسبه لنفسه تشريفا له وتمييزا من عبادنا) وتفصل الآية شيئا من مزاياه أن الله أسبغ عليه رحمته فقدر أن يكون موفقا فيما يختاره، وينتفع به غيره من آثار تلكم الرحمة. ومع الرحمة في السلوك والاختيارات ونفع الناس به، علمه الله بوحي منه علما صادرا من مكنون العلم الإلهي الذي لا ينال بالحواس ولا بالعقل. وهو العلم اللدُنِّي. وسيظهر لنا بمتابعة القصة خصائص هذا العلم.

66- قال له موسى هل أتبعك...مما علمت رشدا.

بعد التعرف المطوي في القصة، يفتتح التسجيل لما دار بينهما.

موسى: هل تسمح لي بأن أتبعك وأصحبك على أن أتعلم منك مما علمك الله من الخير، فمصاحبة موسى للخضر مشروطة بأن يعلِّمه ولا يكتمه ما خصه الله به من العلم. هذا العلم الذي هو غير علم التشريع وإصلاح المجتمع الذي مكن الله منه موسى بما أوحاه إليه وبما تضمنته التوراة. وإنما هو علم آخر مغيَّب عن البشر لا يدرك سره إلا بتبصير من الله.

67-68: قال إنك لن تستطيع...على مالم تحط به خبرا.

الخضر: بكل تأكيد لن تستطيع أن تصبر على ما ستشاهده معي، يشير إلى شدة غرابته وخروجه عن المألوف المتعارف. ذلك أن موسى عليه السلام يطبق الشرع الذي يحكم بالظاهر، فيقبل ويقر ما ظاهره معروف، ويرفض ما ظاهره منكر. والخضر مفتوح عليه، فقد يفعل ما هو في النظر الأول منكر وفي العاقبة حسن ومعروف، وبالعكس. ويبدو هذا التأكيد لفظا بكلمة (إنَّ) وكلمة (لَنْ) ووصياغة بدخول النفي على صبرا المفيد أن كل رتب الصبر منفية. وواصل بأنك معذور إن كان صبرك لا يتحمل السكوت عما ترى. إذ كيف تستطيع أن تسكت صابرا على أمور لا تقرها عند حدوثها لكونها منكرة، ولا تعلم مآلاتها الصالحة إذ هي من الغيب المستور. فكيف تصبر على ما لم تبلغ العلم به ؟ ويؤول الاستفهام إلى: أنت لا تصبر.

69 - قال ستجدني إن شاء الله...ولا أعصي لك أمرا.

موسى: كن مطمئنا فإنك ستجدني ملتزما بالصبر، لا أغير عليك شيئا مما تقوم به. كان الخضر يخشى أنه إن صحب موسى، وهو مكلف بإنجاز ما يراه الأصلح من الأفعال الخفية مصلحتها عمن لم يحصل له العلم الذي علمه الله إياه، قد يفسد عليه أمره بالإسراع إلى الإنكار، خاصة وشخصية موسى عليه السلام كما قدمها القرآن في أكثر من موقف شخصية شديدة في الحق. وعطف موسى على التزامه بالصبر وعدم العجلة، أنه سيظهر منه في صحبته الطاعة له. فعبر موسى عن عزمه على أن يتعلم من الخضر" وهو من الرسل أولي العزم "، وأنه لذلك أظهر أنه ملتزم بالوصفين الأساسيين للتعلم، الصبر على تحصيل العلم، بعدم التسرع لإدراك الغايات من أول الأمر، وثانيا الطاعة للمعلم الصالح الذي يرعى ما يبلغ من يأخذ عنه العلم، مستوى التحصيل والاقتناع.

70- قال فإن اتبعتني...حتى أحدث لك منه ذكرا.

الخضر :أكد ما عرضه أولا، بعد سماعه ما يطمئنه من موسى أنه لا يفسد عليه بعجلته وتدخله فيما يقوم به، فبين ما يعنيه من قوله : إنك لن تستطيع معي صبرا- فقال : إنك إن صحبتني فلا تسألني عن أي شيء يحصل مني، وإن بدا لك أنه غريب وغير مقبول، وانتظر الوقت الذي أراه مناسبا لأكشف لك عن مبانيه وغاياته فأحدثك بما يعرفك بما قمت به ما يكشف غوامضه وعلله " لاحِظْ واسْكُتْ "

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخرق : الثقب والشق.

الإمر : الفظيع

ولا ترهقني : ولا تكن شديدا علي.

زاكية: طاهرة.

نكر: لا تقبله العقول وتستهجنه.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن قبل موسى شروط الصحبة، أخذا يسيران على سِيف البحر، وكانت سفينة قريبة منهما فطلبا من نوتيتها أن يحملوهما معهم. وبمجرد ما ركبا انتحى الخضر ناحية وأحدث ثقبا فيها. سارع موسى بالإنكار عليه إن فعلتك هذه ستعرض السفينة وركابها للغرق فكيف تسيء إليهم، وهم قد أحسنوا إلينا، إن هذا أمر فظيع. ذكَّره الخضر بما سجله عليه من أول الأمر: أنه لا يستطيع أن يصبر على ما يراه مما هو مرفوض بداهة. طلب منه موسى أن لا يؤاخذه، لأنه نسي وصاته، وأن لا يعامله بشدة.

صفح الخضر عنه وسارا معا حتى لقيهما غلام، فأسرع الخضر وقتل ذلك الغلام، لم يصبر موسى على كبيرة قتل غلام لم يقتل نفسا، وغير مكلف، وصفحته ما تزال غير ملوثة بالآثام. وصرح بأنه هذا أمر منكر.

بيان المعنى العام :

71←73:فانطلقا حتى....ولا ترهقني من أمر عسرا.

المشهد الخامس : بعد أن تم الاتفاق بينهما والالتزام من كل طرف للآخر: موسى بالصبر وعدم المبادرة بالسؤال، والخضر بالتعليم والبيان في الوقت الذي يراه مناسبا.

الصورة : اصطحبا وسارا على سيف البحر، ومرت بجانبهما سفينة فطلب الخضر من نوتيتها أن يحملاهما على سفينتهم. وبمجرد ما استقرا على ظهرها أخذ الخضر آلة حادة وأحدث بها ثقبا ؛ وموسى يشهد ويستغرب كيف إن أصحاب سفينة حملوهم معهم ولم يشترطوا عليهم مقابلا لحملهم، وأحسنوا قبولهم، والسفينة مورد رزقهم، كيف يحدث فيها ما يعرضها وركابها إلى الغرق والموت. وموسى رسول من رسل الله قويت فيه ملكة النهي عن المنكَر؛ فبادر بالاعتراض على الخضر وقال له في صيغة المنكِر لفعله: إن ما فعلتَهُ غير مقبول كيف تخرق سفينة أكرمنا أصحابها، فتجازيهم بتعريضهم للغرق، إن هذا أمر فظيع غير مقبول.

وبمقدار ما كان يلوح على موسى من الغضب، كان في المقابل يبدو على الخضر الهدوء، فأجاب : أسألك لأثير ذاكرتك، ألم أخبرك عندما طلبت أن تصحبني، أنك لا تملك القدر من الصبر الذي تستطيع به عند مصاحبتي ومشاهدة ما أصنع، أن تسكت وتنتظر ؟

اعترف موسى بتسرعه، وطلب من معلمه الصفح وعدم المجازاة والمؤاخذة على تسرعه بالاعتراض، وعلى نسيانه ما التزم به، ففي مضمون كلامه ما يدل على أن

نسيانه قد يعرضه لإقصائه عن مصاحبة الخضر. لا تُضَيِّق علي ولا تعاملني بشدة.

74- فانطلقا حتى إذا لقيا....لقد جئت شيئا نكرا

المشهد السادس: قبل الخضر ما اعتذر به موسى، ونزلا من السفينة وواصلا السير. ويعترضهما في طريقهما غلام، فَيُقْدِمُ الخضر على لي عنقه وقتله. وتملك العجب موسى من فعل الخضر. فهذا غلام ما يزال في بواكير صباه غير مكلف وبالتالي لم يرتكب ذنبا، وما تزال صفحة أعماله نقية، ولم يقتل نفسا حتى يؤاخذ بالقصاص. ولم يحتمل موسى وهو الرسول الكريم أن يُهْدَرَ أصل من أصول شريعته وشرائع جميع المرسلين (التعدي على الحياة)، فبادر بإنكار هذا الفعل وخاطب الخضر بقوله : كيف سمحت لك نفسك أن تقتل نفسا طاهرة في غير قصاص ؛ إن ما فعلته أمر منكر. وعبر عن الأول بأنه "إِمْر"، وعن هذا بأنه منكر. فاختلف في أي التعبيرين كان أشد ؟ الأول خرق السفينة وهي تسير في البحر بركابها فظيع " لأن فيه هلاك جماعة لا فرد" ولم يتحقق ضرره ولكنه متوقع، وأما هذا الفعل قد تحقق ضرره في الخارج والقتيل واحد. فاختلفت الأنظار تبعا لذلك.

الفهـــــرس

سـورة التوبة : 3
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ .... لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (93←96): 3
الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (97←100) : 5
وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (101←105): 8
وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106←110): 11
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (111←112): 15
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ... وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (113←116): 19
لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (117←121): 21
وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا ... بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (122←127): 25
لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ((128←129): 29

سـورة يونس : 32
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (1←4): 32
هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ... أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (5←10): 36
وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ ... لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (11←14): 39
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ... سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (15←18): 42
وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ... إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (19←21): 45
هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .... بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (22←23): 47
إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (24←27): 50
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28←30): 53
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (31←36): 55
وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (37←44): 60
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ... أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (45←49): 64
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ...هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (50←56): 67
يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ .... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (57←60): 70
وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ ... إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61←65): 73
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (67←70): 77

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ... كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (71←74): 80
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (75←82): 82
فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ... مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (83←86): 86
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ... وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (87←89): 88
وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ... فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (90←93): 91
فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ... حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (94←97): 94
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ...كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (98←103): 97
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (104←109): 101

سـورة هود: **105**
الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (1←6): 105
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7←11): 108
فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى .... فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (12←14): 112
مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (15←17): 114
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (18←24): 117
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (25←31): 120
قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ... وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (32←35): 124
وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ ...وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (36←40): 126
وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ... وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41←44): 129
وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ... فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (45←49): 131
وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ ...إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (50←57): 134
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ... أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (58←60): 139
وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ ... أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (61←68): 140
وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ... إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (69←73): 144
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ...وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (74←76): 147
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (77←83): 148
وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ ... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (84←87): 152
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ... كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (88←95): 155
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ... وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (96←99): 159
ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ... وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (100←109): 160
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (110←115): 164
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (116←123): 167

سـورة يوسف: 172
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (1←6): 172
لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ... إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (7←10): 176
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ... وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11←15): 178
وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ... وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (16←18): 181
وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ...وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (19←20): 182
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ... وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (21←22): 183
وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ... إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (23←29): 185
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ... لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (30←35): 190
وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ...فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (36←42): 194
وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ... وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (43←49): 198
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ... إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (50←53): 201
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ...وَكَانُوا يَتَّقُونَ (54←57): 203
وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (58←62): 205
فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا ... وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (63←67): 207
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (68←76): 210
قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (77←82): 215
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ... وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (83←86): 217
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ... وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (88←93): 220
وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ ... إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (94←98): 224
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ...وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (99←101): 225
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ... وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (102←106): 228
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (107←108): 229
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (109←111): 231

سـورة الرعد: 234
المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (1←4): 234
وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (5←7): 238
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ... وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (8←11): 241
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا ... بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (12←15): 245
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (16←18): 248
أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ... وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (19←25): 253
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ...هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (26←30): 258

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31):.....261
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ... وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (32←35):.....262
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ... يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (36←39):.....266
وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ... وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (40←43):.....270

سـورة ابراهيم:.....274
الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ... أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (1←3):.....274
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ... فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (4←8):.....276
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (9←12):.....281
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ... وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (13←17):.....285
مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ... خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (18←23):.....287
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ ... وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (24←27):.....291
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ... أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (28←31):.....294
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (32←34):.....296
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ... فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (35←38):.....299
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي ... يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (39←41):.....302
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا... وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (42←46):.....303
فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ ... وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (47←52):.....306

سـورة الحجر:.....310
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ... وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (1←5):.....310
وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ... وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (6←9):.....313
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (10←15):.....315
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (16←22):.....317
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ... وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (23←27):.....321
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ... وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (28←35):.....324
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ... لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (36←44):.....326
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (45←48):.....329
نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ...إِلَّا الضَّالُّونَ (49←56):.....331
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ... أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (57←66):.....333
وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (67←77):.....335
وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ... مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (78←84):.....338
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (85←89):.....339

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ... وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (90←99): 343

سـورة النحل: 349
أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ... عَمَّا يُشْرِكُونَ (1←3): 349
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ... وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (4←9): 352
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ...إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (10←18): 358
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ... إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (19←23): 364
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ ... خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (24←29): 366
وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ... مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30←34): 371
وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (35←37): 375
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ... كُنْ فَيَكُونُ (38←40): 378
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ...وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (41←42): 381
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (43←47): 382
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (48←50): 385
وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ ... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (51←55): 387
وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (56←60): 390
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ... وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (61←64): 393
وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (65←67): 396
وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (68←69): 399
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ... هُمْ يَكْفُرُونَ (70←72): 402
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73←76): 405
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (77←78): 409
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ ... وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (79←83): 410
وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (84←88): 414
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89): 417
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (90←94): 419
وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (95←96): 427
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ... وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (98←100): 429
وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (101←105): 431
مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (106←111): 434
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (112←115): 438
وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ... إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (116←119): 442
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120←123): 444

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا ... فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124):..... 447
ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (125←128):..... 448

سـورة الاسراء :..... 453
سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ... إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1):..... 453
وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ...وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (2←8):..... 458
إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...عَذَابًا أَلِيمًا (9←10):..... 464
وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ... حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (11←15):..... 465
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ... مَدْمُومًا مَخْذُولًا (16←22):..... 469
وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ... مَلُومًا مَدْحُورًا (23←39):..... 475
أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ... إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (40←44):..... 491
وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ... فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (45←48):..... 494
وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ... إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (49←52):..... 496
وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (53←55):..... 498
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ... وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (56←59):..... 501
وَإِذْ قُلْنَا لَكَ ....وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (60←65):..... 504
رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ ... مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (66←70):..... 509
يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ... وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (71←77):..... 513
أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ... وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (78←82):..... 518
وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ... إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (83←87):..... 522
قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ... إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (88←93):..... 526
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا ... وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (94←100):..... 530
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ... مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (101←105):..... 535
وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ ...وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (106←109):..... 537
قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ... وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (110←111):..... 539

سـورة الكهف :..... 543
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ ...صَعِيدًا جُرُزًا (1←8):..... 543
أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ... مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (9←15):..... 547
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (16←18):..... 552
وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا ... وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (19←20):..... 554
وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ... لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (21←24):..... 556
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ ... فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (25←26):..... 561

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ... وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (27←29): 563
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (30←31): 567
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ... لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (32←36): 568
قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ... فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (37←41): 571
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ... خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (42←44): 572
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (45←46): 574
وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (47←49): 576
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ... وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (50←53): 577
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ... وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (54←57): 581
وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ... وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (58←59): 584
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ ... وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (60←63): 586
قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ... حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (64←70): 590
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ... شَيْئًا نُكْرًا (71←74): 593